



سِرَاجُ الْمُلُوكِ

لِلإِمَامِ الْعَالِمِ الْعَلَامَةِ
أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْوَلِيدِ الْفَهْرِيِّ الظَّرْطُوشِيِّ الْمَالِكِيِّ
(المتوفى سنة ٥٢٠ هـ - رحمه الله تعالى)

حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ
د/نِعْمَانُ صَالِحُ الصَّالِحِ

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
السنة النبوية الفروسي

www.moswarat.com

مِثْرَاجُ الْمُلُوكِ

للإمام العالم العلامة
أبي بكر محمد بن محمد الوليد الفهري الطرطوشي المالكي
(المتوفى سنة ٥٢٠هـ - رحمه الله تعالى)

حققه وعَلَّق عليه
د/نعمان صالح الصالح



دار الحديث للنشر والتوزيع - الرياض

دارالغازية للطباعة والنشر ١٤١٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

الطرطوشي ، محمد بن الوليد

سراج الملوك / شرح وتعليق نعمان صالح الصالح

٦٤٨ ص ، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك : ١-١-٠١-٨١٠-٩٩٦٠ ISBN

١- الملوك والحكام ٢- الوعد والإرشاد ٣- الأدب العربي - مجموعات

أ- الصالح ، نعمان صالح (شارح) ب- العنوان

ديوي ٨٠٨، ٨١٠

١٥/١٣٩٠

رقم الإيداع : ١٥/١٣٩٠

ردمك : ١-١-٠١-٨١٠-٩٩٦٠

سراج الملوك

للإمام العالم العلامة

أبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي

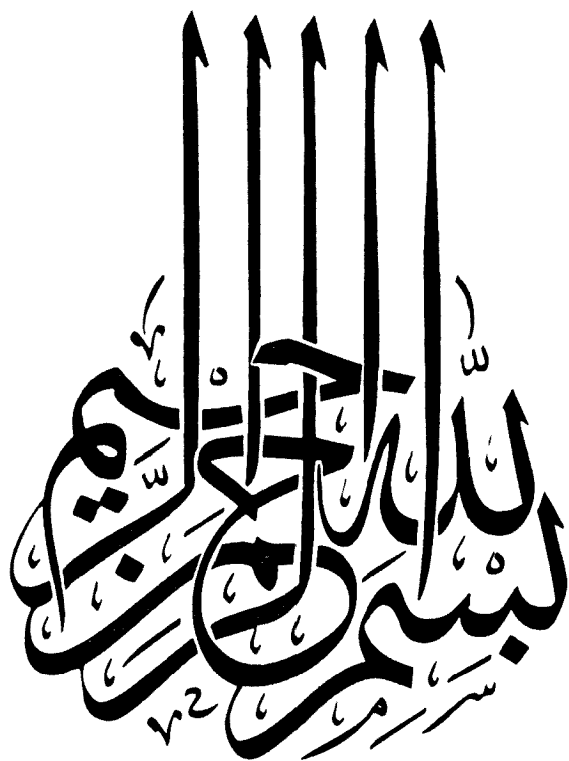
الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

حقوق الطبع والنشر محفوظة لـ :
دار العاذرية للطباعة والنشر والتوزيع
صندوق بريد ٦١٨٤٦ الرياض ١١٥٧٥

* * *

توزيع الدار الثقافية للنشر - القاهرة
صندوق بريد ١٣٤ بانوراما ١١٨١١



الإهداء

إلى من اتصلت به مودتي وطالت معه صحبتي ، منذ أن كان طفلا يافعا وحتى صار عضوا عاملا ورمزا بارزا من رموز هذا الوطن المعطاء ، الذي كان لي شرف مرافقته كمدرس له في كل مراحل دراسته ؛ في الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعية ، ولازمته في سفره وإقامته وحله وترحاله كواحد من وفده وصحبه ، إلى صاحب السمو الملكي الأمير عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز آل سعود أهدي هذا الكتاب .

وإلى من شاركتني رحلة العمر صابرة عليّ متحملة بعزيمة الرجال أعباء الأسرة والأولاد أيام أسفاري الكثيرة ، فكانت تضم أطفالنا إلى صدرها ولا تنام إلا حين يصحون مع تباشير الصباح . إلى الزوجة الغالية والأم الرؤوم ، إلى أم حسام أهدي هذا الكتاب .

وإلى من أرى فيهم نور الأمل وينبوع الحياة ، الذين حصّنتهم بحصن الدين ، وسلحتهم بسلاح الإيمان واليقين . فالتزموا شرع الله تعالى واتبعوا هدي رسوله ﷺ ، وبذلك أمنت عليهم من الضياع وضمنت لنفسي بإذن الله عملا صالحا بعد الممات ... إلى ابنتي وسام وأولادي حسام وحسان ومحمد وأحمد أهدي هذا الكتاب .

نعما الصالح

مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي عنت الوجوه لسلطانه، والشكر له سبحانه على توفيقه وامتنانه، والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة، المصطفى من خلقه. والمجتبى من رسله، دليلنا إلى مواطن الهدى، ومُجَنَّبنا مزلق الردى.. وبعد:

فهذا كتاب «سراج الملوك» للإمام العالم العلامة «أبي بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشي المالكي»، كتاب في السياسة والإدارة، جمع فيه - يرحمه الله - أحسن ما انطوت عليه سير الأنبياء والحكماء. والملوك والخلفاء. والعلماء والأدباء، والصالحين والأولياء، من آثار وحكم. وآداب ومواعظ، وحكايات ونوادر، وأشعار وقصص... تجد بين طياته مواعظ للملوك والسلاطين. ونصائح للولاة والقضاة. وصفات للوزراء والجلساء. وما يصح به الأمير والرئيس والمرؤوس. وما يشترط في صحبة السلطان... وغير ذلك مما يدخل في باب الأدب والإدارة، والأخلاق والسياسة...

إنه كتاب من أمتع الكتب وأجودها في بابها، كما شهد بذلك الكثير من العلماء والأدباء، كتاب - كما قال مؤلفه - يستغني بدراسته الحكيم عن مباحثة الحكماء، والملوك عن مشاورة الوزراء، فلم يسمع به ملك إلا استكتبه، ولا وزير إلا استصحبه، ولا رئيس إلا استوسده، حصن لمن تحصن به من أولي الأمر، وجمال لمن تحلى به من أهل الأدب، قدّمه المؤلف هدية إلى وزير الديار المصرية، والدولة العبيدية، الوزير أبي عبد الله المأمون محمد بن أبي شجاع البطائحي، مشفوعاً بهذين البيتين من الشعر:

الناس يهدون على قدرهم لكنني أهدي على قدري
يهدون ما يفنى وأهدي الذي يبقى على الأيام والدهر

وقد وقعت بين يدي صاحب السمو الملكي الأمير عبد العزيز بن فهد ابن عبد العزيز آل سعود - المعروف بولعه الشديد بالتاريخ الإسلامي وكتب التراث والمخطوطات - نسخة طبعة قديمة غير محققة ومؤرخة بسنة ١٣١٩ هـ من كتاب «سراج الملوك» - لأبي بكر الطرطوشي - وبهامشها كتاب

التبر المسبوك في نصائح الملوك - لأبي حامد الغزالي» فاستهوى الكتاب طموحة، ولكنه مطبوع بطريقة بدائية وقديمة، سطره متلاصقة، وفقراته متلاحقة، يصعب معها الاستفادة من مضمونه وفحواه، وقد رغب سموه الكريم في إعادة طباعة الكتاب ونشره بطريقة تتلاءم مع أهميته وقدره، فعهد إلي بهذه المهمة، فاستجبت لرغبته بكل سرور، خاصة وأن الطلب جاء وفق بغيتي، ويحقق ضالتي في البحث والتنقيب والتحقيق، فقامت أولاً بتحقيق كتاب «التبر المسبوك في نصائح الملوك لأبي حامد الغزالي»، وأنهيت ذلك العمل في فترة قياسية، حيث كنت متفرغاً له في تلك الفترة من عام ١٤١٥ للهجرة، ثم بدأت العمل في شرح كتاب «سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي» ولكنني واجهت صعوبات عدة في إتمامه بتلك السرعة المرجوة، منها ما يتعلق بظروف خاصة بي، ومنها ما يتعلق بحجم الكتاب وضخامته، والحرص على إخراجه بأفضل صورة وأتم هيئة، وأخيراً هياً الله تعالى لي العزم والصبر والقوة، وأنهيت العمل في هذا الكتاب وعلى هذه الصورة التي بين أيديكم، والتي أرجو الله تعالى أن تكون خالصة لوجهه الكريم، وأن يحقق بها النفع والفائدة. إنه نعم المولى ونعم النصير.

* * *

وصف نسخ التحقيق

وصف المطبوعة:

لقد سبق أن طُبِعَ كتاب «سراج الملوك» عدّة مرات وبدون تحقيق ، حيث طبع في المطبعة الوطنية بالإسكندرية سنة ١٢٨٩هـ كما ذكر في كتاب (اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، تأليف : أدورد فنديك ، دار صادر - بيروت - ١٨٩٦م) .

ثم طُبِعَ في المطبعة الأزهرية المصرية عدّة طبعات :

- طُبِعَ أولاً سنة ١٣٠٦ هـ .

- ثم طبع على هامش مقدمة ابن خلدون سنة ١٣١١ هـ ، ونسخة هذه الطبعة متوفرة لديّ ، وقد استأنستُ بها عند التحقيق .

- وأعيدت طباعته سنة ١٣١٩ هـ وبها مشه كتاب التبر المسبوك في نصائح الملوك للإمام الغزالي يرحمه الله ، ونسخة هذه الطبعة هي التي جعلتها الأصل في هذا التحقيق ، فهي المهداة إلى سموه الكريم وهي الأوضح من المتوفر بين يدي ، وقد اشتملت هذه النسخة على عيوب كثيرة ؛ حيث أنّ سطورها متلاحقة وفقراتها متلاصقة ، لا فواصل بين الأبواب ، ولا علامات توضح انتهاء فقرة وابتداء أخرى ، مع كثرة الأخطاء المطبعية والإملائية ... وغيرها من الملاحظات التي يصعب معها الاعتماد عليها وحدها في إعادة طباعة هذا الكتاب ، والانتفاع به والاستفادة من نصوصه .

وقبيل نشر هذه الطبعة اطلعتُ على طبعتين محقتين للكتاب ، إحداهما للكاتب العراقي الأستاذ جعفر البياتي ، صادرة عن دار رياض الرئيس ومؤرخة بسنة ١٩٩٠م ، و الطبعة الأخرى للأستاذ محمد فتحي أبو بكر وتقديم الدكتور شوقي ضيف ، صادرة عن الدار المصرية اللبنانية ومؤرخة بسنة ١٩٩٤م .

وصف المخطوطات:

هناك مخطوطات كثيرة لكتاب (سراج الملوك) منتشرة في جميع أنحاء العالم، في مكتبات باريس وروما والنمسا وهولندا وبريطانيا والمغرب ومصر والجزائر والسعودية... وأحيانا تجد في المكتبة الواحدة أكثر من نسخة، كما وجدت ذلك في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات في الرياض، حيث اطلعت على صور سبع مخطوطات للكتاب، أصلها محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس، وتحمل الأرقام من (٢٤٣١ - ٢٤٣٧)، اكتفيتُ بها، ولما وجدت بعضها ناقص الصفحات، وبعضها سيئ الخط، والبعض الآخر مقبول ومقروء، استثنيتُ ثلاثة منها واخترت أربعة هذا وصفها:

(١) المخطوطة الأولى: ورمزها (خ ١):

مسجلة تحت رقم (٢٤٣٤)، وعدد أوراقها ٢٤٦ ورقة بواقع ١٥ سطرا في كل صفحة، منسوخة بخط النسخ الواضح وغير المشكول ويظهر عليها اسم الناسخ وهو الشيخ عبد الرحيم العباسي خطيب البصرة وذكر في نهايتها أنه انتهى من نسخها في السابع من ربيع الآخر سنة ٨٤١ هـ.

(٢) المخطوطة الثانية: ورمزها (خ ٢):

مسجلة تحت رقم (٢٤٣٥) وعدد أوراقها ٢٦٣ ورقة بواقع ١٧ سطرا في كل صفحة، كتبت بخط النسخ الجميل وضبطت بالشكل بكاملها، كما تميزت بحسن الترتيب والتنميق، ويوجد بأولها لوحة جميلة خلت منها جميع النسخ الأخرى.

ويظهر أن هناك من راجع هذه النسخة حيث وجدتُ بعض التصويبات على هامش النص، ولكن لم يظهر عليها لا اسم الناسخ ولا المراجع ولا حتى تاريخ النسخ، وقد قدر الدكتور عابد المشوخي خبير المخطوطات في المركز تاريخ نسخها في القرن الثامن الهجري.

(٣) المخطوطة الثالثة: ورمزها (خ ٣):

مسجلة تحت رقم (٢٤٣٦) وعدد أوراقها ٢٣ ورقة بواقع ١٩ سطرا في كل صفحة، والنص مكتوب بخط النسخ، غير مضبوط بالشكل وبعض كلماتها غير واضحة، وذكر الناسخ عمر بن عبد الرحمن المؤذن، أنه انتهى من نسخها في العشرين من شعبان سنة (٨٧٠) سبعين وثمانمائة للهجرة، وهذه النسخة مراجعة من طرف الشيخ: برهان الدين الحنفي الشاذلي كما هو واضح في آخر ورقة من المخطوطة.

(٤) المخطوطة الرابعة: ورمزها (خ ٤):

مسجلة تحت رقم (٢٤٣٧) وعدد أوراقها ٢٢٢ ورقة بواقع ٢١ سطرا في كل صفحة، منسوخة بخط النسخ الجميل الواضح والغير مشكول، مع ترتيب وتنسيق لطيف، وإشارة واضحة إلى نهاية باب وابتداء آخر، وذكر الناسخ / أحمد بن بركات بن عمارة أنه انتهى من نسخها في ليلة الثلاثاء الليلة التاسعة والعشرين من جمادى الآخرة سنة (١٠٠٧) سبع وألف، وذلك بالمدرسة السليمانية بمقام قسطنطينية المحمية.

* * *

عملي في الكتاب

أهم ما قمت به من عمل في هذا الكتاب ما يلي:

١ - كان أول عمل قمتُ به بعد اختياري لطبعة المطبعة الأزهرية المصرية لسنة ١٣١٩ هـ أساساً في التحقيق، الاعتماد على صورة المخطوطة المحفوظة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات بالرياض برقم (٢٤٣٥) ورمزها (خ٢) كأصل ثانٍ في التحقيق، وذلك لما تميزت به هذه النسخة من:

- اكتمال في النص.
- وضوح وجمال في الخط.
- الضبط الكامل للنص.
- مقابلتها بنسخ أخرى كما يظهر ذلك في حواشي النص.
- خلوها من الأخطاء الإملائية والنحوية إلا ما ندر.

مع ملاحظة عدم الاعتماد الكامل على هذا الضبط، وعدم إهمال النسخ الأخرى، فعند التحقيق كنت أعرض النسخ على بعضها، ثم أقوم بمقابلة المطبوع على المخطوط، فإن وجدت اختلافاً بينها، أو نقصاً في بعضها، أعود إلى بقية النسخ لمقارنتها، وأخذ ما يتناسب مع المعنى وأثبتته، ثم أشير في الهامش إلى ذلك، وكنت أشير إلى المطبوعة بحرف «ط» وإلى المخطوطة المختارة بحرف «خ» فإذا كان الاختلاف بين المخطوطات، أشير إلى رقم المخطوطة هكذا (خ١) أو (خ٢) أو (خ٣) أو (خ٤).

٢ - كتبت مقدمة للكتاب، ضممتها الباعث على تحقيقه، كما عرفتُ من خلالها بالكتاب ومضمونه وغايته، ووصف نسخ التحقيق المطبوعة منها والمخطوطة.

٣ - كتبت ترجمة للمصنف «أبي بكر الطرطوشي» عرفتُ من خلالها بشخصه وبلده، وعلمه، ومكانته، وفضله، وكتبه، وعصره، وشيوخه، وطلابه... ترجمة تفي بالغرض وتحقيق الهدف. وأشارت إلى المراجع التي

تعين من أراد الاستزادة على ما ذكرته عن سيرته . كما كتبت ترجمة أخرى لمن حظي بالإهداء ، وهو الأمير نظام الدين المأمون أبي عبد الله محمد ابن البطائحي .

٤ - ترجمتُ للكثير جدا من الأعلام الذين ورد ذكرهم في الكتاب ، من الخلفاء والعلماء والأمراء والحكام... ترجمة موجزة تفي بالغرض ولا تثقل هوامش الكتاب ، معتقدا أن مثل هذه الترجمة تساعد على فهم المطلوب واستيعاب المقصود .

٥ - عزوتُ الآيات القرآنية التي استشهد بها المصنف إلى مواضعها من السور في القرآن الكريم ، فذكرت اسم السورة ورقم الآية منها .

٦ - خرَّجتُ الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في الكتاب ، أو على الأقل أشرت إلى أماكن وجودها في الكتب ودرجة صحتها... وما لم أشر إليه منها فهو من الأحاديث الضعيفة ، التي لم أعثر على أصل لها في الصحاح من الكتب .

٧ - شرحت ما استغرب معناه من الألفاظ والكلمات ، أو ما وجدت أنه بحاجة إلى شرح وتوضيح ، معتمدا في ذلك على كتب اللغة والمعاجم المتخصصة .

٨ - قمت بوضع الهمزات وعلامات الترقيم بأنواعها المختلفة ، حيث خلت منها النسخة المطبوعة ، كما قمت بضبط الكلمات التي أرى من اللازم ضبطها ، تيسيرا على القارئ و دفعا للالتباس في المعنى .

٩ - وضعت في نهاية الكتاب فهراس لآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وأبيات الشعر الواردة في الكتاب ، وكذلك وضعت فهراس للمواضيع والأعلام والأماكن والقبائل التي ورد ذكرها في الكتاب ، ومراجع البحث والتحقيق ، وفهرسا شاملا للموضوعات ، وذلك تسهيلا على القارئ وإرشاده إلى ما يهيمه الرجوع إليه منها .

* * *

أبو بكر الطرطوشي

٤٥١ - ٥٢٠ هـ

١٠٩٥ - ١١٢٦ م

الإمام العالم، والفقيه الزاهد، شيخ المالكية، العلامة: أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي، المعروف بابن أبي رندقة^(١).

والطرطوشي: نسبة إلى طرطوشة (بضم الطاء الأولى أو فتحها وضم الثانية)، حيث كانت ولادته فيها سنة إحدى وخمسين وأربعمائة للهجرة، وهي آخر حد المسلمين من شمالي الأندلس، شرق بلنسية وقرطبة، مدينة جميلة متقنة العمارة، استولى عليها الإفرنج سنة ٥٤٣ هـ^(٢).

كان يُعرف في بلده بابن أبي رندقة (بفتح الراء وسكون النون وفتح الدال المهملة والقاف)، قال ابن خلكان: رندقة: لفظة أجنبية، سألت بعض الإفرنج عنها فقال: معناها «رد تعال»^(٣).

نشأ الطرطوشي وتلقى علومه الأولى في طرطوشة، وتنقل في بلاد الأندلس يتتلمذ على علمائها يأخذ عنهم العلم والفقه والأدب، فقد صحب القاضي أبا الوليد الباجي الفقيه المالكي المشهور (سليمان بن خلف) بمدينة سرقسطة، وأخذ عنه مسائل الخلاف، وأجاز له روايتها، كما قرأ الأدب على أبي محمد ابن حزم بمدينة أشبيلية، وأتقن الفرائض والحساب بوطنه.

(١) اعتمدت في كتابة هذه المقدمة على المراجع التالية، ومن أراد المزيد من أخباره بإمكانه الرجوع إليها وهي: وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٤ ص ٢٦٢ وما بعدها، سير أعلام النبلاء ج ١٩ ص ٤٩١، وأعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي للشيبال ص ٥٠، والصلة لابن بشكوال ج ٣ ص ٨٣٨، والأعلام للزركلي ج ٧ ص ١٣٣، ومعجم المؤلفين لعمر كحالة ج ٣ ص ٧٦٢، وبغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس للضببي ج ١ ص ١٧٥، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري ج ٢ ص ٨٧، ومعجم البلدان لياقوت الحموي ج ٤ ص ٣٤.

(٢) انظر معجم البلدان - ياقوت الحموي ج ٤ ص ٣٤.

(٣) وفيات الأعيان - ابن خلكان ج ٤ ص ٢٦٥.

ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره، أخذ يجوب البلاد بين طالب للعلم ومعلم له، ففي حوالي سنة ست وسبعين وأربعمائة للهجرة، بدأ الطرطوشي رحلته خارج بلاده الأندلس، فكانت أولى محطاته مكة المكرمة، حيث أدى فريضة الحج.

ثم استأنف رحلته نحو العراق، فدخل بغداد عاصمة الثقافة ومهد الحضارة ومركز الفنون والآداب، محط رحال العلماء والأدباء والشعراء والحكماء .
وهناك أقبل الطرطوشي على علمائها، حيث تفقه على أبي أحمد الجرجاني، وأبي سعيد المتولي، وأبي بكر محمد بن أحمد الشاشي (المعروف بالمستظهري من أئمة الشافعية)، وسمع من قاضيهما أبي عبد الله الدامغاني، وأبي محمد رزق الله التميمي الحنبلي، وأبي عبد الله الحميدي، كما ذهب إلى البصرة وسمع (سنن أبي داود) من أبي علي محمد بن أحمد التستري و أخذها عنه.

ثم نزل الشام وتنقل بين بلداتها يشتغل بالتدريس، ونزل بيت المقدس، وفي هذه الفترة كانت قد تشكلت شخصيته وبعد صيته، وأقبل الناس عليه ينهلون من علمه، ونورد فيما يلي بعض أقوال المؤرخين والعلماء فيه: قال عنه ابن بشكوال و ابن خلكان^(١): (كان إماما عالما، زاهدا ورعا، ديناً متواضعا، متقشفا متقللاً من الدنيا، راضيا باليسير. أخبرنا عنه القاضي أبو بكر ابن العربي، فوصفه بالعلم والفضل والزهد والإقبال على ما يعنيه، وقال لي: إذا عرض لك أمر دنيا وأمر أخرى، فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى وكان كثيرا ما ينشد :

إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا فُطِنَا	طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
فَكَّرُوا فِيهَا فَلَمَّا عِلِمُوا	أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيِّ وَطَنَانَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا	صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفُنَا

وزاد ابن خلكان قال: وقال الطرطوشي: كنت ليلة نائما في بيت المقدس، فينما أنا في جُح الليل، إذ سمعت صوتا حزينا ينشد:

(١) الصلة لابن بشكوال ج٢ ص٥٧٥ ووفيات الأعيان ج٤ ص٢٦٢.

أخوفٌ ونومٌ؟ إنَّ ذا لعجيبُ
أما وجلالُ الله لو كنتَ صادقاً
ثكلتُك من قلبٍ فأنتَ كذوبُ
لما كان للإغماضِ منك نصيبُ
قال : فأيقظ النوام وأبكى العيون .

وقال ابراهيم بن مهدي بن قُلينا : كان شيخنا أبو بكر ، زهده وعبادته أكثر من علمه .

وقال القاضي أبو علي الحسين بن محمد بن فرو الصدفي : «صحبته بالأندلس عند الباجي ، ولقيته بمكة ، وأخذت عنه أكثر السنن لأبي داود عن التستري ، ثم دخل بغداد وأنا بها فكان يقنع بشظف من العيش ، وكانت له نفس أبيّة ، أخبرتُ أنه كان بيت المقدس يطبخ في شقف ، وكان مُجانبا للسلطان استدعاه فلم يُجبه ، وراموا النقص من حاله فلم ينقصوه قُلامة ظفر» (١) .

وقيل إن الطرطوشي أنجب عليه أكثر من مائتي فقيه مفتي ، وقد ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء بعضهم فقال : (حدّث عنه : أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي ، والفقيه سلار بن المقدم ، وجوهر بن لؤلؤ المقرئ ، والفقيه صالح ابن بنت معافى المالكي ، وعبد الله بن عطّاف الأزدي ، ويوسف بن محمد القروي الفرضي ، وعلي بن مهدي بن قُلينا ، وأبو طالب أحمد المسلم اللخمي ، وظافر بن عطية ، وأبو الطاهر اسماعيل بن عوف ، وأبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن العثماني ، وعبد المجيد بن دليل وآخرون) (٢) ، ومنهم أبو بكر بن العربي كما تقدم ذكره .

وكانت المحطة الأخيرة في رحلة الطرطوشي مصر ، حيث دخل الإسكندرية وأقام فيها ، وذلك في عهد الدولة العبيدية (٣) ، عهد اضطهاد العلماء من أهل السنة ، فذكر أن سبب إقامته فيها ما شاهده من إقفار المساجد

(١) انظر معجم البلدان - ياقوت الحموي ج ٤ ص ٣٤ .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٩ ص ٤٩٣ .

(٣) أي الدولة الفاطمية ، وسميت بالعبيدية نسبة إلى عبيد الله المهدي ، مؤسسها وأول خلفائها في تونس ، والتي بلغت أوج اتساعها في عهد المعز لدين الله الفاطمي (توفي سنة ٣٦٥ هـ) وهو الذي أرسل قائده جوهر الصقلي لفتحها .

والمدارس من طلاب العلم والعلماء، بسبب ملاحقة العبيدية لعلماء السنة وتشريدهم وقتلهم، وكان يقول: (إن سألني الله تعالى عن المقام بالإسكندرية - لما كانت عليه في أيام العبيدية من ترك إقامة الجمعة وغير ذلك من المناكر التي كانت في أيامهم، أقول له: وجدتُ قوما ضلّالاً فكنتُ سبب هدايتهم) (١).

استقر الطرطوشي في الإسكندرية وتزوج فيها من امرأة غنية فاضلة، فتحت بيتها له ولطلابه الذين وفدوا على دروسه من كل البلاد، وسمع به الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش (أحمد بن بدر الجمالي)، والذي كان وزيرا للملك الأمر بأحكام الله العبيدي - صاحب مصر - فطلبه إلى القاهرة وألزمه الإقامة فيها ليبعده عن طلابه ودروسه، خوفا من أن يثيرهم على ملكه.

قال ابن خلكان: (لما دخل الطرطوشي على الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بمصر، بسط مئزرا كان معه، وكان إلى جانب الأفضل رجل نصراني، فوعظ الأفضل حتى بكى، وأنشد:

يا ذا الذي طاعته قربةٌ وحقه مفترض واجب
إن الذي شُرفّت من أجله يزعمُ هذا أنه كـاذب

وأشار إلى ذلك النصراني، فأقام الأفضل النصراني من مكانه (٢)، وأنزل الأفضل الشيخ أبا بكر في مسجد شقيق الملك بالقرب من الرصد، وكان يكرهه، فلما طال مقامه ضجر وقال لخادمه: إلى متى نصبر؟ اجمع لي المباح، فجمعه وأكله ثلاثة أيام، فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه: رميته الساعة، فلما كان من الغد ركب الأفضل فقتل.

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٩ ص ٤٩١

(٢) وفيات الأعيان ج ٤ / ٢٦٤، وقد ذكر الطرطوشي هذه الحكاية في الباب الثاني وكررها في الباب الرابع والعشرين من هذا الكتاب.

ولما قُتل الأفضل، ولي الأمر بعده أبو عبد الله المأمون البطائحي^(١) فأفرج عن الشيخ وأكرمته، وعاد الطرطوشي إلى أهله ودروسه في الإسكندرية، وفي هذه الأثناء عكف على تأليف هذا الكتاب الذي بين أيدينا (سراج الملوك) ليقدّمه هدية للأمير الجديد، كما ذكر ذلك في مقدمته.

(١) المأمون أبو عبد الله البطائحي: هو المأمون أبو عبد الله محمد بن أبي شجاع فاتك بن أبي الحسن مختار، المعروف بالبطائحي، وزير الدولة المصرية والدولة العبيدية، على عهد الملك الأمر بأحكام الله الفاطمي.

وهو الذي أهدى إليه أبو بكر الطرطوشي هذا الكتاب، قال في خطبة الكتاب: «ولما رأيت الأجل المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين، خالصة أمير المؤمنين أبا عبد الله محمد الأمري (نسبة إلى الأمر بأحكام الله الفاطمي) أدام الله لإعزاز الدين نصره، وأنفذ في العالمين بالحق أمره... فقد تفضل الله تعالى به علي المسلمين، وتقلّد أمور الرعية... رغبت أن أخصّه بهذا الكتاب، رجاء لطف الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] انتهى كلامه.

وأما ما كان من قصة هذا الرجل: فإن أباه كان جاسوساً للمصريين في العراق، حيث كان يجيء بالأخبار للوزير الأفضل بن أمير الجيوش المصرية (أحمد بن بدر الجمالي) الذي وطّد دعائم ملك الأمر بأحكام الله، ولما مات والده ولم يخلف شيئاً وتزوجت أمه، عاش المأمون فقيراً صعلوكاً فعمل حمالاً في السوق بمصر ودخل ذات مرة دار الأفضل مع الحمّالين، فرآه الأفضل رشيقاً حسن الحركة حلو الكلام، فأعجب به وسأل عنه، فقيل له هو ابن فلان، فاستخدمه الأفضل مع الفرّاشين، ثم أخذ يتقدم ويتميز حتى علت منزلته وارتفع قدره، حتى أصبح وزيراً له.

ولمّا فسد الأمر بين الأمر بأحكام الله وبين وزيره الأفضل، وأراد وضع حد لحياته وفكّر في قتله، أشار عليه جلساؤه أن يغري البطائحي بتدبير أمر قتله إذا ركب، وتولّى البطائحي الأمر بعده، ولقّب بالمأمون، فحكم البلاد وتحكّم في العباد. ومن صفاته أنه كان كريماً جواداً بالأموال شهماً مقداماً، وسار على نهج الأفضل في ترك معارضة أهل السنة في اعتقادهم، وأكمل بناء جامع النيل الذي كان الأفضل قد شرع في عمارته قبل قتله.

ولكنه لمّا جرى على سنن الأفضل في الاستبداد وسفك الدماء، كثر الغمازون حوله وازدادت السعاية فيه عند الأمر بأحكام الله، حتى توغر صدره عليه فقبض عليه وأمر بقتله وصلبه، فقتل في رمضان عام ٥١٩هـ وصلب بظاهر القاهرة، وقُتل معه خمسة من إخوته، وقد ذكر ابن الأثير - في كتاب الكامل - سبب قتله فقال: [وَأما سبب قتله: فإنه كان قد أرسل الأمير جعفر أخا الأمير ليقول الأمر بأحكام الله ويجعله خليفة، وتقررت القاعدة بينهما على ذلك، فسمع بذلك أبو الحسن بن أبي أسامة، وكان خصيصاً بالأمر قريباً منه، وكان قد ناله من الوزير أذى واطّراح، فحضر عند الأمر وأعلمه الحال، فقبض عليه وصلبه، وهذا جزاء من قابل الإساءة بالإحسان] - (انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥ ص ٢٩٩، والكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ٥١٩-٦٢٩، وتاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧-١٤٩، وسير أعلام النبلاء ج ٩ ص ٥٥٣).

وكانت وفاته يرحمه الله في ثلث الليل الأخير من ليلة السبت لأربع بقين من جمادى الأولى سنة عشرين وخمسمائة بثر الاسكندرية . وصلى عليه ولده محمد . ودفن في مقبرة (وعلة)^(١) قريبا من البرج الجديد قبلي الباب الأخضر، هذا ما ذكره ابن خلكان في وفاته، لكنه عاد وشكك في تاريخ الوفاة، حيث وجد في مشيخة جمعت لبهاء الدين بن شداد، أن الطرطوشي أجازته، وابن شداد هذا ولد سنة ٥٣٩هـ فكيف يجيزه إذا كان قد توفي سنة ٥٢٠هـ^(٢) والله أعلم، رحمه الله وأسكنه فسيح جنته ونفعنا بعلمه .

وللطرطوشي تصانيف ومؤلفات كثيرة:

منها ما يتصل بأمور الفقه ومسائل الخلاف مثل (التعليقة في الخلافات) كتاب كبير يتناول مسائل الخلاف ويقع في خمسة أجزاء، وبعضها في علوم التفسير مثل (مختصر تفسير القرآن الكريم للثعالبي)، وأكثرها يتناول القضايا الاجتماعية والأخلاقية وفي الزهد والوعظ والإرشاد، مثل: (كتاب بر الوالدين)، و(رسالة العدة عند الكروب والشدة) و(كتاب الحوادث والبدع) و(كتاب الفتن) و(شرح رسالة أبي زيد القيرواني) و(كتاب في تحريم جبن الروم) و(تحريم الغناء) و(تحريم الاستمناء) و(نزهة الإخوان المتحابين في الله)، وذكر ابن خير الإشبيلي في فهرسه عدة رسائل وكتب للطرطوشي منها: (رسالة إلى السلطان ابن تاشفين)، (وجزء فيه منتخب من عيون خصائص العباد)، (وثلاثة أجزاء فيها الكلام عن الغنى والفقر)، (واختصار كتاب أخلاق رسول الله ﷺ)، كما ورد في الباب الثالث والعشرين من كتاب سراج الملوك إشارة لمؤلف له سمّاه (كتاب الأسرار)، و(رسالة في الرد على الغزالي) كما ذكر ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء، فقال: إن له رسالة كبيرة عارض بها كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، حيث قال فيها: [وهو - أي الإحياء - أشبه بإماتة علوم الدين لا إحيائها] وطالب في رسالته تلك بإحراق الكتاب قائلا: [إذا انتشر بين من

(١) وعلة: مقبرة في الاسكندرية داخل السور عند الباب الأخضر، قال ابن خلكان ١/ ١٠٦ (يقال أنها منسوبة إلى عبد الرحمن بن وعلة السبئي المصري، صاحب ابن عباس رضي الله عنهما).

(٢) وفيات الأعيان - ابن خلكان ج ٤ ص ٢٦٥.

لا معرفة له بسمومه القاتلة، خيفَ عليهم أن يعتقدوا إذاً صحة ما فيه، فكان تحريقه في معنى ما حرّقته الصحابة من صحف المصاحف التي تخالف المصحف العثماني^(١).

وللطوطوشي أشعار منسوبة إليه، من ذلك ما ذكره ابن خلكان:

إذا كنت في حاجة مرسلًا	وأنت بإنجازها مفرم
فأرسل بأكمه خلابه	به صمم أغطش أبكم
ودع عنك كل رسول سوى	رسول يُقال له درهم

ومن شعره في بر الوالدين ما أنشده ياقوت الحموي في معجم البلدان:

لو كان يدري الإبن أية غصة	يتجرّع الأبوان عند فراقه
أم تهيج بوجده حيرانة	وأب يسح الدمع من آماقه
يتجرعان لبينه غصص الردى	ويبوح ما كتماه من أشواقه
لرثى لأم سل من أحشائها	وبكى لشيخ هام في أحشائه
ولبدل الخلق الأبى بعطفه	وجزاهما بالعذب من أخلاقه

* * *

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٩ ص ٤٩٦.

أما هذا الكتاب:

سراج الملوك، فهو كتاب في السياسة والإدارة، وصنّفه بعضهم ضمن علم آداب الملوك، هدفه الأول وعظ الملوك والحكام ومعرفة الأخلاق والملكات التي يجب أن يتحلّى بها الملوك لتنظم دولتهم، وشحذ الهمم لمقارعة الظلم والعدوان، في عصر بدأت فيه علامات التراجع عن الخط السوي للإسلام تظهر للعيان، كتاب يريد مصنفه أن يذكر السلطان العبيدي أو الفاطمي، وكل سلطان غيره، أن راية الإسلام لن تهزم، وأن من هزم من أمراء المسلمين على مر التاريخ، إنما هزموا لأنهم كانوا يستظلون برايات المطامع والأهواء، ويضربون بسيف البغي والاثم والعدوان.

هذا الموضوع تناولته كتب عدة، ومنها (التبر المسبوك في نصائح الملوك - للغزالي) المنشور على هامش طبعة هذا الكتاب الذي نحققه من خلالها. ومنها الأحكام السلطانية للماوردي، والمنهج المسبوك في أخبار الملوك للشيزري، ولكن سراج الملوك تجاوز في مضمونه كل تلك الكتب، فلم يقتصر على الحكم والأمثال، أو المواعظ وتهذيب السلوك، أو القواعد الدستورية والأحكام السلطانية...

إنه كتاب شامل، جمع فيه مؤلفه بين معارف الأوائل وعلوم الأواخر، في فنون الدين والأخلاق، والسياسة والحكم، والفلسفة والاجتماع أو العمران^(١) والإدارة، والقانون... ينتقي من كل عقد درة ومن كل روض زهرة، وضع فيه قواعد بقاء الملك وبناء الدول، وكيفية المحافظة على ثباتها واستقرارها وحمايتها من السقوط والانهيال، وأكد على مبادئ العدالة الاجتماعية بتطبيق العدل وقول الحق، والأخذ على يد الظالم ونصرة المظلوم، وما ينبغي أن يتحلّى به العامة والخاصة من الأخلاق الحميدة، والخصال النبيلة.

(١) اعترف ابن خلدون في مقدمته أن الطرطوشي سبقه في الحديث عن علم الاجتماع أو العمران وإن كان قد وجه إليه النقد بأنه لم يستوف المسائل ولم يوضح الأمور مثله (مقدمة ابن خلدون ص ٤٠ - دار القلم - بيروت - ١٩٨٤م).

لم ينس أن يذكر السلطان بوظائفه ، وأسس اختيار أعوانه وبطانته .
والطريقة التي يكسب بها ثقة رعيته ، ولم يهمل حتى أمور الحرب والسلم ،
وجباية الضرائب وتوزيع الرواتب ...

وجمع فيه - كما قال - محاسن ما انطوت عليه سير الأنبياء والحكماء .
والملوك والعلماء . من آثار وحكم . وآداب ومواعظ ، وحكايات وقصص ...
تجد بين طياته المواعظ والنصائح ، للملوك والولاة والقضاة . وصفات
للوزراء والجلساء . وما يصح به الأمير والخفير والرئيس والمرؤوس ، ومعرفة
الخصال التي فيها ملجأ الملوك عند الشدائد ، ومعدل السلاطين عند
اضطراب الممالك . وأحكام أهل الذمة وتدابير الحروب ...

وقد سرد ذلك وغيره من الموضوعات ، بأسلوب فريد من نوعه . وضع فيه
كل خبراته وتجاربه ، وعلومه ومعارفه ، وضمَّنه القصص الممتعة والأخبار
الطريفة وال نوادر الطريفة ، عن الملوك والخلفاء ، والوزراء والحكماء ،
والأدباء والظرفاء ...

رتب الطرطوشي مواضيع كتابه ووزعها على أربعة وستين بابا ، بعضها يطول
الحديث حوله وبعضها لا يتجاوز ورقة أو ورقتين ، وقد رجع في وضع كتابه إلى
مصادر ومراجع وفنون عدة ، نستخلصها من أقواله ومضمون كتابه وأهمها :

المصدر الأول: القرآن الكريم:

الذي اعتبره بحر العلوم وينبوع الحكم ومعدن السياسات . والهادي من
الضلالة والحاوي لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة ... وكذلك أحاديث رسول
الله ﷺ وسيرته العطرة ، فقد استشهد بما لا يقل عن مائتي آية من القرآن
الكريم . ومثلها من الأحاديث الشريفة في مواضع متعددة من الكتاب ، بغية
ترسيخ قواعد الإسلام وتثبيت تعاليم دينه وسنة رسوله ﷺ .

المصدر الثاني: كتب التاريخ والسير والمغازي:

ونأخذ هذا من قوله : «إني نظرت في سير الأمم الماضية والملوك الخالية ،
وما وضعوه من السياسات في تدبير الدول ، والتزموه من القوانين في حفظ
النحل ... إلى قوله ... فجمعت محاسن ما انطوت عليه سيرهم خاصة ملوك

الطوائف وحكماء الدول فوجدت ذلك في ست من الأمم ، وهم العرب ، والفرس ، والروم ، والهند ، والسند هند» . وذلك بالإضافة إلى ذكر سير الأنبياء عليهم السلام و آثار الأولياء ونوادر الخلفاء وأقوال الفلاسفة والحكماء .

المصدر الثالث: الدواوين الشعرية والمراجع الأدبية:

فقد استشهد بأقوال شعراء الحكمة والزهد والرتاء ... وفي مواضع متعددة ، وقد أحصيتُ منها ما لا يقل عن خمسمائة وخمسين بيتا من الشعر .

المصدر الرابع: كتب الحكم والأمثال:

فإنه لا يكاد يدخل في شرح عنوان الباب حتى يسرع في ذكر الحكم والأمثال والقصص التي تؤيد وجهة نظره وتعضد رأيه ، فكأنه لم يترك حكمة أو موعظة في كتاب للعرب أو العجم إلا سجلها ، فهذه بعض وصايا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يسردها بكاملها أحيانا ، وترى فيه كذلك ، تلك الحكم والوصايا المنثورة في كتب الهند مثل كيلة ودمنة ، وكتب الفرس مثل كتاب التاج ، ونصائح كسرى وأمثال بزرجمهر ، وأقوال الفلاسفة مثل أفلاطون وأرسطو .

المصدر الخامس: المراجع السياسية والاجتماعية:

وأقصد بها تلك الأحوال التي كانت تعيشها الأمة المسلمة في ذلك الوقت ، والتي أوحى إلى الطرطوشي أن يضع خلاصة فكره وعلمه وجهده ومعاناته وتعاليمه ، في سبيل إصلاح ذات البين ، وهداية الأمة وسلاطينها ، والانتباه إلى ذلك الطوفان الذي ينتظر المسلمين إن لم يرجعوا إلى دينهم ، ويتبعوا سنة نبيهم وهدى الخلفاء الراشدين والصالحين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على مر العصور والسنين ، وأهم ملامح ذلك العصر :

١ - ابتداء الحملات الصليبية على بلاد المسلمين من جهة شمال الشام ، فقد بدأ في تلك الفترة (سنة ٤٩٠ هـ ، ١٠٩٦ م) الزحف الصليبي أو الحملات العسكرية التي قامت بها أوروبا المسيحية إلى الشرق العربي ، تحت ستار الدوافع الدينية و بحجة إنقاذ بيت المقدس من المسلمين ، فقد

اتجهت نحو بلاد المسلمين جموع من الوحوش ، يدفعها الحقد ويسيرها الطمع في النهب والسلب ، فعم الدمار والخراب كل أرض تطأها ، وسادت الفوضى وزاد تفكك المسلمين وضعفهم ... إلى أن قيض الله تعالى لهذه الأمة جمع شملها ودحر عدوها .

٢ - بداية عهد ملوك الطوائف في الأندلس ، حيث تفرقت كلمة المسلمين هناك حتى أصبح في كل مدينة ملك أو سلطان ، فالسلاطين هناك مع ما كانوا يرونه من سقوط مدينة بعد أخرى بيد النصارى - الذين يحملون العداء الديني والحقد الصليبي والمشحونين ببركة البابا وتقدس الكنيسة إلا انهم لم يعتبروا أبداً ، بل ظلوا في قتال بعضهم بعضاً ، ومنهم من كان يطلب عون الطاغية النصراني ضد أخيه ، لا في سبيل توحيد الإمارات بعد تفتتها ، وإنما في سبيل تعزيز حكمه وإشباع طمعه وإرضاء شهوته .

٣ - تراجع نفوذ الفاطميين وقوتهم ، وظهور البدع و المنكرات وعدم قيام الصلوات ، بل دبَّت مظاهر الاختلاف بينهم وبين السنة من المسلمين ، وقد سبق ذكر ذلك حيث كان الطرطوشي يقول : (إن سألتني الله تعالى عن المقام بالإسكندرية - لما كانت عليه في أيام العبيدية من ترك إقامة الجمعة وغير ذلك من المناكر التي كانت في أيامهم - أقول له : وجدت قوما ضالاً لا فكنت سبب هدايتهم) .

ولعل المصدر الأهم هو في شخص الطرطوشي - يرحمه الله - ،
وما يملكه هذا العالم العابد من ثقافة واسعة ، وعلم غزير ، وصدق إيمان ، ومضاء عزيمة ، وعلو هممة ، وروعة زهد ، وحسن خلق ، وثبات على الحق وتضحية بالنفس في سبيله ، وقول كلمة الحق لا يخشى في الله لومة لائم ... فلو نُشرت كل الآثار والأخبار ، والسير والأشعار ، والحكم والأمثال ... فإنها لا تخرج عملاً فنياً متكاملاً ، إلا لمن توفرت له الملكة الأدبية ، وكان حاذقاً بارعاً في صناعة الكلمة ، وحسن التعبير ، ودقة التحليل ، وجمال العرض ، وروعة البحث ، وحلاوة اللفظ ، وبراعة الفكرة ، ونبيل القصد ، ودقة الفهم ... وقد تحقق كل هذا في الشيخ الطرطوشي - يرحمه الله - ، الذي عاش بروحه

وفكره وشعوره سطور هذا الكتاب ، فأودعه خلاصة تجربته وعصارة ذهنه ، فأبرز المعاني القيمة وعرضها بأسلوب شيق جزل ، وساق الحجج القاطعة والبراهين الساطعة بلا تجنُّ أو مبالغة ، حرك المشاعر وأثار العواطف ووضع النقاط على الحروف ، لقد كتب فأبدع واستقصى فاشبع واستطاع في اقتدار وإبداع أن يجيد ويفيد .

وبعد هذا العرض الذي لا أدعي أنني قدمت فيه كل ما يجب أن يقدم عن الكتاب وكاتبه ، فإنني أشعر بالهيبة والوقار ، والاحترام والإجلال تجاه بطل هذا الجهد العظيم ، الشيخ الطرطوشي رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه خير الجزاء ، ونفعنا بعلمه وفقهه ، كما أسأله سبحانه أن يجزل الأجر ويديم الثواب ، لصاحب السمو الملكي الأمير عبد العزيز بن فهد على كل ما يقوم به من جهد ودعم غير محدود ، في سبيل إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المراجع والرسائل والبحوث ، ومنها هذا الكتاب الذي خرج اليوم إلى النور ، وأصبح في متناول الجميع .

والآن أترك للقارئ الكريم فرصة الغوص بين الدرر ، والاطلاع على ما في هذا الكتاب من المعاني والعبر ، والتمس من الجميع العفو والمعذرة إن زل قلبي أو أخطأ تقديري في أمر من الأمور ، فإن أصبت فمن الله ، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان . ومنه سبحانه نستمد العون والتوفيق ، والحمد لله رب العالمين .

الفقير إلى رحمة ربه ومغفرته

نعمان صالح الصالح

الرياض في ٢٤ شوال ١٤١٩هـ

الموافق ١١/فبراير/١٩٩٩م

صور المخطوطات والمطبوعات

- ١- المخطوطة الأولى ورمزها (خ١) مسجلة تحت رقم ٢٤٣٤
- ٢- المخطوطة الثانية ورمزها (خ٢) مسجلة تحت رقم ٢٤٣٥
- ٣- المخطوطة الثالثة ورمزها (خ٣) مسجلة تحت رقم ٢٤٣٦
- ٤- المخطوطة الرابعة ورمزها (خ٤) مسجلة تحت رقم ٢٤٣٧
- ٥- كتاب سراج الملوك المطبوع بالمطبعة الأزهرية المصرية
سنة ١٣١١ هـ على هامش مقدمة ابن خلدون
- ٦- كتاب سراج الملوك المطبوع بالمطبعة الأزهرية المصرية
سنة ١٣١٩ هـ وبهامشه كتاب التبر المسبوك للغزالي

وليحيط بحال الدنيا وجميع أوصافها من عروقها وجميع أوصافها من عروقها
 ان عظمك السمع وان الحواسم وان انكا ادع وان حواسمك في عظمك وسميد
 منك ويزيدك ويزيدك من عظمك قبرا لا من عظمك ويزيدك من عظمك ويزيدك
 للكم ويزيدك للكم ويزيدك للكم ويزيدك للكم ويزيدك للكم ويزيدك للكم
 من الانا الاخر من كل سمعت في الاولين او بطونك عن كل سمعت من السامع
 من عظمك وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع
 الذخر والنفذ والنفذ والنفذ والنفذ والنفذ والنفذ والنفذ والنفذ
 بطونك والنفذ والنفذ والنفذ والنفذ والنفذ والنفذ والنفذ والنفذ
 وجودك وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع
 وان حواسمك عن عظمك وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع
 مجلسك للكم فاكرم به من صاحب واعز به من مرافق وقب
 لانحطاما عن عظمك وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع
 وينفذك من عظمك وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع
 فلا تفتن نفسك وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع وادع
 فان قلت اموالا فان قلت اموالا وان قلت اموالا فان قلت اموالا

تجلسه كما تبتدئ له تعالى وعونه وجسده وفوقه في غار الانبياء
 شريحه العبد سئل جده ابي عن قائل يا تاجن اهد طاعتها منه وكره
 علي ما افترع ابا الله تعالى الجرحم الي
 عفو ونفخته للذليل
 عبد الجرحم
 خطيبه
 عناه
 عنه
 انوس الطبايه الذي خضعت له السموات فهو الوالح
 مما تاملته استغفر لانيه لعل كل بته بنحو من الناس
 للهدى والهدى جده ابي عنه وكان في زبده سبطك لا تخفي فاعطيك
 انت كالتفت عنك تلك للهدى بنحوي وكالهدى اذا وضعت وكالهدى
 على كل حال
 اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الامي وعلى اهل واصحابه واليه
 وذرياته الطيبين الطاهرين صلاة تباركها الله وتعالى وتخرجها الكبرياء على كل حال

مكرر

فِي الْأَوَّلِيِّ أَوَّلِيكَ عَنْ جَدِّكَ مِنَ السَّالِفِينَ مَنْ جَمَعَ هَذِهِ الْأَوْصَافَ مَعَ قَلْبٍ
 مُوَبَّهٍ وَخَبِيرَةٍ بِحِلَّةٍ لَا يَزَالُ شَاكِرًا يَا إِلَهِي تَعَالَى الَّذِي أَلْفَعَدَ وَاسْتَعْمَلَ
 وَلَمْ يَزِدْهُ جَلِيلًا لِأَيْلَانِهِ وَدَرْفِيٍّ لِيَلْبَنِيكَ فَيُطِيعَكَ بِالْأَيْدِي طَائِعًا بِأَقْفَارِكَ
 وَيُطِيعُكَ فِي السَّعْيِ طَائِعَةً فِي الْخَبِيرَةِ إِنْ أَدْنَيْتَ النَّظَرَ إِلَيْهِ طَالِ الْأَسْبَابَ
 وَصَدْرًا عَدَدَ وَسِطَةِ سَنَانِكَ وَجُودَ بِنَانِكَ وَنَحْمَ الْفَنَاءِ لَكَ أَنْ تَلْقَى خَلْقَكَ
 الْأَيَّامَ ذِكْرَكَ وَأَنْ تَرَسِدَ رَفْعَ الْخُلُقِ تَذْرَكَ وَأَنْ جَسَدَكَ عَنْ عَيْنَيْكَ
 بِأَيْلَانِهِ يَتَبَيَّنُ لِيَبْدُ فِي مَعَايِدِ السَّادَةِ وَتُجَبَّرُ السَّوْدَةُ فِي جَانِبِ الْإِلْهَانِ
 فَكَفَّ مَرْوَبِهِ مِنْ عَصَابِهِ وَأَعْمَزَ بِهِ مِنْ مَوَافِقٍ وَقَدْ قَالَتْ فِيهِ الْأَوَّلُ
 ٥ فَلَا جَسَدًا لَا تَحْمِلُ كَيْدَهُمْ ٥ أَلْبَانًا مُوَبَّهًا وَمُسْتَعْدًا ٥
 ٥ يَفِيدُ وَتَنَابُزُهُمْ عَلَى مَاضِيٍّ ٥ وَدَائِيًّا وَتَعَالَى عَدَدًا ٥
 ٥ فَلَا تَقْدِرُ عَلَى وَلَا تُقَوِّضُهُمْ ٥ لَا تَخْشَى مِنْ شَأْنًا وَلَا تَعْدُ ٥
 ٥ بَلْ تَقُتُّ أَمْرًا وَأَنْ تَأْتِيَ كَافَّةً ٥ وَأَنْفُتَ أَيْمَانًا فَلَسْتَ مُعْتَدًا ٥
 فَهَذَا مَا زَادَنَا أَنْ نُعْلِمَهُ بِهَذَا الْأَكْبَرِ شَيْئًا
 وَكَثِيرًا أَنْ يَتَبَيَّنَ لَنَا سَمَهُ ٥ وَأَنْفُكَ أَنْفُكَ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً
 كُلِّ جَمْعٍ كَامِلٍ ٥ سِرَاجُ الْمَوْلَى ٥
 ٥ بِحَوْلِهِ وَتَوَكَّلْ بِهِ وَخُشِعْ تَوَكُّفِهِ ٥ وَحَوْلَ اللَّهِ عَلَى سَيِّدِنَا ٥
 ٥ بِحَوْلِهِ وَاللَّهُ وَجْهَهُ وَسَلَامٌ ٥ ٥ ٥

٥ بِطَبَقِ مَقْصُودِي وَالْخُرُوجِ جَمْعِي وَهَيْئَتِي فِي لَيْلٍ أَدْنَى ٥
 ٥ وَبَيْتِي جَزِيئِي بِرُكْنِ سَائِرِي وَأَهْلِي كَلْدِي عَلَى نَفْسِي ٥
 وَلَيْسَ كَانَتْ لَنَا طُحُونَ قَدْ وَصَعُوا لِنُجُودِ ٥ وَقَالُوا أَلَا بَلَدُكُمْ فَهَلْ تَقْدِرُ
 قُصُورًا ٥ وَأَجَلُكُمْ رُوحٌ كُنْ بِسَبْقِيَّةٍ مَدْحَةٍ لَمْ تَشَأْ ٥ وَاسْتَعْدَدْتُ فِي غَيْرِ طَبَقٍ
 الْخُفْلَةِ ٥ وَكَيْفَ لَا وَالْكَافُورُ نَفْسُ الْأَنْبِيَاءِ سَاعَةً رَاحَتْ وَنَحْمُ الْمَرْبُوعِ بِلَادِ
 الْغُرْبَةِ ٥ وَنَحْمُ الْمَرْبُوعِ الدَّخِيلِ ٥ وَنَحْمُ الْوَبْرُ وَالزَّيْلِ ٥ كُلُّ عَمَلٍ ظَرْفِ
 حُسْنٍ ظَرْفًا ٥ وَأَنَا عَلَى سِرَاجٍ وَجَدْتُ نِسَاءً يُجَلُّنَ زَيْلِي وَدَرْوَصَةً تَعْلَبُ
 فِي جَوْهَرِ سَبْعَةِ الْبَحْرِ لَا تَدْرِي وَرَهْرَهً لَا تَدْرِي وَكَيْفَ يَقْنِي ٥ وَمَنْ لَكَ
 بِجَلْبَتِي مُبِيدًا ٥ الشَّيْءُ وَخِلَافُهُ ٥ وَابْتَسْرُضْتُ عَنْ الْوَقْفِ بِدَرْجِ عَمَلِي
 أَنْ تَحْضِرَ عَلَيَّ لَمْ يَحْضِرْ ٥ وَأَنْ يَرْغِبَ عَلَيَّ لَمْ يَجِبْ ٥ أَكْثَرُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
 وَأَكْثَرُكُمْ مِنَ الرَّيْحِ ٥ وَالْهَيَّ مِنَ الْقَوَى ٥ وَأَضْعَفُكُمْ مِنَ الْإِنْسَانِ ٥ وَأَضْعَفُكُمْ مِنَ الْفَضَاءِ ٥ وَأَضْعَفُكُمْ
 مِنَ تَجَبُّنِ الْكَلْبِ ٥ وَأَعْيَانُ نَارِهِ ٥ هَلْ تَسْتَعِثُّ بِعُلَامٍ وَاحِدٍ بِجَلْبَتِي كَلْبِي ٥
 وَجَمْعُ أَوْصِيَائِي عَزَّ ٥ عَوْنِي قَارِي ٥ مُبِيدِي سُبُحَتِي رُوَيْتِي وَتَوَانِي أَوْفَقِي ٥
 أَسْمَعُ ٥ وَأَنْفُ الْهَيَّ أَسْمَعُ ٥ وَأَنْفُ الْبُكَ أَسْمَعُ ٥ وَأَنْفُ الْوَجْهِ أَسْمَعُ ٥ مُبِيدِي ٥
 وَلَيْسَتْ مُبِيدِيكَ وَبَرِيدِي ٥ أَنْ يَحْضُرَ مِنْ ٥ وَأَنْ يَرْحَ مَنْزَعُهُ ٥ تَهْرُ الْأَعْدَادِ ٥
 وَخَيْرُ الْأَوْدَاعِ ٥ قِدَامُ الْعُلُومِ وَدُخُولُ الْحُكْمِ ٥ وَمَعْدَنُ الْكَافِرِ ٥ وَمَوْثِقُ
 الْأَيَّامِ ٥ مُبِيدِي ٥ عَامُ الْأَوَّلِ ٥ وَبَيَّزْتُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ نِسَائِي ٥ وَالْأَجْرُ حَقٌّ مُبِيدِي ٥

٢٤٣

[illegible]

الماديات والمقابلتها ان كانت لربكان فقد سبق الدلائل وان كان
سجلوا فكان ان عني لعله انما رقدوا ولم يوجد يقضون جميع الاغنياء
الاجلهم لانها لم تضد راد الله في الاشياء الخارجة، وصحبه للاشياء
والاعمال، وان كان كل شيء صفة ولا غلبة لصفته، فان قلت انهم
فقد مضوا للكل كان وجودهم، فمن انزل الان لم يبق ثم وجوده، انما
هو لئلا يحلوا الكائن في نفسه كما كان قبل خلق الكائن، وكيف عطل
في صفته لئلا يؤولوا اليه ما هو انشاء، وان قلت ما هو فلا ما به لوجود
وما هو صفته للسوا في الحس والقدرة، فما الا ان يحل له لا الحس خصوص
بشيء اعطى حسب الماهية، وان قلت كما هو فهو احد في ذاته مفرد
بصفاته، وان قلت من كان فقد سبق الوقت لكونه، وان قلت
كيف هو في كيف الكيف لا يقال له كيف، ومن حازت عليه الكيفية
جلو عليه التميز، وان قلت هو لها والواو خلقه، والذم التكاليف
كما قال بعض الاشياخ لان القدم له فالف في الحس ظهوره والتفرق
لغيره، والذي لا ادا اجتماعه فيها يستلزمه، والذي يولفه وقت
لا يحد وقت، والذي يميزه غير فالضرورة ونعمه، والذي يولهم
تظفر به بالتصور يرتقي اليه، ومن اواه، محله ان كان في مكان
له حيز طاله كيفه وجوده، انما هو، ومن عرفه توحيده، وتوحيده
بغيره من خلقه، فالتصور لا اوما فهو بخلافه، لانها لا الغيوت
والاعمال الطنون، ولا تصور الاوهام، ولا يحيط به الا فهم

الحمد لله الذي لم يزل ولا يزال وهو الكبير المتعال خالق
الاعيان والافان ومكون النهار على الليل والليل على النهار والعلم
بالغيايات وما تنطوي عليه الارضون والسموات سوا عند
الجزر والاسرار ومن هو مستخف بالليل وسار بالنها والا
يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير خالق الخلق بقدرته وانكهم
بعلمه وخصمهم بشيئته ودبرهم بحكمته لم يكن له في خلقهم معين
ولا في تدبيرهم مشير وظهير وكيف يستعين من لم يزل من
لم يكن ولا يستظهر من تقدس عن الدل من دخل تحت ظل الشاوين
ثم كلهم بمعرفة وحكمته وحكم علم العالمين بحجهم عن ادراكه ادراكا
لهم ومعرفة العارفين بقصصهم عن شكره شكر الشاكرين
كما جعل قرار العتق وقوف عقولهم عن الاحاطة بحقيقته ايمانا
لهم لا يلزم دله ولا يجاوره ابنه ولا يلاصقه حيث ولا يحمله
ما ولا ينفذه كره ولا تحضره مني ولا يحيط به كيف ولا يناله اي
ولا يظله فوق ولا يبعثه تحت ولا يقابله حده ولا يبرحه عند
ولا ياخذ خلفه ولا يحده امامه ولا يظهره قبله ولم يغبه بئنه
ولم يجمع كله ولم يوجد كان ولم يفقد ليس وصفه لاصف له

وكونه لا أمثلة ولا تغاظه الاشكال والصور ولا تغير الالام
والغيره ولا تجوز عليه المماسه والمقارنة ان قلت لم فقد سبق
العلم ذاته ومن كان معلولا كان له غيره علة تتألفه في
الوجود وهو قبل جميع الاغيار بل لاعلة لانما له فقدره الله
في الاشياء بلا مزاج وعلة كل شيء صنعه ولا علة لضعفه وان قلت
ابن هو فقد سبق المكان وجوده فمن أين الابن لم يفتر وجود
الي اثن وهو بعد المكان غني بنفسه كما كان قبل خلق المكان
وكيف عمل في ما منه بدا او يعود اليه ما هو النشاوان قلت
ما هو فلا مامية لوجوده وما موضوعه للسؤال عن الجنس فالقد
تعالى لا جنس له لان الجنس مخصوص بمعنى داخل تحت المامية
ان قلت كره هو من كيف المكيف لا يقال له كيف ومن جاز عليه
الكيفية جاز عليه التغير وان قلت هو فالها والواو خلقه بل
الزم الكل الحديث كما قال بعض الاشياخ لان الكل له فالذي للهم
ظهوره فالعزم يلزمه والذي لاداة اجتماعه فتقواها مسكية
والذي يولفه وقت يفرقه وقت والذي يقيمه غير فالضرب
تميته والذي الوهم يظفر به فالصوير يرثي اليه ومن اواه
محل ادراكه ابنه ومن كان له جنس طال به كيف وجوده اثباته
ولم يفته توحيدهم وتوحيده تميزه من خلقه ما نصوهم من الاداة
فمختلفاته لا تماثله البين ولا تماثله الطنون ولا تصور
الاوهام ولا يحيط به الاضاهة ولا يقدر قدره الانام ولا يحو
مكانه ولا يقارنه زمان ولا يحصره امد ولا يشتمه ولذا ولا

(بسم الله الرحمن الرحيم)
 الحمد لله على انعامه
 وافضاله والصلاة على
 سيدنا محمد وآله وصحبه
 اجمعين أما بعد فانه
 سأنتي بعض الكبراء ان
 أنقل هذا الكتاب وهو
 كتاب نصيحة الملوك من
 اللغة الفارسية الى
 الالفاظ العربية
 فامتثلت ذلك ونقلته
 على ترتيبه وصورته ولم
 أغير شيئا من وضع الكتاب
 وصيغته واجتمعت في
 تسهيل عباراته وایضاح
 اشاراته قصد الاستعمال
 الكلام ليكون اقرب
 الى الالهام بقدر ما
 بلغته بلاغته وافصح
 منه فصاحته وما توفيقي
 الا بالله عليه توكلت
 واليه انب (قال)
 الشيخ الامام شرف الائمة
 أبو حامد محمد بن محمد بن
 محمد الغزالي رحمه الله
 وهو مخاطب السلطان
 محمد بن ملك شاه رحمه الله
 (اعلم) باسلطان العالم
 وملك المشرق والمغرب
 ان الله انعم عليك نعم ما
 نظاهرة ولا امتكاثرة
 يجب عليك شكرها
 وتعين عليك اذا عتيا

الحمد لله

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي لم يزل ولا يزال وهو الكبير المتعال خالق الاعيان والآثار ومكروا النهار على الليل
 والليل على النهار العالم بالحقائق وما تنطوي عليه الارضون والسموات سواء عنده الجهر والاسرار
 ومن هو مستخف بالليل وساد بالناهار الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير خالق الخلق قد درته
 واحكمهم بعلمه وخصصهم بمشيئته ودبرهم بحكمته لم يكن له في خلقهم معين ولا في تدبيرهم مشير
 وظهير وكيف يستعين من لم يزل عن لم يكن اوي تظهرون من تقدس عن الذل عن دخل تحت ذل التسكين
 ثم كافةهم معرفته وجعل علم العالمين بعجزهم عن ادراكه ادراكا كالم ومعرفة العارفين بتقصيرهم عن
 شكره شكرهم كما جعل اقرارا المقربين بوقوف عقولهم عن الاحاطة بحقيقته ايمانا فاهم لا يلزمه علم
 ولا يجاوزه ابن ولا يلاصقه حيث ولا يحيط به ما ولا يبعده كم ولا يحصره متى ولا يحيط به كيف ولا
 يناله أي ولا يظله فوق ولا يقيه تحت ولا يقابله حد ولا يراجه عند ولا يأخذه خلف ولا يجده أمام
 ولم يظهروه قبل ولم يعينه بعد ولم يحجمه كل ولم يوجد له كان ولم يفقد له ليس وصفه لاصفة له وكونه
 لأمده ولا تتخالطه الاشكال والصور ولا تفسره الايام والغير ولا تجوز عليه المماسسة والمقاربة
 وتسهيل عليه الهذاة والمقابلة ان قلت لم كان قدس بني العال ذاته ومن كان معلولا كان له غيره علة
 يسارقه في الوجود وهو قبل جميع الاعيان بلا علة فقدرته الله في الاشياء بالازواج وصنعه فيها بالأعلاج
 وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه فان قلت أين هو فقد سبق المكان وجوده فمن أين الازواج لم
 يفتر وجوده الى أين هو بعد خلق المكان ففي نفسه كما كان قبل خلق المكان وكيف يحمل فيما منه
 بدا أو يعود اليه ما هو أنشا وان ذات ما هو فلا مائية لوجوده وما موضوعة للدوال عن الجنس
 والقديم تعالى لا جنس له لان الجنس مخصوص بمعنى داخل تحت المائية وان قلت كم هو فهو واحد في
 ذاته

الصفحة الأولى من كتاب سراج الملوك المطبوع سنة ١٣١٩ هـ

وبهامشه كتاب التبر المسبوك للغزالي

خطبة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحمدُ لله الذي لم يزل ولا يزال، وهو الكبيرُ
 المتعال، خالقُ الأعيان والآثار^(١)، ومكورُّ النهار على الليل والليل على
 النهار، العالم بالخفيات وما تنطوي عليه الأرضون والسموات، سواء عنده
 الجهر والإسرار ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾^(٢) [الرعد: ١٠]،
 ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، خلق الخلق بقدرته
 وأحكمهم بعلمه، وخصَّهم بمشيئته، ودبَّرهم بحكمته، لم يكن له في
 خلقهم معين، ولا في تدبيرهم مشير وظهير^(٣)، وكيف يستعين من لم
 يزل^(٤) بمن لم يكن؟! أو يستظهر من تقدَّس عن الذل بمن دخل تحت ذلَّ
 التكوين؟!

ثم كلَّفهم معرفته، وجعل علم العالمين بعجزهم عن إدراكه إدراكاً لهم،
 ومعرفة العارفين بتقصيرهم عن شكره شكراً لهم، كما جعل إقرار المقرِّين
 بوقوف عقولهم عن الإحاطة بحقيقته إيماناً لهم، لا يلزمه لم، ولا يجاوزه أين،
 ولا يلاصقه حيث، ولا يحده ما، ولا يعدّه كم، ولا يحصره متى، ولا يحيط به
 كيف، ولا يناله أيّ، ولا يظلّه فوق، ولا يقلّه تحت، ولا يقابله حدّ، ولا
 يزاحمه ندّ^(٥)، ولا يأخذه خلف، ولا يحده أمام، ولم يُظهره قبل، ولم يُعيّنه
 بعد، ولم يجمعه كل، ولم يوجدّه كان، ولم يفقده ليس.

وصفه لا صفة له، وكونه لا أمد له، ولا تخالطه الأشكال والصور، ولا تغيّره
 الأيام والغيّر^(٦)، ولا تجوز عليه المماسّة والمقاربة، وتستحيل عليه المحاذاة
 والمقابلة. إن قلت لم كان؟ فقد سبق العلل ذاته، ومن كان معلولاً، كان له

(١) أي خالق القديم والحديث.

(٢) ومعنى سارب بالنهار: أي

(٣) ظهير: معين.

(٤) أي الله تعالى.

(٥) الند: الشبيه والمثيل، وفي (ط): ولا يزاحمه عند.

(٦) الغيّر: الأحداث.

غيره علة يساوقه في الوجود، وهو قبل جميع الأعيان بلا علة لأفعاله، فقدرة الله في الأشياء بلا مزاج، وصنعه فيها بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه.

فإن قلت: أين هو؟ فقد سبق المكان وجوده، فمن أين أين لم يفتقر وجوده إلى أين، هو بعد خلق المكان غني بنفسه كما كان قبل خلق المكان، وكيف يحل فيما منه بدأ؟ أو يعود إليه ما هو أنشأ؟

وإن قلت: ما هو؟ فلا ماهية لوجوده، و(ما) موضوع للسؤال على الجنس، والقديم تعالى لا جنس له، لأن الجنس مخصوص بمعنى داخل تحت الماهية.

وإن قلت: كم هو؟ فهو أحد في ذاته، منفرد بصفاته.

وإن قلت: متى كان؟ فقد سبق الوقت كونه.

وإن قلت: كيف هو؟ فمن كيف الكيف، لا يقال له كيف، ومن جازت عليه الكيفية، جاز عليه التغير^(١).

وإن قلت: هو، فالهاء والواو خلقه، بل ألزم الكل الحدث، كما قال بعض الأشياخ، لأن القدم له، فالذي بالجسم ظهوره فالعرض^(٢) يلزمه، والذي بالأداة اجتماعه فقواها تمسكه، والذي يؤلفه وقت يفرقه وقت، والذي يقيمه غيره فالضرورة تمسه، والذي الوهم يظفر به فالتصوير يرتقي إليه، ومن أواه محل أدركه أين، ومن كان له جنس طلبه كيف، وجوده إثباته، ومعرفته توحيده، وتوحيده تمييزه من خلقه، ما تصور في الأوهام فهو بخلافه، لا تخايله^(٣) العيون، ولا تخالطه الظنون، ولا تصوّره الأوهام، ولا تحيط به الأفهام، ولا يقدر قدره الأنام، ولا يحويه مكان، ولا يقارنه زمان، ولا يحصره أمد، ولا يشفعه ولد، ولا يجمعه عدد، فربه كرامته، وبعده إهانتة، علوه من غير توقّل^(٤)، ومجيئه من غير تنقل، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، والقريب البعيد، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

(١) في (خ) جاز عليه النعت.

(٢) العرض: أي الشيء العارض والطارئ.

(٣) لا تخايله العيون: أي لا تتصوره.

(٤) التوقّل: الصعود.

وأشهدُ له بالربوبية والوحدانية، وبما شهد به لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى، والنعوت الأوفى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وأؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رُسُلِهِ، ونحن له مسلمون، وأشهد أن محمداً عبده المصطفى، وأمينه المرتضى، أرسله إلى كافة الورى، بشيراً ونذيراً ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين، وأصحابه المنتخبين، وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين.

أما بعد:

فإنني نظرتُ في سِيرِ الأمم الماضية، والملوك الخالية، وما وضعوه من السياسات في تدبير الدول، والتزموه من القوانين في حفظ النحل^(١)، فوجدت ذلك نوعين: أحكاماً، وسياسات.

فأما الأحكام المشتملة على ما اعتقدوه من الحلال والحرام، والبيوع والأحكام، والأنكحة والطلاق، والإجازات ونحوها، والرسوم الموضوعة لها، والحدود القائمة على من خالف شيئاً منها، فأمر اصطلحوا عليه بعقولهم، ليس على شيء منه برهان، ولا أنزل الله به من سلطان، ولا أخذوه عن نذير^(٢)، ولا اتبعوا فيه رسولاً، وإنما هي صادرة عن خزنة النيران، وسدنة بيوت الأصنام وعبدة الأنداد والأوثان، وليس يعجز أحدٌ من خلق الله أن يصنع من تلقاء نفسه أمثالها وأشباهها.

وأما السياسات التي وضعوها في التزام تلك الأحكام، والذب عنها، والحماية لها، وتعظيم من عظمها، وإهانة من استهان بها وخالفها، فقد ساروا في ذلك بسيرة العدل وحسن السياسة، وجمع القلوب عليها، والتمس النصفة^(٣) فيما بينهم، على ما توجبها تلك الأحكام، وكذلك في تدبير الحروب، وأمن السبل، وحفظ الأموال وصون الأعراض والحرم، كل ذلك فقد

(١) النحل: جمع نحلة وهي المذهب أو الديانة.

(٢) في (خ) ولا أخذوه عن تدبير.

(٣) النصفة: أي العدل والإنصاف.

ساروا فيه بسيرة جميلة، لا ينافي العقول شيء منه، لو كانت الأصول صحيحة، والقواعد واجبة، فكانوا في حسن سيرتهم بحفظ تلك الأصول الفاسدة، كمن زخرف كنيفاً^(١)، أو بنى على ميت قصرًا منيفاً. ولَوْ لَيْسَ الْحِمَارُ ثِيَابَ خَزْ لَقَالَ النَّاسُ يَا لَكَ مِنْ حِمَارٍ^(٢) فجمعت محاسن ما انطوت عليه سيرهم، خاصة من ملوك الطوائف وحكماء الدول، فوجدت ذلك في ست من الأمم وهم: (العرب، والفرس، والروم، والهند، والسند، والسندهند).

فأما ملوك الصين وحكماءهم، فلم يصل إلى أرض العرب من سياساتهم شيء كثير^(٣)، لبعد الشقة وطول المسافة، وأما من عدا هؤلاء من الأمم، فلم يكونوا أهل حكم بارعة، وقرائح نافذة، وأذهان ثاقبة، وإنما صدر عنهم الشيء اليسير من الحكمة، فنظمت ما ألفيت في كتبهم من الحكمة البالغة، والسير المستحسنة، والكلمة اللطيفة، والطريقة المألوفة، والتوقيع الجميل، والأثر النبيل، إلى ما رويته وجمعت من سير الأنبياء عليهم السلام، وآثار الأولياء، وبراعة العلماء، وحكمة الحكماء، ونوادير الخلفاء، وما انطوى عليه القرآن العزيز، الذي هو بحر العلوم، وينبوع الحكم، ومعدن السياسات، ومغاص الجواهر المكنونات، إن اختصر: فلمحة دالة وإشارة خفية، وإن أطال: فألفاظ بارعة وآيات معجزة، هو الهادي من الضلالة، والحاوي لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة.

ورتبته ترتيباً أنيقاً، وترجمته تراجم بارعة، حاوية لمقاصدها، ناطقة بحكمها ومضمونها، يلج الأذن من غير إذن، ويتولج التأمور^(٤) من غير استثمار، ألفاظها قوالب لمعانيها، ليس ألفاظها إلى السمع بأسرع من معانيها إلى القلب، فانتظم الكتاب بحمد الله وعونه وإحسانه، غاية في بابه، غريباً في فنونه وأسبابه، خفيف المحمل، كثير الفائدة، لم تسبق إلى مثله أقلام

(١) الكنيف: الساتر أو المرحاض.

(٢) الخز: الحرير.

(٣) في (خ) فلم تبلغ إلى أرض المغرب من سياستهم كبير شيء.

(٤) التأمور: يطلق على القلب أو على الإنسان، والمعنى هنا: يدخل القلب.

العلماء، ولا جالت في نظمه أفكار الفضلاء، ولا حَوَتْهُ خزائن الملوك والرؤساء، فلا يسمع به ملك إلا استكتبه، ولا وزير إلا استصحبه، ولا رئيس إلا استحسّنه واستوسده، عصمة لمن عمل به من الملوك وأهل الرياسة، وجُنة لمن تحصن به من أولي الأمر والسياسة، وجمال لمن تحلى به من أهل الآداب والمحاضرة، وعنوان لمن فاوض به من أهل المجالسة والمذاكرة.

وسمّيته: [سراج الملوك]، يستغني الحكيم بدراسته عن مباحثه الحكماء^(١) والملوك عن مشاورة الوزراء.

واعلموا - وفقكم الله - أن أحقّ من أُهديت إليه الحكم، وأوصلت إليه النصائح، وحُمِلت إليه العلوم، من آتاه الله سلطاناً، فنقذ في الخلق حكمه، وجاز عليهم قوله.

ولما رأيت الأجل المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين، خالصة أمير المؤمنين [أبا عبدالله محمد الآمري]^(٢)، أدام الله لإعزاز الدين نصره، وأنفذ في العالمين بالحق أمره، وأوزع كافة الخلق شكره، وكفاهم فيه محذوره وضره، فقد تفضّل الله تعالى به على المسلمين، فبسط فيهم يده، ونشر في مصالح أحوالهم كلمته، وعرف الخاص والعام يمينه وبركته، وتقلّد أمور الرعية، وسار فيهم على أحسن قضية، متحريراً للصواب، راغباً في الثواب، طالباً سبل^(٣) العدل، ومناهج الإنصاف والفضل، رغبت أن أخصّه بهذا الكتاب، رجاء لطف الله تعالى، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، ولنذكر فضائله ومحاسنه ما بقي الدهر، كما قيل:

الناس يَهْدُون عَلَى قَدَرِهِمْ لَكِنِّي أَهْدِي عَلَى قَدْرِي
يَهْدُونَ مَا يَفْنَى وَأَهْدِي الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ وَالْدَّهْرِ
فإن العلمَ عصمةُ الملوك والأمراء، ومَعْقِلُ السلاطين والوزراء، لأنه يمنعهم من الظلم، ويردهم إلى الحلم، ويصدّهم عن الأذية، ويعطّفهم على الرعية،

(١) في (خ) العلماء.

(٢) في (ط) الأموي، والآمري نسبة إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي، انظر ترجمته في مقدمة المحقق.

(٣) في (ط) سبيل.

فمن حقهم أن يعرفوا حقّه، ويكرموا حملته، ويستبطنوا أهله^(١)، وهذه أبواب هذا الكتاب، وعدتها أربعة وستون باباً:

الجزء الأول

(يحتوي على اثنين وثلاثين باباً)^(٢):

- الباب الأول : في مواعظ الملوك .
- الباب الثاني : في مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلطين .
- الباب الثالث : فيما جاء في الولاة والقضاة وما في ذلك من الغرر والخطر .
- الباب الرابع : في معرفة ملك سليمان بن داود عليهما السلام، ووجه طلبه للملك، وسؤاله : أن لا يؤتاه أحد من بعده .
- الباب الخامس : في فضل الولاة والقضاة إذا عدلوا .
- الباب السادس : في أن السلطان مع رعيته مغبون غير غابن، وخاسر غير رابح .
- الباب السابع : في بيان الحكمة في كون السلطان في الأرض .
- الباب الثامن : في منافع السلطان ومضاره .
- الباب التاسع : في معرفة منزلة السلطان من الرعية .
- الباب العاشر : في معرفة خصال ورد الشرع بها، فيها نظام الملك والدول .
- الباب الحادي عشر : في معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان، ولا ثبات له بدونها .
- الباب الثاني عشر : في معرفة الخصال التي زعم الملوك أنها أزال دولتهم وهدمت سلطانهم .

(٢) من إضافات المحقق .

(١) يستبطنوا أهله : أي يجعلوهم بطانة لهم .

- الباب الثالث عشر : في معرفة الصفات الراتبة ، التي زعم الحكماء أنها لا تدوم معها مملكة .
- الباب الرابع عشر : في الخصال المحمودة في السلطان ، وقد اتفقت الحكماء واللماء عليها .
- الباب الخامس عشر : في معرفة الخصال التي يعزّ بها السلطان .
- الباب السادس عشر : في معرفة الخصال التي هي ملاك أمور السلطان .
- الباب السابع عشر : في معرفة خير السلطان وشر السلطان .
- الباب الثامن عشر : في معرفة منزلة السلطان من القرآن .
- الباب التاسع عشر : في معرفة خصال جامعة لأمر السلطان .
- الباب العشرون : في معرفة الخصال التي هي أركان السلطان .
- الباب الحادي والعشرون : في بيان حاجة السلطان إلى العلم .
- الباب الثاني والعشرون : في وصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل بن زياد في العلم .
- الباب الثالث والعشرون : في معرفة العقل والدهاء والمكر .
- الباب الرابع والعشرون : في الوزراء وأوصافهم .
- الباب الخامس والعشرون : في الجلساء وآدابهم .
- الباب السادس والعشرون : في معرفة الخصال التي هي جمال السلطان .
- الباب السابع والعشرون : في المشاورة والنصيحة .
- الباب الثامن والعشرون : في الحلم ومحاسنه ، ومحمود عواقبه .
- الباب التاسع والعشرون : فيما يسكن به الغضب .
- الباب الثلاثون : في الجود والسخاء .
- الباب الحادي والثلاثون : في معرفة الشحّ والبخل وما يتعلق بهما .
- الباب الثاني والثلاثون : في معرفة الصبر وجميل عواقبه .

* * *

الجزء الثاني

(يحتوي علي اثنين وثلاثين باباً) (١):

- الباب الثالث والثلاثون : في كتمان السر ومحاسنه .
- الباب الرابع والثلاثون : في بيان الخصلة التي هي رهن بسائر الخصال ، وزعيم بالمزيد من الآلاء والنعماء من ذي الجلال والإكرام وهي الشكر .
- الباب الخامس والثلاثون : في بيان السيرة التي يصلح عليها الأمير والمأمور ، وتسهل صحبة الخلئق أجمعين .
- الباب السادس والثلاثون : في بيان الخصلة التي فيها غاية كمال السلطان ، وشفاء الصدور ، وراحة القلوب ، وطيبة النفوس .
- الباب السابع والثلاثون : في معرفة الخصلة التي هي ملجأ الملوك عند الشدائد ، ومעقل السلاطين عند اضطراب الممالك .
- الباب الثامن والثلاثون : في بيان الخصلة الموجهة لزم الرعية للسلطان .
- الباب التاسع والثلاثون : في مثل السلطان العادل والجائر .
- الباب الأربعون : فيما يجب على الرعية إذا جار السلطان .
- الباب الحادي والأربعون : في كما تكونوا يؤلّ عليكم .
- الباب الثاني والأربعون : في بيان الخصلة التي بها تصلح الرعية .
- الباب الثالث والأربعون : فيما يملك السلطان من الرعية .
- الباب الرابع والأربعون : في التحذير من صحبة السلطان .
- الباب الخامس والأربعون : في صحبة السلطان .
- الباب السادس والأربعون : في سيرة السلطان مع الجند .
- الباب السابع والأربعون : في سيرة السلطان في استجباء الخراج .
- الباب الثامن والأربعون : في سيرة السلطان في الإنفاق من بيت المال .

(١) من إضافات المحقق .

- الباب التاسع والأربعون : في سيرة السلطان في بيت المال (١).
- الباب الخمسون : في سيرة السلطان في تدوين الدواوين ، وفرض الأرزاق وسيرة العمال .
- الباب الحادي والخمسون : في أحكام أهل الذمة .
- الباب الثاني والخمسون : في بيان الصفات المعتمدة في الولاية .
- الباب الثالث والخمسون : في بيان الشروط والعهود التي تؤخذ على العمال .
- الباب الرابع والخمسون : في هدايا العمال والرشا على الشفاعات .
- الباب الخامس والخمسون : في معرفة حسن الخلق .
- الباب السادس والخمسون : في الظلم وشؤمه وسوء عاقبته .
- الباب السابع والخمسون : في السعاية والنميمة وقبحهما ، وما يؤول إليه أمرهما من الأفعال الرديئة والعواقب الذميمة .
- الباب الثامن والخمسون : في القصاص وحكمته .
- الباب التاسع والخمسون : في الفرج بعد الشدة .
- الباب الستون : في الشجاعة وثمراتها .
- الباب الحادي والستون : في الحروب وتدابيرها .
- الباب الثاني والستون : في القضاء والقدر وأحكامهما .
- الباب الثالث والستون : وهو جامع من أخبار ملوك العجم وحكاياتهم .
- الباب الرابع والستون : مشتمل على حكم مأثورة منشورة .
- (وهو آخر الكتاب وكمال الأبواب) .

* * *

(١) جاء هذا العنوان والذي سبقه كل منهما مكان الآخر أثناء الشرح .

سيرة الملك المؤيد

الجزء الأول

من الباب الأول

إلى

الباب الثاني والثلاثين

الباب الأول في مواعظ الملوك

لقد خاب من كان حظه من الله الدنيا

اعلم أيها الرجل - وكلنا ذلك الرجل - أن عقول الملوك وإن كانت كباراً، إلا أنها مشغوفة بكثرة الأشغال، فيستدعي من الموعظة ما يتولج عن تلك الأفكار، ويتغلغل في مكامن تلك الأسرار، فيرفع تلك الأستار، ويفك تلك الأكنة^(١) والأقفال، ويصقل ذلك الصدأ والرآن^(٢).

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]. فوصف الله تعالى جميع الدنيا بأنها متاع قليل، وأنت تعلم أنك ما أوتيت من ذلك القليل إلا قليلاً، ثم ذلك القليل، إن تمتعت به ولم تعص الله فيه، فهو لهو ولعب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾^(٣) [العنكبوت: ٦٤]. ثم قال: ﴿وإن الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

فلا تبع أيها العاقل لعباً قليلاً يفنى، بحياة الأبد حياة لا تفنى وشباب لا يبلى، كما قال الفضيل^(٤) - رحمه الله - لو كانت الدنيا ذهباً يفنى، وكانت الآخرة خزفاً يبقى، لوجب أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى، على ذهب يبقى؟!!

تأمل بعقلك، هل أتاك الله من الدنيا ما أتى سليمان بن داود عليهما السلام؟ حيث آتاه ملك جميع الدنيا، والإنس والجن، والطير والوحش والرياح ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾^(٥) [ص: ٣٦] ثم زاده الله ما هو أعظم منها، فقال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩] فوالله

(١) الأكنة: الستائر والأغطية، أكنة الشيء: ستره ووقاؤه.

(٢) الرآن: الغطاء ويطلق على الدنس وعلى الصدأ أيضاً. سقطت من «ط»: قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

(٣) وتامم الآية: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

(٤) الفضيل: هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، شيخ الحرم المكي ومن أكابر العباد

الصالحين الزاهدين، توفي سنة ١٨٧ هـ (حلية الأولياء ٨ / ٨٤، وطبقات ابن سعد ٥ / ٥٠٠).

(٥) وتاممها: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾.

ما عدّها نعمة كما عدّدتموها، ولا حسبها رفعةً ومنزلةً كما حسبتموها، بل قال عند ذلك: ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]، وهذا فصل الخطاب، لمن تدبر أن يقول له ربه في معرض المنّة: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنِ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩]، ثم خاف سليمان عليه السلام، أن يكون استدراجاً من حيث لا يعلم، هذا وقد قال لك ولسائر أهل الدنيا: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقال: ﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

تأمل بعقلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: « لو كانت الدنيا تزِنُ عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » (١).

وألقِ سمعك إلى ما نزل به جبريل عليه السلام من عند الله تعالى، علي محمد ﷺ، فقال: « يا محمد: إن الله يقول لك: عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به » (٢).

فانظر ما اشتملت عليه هذه الكلمات من تصرُّم (٣) العمر، وفراق الأحبة، والجزاء على الأعمال، فلو لم ينزل من السماء غيرها لكانت كافية .

انظر بفهمك إلى ما رواه الحسن (٤). أن النبي ﷺ، مرَّ بمنزل قوم قد ارتحلوا عنه، وإذا طلاً (٥) مطروحٌ فقال: «أترون هذا هان على أهله؟» فقالوا: من هوانه عليهم القوه، قال: «فوالذي نفسي بيده، للدنيا أهون على الله من هذا على أهله» (٦)، فجعل الدنيا أهون على الله من الجيفة المطروحة .

(١) رواه الترمذي والضياء عن سهل بن سعد بلفظ «تعدل» بدل تزِن، والحديث صحيح. (الجامع الصغير ج ٢ / ص ١٣١، رقم ٧٤٨٠).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن جابر وأبي نعيم في الحلية عن علي، والحاكم في المستدرک، والشيرازي في الألقاب، عن سهل بن سعد، والحديث صحيح، وله بقية أوردها السيوطي، وهي: [واعلم إن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزّه استغناؤه عن الناس]. (الجامع الصغير ج ١ / ص ٧، رقم ٨٩).

(٣) تصرُّم العمر: قصره وانقطاعه .

(٤) أي الحسن البصري: وهو الحسن بن يسار أبو سعيد، إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه، من العلماء التابعين الفقهاء الفصحاء النساك، كان ذا هيبة، وله مع الحجاج بن يوسف مواقف، وقد سلم من أذاه، مات سنة ١١٠ هـ (الوافي بالوفيات ١٢ / ١٩٠) وغيره.

(٥) الطلي: هو الصغير من أولاد الغنم .

(٦) أخرجه الترمذي في الزهد، وابن ماجه، من رواية المستورد بن شداد، كما أخرجه مسلم من رواية جابر بن عبد الله (شرح السنة للإمام البغوي ج ١٤ / ص ٢٢٨).

وقال أبو هريرة : قال لي النبي ﷺ : « ألا أريك الدنيا جمعاً بما فيها؟ » قلت : بلى . قال : فأخذ بيدي وأتى بي إلى واد من أودية المدينة ، فإذا منزلة فيها رؤوس الناس ، وعذرات^(١) . وخرق بالية ، وعظام البهائم ، ثم قال : « يا أبا هريرة ، هذه الرؤوس كانت تحرص على الدنيا كحرصكم ، وتأمل آمالكم ، ثم هي اليوم تساقط جلدًا بلا عظم ، ثم هي صائرة رمادًا رمدًا ، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم ، اكتسبوها من حيث اكتسبوها ، ثم قذفوها في بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية رياشهم ولباسهم ، ثم أصبحت والرياح تصفقها ، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ، فمن كان باكيًا على الدنيا فليبك^(٢) » . قال : فما برحنا حتى أشتد بكأؤنا .

وقال ابن عمر^(٣) : أخذ رسول الله ﷺ ، ببعض جسدي فقال : « يا عبد الله كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور^(٤) » .

يا أيها الرجل إن كنت لا تدري متى يفجؤك الأجل ، فلا تغتر بطول الأمل ، فإنه يقسي القلب ويفسد العمل ، وقد عير الله أقواماً مد لهم في الأجل ، فقيست منهم القلوب ، وطال منهم الأمل ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : ١٦] .

أحسنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَأَلَمْتَكَ اللَّيَالِي فَاعْتَرَّتْ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ

يا أيها الرجل ألق إلي سمعك وأعرنِي لبك :

فإن كنت لا تدري متى الموت فاعلمن بأنك لا تبقي إلى آخر الدهر

(١) العذرات : جمع عذره وهي أردأ ما يخرج من الطعام (البراز) .

(٢) قال الحافظ أبو الفضل العراقي في تخريج هذا الحديث : « هذا الحديث لم أجد له أصلاً » انظر : المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ، العراقي (٢ / ٨٧٦ رقمه ٣٢٠٣) .

(٣) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أبو عبد الرحمن ، صحابي جليل نشأ في الإسلام وهاجرا إلى المدينة مع أبيه وشهد فتح مكة ، أفتى الناس في الإسلام ستين سنة ، رفض الخلافة بعد مقتل عثمان ، غزا أفريقية مرتين ، وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة سنة ٧٣ هـ ، وله (٢٦٣٠) حديثاً . (الأعلام ٤ / ١٠٨) .

(٤) رواه البخاري عن ابن عمر بلفظ : [يا عبد الله ، كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل] ، وزاد الإمام أحمد وابن ماجه والترمذي : [وعد نفسك من أهل القبور] ، والحديث صحيح (الجامع الصغير ٩٧ / ٢ ، رقم ٦٤٢١) .

ابن آدم : أين آدم أبو الأولين والآخرين ؟ أين نوح شيخ المرسلين ؟ أين إدريس رفيع رب^(١) العالمين ؟ أين إبراهيم خليل الرحمن ؟ أين موسى الكلیم من بين النبيين والمرسلين ؟ أين عيسى روح الله وكلمته ، رأس الزاهدين وإمام السائحين ؟ أين محمد ﷺ خاتم النبيين وحبيب رب العالمين ، وسيد الأولين والآخرين ؟ أين أصحابه الأبرار المنتخبون ؟ أين الأمم الماضية ؟ أين الملوك السالفة ؟ أين القرون الخالية ؟ أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان ؟ أين الذين اغتروا بالأجناد والسلطان ؟ أين الذين افتحموا المخاطر والمخاوف ؟ أين أصحاب السطوة والولايات ؟ أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات ؟ أين الذين قادوا الجيوش والعساكر ؟ أين الذين عمروا القصور والدساكر^(٢) ؟ أين الذين أعطوا النصر في مواطن الحروب والمواقف ؟ أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب ؟ أين الذين تمتعوا في اللذات والمآرب ؟ أين الذين أسرفوا على الخلائق كبراً وعتياً ؟ أين الذين راحوا في الحل بكرة وعشياً ؟ أين الذين استلنوا الملابس أثاثاً ورياً^(٣) ؟ أين الذين ملكوا ما بين الخافقين^(٤) ؟ فخراً وعزاً ؟ أين الذين فرشوا القصور خزاً ويزاً^(٥) ؟ أين الذين تضيعضعت لهم الأرض هيباً وهزاً ؟ أين الذين استدلوا العباد قهراً ولزاً^(٦) ؟ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً^(٧) [مريم : ٩٨] .

أفناهم ، والله مفني الأمم ، وأبادهم مبيد الرّم^(٨) ، وأخرجهم من سعة القصور ، وأسكنهم في ضنك القبور ، تحت الجنادل^(٩) والصخور ، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ، فعاث الدود في أجسادهم ، واتخذ مقبلاً في أبدانهم ، فسالت العيون على الخدود ، وامتألت تلك الأفواه بالدود ، وتساقطت الأعضاء ، وتمزقت الجلود ، وتناثرت اللحوم ، وتقطعت البطون ، فلم ينفعهم ما جمعوا ، ولا أغنى عنهم ما كسبوا .

(١) سقطت كلمة : (رب) من (ط) وقد ورد في القرآن الكريم عن إدريس عليه السلام قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٧] .

(٢) الدساكر : كلمة فارسية مفردتها «دسكرة» وتعني : القرية العظيمة أو البناء كالقصر يكون حواله بيوت يجتمع فيها الشطار .

(٣) رياً : الري بمعنى حسن الحال وكثرة النعمة .

(٤) الخافقين : الخافقان هما المشرق والمغرب ؛ لأن الليل والنهار يخفقان فيهما .

(٥) الخز والبز : الخز هو الحرير أو ما نسج من صوف وحرير أو حرير فقط ، والبز : هي الثياب من الكتان أو القطن .

(٦) اللز : اللزاز شدة الخصومة ويقال : فلان لز شر ، أي لصيق شر لا يقلع عنه ، ويقال : عيش لزز : أي ضيق .

(٧) والركز هو : الصوت الخفي .

(٨) الرّم : البالي من العظام .

(٩) الجنادل : الصخور العظيمة .

أسلمك الأُحبة والأولياء، وهجرَكَ الإِخوانُ والأَصفياء، ونسيكَ القُرباءُ
والبعداء، فأَمْسيتَ ولو نطقتَ لَأَنشَدْتَ قولنا في سِكانِ الثرى، ورهائنِ
التُّربِ، والبلى :

مُقِيمٌ بِالْحُجُونِ^(١) رَهينَ رَمَسٍ^(٢) وأهلي رائجُونَ بِكُلِّ وادٍ
كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ لَهُمْ حَبِيبًا ولا كانوا الأُحبةَ في السَّوادِ^(٣)
فَعُوجُوا لِلسَّلامِ فَإِنْ أَبَيْتُمْ فأومُوا بِالسَّلامِ عَلَي بَعادِ^(٤)
فَإِنْ طَالَ المَدَى وَصَفَا خَلِيلُ سَوانا فأذْكُرُوا صَفوَ الوِدادِ
وذاك أَقَلُّ مالِكَ مِنْ حَبِيبٍ وَأَخْرَهُ إِلَي يَوْمِ التَّنَادِ^(٥)
فلو أَنَّا بِمَوْقِفِكُمْ وَقَفْنَا سَقِينا التُّربَ مِنْ مِهْجِ الفُؤادِ^(٦)

قال مُكْرَمُ بنِ يوسفَ العابد : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل،
أن قف على المدائن والحصون، وأبلغهم عني حرفين : «لا تأكلوا إلا طيبًا،
ولا تتكلموا إلا بالحق»(*) .

ولما دخل يزيدُ الرقاشي^(٧) على عمر بن عبد العزيز^(٨) قال : عَظَنِي يا
يزيد، قال : يا أمير المؤمنين، اعلم أنك أول خليفة تموت، فبكى عمر،
وقال : زدني يا يزيد، فقال : يا أمير المؤمنين، ليس بينك وبين آدم إلا أب
ميت، فبكى وقال : زدني يا يزيد، فقال : يا أمير المؤمنين، ليس بينك وبين
الموت موعد، فبكى وقال : زدني يا يزيد، فقال : يا أمير المؤمنين : ليس بين
الجنة والنار منزل، فسقط مغشيًا عليه .

(١) الحجون : من أحياء مكة المكرمة وفيها المقبرة الكبيرة المشهورة .

(٢) الرمس : القبر مستويًا لا يعلو على وجه الأرض أو تراب القبر . رهين رمس : مرهون ومقيد
ومحبوس بهذا القبر .

(٣) السواد : سواد الناس : عامتهم، وسواد البلدة : ما حولها من الريف والقرى .

(٤) أوموا بالسَّلام على بَعاد : وما : أشار، أو أشيروا بالسَّلام عن بُعد .

(٥) يوم التنادي : هو يوم القيامة، وسمي بذلك : للنداء فيه إلى الحشر .

(٦) مِهْجُ الفؤاد : دماء القلب . (*) ورد هذا الأثر في المجالسة وجواهر العلم (١ / ٨١) .

(٧) يزيد الرقاشي : يزيد بن أبان الرقاشي من المحدثين، وقد اتهم بالوهن في ضبط الحديث، وقال
الذهبي : هو متروك الحديث، توفي سنة ١٣٠ هـ . (سير أعلام النبلاء ج ١٧ / ص ٢٣٣) .

(٨) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، الخليفة الأموي العادل، خلف سليمان بن عبد
الملك سنة ٩٩ هـ، وتوفي سنة ١٠١ هـ، اشتهر بالعدل والصلاح والتقوى، واهتم بالإصلاحات الإدارية
والمالية (تاريخ الخلفاء ١ / ٢٢٨) .

يا أيها الرجل : لا تغفلن عن تذكُّر ما تَتَيَقَّنُهُ من خوف الفناء ، وتقضي المسار بذهاب اللذات ، وانقضاء الشهوات ، وبقاء التبعات وانقلابها حسرات ، وأن الدنيا دارٌ من لا دار له ، ومالٌ من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له ، وعليها يعادي من لا علم له ، وعليها يحسد من لا فقه له من صح فيها سقم ، ومن سلم فيها هرم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها فتن ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، ومُتَشَابِهٌ عتاب ، من ساعاها فاتته (١) ، ومن قعد عنها أتته ، ومن نظر إليها أعمته ، ومن تبصَّر بها بصَّرتَه ، لا خيرها يدوم ، ولا شرها يبقى ، ولا فيها لمخلوق بقاء .

يا أيها الرجل : لا تُخدعن كما خُدع من قبلك ، فإن الذي أصبحت فيه من النعم ، إنما صار إليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يدك بمثل ما صار إليك ، فلو بقيت الدنيا للعالم لم تصر للجاهل ، ولوبقيت للأول لم تنتقل إلى الآخر .

يا أيها الرجل : لو كانت الدنيا كلها ذهباً وفضة ، ثم سلَّمت عليك بالخلافة ، وألقت إليك مقاليدها ، وأفلاذ كبدها ، ثم كنت طريدةً للموت ما كان لك أن تتهنأ بعيش ، لا فخر فيما يزول ، ولا غناء فيما لا يبقى ، وهل الدنيا إلا كما قال الأول : «قَدَّرَ تغلي ، وكنيف (٢) يُملاً» وكما قال الشاعر :

وَلَقَدْ سَأَلْتُ الدَّارَ عَنْ أَخْبَارِهِمْ فَتَبَسَّمتْ عَجَبًا وَلَمْ تُبْدي
حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى الكَنِيفِ فَقَالَ لِي أَمْوَالُهُمْ وَنَوَالُهُمْ عِنْدِي (٣)

ولقد أصاب «ابن السماك» (٤) لما قال له «الرشيد» (٥) : يا ابن السماك

(١) أي : من سابقها في السعي سبقته .

(٢) الكنيف : الساتر ، أو المرحاض .

(٣) النوال : ما يناله الإنسان أو العطاء أو النصيب .

(٤) ابن السماك : هو أبو العباس محمد بن صبيح ، القاضي الكوفي الزاهد المشهور ، كان زاهداً عابداً حسن الكلام صاحب مواعظ ، قدم من الكوفة إلى بغداد زمن هارون الرشيد فمكث بها مدة ، ثم رجع إلى الكوفة ومات فيها سنة ١٨٣ هـ . (وفيات الأعيان ٤ / ٣٠١ - ٣٠٢) .

(٥) هارون الرشيد : الخليفة العباسي الرابع من أشهر الخلفاء العباسيين ، تولى الخلافة بعد أخيه الهادي أقر الأمن في المقاطعات خاصة الفارسية ، وازدهرت بعهدته التجارة والعلوم والآداب ، وتوفي سنة ١٩٣ هـ .

عظني - وبيده شربة من ماء - فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت لو حُبست عنك هذه الشربة ، أكنت تفتديها بملكك ؟ قال : نعم ، قال : يا أمير المؤمنين : فلو حُبس عنك خُروجُها أكنت تفتديه بملكك ؟ قال : نعم . قال : فلا خير في مُلك لا يساوي شربة ولا بولة .

أيُّها الشاب : لا تَغترَّ بشبابك ؛ فإن أكثر من يموت الشباب ، والدليل عليه : أن أقلّ الناس الشيوخ .

أيُّها الشاب : كم من جمل في التَّنور وأبوه يرعى ، وكم من طفل في التراب وجدّه يحيا .

وقال عليُّ بن أبي طالب^(١) ، رضوان الله عليه ، لأَسْقَف^(٢) قد أسلم : عظني ، قال : يا أمير المؤمنين ، إن كان الله عليك فمن ترجو ؟ قال : أحسنت ، فزِدني ، قال : إن كان الله معك فمَنْ تخاف ؟ قال : أحسنت فزِدني ، قال : أحسب أن الله قد غفر ذنب المذنبين ، أليس قد فاتهم ثواب المحسنين ؟ قال : حسبي ، حسبي ، وبكى أربعين صباحاً .

وقال الحسن^(٣) : قدِم صِعْصِعة^(٤) . - يعني : عم الفرزدق^(٥) - علي النبي ﷺ ، فسمعه يقرأ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ * ومن يعمل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة ٨، ٧] ، فقال : حسبي حسبي ، لا أبالي أن لا أسمع آية غيرها .

وقال سليمان بن عبد الملك^(٦) - لحميد الطويل^(٧) : عظني ، فقال :

(١) علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي - أمير المؤمنين ، رابع الخلفاء الراشدين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وابن عم النبي ﷺ ، وصهره وتربى في حجره واحد الشجعان الأبطال والخطباء والعلماء ، جعل الكوفة دار خلافته إلى أن قتله ابن ملجم سنة ٤٠ هـ .

(٢) الأسقف : من رؤساء النصارى .

(٣) الحسن : أي الحسن البصري - سبقت ترجمته .

(٤) صِعْصِعة : هو صِعْصِعه بن ناجيه ، من أشرف مجاشع في الجاهلية ، جد الفرزدق الشاعر - وليس عمه - أول من قام في تميم بإنقاذ بناتهم من الواد ، وفد على النبي ﷺ وأسلم ، مات سنة ٩ هـ .

(٥) الفرزدق : هو همام بن غالب بن صِعْصِعة ، من شعراء الأمويين الكبار ، ولد بالبصرة ، واشتهر بالمدح والهجاء ، توفي سنة ١١٠ هـ .

(٦) سليمان بن عبد الملك : الخليفة الأموي السابع ، تولى الخلافة بعد أخيه الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، توفي في دابق سنة ٩٩ هـ .

(٧) حميد الطويل : حميد بن أبي حميد الطويل ، أبو عبيدة الخزاعي البصري ، تابعي ، من أهل الحديث ، توفي سنة ١٤٢ هـ .

إِنْ كُنْتَ إِذَا عَصَيْتَ اللَّهَ ظَنَنْتَ أَنَّهُ يَرَاكَ فَلَقَدْ اجْتَرَأْتَ عَلَى رَبِّ عَظِيمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ فَلَقَدْ كَفَرْتَ بِرَبِّ عَظِيمٍ.

وكتب علي بن أبي طالب^(١) رضي الله عنه، إلى سلمان^(٢): إنما مثل الدنيا كمثل الحية، لمسها لين ويقتل سُمها، فأعرض عنها وعمّا يعجبك منها، لقلّة ما يصحبك منها، ودع عنك همومها لما تيقّنت من فراقها، وكن أسرّ ما تكون فيها، أحذر ما تكون منها، فإنّ صاحبها كلّما اطمأنّ فيها إلى سرور أشخص منها إلى مكروه.

وقال أبو العتاهية^(٣):

هِيَ الدَّارُ دَارُ الْأَذَى وَالْقَذَا وَدَارُ الْفَنَاءِ وَدَارُ الْغَيَرِ^(٤)
وَلَوْ نَلْتَهَا بِحَذَائِيرِهَا لَمَتُّ وَلَمْ تَقْضِ مِنْهَا وَطَرِ^(٥)
أَيَا مَنْ يُؤْمَلُ طَوْلَ الْحَيَاةِ وَطَوْلَ الْحَيَاةِ عَلَيْهِ ضَرَرُ
إِذَا مَا كَبُرَتْ وَبَانَ الشَّبَابُ فَلَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَ الْكِبَرِ^(٦)

ولما بلغ مراده من الدنيا، أفضل ما من سمّت إليه نفسه، ورقت إليه همّته، رفضها ونبذها، وقال: هذا سرورٌ لولا أنه غرور، ونعيمٌ لولا أنه عديم، ومملكٌ لولا أنه هُلك، وغناءٌ لولا أنه فناء، وجسيمٌ لولا أنه ذميم، ومحمودٌ لولا أنه مفقود، وغنىٌ لولا أنه مُنى، وارتفاعٌ لولا أنه اتّضاع^(٧)، وعلاءٌ لولا أنه بلاء، وحسنٌ لولا أنه حزن، وهو يومٌ لا وثوق له بغد.

(١) ورد في (ط) أن الكاتب هو: علي بن الحسين، والصحيح أن هذا الكتاب للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجهه إلى سلمان الفارسي قبل أيام خلافته. (انظر: شرح نهج البلاغة، ٥/ ٢١٨).

(٢) هو سلمان الفارسي: صحابي، أصله من مجوس أصبهان، رحل إلى الشام والموصل وعمورية، وقصد بلاد العرب باحثاً عن الحقيقة، وقد لقيه قوم فاستعبدوه، ثم أعانه المسلمون على التحرر وشراء نفسه من صاحبه، كان قوي الجسم صحيح الرأي، فهو الذي دلّ المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب، قال فيه رسول الله ﷺ: «سلمان من آل البيت» توفي سنة ٣٦ هـ.

(٣) أبو العتاهية: إسماعيل بن القاسم العنزي، من قبيلة عنزة، شاعر الكوفة المعروف، أغلب شعره في الزهد، والتنكر للدنيا مع حرصه الشديد على المال، بلغ منزلة عالية عند هارون الرشيد بعد أن اتصل بالمهدي والهادي، توفي سنة ٢١١ هـ، ٨٢٥ م.

(٤) دار الغير: دار الغروب، والزوال والأحداث المتغيرة.

(٥) الوطر: الحاجة والبغية.

(٦) بان الشباب: بعد وانقطع.

(٧) اتّضاع: خضوع وضعف وانحطاط، يقال: تضعّض به الدهر: أي أذله.

يا أيها الرجل : لا تكن كالمنخل ، يرسل أطيّب ما فيه ويمسك الحثالة ، واعلم أن من قسا قلبه لا يقبل الحق ، وإن كثرت رذائله ، قال الله تعالى : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريك آياته لعلكم تعقلون ﴾ * ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴿ [البقرة: ٧٣، ٧٤] ، وذلك إن كثرة الذنوب مانعة من قبول الحق للقلوب ، وولوج المواعظ فيها ، قال الله تعالى : ﴿ كلاً بل رآن على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ [المطففين: ١٤] ، أي غطاها وغشيتها ، فلا تقبل خيراً ، ولا تصيخ (١) لموعظة .

جاء في التفسير : إذا أذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء ، ثم إذا أذنب نكتت نكتة سوداء ، حتى يسود القلب .

وقال حذيفة (٢) : القلب كال كف ، فإذا أذنب العبد انقبض وقبض أصبعاً ، ثم إذا أذنب انقبض ، وقبض أصبعاً أخرى ، ثم كذلك في الثالث ، والرابع ، حتى ينقبض الكف كله ، ثم يطبع الله عليه ، فذلك هو الرآن (٣) .

وقال بكر بن عبد الله (٤) : إذا أذنب العبد صار في قلبه كوخز الإبرة ، ثم كلما أذنب صار فيه كوخز الإبرة ، ثم كلما أذنب صار فيه كوخز الإبرة ، حتى يعود القلب كالمنخل .

وقال الحسن (٥) : هو الذنب على الذنب ، حتى يموت القلب .

وقال ابن شبرمة (٦) : إذا كان البدن سقيماً لم ينفعه الطعام ، وإذا كان القلب مغرمًا بحب الدنيا لم تنفعه الموعظة ، وفيه قيل :

ولا أرى أثراً للذكور في خلدى والحبلى في الصخرة الصماء له أثر (٧)
إذا قسا القلب لم تنفعه موعظة كالأرض إن سبخت (٨) لم ينفع المطر

(١) لاتصيخ : أي لا تصغي ولا تسمع .

(٢) حذيفة بن اليمان أبو عبد الله العبسي : صحابي من رواة الحديث ، أقام بالكوفة وتوفي سنة ٣٦ هـ .

(٣) الران : الغطاء أو الدنس .

(٤) بكر بن عبد الله : بكر بن عبد الله بن عمرو المزني ، بصري تابعي من رواة الحديث ، منهم من اعتبره ثقة ، ومنهم من لم يعتبره كذلك ، توفي سنة ١٠٨ هـ . (تهذيب التهذيب / ابن حجر ١ / ٤٨٤) .

(٥) أي الحسن البصري : سبقت ترجمته .

(٦) ابن شبرمة : عبد الله بن الطفيل ، من معاصري الإمام أبي حنيفة ، كان قاضياً لأبي جعفر المنصور على سواد الكوفة ، وكان فقيهاً عفيفاً حازماً عاقلاً ، يشبه النسّاك ، توفي سنة ١٤٤ هـ .

(٨) سبخت الأرض : لم تحرث ولم تعمّر .

(٧) الخلد : البال والقلب .

ويروى أن أبا العتاهية^(١)، مرّ بـدكان الورّاق^(٢)، وإذا كتاب فيه بيت من الشعر :

لَنْ تَرْجِعَ الْأَنْفُسُ عَنْ غَيِّهَا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا لَهَا زَا جِرُ
فقال : لمن هذا ؟ فقيل : لأبي نواس^(٣) قال : وددتُ أنه لي بنصف شعري .

قال الأصمعي^(٤) : إنَّ النعمان بن امرئ القيس الأكبر^(٥)، الذي بنى الخورنق^(٦) أشرف على الخورنق يوماً، فأعجبه ما أُوتي من الملك والسَّعة، ونفوذ الأمر، وإقبال الوجوه نحوه، فقال لأصحابه : هل أُوتي أحدٌ مثل ما أُوتيت ؟ فقال له حكيم من حكماء أصحابه : أهذا الذي أُوتيت شيء لم يزل ولا يزال، أم شيء كان لمن كان قبلك زال عنه وصار إليك ؟ قال : بل شيء كان لمن قبلي زال عنه وصار إليّ، وسيزول عنيّ، قال : فسُررت بشيء تذهب عنك لذته وتبقى تبعته ؟ قال : فأين المهرَّب ؟ قال : إما أن تقيم وتعمل بطاعة الله، أو تلبس أمساحاً^(٧)، وتلحق بجبل وتعبد ربك فيه، وتفر من الناس حتى يأتيك أجلك، قال : فإذا كان ذلك فمالي ؟ قال : حياة لا موت فيها، وشباب لا هرم فيه، وصحة لا سقم فيها، ومُلْكٌ جديد لا يبلى، قال : فأيّ خير فيما يفنى ؟ والله لأُطلبنَّ عيشاً لا يزول أبداً، ومُلْكاً جديداً . فانخلع من ملكه

(١) أبو العتاهية : الشاعر المشهور، سبقت ترجمته .

(٢) الورّاق : صانع أو صاحب أو بائع الورق والكتب .

(٣) أبو نواس : الحسن بن هانئ، من كبار شعراء العصر العباسي، قرّبه هارون الرشيد، وجعله الأمين شاعره، اتصل بالبرامكة، أسرف في اللهو حتى لقب بشاعر الخمرة، توفي سنة ١٩٨ هـ .

(٤) الأصمعي : عبد الملك بن قُريب، راوية العرب، لغوي بصري من المشاهير، عهد إليه هارون الرشيد بتعليم الأمين وسمّاه «شيطان الشعر»، توفي سنة ٢١٦ هـ (الأعلام ٤ / ١٦٢) .

(٥) هو النعمان بن امرئ القيس بن عمرو اللخمي، ويعرف بالأعور السائح، ملك الحيرة من قبل الفرس في الجاهلية، ولها بعد موت أبيه، كان شجاعاً كثير الغارات، داهية رفيع الذكر، وهو باني قصر الخورنق، وقصر السدير، طال عمره، وزهد عند اكتهاله، واستعاض عن رداء الملك بقباء النسك، وانصرف سائحاً في البلاد، وانقطع خبره فقيل : مات سنة ٣١١ م . (الأعلام، الزركلي ج ٨ / ٣٥) .

(٦) الخورنق : موضع في العراق اشتهر بقصر النعمان بن امرئ القيس، وقد ذكره شعراء الجاهلية، بناء سنمار في ٢٠ سنة، وكان جزاؤه أن رماه النعمان من أعلى شرفاته، فُضِرَ به المثل : «جزاه جزاء سنمار» .

(٧) الأمساح : كساء من نسيج الشعر، يلبس على البدن تقشفاً وقهراً للجسد .

ولبس الأمساح، وسار في الأرض وتبعه الحكيم، وجعلا يعبدان الله حتى ماتا، وفيه يقول عدي بن زيد^(١):

وَتَبَيَّنَ رَبُّ الْخَوْرَنْقِ إِذْ فَكَّ
سِرَّهُ مَالَهُ وَكَثْرَهُ مَا يَمُّ
فَارَعَوَى قَلْبَهُ وَقَدْ قَالَ مَا غَبَّ
أَيْنَ كَسْرِي، كَسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوَشِرُ
وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكِرَامِ مُلُوكُ الرُّ
لَمْ يَهَبْهُ رَيْبُ الْمُنُونِ فَبَادَ الْمُلْدُ
وَفِيهِمْ يَقُولُ الْأَسْوَدُ بْنُ يَعْفر^(٧):

وَلَقَدْ عَلِمْتُ سَوَى الَّذِي نَبَّأْتَنِي
مَاذَا أُؤْمَلُ بَعْدَ آلِ مُحَرَّقٍ
أَرْضُ الْخَوْرَنْقِ وَالسَّديرِ وَبَارِقٍ
أَنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُ ذِي الْأَعْوَادِ^(٨)
تَرْكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ^(٩)
وَالْقَصْرِ ذِي الشَّرَفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ^(١٠)

(١) عدي بن زيد : شاعر جاهلي تميمي من نصارى الحيرة، خدم هرمز ملك الفرس، تزوج هند بنت النعمان بن المنذر، ووشى به أعداء له إلى النعمان بما أوغر صدره، فسجنه وقتله في سجنه بالحيرة سنة ٥٩٠ م، ٣٥ ق. هـ إثر وشاية من أعدائه، يمتاز شعره برقة العاطفة وعمق الثقافة، له ديوان . (الأعلام ٤ / ٢٢٠).

(٢) رب الخورنق : صاحب قصر الخورنق في الحيرة، وهو النعمان بن امرئ القيس .

(٣) السدير : نهر بناحية الحيرة في العراق، وقيل قصر قريب من الخورنق اتخذته النعمان لبعض ملوك العجم .

(٤) ارعوى قلبه : رجع عن جهله وغيه .

(٥) كسرى أنوشروان : من ملوك الفرس الساسانيين، اشتهر بعدله، وصلاحه، مات سنة ٥٧٩ م، وسابور أو شابور : اسم لثلاثة من ملوك الفرس الساسانيين، أحدهم ابن أردشير مؤسس الدولة الساسانية، سنة ٢٢٤ م .

(٦) بنو الأصفر / الروم .

(٧) الأسود بن يعفر النهشلي : شاعر جاهلي يُعرف بأعشى بني نهشل، توفي نحو ٦٠٠ م. (٢٢٢ ق. هـ).

(٨) سبيل ذي الأعواد : يعني بالأعواد ما يحمل عليه الميت (لسان العرب ٤ / ٩٢٢).

(٩) آل محرق : هم المناذرة نسبة إلى المحرق الأكبر أمريء القيس الثاني بن عمرو بن أمريء القيس الأول، أو المحرق الثاني عمرو بن هند . (معجم الألقاب، ص ٢٩٠). إِيَاد: المقصود إِيَاد بن نزار بن معد بن عدنان، من أجداد العرب، ينسب إليه قبائل عربية كثيرة .

(١٠) الخورنق، والسدير، وبارق، والقصر، ذي الشرفات وسنداد : أسماء قصور، وأنها في أرض العراق، فقد قيل : أن السدير قصر، وقيل : النهر . (لسان العرب ٧ / ١١٩). وسنداد : قيل : أنه قصر، وقيل : النهر الذي يطل عليه القصر ذو الشرفات . (لسان العرب ٣ / ٢١٧).

نَزَلُوا بِأَنْقَرَةَ تَسِيلُ عَلَيْهِمْ
أَرْضُ تَخِيرَهَا لَطِيبٌ مَقِيلُهَا
جَرَّتِ الرِّيحُ بِكُلِّ مَا يُلْهِى بِهِ
فَأَرَى النَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهِى بِهِ

مَاءُ الْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ (١)
كَعْبُ بْنُ مَامَةَ (٢) وَابْنُ أُمِّ دُوَادِ (٣)
فَكَاتَهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بَلَى وَنَفَادِ

وقال وهب بن منبه (٤): أصبتُ على غمدان (٥) - وهو قصر سيف بن ذي
يزن (٦)، بأرض صنعاء اليمن، وكان من الملوك الأجلة - مكتوباً بالقلم
المسند (٧)، فترجم بالعربية، وإذا هي أبيات جليلة، وموعظة عظيمة :

بَاتُوا عَلَى قُلُلِ الْأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ
وَاسْتَنْزَلُوا بَعْدَ عَزٍّ مِنْ مَعَاقِلِهِمْ
نَادَاهُمْ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ مَا دَفَنُوا
أَيْنَ الْوُجُوهِ الَّتِي كَانَتْ مُحَجَّبَةً
فَأَفْصَحَ الْقَبْرِ عَنْهُمْ حِينَ سَاءَ لَهُمْ
قَدْ طَالَ مَا أَكَلُوا يَوْمًا وَمَا شَرَبُوا

غُلِبَ الرِّجَالُ فَلَمْ تَنْفَعَهُمُ الْقُلُلُ (٨)
فَأَسْكَنُوا حُفَرًا يَا بئْسَ مَا نَزَلُوا
أَيْنَ الْأَسْرَةِ وَالتَّيْجَانِ وَالْحُلُلِ؟
مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الْأَسْتَارُ وَالْكُلُلُ (٩)
تِلْكَ الْوُجُوهُ عَلَيْهَا الدَّوْدُ يَقْتَتِلُ
فَأَصْبَحُوا بَعْدَ ذَلِكَ الْأَكْلِ قَدْ أَكَلُوا

(١) أنقرة: بكسر القاف - موضع بناوحي الحيرة، وقال بعض العلماء أن أنقرة التي في شعر
الأسود بن يعفر النهشلي، هي أنقرة التي ببلاد الروم، نزلتها إِيَاد بعد أن نفاهم كسرى عن بلاده، وقال
صاحب معجم البلدان: لا أرى الصواب إلا هذا القول . والله أعلم.. (معجم البلدان، ياقوت الحموي
٣٢٣/١). الأطواد: الجبال العظيمة .

(٢) كعب بن مامة: - وليس كعب بن مالك كما ورد في (ط) - وهو كعب بن مامة بن عمرو بن
ثعلبة الأيادي الذي يضرب المثل بجوده، وكان أبوه مامة ملك إِيَاد، يضرب به المثل في الجود، وحسن
الجوار، قال أبو عبيدة: أجواد العرب ثلاثة: كعب بن مامة، وحاتم طي، وهرم بن سنان. (الأعلام
٢٢٩/٥).

(٣) ابن أم دُوَاد: هو جارية بن الحجاج الأيادي المعروف بأبي دُوَاد الشاعر الجاهلي المشهور .
(الأعلام ١٠٦/٢).

(٤) وهب بن منبه: مؤرخ من التابعين، اشتهر بمعرفة أخبار الأقدمين والأنبياء، ولد بصنعاء ومات
فيها سنة ١١٤هـ. (الأعلام ١٢٥/٨).

(٥) غمدان: قصر في صنعاء باليمن يعود تاريخه إلى ما قبل الإسلام . (لسان العرب ١٠١٣/٤) .
(٦) سيف بن ذي يزن: من ملوك العرب اليمانيين، ودهاتهم، حميري، قيل: إن اسمه معد
يكرب، مات سنة ٥٧٤م. (الأعلام ١٤٩/٣).

(٧) القلم المسند: خط كانت تستعمله بنو حمير، وتقدير الكلام: (أصبتُ كلاماً مكتوباً بالخط الحميري).

(٨) قلل الجبال: أعلاها .
(٩) الكلل: الستائر الرقيقة .

قال شيخنا :

قرئ على القاضي أبي الوليد الباجي (١) وأنا أسمع لبعض الشعراء :

ويحك يا أسماء ما شاني
الموت حق فاعلمي نازل
قد كنت ذا مال فلا والذي
ما قرت العين به ساعة
علمي بأني صائر للبلى
وتارك مالي على حاله
لامرأة ابني أو لزوج ابنتي
يسعد في مالي وأشقى به
إن أحسنوا كان لهم أجره

أضللتني والله ما شاني (٢)
فيسري لحدي وأكفاني (٣)
أعطاني العيش وأغناني
إلا تذكرت فأشجاني (٤)
وفاقد أهلي وجيراني
نهباً لشیطان ابن شیطان
يالك من غي وخسران
قوم ذوو غل وشنآن (٥)
وخف من ذلك ميزاني

* * *

(١) أبو الوليد الباجي : القاضي سليمان بن خلف أبو الوليد الباجي ، فقيه أندلسي مالكي ، من رجال الحديث الكبار ، رحل إلى الحجاز ، وبغداد ، والشام ، وعاد إلى الأندلس ، من كتبه «المنتقى» ، مع شرح موطأ مالك ، توفي سنة ٤٧٤ هـ ، صاحبه ولازمه أبو بكر الطرطوشي بسر قسطه ، وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه وأجاز له . (الأعلام ٣ / ١٢٥) .

(٢) الشأن : الحال ، وفي (خ) ما ساني بدل ما شاني .

(٣) في (ط) : [قرب لي لحدي وأكفاني] .

(٤) ما قرت العين : ما اطمأنت . أشجاني : أحزنني .

(٥) الغل : الحقد . والشنآن : العداوة والبغضاء .

فصل: فيمن استبصر من أبناء الملوك عيب الدنيا وفناءها (*) .

وممن استبصر من أبناء الملوك، فرأى عيب الدنيا وفناءها، ونقصها وزوالها، إبراهيم بن أدهم بن منصور^(١) من أبناء الملوك، ملوك خراسان^(٢) من كورة بلخ^(٣)، ولما زهد في الدنيا زهد عن ثمانين سريراً، قال إبراهيم بن بشار^(٤): سألت إبراهيم بن أدهم: كيف كان بدء أمرك حتى صرت إلي هذا؟ قال: غير هذا أولى بك، قلت: يرحمك الله، لعل الله ينفعني به يوماً، ثم سأله ثانية، فقال: ويحك، اشتغل بالله تعالى، ثم سأله ثالثة، فقلت: إن رأيت - يرحمك الله - أن تخبرني لعل الله أن ينفعني، فقال: كان أبي من ملوك خراسان، وكان من المياسير، وكان قد حُبب إلي الصيد، فبينما أنا راكب فرساً وكلبي معي، وأثرت أرنباً أو ثعلباً، فحرّكت فرسي، فسمعت نداءً من ورائي، (يا إبراهيم؛ ليس لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت)، فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أر أحداً، فقلت في نفسي: لعن الله الشيطان، ثم حرّكت فرسي، فسمعت نداءً أقوى من الأول، (يا إبراهيم ليس لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت)، فوقفت مُقَشَّعراً أنظر يمنة ويسرة، فلم أر شيئاً، فقلت لعن الله إبليس، ثم حرّكت فرسي، فسمعت من قربوس^(٥) سرجي، (يا إبراهيم ليس لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت) فوقفت، وقلت: هيهات، جاءني النذير من رب

(*) من إضافات المحقق.

(١) إبراهيم بن أدهم: إبراهيم بن منصور التميمي البلخي، الزاهد المشهور أبو إسحق، سكن الشام وساح وتنسك، كان من الخيار الأفاضل، ومن الثقات في رواية الحديث، توفي في جبله بسوريا سنة ١٦٢ هـ. (الأعلام ١ / ٣١).

(٢) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق، وآخر حدودها مما يلي الهند، تشتمل على أمهات المدن مثل: نيسابور ومرو، وبلخ، وغيرها (معجم البلدان ٢ / ٤٠١).

(٣) الكورة: البقعة التي تجتمع فيها المساكن والقرى. بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، قيل إن الاسكندر هو الذي بناها، دخلها المسلمون في القرن الأول الهجري، زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه. (معجم البلدان ١ / ٥٦٨).

(٤) إبراهيم بن بشار: إبراهيم بن بشار بن محمد المعقلي الخراساني، صاحب إبراهيم بن أدهم وخادمه، فقد روى عنه وجمع أخباره، كما روى أحاديث عن حماد بن زيد والفضيل بن عياض، وقد عمّر دهرًا حيث مات في حدود سنة ٢٤٠ هـ. (تهذيب التهذيب / ابن حجر ج ١ / ١١١).

(٥) القربوس: حنو السرج أي قسمه المقوس المرتفع قدام المقعد ومن مؤخره.

العالمين، والله لا عصيتُ ربِّي ما عصمني بعد يومي هذا، فتوجَّهْتُ إلى أهلي، وخَلَفْتُ فرسي، وجئتُ إلي بعض رعاة أبي، فأخذتُ جُبَّتَه وكساءه، وألقيتُ إليه ثيابي، فلم أزل أرضُ ثِقَلَنِي، وأرضُ تَضْعَنِي، حتى صرتُ إلى العراق، فعملتُ بها أياماً، فلم يصفُ لي شيءٌ من الحلال، فسألتُ بعض المشايخ عن الحلال، فقال : عليك بالشام.

قال : فانصرفتُ إلى مدينة يُقال لها المنصوريَّة، وهي المصيصة^(١)، فعملتُ بها أياماً، فلم يصفُ لي شيءٌ من الحلال، فسألتُ بعض المشايخ، فقال : إن أردتُ الحلال فعليك بطرسوس^(٢)، فإن المباحات بها والعمل كثير، قال : فبينما أنا قاعد على باب البحر؛ إذ جاءني رجل فاكتراني أنظر له بستاناً^(٣)، فتوجهتُ معه، فكنتُ في البستان أياماً كثيرة، فإذا أنا بخادم قد أظَل^(٤)، ومعه أصحاب له، ولو علمتُ أن البستان لخادم ما نظرتُه، فقعَد في مجلسه ثم قال : يا ناطور^(٥)، فأجبتُه، قال : اذهب فأتنا بأكبر رَمَانٍ تقدَّر عليه وأطيبه، فأتيتُه برَمَانٍ، فأخذ الخادم رَمَانَةً فكسرها، فوجدَها حامضة، فقال : يا ناطور^(٥)؛ ما هذا؟ أنت منذ كذا وكذا في بستاننا، تأكل من فاكهتنا ورَمَاننا، لا تعرفُ الحلو من الحامض؟ قلتُ : والله ما أكلتُ من فاكهتكم شيئاً وما أعرفُ الحلو من الحامض. قال : فغمز الخادم أصحابه، وقال : ألا تعجبون من هذا؟ ثم قال لي : لو كنتُ إبراهيم بن أدهم ما زاد على هذا .

فلما كان من الغد، حدث الناس في المسجد بالصفَّة^(٦)، فجاء الناس عنقاً^(٧) إلى البستان، فلما رأيتُ كثرة الناس اختفيتُ، والناس داخلون، وأنا هارب منهم .

(١) المصيصة : مدينة على ساحل البحر المتوسط، بين أنطاكية وبلاد الروم، تجاور طرطوس، (يطلق أيضاً على قرية من قرى الشام قرب بيت لهما . (معجم البلدان ١٦٩ / ٥).

(٢) طرسوس : مدينة بشغور الشام بين أنطاكية وحلب، تقع على نهر طرسوس، فتحها المأمون، فيها دفن . (معجم البلدان ٣١ / ٤).

(٣) أي : استأجرني لأحرس له بستانه، وأحافظ عليه .

(٤) أي : دنا واقترب .

(٥) الناطور : حافظ البستان وحارسه .

(٦) الصفَّة : مصطبة مرتفعة .

(٧) عنقاً : جماعات .

وكان إبراهيم بن أدهم، يأكل من عمل يده، مثل الحصاد، وحفظ البساتين، والعمل في الطين، وكان يوماً يحفظ كرمًا، فمرَّ به جندي، فقال: أعطنا من هذا العنب، فقال: ما أمر به صاحبه، فأخذ يضربه بالسوط، فطأ رأسه، وقال: اضرب رأساً طالما عصى الله، فأنحجز الرجل ومضى.

وقال سهل بن إبراهيم: صحبت إبراهيم بن أدهم، فمرضتُ فأنفق عليَّ نفقته، فاشتريت شهوةً، فباع حماره وأنفق ثمنه عليَّ، فلما تماثلتُ، قلتُ: يا إبراهيم، أين الحمار؟ فقال: بعناه، فقلت: فعلام أركب؟ قال: يا أخي على عنقي، قال: فحملني ثلاث منازل رحمه الله.

وأنشدوا شعراً:

أَيُّهَا الْمَرْءُ إِنَّ دُنْيَاكَ بَحْرٌ طَافَحَ مَوْجُهُ فَلَا تَأْمَنُهَا (١)
وَسَبِيلُ النِّجَاةِ فِيهَا مُبِينٌ وَهُوَ أَخَذَ الْكَفَافَ وَالْقُوتَ مِنْهَا (٢)

وبلغني، أن بالهند يوماً يخرج الناس فيه إلى البرية، فلا يبقى في البلد بشر من طين، لا شيخ كبير، ولا مولود صغير، وهذا اليوم يكون بعد انقراض مائة سنة من يوم مثله، فإذا اجتمع الخلق في صعيد واحد، نادى منادي الملك: لا يصعدن هذا الحجر - الحجر هناك منصوب - إلا من حضر في المجمع الأول، الذي قد خلا من مائة سنة، فربما جاء الشيخ الهرم، الذي قد ذهبت قوته، وعمي بصره، وفني شبابه، وتجيء العجوز تزحف لم يبق منها إلا رسمها، وقد أخنى (٣) الدهر عليها، فيصعدان على الحجر الذي هناك، ويقول الشيخ: حضرت المجمع الأول منذ مائة سنة وأنا طفل صغير، وكان الملك فلاناً..... ويصف الجيوش الماضية، والأمم الخالية، وكيف طحنهم البلى، وصاروا تحت أطباق الثرى، ويقوم خطيبهم فيعظ الناس، ويدكرهم صرعة الموت، وحسرة القوت، فيبكي القوم ويتوبون من المظالم، ويكثرون الصدقات، ويخرجون عن التبعات (٤) ويصلحون على ذلك مدة.

(١) طفح موج البحر: ارتفع كزبد القدر الذي يطفح فوق شفتها.

(٢) سبيل النجاة من الدنيا: أي: طريق النجاة منها أخذ الكفاف من الرزق، وهو ما كفى عن الناس، وكان مقدار الحاجة دون زيادة أو نقصان.

(٣) أخنى عليها الدهر: أهلكها أو جار عليها وغدر بها.

(٤) التبعات: مفردتها: تبعة، وهي ما يترتب على الفعل من خير أو شر، إلا أن استعمالها في الشر أكثر، يقال لهذا الفعل: تبعة. أي: ضرر.

قال وهب بن منبه: صحب رجل بعض الرهبان سبعة أيام؛ ليستفيد منه شيئاً، فوجده مشغولاً عنه بذكر الله تعالى، والفكر لا يفتر، ثم التفت إليه في اليوم السابع، فقال: يا هذا قد علمت ما تريد، حب الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد في الدنيا رأس كل خير، والتوفيق تاج كل خير، فاحذر رأس كل خطيئة، وارغب في رأس كل خير، وتضرع إلى ربك أن يهب لك تاج كل خير، قال: فكيف أعرف ذلك؟ قال: كان جدِّي رجلاً من الحكماء، قد شبّه الدنيا بسبعة أشياء:

فشبّھها بالماء المالح، يغرّ^(١) ولا يروي ويضر ولا ينفع، وبالبرق الخلب^(٢) يغرّ ولا ينفع. وبسحاب الصيف يغرّ ولا ينفع، وبظل الغمام يغرّ ويخذل. وبزهر الربيع ينضّر ثم يصفرّ فتراه هشيماً^(٣)، وبأحلام النائم يرى السرور في منامه، فإذا استيقظ لم يكن في يده إلا الحسرة، وبالعسل المشوب بالسّم الزّعاف^(٤) يغرّ ويقتل.

فتدبرت هذه الأحرف السبعة سبعين سنة، ثم زدت حرفاً واحداً، فشبّھتها بالغول التي تهلك من أجابها، وتترك من أعرض عنها، فرأيت جدي في المنام، فقال: يا بني، أشهد أنك مني وأنا منك، هي والله الغول التي تهلك من أجابها، وتترك من أعرض عنها، قلت: فبأي شيء يكون الزهد في الدنيا؟ قال: باليقين، واليقين بالبصر^(٥)، والبصر بالعين، والعين بالفكر، ثم وقف الراهب، وقال: خذها منّا فلا أراك خلفي إلا متجرّداً بفعل دون قول، فكان ذلك آخر العهد به.

قلت: وقد وصف الله تعالى الدنيا وأهلها بصفة أعمّ من هذه الصفة، فقال سبحانه: ﴿اعلموا أنّما الحياة الدُّنيا لعبٌ ولهُوٌّ وزينةٌ وتفاخُرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غيثٍ أعجبَ الكُفّارَ نباته، ثمَّ يهيجُ فتراهُ مُصَفّراً، ثمَّ يُكونُ حُطّاماً، وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، والكُفّارُ هنا الزُّرّاعُ

(١) يغرّ: يخدع.

(٢) البرق الخلب: قالوا: هو السحاب يومض برقهِ حتى يرجى مطره ثم ينقشع (فهو من الخلافة والخداع).

(٣) الهشيم: كل نبات أو شجر يبس وتكسر.

(٤) السم الزعاف: السم المهلك الذي يقتل سريعاً.

(٥) في (ط) بالصبر خطأ.

فكما أن الزرع يكون في أول نباته أخضر ناعماً اهتزت الأرض به بعد يسسها، فجاءت في العيون كأملح ما يكون، ثم يهيج فتراه مصفراً، أي يكبر ويستوي، فيجف ويحترق، ويتكسر أعلاه، ويستقل بسنبله، ثم يداس فيكون حطاماً، أي تبناً متكسراً متقطعاً. وهذا مثل ضربه الله تعالى لبني آدم، إذ كانوا أطفالاً أول الولادة، وفي حالة الطفولية كأحسن مرأى، يعجبون الآباء، ويفتنون ذوي الأحلام والنهي^(١)، ثم يكبرون فيصيرون شيوخاً، منكسة رؤوسهم، مقوسة ظهورهم، قد ذهب حسنهم ونعمتهم، وفني شبابهم وجمالهم، وذوت غضارتهم ونضارتهم، واستولى عليهم الهرم والشيب، ثم يموتون فيصيرون حطاماً في القبور، كالتبن في الجرين^(٢)، هذا بعدما وصفها بخمس صفات مذمومة: لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر.

وكان الصدر الأول يسمى الدنيا خنزيرة، ولو وجدوا لها إسماً أقبح منه لسموها به، وكانوا يسمونها أم دفر - والدفر: النتن - .

وقال مالك بن أنس^(٣): بلغني أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل، ركب يوماً في زيٍّ عظيم، فانتشر^(٤) له الناس ينظرون إليه أفواجا، حتى مرَّ برجل يعمل شيئاً مكباً عليه، لم يلتفت إليه ولا رفع رأسه إليه، فوقف الملك عليه، وقال: كل الناس ينظرون إليَّ إلا أنت! فقال الرجل: إني رأيت ملكاً مثلك، وكان على هذه القرية فمات هو ومسكين، فدفن إلى جنبه في يوم واحد، وكنا نعرفهما في الدنيا بأجسادهما، ثم كنا نعرفهما بقبريهما، ثم نسفت الريح قبريهما، وكشف عنهما، فاختلطت عظامهما، فلم أعرف الملك من المسكين، فلذلك أقبلت على عملي، وتركت النظر إليك.

وروي أن داود عليه السلام، بينما هو يسبح في الجبال؛ إذ وافى على غار، فنظر فإذا فيه رجل عظيم الخلق من بني آدم، وإذا عند رأسه حجر مكتوب بكتاب محفور فيه: أنا رستم الملك، ملكت ألف عام، وفتحت ألف مدينة،

(١) ذوى النهى: أصحاب العقول.

(٢) الجرين: البيدر أو الموضع الذي يجفف فيه الثمر ونحوه.

(٣) مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري: إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب المالكية، ولمذهبه انتشار كبير في المغرب، ولد وتوفي بالمدينة (٩٣ - ١٧٩ هـ). (الأعلام ٥/ ٢٥٧).

(٤) في (خ) فتشرف له الناس: أي نظروا إليه من الشرفات.

وهزمتُ ألف جيش، وافتترعت^(١) ألف بكر من بنات الملوك، ثم صرتُ إلى ما ترى، فصار التراب فراشي، والحجارةُ وسادي، فمن رآني فلا تغره الدنيا كما غرتني.

وقال وهب بن منبه^(٢): خرج عيسى بن مريم عليه السلام، ذات يوم مع جماعة من أصحابه، فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أمكن من الفرك^(٣)، فقالوا: يا نبي الله، إنا جياعٌ، فأوحى الله إليه، أن أئذن لهم في أقواتهم، فأذن لهم، فتفرقوا في الزرع، يفركون ويأكلون، فبينما هم كذلك، إذ جاء صاحب الزرع، وهو يقول: زرعي وأرضي، ورثته عن آبائي، بإذن من تأكلون يا هؤلاء؟ قال: فدعا عيسى ربّه، فبعث الله تعالى جميع من ملك تلك الأرض، من لدن آدم إلى ساعته، فإذا عند كل سنبلة أو ما شاء الله، رجلٌ أو امرأة، كلهم ينادون: زرعي، وأرضي، ورثته عن آبائي. ففزع الرجل منهم، وكان قد بلغه أمر عيسى عليه السلام، وهو لا يعرفه، فلما عرفه، قال: معذرة إليك يا رسول الله، إنني لم أعرفك، زرعي ومالي لك حلال. فبكي عيسى عليه السلام، وقال: ويحك، هؤلاء كلهم قد ورثوا هذه الأرض وعمروها، ثم ارتحلوا عنها، وأنت مرتحلٌ عنها، وبهم لاحق، ليس لك أرض ولا مال.

وقال أبو العتاهية^(٤):

وَعَظَمْتَ أَجْدَاثَ صُمْتَ	وَنَعَمْتَكَ أَزْمَنَةً خُفْتَ ^(٥)
وَتَكَلَّمْتَ عَنْ أَوْجِهِهِ	تَبَلَّى وَعَنْ صُورٍ سُبَّتْ ^(٦)
وَأَرْتِكَ قَبْرَكَ فِي الْقَبُورِ	ر وَأَنْتَ حَيٌّ لَمْ تَمُتْ
يَا شَامِتًا بِمَنِيَّتِي	إِنَّ الْمَنِيَّةَ لَمْ تَفُتْ ^(٧)
وَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الشَّمَمُ	تُ فَحَلَّ بِالْقَوْمِ الشُّمْتُ ^(٨)

(١) افترع البكر: أزال بكارتها .

(٢) وهب بن منبه: التابعي المؤرخ، سبقت ترجمته .

(٣) أمكن من الفرك: أي نضج وأصبح صالحاً لأن يفرك فيؤكل .

(٤) أبو العتاهية: شاعر الكوفة المعروف، سبقت ترجمته .

(٥) الأجداث: القبور. النعي: الأخبار بالموت. أزمنة خُفت: أي سكنت وبعدت وانقضت .

(٦) صُورٌ سُبَّتْ: نائمة أو بالية لا حراك فيها .

(٧) شَمِتَ شَمَاتًا وشَمَاتة بفلان: أي فرح ببلية .

(٨) القوم الشُّمْتُ: أي ربما حلت البلية بالقوم الشامتين .

وروي أن علي بن أبي طالب (١) رضي الله عنه ، لما رأى فاطمة (٢) رضي الله عنها ، مسجاة (٣) بثوبها ، بكى حتى رثى له (٤) ، ثم قال :

لِكُلِّ اجْتِمَاعٍ مِنْ خَلِيلَيْنِ فُرْقَةٌ
أَرَى عِلَلَ الدُّنْيَا عَلَيَّ كَثِيرَةً
وَإِنْ أَفْتَقَادِي وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ
ثُمَّ قَالَ :

أَلَا أَيُّهَا الْمَوْتُ الَّذِي لَيْسَ تَارِكِي
أَرَاكَ بَصِيرًا بِالَّذِينَ أَحَبَّهُمْ
وَلَمَّا نَفَضَ يَدِيهِ مِنْ تَرَابِهَا ، تَمَثَّلَ بِقَوْلِ بَعْضِ بَنِي ضِبَّةَ (٥) :

أَقُولُ وَقَدْ فَاضَتْ دُمُوعِي حَسْرَةً
أَخْلَايَ ! لَوْ غَيْرُ الْحِمَامِ أَصَابَكُمْ
وَقَالَ الْعَتَابِيُّ (٦) :

قُلْتُ لِلْفَرَقْدَيْنِ وَاللَّيْلِ مُلْقٍ
أَبْقِيَا مَا بَقِيْتُمَا فَسِيرْمِي
غَرَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ يَفُوتَ الْمَنَايَا
كَمْ صَفِيَّيْنِ مُتْعَا بِاجْتِمَاعٍ
لَا يَدُومُ الْبَقَاءُ لِلْخَلْقِ لَكِ
سُودَ أَكْنَافِهِ عَلَى الْآفَاقِ (٨)
بَيْنَ شَخْصَيْكُمَا بِسَهْمِ الْفِرَاقِ
وَعُورَاهَا قَلَائِدُ الْأَعْنَاقِ (٩)
ثُمَّ صَارَا لْغُرْبَةِ وَأَفْتِرَاقِ (١٠)
نَ دَاوُمِ الْبَقَاءِ لِلْخَلْقِ

(١) علي بن أبي طالب : رابع الخلفاء الراشدين ، سبقت ترجمته .

(٢) فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ ، أم الحسين وزوجة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، توفيت بعد رسول الله ﷺ بخمسة أشهر . (الأعلام ٤ / ٢٩٥) .

(٣) مسجاة بثوبها : مغطاة به .

(٤) رثى له : رق الناس لحاله .

(٥) في (ط) بني أمية والصحيح (بني ضبّة) نسبة إلى ضبّة بن أذ ، من بني عدنان ، ومنزلهم في جوار بني تميم ، بالناحية الشمالية من نجد ، وقائل هذه العبارة هو : الغطمش الضبي ، كما ذكر ذلك صاحب لسان العرب (٤ / ٦٧٤ باب : عتب) ، وذكر البيت الأول بلفظ مشابه للمذكور هنا .

(٦) الإخلاء : جمع خليل ، وهو : الصديق . والحمام : الموت . والعتب : الموجدة .

(٧) العتابي : كلثوم بن عمرو التغلبي ، شاعر بليغ من أهل الشام ، مدح الخلفاء والأمراء والبرامكة ، وكان يتكسب بالشعر ، مات سنة ٢٢٠ هـ . (الأعلام ٥ / ٢٣١) .

(٨) الفرقدان : نجمان قريبان من القطب الشمالي يهتدى بهما . الأكناف : الجوانب والظلال ، كنف الطائر : جناحه ، وكنف الإنسان : حضنه .

(٩) العرى : جمع عروة ، وهي طوق القلادة . (١٠) الصفي : الصديق .

وأنشدني بعض الأدباء^(١) :

أسعداني يا نخلتي حلوان وارثيا لي من ريب هذا الزمان^(٢)
ولعمري لو ذقتما حرق الفر قة أبكاكما الذي أبكاني^(٣)
واعلما إن بقيتما أن نحسا سوف يأتكما فتفترقان^(٤)

ولما سافر الرشيد إلى طوس^(٥)، وعك في طريقه من حر أصابه، فقال له الطبيب: لا يبرئك إلا جمار^(٦) النخل، وكان نزوله قريبا من هاتين النخلتين، فأمر بقطع جمار إحدى النخلتين، فلما مثل بين يديه، أنشده بعض الجلساء هذه الأبيات لبعض الشعراء في هاتين النخلتين، فقال الرشيد: لو سمعتهما، ما أمرت بقطعهما .

ولما مات الاسكندر^(٧)، قال أرسطاطاليس^(٨): أيها الملك لقد حركتنا بسكونك . وقال بعض الحكماء من أصحابه: كأن الملك أمس أنطق من اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس، فنظمه أبو العتاهية^(٩) فقال:

كفني حزننا بدفنك ثم إنني نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت من حياتك لي عظام فأنت اليوم أوعظ منك حيا
ووجد مكتوبا على قبر :

«قَهَرَنَا مَنْ قَهَرْنَا، فَصَرِنَا لِلنَّاظِرِينَ عِبْرَةً»

(١) قائل هذه الأبيات هو الشاعر: مطيع بن إياس الكناني المتوفى سنة ١٦٦هـ. كانت له جارية يحبها فاضطر إلى بيعها، ثم ندم على ذلك، ولما نزل حلوان تذكرها وأنشد هذه الأبيات . (معجم البلدان ٢ / ٢٩٢).

(٢) حلوان: المقصود حلوان العراق مدينة في العراق في آخر حدود السواد مما يلي الجبال في بغداد ينتسب إليها الكثير من أهل العلم . (معجم البلدان ٢ / ٢٩٠).

(٣) حرق الفرقة: أي حرارتها، وفي المرجع السابق وردت بلفظ (ألم الفرقة) .

(٤) وكذلك البيت الثالث ورد في معجم البلدان بلفظ: «أسعداني وأيقنا أن....» .

(٥) طوس: مدينة في خراسان بایران، خربها المغول، وينسب إليها الكثير من العلماء . (معجم البلدان ٤ / ٥٥).

(٦) جمار النخلة: قلبها وشحمها، نقول: جمر النخلة إذا قطع جمارها . (لسان العرب، باب: جمر) .

(٧) الإسكندر: من أشهر الفاتحين، لقب بذي القرنين لا تساع فتوحاته، احتل مصر وأسس الاسكندرية سنة ٣٣٢ ق.م، مات بالحمى في بابل سنة ٣٢٣ ق.م . (المنجد في الأعلام / ٤٥) .

(٨) أرسطوطاليس: أو أرسطو، فيلسوف يوناني من كبار مفكري البشرية، وهو معلم ومربي الإسكندر، توفي سنة ٣٢٢ ق.م . (المنجد في الأعلام / ٣٧) .

(٩) أبو العتاهية: شاعر الكوفة المعروف، سبقت ترجمته .

وقال عبد الله بن المعتز (١) :

نَسِيرُ إِلَى الْآجَالِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ
وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْمَوْتِ حَقًّا كَأَنَّهُ
وَمَا أَقْبَحَ التَّفْرِيطِ فِي زَمَنِ الصَّبَا
تَرْحَلُ مِنَ الدُّنْيَا بَرَادٍ مِنَ التُّقَى

وَأَيَّامُنَا تُطْوَى وَهُنَّ مَرَّاحِلُ (٢)
إِذَا مَا تَخَطَّطَهُ الْأُمَانِي بَاطِلُ
فَكَيْفَ بِهِ وَالشَّيْبُ فِي الرَّأْسِ شَاعِلُ
فَعُمُرُكَ أَيَّامٌ تُعَدُّ قَلَائِلُ

ولما دخل أبو الدرداء (٣) . الشام قال : يا أهل الشام ، اسمعوا قول أخ لكم ناصح ، فاجتمعوا عليه ، فقال : مالي أراكم تبنون مالا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون ، إن الذين كانوا قبلكم ، بنو مشيداً (٤) ، وأملوا بعيداً ، وجمعوا كثيراً ، فأصبح أملهم غروراً ، وجمعهم ثبوراً (٥) ، ومساكنهم قبوراً .

وروى الجاحظ (٦) قال : وَجَدَ مَكْتُوبًا عَلَى حَجَرٍ : ابْنُ آدَمَ ، لَوْ رَأَيْتَ يَسِيرَ مَا بَقِيَ مِنْ أَجْلِكَ ، لَزَهَدْتَ فِي طَوْلِ مَا تَرْجُو مِنْ أَمْلِكَ ، وَلِرَغِبْتَ فِي الزِّيَادَةِ مِنْ عَمَلِكَ ، وَلَقَصَّرْتَ مِنْ حِرْصِكَ وَحِيلِكَ ، وَإِنَّمَا يَلْقَاكَ غَدًا نَدَمُكَ ، لَوْ قَدْ زَلَّتْ بِكَ قَدَمُكَ ، وَأَسْلَمَكَ أَهْلُكَ وَحَشَمُكَ ، وَتَبَرَّأَ مِنْكَ الْقَرِيبُ ، وَانْصَرَفَ عَنْكَ الْحَبِيبُ ، فَلَا أَنْتَ فِي عَمَلِكَ زَائِدٌ ، وَلَا إِلَى أَهْلِكَ عَائِدٌ .

وقال مالك بن أنس (٧) : بلغني أن امرأتين أتتا عيسى عليه السلام ، فقالتا : يا رُوحَ الله ، ادعُ الله لنا أن يخرج لنا أبانا ، فإنه هلك ونحن غائبتان عنه ، قال : تعرفان قبره؟ فقالتا : نعم . فذهب معهما فأتيا قبراً ، فقالتا : هذا هو . فدعا الله ، فأخرج

(١) عبد الله بن المعتز : هو عبد الله بن محمد «المعتز بالله» ابن جعفر «المتوكل على الله» ابن محمد «المعتصم بالله» ابن هارون الرشيد ، شاعر مبدع وخليفة يوم وليلة حيث آلت إليه الخلافة لمدة يوم وليلة ، لكن الجند استصفروه حيث بويع وله من العمر ١٣ سنة ، ولقب بالمرتضى ، ولكن أنصار المقتدر جمعوا صفوفهم في اليوم الثاني للبيعة وأخرجوا المقتدر من السجن ، ثم أخذوا عبد الله بن المعتز وعذبوه حتى مات سنة ٢٩٦ هـ . (الأعلام - الزركلي ، ج ٤ / ١١٨) .

(٢) المراحل : جمع مرحلة ، وهي المسافة التي يقطعها المسافر في يومه .

(٣) أبو الدرداء : عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي ، صحابي من رواة الحديث ، ومن الحكماء الفرسان قاضي دمشق في عهد عثمان ، توفي سنة ٣٢ هـ . (الأعلام ٥ / ٩٥) .

(٤) المشيد والمُشيد بمعنى واحد : المَجْصُصُ بالشيء (تاج العروس ، باب : شيد) .

(٥) الثبور : الهلاك والويل .

(٦) الجاحظ : وهو أبو عثمان عمرو بن بحر ، كبير أئمة الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، وله في كل فن تصنيف ، ولد ومات بالبصرة ، قيل : أن الذي قتله مجلدات من الكتب وقعت عليه فمات ، وذلك سنة ٢٥٥ هـ . (الأعلام ٥ / ٧٤) .

(٧) مالك بن أنس : إمام دار الهجرة ، سبقت ترجمته .

لهما ، فإذا هو ليس به ، فدعا فردً ، ثم دلتاه على قبرٍ آخر ، فدعا أن يخرج فخرج ، فإذا هو ، فلزمتاه وسلّمتا عليه ، ثم قالتا : يا نبيّ الله ، يا معلّم الخير ، ادع الله تعالى أن يبقيه معنا ، فقال : وكيف أدعوه ولم يبق له رزق يعيش به ؟ ثم رده وانصرف .

وأنشدني بعض الأدباء (*) :

وَأَسْفِي مِنْ فِرَاقِ قَوْمٍ هُمُ الْمَصَابِيحُ وَالْحَصُونُ
وَالْمُزْنُ وَالْمَدَنُ وَالرَّوَاسِي وَالْخَيْرُ وَالْأَمْنُ وَالسَّكُونُ^(١)
لَمْ تَتَغَيَّرْ بِنَا الْإِيَالِي حَتَّى تَوْفَّقْتَهُمُ الْمَنُونُ^(٢)
فَكُلُّ جَمْرٍ لَنَا قُلُوبٌ وَكُلُّ مَاءٍ لَنَا عُيُونُ

وروي أن النعمان بن المنذر^(٣) . خرج متصيّداً ، ومعه عدي بن زيد^(٤) ، فمروا بشجرة ، فقال عديّ بن زيد : أيها الملك ، أتدري ما تقول هذه الشجرة ؟ قال : لا ، قال : إنها تقول :

مَنْ رَأَانَا فَلْيَحْدِثْ نَفْسَهُ أَنَّهُ مُوفٍ عَلَى قُرْبِ زَوَالٍ^(٥)
وَصُرُوفُ الدَّهْرِ لَا يَبْقَى لَهَا وَلَمَّا تَأْتِي بِهِ صُمُّ الْجَبَالِ
رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالمَاءِ الزَّلَالِ
عَمَرُوا الدَّهْرَ بَعِيشٍ حَسَنٍ آمَنِي دَهْرَهُمْ غَيْرُ عَجَالِ
عَصَفَ الدَّهْرُ بِهِمْ فَأَنْقَرَضُوا وَكَذَاكَ الدَّهْرُ حَالاً بَعْدَ حَالِ

قال : ثم جاوزوا الشجرة ، فمروا بمقبرة ، فقال له عديّ : أيها الملك ، أتدري ما تقول هذه المقبرة ؟ قال : لا ، قال : إنها تقول :

أَيَا الرُّكْبِ الْمُخْبُونَا عَلَى الْأَرْضِ الْمُجْدُونَا^(٦)
كَمَمَا أَنْتُمْ كَذَا كُنَّا كَمَمَا نَحْنُ تَكُونُونَا

(*) نسب صاحب كتاب وفيات الأعيان هذه الأبيات إلى الشاعر الوزير عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، الشاعر الوزير ، توفي سنة ٣٠٠هـ .

(١) المزن : السحاب . الرواسي : الجبال .

(٢) في تاريخ بغداد وكتاب الأمالي في لغة العرب : [لم تتغير لنا الليالي ...] .

(٣) النعمان بن المنذر : أشهر ملوك الحيرة اللخمين وآخرهم ، خلعه كسرى وسجنه في المدائن ، وعرف بأبي قابوس ، وقيل : أنه صاحب يومي «البؤس والنعيم» ، مات حوالي سنة ٦٠٨ م . (الأعلام ٨ / ٤٣) .

(٤) عدي بن زيد : سبقت ترجمته .

(٥) في (ط) سؤال بدل زوال ، وكلاهما صحيح ، وفي الحماسة البصرية (قروب الزوال) .

(٦) الركب : أصحاب الإبل في السفر ، والخب ضرب من المشي . والمعنى : أنكم تسيرون بجد وسرعة .

فقال النعمان : قد علمتُ أنَّ الشجرة والمقبرة لا يتكلمان ، وقد علمت أنك إنما أردت عظتي ، فجزاك الله عني خيراً ، فما السبيل الذي تدرك به النجاة ؟ قال : تدع عبادة الأوثان ، وتعبد الله وحده ، قال : وفي هذه النجاة ؟ قال : نعم . فترك عبادة الأوثان ، وتنصر يومئذ ، وأخذ في العبادة والاجتهاد .

وقال عبد الله بن المعلم^(١) : خرجنا من المدينة حجاجاً ، فلما كنا بالروثة^(٢) نزلنا ، فوقف بنا رجل عليه ثياب رثة ، ليس له منظر وهيئة ، فقال : من يبغي خادماً ؟ من يبغي ساقياً ؟ فقلت : دونك هذه القرية ، فأخذها فانطلق ، فلم يلبث إلا يسيراً ، حتى أقبل وقد امتلأت أثوابه طيناً ، فوضعها كالمسرور الضاحك ، ثم قال : لكم غير هذا ؟ قلنا : لا ، وأطعمناه قرصاً بارداً ، فأخذه وحمد الله تعالى وشكره ، ثم اعتزل وقعد ، فأكله أكل جائع ، فأدركتني عليه الرأفة ، فقممت إليه بطعام طيب كثير ، فقلت له : قد علمت أنه لم يقع منك القرص بموقع ، فدونك هذا الطعام .

فنظر في وجهي وتبسم ، وقال : يا عبد الله ، إنما هي فورة جوع ، فما أبالي بأي شيء رددتها ، فرجعت عنه ، فقال لي رجل إلى جنبي : أتعرفه ؟ قلت : لا ، قال : إنه من بني هاشم ، من ولد العباس بن عبد المطلب^(٣) كان يسكن البصرة ، فتاب فخرج منها ، فتفقد فما عرف له أثر ، ولا وقف له على خبر ، فأعجبني قوله ، ثم اجتمعت به وأنستة ، وقلت له : هل لك أن تعادلني^(٤) ؟ فإن معي فضلاً من راحلتي ، فجزاني خيراً ، وقال : لو أردت هذا لكان لي معداً . ثم أنس إلي ، فجعل يحدثني ، فقال : أنا رجل من ولد العباس ، كنت أسكن البصرة ، وكنت ذا كبرٍ شديد وبذخ ، وإني أمرت خادماً لي أن تحشو فراشاً لي من حرير ، ومخدةً بوردٍ نشير ، ففعلت ، وإني لنائم إذا بقمع وردة قد أغفلته الخادم أيقظني ، فقممت إليها فأوجعتها ضرباً ، ثم عدت إلى مضجعي بعد إخراج القمع من المخدة ، فأتاني آت في منامي في صورة فظيعة ، فhezني وقال :

(١) عبد الله بن محمد بن فضلولية المعلم ، من أئمة الإمامية الرافضة .

(٢) الروثة : قال ياقوت الحموي في معجم البلدان : « هي مكان على بعد ليلة من المدينة » ونقل عن الحافظ في الفتح : « إنها قرية جامعة بينها وبين المدينة سبعة عشر فرسخاً » ، ونقل عن الزهري قوله : « الروثة منهلة من المناهل التي بين المسجدين ، يقصد مكة والمدينة » . (معجم البلدان ٣ / ١١٩) .

(٣) العباس بن عبد المطلب : عم النبي ﷺ ، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام ، إليه ينسب العباسيون ، توفي سنة ٣٢ هـ . (الأعلام ٣ / ٣٢) .

(٤) تعادلني : ترافقني وتركب معي ، يقال : عادله في المحمل : أي ركب معه .

أَفَقَ مِنْ غَشِيَتِكَ ، أَبْصَرَ مِنْ حَيْرَتِكَ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

يَا خَدُّ إِنَّكَ إِنْ تَوَسَّدَ لَيْنَا وَسَدَّتْ بَعْدَ الْمَوْتِ صُمَّ الْجَنْدَلِ (١)
فَأْمَهَدَ لِنَفْسِكَ صَاعِدًا تَسْعَدُ بِهِ فَلَتَنَدَمَنَّ غَدًا إِذَا لَمْ تَفْعَلِ (٢)
فَانْتَبَهَتْ فَرَعًا ، فَخَرَجَتْ مِنْ سَاعَتِي هَارِبًا إِلَى رَبِّي .

وقال عبد الواحد بن زيد (٣) : ذَكَرَ لِي أَنَّ فِي جَوَانِبِ الْأُبْلَةِ (٤) ، جَارِيَةً
مَجْنُونَةً تَنْطِقُ بِالْحِكْمَةِ ، فَلَمْ أَزَلْ أَطْلُبُهَا ، حَتَّى وَجَدْتُهَا فِي خَرَابَةٍ جَالِسَةً عَلَى
حَجَرٍ ، وَعَلَيْهَا جَبَّةٌ صَوْفٌ ، وَهِيَ مَحْلُوقَةُ الرَّأْسِ ، فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَيْهَا ، قَالَتْ مِنْ
غَيْرِ أَنْ أَكَلِمَهَا : مَرْحَبًا بِكَ يَا عَبْدَ الْوَاحِدِ ، فَقُلْتُ لَهَا : رَحِبَ اللَّهُ بِكَ ،
وَعَجِبْتُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا لِي ، وَلَمْ تَرْنِي قَبْلَ ذَلِكَ ، فَقَالَتْ : مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ هَهُنَا ؟
فَقُلْتُ : جِئْتُ لَتَعْظِيْنِي ، فَقَالَتْ : وَاعْجِبَاهُ لَوَاعِظُ يُوعِظُ ، ثُمَّ قَالَتْ : يَا عَبْدَ
الوَاحِدِ ، اْعْلَمْ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ فِي كِفَايَةٍ ، ثُمَّ مَالَ إِلَى الدُّنْيَا ، سَلَبَهُ اللَّهُ حُلَاوَةَ
الزَّهْدِ ، فَيُظَلُّ حَيْرَانَ وَالْهَاءِ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ عِنْدَ اللَّهِ عَاتِبَهُ وَحِيًّا فِي سِرِّهِ ،
فَقَالَ : يَا عَبْدِي أَرَدْتُ أَنْ أَرْفَعَ قَدْرَكَ عِنْدَ مَلَائِكَتِي وَحِمْلَةَ عَرْشِي ، وَأَجْعَلَكَ
دَلِيلًا لِأَوْلِيَائِي وَأَهْلٍ طَاعَتِي فِي أَرْضِي ، فَمَلَّتْ إِلَيَّ عَرَضٌ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا
وَتَرَكْتَنِي ، فَوَرَّثْتُكَ بِذَلِكَ الْوَحْشَةَ بَعْدَ الْأُنْسِ ، وَالذُّلَّ بَعْدَ الْعِزِّ ، وَالْفَقْرَ بَعْدَ
الْغِنَى ، عَبْدِي : ارْجِعْ إِلَيَّ مَا كُنْتَ عَلَيْهِ أَرْجِعْ لَكَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُهُ مِنْ نَفْسِكَ .

ثُمَّ تَرَكْتَنِي وَوَلَّتْ عَنِّي ، وَانْصَرَفَتْ عَنْهَا ، وَبِقَلْبِي حَسْرَةٌ مِنْهَا ، وَأَنْشَدُوا (٥) :

إِنَّكَ فِي دَارٍ لَهَا مُدَّةٌ يُقْبَلُ فِيهَا عَمَلُ الْعَامِلِ
أَمَا تَرَى الْمَوْتَ مُحِيطًا بِهَا يَقْطَعُ فِيهَا أَمَلَ الْآمِلِ
تَعْجَلُ الذَّنْبَ بِمَا تَشْتَهِي وَتَأْمَلُ التَّوْبَةَ مِنْ قَابِلِ
وَالْمَوْتُ يَأْتِي بَعْدَ ذَا غَفْلَةٍ مَاذَا بَفَعَلَ الْحَازِمُ الْعَاقِلِ

(١) الجندل : الصخر العظيم .

(٢) امهد لنفسك صاعدًا تسعد له : هيء لنفسك عملاً صالحاً ومنزلة عالية تسعد بها في الآخرة ،
وفي (خ) : صالحاً بديل صاعداً .

(٣) عبد الواحد بن زيد : الزاهد القدوة شيخ العباد ، أبو عبيدة البصري من المحدثين الوعاظ ،
مات بعد الخمسين ومائة هـ . (سير أعلام النبلاء ج ٧ / ١٧٩) .

(٤) الأبله : أعظم ثغور فارس شأنًا وأشدّها شوكة ، وكان أميرها «هرمز» من أسوأ أمراء الفرس معاملة
للعرب ، وهي الثغر الذي كانت تسير التجارة منه إلى الهند والسند . (أيام العرب في الإسلام ص ١٨٦) .

(٥) وردت الأبيات هذه في تاريخ مدينة دمشق (٥٦ / ٢٢٨) .

بنت النعمان بن المنذر في حوار مع سعد بن أبي وقاص (*) :

ولما نزل سعد بن أبي وقاص^(١) الحيرة، قيل له : ههنا عجوز من بنات الملوك، يقال لها : الحرقة بنت النعمان بن المنذر^(٢)، وكانت من أجل عقائل^(٣) العرب، وكانت إذا خرجت إلى بيعتها^(٤)، نُشرت عليها ألف قطيفة حرير وديباج، ومعها ألف وصيف ووصيفة، فأرسل إليها سعد فجاءت كالشنّ البالي^(٥)، فقالت : يا سعد، كُنّا ملوك هذا المصر قبلك، يُحمل إلينا خراجُه، ويطيعنا أهلُه مدةً من المُدد، حتى صاح بنا صائح الدهر، فشئتَ شملنا، والدهر ذو نوائب وصروف، فلو رأيتنا في أيامنا، لارتعدت فرائصك فرعاً منا .

فقال لها سعد : ما أنعم ما تنعمتم به ؟ .

قالت : سعة الدنيا علينا، وكثرة الأصوات إذا دعونا، ثم أنشأت تقول :

وبينا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرنا إذا نحن فيهم سوقةٌ ليس نُنصفُ^(٦)
فتباً لدارٍ لا يدومُ نعيمها ثقلبُ تاراتٍ بنا وتُصرفُ

ثم قالت : يا سعد، إنه لم يكن أهل بيت بخير^(٧)، إلا والدهر يعقبهم غبرة، حتى يأتي أمرُ الله على الفريقين، فأكرمها سعد، وأمر بردها، فلما أرادت القيام، قالت : يا سعد، لا أزال الله عنك نعمةً، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا نزع عن كريم نعمة، ولا أزال عن عبد صالح نعمة، إلا وجعلك الله سبيلاً إلى ردها عليه .

(*) من إضافات المحقق، وقد وردت هذه الحكاية بكاملها في كتاب : [المجالسة وجواهر العلم ٣٧٩-٣٨٠] مع اختلاف بسيط في بعض ألفاظها .

(١) سعد بن أبي وقاص : أحد الصحابة ومن العشرة المبشرين بالجنة، قاد جيوش المسلمين في فتح بلاد فارس وانتصر على رستم في القادسية، بنى الكوفة، وتوفي سنة ٥٥ هـ . (الأعلام ٣/ ٨٧) .
(٢) الحرقة بنت النعمان بن المنذر بن امرئ القيس، من بني لخم، شاعرة من بيت الملك في قومها بالحيرة . (الأعلام ٢/ ١٧٣) .

(٣) العقيلة : كريمة الحي، (في كتاب المجالسة وجواهر العلم : كانت أجمل عقائل العرب) .

(٤) البيعة : المعبد للنصارى واليهود .

(٥) الشنّ البالي : القربة التي يبست وتشنّجت من القدم أو الهرم .

(٦) السوقة : الرعية من الناس ؛ لأن الملك يسوقهم ويصرفهم إلى ما شاء من أمره .

(٧) في (خ) : [لم يكن أهل بيت «بحبرة»] . والحبرة : هي النعمة والخير ، [وكذلك في المجالسة وجواهر العلم ٣٨٠/ ١] .

ولبعضهم :

مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ يُدْرِكُهُ
وَأَنَّهُ بَيْنَ جَنَّتٍ سَتُبْهَجُهُ
فَكُلُّ شَيْءٍ سِوَى التَّقْوَى بِهِ سَمَجٌ
تَرَى الَّذِي اتَّخَذَ الدُّنْيَا لَهُ وَطَنًا
وَالْقَبْرَ مَسْكَنَهُ وَالْبَعْثَ مَخْرَجَهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ نَارَ سَتُنْضَجُهُ
وَمَا أَقَامَ عَلَيْهِ مِنْهُ أَسْمَجُهُ (١)
لَمْ يَدْرِ أَنَّ الْمَنِيَا سَوْفَ تُزْعَجُهُ

وروي أن عيسى عليه السلام، كان مع صاحب له يسيحان، فأصابهما الجوع، وقد انتهيا إلى قرية، فقال عيسى لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية، وقام عيسى يصلي، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة، فأبطأ عليه انصراف عيسى، فأكل رغيماً، فانصرف عيسى (٢) فقال: أين الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا رغيفين، قال: فمرأ على وجوههما حتى مرا بظباء ترعى، فدعا عيسى عليه السلام ظبياً منها، فذكاه فأكلا منه، ثم قال عيسى عليه السلام للظبي: قم بإذن الله، فإذا هو يشدد، فقال الرجل: سبحان الله، فقال عيسى: بالذي أراك هذه الآية، من صاحب الرغيف (٣)؟ قال: ما كانا إلا اثنين.

قال: فمضيا على وجوههما، فمرأ بنهر عجاج (٤) عظيم، فأخذ عيسى عليه السلام بيده، فمشى به على الماء، حتى جاوزا الماء، فقال الرجل: سبحان الله، فقال عيسى عليه السلام: بالذي أراك هذه الآية، من صاحب الرغيف؟ قال: ما كانا إلا اثنين، فخرجا حتى أتيا قرية عظيمة خربة، وإذا قريب منها ثلاث لبنات (٥) من ذهب، فقال الرجل: هذا مال؟ فقال عليه السلام: أجل هذا مال، واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة لصاحب الرغيف، فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف، فقال عيسى عليه السلام: هي لك كلها، ففارقه، فأقام عليها ليس معه ما يحملها عليه، فمر به ثلاثة نفر، فقتلوه، وأخذوا اللبن، فقال اثنان منهم لواحد: انطلق إلى القرية، فأتنا بطعام،

(١) سَمَجٌ: قبح، فهو سَمَجٌ.

(٢) أي انتهى من الصلاة.

(٣) أي من أكل الرغيف.

(٤) العجاج: الصياح، والشديد الثائر، الذي له صوت صاخب.

(٥) اللبن: واحده لبنة وهو المضروب من الطين أو غيره.

فذهب ، فقال أحد الباقيين للآخر : تعال نقتل هذا إذا جاء ، ونقسم هذا بيننا ، قال الآخر : نعم ، وقال الذي ذهب يشتري الطعام : أَجْعَلُ فِي الطَّعَامِ سُمًّا فَأَقْتُلَهُمَا وَآخِذَ اللَّبَنِ ، ففعل ، فلما جاء قتلاه ، وأكلا من الطعام الذي جاء به ، فماتا ، فمرّ بهم عيسى عليه السلام ، وهم حولها منصريعين ، فقال : هكذا تفعل الدنيا بأهلها .

وقال عبد الملك بن عمير^(١) : رأيت في هذا القصر عجباً ، رأيت رأس الحسين^(٢) ، على ثوبين مصبوغين بين يدي ابن زياد^(٣) ، ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار^(٤) ، ثم رأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير^(٥) ، ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير بين يدي عبد الملك بن مروان^(٦) .

وقال الأصمعي^(٧) : لما زخرف الرشيد^(٨) مجالسه ، وتحرم^(٩) فيها وزوّقها ، وصنع فيها طعاماً كثيراً ، أرسل إلى أبي العتاهية^(١٠) ، وقال : صِفْ لَنَا

(١) عبد الملك بن عمير : عبد الملك بن عمير بن سويد اللخمي ويعرف بالقبطي ، من رواة الحديث الشقة ، من رجال الشيخين ، عالم فصيح ، كان قاضياً على الكوفة بعد الشعبي ، عمّر طويلاً ، ومات سنة ١٣٦ هـ . (وفيات الأعيان ٣ / ص ١٦٤) .

(٢) الحسين : الابن الثاني للإمام علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء رضي الله عنهم جميعاً ، أقام في المدينة ، ورفض مبايعة يزيد بن معاوية ، استشهد في كربلاء في ١٠ محرم ٦١ هـ . (الأعلام ٢ / ٢٤٣) .

(٣) ابن زياد : هو عبيد الله بن زياد بن أبيه ، عامل الأمويين في العراق ، هو الذي قتل مسلم بن عقيل والحسين بن علي في معركة كربلاء ، ومن ثم قتله إبراهيم الأشتر قائد المختار الثقفي سنة ٦٧ هـ . (الأعلام ٤ / ١٩٣) .

(٤) المختار : المختار بن عبيد الثقفي من الزعماء الثائرين على الأمويين ، ثار في الكوفة طلباً بثار الحسين ، قضى عليه مصعب بن الزبير بعد حصاره في الكوفة سنة ٦٧ هـ . (الأعلام ٧ / ١٩٢) .

(٥) مصعب بن الزبير : أخو عبد الله بن الزبير ونائبه في العراق ، قاوم الخوارج وقضى على المختار الثقفي ، وقد قتله عبد الملك بن مروان سنة ٧١ هـ . (الأعلام ٧ / ٢٤٧) .

(٦) عبد الملك بن مروان : الخليفة الأموي الخامس ، ولد بالمدينة وتوفي في دمشق ، وحّد البلاد بعد أن قضى على مصعب بن الزبير وأخيه عبد الله ، حارب الخوارج وقمع ثورة ابن الأشعث ، عربّ دواوين الدولة وصلك النقود الذهبية ، توفي سنة ٨٦ هـ . (الأعلام ٤ / ١٦٥) .

(٧) الأصمعي : أبو سعيد عبد الملك بن قريب ، لغوي بصري مشهور ، عهد إليه الرشيد بتعليم الأميين ، ومن أشهر كتبه «الأصمعيات» في رواية أشعار العرب ، فهو أحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، توفي بالبصرة سنة ٢١٦ هـ . (الأعلام ٤ / ١٦٢) .

(٨) هارون الرشيد الخليفة الأموي الخامس : سبقت ترجمته .

(٩) تحرم فيها : أي تمنع وتحصن فيها .

(١٠) أبو العتاهية : شاعر الزهد المعروف ، سبقت ترجمته .

ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا، فقال :

عَشْ مَا بَدَأَ لَكَ سَالِمًا فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ
يَسْمَعِي عَلَيْكَ بِمَا اشْتَهَيْتَ لَدَى الرُّوَّاحِ وَفِي الْبُكُورِ
وَإِذَا النُّفُوسُ تَقَعَّقَعَتْ فِي ضَيْقِ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ^(١)
فَهُنَاكَ تَعْلَمُ مُوَقِنًا مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ

فبكى هارون، فقال الفضل بن يحيى^(٢) : بعث إليك أمير المؤمنين لتُسِرَّهُ فأحزنته، فقال هارون : دعه، فإنه رآنا في ضلالةٍ وعمى، فكره أن يزيدنا عمى .

ويروى أن سليمان بن عبد الملك^(٣)، لبس أفخر ثيابه، ومس أطيب طيبه، ونظر في مرآته، فأعجبته نفسه، وقال : أنا الملك الشاب، وخرج إلى الجمعة، وقال لجاريتته : كيف ترين؟ فقالت :

أَنْتَ نَعَمَ الْمَتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ
لَيْسَ فِيمَا بَدَأَ لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ عَابَهُ النَّاسُ غَيْرَ أَنَّكَ فَانِي

فأعرض بوجهه ثم خرج، فصعد المنبر، وصوته يُسمعُ آخر المسجد، فركبته الحمى، فلم يزل صوته ينقص، حتى ما سمعه من حمله، فصلى ورجع بين اثنين يسحب رجله، فلما صار على فراشه، قال لجاريتته : ما الذي قلت لي في صحن الدار وأنا خارج؟ قالت : ما رأيتك، ولا قلت لك شيئاً، وأنى لي بالخروج إلى صحن الدار ؟

فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون، نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي، ثم عهد عَهْدَهُ، وأوصى وصيَّته، فلم تدُر عليه الجمعة الأخرى إلا وهو في قبره .

ووجد مكتوباً على قصر سيف بن ذي يزن^(٤) :

(١) تقعقت : اضطربت . وحشرج : غرغر عند الموت وتردد نفسه .

(٢) الفضل بن يحيى البرمكي : من الأسرة الفارسية التي تولى أبنائها الوزارة في عهد الرشيد، وهو أخو الرشيد بالرضاعة ومؤدب الأمين بن هارون الرشيد، توفي سجيناً بالرقعة سنة ١٩٣ هـ، إثر ما عرف بنكبة البرامكة سنة ١٨٧ هـ . (الأعلام ٥ / ١٥١) .

(٣) سليمان بن عبد الملك : الخليفة الأموي السابع، سبقت ترجمته .

(٤) سيف بن ذي يزن : من ملوك العرب، سبقت ترجمته .

مَنْ كَانَ لَا يَطْأُ التُّرَابَ بِرِجْلِهِ وَطِئَ التُّرَابَ بِنَاعِمِ الْخَدِّ
مَنْ كَانَ بَيْنَكَ فِي التُّرَابِ وَبَيْنَهُ شَبْرَانِ كَانَ بَغَايَةَ الْبُعْدِ
لَوْ بُعْثِرَتْ لِلنَّاسِ أَطْبَاقُ الثَّرَى لَمْ يَعْرِفِ الْمَوْلَى مِنَ الْعَبْدِ

وقال الهيثم بن عدي^(١): وجدوا غاراً في جبل لبنان زمان الوليد بن عبد الملك^(٢)، وفيه رجل مسجى على سرير من ذهب، وعند رأسه لوح من ذهب، مكتوب فيه بالرومية: أنا سبأ بن نواس بن سبأ، خدمت عيصو بن إسحق بن إبراهيم خليل الرب الديان الملك الأكبر، وعشت بعده عمراً طويلاً، ورأيت عجباً كثيراً، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت، وهو يرى مصارع آبائه، ويقف على قبور أحبائه، ويعلم أنه صائر إليهم، ثم لا يتوب، وقد علمت أن الأجلاف الجفافة، سينزلونني عن سريرتي ويتمولونني، وذلك حين يتغير الزمان، وتتأمر الصبيان، ويكثر الحدثان^(٣). فمن أدرك هذا الزمان، عاش قليلاً ومات ذليلاً.

ويروى أن الإسكندر^(٤) مرَّ بمدينة قد ملكها أملاك^(٥) سبعة، وبادوا، فقال: هل بقي من نسل الأملاك الذين ملكوا هذه المدينة أحد؟ فقالوا: رجل يكون في المقابر، فدعا به، وقال له: ما دعاك إلى لزوم المقابر؟ قال: أردت أن أعزل عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدت ذلك سواء، قال: فهل لك أن تتبعني، فأحيي بك شرف أبائك إن كانت لك همّة؟ قال: إن همّتي لعظيمة إن كانت بغيتي عندك، قال: وما بغيتك؟ قال: حياة لا موت فيها، وشباب لا هرم فيه، وغنى لا يتبعه فقر، وسرور لا يعتريه مكروه. قال: ما أقدر على هذا، قال: فانفذ لشأنك، وخلصني أطلب بغيتي ممن هي عنده، فقال الاسكندر: هذا أحكم من رأيت.

(١) الهيثم بن عدي: أبو عبد الرحمن الطائي الكوفي، المؤرخ، اتهمه البخاري، وابن معين والنسائي بأنه كذاب، أو متروك الحديث، قيل: أنه كان يرى رأي الخوارج، توفي سنة ٢٠٧ هـ. (سير أعلام النبلاء ج ١٠ / ١٠٤).

(٢) الوليد بن عبد الملك: الخليفة الأموي السادس، بلغت الدولة في عهده أوج عزّها، وصلت جيوشه إلى بخارى وسمرقند وطنجة والهند، شيّد الجامع الأموي في دمشق والمسجد الأقصى في القدس، توفي سنة ٩٦ هـ. (الأعلام ٨ / ١٢١).

(٣) الحدّثان: صغيرو السن.

(٤) الإسكندر: من أشهر الفاتحين، سبقت ترجمته.

(٥) أملاك: جمع ملك، وتجمع ملك على ملوك وأملاك.

وروي في الاسرائيليات^(١) : أن عيسى بن مريم عليه السلام، بينما هو في بعض سياحته، إذ مر بجمجمة نخرة^(٢)، فأمرها أن تتكلم، فقالت : يا روح الله، أنا «بلوام بن حفص» ملك اليمن، عشت ألف سنة، وولد لي ألف ذكر، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف عسكر، وقتلت ألف جبار، وافتتحت ألف مدينة، فمن رأيي فلا يغترّ بالدنيا كما غرّتني، فما كانت إلا كحلم نائم، فبكى عيسى عليه السلام .

ووجد مكتوباً على قصر بعض الملوك، وقد باد أهله واقفرت ساحته :
هذى منازل أقوامٍ عهدتهم يوفون بالعهد مذ كانوا وبالذمم
تبكى عليهم ديارٌ كان يطربها ترنم المجد بين الحلم والكرم
وقال عبد الله بن أبي نوح^(٣) : نزل حي من العرب، شعباً^(٤) من شعاب اليمن، فتشاحنوا فيه واختلفوا، واستعدوا للقتال، فإذا صائح يصيح : يا هؤلاء، على رسلكم^(٥)، علام القتال في؟ فوالله لقد ملكني سبعون أعور، كلهم اسمه عمرو .

* * *

فصل: في الاعتبار من أخبار السابقين(*) :

أيها الرجل : اعتبر بمن مضى من الملوك والأقيال^(٦)، وخلاً من الأمم والأجيال، وكيف بسطت لهم الدنيا، وأنشئت لهم الآجال، وانفسح لهم في

(١) أجاز العلماء أحاديث الاسرائيليات ما لم يتأكد كذبها، فقد صح عن رسول الله ﷺ قوله : «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، رواه أبو داود عن أبي هريرة، والحديث صحيح «الجامع الصغير رقم ٣٦٩١». وقد ذكر الطروشى مثل هذه الحكاية عن داود عليه السلام كما ذكر مثلها عن وهب بن منبه عن عيسى عليه السلام .

(٢) نخرة : بالية .

(٣) هكذا في (ط) عبد الله بن أبي نوح - غير معروف - وفي (خ) عبد الله بن أبي سرح . ولعل الصحيح أنه : [عياض بن عبد الله بن أبي سرح] وهو مدني تابعي ثقة (انظر الرواية في كتاب الهواتف لابن أبي الدنيا ١ / ٨٨، وكتاب معرفة الثقات للعجلي ٢ / ١٩٨) .

(٤) الشعب : الطريق في الجبل . (٥) على رسلك : على مهلك .

(*) من إضافات المحقق .

(٦) الأقيال : مفردا القيل، وهو الرئيس، وقد كان الملك من ملوك حمير يُسمى بذلك ؛ لأنه إذا قال قولاً نفذ قوله .

الْمُنَى وَالْأَمَالَ، وَأُمِدُّوا بِالْآلَاتِ وَالْعُدَدِ وَالْأَمْوَالِ، كَيْفَ طَحْنَهُمْ بِكُلِّكَلِهِ (١)
 الْمُنُونِ، وَاخْتَدَعَهُمْ بِزَخْرَفِهِ الدَّهْرُ الْخَوْنُ (٢)، وَأُسْكِنُوا بَعْدَ سَعَةِ الْقُصُورِ بَيْنَ
 الْجَنَادِلِ (٣) وَالصَّخُورِ، وَعَادَ الْعَيْنُ (٤) أَثْرًا، وَالْمَلِكُ خَبْرًا، فَأَمَّا الْيَوْمُ فَقَدْ
 ذَهَبَ صَفْوُ الزَّمَانِ وَبَقِيَ كَدْرُهُ، فَالْمَوْتُ الْيَوْمَ تَحْفَةَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، كَأَنَّ الْخَيْرَ
 أَصْبَحَ خَامِلًا، وَالشَّرُّ أَصْبَحَ نَازِرًا، وَكَأَنَّ الْغَبَى أَصْبَحَ ضَاحِكًا وَالرَّشِيدَ بَاكِيًا،
 وَكَأَنَّ الْعَدْلَ أَصْبَحَ غَائِرًا، وَأَصْبَحَ الْجَوْرُ عَالِيًا، وَكَأَنَّ الْعَقْلَ أَصْبَحَ مَدْفُونًا
 وَالْجَهْلَ مَنْشُورًا، وَكَأَنَّ اللَّوْمَ أَصْبَحَ بَاسِقًا، وَالْكَرَمُ خَاوِيًا، وَكَأَنَّ الْوَدَّ أَصْبَحَ
 مَقْطُوعًا وَالْبَغْضَاءُ مُوصُولَةً، وَكَأَنَّ الْكِرَامَةَ قَدْ سَلَبَتْ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَتُوْحِي
 بِهَا الْأَشْرَارَ، وَكَأَنَّ الْخَبَّ (٥) أَصْبَحَ مُسْتِيقِظًا وَالْوَفَاءُ نَائِمًا، وَكَأَنَّ الْكَذِبَ
 أَصْبَحَ مَثْمِرًا وَالصَّدَقَ مَاحِلًا، وَكَأَنَّ الْأَشْرَارَ أَصْبَحُوا يُسَامُونَ (٦) السَّمَاءَ،
 وَأَصْبَحَ الْأَخْيَارُ يَرْدُونَ بَطْنَ الْأَرْضِ، أَمَا تَرَى الدُّنْيَا تُقْبِلُ إِقْبَالَ الطَّالِبِ، وَتُدْبِرُ
 إِدْبَارَ الْهَارِبِ، وَتَصِلُ الْمَلُولُ (٧)، وَتَفَارِقُ فِرَاقَ الْعَجُولِ، فَخَيْرُهَا يَسِيرُ،
 وَعِيشُهَا قَصِيرُ، وَإِقْبَالُهَا خَدِيعَةٌ، وَإِدْبَارُهَا فَجِيعَةٌ، وَلَذَاتُهَا فَانِيَةٌ، وَتَبَعَاتُهَا
 بَاقِيَةٌ، فَاعْتَنِمِ غَفْوَةَ الزَّمَانِ، وَانْتَهِزْ فُرْصَةَ الْإِمْكَانِ، وَخُذْ مِنْ نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ،
 وَتَزَوَّدْ مِنْ يَوْمِكَ لْغَدِكَ، وَلَا تَنَافَسْ أَهْلَ الدُّنْيَا فِي خَفْضِ عِيشِهِمْ، وَلِيْنِ
 رِيَاشِهِمْ (٨)، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى سُرْعَةِ ظَعْنِهِمْ (٩)، وَسَوْءِ مُنْقَلَبِهِمْ، قَالَ الشَّاعِرُ (١٠):

رُبَّ مَغْرُوسٍ يُعَاشُ بِهِ عَدَمَتُهُ عَيْنٌ مَغْتَرِسُهُ
 وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ مَاتُمُهُ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُرْسِهِ

(١) الكلكل: الصدر، أو ما بين الترقوتين، الكلكل من الفرس: ما بين محزمه إلى ما مس الأرض منه إذا ربض .

(٢) الخؤون والخوان: كثير الخيانة .

(٣) الجنادل: الصخور العظيمة .

(٤) العين: شريف القوم، أو ما يشاهد ويعاين .

(٥) الخب: الخداع .

(٦) من سما يسموا: أي علا وارتفع .

(٧) الملول: سريع الملل والسأم .

(٨) الرياش: ما كان فاخرًا من الأثاث .

(٩) ظعنهم: رحيلهم وسفرهم .

(١٠) هذه الأبيات للشاعر الضرير سليمان بن مسلم بن الوليد (انظر الوافي بالوفيات

١٥ / ٢٦١، والبيان والتبيين ١ / ٤٨٦) .

وقد قال التهامي (١):

قُصَارَى غَنَاها أَنْ تُسَوَّلَ إِلَى الْفَقْرِ
تُظَنَّ وَقُوفًا وَالزَّمَانُ بِهَا يَجْرِي

نُفَاسٌ فِي الدُّنْيَا غُرُورًا وَإِنَّمَا
وَإِنَّا لِفِي الدُّنْيَا كَرَكَبٍ سَفِينَةٍ

ولبعض الشعراء:

وَتَحَدَّثُ مِنْ بَعْدِ الْأُمُورِ أُمُورٌ
وَتَطْلُعُ فِيهَا أَنْجَمٌ وَتَغُورُ (٢)
فَذاكَ مُحَالٌ لَا يَدُومُ سُرُورٌ
وَأَيَقُنَنَّ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

تَرُوحُ لَكَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ الَّذِي غَدَتْ
وَتَجْرِي اللَّيَالِي بِاجْتِمَاعٍ وَفُرْقَةٍ
فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الدَّهْرَ بَاقٍ سُرُورُهُ
عَفَا اللَّهُ عَنْ صَيْرِ الْهَمِّ وَاحِدًا

وقال وهب بن منبه (٣): قرأتُ في كتب بعض الأنبياء عليهم السلام، أن المسيح عليه السلام اجتاز بجمجمة هائلة عظيمة نخرة، فقال له أصحابه: يا روح الله، لو سألت الله تعالى أن يستنطق هذه الجمجمة؟ فعسى تخبرنا بما رآته من العجائب، ففعل، فأنطقها الله تعالى، فقالت: يا روح الله، إنني عشت ألف سنة، واستولدت ألف ذكر، وافتتحت الدهر واختبرته، وامتحتن قلبه وانقلابه، فلم أر شيئاً أشد من طالح يلي أمر صالح، ولم أجد لهذا الدهر شيئاً أنفع من الصبر، ومسالمة أهله، ولم أر هلاك أهله إلا في الحرص والطمع، ووجدت العز في الرضا بالقسم (٤).

وقال محمد بن أبي العتاهية (٥): آخر شعر قاله أبي في مرضه الذي توفي فيه رحمه الله:

(١) التهامي: علي بن محمد التهامي، أبو الحسن، شاعر مشهور من أهل تهامة - بين الحجاز واليمن - قُتل في السجن سنة ٤١٦ هـ في القاهرة إثر قيامه بنشاط سياسي سري، حيث كان معه كتاب من حسان بن مفرج الطائي الذي استقل ببادية فلسطين إلى بني قرة - قبيل عسيانهم بمصر - فعلمت به حكومة مصر، فاعتقل وحبس، ثم قتل في السجن. (الأعلام - الزركلي، ج ٤ / ٣٢٧).

(٢) تغور: تغرب وتذهب.

(٣) وهب بن منبه: المؤرخ التابعي، سبقت ترجمته، وقد ذكر الطرطوشي مثل هذه الحكاية أكثر من مرة مع بعض الزيادة.

(٤) القسم: أي الحظ والنصيب من الخير.

(٥) محمد بن أبي العتاهية: محمد بن إسماعيل بن القاسم، والده الشاعر العراقي أبو العتاهية المشهور، وقد حذا محمد حذو أبيه في شعر الزهد، مات سنة ٢٤٤ هـ، وقد سبقت ترجمة أبي العتاهية.

إِلَهِي لَا تُعَذِّبْنِي فَإِنِّي
فَمَالِي حِيلَةٌ إِلَّا رَجَائِي
وَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ لِي فِي الْبَرَايَا
إِذَا فَكَّرْتُ فِي قَدَمِي عَلَيْهَا
أَجْنُ بَزْهَرَةِ الدُّنْيَا جُنُونًا
وَبَيْنَ يَدَيَّ مَيِّقَاتٌ عَظِيمٌ
وَلَوْ أَنِّي صَدَقْتُ اللَّهَ فِيهَا
يُظَنُّ النَّاسُ بِي خَيْرًا وَإِنِّي

مُقَرَّرٌ بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنِّي
وَعَفْوُكَ إِنَّ عَفْوَتَ وَحُسْنُ ظَنِّي
وَأَنْتَ عَلَيَّ ذُو فَضْلٍ وَمَنْ
عَضَضْتُ أَنَامِلِي وَقَرَعْتُ سِنِّي (١)
وَأَقْطَعُ طُولَ عَمْرِي بِالتَّمَنِّي
كَأَنِّي قَدْ دُعِيتُ لَهُ كَأَنِّي
قَلْبْتُ لِأَهْلِهَا ظَهَرَ الْمَجْنُ (٢)
لَشَرِّ النَّاسِ إِنْ لَمْ تَعْفُ عَنِّي (٣)

وقال ابن عباس (٤) : لما ورد عبد القيس (٥) على رسول الله ﷺ فقال :
«أيكم يعرف قُسن بن ساعدة (٦)؟» قالوا : كلنا نعرفه يا رسول الله ، قال رجل :
لست أنساه بعكاظ علي جمل أحمر ، وهو يخطب الناس ، ويقول : أيها الناس ،
اجتمعوا ، فإذا اجتمعتم فاسمعوا ، فإذا سمعتم فعوا ، فإذا وعيتم فقولوا ، فإذا
قلتم فاصدقوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إن في
السماء لخبرا ، وإن في الأرض لعبرا ، مهاد موضوع (٧) ، وسقف مرفوع ، ونجوم
تمور (٨) ، وبحر لا يغور ، أقسم قسن قسم حق لا كذب فيه ولا إثم ، لئن كان في
الأرض رضا ليكونن سخطا ، إن لله ديننا هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم
عليه ، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أو تركوا
على حالهم فناموا ؟ ثم قال : أيكم يروي شعره ؟ فأنشدوه :

(١) قرع سنه : كناية عن الندم .

(٢) يقال قلب له ظهر المجن : أي تغير عليه وعاده .

(٣) سقط هذا البيت من (ط) .

(٤) ابن عباس : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ، الصحابي الجليل ، والذي
يلقب بحبر الأمة ، توفي سنة ٦٨ هـ . (الأعلام ٤ / ٩٥) .

(٥) في (خ) «لما وفد وفد عبد القيس» ، وعبد القيس بن أقصى بن دُعَمَى ، قبيلة كبيرة مشهورة
من أهل البحرين ، وفدوا على رسول الله ﷺ فرحب بهم وقال : «نعم القوم عبد القيس» ، وكان على
رأسهم عبد الله الأشج ، والذي قال له رسول الله ﷺ : «فيك خصلتان يحبهما الله ، الحلم والأناة» .
(الطبقات الكبرى - ابن سعد - ج ٥ ص ٥٥٧) .

(٦) قسن بن ساعده : خطيب جاهلي من حكماء العرب ، كان أسقف نجران ، وكان يعظ القوم في
عكاظ ، توفي نحو ٦٠٠ م . (الأعلام ٥ / ١٩٦) .

(٧) المهاد : الفراش أو الأرض المنخفضة . والوضع : خلاف الرفع . (٨) تمور : تظهر وتغيب .

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا
ورَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيْكَ
سَكَنُوا الْبُيُوتَ فَوَطَّنُوا
أَيَقْنْتُ أَنِّي لَا مَحَا

مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ^(١)
لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
تَمْضِي الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَابِرُ
وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرُ
إِنَّ الْبُيُوتَ هِيَ الْمَقَابِرُ
لَهُ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

ثم قال الرجل : لقد رأيتُ منه عجباً ، اقتحمتُ وادياً ، فإذا أنا بعينٍ جارية ، وروضةٍ مدهامة^(٢) ، وشجرةٍ عادية ، وإذا بقس بن ساعدة ، قاعد في أصل الشجرة ، وبیده قضيب ، وقد ورد علي العین سبع كثيرة ، فكلما ورد سبع علي صاحبه ضربه بالعصا ، وقال : تنح حتي يشرب الذي ورد قبلك ، فلما رأيت ذلك دُعرت دُعراً شديداً ، فالتفت إلي ، وقال : لا تخف ، فالتفت فإذا بقبرين بينهما مسجد ، فقلت : ما هذان القبران ؟ قال : هما قبر أخوي ، كانا يعبدان الله تعالى معي في هذا الموضع ، وأنا أعبد الله بينهما حتي ألحق بهما ، فقلت له : ألا تلحق بقومك ، فتكون في جيرتهم ؟ فقال لي : ثكلتك أمك ، أو ما علمت أن ولد إسماعيل^(٣) تركت دين أبيها واتبعت الأصنام وعظمت الأنداد^(٤) .

ثم تركني وأقبل على القبرين ، وقال :

خَلِيلِي هُبَا طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا
أَرَى النَّوْمَ بَيْنَ الْجُلْدِ وَالْعَظْمِ مِنْكُمَا
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّي بِسَمْعَانَ مَفْرَدٌ

أَجْدَكُمَا لَا تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا !^(٥)
كَأَنَّ الَّذِي يَسْقِي الْعُقَارَ سَقَاكُمَا^(٦)
وَمَالِي فِيهِ مِنْ خَلِيلٍ سِوَاكُمَا^(٧)

(١) بصائر : شواهد وعبر ودلائل .

(٢) مدهامة : خضراء إلى السواد من شدة الخضرة والري .

(٣) ولد إسماعيل : أي ذريته .

(٤) الأنداد : مفردا نَد ، وهو الشريك والشبيه والمثيل .

(٥) أجدكُمَا : أي : أيجدُ منكما ! قال ابن منظور في لسان العرب (باب : جدد) : «إذا كسر الجيم استحلفه بجده ، وبحقيقته ، وإذا فتحها استحلفه بجده وبخته» . والهمزة : حرف استفهام يفيد الحث ، فالشاعر يحثهما على أن ينهضا ويستيقظا من النوم . والكرى : النعاس .

(٦) العقار : الخمر .

(٧) سمعان : جبل في ديار بني تميم ، ونقل عن العمراني قوله : «أن سمعان اسم لموضع بالشام فيه

قبر عمر بن عبد العزيز» (معجم البلدان ج ٣ / ٢٨٣) .

مُقيمٌ على قَبْرِكُمْ لَسْتُ نَازِحًا طَوَالَ اللَّيَالِي أَوْ يُجِيبُ صَدَاكُمْ
أَبْكِيكُمْ طَوَلَ الْحَيَاةِ وَمَا الَّذِي يَرُدُّ عَلَى ذِي غُصَّةٍ أَنْ بَكَاءَكُمْ (١)
كَأَنَّكُمْ وَالْمَوْتَ أَقْرَبُ غَايَةٍ بَرُوحِي فِي قَبْرِكُمْ قَدْ أَتَاكُمْ
سَلَامٌ وَتَسْلِيمٌ وَرُوحٌ وَرَحْمَةٌ وَمَغْفِرَةُ الْمَوْلَى عَلَى سَاكِنَاكُمْ (٢)
فَلَوْ جَعَلْتُ نَفْسَ لِنَفْسٍ وَقَايَةً لَجَدْتُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُونَ فِدَاكُمْ

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إِنْ قُسَّ بِن سَاعِدَةٍ يُبْعَثُ أُمَّةٌ وَحْدَهُ» (٣)،
يعني أن كل أمة آمنت بنبينا تُبعث أمةٌ وحدها لا يخالطها غيرها، ويبعث قُسٌّ
أيضا وحده أمةٌ، ليس معه أحد .

ويُروى أن المهدي (٤) نام يوماً فأنشد في منامه هذه الأبيات :
كَأَنِّي بِهِذَا الْقَصْرِ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ وَأَوْحَشَ مِنْهُ رُكْنُهُ وَمَنَازِلُهُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ذِكْرُهُ وَحَدِيثُهُ تَنَادَى بِلَيْلٍ مُعُولَاتُ ثَوَاكِلِهِ (٥)
فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ عَاشِرَةُ عَشْرَةٍ حَتَّى مَاتَ .

وأنشدني القاضي أبو العباس الجرجاني (٦) رحمه الله بالبصرة هذه
الأبيات :

بِاللَّهِ رَبِّكَ كَمْ قَصْرٍ مَرَرْتُ بِهِ قَدْ كَانَ يُغَمَّرُ بِاللَّذَاتِ وَالطَّرَبِ
طَارَتْ عَقَابُ الْمَنَايَا فِي جَوَانِبِهِ فَصَاحَ مِنْ بَعْدِهِ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ (٧)

(١) الغُصَّةُ: شيء يعترض في الحلق يمنع من التنفس، والمقصود بذِي الغُصَّةِ: من أصيب بهم وحزن .
(٢) روح : استراحة ورحمة .
(٣) هذا الحديث والحكاية بكاملها، وردت في البداية والنهاية لابن كثير، وقال : هذا الحديث
غريب جداً من هذا الوجه وهو مرسل، وقال : رواه البيهقي، والحافظ أبو القاسم ابن عساكر من وجه
آخر، وقال البيهقي : «وإذا روي من أوجه آخر وإن كان بعضها ضعيفاً دل على أن للحديث أصلاً...
والله أعلم - انظر البداية والنهاية، ابن كثير ج ٢، الصفحات ٢٣٠-٢٣٧) .
(٤) المهدي : محمد بن عبد الله المنصور ، ثالث الخلفاء العباسيين ، أقام في الخلافة عشر سنين
وشهراً، كان محمود السيرة، حسن الخلق والخلق، مات سنة ١٦٩ هـ، صريعاً على دابته ، وقيل :
مسموماً . (الأعلام ٦/ ٢٢١) .

(٥) العويل : رفع الصوت بالبكاء والصياح . المعولات : الباقيات النائحات . ثواكل وثكالي :
مفردها ثكلى وثاكلة وهي من فقدت ابنها .

(٦) أبو العباس الجرجاني : أحمد بن محمد بن أحمد، قاضي البصرة، وشيخ الشافعية في عصره،
كان عارفاً بالأدب، له نظم بديع، توفي سنة ٤٨٢ هـ . (الأعلام ١/ ٢١٤) .

(٧) عقاب : طائر من الجوارح يطلق على الذكر والأنثى، قوي المخالب وله منقار أعقف . الحرب :
الهلاك والويل .

وأنشدني أيضاً :

أَيُّهَا الرَّافِعُ الْبِنَاءَ رُوَيْدًا لَنْ تَذُودَ الْمُنُونِ عَنْكَ الْمَبَانِي
إِنَّ هَذَا الْبِنَاءَ يَبْقَى وَتَفْنَى كُلُّ شَيْءٍ أَبْقَى مِنَ الْإِنْسَانِ (١)

وقال الحكم بن عمرو (٢) : قال أبو جعفر المنصور (٣) عند موته :

اللهم إن كنت تعلم أني ارتكبت الأمور العظام جرأة مني عليك ، فإنك تعلم أني قد أطعْتُكَ في أحبِّ الأشياءِ إليك ، شهادة أن لا إله إلا الله ، منَّا منك ، لا منَّا عليك .

وكان سبب إحرامه من الخضراء (٤) ، أنه كان يوماً نائماً فأتاه آت في منامه

فقال :

كَأَنِّي بِهَذَا الْقَصْرِ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ وَأَوْحَشَ مِنْهُ أَهْلُهُ وَمَنَازِلُهُ
وَصَارَ عَمِيدُ الْقَصْرِ مِنْ بَعْدِ بَهْجَةٍ إِلَى تُرْبَةٍ تُسْفَى عَلَيْهِ جَنَادِلُهُ (٥)

فاستيقظ مرعوباً ، ثم نام فأنشد :

أَبَا جَعْفَرٍ حَانَتْ وَفَاتُكَ وَانْقَضَتْ سُنُوكَ ، وَأَمْرُ اللَّهِ لَا بُدَّ وَاقِعُ
فَهَلْ كَاهِنٌ أَعْدَدْتَهُ وَمَنْجَمٌ أَبَا جَعْفَرٍ عَنْكَ الْمَنِيَّةَ دَافِعُ

فقال : يا ربيع (٦) ائتني بطهوري ، فقام واغتسل ولبى ، وتجهَّز للحج ، ثم

قال : يا ربيع ، ألقني في حرم الله تعالى .

(١) كذا في (خ) ، وفي (ط) « ويفنى » وما في (خ) يتناسب مع المعنى أكثر .

(٢) هناك اختلاف في ذكر اسم الراوي بين المخطوط والمطبوع ولعل الصحيح هو [الحكم بن عثمان] حيث وردت الحكاية مروية عنه في كتاب : [تاريخ مدينة دمشق ٣٢ / ٣٤٣] وفي [المجالسة وجواهر العلم ١ / ٤١] .

(٣) أبو جعفر المنصور : الخليفة العباسي الثاني ، خلف أخاه السفاح سنة ١٣٦ هـ ، وأخضع العلويين ، وقضى على ثورة محمد النفس الزكية في المدينة ، وفتنة المقفع في فارس ، بنى بغداد ودعاها مدينة السلام ، وجعلها عاصمة له ، توفي محرماً بالحج سنة ١٥٨ هـ . (الأعلام ٤ / ١١٧) .

(٤) الخضراء : اسم لقصر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور .

(٥) سفى سفياء التراب : تدرى وتبدد . الجنادل : الصخور العظيمة .

(٦) ربيع : الربيع بن يونس بن محمد ، من موالى بني العباس ، كان وزيراً للمنصور ، من العقلاء الموصوفين بالحزم ، توفي سنة ١٦٩ هـ . (الأعلام ٣ / ١٥) .

وانشدني القاضي أبو العباس الجرجاني بالبصرة :

إِنْ كُنْتَ تَسْمُو إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا
زَمَّ الْأُمُورَ فَأَعْطَتْهُ مَقَادَتَهَا
حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنْ لَا شَيْءَ غَالِبُهُ
رَاحَتْ عَلَيْهِ الْمَنَايَا رُوحَةً تَرَكَتْ
فَانْظُرْ إِلَى مَلِكِ الْأَمْلاكِ قَارُونَ (١)
وَسَخَّرَ النَّاسَ بِالتَّشْدِيدِ وَاللَّيْنِ
وَمَكَّنْتَ قَدَمَاهُ أَيَّ تَمَكِينَ
ذَا الْمُلْكِ وَالْعِزِّ تَحْتَ الْمَاءِ وَالطِّينِ

وانشدني أبو محمد التميمي (٢) ببغداد :

لَمَنْ أُنْبِيَ لِمَنْ أَسْمُ الْمَطَايَا
إِذَا مَا صَارَ إِخْوَانِي رُفَاتًا
أَعَايِنُ مَعْشَرًا لَهُمْ شُكُولُ
لَمَنْ أَسْتَأْنَفُ الشَّيْءَ الْجَدِيدَا (٢)
وَصِرْتُ لِفَقْدِهِمْ فَرْدًا وَحِيدًا (٤)
وَأَشْكَالِي قَدْ اعْتَنَقُوا اللَّحُودَا (٥)

* * *

(١) قارون : من أثرياء العبرانيين في أيام موسى عليه السلام ، وقد اضطهد موسى وتجرَّ فذهب الله به وبشروته وخزائنه أمواله التي كانت تنوء عن حمل مفاتيحها العصبة من الرجال ، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم . ونُبِّه هنا إلى أنَّ عبارة «ملك الأملاك» من الألفاظ المحرمة شرعاً ؛ لأنه لا يوصف بهذا الوصف إلا الله تعالى .

(٢) أبو محمد التميمي : رزق الله بن عبد الوهاب التميمي ، فقيه حنبلي واعظ من أهل بغداد ، كان كبيرها وجليلها وشيخ أهلها في زمانه ، سمع منه الطرطوشي وهو من طبقتة ، توفي سنة ٤٨٠ هـ . (الأعلام ٣ / ١٩) .

(٣) أسم المطايا : المطايا مفردها مطية ، وهي الدابة التي تركب (أي أجعل على الدابة وسماً أو علامة تُعرف بها) .

(٤) الرفات : الحطام وكل ما تكسَّر وبلي .

(٥) الشكول والأشكال : مفردها شكل ، وهو النظير والشبيه .

فصل: في مِمَّنْ زهد في الدنيا من أبناء الملوك (*) :

وَمِمَّنْ زهد في الدنيا، وأبصر عيوبها من أبناء الملوك، أبو عقال علوان بن الحسن^(١)، من بني الأغلب، وهم ملوك المغرب، وكان ذا نعمة ومُلْك، وله فُتُوَّةٌ ظاهرة، فتأب إلى ربِّه، ورجع عن ذلك رجوعاً فاق نظراءه، فرفض المال والأهل، وهجر البناء والوطن، وبلغ من العبادة مبلغاً أربى فيه على المجتهدين، وعُرف بإجابة الدعوة، وكان عالماً أديباً، قد صحب عدة من أصحاب سحنون^(٢)، وسمع منهم، ثم انقطع إلى بعض السواحل، فصحب رجلاً يكنى أبا هارون الأندلسي، منقطعاً متبتلاً إلى الله تعالى، فلم ير منه كبير اجتهد في العمل، فبينما أبو عقال يتهجَّد في بعض الليالي، وأبو هارون نائم، إذ غلبه النوم، فقال لنفسه: يانفس هذا عابدٌ جليلُ القدر، ينام الليل كله، وأنا أسهرُ الليل كله، فلو أرحتُ نفسي، فوضع جنبه، فرأى في منامه شخصاً، فتلا عليه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(٣) [البغية: ٢١] إلى آخر الآية، فاستيقظ فزعاً، وعلم أنه المراد، فأيقظ أبا هارون، وقال له: سألتك بالله، هل أتيت كبيرةً قط؟ قال: لا يا ابن أخي، ولا صغيرةً عن تعمد والحمد لله، فقال أبو عقال: لهذا تنام أنت ولا يصلح لمثلي إلا الكد والاجتهاد! . ثم دخل إلى مكة ولزم بيت الله الحرام، وحج مراراً وأربى على عبادة المشرق^(٤)، وكان يعمل بالقربة على ظهره بقوته، ومات بمكة وهو ساجد في صلاة الفريضة بالمسجد الحرام سنة ست وتسعين ومائتين .

(*) من إضافات المحقق .

(١) علوان بن الحسن: من أمراء الأغلبية، وهم سلالة حكمت في أفريقيه سنة ١٨٤هـ (٨٠٠م) - ٢٩٦هـ (٩٠٩م)، وكانت عاصمتهم القيروان، أسسها إبراهيم بن الأغلب عامل هارون الرشيد، وآخرهم زيادة الله، قضى عليهم أبو عبد الله الشيعي (الفاطمي) وقد كان لهم أسطول كبير، واشتهروا بآثارهم العمرانية. وقد زهد علوان في الدنيا، ومات بالمسجد الحرام وهو ساجد، سنة ٢٩٦هـ . (المنجد في الأعلام ص ٥٤) .

(٢) سحنون: أبو سعيد عبد السلام بن سعيد التنوخي، والملقب بسحنون الزاهد، فقيه مالكي من الكبار، ولي قضاء القيروان، له «المدونة الكبرى»، توفي سنة ٢٤٠هـ . (الأعلام ٥ / ٤) .

(٣) (سقطت العبارة من ط)، وتمتمة الآية: ﴿سواء محياهم ومماتهم، سواء ما يحكمون﴾ .

(٤) أي فاق عليهم في العبادة .

وقال له رجل كان يصحبه يوماً : لي إليك حاجة ، فقال له بعد الجهد به : حاجتك مقضية ، قال : إن كان لك شهوة أخبرني بها ، قال : نعم ، أشتهي أن آكل رأساً ، قال : فاشتريت له رأسين ولففتُهما في رُقاق^(١) ، وجئته بهما ، ثم سألته بعد أيام : هل طاب لك الرأسان ؟ قال : لا ، ما هو إلا أن فتحتُهما ، فإذا هما محشّوان دوداً ، ليس فيهما البتّة لحمٌ إلا الدود ، فأتيت الرأس^(٢) فأخبرته ، فأطرق متعجباً ثم قال : ما ظننتُ أن في زماننا أحداً يحمي عن الحرام هذه الحماية ، تلك الرؤوس كانت من غنم ، انتهبها بعضُ العمال .

ثم أعطاني رأسين من غير تلك الغنم ، فأتيتُ بهما أبا عقال ، فأكلهما فأخبرته بما قال الرأس ، فبكى ، ثم قال : يا رب ، ما كان يستحقُّ عبدك أبو عقال مثل هذه الحماية ، ولكنه يا رب فضلك وكرمك ، فلك عليّ يا رب ألا آكل طعاماً بشهوة أشتهيها حتى ألقاك ، إن شاء الله تعالى .

وكانت له أختٌ متعبدة ، فلما مات لحقت قبره بمكة ، وبكت عليه ، وكتبت عليه هذه الأبيات :

لَيْتَ شَعْرِي مَا الَّذِي عَايَنْتُهُ	بَعْدَ دَوْمِ الصَّوْمِ مَعَ نَفْيِ الْوَسَنِ ^(٣)
مَعَ عَزُوفِ النَّفْسِ عَنْ أَوْطَارِهَا	وَالْتَّخَلَّى عَنْ حَبِيبٍ وَسَكَنَ ^(٤)
يَا شَقِيقُ لَيْسَ فِي وَجْدِي بِهِ	عِلَّةٌ تَمْنَعُنِي عَنْ أَنْ أُجِنَّ
وَكَمَا تَبَلَّى وَجُوهٌ فِي الثَّرَى	فَكَذَا يَبْلَى عَلَيْهِنَّ الْحَزَنُ

* * *

(١) الرقاق : الخبز المنبسط الرقيق .

(٢) الرأس : بائع الرؤوس .

(٣) نفى الوسن : عدم النوم .

(٤) عزف عن الشيء عزوفاً : زهد فيه وملأه . الوطر : الحاجة والبيغة .

من عجائب ما روي في الاسرائ依ليات(*) :

وروي : أن رجلين تنازعا في أرض ، فأنطق الله لَبْنَةً من جدار تلك الأرض ، فقالت : إني كُنت ملكاً من الملوك ، ملكت الدنيا ألف سنة ، ثم مِتُّ وصِرْتُ رَمِيماً ألف سنة ، فأخذني خَزَافٌ^(١) واتخذني خزفاً ، ثم أخذني وضربني لَبْنًا ، وأنا في هذا الجدار منذ كذا وكذا سنة ، فلم تتنازعا في هذه الأرض ؟
ولبعضهم^(٢) :

أَلَا حَيٌّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا	لَبَسْنَ الْبَلِيَّ مِمَّا لَبَسْنَ اللَّيَالِيَا ^(٣)
إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ	تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا ^(٤)
حَنْتَكَ اللَّيَالَى بَعْدَ مَا كُنْتَ مَدَّةً	سَوِيَّ الْعَصَا لَوْ كُنَّ يَبْقَيْنَ بَاقِيَا ^(٥)

ومن أعجب ما روي في الاسرائ依ليات : أن ابنة من بنات الملوك ، تزهدت في الدنيا وتابت ، وخرجت من ملكها فَفُقِدَتْ ، فلم يُسمع لها خبر ، ولا عِلْمٌ لها أثر ، وكان هناك دَيْرٌ للمتعبدين ، فلحق بهم شاب يتعبد ، فأبصروا منه من الاجتهاد والجد في العمل ، وملازمة الأوراد^(٦) ، ومواصلة الأعمال ، ما فاق به جميع من في الدَيْر ، وأقام على ذلك ما شاء الله تعالى ، إلى أن انقضت أيامه ، ووافاه حمامه^(٧) ، فقضى الفتى نَحْبَهُ^(٨) ، فحزن له أهل الدَيْر من الزهاد والعباد والمنقطعين ، وأذروا^(٩) عليه الدموع ، ثم أخذوا في غسله وإذا هو امرأة ، ففحصوا عن أمره وإذا هي بنت الملك ، فزادهم ذلك إعجاباً به ،

(*) من إضافات المحقق .

(١) الخزاف : صانع الخزف .

(٢) سقطت هذه الأبيات من (ط) .

(٣) المغاني : المنازل التي هجرها أهلها .

(٤) أي : إذا ما تقاضى المرء نفسه يوم وليلة . (لسان العرب ٥ / ١١٢) .

(٥) سَوِيَّ العصا : أي : مستقيم العود .

(٦) الرِّوْد : الجزء أو النصيب من القرآن أو الكتاب المقدس يقرأه العابد كل ليلة .

(٧) الحمام : قدر الموت .

(٨) قضى نَحْبَهُ : مات .

(٩) أَذْرَأَ الدمع : أسأله .

وتعظيماً له، وتشاوروا في أمره، ما يحدثون له من الكرامة، ثم أجمعوا أمرهم أن لا يدفنها تحت الثرى، وأن يحملوها فوق أكفهم، فغسلوها وكفنوها وجهزوها وصلّوا عليها، ثم أقبلوا يحملوها على الأكف والسواعد، كلما ضجر واحد جاء واحد يحمل مع من يحمل، وكل من انقطع في الدير لعبادة ربه جعل يحمل معهم، إلى أن بليت، وتقطعت أوصالها مع طول الزمن، فدُفنت حينئذ، رحمة الله عليها .

* * *

من يفترخ بما يفنى كمن يفترخ بما يرى في المنام (*) :

وكان في بلاد الروم مما يلي أرض الأندلس، رجل نصراني، قد بلغ في التخلي من الدنيا مبلغاً عظيماً، واعتزل الخلق والتزم قلل (١) الجبال، والسياحة في الأرض إلى الغاية القصوى، فورد على المستعين بن هود (٢) في بعض الأمر، فأكرمه ابن هود، ثم أخذ بيده، وجعل يعرض عليه ذخائر ملّكه، وخزائن أمواله وما حوته من البيضاء والحمراء، وأحجار الياقوت والجواهر وأمثالها، ونفائس الأعلاق (٣) والجواري، والحشم (٤) والأجناد، والكراع (٥) والسلاح، فأقاموا في ذلك أياماً، فلما انقضت، قال له : كيف رأيت ملّكي؟ قال : قد رأيت ملّكاً، ولكنّه يعوزك فيه خصلة، إن أنت قدرت عليها ففيها نظام ملّكك، وإن لم تقدر عليها فهذا الملّك لا شيء، قال : وما تلك الخصلة؟ قال : تعمّد فتصنع غطاء عظيماً حصيناً قوياً، وتكون مساحته قدر البلد، ثم تكبه على البلد حتى لا يجد ملّك الموت مدخلاً إليك، فقال المستعين :

(*) من إضافات المحقق .

(١) قلل الجبال : رؤوسها وأعلاها .

(٢) المستعين بن هود : سليمان بن محمد بن هود أمير سرقسطة ولاردة والثغر الأعلى ومؤسس دولة بني هود في بعض أقاليم الأندلس، توفي سنة ٤٣٨ هـ، بعد إن قسّم مملكته بين أولاده الخمسة : (أحمد، يوسف، لبي، المنذر، محمد)، وقد انتزع أحمد من أخوته ما بأيديهم واستولى على مدنهم، ثم سجنهم وسمل أعينهم . (الأعلام ٣ / ١٣٢) .

(٣) الأعلاق : النفيس من كل شيء لتعلق القلب به .

(٤) الحشم : حشم الرجل من يغضبون له، أو يغضب لهم من أهل أو عبيد أو جيرة .

(٥) الكراع : اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير وغيرها من الدواب . كما يطلق على آلة الحرب .

سبحان الله ! أو يقدر البشر على هذا؟ فقال العليج^(١) : يا هذا، أتفخر بأمر تتركه غداً؟ ومثال من يفتخر بما يفنى كمن يفتخر بما يراه في النوم .
ويروى أن ملكاً من الملوك بنى قصراً وقال : انظروا من عاب منه شيئاً فأصلحوه واعطوه درهمين، فأتاه رجلٌ فقال : إن في هذا القصر عيبين، قال : وما هما؟ قال : يموتُ الملكُ ويخربُ القصر، قال : صدقت، ثم أقبل على نفسه وترك الدنيا .

* * *

من عجائب أخبار الخضر^(٢) -- عليه السلام - (*) :

قالوا : سئل الخضرُ عليه السلام، عن أعجب شيء رأيته في الدنيا في طول سياحتك، وكثرة خلواتك، وقطعك القفار والفلوات، قال : أعجب ما رأيته، أنني مررت على مدينة، لم أر على وجه الأرض أحسن منها، فسألت بعضهم : متى بُنيت هذه المدينة؟ قالوا : سبحان الله، ما يذكر آباؤنا ولا أجدادنا متى بُنيت هذه المدينة، وما زالت كذلك من عهد الطوفان .

ثم غبتُ عنها نحواً من خمسمائة عام، وعبرتُ عليها بعد ذلك، وإذا هي خاوية على عروشها، ولم أرَ أحداً أسأله، وإذا رعاة غنم، فدنوت منهم، فقلت : أين المدينة التي كانت ههنا؟ قالوا : سبحان الله، ما يدرك آباؤنا ولا أجدادنا أنه قط، كان ههنا مدينة .

فغبتُ عنها نحواً من خمسمائة عام، ثم انتهيتُ إليها، فإذا موضعُ تلك المدينة بحر، وإذا غَوَاصُونَ يُخْرِجُونَ منه شِبْهَ الحلية، فقلت لبعض الغَوَاصِينَ : منذ كم كان هذا البحر ههنا، فقال : سبحان الله، ما يدرك آباؤنا ولا أجدادنا، إلا أن هذا البحر منذ بعث الله الطوفان .

(١) العليج : الرجل الضخم القوي من كفار العجم، وبعضهم يطلقه على الكافر عموماً، وهو هنا الرجل النصراني الذي قدم على المستعين بن هود .

(٢) الخضر عليه السلام : اختلف العلماء في نبوته ونسبه واسمه على عدة أقوال ذكرتها كتب التفسير .

(*) من إضافات المحقق .

ثم غبت عنها نحواً من خمسمائة عام، ثم انتهت إليها، وإذا ذلك البحر قد غاض مأوه، وإذا مكانه غيضة^(١) ملتفة بالقصب والبردي^(٢) والسياع^(٣)، وإذا صيادون يصيدون السمك في زوارق صغار، فقلت لبعضهم: أين البحر الذي كان ههنا؟ فقال: سبحان الله، ما يذكر آبائنا ولا أجدادنا أنه كان ههنا قط بحر.

فغبت عنها نحواً من خمسمائة عام، ثم أتيت إلى ذلك المكان، فإذا هو مدينة على حالتها الأولى، والحصون والقصور والأسواق قائمة، فقلت لبعضهم: أين الغيضة التي كانت ههنا؟ ومتى بنيت هذه المدينة؟ فقالوا: سبحان الله، ما يذكر أحد إلا أن هذه المدينة على حالها منذ بعث الله الطرفان.

فغبت عنها نحواً من خمسمائة عام، ثم ان انتهت إليها، فإذا عاليها سافلها، وهي تدخن بدخان شديد، فلم أر أحداً أسأله، ثم رأيت راعياً فسألته: أين المدينة التي كانت ههنا؟ ومتى حدث هذا الدخان؟ فقال: سبحان الله، ما يذكر آبائنا ولا أجدادنا إلا أن هذا الموضع كان هكذا منذ كان.

فهذا أعجب شيء رأيته في سياحتي في الدنيا، فسبحان مُبِيد العباد، ومُفْنِي البلاد، ووارث الأرض ومن عليها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال الشاعر :

قف بالديار فهذه آثارهم تبكي الأحبة حسرة وتشوقاً
كم قد وقفت بها أسائل مخبراً عن أهلها أو ناطقاً أو مشفقاً
فأجابني داعي الهوى في رسمها فارت من تهوى فعز الملتقى

وسمعت بالعراق منشداً ينشد^(٤) :

أيها الربع الذي قد دثرا كان عينا ثم أضحي أثرا
أين سكانك ماذا فعلوا؟ خبرن عنهم سقيت المطرا
ولقد نادى مناديهم لنا رحلوا واستودعوني عبراً^(٥)

(١) الغيضة : مجتمع الشجر في مفيض الماء .

(٢) البردي : نبات مائي كالقصب من فصيلة السعديات ، كانوا قديماً يستعملون قشره للكتابة ، والبردي كذلك نوع من أجود الثمر .

(٣) السباع : الطين ، (لسان العرب ، باب : سيع) .

(٤) سقطت هذه الأبيات من (ط) .

(٥) ورد هذا البيت في كتاب المستطرف في كل فن مستظرف (٢ / ٦٠٩) ، بلفظ :

فلقد نادى منادي دراهم رحلوا واستودعوني عبراً

ومن الشعر المستحسن في هذا الباب قول القائل (*):

رُبَّ ورقَاءٍ هتوف بالضُّحَى	ذَات شَجْوٍ صَدَحَتْ فِي فَنَنِ (١)
ذَكَرْتُ إِلْفًا وَدَهْرًا صَالِحًا	فَبَكَتْ حُزْنًا فَهَاجَتْ حَزَنِي (٢)
فَبُكَائِي رُبَّمَا أَرْقَاهَا	وَبُكَاهَا رُبَّمَا أَرْقَنِي (٣)
فَإِذَا تُسْعِدُنِي أُسْعِدُهَا	وَإِذَا أُسْعِدُهَا تُسْعِدُنِي
وَلَقَدْ تَشْكُو فَمَا أَفْهَمُهَا	وَلَقَدْ أَشْكُو فَمَا تَفْهَمُنِي
غَيْرَ أَنِّي بِالْجَوَى أَعْرِفُهَا	وَهِيَ أَيْضًا بِالْجَوَى تَعْرِفُنِي (٤)

* * *

فصل في بعض الأخبار والمواعظ (**):

ونظر رجل من العُبَّادِ إِلَى باب ملك من الملوك، وقد شَيْدَهُ وَأَتَقَنَهُ، وَزَوَّقَهُ، فقال: بابٌ حديد، وموتٌ عَتِيدٌ (٥)، ونزعٌ شَدِيدٌ، وسفرٌ بَعِيدٌ.

ولما ثَقُلَ عبد الملك بن مروان (٦) رأى غَسَّالًا يُلَوِي بِيَدِهِ ثَوْبًا، فقال: وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ غَسَّالًا، لَا أَعِيشُ إِلَّا بِمَا أَكْسَبُهُ يَوْمًا فَيَوْمًا، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا حَازِمٍ (٧) فقال: «الحمد لله الذي جعلهم يَتَمَنُّونَ عِنْدَ الْمَوْتِ مَا نَحْنُ فِيهِ، وَلَا نَتَمَنَّى عِنْدَهُ مَا هُمْ فِيهِ».

(*) قائل هذه الأبيات: أبو البقاء الرندي في الحنين إلى الوطن.

(١) الورقاء: الحمامة، هتفت الحمامة: ناحت وصاحت ومدّت صوتها. الحمامة الهتوف: كثيرة الهتاف. صدحت: رفعت صوتها بالغناء. الفنن: الغصن المستقيم.

(٢) الإلف: الصديق والمؤانس ومن تألفه النفس. الحُزْنُ والحُزَنُ: الهم وخلاف السرور.

(٣) أَرْقَنِي: إيراقتا وتأريقًا: أسهرني وأذهب عني النوم في الليل.

(٤) الجوى: شدة الوجد من حزن أو عشق.

(**) من إضافات المحقق.

(٥) العتيد: الحاضر والمهيأ.

(٦) عبد الملك بن مروان: الخليفة الأموي الخامس، سبقت ترجمته. ومعنى ثقل: اشتد مرضه.

(٧) أبو حازم: سلمه بن دينار المخزومي، ويُقال له: الأعرج، عالم المدينة وقاضيه وشيخها،

كان زاهدًا عابدًا مات سنة ١٤٠ هـ. (الأعلام ٣/ ١١٣).

وقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع، وقلب لا يخشع، وعين لا تدمع» (١).

«هل يتوقع أحدكم من الدنيا إلا : غني مطغياً» (٢)، أو فقراً منسياً» (٣)، أو مرضاً مفسداً، أو هرمًا مفنداً» (٤)، أو الدجال» (٥) - والدجال شر غائب ينتظر - أو الساعة - والساعة أدهى وأمر» (٦).

وقال عيسى عليه السلام: أوحى الله تعالى إلى الدنيا : «من خدمني فاخدميه، ومن خدَمك فاستخدميه، يا دنيا : تمرري على أوليائي، ولا تحلولي» (٧) لهم فتفتنيهم .

وقال مورق العجلي (٨): يا ابن آدم، في كل يوم يؤتى برزقك وتحزن، وينقص عمرك وأنت لا تحزن، تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك، لا بقليل تقنع ولا بكثير تشبع.

وقال رسول الله ﷺ في بعض خطبه: «أيها الناس إن الأيام تطوى، والأعمار تفتنى، والأبدان في الشرى تبلى، وإن الليل والنهار يتراكمضان تراكمض البريد، يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد، وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات، ورغب في الباقيات الصالحات» (٩).

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات رقم (٣٤٨٢)، عن عبد الله بن عمرو وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه من حديث عبد الله بن عمر . ورواه النسائي في كتاب الاستعاذة، وفيها بدل عبارة: «عين لا تدمع» «دعاء لا يسمع» . وللحديث شواهد أخرى عن جابر وأبي هريرة، وابن مسعود، وقال السيوطي: الحديث حسن . (الجامع الصغير ص ٥٦).

(٢) غني مطغياً : غني يصرف صاحبه عن طريق الخير إلى الظلم والمعاصي .

(٣) فقراً منسياً : فقراً ينسي صاحبه الحق .

(٤) هرمًا مفنداً : هو ما يؤدي بصاحبه إلى الخرف والضعف في عقله أو الخطأ في رأيه وقوله .

(٥) الدجال : المسيح الكذاب والذي يعتبر ظهوره من علامات الساعة .

(٦) هذا حديث آخر بعضهم وصله بالذي قبله وبعضهم جعله منفصلاً، فقد رواه الترمذي في [كتاب

الزهد ب- باب ما جاء في المبادرة بالعمل - رقم (٢٣٠٦)]، عن أبي هريرة، وقال: حديث حسن غريب . وأوله: «بادروا بالأعمال سبعاً» وذكرها كما هنا وسقط منه - أو موتاً مجهزاً - أي : سريعاً . يعني : فجأة .

(٧) تمرري عليهم : أي : كوني مرة عليهم ! وتحلولي لهم : كوني حلوة لهم .

(٨) مورق بن المشمرج العجلي ويكنى : بأبي المعتمر، من المحدثين الثقات، كان زاهداً ورعاً تقياً، مات بعد المائة من الهجرة . (طبقات ابن سعد ٧/ ٢١٣).

(٩) جزء من حديث ذكر بعضه الماوردي في أعلام النبوة تحت (فصل فصاحته ﷺ ١/ ٢٩٨)،

وذكر بعضه المناوي في كتابه فيض القدير شرح الجامع الصغير، وقال رواه الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عمر، ونقل الدارقطني ما يفيد تضعيفه.

وقال بعض الحكماء : الدّنيا كالماء المالح ، كلّما ازداد صاحبه شرباً ازداد عطشاً ، وكالكأس من العسل في أسفل السّم ، للذائق منه حلاوة عاجلة وله في أسفل الموت الدّعاف^(١) ، وكالأحلام للنائم التي تُفرحُه في منامه ، فإذا استيقظ انقطع الفرح ، كالبرق الذي يضيء قليلاً ، ويذهب وشيكاً ويبقى رائيه في الظلام مُقيماً ، وكدودة الأبريسم^(٢) التي لا يزداد الأبريسم على نفسها لفاً إلا ازدادت من الخروج بعداً ، وفيه قال القائل :

كَدُودٌ كَدُودِ الْقَرْ يَنْسَجُ دَائِماً وَيَهْلِكُ غَمّاً وَسَطَ مَا هُوَ نَاسِجُهُ^(٣)

ومثال من يستعجل زهرة الحياة الدنيا ويعرض عن الدار الآخرة ، مثال رجلين لَقَطَا من الأرض حَبَّتِي عَنبٍ ، فأما أحدهما فجعل يَمُصُ الحبة التذاداً بها ، ثم بلعها ، وأما الآخر فزرع الحبة فلما كان بعد زمان التقيا ، فأما الذي زرع الحبة وجدها قد صارت له كرمًا وكثرت ثمرته ، وفكر الآخر في صنعه في الحبة فوجدها قد صارت عذرة^(٤) ، وليس عنده منها شيء إلا الحسرة على تفریطه ، والغبطة لصاحبه .

وقال وهب بن منبه^(٥) : أوحى الله تعالى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل : **إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَسْكُنَ مَعِيَ فِي حَضْرَةِ الْقُدُسِ ، فَكُنْ فِي الدُّنْيَا وَحِيدًا فَرِيدًا ، مَهْمُومًا وَحَشِيًّا ، بِمَنْزِلَةِ الطَّيْرِ الْوَحْدَانِيِّ ، الَّذِي يَظِلُّ فِي الْأَرْضِ الْفَلَاةِ ، وَيَأْكُلُ مِنْ رُؤُوسِ الشَّجَرِ ، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءِ الْعَيُونِ ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ أَوْى وَحْدَهُ وَلَمْ يَأُوْ** مع الطير استئناساً بربه .

ولبعضهم :

كم للحوادث من صُرُوفٍ عجائب ولقد تقطع من شبّابك وأنقضى
ونوائب موصولة بنوائب^(٦) ما لست أعلمه إليك بآيب^(٧)
يكفيك منها مثل زاد الرّاكب

(١) الموت الدّعاف : ويُقال أيضاً : الموت الزعاف : أي الموت السريع .

(٢) الإبريسم أو الإبرسم : كلمة فارسية وتعني : الحرير .

(٣) الكدود : الكثير الكد وبذل الجهد .

(٤) العذرة : الغائط أو أردأ ما يُخرج من الطعام .

(٥) وهب بن منبه : التابعي المؤرخ ، سبقت ترجمته .

(٦) صروف الدهر : نوائبه وأحداثه العجيبة .

(٧) آيب : راجع .

وقال مالك بن أنس^(١) : بلغني أن عيسى عليه السلام ، انتهى إلى قرية قد خربت حصونها ، وجفت أنهارها ، وتشتت شجرها^(٢) ، فنادى : يا خراب ! أين أهلك ؟ فلم يجبه أحد ، ثم نادى : يا خراب ، أين أهلك ؟ فلم يجبه أحد ، فنودي عيسى بن مريم عليه السلام : بادوا وتضمنتْهم^(٣) الأرض ، وعادت أعمالهم قلائد في أعناقهم إلى يوم القيامة ، فبكى عيسى عليه السلام .

قال مالك : سئلت امرأة من بقية قوم عاد . يُقال لها «هرثمة»^(٤) ، أي عذاب الله رأيت أشد ؟ قالت : كل عذاب الله شديد ، وسلام الله ورحمته على ليلة لا ريح فيها ، ولقد رأيت العير تحملها الريح بين السماء والأرض .

وقال مجاهد^(٥) : كان طعام يحيى بن زكريا^(٦) العشب ، وإن كان ليبيكي من خشية الله تعالى ، ما لو كان القار^(٧) على عينيه لأحرقه ، ولقد كانت الدموع اتخذت مجرى في وجهه .

ومرَّ بعض الملوك بسقراط الحكيم^(٨) وهو نائم ، فركضه برجله ، وقال : قُمْ ، فقام غير مرتاع منه ولا مُلتفت إليه ، فقال له الملك : أما تعرفني ؟ قال : لا ، ولكنني أرى فيك طبع الدواب ، فهي تركض بأرجلها . فغضب ، وقال : أتقول لي هذا وأنت عبدي ؟ فقال له سقراط : بل أنت عبدُ عبدي ، قال : وكيف

(١) مالك بن أنس : إمام دار الهجرة ، سبقت ترجمته .

(٢) تشتت : تفرَّق . (٣) تضمنتْهم الأرض : حوتهم وضمَّتْهم .

(٤) هكذا ورد اسمها في (ط ، خ) ووردت القصة واسم تلك المرأة في كتاب : [غوامض الأسماء المبهمة ، لابن بشكوال ٢ / ٥٤٢] [هزيمة] ، وقوم عاد نسبة إلى عاد بن إرم ، كانت مساكنهم بالأحقاف في اليمن ، وكانت لهم حضارة وأرسل الله لهم النبي «هود» عليه السلام ، فكذبوه ، فأرسل الله عليهم الريح العقيم فأهلكهم عن آخرهم ، ونجا هودا والمؤمنين به كما ورد في القرآن الكريم (انظر : سورة الأعراف ، هود ، الأحقاف ، الذاريات) .

(٥) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي ، تابعي مفسر من أهل مكة ، بل هو شيخ القراء والمفسرين ، وكان فقيها كثير الحديث ، تنقل في الأسفار واستقر في الكوفة ومات وهو ساجد سنة ١٠٤ هـ . (الأعلام : ٥ / ٢٧٨) .

(٦) يحيى بن زكريا عليه السلام : نبي من أنبياء بني إسرائيل ، ورد ذكره في سورة مريم .

(٧) القار : مادة تُطلى بها السفن والإبل ، وقيل : هو الزفت .

(٨) سقراط الحكيم : فيلسوف يوناني ، وُلد في أثينا وعلم بها فأحدث ثورة في الفلسفة بأسلوبه وفكره ، وساعد تلاميذه على اكتشاف المعرفة ، حارب السفسطة وانتقد الحكم فحكم عليه خصومه بالاعدام ففضّل الموت على الهرب ، وشرب السم ومات في سجنه حوالي ٣٩٩ ق.م ، وقد وصلت إلينا تعاليمه خاصة من خلال كتب تلميذه أفلاطون . (الموسوعة الفلسفية) .

ذلك؟ قال : لأن شهوتك قد ملكتك ، وأنا ملكت الشهوات ، فقال : أنا الملك ابن الأملاك السادة ، أملك من البلاد كذا ، ومن الأموال والرجال كذا ، قال : أراك تفخر علي بما ليس في نفسك ، وإنما سبيلك أن تفخر علي بنفسك ، ولكن تعال نخلع ثيابنا ، ونلبس جميعاً ثوباً من ماء في هذا النهر ونتكلم ، إذ يتبين الفاضل من المفضل ، فانصرف الملك خجلاً .

وها أنا أحكي لك أمراً أصابني ، طيش عقلي^(١) ، وبلبل حزمي^(٢) ، وقطع نياط قلبي^(٣) ، فلا يزال مرآة لي حتى يواريني التراب ، وذلك : أني كنت يوماً بالعراق وأنا أشرب ماء ، فقال لي صاحب لي - وكان له عقل - : يا فلان لعل هذا الكوز الذي تشرب فيه الماء قد كان إنساناً يوماً من الدهر ، فمات فصار تراباً ، فاتفق للفخاري أن أخذ تراب القبر ، وضربه خزفاً وشواه بالنار ، فانتظم كوزاً كما ترى ، وصار آنية يمتهن ويستخدم بعد أن كان بشراً سوياً ، يأكل ويشرب ، وينعم ويلذ ويطرب .

فإذا الذي قاله من الجائزات ، فإن الإنسان إذا مات عاد تراباً كما كان في النشأة الأولى ، ثم قد يتفق أن يحفر لحده ، ويعجن بالماء ترابه ، فيتخذ منه آنية تمتهن في البيوت أو لبنة فتبنى في الجدار ، أو يطين به سطح البيت ، أو يفرش في البيوت ، فيوطأ بالأقدام ، أو يجعل طيناً على الجدار ، وقد يجوز أن يغرّس عند قبره شجرة ، فيستحيل تراب الإنسان شجرة وورقاً وثمرة ، فترعى البهائم أوراقها ، ويأكل الإنسان ثمرها ، فينبت منها لحمه ، وينشر منها عظمه ، أو تأكل تلك الثمرة الحشرات والبهائم ، فبينما كان يقات صار قوتاً ، وبينما كان يأكل صار مأكولاً ، ثم يعود في بطن الإنسان رجيعاً^(٤) فيقذف في بيت الرحاضة ، أو بعراً ينبذ بالعراء ، ويجوز إذا حفر قبره أن تسفي الرياح ترابه ، فتتفرق أجزاؤه في بطون الأودية والتلول^(٥) والوهاد^(٦) .

(١) طيش عقلي : ذهب به .

(٢) بلبل حزمي : شتته .

(٣) نياط القلب : عرق غليظ يصل القلب بالرئتين إذا قطع مات صاحبه .

(٤) الرجيع : الروث .

(٥) التلول والتلال : مفردا التلة وهي قطعة الأرض المرتفعة قليلاً عما حولها .

(٦) الوهاد : الأراضي المنخفضة .

أليس في هذا ما أذهل العقول، وطيش الحُلوم^(١)، ومنع اللذات، وهان عنده مفارقة الأهلين والمال، واللُّحوق بقلل الجبال، والأنس بالوحوش حتى يأتي أمر الله ! أليس في هذا ما صغر الدنيا وما فيها؟ أليس في هذا ما حقر الملك عند مَنْ عظمه، والمال عند من جمعه؟ أليس في هذا ما زهد في اللذات وسلى عن الشهوات؟

وقال مسعر: [كم من مستقبل يوماً لا يستكملُه، ومنتظر غداً وليس من أجله، إنكم لو أبصرتُم الأجل ومسيره، لأبغضتُم الأمل وغروره]^(٢).

ولما بنى المأمون بن ذي النون^(٣) - وكان من ملوك الأندلس - قصره، وأنفق فيه بيوت الأموال^(٤)، جاء على أكمل بنیان في الأرض، وكان من عجائبه: أن صنع فيه بركة ماء كأنها بحرة، وبنى في وسطها قبة، وساق الماء من تحت الأرض حتى علا على رأس القبة، على تدبير قد أحكمه المهندسون، وكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليتها، محيطاً بها، متصلاً ببعضه ببعض، فكانت القبة في غلالة^(٥) من ماء سكباً لا يفتّر، والمأمون قاعدٌ فيها، فروي عنه أنه بينما هو نائم إذ سمع منشدًا ينشد هذين البيتين:

أَتَبْنِي بِنَاءَ الْخَالِدِينَ وَإِنَّمَا بَقَاؤُكَ فِيهَا لَوْ عَقَلْتُ قَلِيلُ
لَقَدْ كَانَ فِي ظِلِّ الْأَرَاكِ كَفَايَةً لِمَنْ كُلُّ يَوْمٍ يَقْتَضِيهِ رَحِيلُ

فلم يلبث بعدها إلا يسيراً حتى قضى نحبه:

ووجد مكتوباً على قصر، قد باد أهله وأقفرت منازلُه:

هَذِي مَنَازِلُ أَقْوَامٍ عَاهَدْتُهُمْ فِي خَفْضِ عَيْشٍ نَفِيسٍ مَالُهُ خَطَرُ
صَاحَتْ بِهِمْ نَائِبَاتُ الدَّهْرِ فَأَنْقَلَبُوا إِلَى الْقُبُورِ فَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ

(١) طيش الحُلوم: ذهب بعقل الرجل الحليم.

(٢) سقط اسم مسعر من (ط)، وهو مسعر بن كدام بن ظهير الهلالي، من ثقات أهل الحديث، كوفي، كان يقال له: «المصحف» لعظم الثقة بما يرويه، توفي بمكة سنة ١٥٢ هـ. (الأعلام: ٧/٢١٦). وقد عدّ البعض هذا القول حديثاً، حيث رواه أبو نعيم في حلية الأولياء عن ابن عيينة عن مسعر عن عون بن عبد الله (حلية الأولياء ٤/٢٤٣)؛ كما ذكره المنائي في شرح الجامع الصغير، وقال: رواه الديلمي في مسند الفردوس بإسناد ضعيف (التيسير في شرح الجامع الصغير ٢/٢٢٣).

(٣) المأمون بن ذي النون: من ملوك الطوائف في الأندلس، صاحب طليطلة، احتل بلنسية وانتزع قرطبة من ابن عبّاد، مات سنة ٤٦٠ هـ. (الأعلام: ٨/١٣٨).

(٤) في (خ) وانفق منه خزائن أمواله.

(٥) القبة في غلالة من ماء: الماء يجري حولها ويطوقها كأنها تلبسه.

وللصاحب (١) أيضاً هذه الأبيات :

ولقد مررتُ على ديارهم
فوقفتُ حتى عَجَّ من لَغَبٍ
وتلفَّتتُ عيني فمذ خفيتُ
وطلبتُ لي قلباً أعيش به
وطلولُها بيد البلى نهبُ
نضوى وضجُّ بعدلي الركبُ (٢)
عنى الطلولُ تلفَّت القلبُ
فوجدتُ جسمًا ماله قلبُ
ولو قيل للدنيا صفى نفسك لما عدتُ هذا البيت :

ومن يَأْمَنُ الدُّنْيَا يَكُنْ مِثْلَ قَابِضٍ
على الماءِ خانتَهُ فروحُ الأصابعِ
وروي أن الحجاج (٣) قال في خطبته : أيها الناس ، إنَّ ما بقي من الدنيا أشبه
مما مضى من الماء بالماء ، ولو أعطيت ما مضى من الدنيا بعمامتي هذه ما
قبلته ، فكيف آسى على ما بقي منها ؟ .

* * *

مثل ابن آدم عند الموت كمثله رجل له ثلاثة أخلاء (*) :

وروي أن النبي ﷺ ضرب مثلاً لابن آدم عند الموت ، كمثله رجل له ثلاثة
أخلاء ، فلما حضره الموت قال لأحدهم : قد كنت لي خليلاً مكرماً ومؤثراً ،
وقد حضرني من أمر الله تعالى ما ترى ، فماذا عندك ؟ فيقول : هذا أمر الله
غلبني عليك ، لا أستطيع أن أنفُسَ كربك ، ولكن ها أنا بين يديك ، فخذ مني
زاداً ينفعك .

(١) صاحب إسماعيل بن عباد أبو العباس الطالقاني ، وزير مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي ، ثم أخوه فخر
الدولة ، ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة منذ صباه ، غلب عليه الأدب ، وله تصانيف جليلة ، توفي سنة
٣٨٥ هـ . والواقع أن هذه الأبيات للشريف الرضي الموسوي العالم الأديب والشاعر المجيد ، توفي سنة
٤٠٦ هـ ، وذكر ذلك في : (ديوان الشريف الرضي : ١ / ١٨١) ، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان : ٤ / ١٦٦ .
(٢) في الديوان :
ولقد وقفت على ربوعهم وطلولها بيد البلى نهب
فوقفت حتى ضج من لغب نضوي ولج بعدلي الركب
الغلب : الكلام الفاسد . والنضو : البعير المهزول .
والمعنى : أني بقيت واقفاً حتى ضج الراكبون مني ، وتمادوا في عتابي ولومي .

(٣) الحجاج بن يوسف الثقفي : قائد وخطيب عربي ، ولد في الطائف ، ولأه عبد الملك بن مروان
امرة جيشه ، فقضى على عبد الله بن الزبير في الحجاز ، ثم قضى على ثورة ابن الأشعث بالعراق ، وقد
سمَّاه البعض بالسفاح والسفاح ، مات سنة ٩٥ هـ . (الأعلام : ٢ / ١٦٨) .
(*) من إضافات المحقق .

ثم يقول للثاني : قد كنت عندي آثر الثلاثة، وقد نزل بي من أمر الله تعالى ما ترى، فما عندك؟ قال : هذا أمر الله غلبي عليك، ولا أستطيع أن أنفّس كربك، ولكن سأقوم عليك في مرضك، فإذا مُتْ أتقنت غسلك، وجوّدتُ كسوتك، وسترت جسدك وعورتك .

وقال للثالث : قد نزل بي من أمر الله ما ترى، وكنت أهون الثلاثة عليّ، فما عندك؟ قال : إني قرينك وحليفك في الدنيا والآخرة، أدخل معك قبرك حين تدخله، وأخرج معك حين تخرج منه، ولا أفارقك أبداً، فقال النبي ﷺ : (الأول ماله، والثاني أهله، والثالث عمله)، (١) .

ولما لقي ميمون بن مهران (٢)، الحسن البصري، قال له : قد كنت أحب لقاءك فعظني، فقراً الحسن : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، فقال : عليك السلام أبا سعيد (٣)، فقد وعظت أحسن موعظة، وأعجبا كلّ العجب للمكذب بالنشأة الأخرى وهو يرى الأولى ! وأعجبا كلّ العجب للشاك في قدرة الله تعالى وهو يرى خلقه ! وأعجبا كلّ العجب للمكذب بالنشور وهو يموت في كل يوم وليلة ويحيي ! وأعجبا كلّ العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور ! وأعجبا كلّ العجب للمختال الفخور وإنما خلق من نطفة ثم يعود جيفة، وهو بين ذلك لا يدري ما يفعل به !

وروي أن الله تعالى، أوحى إلى آدم عليه السلام، جماع الخير كله في أربع : واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين الناس . فأما التي لي : فتعبدني لا تشرك بي شيئاً .

وأما التي لك : فاعمل ما شئت، فإني أجزيك به .

وأما التي بيني وبينك : فعليك الدعاء وعليّ الإجابة .

(١) حديث الأخلاء الثلاثة هذا ذكره المؤلف بمعناه، وأصل الحديث صحيح : [يتبع المؤمن بعد موته ثلاثة : أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد...] حيث رواه المنذري في الترغيب والترهيب عن أنس بلفظ : «الأخلاء ثلاثة...» (الترغيب والترهيب ٤١ / ٢) . كما رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، وقال : صحيح على شرطهما ولا علة له (المستدرک ١٤٦ / ١) .

(٢) ميمون بن مهران : الرقي، أبو أيوب، فقيه ومن القضاة المشهورين، كان والياً لعمر بن عبد العزيز على خراج الجزيرة، توفي سنة ١١٧ هـ . (الأعلام ٣٤٢ / ٧) .

(٣) الحسن البصري : وكنيته أبو سعيد، وسبقت ترجمته .

وأما التي بينك وبين الناس : فكنْ لهم كما تُحب أن يكونوا لك^(١) .

وقال سليمان بن داود عليهما السلام : أوتينا ما أوتي الناس وما لم يؤتوا ، وعلمنا ما علم الناس وما لم يعلموا ، فلم نجد شيئاً أفضل من خشية الله تعالى في الغيب والشهادة ، وكلمة الحق في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر .

وكتب معاوية^(٢) إلى عائشة^(٣) رضي الله عنها ، أن أكتبي لي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري عليّ ، فكتبت إليه : سلام عليك ، أما بعد :

فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ، والسلام^(٤) » .

* * *

من أقوال بعض من شارفوا على الموت (*) :

ولما ضرب ابن ملجم^(٥) علياً رضي الله عنه أدخل منزله ، فاعتزته غشية ، ثم أفاق ودعا الحسن والحسين^(٦) رضي الله عنهما ، فقال : أوصيكما

(١) رواه الطبراني وابن أبي شعبة عن سلمان بلفظ : « قال الله تعالى : يا ابن آدم ثلاثة : واحدة لي... ولم يذكر الرابعة كما هو هنا ، قال السيوطي الحديث حسن . (الجامع الصغير - رقم ٦٠٦٨) . ولفظ : [جماع الخير في أربع ...] كما في النص رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥١٨ / ٧) ، والطبراني في الدعاء (٢٧ / ١) ، والأصبهاني في كتاب العظمة ، باب خلق آدم وحواء ٥ / ١٥٧٠ .

(٢) معاوية بن أبي سفيان : مؤسس الدولة الأموية ، وجعل عاصمتها دمشق ، اشتهر بدهائه وحسن سياسته ، توفي سنة ٦٠ هـ . (الأعلام : ٢٦١ / ٧) .

(٣) عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها : أم المؤمنين ، وأفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين والأدب ، تزوجها النبي ﷺ في السنة الثانية للهجرة ، وكانت أحب نسائه إليه ، وأكثرها رواية للحديث عنه ، توفيت سنة ٥٨ هـ . (الأعلام : ٢٤٠ / ٣) .

(٤) رواه الترمذي في الزهد : باب من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ويلفظ : « من التمس سخط الله برضى الناس... وفيه وجل لم يسم ، لكن رواه عن طريق آخر القضاعي في «مسند الشهاب» (٤٢ / ٢) ، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٧٨ / ١٥) ، مرفوعاً وسنده حسن فيتقوى الحديث (انظر : شرح السنة - الإمام البغوي - ج ١٤ ص ٤١١) . (*) من إضافات المحقق .

(٥) هو : عبد الرحمن بن ملجم المرادي الحميري ، فاتك ثائر من الخوارج ، وهو الذي قتل الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة ٤٠ هـ ، وقُتل ابن ملجم في نفس التاريخ . (الأعلام ٣ / ٣٣٩) .

(٦) الحسن والحسين رضي الله عنهما : أولاد الإمام علي بن أبي طالب ، وفاطمة الزهراء ، أما الحسن : فقد بويع له بالخلافة بعد استشهاد أبيه ، فأثر عدم القتال وترك الخلافة ، ومات سنة ٥٠ هـ . وأما الحسين فقد استشهد في كربلاء سنة ٦١ هـ . (الأعلام : ١٩٩ / ٢ - ٢٤٣) .

بتقوى الله، والرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، ولا تأسفا على شيء فاتكما منها، اعملا الخير، وكونا للظالم خصما وللمظلوم عوناً، ثم دعا محمداً^(١) وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك؟ قال: بلى. قال: فإنني أوصيك به، وعليك ببر أخويك، وتوقيرهما، ومعرفة فضلهما، ولا تقطع أمرا دونهما. ثم أقبل عليهما فقال: أوصيكما به خيرا، فإنه أخوكما وسيفكما وابن أبيكما، وأنتما تعلمان أن أباكما كان يحبه فأحباه.

ثم قال: يا بني، أوصيكم بتقوى الله، في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الصديق والعدو، والعمل في النشاط والكسل، والرضا عن الله في الشدة والرخاء.

يا بني، ما شرُّ بعده الجنة بشرٍّ، ولا خيرٌ بعده النار بخير، وكلُّ نعيمٍ دون الجنة حقير، وكلُّ بلاءٍ دون النار عافية.

يا بني، مَنْ أَبْصَرَ عَيْبَ نَفْسِهِ شُغِلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ رَضِيَ بِقَسَمِ اللَّهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ، وَمَنْ سَلَ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ، وَمَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ بئراً وَقَعَ فِيهَا، وَمَنْ هَتَكَ حِجَابَ أَخِيهِ انْكَشَفَتْ عَوْرَاتُ بَنِيهِ، وَمَنْ نَسِيَ خَطِيئَتَهُ اسْتَغْطَمَ خَطِيئَةَ غَيْرِهِ، وَمَنْ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ ضَلَّ، وَمَنْ اسْتَغْنَى بِعَقْلِهِ زَلَّ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ، وَمَنْ خَالَطَ الْأَنْذَالَ حَقَّرَ، وَمَنْ جَالَسَ الْعُلَمَاءَ وَقَّرَ، وَمَنْ يَصْحَبُ صَاحِبَ السُّوءِ لَا يَسْلَمُ، وَمَنْ يَصْحَبُ صَاحِباً صَالِحاً يَغْنَمُ، وَمَنْ دَخَلَ مَدَاحِلَ السُّوءِ أَتَاهُمْ، وَمَنْ لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ نَدِمَ، وَمَنْ مَزَحَ اسْتُخْفَ بِهِ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ، وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطْؤُهُ، وَمَنْ كَثُرَ خَطْؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ.

يا بني: الأدبُ خير ميراث، وحسنُ الخلق خير قرين.

يا بني: العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله تعالى، وواحد^(٢) في ترك مجالسة السفهاء.

يا بني: زينة الفقر الصبر، وزينة الغنى الشكر.

(١) هو محمد بن علي بن أبي طالب، أخو الحسن والحسين، والمعروف بابن الحنفية، حيث أن أمه ليست فاطمة الزهراء، بل هي خولة بنت جعفر الحنفية، كان فارساً بطلاً، توفي سنة ٨١ هـ. (الأعلام: ٦ / ٢٧٠).

(٢) وواحد أي جزء واحد، هكذا ورد الأثر في تفسير الثعالبي (١ / ٤٢١) وفي (خ) وواحدة. وفي (ط) والواحدة ولعل الأصب ما أثبتناه والله أعلم. هذا وقد عد الديلمي في مسند الفردوس بعض هذا الأثر حديثاً فقال الحافظ العراقي هذا حديث منكر.

يا بني : لا شَرَفَ أعلى من الإسلام، ولا كَرَمٌ أعزُّ من التَّقوى، ولا مَعْقِلٌ أحرز من الورع، ولا شفيعٌ أنجح من التَّوبة، ولا لباس أجمل من العافية، الحرص مفتاح التعب، ومطية النَّصب، التدبير قبل العمل يؤمّنك من الندم، بئس الزاد للمعاد العدوان على العباد، فطوبى لمن أخلص لله علمه وعمله، وحبه وبُغضه، وأخذَه وتركه، وكلامه وصمته، وقوله وفعله.

وروي عن عمر بن الخطاب^(١) رضي الله عنه : أنه لما طعنَ، دعا بلبن فشربه فخرج من طعنته، فقال : الله أكبر، فجعل جلساؤه يثنون عليه، فقال : وددتُ أن أخرج منها كَفَافًا^(٢) كما دخلتُ فيها، لو أن لي اليوم ما طلعت عليه الشمس وغربت لا فتديتُ به هول المطلع.

وقال ابن عمر^(٣) : ولما حضرت الوفاة عمر، غشي عليه فاخذتُ رأسه، فوضعتُه في حجرِي، فقال : ضع رأسي بالأرض لعلَّ الله يرحمني، فمسح خديه بالتراب وقال : ويلٌ لعمر، ويلٌ لأُمِّه إن لم يُغفر له، فقلت : وهل فخذِي والأرض إلا سواء يا أبتاه؟ فقال : ضع رأسي بالأرض لا أمَّ لك كما أمرك، فإذا قضيت فأسرعوا بي إلى حفرتي، فإنما هو خير تقدُموني إليه، أو شر تضعونه عن رقابكم، ثم بكى، فقيل له : ما يبكيك؟ قال : خبر السماء، لا أدري إلى جنة ينطلق بي أو إلى نار .

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز^(٤) الوفاة قال : اللهم إنك أمرتني فقصرْتُ، ونهيتني فعصيتُ، وأنعمت عليَّ فأفضلتُ، فإن عفوت فقد مننتُ، وإن عاقبت فما ظلمتُ، ألا إني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، ثم قضى نحبَه رحمه الله .

(١) عمر بن الخطاب : عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي - أبو حفص - ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لُقِّبَ بأمير المؤمنين، ومن العشرة المبشرين بالجنة، توفي سنة ٢٣ هـ بعد أن اغتاله أبو لؤلؤة المجوسي في المسجد . (الأعلام : ٤٥/٥) .

(٢) الكفاف من الرزق : ما كان مقدار الحاجة وكفى عن الناس .

(٣) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب : كان كثير الاتباع لآثار رسول الله ﷺ وروى عنه الكثير من الأحاديث، توفي سنة ٧٣ هـ . (الأعلام : ١٠٨/٤) . في (ط) : فأخذتُ رأسه فوضعتها في حجرِي .

(٤) عمر بن عبد العزيز : الخليفة الأموي العادل، سبقت ترجمته .

ولما حضرت هشام بن عبد الملك^(١) الوفاة: نظر إلى أهله يبكون حوله، فقال: جاد لكم هشام بالدنيا، وجُدْتُم له بالبكاء، وترك لكم ما جمع وتركتم عليه ما حمل، ما أعظم مُنْقَلَبِ هشام إن لم يَغْفِرِ الله له.

ودُخِلَ على المأمون^(٢) في مرضه الذي مات فيه، فإذا هو قد أمر أن يفرش له جُلُ الدابة، ويبسط عليه الرماد وهو راقد عليه يتضرع ويقول: يا من لا يزول ملكه، إرحم من قد زال ملكه.

وروي أن أبا بكر الصديق^(٣) رضي الله عنه، مرَّ على طائر واقع على شجرة، فقال: طوبى لك يا طائر، تطير فتقع على الشجر، وتأكل من الثمر، وليس عليك حساب ولا عقاب، ياليتني كنت مثلك، والله لوددت أني شجرة إلى جنب طريق، فمر عليَّ بغير، فأخذني فلاكني، ثم ازدردني، ثم أخرجني بعراً، ولم أكن بشراً.

وقال عاصم بن عبيد الله^(٤): أخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبنة من الأرض، فقال: ياليتني كنت مثل هذه التبنة، ياليتني لم تلدني أُمي، ياليتني كنت نسياً منسياً.

وقال ابن مسعود^(٥): وددت أني طائر في منكب ريش.

(١) هشام بن عبد الملك: الخليفة الأموي العاشر، أخو يزيد الثاني وخلفه، في عهده بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساعها حيث وقعت في عهده معركة «بلاط الشهداء» على أبواب فرنسا، توفي سنة ١٢٥ هـ. (الأعلام: ٨ / ٨٦).

(٢) المأمون: عبد الله بن هارون الرشيد، الخليفة العباسي ومن كبار الخلفاء العباسيين، أمه فارسية جارية، قتل أخاه الأمين وخلفه وعني بالأدب والعلوم، فهو الذي أنشأ بيت الحكمة في بغداد، ناصر المعتزلة وامتنح الناس في مسألة خلق القرآن، مات سنة ٢١٨ هـ. وخلفه أخوه المعتصم. (الأعلام: ٤ / ١٤٢).

(٣) أبو بكر الصديق: عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب التميمي القرشي، أول الخلفاء الراشدين، وأول من آمن برسول الله من الرجال، لُقِّب بالصديق لتصديقه رسول الله ﷺ في خبر الإسراء، وفي كل أخباره، توفي سنة ١٣ هـ. (الأعلام: ٤ / ١٠٢).

(٤) عاصم بن عبيد الله: عاصم بن عبيد الله بن عاصم بن عمر بن الخطاب، من رواة الحديث، قال ابن حجر أنه «ضعيف»، مات سنة ١٣٢ هـ. (تهذيب التهذيب / ابن حجر ٤٢ / ٥).

(٥) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، من أكابر الصحابة، فضلاً وعلماً وعقلاً وقرباً من رسول الله ﷺ، توفي سنة ٣٢ هـ. (الأعلام: ٤ / ١٣٧).

وسمع رجلاً يقول : يا ليتني كنتُ من أصحاب اليمين ، فقال ابن مسعود :
يا ليتني إذا مُتُّ لم أُبعث .

وقال عمران بن حصين^(١) : وددت أني رماد فتسفيني الرياح في يوم
عاصف .

وقال أبو الدرداء^(٢) : يا ليتني كنت شجرة تُعَصَّد ، وتؤكل ثمرتي ، ولم
أكن بشراً .

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، لما رجع من صفين فدخل
أوائل الكوفة ، فإذا هو بقبر ، فقال : قبرُ مَنْ هذا ؟ فقالوا : قبر خَبَّاب بن
الأَرْت^(٣) . فوقف عليه ، وقال : رحم الله خَبَّاباً ، أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ،
وعاش مُجاهداً ، وابتلي في جسمه آخرأ ، ألا ولن يُضيع الله أجر من أحسن
عملاً . ثم مضى فإذا قبور ، فجاء حتى وقف عليها ، فقال : السلام عليكم أهل
الديار الموحشة ، والمحالِّ المقفرة ، أنتم لنا سلفٌ ، ونحن لكم تبَعٌ ، وبكم
عما قليل لاحقون ، اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز عنا وعنهم ، طوبى لمن ذكر
المعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضي عن الله عز وجل .

ثم قال : يا أهل القبور : أما الأزواج فقد نُكِّحَتْ ، وأما الديار فقد سُكِّنَتْ ،
وأما الأموال فقد قُسِّمَتْ ، فهذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم التفت
إلى أصحابه وقال : أما إنهم لو تكلموا لقالوا : « وجدنا أن خير الزَّاد التقوى » .

* * *

(١) عمران بن حصين بن عبيد الخزاعي ، من علماء الصحابة ، أسلم عام خيبر ، وبعثه عمر ليفقه
أهل البصرة ومات فيها سنة ٥٢ هـ . (الأعلام ٥ / ٧٠) .

(٢) أبو الدرداء : عويمر بن عامر ، سبقت ترجمته .

(٣) خباب بن الأَرْت : صحابي كان يعمل السيوف بمكة ، وأول من أظهر إسلامه ؛ حيث كان سادس
سنة في الإسلام ، عذَّبَه المشركون وصبر ، نزل الكوفة ومات فيها سنة ٣٧ هـ . (الأعلام ٢ / ٣٠١) .

الباب الثاني

في مقامات العلماء والصالحين

عند الأمراء والسلاطين

دخل الأحنف بن قيس^(١)، علي معاوية^(٢)، وعليه شملة^(٣)، ومدرعة^(٤) صوف، فلما مثّل بين يديه، اقتحمته عينه، فأقبل عليه وقال: مه^(٥)، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين، أهل البصرة عددٌ يسير، وعظمٌ كسير، مع تتابع من المحول^(٦) واتصال من الذحول^(٧)، فالكثير منها قد أطرق^(٨)، والمقل منها قد أملق^(٩)، وبلغ به المخنق، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنعش الفقير ويجبر الكسير، ويسهل العسير، ويصفح عن الذحول^(١٠)، ويداوي المحول^(١١)، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء، وتزول الأواء^(١٢)، ألا وإن السيد من يغمّر ولا يخص^(١٣)، ويدعو الجفلى ولا يدعو النقرى^(١٤)، إن أحسن إليه شكر، وإن أسىء إليه غفر، ثم يكون من وراء الرعية عماداً يدفع عنهم الملمات، ويكشف عنهم المعضلات، فقال معاوية: هاهنا يا أبا بحر، ثم قرأ ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] (١٥).

(١) الأحنف بن قيس: الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين التميمي (أبو بحر)، سيد بني تميم في البصرة، من دهاة العرب الفصحاء الشجعان وقادتهم في صدر الإسلام، لُقّب بالأحنف لحنف أو اعوجاج كان في رجله، أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره، توفي سنة ٧٢هـ (الأعلام ١/ ٢٧٦).

(٢) معاوية بن أبي سفيان: سبقت ترجمته.

(٣) الشملة: كساء واسع يشتمل به.

(٤) المدرعة: ثوب أو جبة مشقوقة المقدم.

(٥) مه: اسم فعل مبني على السكون بمعنى (انكف) وقد يُقال: مه.

(٦) المحول: من المحل وهو القحط واحتباس المطر.

(٧) الذحول: الأحقاد والثارات، يقال: طلب بذحله أي طلب بشأره (لسان العرب ومختار الصحاح، باب: ذحل).

(٨) أطرق: سكت.

(٩) أملق: أصبح فقيراً.

(١٠) يصفح عن الذحول: أي يعطي الأمان للثائرين والهاربين.

(١١) داوي المحول: يزيل آثار الجذب والقحط.

(١٢) الأواء: الشدة والمحنة.

(١٣) يغمّر ولا يخص: يعم عطاؤه وإحسانه الجميع.

(١٤) يدعو الجفلى ولا يدعو النقرى: يدعو الناس كافة إلى طعامه دعوة عامة لا دعوة خاصة.

(١٥) ومعنى الآية: لتعرفن هؤلاء القوم من أسلوب قولهم ومما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم.

وقال سفيان الثوري^(١) : لما حجَّ المهدي^(٢) قال : لا بُدَّ لي من سفيان ، فوضعوا لي الرِّصْدَ حول البيت ، فأخذوني بالليل ، فلما مثلت بين يديه أدناني ، ثم قال : لأيِّ شيء لا تأتينا فنستشيرك في أمرنا ، فما أمرتنا من شيء صرنا إليه ، وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه ؟ فقلت له : كم أنفقت في سفرك هذا ؟ قال : لا أدري ، لي أُمْناء ووُكلاء ، قلت : فما عُذرك غداً إذا وقفت بين يدي الله تعالى فسألك عن ذلك ؟ لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حجَّ ، قال لغُلامه : كم أنفقنا في سفرنا هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً ، قال : ويحك ، أجحفنا بيت مال المسلمين .

وقال الزهري^(٣) : ما سمعتُ بأحسنَ من كلامٍ تكلم به رجل عند سليمان ابن عبد الملك^(٤) فقال : يا أمير المؤمنين ، اسمع مني أربع كلمات ، فيهن صلاح دينك ومُلْكك ، وآخرتك ودُنْيَاك . قال : ما هُنَّ ؟ قال : لا تعدُّ أحداً عدة^(٥) وأنت لا تريد إنجازها ، ولا يغرنك مُرتقى^(٦) سهل إذا كان المنحدر وعرّاً ، واعلم أن الأعمال جزاء فاحذر العواقب ، والدهر تارات^(٧) فكن على حذر .

ولما دخل ابن السمَّك الواعظ^(٨) على هارون الرشيد قال له : عظمي . قال : يا أمير المؤمنين : إنَّ الله لم يرض لخلافته في عباده غيرك ، فلا ترض من نفسك إلا بما رضي الله به عنك ، فإنك ابن عمِّ رسول الله ﷺ ، وأنت أولى الناس بذلك .
يا أمير المؤمنين : من طلب فكاًك رقبته في مُهلةٍ من أجَله ، كان خليفاً أن يعتق نفسه .
يا أمير المؤمنين : من ذوّقته الدُّنيا حلاوتها بركونٍ منه إليها ، أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه^(٩) عنها .

(١) سفيان الثوري : أبو عبد الله ، محدث من الأئمة المجتهدين ومن سادات أهل زمانه ورعاً وعلماً وحفظاً ، ولد في الكوفة ، وتوفي بالبصرة سنة ١٦١ هـ . (الأعلام ٣ / ١٠٤) .

(٢) المهدي : الخليفة العباسي الثالث : سبقت ترجمته .

(٣) الزهري : ابن شهاب محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري ، تابعي من أهل المدينة ، وأول من دوّن الحديث ، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء ، استقر في الشام ومات سنة ١٢٤ هـ . (الأعلام ٧ / ٩٧) .

(٤) سليمان بن عبد الملك : الخليفة الأموي السابع ، سبقت ترجمته .

(٥) العدة : الموعد .

(٦) المرتقى : موضع الصعود والارتقاء . (٧) تارات : مكاره .

(٨) سقطت كلمة (الواعظ) من (ط) وقد سبق ترجمته ، وكذلك هارون الرشيد الخليفة العباسي .

(٩) تجافيه عنها : بعده وإعراضه عنها .

يا أمير المؤمنين: ناشدتك الله أن تقدم إلى جنة عرضها السموات والأرض، وقد دُعيت إليها وليس لك فيها نصيب.

يا أمير المؤمنين: إنك تموت وحدك، وتحاسب وحدك، وإنك لا تقدم إلا على نادم مشغول، ولا تخلف إلا مفتوناً مغروراً، وإنك وإيانا في دار سفر، وجيران ظعن^(١).

ولما حجَّ سليمان بن عبد الملك استحضر أبا حازم^(٢) فقال له: تكلم يا أبا حازم، فقال: فيم أتكلم؟ قال: في الخروج من هذا الأمر. قال: يسير إن أنت فعلته، قال: وما ذاك؟ قال: لا تأخذ الأشياء إلا بحققها، ولا تضعها إلا في أهلها، قال: ومن يقوى على ذلك؟ قال: من قلَّده الله من الأمر ما قلَّدك. قال: عظمي يا أبا حازم، قال: يا أمير المؤمنين: إن هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، ثم قال: يا أمير المؤمنين، نزه ربك في عظمته عن أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك. يا أمير المؤمنين: إنما أنت سوق^(٣)، فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر، فاختر لنفسك أيهما شئت.

قال: فما لك لا تأتينا؟ قال: وما أصنع بإتيانك؟ إن أدنيتني فتنتني، وإن أقصيتني^(٤) أحزنتني، وليس عندي ما أخافك عليه، ولا عندك ما أرجوك له. قال: فأرفع إلينا حوائجك. قال: قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها^(٥)؛ فما أعطاني منها قبلت، وما منعني منها رضىت، يقول الله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فمن ذا الذي يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله، أو أن يزيد في قليل ما قسم الله.

قال: فبكى سليمان بكاءً شديداً. فقال رجل من جلسائه: أسأت إليَّ أمير المؤمنين. قال أبو حازم: اسكت، فإن الله تعالى أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه. ثم خرج من عنده، فلما وصل إلى منزله، بعث إليه بمال، فردَّه، وقال للرسول: قل له: يا أمير المؤمنين؛ والله ما أرضاه لك، فكيف أرضاه لنفسي؟!

(١) ظعن: راحلون، يقال: ظعنوا عن ديارهم: رحلوا عنها.

(٢) استحضر أبا حازم: أي أمر بحضوره، وأبو حازم سلمة بن دينار الأعرج، سبق تعريفه.

(٣) أنت سوق: أي أنت مثل السوق التي يُباع فيها.

(٤) أدنيتني: قربتني. أقصيتني: أبعدتني.

(٥) رفعها لمن هو أقدر منه: أي طلب حاجته من الله سبحانه وتعالى.

وقال الفضل بن الربيع^(١) : حجَّ هارون الرشيد، فبينما أنا نائم ليلةٍ إذ سمعتُ قرعَ الباب، فقلتُ : من هذا؟ فقال : أجب أمير المؤمنين . فخرجتُ مسرعاً فإذا أنا به أمير المؤمنين . فقلتُ : يا أمير المؤمنين : لو أرسلت إليَّ أتيتك . فقال : ويحك ، قد حاك في نفسي شيء لا يُخرجُه إلا عالم ، انظر لي رجلاً أسأله . قلت له : ههنا (سفيان بن عيينة)^(٢) . قال : امض بنا إليه ، فأتيناه ، فقرعتُ عليه الباب ، فقال : من هذا؟ فقلتُ : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إليَّ أتيتك . قال : [خُذْ لما جئناك له]^(٣) فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دين؟ قال : نعم . قال : يا عباس^(٤) : اقض دينه ، ثم انصرفنا فقال : ما أغنى عني صاحبك شيئاً ، فانظر لي رجلاً أسأله . فقلت : هاهنا (عبد الرزاق بن همام)^(٥) ، قال : امض بنا إليه نسأله ، فأتيناه ، فقرعتُ عليه الباب . فقال : من هذا؟ فقلتُ : أجب أمير المؤمنين . فخرج مسرعاً فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إليَّ أتيتك . قال : [خُذْ لما جئناك له]^(٣) . فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دين؟ قال : نعم . قال : يا عباس ، اقض دينه ، ثم انصرفنا فقال : ما أغنى عني صاحبك شيئاً ، فانظر لي رجلاً أسأله ، فقلت : هاهنا (الفضيل بن عياض)^(٦) ، قال : امض بنا إليه . فأتيناه ، فإذا هو قائم يصلي في غرفة يتلو آية من كتاب الله ، ويرددها ، فقرعتُ الباب ، فقال : من هذا؟ فقلتُ : أجب أمير المؤمنين . فقال : ما لي ولأمير المؤمنين؟ فقلت : سبحان الله ! أما عليك طاعته؟ فقال : أوليس قد

(١) الفضل بن الربيع : وزير هارون الرشيد بعد نكبة البرامكة ، أقره الأمين في الوزارة وعمل على مقاومة المأمون ، ولما انتصر المأمون أبعده عن الوزارة ، توفي سنة ٢٠٨ هـ . (الأعلام ٥ / ١٤٨) .

(٢) سفيان بن عيينة : محدث كبير وعالم جليل ، محدث الحرم المكي ، توفي بمكة سنة ١٩٨ هـ (الأعلام ٣ / ١٠٥) .

(٣) في (ط) [جَدُّ لما جئنا له] وفي كل المراجع التي أوردت هذه الحكاية كما أثبتناه أعلاه (انظر : سير أعلام النبلاء ٨ / ٤٢٨ ، وصفة الصفوة ٢ / ٢٤٢) .

(٤) وردت هذه الحكاية في مراجع كثيرة بلفظ : [أبا العباس] ولفظ (يا عباسي) (انظر : حلية الأولياء ٨ / ١٠٥ ، وتهذيب الكمال ٢٣ / ٢٩٣ ، تاريخ مدينة دمشق ٤٨ / ٤٤٠ ، المنتظم ٩ / ١٤٩ ، وغيرها الكثير) .

(٥) عبد الرزاق بن همام : من حفاظ الحديث الثقات ، ويكنى بأبي بكر الصنعاني من أهل صنعاء ، توفي سنة ٢١١ هـ . (الأعلام ٣ / ٣٥٣) .

(٦) الفضيل بن عياض : الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي أبو علي ، شيخ الحرم المكي وأحد العلماء والأعلام الذين يهتدى بكلامهم ، ولِدَ بخراسان وقدم الكوفة وهو كبير من أكابر العباد ، توفي سنة ١٨٧ هـ . (الأعلام ٥ / ١٥٣) .

رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ»^(١)، ثُمَّ نَزَلَ فَفُتِحَ الْبَابُ، ثُمَّ ارْتَقَى الْغُرْفَةَ فَأَطْفَأَ السَّرَاجَ، ثُمَّ التَّجَأَ إِلَى زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَا الْغُرْفَةِ، فَجَعَلْنَا نَجُولُ عَلَيْهِ بِأَيْدِينَا، فَسَبَقْتُ كَفَّ الرَّشِيدِ كَفِّي إِلَيْهِ. فَقَالَ : أَوَّاهُ^(٢) مِنْ كَفٍّ مَا أَلَيْنَهَا إِنْ نَجَتْ غَدًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ : فَقُلْتُ فِي نَفْسِي لِيُكَلِّمَنَّهُ اللَّيْلَةَ بِكَلامٍ نَقِيٍّ مِنْ قَلْبٍ تَقِيٍّ. فَقَالَ : [خُذْ لِمَا جِئْنَاكَ لَهُ] يَرْحَمُكَ اللَّهُ. قَالَ : وَفِيمَ جِئْتُ؟ حَمَلْتُ عَلَى نَفْسِكَ، وَجَمِيعٍ مِنْ مَعَكَ حَمَلُوا عَلَيْكَ، حَتَّى لَوْ سَأَلْتَهُمْ عِنْدَ انْكَشَافِ الْغَطَاءِ عَنْكَ وَعَنْهُمْ أَنْ يَتَحَمَّلُوا عَنْكَ شَقْصًا^(٣) مِنْ ذَنْبٍ مَا فَعَلُوا، وَلَكِنْ أَشَدَّهُمْ حَبًّا لَكَ أَشَدَّهُمْ هَرَبًا مِنْكَ. ثُمَّ قَالَ : إِنْ عَمِرَ ابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِمَا وَلِيَ الْخِلَافَةَ دَعَا [سَالِمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ^(٤)] وَمُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْقُرْظِيَّ^(٥) وَرَجَاءَ بْنَ حَيَوَةَ^(٦)]، فَقَالَ لَهُمْ : إِنِّي قَدْ ابْتُلَيْتُ بِهَذَا الْبَلَاءِ، فَأَشِيرُوا عَلَيَّ - فَعَدَّ الْخِلَافَةَ بِلَاءَ، وَعَدَدْتُهَا أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ نِعْمَةً - فَقَالَ سَالِمُ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ : إِنْ أَرَدْتَ النِّجَاةَ غَدًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، فَصُمْ عَنْ الدُّنْيَا، وَلْيَكُنْ إِفْطَارُكَ فِيهَا الْمَوْتُ.

وَقَالَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : إِنْ أَرَدْتَ النِّجَاةَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ غَدًا فَلْيَكُنْ كَبِيرُ الْمُسْلِمِينَ لَكَ أَبًا، وَأَوْسَطُهُمْ عِنْدَكَ أَخًا، وَأَصْغَرُهُمْ وَلَدًا، فَبِرِّ أَبَاكَ، وَارْحَمْ أَخَاكَ، وَتَحَنَّنْ عَلَى وَلَدِكَ.

وَقَالَ لَهُ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ : إِنْ أَرَدْتَ النِّجَاةَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ غَدًا، فَأَحَبُّ لِلْمُسْلِمِينَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاکْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، ثُمَّ مَتَى شِئْتَ مِتَّ.

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ حَذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ بَلَفَظَ [لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ]، وَقَالَ : حَدِيثٌ غَرِيبٌ. كَمَا رَوَاهُ (ابْنُ مَاجَهَ فِي الْفَتَنِ)، وَ(الإمام أحمد في مسنده ج ٥ / ٤٠٥).

(٢) أَوَّاهُ : كَلِمَةٌ تُقَالُ عِنْدَ الشَّكَايَةِ وَالتَّوَجُّعِ.

(٣) الشَّقْصُ : النَّصِيبُ أَوْ السَّهْمُ.

(٤) سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. أَحَدُ فَقَهَاءِ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ، مِنْ سَادَاتِ التَّابِعِينَ وَعُلَمَائِهِمْ وَثِقَاتِهِمْ، تَوَفَّى سَنَةَ ١٠٦هـ. (الأعلام ٣ / ٧١).

(٥) مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ : أَبُو حِمْرَةَ، كَانَ صَالِحًا عَابِدًا عَالِمًا بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَمِنْ أَفَاضِلِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ١٠٨هـ، وَقِيلَ : ١١٧هـ. (تهذيب التهذيب لابن حجر ٩ / ٣١٣).

(٦) رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ : رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ بْنِ جُرُولِ الْكَنْدِيِّ، وَلَدَ فِي بَيْسَانَ بِفِلَسْطِينَ، وَأَقْبَلَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، فَكَانَ رَاجِحَ الْعَقْلِ وَشَيْخَ الشَّامِ فِي عَصْرِهِ، وَزُرَّ لَطَائِفُهُ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ ابْتِدَاءً مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ ابْنِ مَرْوَانَ، وَانْتِهَاءً بِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَلَكِنْ صَلَاتُهُ بِسُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَاقَتْ صَلَاتَهُ بِمَنْ سَبَقَهُمَا مِنَ الْخُلَفَاءِ، تَوَفَّى سَنَةَ ١١٢هـ. (الأعلام ٣ / ١٧).

رَأَيْتُ لَأَقُولُ لَكَ هَذَا، وَإِنِّي لِأَخَافُ عَلَيْكَ أَشَدَّ الْخَوْفِ يَوْمَ تَزُلُّ الْأَقْدَامُ، فَهَلْ مَعَكَ - رَحِمَكَ اللَّهُ - مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَنْ يَأْمُرُكَ بِمِثْلِ هَذَا؟

فَبَكَى هَارُونَ بَكَاءً شَدِيداً حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: أَرْفُقْ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: يَا بَنَ أُمِّ الرَّبِيعِ، قَتَلْتَهُ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ وَأَرْفُقْ بِهِ أَنَا.

ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: زِدْنِي، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، بَلِّغْنِي أَنَّ عَامِلاً لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ شَكَاَ إِلَيْهِ سَهْراً، فَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: يَا أَخِي إِذَا كَرِهَ سَهْرُ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ، وَخُلُودُ الْأَبَدِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَطْرُدُكَ إِلَى رَبِّكَ نَائِماً أَوْ يَقْظَانِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَزُلَّ قَدَمُكَ عَنْ هَذَا السَّبِيلِ فَيَكُونَ آخِرَ الْعَهْدِ بِكَ، وَمَنْقَطَعِ الرَّجَاءِ مِنْكَ. فَلَمَّا قَرَأَ كِتَابَهُ طَوَى الْبِلَادَ حَتَّى قَدِمَ عَلَيْكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا أَقْدَمَكَ؟ قَالَ: لَقَدْ خَلَعْتُ قَلْبِي بِكِتَابِكَ، لَا وَلَّيْتُ لَكَ وَلَايَةً أَبَداً حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى. فَبَكَى هَارُونَ بَكَاءً شَدِيداً.

ثُمَّ قَالَ: زِدْنِي، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ الْعَبَّاسَ عَمَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمُرْنِي عَلَى إِمَارَةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ النَّبِيَّ، نَفْسٌ تَحْيِيهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لَا تَحْصِيهَا، إِنَّ الْإِمَارَةَ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَكُونَ أَمِيراً فَافْعَلْ»^(١)، فَبَكَى هَارُونَ الرَّشِيدَ بَكَاءً شَدِيداً.

ثُمَّ قَالَ: زِدْنِي يَرْحَمُكَ اللَّهُ، قَالَ: يَا حَسَنَ الْوَجْهِ، أَنْتَ الَّذِي يَسْأَلُكَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ هَذَا الْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَقِيَ هَذَا الْوَجْهَ مِنَ النَّارِ فَافْعَلْ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَصْبَحَ وَتَمْسِيَ وَفِي قَلْبِكَ غُشٌّ لِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَصْبَحَ لَهُمْ غَاشًّا لَمْ يَرُحْ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»^(٢)، فَبَكَى هَارُونَ بَكَاءً شَدِيداً.

ثُمَّ قَالَ: عَلَيْكَ دَيْنٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، دَيْنٌ لِرَبِّي لَمْ يُحَاسِبْنِي عَلَيْهِ، فَالْوَيْلُ لِي إِنْ سَأَلْنِي، وَالْوَيْلُ لِي إِنْ نَاقَشْنِي، وَالْوَيْلُ لِي إِنْ لَمْ يُلْهِمْنِي حُجَّتِي، قَالَ: إِنَّمَا

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى فِي تَرْجُمَةِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ حَمْزَةَ مَرْسِلاً (ج ٤ / ص ٢٧)، وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنَ الْحَدِيثِ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ عَنْ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ (كَنْزُ الْعَمَالِ ج ٦ / ١٤٧٠٠).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِلَفْظٍ: (مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)، وَفِي رِوَايَةٍ (فَلَمْ يَحْطِهَا بِنَصَحِهِ لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ)، وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ، (الْجَامِعُ الصَّغِيرُ ج ٢ / ١٥١).

أعني دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره، فقال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك، وتقو بها على عبادة ربك. فقال: سبحان الله! أنا أدلك على النجاة وتكافئني بمثل هذا، سلمك الله ووفقك؟ ثم صمت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فقال لي هارون: إذا دلتني على رجل، فدلتني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين اليوم.

وروي أن امرأة من نساءه^(١) دخلت عليه، فقالت له: يا هذا! قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال ففرجنا به، فقال: إنما مثلي ومثلكم كمثلكم قوم كان لهم بغير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه، فأكلوا لحمه. موتوا يا أهلي جوعاً ولا تذبحوا فضيلاً. فلما سمع الرشيد ذلك، قال: ادخل، فعسى أن يقبل المال. قال: فدخلنا، فلما علم بنا الفضيل، خرج وجلس على التراب على السطح، فجاء هارون الرشيد فجلس إلى جنبه، فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء، فقالت: يا هذا، قد آذيت الشيخ هذه الليلة، فانصرف يرحمك الله، فانصرفنا.

ووعظ شبيب بن شيبه^(٢) المنصور^(٣)، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله لم يجعل فوقك أحداً، فلا تجعل فوق شكر الله شكراً.

ودخل عمرو بن عبيد^(٤) على المنصور فقرأ: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾^(٥)، لمن فعل مثل فعالهم^(٦) فاتق الله يا

(١) أي: من نساء الفضيل بن عياض.

(٢) شبيب بن شيبه: أبو معمر، أديب الملوك ونديم الخلفاء وجليس الفقراء وأخو المساكين، من أهل البصرة، خطيب فصيح وشريف من الدهاة، توفي سنة ١٧٠هـ. (الأعلام ٣/ ١٥٦).

(٣) أبو جعفر المنصور: الخليفة العباسي الثاني، سبقت ترجمته.

(٤) عمرو بن عبيد: أبو عثمان البصري، زاهد مشهور، شيخ المعتزلة في عصره، ولد في بلخ وعاش في البصرة، اشتهر بعلمه وزهده وأخباره مع المنصور، وقد قدمه المنصور، ولما توفي رثاه، وتوفي سنة ١٤٤هـ. (الأعلام ٥/ ٨١).

(٥) الآيات الأولى من سورة الفجر حتى الآية رقم (١٤).

(٦) أي أن الله تعالى يرقب أعمال من فعل مثل فعال قوم عاد وثمود وفرعون وغيرهم يحصيها عليهم ويحكم فيهم بعدله.

أمير المؤمنين، فإنَّ بابك نيراناً تتأجج^(١) لا يُعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله ﷺ، وأنتَ مسئولٌ عما اجترحوا^(٢) وليسوا مسئولين عما اجترحت، فلا تُصلح دنياهم بفساد آخرتك، أما والله لو علم عمالك أنه لا يرضيك منهم إلا العدل، لتقربَ به إليك من لا يريده. فقال له سليمان بن مجالد^(٣) : اسكت ، فقد غممتَ أمير المؤمنين. فقال له عمرو : ويلك يا ابن أم مجالد ، أما كفاك أنك خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين، حتى أردت أن تحول بينه وبين من ينصحه، اتقى الله يا أمير المؤمنين، فإنَّ هؤلاء قد اتخذوك سُلماً إلى شهواتهم، فأنت كالماسك بالقرون وغيرك يحلب، وإنَّ هؤلاء لن يُغنوا عنك من الله شيئاً.

وقال الأوزاعي^(٤) للمنصور في بعض كلامه : يا أمير المؤمنين، أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة^(٥) يابسة، يُستاك^(٦) بها، ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : «يا محمد ما هذه الجريدة بيدك؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً». فكيف من سفك دماء المسلمين، وشقق أستارهم، وانتهب أموالهم! إن المغفور له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر^(٧) دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً من غير تعمد، فقال له جبريل عليه السلام : «إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون رعيتك»^(٨).

يا أمير المؤمنين : لو أن ثوباً من النار نُشر على ما في الأرض لاجتثّه، فكيف بمن يتقمّصه^(٩)؟ ولو أن ذنوباً^(١٠) من النار صُبَّ على ما في الأرض لاجتثّه، فكيف بمن يتجرّعه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يُسلسل فيها^(١١)، ويردُّ فضلها على عنقه؟

(١) تأججت النار: اشتد حرها.

(٢) اجترح الشيء: اكتسبه.

(٣) سليمان بن مجالد : كان من أحظى كُتّاب أبي جعفر المنصور، ولي له الخزائن إلى أن مات (تاريخ مدينة دمشق ٣٦٧/٢٢).

(٤) الأوزاعي : عبد الرحمن بن عمرو، من أئمة الفقهاء، صاحب مذهب معروف، كان جريئاً، احتج على ظلم الولاة، ولد في بعلبك، وتوفي في بيروت سنة ١٥٧هـ (الأعلام ٣/٣٢٠).

(٥) الجريدة : قضيب من النخل مجرد من الخوص أو العصا مطلقاً.

(٦) يستاك بها : يتخذ منها سواكاً.

(٧) المقصود سيدنا محمد ﷺ.

(٨) وردت هذه الرواية وبلفظ مشابه في حلية الأولياء (١٣٧/٦)، والطبقات الكبرى (٨٣/٧).

(٩) تقمص الثوب : أي لبسه.

(١٠) الذنوب : الدلو.

(١١) يُسلسل فيها : أي يدخل في السلسلة.

ودخل بعض العقلاء على سلطان ، فقال له : إن أحقَّ الناس بالإحسان من أحسن الله إليه ، وأولاهم بالإنصاف من بسط يديه بالقدرة ، فاستدِم ما أوتيت من النعم بتأدية ما عليك من الحق .

وروي أن أعرابياً قام بين يدي هشام بن عبد الملك^(١) ، فقال : أيها الأمير ، أتت على الناس سنون ثلاث ، أما الأولى : فأكلت اللحم ، وأما الثانية : فأذابت الشحم ، وأما الثالثة : فهأضت^(٢) العظم ، وعندك فضول أموال ، فإن كانت لله فأقسمها بين عباده ، وإن كانت لهم فلم تحصرها عليهم ؟ وإن كانت لكم فتصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين .

فأمر هشام بمال فقسَّم بين الناس ، وأمر للأعرابي بمال ، فقال : أكلُ المسلمين منك مثلُ هذا ؟ قال : لا يقوم بذلك بيت المال . قال : لا حاجة لي فيما يُبعث لأئمة الناس على أمير المؤمنين .

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، اذكر لمقامي هذا مقاماً لا يشغل الله عز وجل عنك ، كثرة من يخاصم من الخلائق يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ، ولا براءة من الذنب^(٣) . فبكى عمر بكاءً شديداً ، ثم استرده الكلام^(٤) ، فجعل يردِّده وعمر يبكي وينتحب ، ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : عاملك بأذربيجان أخذ مني اثني عشر ألف درهم ، قال : اكتبوا له حتى يرد عليه ماله .

ولما دخل زياد^(٥) على عمر بن عبد العزيز ، قال : يا زياد ، ألا ترى ما ابتليتُ به من أمر أمة محمد ﷺ ؟ فقال زياد : يا أمير المؤمنين ، والله لو أن شعرة منك نطقت ما بلغت كنهه^(٦) ما أنت فيه ، فاعمل لنفسك في الخروج مما أنت فيه . يا أمير المؤمنين : كيف حال رجل له خصم ألد ؟ قال : سيء

(١) هشام بن عبد الملك : الخليفة الأموي سبقت ترجمته .

(٢) هأضت العظم : كسرتة أو أضعفته .

(٣) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (ج ٩ / ص ٢١٨) هذه الحكاية عن رجل من أذربيجان ، بلفظ مشابه ، فقال : [يا أمير المؤمنين : اذكر بمقامي هذا بين يديك مقامك غداً بين يدي الله ، حيث لا يشغل الله عنك فيه كثرة من يخاصم من الخلائق يوم تلقاه وبلا ثقة من العمل ولا براءة من الذنب] ، كما وردت بالفاظ متقاربة في (تاريخ مدينة دمشق ٤٥ / ٢٠١ ، ٦٨ / ٢٩٩) ، وفي (المجالسة وجواهر العلم ١ / ٦٠٤) .

(٤) استرده الكلام : طلب منه أن يردِّده .

(٥) المقصود (زياد العبدي) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (ج ٩ / ٢١٨) ، وقال : قال له زياد العبدي - بلفظ مشابه - قال : [لو أن شعرة فيك نطقت بحمد الله وشكره والثناء عليه ما بلغت كنه ما أنت فيه] .

(٦) كنه الشيء : حقيقته .

الحال . قال : فإن كان له خصمان الدّان ؟ قال : فهو أسوأ حالاً . قال : فإن كانوا ثلاثة ؟ قال : لا يهنئه عيش . قال : فوالله ما من أحد من أمة محمد ﷺ إلا وهو خصمك . قال : فبكي [حتى غشي عليه] (١) وحتى تمنيت أن لا أكون قلت له ذلك . وقال محمد بن كعب (٢) لعمر بن عبد العزيز ، يا أمير المؤمنين : إنما الدنيا سوق ، فمنها خرج الناس بما ربّحوا فيها لآخرتهم ، وخرجوا بما يضرّهم ، فكم من قوم غرّهم مثلُ الذي أصبحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا مرمليين (٣) ، لم يأخذوا من الدنيا للآخرة ، فاقْتَسَمَ مَالَهُمْ من لا يحمدهم ، وصاروا إلى من لا يعذرهم ، فانظر إلى الذي تحب أن يكون معك ، فقدّمه بين يديك حتى تخرج إليه ، وانظر إلى الذي تكره أن يكون معك إذا قدمت ، فابتغ به البدل حيث يجوز البدل ، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على غيرك ، ترجو جوازها عنك . يا أمير المؤمنين : افتح الأبواب وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم .

وحضر رجل بين يدي بعض الملوك ، فأغلظ له السلطان ، فقال له الرجل : إنما أنت كالسما ، إذا أرعدت وأبرقت فقد قُربَ خيرها . فسكن غيظه ، وأحسن إليه .

ولما احتاج المنصور بن أبي عامر (٤) ملك الأندلس ، أن يأخذ أرضاً مُحَبَسَةً (٥) ، ويعاوض عنها خيراً منها ، استحضر الفقهاء في قصره ، فأفتوا بأنه لا يجوز ، فغضب السلطان ، وأرسل إليهم رجلاً من الوزراء مشهوراً بالحدة والعجلة ، فقال لهم : يقول لكم أمير المؤمنين : يا مشيخة السوء يا مستحلي أموال الناس ، يا آكلي أموال اليتامى ظلماً ، يا شهداء الزور ، يا آخذي الرشا ، ومُتلفي الخصوم ، وملقحي الشرور (٦) ، وملبسي الأمور ، وملتمسي الروايات لا تباع الشهوات ، تباً لكم ولآرائكم ، فهو - أعزه الله - واقف على فسوقكم قديماً ، وخونكم لأماناتكم ، مغض عنه ، صابر عليه ، ثم احتاج إلى دقة نظركم

(١) (حتى غشي عليه) سقطت من (ط) .

(٢) هو محمد بن كعب القرظي : سبقت ترجمته . (٣) أرمل القوم : نفذ زادهم وافقروا .

(٤) المنصور بن أبي عامر : محمد بن عبد الله بن عامر ، أمير الأندلس ، استقل بأمر الدولة لمدة ٢٦ سنة ، أنشأ المدينة الزاهرة ، قُتل في إحدى غزواته سنة ٣٩٢هـ ، خلفه ابنه عبد الملك . (الأعلام ٦ / ٢٢٦) .

(٥) الأرض المحبسة : الأرض الموقوفة لوجه الله تعالى .

(٦) ملقح الشر : مثيره ومسيبه .

في حاجة مرة واحدة في دهره، فلم تُسْعَفُوا إِرَادَتَهُ، ما كان هذا ظَنَّهُ بكم، والله ليعَارِضَنَّكُمْ وَلِيَكْشِفَنَّ ستوركم، وَلِيُنَاصِحَنَّ الْإِسْلَامَ فيكم. وأفحش عليهم بهذا ونحوه، فأجابه شيخ منهم ضعيف المنة^(١). فقال: نتوب إلى الله مما قاله أمير المؤمنين، ونسأله الإقالة^(٢). فرد عليه زعيم القوم، محمد بن إبراهيم بن حيوة^(٣) وكان جليدا صارما- فقال للمتكلم: مِمَّ نتوب يا شيخ السوء؟ نحن برآء من متابك. ثم أقبل على الوزير فقال: يا وزير، بئس المبلغ أنت، وكل ما نسبته إلينا عن أمير المؤمنين فهو صفتكم معاشر خدمه، فأنتم الذين تأكلون أموال الناس بالباطل، وتستحلون ظلمهم بالإخافة وتحيفون^(٤) معاشهم بالرشا والمصانعة، وتبغون في الأرض بغير الحق، وأما نحن فليست هذه صفاتنا ولا كرامة، لا يقولها لنا إلا متهم في الديانة، فنحن أعلام الهدى وسرُج الظلمة، بنا يتحصن الإسلام، ويفرق بين الحلال والحرام، وتنفذ الأحكام، وبنا تُقام الفرائض، وتثبت الحقوق، وتحقن الدماء، وتستحل الفروج، فهلا إذ عتب علينا سيدنا أمير المؤمنين بشيء لا ذنب لنا فيه، وقال بالغيظ ما قاله، تأتيت لإبلاغنا رسالته بأهون من إفحاشك^(٥)، وعرضت^(٦) لنا بإنكاره حتى فهمناه منك فأجبناك عنه بما يصلح الجواب عنه به، فكنت ترين^(٧) على السلطان ولا تفشي سره، وتستحيينا بما استقبلتنا به؟ فنحن نعلم أن أمير المؤمنين لا يتمادى على هذا الرأي فينا، ولا يعتقد هذا المعتقد في صفاتنا، وأنه سيراجع بصيرته في إثارتنا وتعزيزنا، فلو كُنَّا عنده على هذه الحال التي وصفتها عنا- والعياذ بالله من ذلك - لبطل عليه كل ما صنعه وعقده، من أول خلافته إلى هذا الوقت، فما يثبت له كتاب من حرب ولا سلم، ولا شراء ولا بيع، ولا صدقة ولا حبس، ولا هبة ولا عتق، ولا غير ذلك، إلا بشهادتنا، هذا ما عندنا والسلام.

(١) ضعيف المنة: يقال رجل منين أي ضعيف، كان الدهر ذهب بمنته أي قوته.

(٢) نسأله الإقالة: أي العفو والصفح والتوبة.

(٣) في (خ) محمد بن إبراهيم بن حيوة.

(٤) الحيف: الجور والظلم.

(٥) الإفحاش: القبيح من القول أو الفعل.

(٦) التعريض: التلميح (عكس التصريح).

(٧) ترين: تغطي، وهي من الران: الغطاء، ومنها قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ﴾. قال الحسن: «هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب». (مختار الصحاح ص ٣٤).

ثم قاموا منصرفين، فلم يكادوا يبلغوا باب القصر إلا والرسل تناديهـم، فأدخلوا القصر، فتلقاهـم الوزراء بالإعظام، ورفعوا منازلهم، فاعتذروا إليهم مما كان من صاحبهم، وقالوا لهم: أمير المؤمنين يعتذر إليكم من فرط موجدته^(١)، ويستجير بالله من الشيطان الرجيم ونزغته^(٢) التي حملته على الجفاء عليكم، ويعلمكم أنه نادى على ما كان منه إليكم، وهو مستبصر في تعظيمكم، وقضاء حقوقكم، وقد أمر لكل واحد منكم بما ترون من صلته وكسوته علامة لرضاه عنكم. فدعوا له وقبضوا ما أمر لهم، وانصرفوا غالبين لم يمسسهم سوء.

ولما نظر مالك بن دينار^(٣) إلى المهلب بن أبي صفرة^(٤)، يجر أذياله ويتبختر في أثواب خيلائه، ناداه أن ارفع من ثيابك، فقال له المهلب: أو ما تعرفني؟ قال له مالك: بلى إني أعرفك، أولك نطفة مذرة^(٥)، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة^(٦).

ويروى أن رجلاً قال لعبيد الله العمري^(٧): هذا هارون الرشيد في الطواف قد أخلى له المسعى، فقال له: لا جزاك الله عني خيراً، كلفتني أمراً كنت عنه غنياً. ثم جاء إليه، فقال له: يا هارون؛ فلماً نظر إليه، قال: لبيك يا عم؛ قال: كم ترى ههنا من خلق الله؟ فقال: لا يحصيهم إلا الله عز وجل، فقال: اعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يُسأل عن خاصة نفسه، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلهم، فانظر كيف تكون؟ قال: فبكى هارون وجلس فجعلوا يعطونه منديلاً منديلاً للدموع، ثم قال له فيما قال: إن الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحجر عليه، فكيف فيمن أسرع في مال المسلمين؟ فيقال: إن هارون كان يقول بعد ذلك: إني أحب أن أحج في كل عام وما يمنعني من ذلك إلا عبيد الله العمري.

(١) وجد وجدًا وموجدة: غضب.

(٢) نزغة الشيطان: تحريشه وإغراؤه.

(٣) مالك بن دينار: أبو يحيى البصري، من رواه الحديث الشقات، كان عالماً ورعاً يأكل من كسب يده حيث كان يكتب المصاحف بالأجر، توفي سنة ١٣١هـ. (الأعلام ٥ / ٢٦٠).

(٤) المهلب بن أبي صفرة: أمير البصرة لمصعب بن الزبير، حارب الخوارج، تولى إمارة خراسان لعبد الملك بن مروان، من القادة الشجعان، توفي سنة ٨٣هـ. (الأعلام ٧ / ٣٥١).

(٥) نطفة مذرة: النطفة: ماء الرجل أو المرأة، ومذرة: أي قذرة وفاسدة.

(٦) تحمل العذرة: أي الغائط أو أردأ ما يخرج من الطعام.

(٧) عبيد الله العمري: نسبة إلى عمر بن الخطاب، وهو من الزهاد الصالحين.

ويروى أَنَّ الحسن بن محمد بن الحسين^(١) رضي الله عنهم، دخل على عمر بن عبد العزيز، فقال له: يا عمر، ثلاث من كُنَّ فيه فقد استكمل الإيمان، فقال له عمر: إيه أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة - وجشا على ركبتيه -، فقال الحسن: من إذا رضي لم يُدْخِلْهُ رِضاهُ في باطل، ومن إذا غضِبَ لم يُخْرِجْهُ غضبه عن الحق، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، وفدت عليه الوفود من كل بلد، فوفد عليه الحجازيون، فقدم غلام منهم للكلام، وكان حديث السن، فقال له عمر: لينطق من هو أَسَنُّ منك، فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبداً لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً، فقد استحقَّ الكلام، وعرف فضله من سمع خطابه، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن، لكان في الأمة من هو أحقَّ بمجلسك هذا منك، فقال: صدقت، قُلْ ما بدا لك. فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين، نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة^(٢)، وقد أتيناك لِمَنْ اللهُ^(٣) الذي مَنَّ علينا بك، ولم يُقدِّمنا إليك رغبةً ولا رهبةً، أما الرغبة فقد اتتنا منك إلى بلادنا^(٤)، وأما الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك. فقال له عمر: عطني يا غلام، فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين، إن ناساً من الناس، غرهم حلم الله عنهم، وطول أملهم، وكثرة ثناء الناس عليهم، فزلت بهم الأقدام، فهووا في النار، فلا يغرناك حلم الله عنك، وطول أملك، وكثرة ثناء الناس عليك، فتزل بك قدمك فتلحق بالقوم، فلا جعلك الله منهم، وألحقك بصالحي هذه الأمة، ثم سكت. فسأل عمر الغلام عن سنه، فإذا هو ابن إحدى عشرة سنة، ثم سأل عنه، فإذا هو من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب طالب، رضي الله عنهم، فتمثل عمر عند ذلك، فقال:

تَعْلَمُ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُوَلَّدُ عَالِماً وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ
وَإِنَّ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ صَغِيرٌ إِذَا التَّفَّتْ عَلَيْهِ الْمُحَافِلُ

(١) في (خ) الحسن بن محمد بن الحسن (من أحفاد علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين).

(٢) المرزئة: المصيبة العظيمة، يريد أن يقول: إن الوفد للتهنئة لا لطلب العطايا.

(٣) من الله: شكره وامتنانه.

(٤) هكذا في (خ)، وفي (ط) فقد أتيناك من بلادنا. وقد وردت هذه الحكاية في كتاب (جمهرة

خطب العرب ٢/ ٤١٩) وفيها اسم الغلام ونسبه مع اختلاف في بعض الألفاظ.

وفي مثل هذا قيل للعتابي^(١) - وكان لا يبالي ما لبس - مالك لا تجيد الملبوس؟ فقال: إنما يرفع الرجل أدبه وعقله لا حليته وحلته، لحى الله امرأ^(٢) يرضى أن ترفعه هيئته وجماله، لا والله حتى يشرفه أصغراه: لسانه وقلبه، ويعلو به أكبراه: همته ولبه^(٣).

ولما دخل ضمرة بن ضمرة^(٤) على المنذر بن المنذر^(٥) وهو ملك - وكان ضمرة ذا رأي وعقل - احتقرته عيناه لدمامته، فقال: (لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه)^(٦) فقال ضمرة: أبيت اللعن^(٧) إن القوم ليسوا بجزر تجزر، إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا نطق نطق ببيان^(٨)، وإذا قاتل قاتل بجنان^(٩)، والرجال لا تكال بالقفران^(١٠)، ولا توزن بالقبان^(١١). فأعجب المنذر بكلامه.

وروي أن: روح بن زنباع^(١٢)، كان في طريق مكة، في يوم شديد الحر مع أصحابه، فنزلوا، فضربت لهم الخيام والظلال، وقُدِّم إليهم الطعام والشراب المبرد، فبينما هم كذلك، إذا هم براع، فدعاه للطعام فأبى، وقال: إني صائم، قال له روح: في مثل هذا اليوم الحار تصوم؟ قال: أفأدع أيامي تذهب باطلا؟ قال روح: لقد ضننت بأيامك يا راعي، إذ جاد بها روح بن زنباع.

(١) العتابي: كلثوم بن عمرو الشعلي، شاعر بليغ من أهل الشام، توفي سنة ٢٢٠هـ (الوافي بالوفيات ٢٤/٢٦٧).

(٢) لحى الله امرأ: أي قبَّحه ولعنه.

(٤) ضمرة بن ضمرة بن جابر النهشلي المعيدي: شاعر جاهلي من الشجعان الرؤساء، كان ذا رأي وحكمة، ولكن كريه المنظر، كان اسمه (شقة بن ضمرة) فسماه المنذر بن ماء السماء (ضمرة) (الأعلام ٣/٢١٦).

(٥) المنذر بن المنذر: ثالث ملوك المناذرة، ملوك الحيرة في العراق من قبل الفرس، وهو المنذر ابن ماء السماء، وماء السماء وهي أمه، وقد سميت بذلك لجمالها (الأعلام ٧/٢٩٢).

(٦) أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه: مثل يضرب لمن كان خبره خير من مرآه، وأول من قال هذا المثل هو المنذر بن ماء السماء، حيث كان يسمع (بشقه بن ضمرة المعيدي) ويعجبه ما يبلغه عنه، فلما رآه وكان كريه المنظر قال: (أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه) فأصبح مثلاً.

(٧) أبيت اللعن: هذه تحية الملوك في الجاهلية، ومعناها: (لا فعلت أيها الملك ما يستوجب اللعن).

(٨) البيان: النطق الفصيح المعبر عما في الضمير ومنه: (أن من البيان لسحراً).

(٩) الجنان: القلب.

(١٠) القفران: مفردا قفيز وهو المكيال، والقفيز من الأرض قدر مائة وأربع وأربعين ذراعاً.

(١١) القبان: الميزان ذو الذراع الطويلة.

(١٢) روح بن زنباع: روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامي، أبو زرعة، أمير فلسطين أيام يزيد ابن معاوية، وكان عبد الملك بن مروان يستشير سيد اليمانية في الشام وقائدها وخطيبها وشجاعها، توفي سنة ٨٤هـ (الأعلام ٣/٣٤).

وروي أن أعرابياً قام بين يدي سليمان بن عبد الملك^(١) وقال : يا أمير المؤمنين ، إنني مكلّمك بكلامٍ فاحتمله إن كرهته ، فإن وراءه ما تحب إن قبلته ، قال : هات يا أعرابي ، قال : سأطلق لساني بما خرسست به الألسن ، أداء لحق الله ولحق أمانتك ، إنك قد اكتنفتك رجال^(٢) أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فأعظم الناس غبناً يوم القيامة من باع آخرته بدنياه غيره . فقال له سليمان : أما أنت فقد نصحت ، وأرجو أن الله سيعيننا على ما قلدنا ، وقد جرّدت لسانك فهو سيفك . فقال : أجل يا أمير المؤمنين ، وهو لك لا عليك .

وقال ابن أبي عروبة^(٣) حجّ الحجاج^(٤) فنزل بعض الميَاه بين مكة والمدينة ، ودعا بالغداء ، وقال لحاجبه : انظر من يتغدى معي ، واسأله عن بعض الأمر ، فنظر نحو الجبل ، وإذا براع بين شملتين^(٥) نائم ، فضربه برجله ، وقال له : انت الأمير ، فأتاه ، فقال له الحجاج : اغسل يدك وتغدّ معي . فقال : دعاني من هو خير منك فأجبتة . قال : ومن هو ؟ قال : الله تعالى دعاني إلى الصيام فصمت ، قال : في هذا الحر الشديد ؟ قال : نعم ، صمت ليوم هو أشد منه حراً . قال : فأفطر وصم غداً . قال : إن ضمنت لي البقاء إلى غد ! قال : ليس ذلك إليّ . قال : فكيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه ؟ قال : لأنه طيب ، قال : لم تُطِيبه أنت ولا الطباخ ، ولكن طيَّبته العافية .

ولما حجّ هارون الرشيد^(٦) بعث إلى مالك بن أنس^(٧) بكيس فيه خمسمائة دينار ، فلما قضى نسكه وانصرف ودخل المدينة ، بعث إلى مالك بن أنس : أن أمير المؤمنين يحب أن تنتقل معه إلى مدينة السلام^(٨) ، فقال

(١) سليمان بن عبد الملك : الخليفة الأموي السابع ، سبقت ترجمته .

(٢) اكتنفتك رجال : أي أحاطوا بك .

(٣) ابن أبي عروبة : سعيد بن مهران بن أبي عروبة ، الإمام الحافظ عالم أهل البصرة من المحدثين وأول من جمع السنن النبوية ، والقصة موجودة في كتاب [تاريخ مدينة دمشق ١٢ / ١٢٥] ، والبداية والنهاية ٩ / ١٢١] ، توفي سنة ١٥٦ هـ (الأعلام ٣ / ٩٨) .

(٤) الحجاج بن يوسف الثقفي ، سبقت ترجمته .

(٥) الشملت : كساء من صوف أو من شعر ، وفي (ط) بين سخلتين .

(٦) هارون الرشيد : الخليفة العباسي السابع ، سبقت ترجمته .

(٧) مالك بن أنس : إمام دار الهجرة ، سبقت ترجمته .

(٨) مدينة السلام : بغداد وقد أسسها المنصور وسماها بذلك .

لِلرَّسُولِ : قُلْ لَهُ : إِنَّ الْكَيْسَ بِخَاتَمِهِ (١) ، وَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ : « وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » (٢) .

وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ (٣) : إِنَّ مَلَكًا كَانَ يَفْتِنُ النَّاسَ ، وَيَحْمِلُهُمْ عَلَى أَكْلِ لَحْمِ الْخَنزِيرِ ، فَأَتَى بِرَجُلٍ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ ، فَأَعْظَمَ النَّاسَ مَكَانَهُ ، وَهَالَهُمْ أَمْرُهُ ، فَرَاودَهُ عَلَى أَكْلِ لَحْمِ الْخَنزِيرِ ، فَلَمْ يَفْعَلْ ، فَرَقَّ لَهُ صَاحِبُ شَرْطَةِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ : أَنَا آتِيكَ بِجَدِي تَذْبِحُهُ بِمَا يَحِلُّ لَكَ أَكْلَهُ ، فَإِذَا دَعَا الْمَلِكُ بِلَحْمِ خَنزِيرٍ أَتَيْتَكَ بِهِ ، فَفَعَلَ ، ثُمَّ أَتَى بِهِ الْمَلِكَ ، فَدَعَا بِلَحْمِ الْخَنزِيرِ ، فَأَتَى صَاحِبَ الشَّرْطَةِ بِذَلِكَ الْجَدِيِّ ، فَأَمَرَ بِهِ الْمَلِكُ أَنْ يَأْكُلَهُ ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَهُ ، فَجَعَلَ صَاحِبُ الشَّرْطَةِ يَغْمِزُهُ أَنْ يَأْكُلَهُ ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَهُ ، فَأَمَرَ الْمَلِكُ صَاحِبَ الشَّرْطَةِ أَنْ يَقْتُلَهُ ، فَلَمَّا ذَهَبَ بِهِ قَالَ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْكُلَ وَهُوَ اللَّحْمُ الَّذِي ذَبَحْتَهُ أَنْتَ ، أَظُنَنْتَ أَنِّي جِئْتُ بِغَيْرِهِ ؟ قَالَ : لَا ، قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ هُوَ ، وَلَكِنِّي خِفْتُ أَنْ يُفْتِنَ النَّاسُ بِي ، فَإِنْ أَكْرَهُوا عَلَى أَكْلِ لَحْمِ الْخَنزِيرِ ، قَالُوا : قَدْ أَكَلَهُ فَلَانَ فَيُسْتَنْبَى ، فَأَكُونُ فِتْنَةً لَهُمْ ، فَقَتَلَ رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَرَوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَكَعْبِ الْأَحْبَارِ (٤) : يَا كَعْبُ : خَوْفُنَا ، قَالَ : أَوْ لَيْسَ فِيكُمْ كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ؟ قَالَ : بَلَى يَا كَعْبُ ، وَلَكِنْ خَوْفُنَا ، قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : اْعْمَلْ عَمَلَ رَجُلٍ ، لَوْ وَافَيْتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِعَمَلِ سَبْعِينَ نَبِيًّا لَزَدْتِ عَمَلَهُمْ مِمَّا تَرَى . فَتَنَّكَسَ عُمَرُ وَأَطْرَقَ مَلِيًّا ثُمَّ أَفَاقَ ، فَقَالَ : يَا كَعْبُ : خَوْفُنَا ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : لَوْ فُتِحَ مِنْ جِهَنَّمَ قَدَرٌ مِنْ خُرْثُورٍ بِالْمَشْرِقِ ، وَرَجُلٌ بِالْمَغْرِبِ ، لَغَلِيَ دِمَاغُهُ حَتَّى يَسِيلَ مِنْ حَرِّهَا . فَتَنَّكَسَ عُمَرُ ثُمَّ أَفَاقَ ، فَقَالَ : يَا كَعْبُ ، زِدْنَا ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنَّ جِهَنَّمَ لَتَزْفِرُ زَفْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلَا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، إِلَّا خَرَّ عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، حَتَّى يَخْرُ إِبْرَاهِيمُ - خَلِيلُ الرَّحْمَنِ - عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي .

(١) إِنَّ الْكَيْسَ بِخَاتَمِهِ : أَيُّ أَنَّ الْكَيْسَ الَّذِي أَرْسَلَتْهُ وَبِهِ الدَّنَانِيرُ مَازَالَ مَخْتَوْمًا وَلَمْ يُفْتَحْ ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى عَدَمِ رَغْبَتِهِ مَغَادِرَةَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ إِلَى بَغْدَادَ .

(٢) جُزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ صَحِيحٍ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ سَفْيَانَ بْنِ أَبِي زَهْرٍ (الْجَامِعُ الصَّغِيرُ - رَقْمٌ ٣٣٤٢) .

(٣) وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ : التَّابِعِيُّ الْمَوْخُ ، سَبَقَتْ تَرْجُمَتُهُ . (وَرَدَتْ هَذِهِ الْحِكَايَةُ فِي الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ ٢٩٢/٩ ، وَحَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ ٤/٥٥) .

(٤) كَعْبُ الْأَحْبَارِ : هُوَ أَبُو إِسْحَاقَ ، تَابِعِيُّ ، وَكَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ كِبَارِ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ فِي الْيَمَنِ ، وَأَسْلَمَ فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ ، وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَيُعْتَبَرُ مِنْ أَقْدَمِ رَوَاةِ الْحَدِيثِ ، قُرْبُهُ مَعَاوِيَةَ ، تُوُفِيَ فِي حِمَصَ سَنَةِ ٣٢ هـ . (الْأَعْلَامُ ٥/٢٨٨) .

واستأذن أبو دهمان على بعض الأمراء^(١)، فحجبه ثم أذن له، فلما دخل قال: إن هذا الأمر الذي صار إليك، قد كان في يد غيرك، فأمسوا والله حديثاً، فإن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فتحبب إلى عباد الله بحسن البشر، ولين الجانب، وتسهيل الحجاب، فإن حب عباد الله موصول بحب الله، وبغضهم موصول ببغضه؛ لأنهم شهداء الله على خلقه.

ولما دخل محمد بن واسع^(٢) سيد العباد في زمانه على بلال بن أبي بردة^(٣)، أمير البصرة، وكان ثوبه إلى نصف ساقه، فقال له بلال: ما هذه الشهرة^(٤)؟ يابن واسع؟ فقال له ابن واسع: أنتم شهرتمونا، هكذا كان لباس من مضى، وإنما أنتم طوّلتُم ذُيولكم، فصارت السنة بينكم بدعاً وشهرة.

وأما أنا^(٥): فلمّا دخلتُ على ملك مصر - وهو الأفضل بن أمير الجيوش^(٦) - فقلت: سلام عليك ورحمة الله وبركاته، فردّ السلام على نحو ما سلّمتُ رداً جميلاً، وأكرم إكراماً جزيلاً، وأمرني بدخول مجلسه، وأمرني بالجلوس فيه، فقلت: أيها الملك، إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلاً عالياً شامخاً، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً، وملّكك طائفة من ملّكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمرٌ أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحدٌ أولى بالشكر منك، وأن الله تعالى قد ألزم الوري^(٧) طاعتك، فلا يكونن أحدٌ

(١) ذكر الجاحظ هذه القصة في البيان والتبيين (١/ ٣١٥، ٣١٦) وقد ذكر أن الأمير هو سعيد ابن سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي، وكان والياً على أرمينية، وأن الذي استأذن عليه هو أبو دهمان الغلابي - شاعر من شعراء البصرة ممن أدرك دولتي بني أمية وبني هاشم ومدح المهدي. وكان طيباً ظريفاً مليح النادرة. (وانظر كذلك: وفيات الأعيان ٤/ ٨٨، والأغاني ٢٢/ ٢٥٨).

(٢) محمد بن واسع: محمد بن واسع بن جابر الأزدي أبو بكر، فقيه ورع، ومن ثقات أهل الحديث، ومن أهل البصرة الزهاد، توفي سنة ١٢٣هـ. (الأعلام ٧/ ١٢٣).

(٣) بلال بن أبي بردة، عامر بن أبي موسى الأشعري، أمير البصرة وقاضيه، كان راوية أديباً فصيحاً، عزله يوسف بن عمر الثقفي، وحبسه ومات سجيناً نحو سنة ١٢٦هـ. (الأعلام ٢/ ٧٢).

(٤) الشهرة: الفضيحة. يُقال: شهر فلاناً: فضحه وجعله شهرة.

(٥) أي الطرطوشي.

(٦) الأفضل بن أمير الجيوش: أحمد بن بدر الدين الجمالي، كان وزيراً للملك الأمر بأحكام الله العبيدي - صاحب مصر - وله مع أبي بكر الطرطوشي حكاية طويلة تجدها في ترجمة المؤلف.

(٧) الوري: الخلق.

أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكَ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ عِبَادَهُ بِالشُّكْرِ، وَلَيْسَ الشُّكْرُ بِاللِّسَانِ، وَلَكِنَّهُ بِالْفِعَالِ وَالْإِحْسَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]. وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْمَلِكَ الَّذِي أَصْبَحَتْ فِيهِ إِنَّمَا صَارَ إِلَيْكَ بِمَوْتٍ مِنْ كَانَ قَبْلَكَ، وَهُوَ خَارِجٌ عَنْ يَدِكَ بِمِثْلِ مَا صَارَ إِلَيْكَ، فَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا خَوَّلَكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُكَ عَنِ النَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ^(١)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، قَدْ آتَى مَلِكَ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَسَخَّرَ لَهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَالشَّيَاطِينَ، وَالطَّيْرَ وَالْوَحْشَ وَالْبَهَائِمَ، وَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، ثُمَّ رَفَعَ عَنْهُ حِسَابَ ذَلِكَ أَجْمَعَ، فَقَالَ لَهُ: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]، فَوَاللَّهِ مَا عَدَّهَا نِعْمَةً كَمَا عَدَدْتُمُوهَا، وَلَا حَسِبَهَا كِرَامَةً كَمَا حَسِبْتُمُوهَا، بَلْ خَافَ أَنْ تَكُونَ اسْتِدْرَاجًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَمَكْرًا بِهِ، فَقَالَ: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، فَافْتَحَ الْبَابَ، وَسَهَّلَ الْحِجَابَ، وَانصَرَّ الْمَظْلُومُ، أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَى مَا قُلْدَكَ، وَجَعَلَكَ كَهْفًا لِلْمَلْهُوفِ، وَأَمَانًا لِلْخَائِفِ، ثُمَّ أَتَمَمْتَ الْمَجْلِسَ بِأَنْ قُلْتَ: قَدْ دَوَّخْتُ الْبِلَادَ شَرْقًا وَغَرْبًا، فَمَا اخْتَرْتُ مَمْلَكَةً تَزَوَّجْتُ فِيهَا، وَوُلِدَ لِي فِيهَا، غَيْرَ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ، ثُمَّ أَنْشَدْتُ شِعْرًا:

وَالنَّاسُ أَكْيَسُ مَنْ أَنْ يَحْمَدُوا رَجُلًا حَتَّى يَرَوْا عِنْدَهُ آثَارَ إِحْسَانٍ^(٢)

وَكُتِبَ حَكِيمٌ إِلَى حَكِيمٍ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ، إِنْ أَجَبْتَ عَنْهَا صَرْتُ لَكَ تَلْمِيزًا: أَيُّ النَّاسِ أَوْلَى بِالرَّحْمَةِ؟ وَمَتَى تَضِيعُ أُمُورُ النَّاسِ؟ وَبِمَ تُتَلَقَّى النِّعْمَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

فَكُتِبَ إِلَيْهِ: أَنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالرَّحْمَةِ ثَلَاثَةٌ: الْبَرُّ^(٣) يَكُونُ فِي سُلْطَانِ الْفَاجِرِ، فَهُوَ الدَّهْرُ حَزِينٌ^(٤) لَمَّا يَرَى وَيَسْمَعُ، وَالْعَاقِلُ يَكُونُ فِي تَدْبِيرِ

(١) النَّقِيرُ: النَّقْرَةُ الَّتِي فِي ظَهْرِ النَّوَاةِ. الْقَطْمِيرُ: الْقَشْرَةُ الرَّقِيقَةُ الَّتِي تَغْطِي نَوَاةَ التَّمْرِ. الْفَتِيلُ: مَا يَكُونُ فِي شِقِ النَّوَاةِ (وَكُلُّهَا دَلَالَةٌ عَلَى الشَّيْءِ الصَّغِيرِ).

(٢) أَكْيَسُ: اسْمُ تَفْضِيلٍ وَالْعَامَّةُ تَقُولُ: [أَكُوسَ]، وَالْأَكْيَسُ هُوَ الْفَطْنُ وَالْحَسَنُ الْفَهْمُ وَالْأَدَبُ.

(٣) الْبَرُّ وَالْبَارُ: هُوَ الصَّادِقُ الصَّالِحُ وَالْمَحْسَنُ الْكَثِيرُ الْبِرِّ.

(٤) هُوَ الدَّهْرُ حَزِينٌ: أَيُّ يَكُونُ طَوَالَ الدَّهْرِ حَزِينًا.

الجاهل، فهو الدهر مغمومٌ، والكريمُ يحتاجُ إلى اللئيم، فهو الدهر خاضعٌ له ذليل .
وتضيقُ أمور الناس : إذا كان الرأيُ عند من لا يُقبلُ منه ، والسلاحُ عند من لا
يستعمله ، والمالُ عند من لا ينفقه .

وتتلَقَّى النعمة من الله تعالى : بكثرة شكره ولزوم طاعته ، واجتناب
معصيته . فصار تلميذاً له إلى أن مات .

وقال يحيى بن سعيد^(١) : حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن
عبد العزيز^(٢) ، فلما أشرفا على عقبة عُسفان^(٣) ، نظر سليمان إلى
السُّرَادِقَاتِ^(٤) قد ضُربتَ له ، فقال له : يا عمر ، كيف ترى ؟ قال : أرى دنيا
عريضةً يأكل بعضها بعضاً ، وأنت المسئول عنها ، المأخوذ بها . فبينما هما
كذلك ، إذ طار غراب من سرادقات سليمان ، في منقاره كسرة ، فصاح ، فقال
سليمان : ما يقول هذا الغراب ؟ قال عمر : ما أدري ما يقول ، ولكن إن شئت
أخبرتك بعلم ، قال : أخبرني ، قال : هذا غراب طار من سرادقاتك ، في منقاره
كسرة ، أنت بها مأخوذ ، وعنهما مسئول ، من أين دخلت ، ومن أين خرجت . قال :
إنك لتخبرنا بالعجائب ، قال : أفلا أخبرك بأعجب من هذا ؟ قال : بلى . قال : من
عرف الله كيف عصاه ؟ ومن عرف الشيطان كيف أطاعه ؟ ومن أيقن بالموت
كيف يهنيه العيش ؟ قال : لقد غثت علينا ما نحن فيه . ثم ضرب فرسه وسار .

ويروى أن بلال بن أبي بردة^(٥) ، خرج في جنازة ، وهو أمير على البصرة ،
فنظر إلى جماعة وقوفاً ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : مالك بن دينار^(٦) يذكر الناس .
فقال لوصيف معه : اذهب إلى مالك بن دينار فقل له يرتفع إلينا إلى القبر ،
فجاء الوصيف فأدَّى الرسالة إلى مالك ، فصاح به مالك : ما لي إليه حاجة

(١) هو يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري ، أبو سعيد ، من أهل المدينة المنورة ، من أكابر رجال
الحديث وقاضي مشهور ، توفي سنة ١٤٣ هـ (الأعلام ٨ / ١٤٧) .

(٢) سليمان بن عبد الملك : الخليفة الأموي السابع ، توفي سنة ٩٩ هـ . وخلفه عمر بن عبد
العزیز ، الخليفة العادل ، ودامت خلافته حوالي سنتين ، وتوفي سنة ١٠١ هـ . وقد ذكرت هذه الحكاية
في (حلية الأولياء ٥ / ٢٧٢) .

(٣) عُسفان : قرية جامعة بها مزارع ونخيل ، بين الجحفة ومكة على بعد ٣٦ ميلاً من مكة المكرمة .

(٤) السرادقات : مفردا السرداق : وهو الفسطاط الذي يمد فوق صحن البيت .

(٥) بلال بن عامر ، سبقت ترجمته . (الأعلام ٢ / ٧٢) .

(٦) مالك بن دينار ، سبقت ترجمته (الأعلام ٥ / ٢٦٠) .

فأجيئه فيها، فإن تكن له حاجة فليجيء إلى حاجة نفسه، فلما دفنوا ميتهم قام بلال بمن معه إلى حلقة مالك، فلما دنا منه نزل، ونزل من معه، ثم جاء يمشي إلى الحلقة حتى جلس، فلما رآه مالك بن دينار سكت فأطال السكوت، فقال له بلال: يا أبا يحيى، ذكّرنا. فقال: ما نسيت شيئاً فأذكرك به، قال: فحدثنا. قال: أمّا هذا فنعم: قدم علينا أمير من قبلك على البصرة، فمات فدفناه في هذه الجبّانة، ثم أتينا بزنجي فدفناه إلى جنبه، فوالله ما أدري أيّهما كان أكرم على الله سبحانه. فقال بلال: يا أبا يحيى، أتدري ما الذي جرّأك علينا، وما الذي أسكتنا عنك؟ لأنك لم تأكل من دراهمنا شيئاً، أمّا والله لو أخذت من دراهمنا شيئاً ما اجتراءت علينا هذه الجرأة.

قال مالك: فأفادني هذا الحديث علماً، ألا فاتقوا دراهمهم.

ودخل ابن شهاب^(١) على الوليد بن عبد الملك^(٢)، فقال: يا بن شهاب، ما حديثٌ يحدثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: حدثونا أنّ الله تبارك وتعالى إذا استرعى عبداً رعيةً كتب له الحسنات، ولم يكتب عليه السيئات، قال: كذبوا يا أمير المؤمنين، أنبيّ خليفة أقرب إلى الله، أم خليفة ليس بنبي؟ قال: بل نبيّ خليفة، قال: فأنا أحدثك يا أمير المؤمنين بما لا تشك فيه، قال الله تعالى لنبيّه داود:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، يا أمير المؤمنين: فهذا وعيدُ الله لنبيّ خليفة، فما ظنّك بخليفةٍ غير نبي؟ فقال الوليد: إنّ الناس ليغرّوننا عن ديننا.

وروى زياد^(٣) عن مالك بن أنس^(٤) قال: بعث إليّ أبو جعفر^(٥) وإلى ابن

(١) ابن شهاب الزهري: سبقت ترجمته (الأعلام ٩٧/٧).

(٢) الوليد بن عبد الملك: الخليفة الأموي السادس، سبقت ترجمته.

(٣) زياد: هو زياد بن عبد الله بن طفيل العمشي العامري أبو محمد، راوي السيرة النبوية عن محمد بن إسحاق، وعنه رواها عبد الملك بن هشام الذي رتبها ونسبت إليه، توفي سنة ١٨٣هـ. (الأعلام ٥٤/٣).

(٤) مالك بن أنس: إمام دار الهجرة، سبقت ترجمته.

(٥) أبو جعفر المنصور: الخليفة العباسي الثاني، توفي سنة ١٥٨هـ، سبقت ترجمته.

طاوس^(١)، فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فُرْشٍ قد نُصِّدَتْ، وبين يديه أنطاع^(٢) قد بُسِطَتْ، وبين يديه جلاوزة^(٣) بأيديهم السيوف، يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن اجلسا، فجلسنا، فأطرق عنا طويلاً، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس، وقال: حَدَّثْنَا عَنْ أَبِيكَ، قال: نعم، إِنِّي سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَشْرَكَ اللَّهَ فِي مُلْكِهِ، فَأَدْخَلَ عَلَيْهِ الْجُورُ فِي حُكْمِهِ»**^(٤)، فأمسك أبو جعفر ساعة. قال مالك: فضممتُ ثيابي مخافة أن ينضحني بدمه، فأمسك أبو جعفر ساعة حتى أسودَّ ما بيننا وبينه، ثم قال: يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة، فأمسك عنه، ثم قال: ناولني هذه الدواة، فأمسك عنه، ثم قال: ما يمنعك أن تناولنيها؟ قال: أخشى أن تكتب بها معصية، فأكون شريكك فيها. فلماً سمع ذلك قال: قوما عني. قال ابن طاوس: ذلك ما كُنَّا نبغي منذ اليوم. قال مالك: فما زِلْتُ أَعْرِفُ لابن طاوس فضله من ذلك اليوم.

وقال أحمد بن أبي الحواري^(٥): سمعت رجلاً يحدث عن ابن السمَّك^(٦) قال: بعث إليَّ هارون^(٧) فلما انتهيت إلى باب القصر، أخذ حرسِيَّان بضبعي^(٨)، فأعجلاني في دهليز^(٩) القصر، فلما انتهيت إلى باب القاعة،

(١) ابن طاوس: عبد الله بن طاوس بن كيسان الهمداني، من عُبَّادِ الْيَمَنِ وفقهائهم ورجال الحديث المشهورين، والمعروف عن والده طاوس بن كيسان تقشفه وجرأته على وعظ الخلفاء والملوك، وقد سار عبد الله على نهج والده، توفي سنة ١٣٢ هـ (الأعلام ٤ / ٩٤).

(٢) الأنطاع والنطوع: مفرداها: نطع، وهو السياط من الجلد يُفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس.

(٣) جلاوزة: مفرداها جلواز وهو الشرطي الذي يَخِيفُ في الذهاب والمجيء بين يدي الأمير. (المعجم الوسيط، باب: جلز).

(٤) - والله أعلم - هذا ليس بحديث، بل هو من كلام الفقيه العابد المحدث طاوس اليماني، وقد ذكرت هذه الحكاية في كتب التاريخ والأعلام، فذكرها ابن خلكان في وفيات الأعيان عن عبد الله بن طاوس قال: حدثني أبي قال: (إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ...). (وفيات الأعيان - لابن خلكان ج ٢ / ص ١١٥). وذكرت كذلك في كتاب (شذرات الذهب ١ / ١٨٨).

(٥) أحمد بن أبي الحواري: أحد العلماء الزهاد المشهورين، أصله من الكوفة، وسكن دمشق، وكان يلقب بريحانة الشام، له أحوال صالحة وكرامات واضحة ومن المحدثين، توفي سنة ٢٤٩ هـ (سير أعلام النبلاء - الذهبي، ج ١٢ / ٨٥).

(٦) ابن السمَّك واعظ الرشيد: سبقت ترجمته.

(٧) هارون: أي هارون الرشيد الخليفة العباسي الرابع (سبقت ترجمته).

(٨) الضبع: وسط العضد، أو العضد كله. (٩) الدهليز: المسلك الطويل الضيق.

لقيني خَصِيَّانَ^(١) فأخذاني من الحرسِيِّين، فأعجلاني في قاعة القصر، فانتهيت إلى البهو^(٢) الذي هو فيه، فتلقاني خَصِيَّانَ دونهما، فأخذاني فأعجلاني في البهو، فقال لهما هارون: ارفقوا بالشيخ، فلما وقفتُ بين يديه قلتُ له: يا أمير المؤمنين، ما مرَّ بي يوم منذ ولدتني أُمِّي أتعب فيه من يومي هذا، فاتَّقِ الله في خلقه، واحفظ محمداً في أمته، وانصح لنفسك في رعيتك، فإنَّ لك مقاماً بين يدي الله تعالى، أنت فيه أذلَّ من مقامي هذا بين يديك، فاتَّقِ الله، واعلم أنَّ من أخذ الله وسَطَواته على أهل المعصية كَيْت وكَيْت، قال: فاضطرب على فراشه، حتى نزل إلى مُصَلَّى بين يدي فراشه، فقلت: يا أسير المؤمنين: هذا ذلُّ الصِّفة، فكيف لو رأيت ذلَّ المُعَاينة؟ قال: فكادت نفسه تخرج. فقال يحيى^(٣) للخصيَّين: اخرجوه، فقد أبكى أمير المؤمنين. ثم دخل مرةً أخرى، فقال: عَظَنِي وَأَوْجَز، قال: يا أمير المؤمنين، إنَّ الذي أكرمك بما أكرمك به، لتحقيق أن تحبَّ ما يُحب، وتَبْغُضَ ما أَبْغُضَ، فوالله لقد أحبَّ الله داراً وأبغضتَها، وأبغضَ داراً وأحببتَها، كأنما أردت خلاف ربِّك، أو أردت سواه، واعلم يا أمير المؤمنين، أنَّ الذي في يدك لو بقي على من كان قبلك لم يصل إليك، فكذلك لا يبقى لك كما لم يبقَ لغيرك، فاتَّقِ الله في خلافته، واحفظ وصيةَ محمدٍ ﷺ في أمته.

ودخل هارون على بعض النِّسَّاك^(٤) فسَلَّمَ عليه، فقال: وعليك السلام، ثم قال: أيها الملك، أتحبُّ الله؟ قال: نعم. قال: فتعصيه؟ قال: نعم. قال: كذبت والله في حُبِّك إِيَّاه، إنَّك لو أحببته إِذَا ما عصيته، ثم أنشأ يقول:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَظْهَرُ حُبَّه	هَذَا لَعَمْرِي فِي الْمَقَالِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ	إِنَّ الْمَحَبَّ لَمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَبْتَذِيرُكَ بِنِعْمَةٍ	مِنْهُ وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعُ

(١) خَصِيَّان: الخصي هو من سُلِّت خَصِيَّتاها ونزعتا، والمقصود بهما الخدم المرافقان.

(٢) البهو: القاعة أو محل الاستقبال.

(٣) يحيى: المقصود هو يحيى بن خالد البرمكي، وزير هارون الرشيد ومؤدبه قبل انقلاب الرشيد على البرامكة وقتلهم سنة ١٩٠ هـ (الأعلام ٨ / ١٤٤).

(٤) في (خ): دخل على الفضيل بن عياض، وهو من أكابر العباد الصالحين، توفي سنة ١٨٧ هـ.

وروى زيد بن أسلم^(١) عن أبيه، قال: قلت لجعفر بن سليمان بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي - والي المدينة - : احذر أن يأتي رجل غداً ليس له في الإسلام نسبة ولا أب ولا جد، فيكون أولى برسول الله ﷺ منك، كما كانت امرأة فرعون أولى بنوح ولوط - عليهما السلام - من زوجيهما، وكما كانت زوجة نوح ولوط أولى بفرعون من زوجته.

«من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه»^(٢).

وقال بشر بن السري^(٣): بينما الحجاج^(٤) جالس في الحجر^(٥)، إذ دخل رجل من أهل اليمن، فجعل يطوف، فوكل به بعض من معه، فقال: إذا خرج من طوافه فأتني به، فلما فرغ من طوافه أتاه به، فقال له: ممن أنت؟ قال: من أهل اليمن، قال: أفلك علم بمحمد بن يوسف^(٦)؟ قال: نعم. قال: فأخبرني عنه. قال: لقد تركته أبيض، بضاً^(٧) سميناً، طويلاً، عريضاً، قال: ويلك، ليس عن هذا أسألك، قال: فعمه؟ قال: عن سيرته، وطعمته؟

قال: فأجور السير، وأخبث الطعم^(٨)، وأعدى العداة على الله وأحكامه، قال: فغضب الحجاج وقال: ويلك، أما علمت أنه أخي، قال: بلى. قال: فأنت أما علمت أن الله ربي؟ والله لهو أمتع^(٩) بي منك، أكثر منك لأخيك! قال: أجل، أرسله يا غلام.

(١) زيد بن أسلم العدوي العمري: فقيه ومفسر من أهل المدينة المنورة، توفي سنة ١٣٦هـ. كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته، واستقدمه الوليد بن يزيد إلى دمشق في جماعة من فقهاء المدينة مستفتياً في أمر. (الأعلام ٣/ ٥٦-٥٧).

(٢) حديث رواه الإمام أحمد في مسنده (ج ٢/ ٢٥٢)، كجزء من حديث طويل، كما رواه أبو داود في السنن.

(٣) بشر بن السري: أبو عمرو الأفوه، بصري سكن مكة، وكان واعظاً ثقة، مات سنة ١٩٦هـ.

(٤) الحجاج بن يوسف الثقفي: القائد الخطيب العربي وأمير العراق في عهد عبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، توفي سنة ٩٥هـ. (الأعلام ٢/ ١٦٨).

(٥) الحجر: جانب الكعبة من جهة الشمال.

(٦) محمد بن يوسف الثقفي: أخو الحجاج بن يوسف، وكان أميراً في اليمن، توفي سنة ٩١هـ.

(الأعلام ٧/ ١٤٧).

(٧) بضاً: أي كان رقيق الجلد ناعمه في سمن.

(٨) أي أن حياته وسيرته مليئة بالمعاصي، ومأكله كله خبيث غير طيب.

(٩) أمتع: أقوى، المنعة: القوة التي تمنع من يريد أحداً بسوء.

وقال الأصمعي^(١) : حدثني رجلٌ من أهل المدينة، قال : سمعت محمد ابن إبراهيم يحدث قال : شهدت أبا جعفر^(٢) بالمدينة، وهو ينظر فيما بين رجل من قريش، وأهل بيت من المهاجرين ليسوا لقريش، فقالوا لأبي جعفر : اجعل بيننا وبينهم ابن أبي ذئب^(٣)، قال أبو جعفر لابن أبي ذئب : ما تقول في بني فلان؟ قال : أشرار من أهل بيت أشرار، قالوا : سلّه يا أمير المؤمنين عن الحسن بن يزيد - وكان عامله على المدينة - قال : ما تقول في الحسن؟ قال : يأخذ بالإحنة^(٤) ويقضي بالهوى. فقال الحسن : واللّه يا أمير المؤمنين، لو سألته عن نفسك لرمأك بدهية ونعتك بشرّاً. قال : ما تقول فيّ، قال : اعفني يا أمير المؤمنين. قال : لأبْدُ أن تقول، قال : إنك لا تعدل في الرعية، ولا تقسم بالسّوية. فتغيّر وجه أبي جعفر، فقام إبراهيم بن محمد بن علي - صاحب الموصل - وقال : طهرني بدمه يا أمير المؤمنين. قال له ابن أبي ذئب : اقعد يا بني، فليس في دم رجل يشهد أن لا إله الله طهور، ثم تدارك ابن أبي ذئب الكلام، فقال : دعنا يا أمير المؤمنين مما نحن فيه، بلغني أنك رزقت ابناً صالحاً بالعراق - يعني المهدي - قال : أما إن قلت ذلك، إنّه ليصوم اليوم البعيد ما بين الطرفين^(٥)، قال : ثم قام ابن أبي ذئب فخرج. فقال أبو جعفر : أما واللّه ما هو بمستوثق العقل، ولقد قال بذات نفسه.

(١) الأصمعي : عبد الملك بن قُريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي، راوية العرب وأحد أئمة العلم واللغة والشعر والبلدان، نسبته إلى جده أصمع، وُلِدَ وتوفي بالبصرة ١٢٢-٢١٦هـ (الأعلام ٤/ ١٦٢).

(٢) أبو جعفر : أي أبو جعفر المنصور، الخليفة العباسي، سبقت ترجمته.

(٣) ابن أبي ذئب : محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب، من بني عامر بن لؤي من قريش، تابعي ومن رواية الحديث ومن أهل المدينة المنورة، توفي سنة ١٥٨هـ. (الأعلام ٦/ ١٨٩).

(٤) الإحنة : تجمع على إحن وهي الحقد، نقول : أحن فلان : أي أضمر العداوة وحقد.

(٥) في هذا القول إشارة إلى أن المهدي أصبح رجلاً يصوم النهار الطويل، والجدير بالذكر أن المهدي بن عبد الله المنصور هو الخليفة العباسي الثالث وقد ولد سنة ١٢٧هـ، وحكم بعد أبيه سنة ١٥٨هـ، وتوفي سنة ١٦٩هـ.

ودخل أبو النضر سالم^(١) - مولى عمر بن عبید الله - على عامل للخليفة فقال له : يا أبا النضر ، إنه تأتينا كتب من عند الخليفة فيها وفيها ، ولا نجد بُدًّا من إنفاذها فماذا ترى ؟ قال أبو النضر : قد أتاك كتاب الله قبل كتاب الخليفة ، فأيهما اتبعت كنت من أهله .

* * *

(١) سالم أبو النضر بن أبي أمية المدني ، كاتب عمر بن عبید الله التيمي ومولاه ، حدَّث عن أنس ابن مالك وغيره ، وروي عنه السفينان وموسى بن عقبة ومالك والليث بن سعد وغيرهم ، وهو من الثقات ، توفي سنة ١٢٩هـ ، وقيل : ١٣٣هـ . (سير أعلام النبلاء الذهبي ٦ / ٦) .

الباب الثالث

فيما جاء في الولاية والقضاة وما في ذلك من الغرر والخطر

قال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] جاء في التفسير: من اتباع الهوى، أن يحضر الخصمان بين يديك، فتود أن يكون الحق للذي لك منه خاصة، وبهذه الخصلة سلب سليمان بن داود عليهما السلام ملكه، قال ابن عباس رضى الله عنهما: كان الذى أصاب سليمان بن داود، عليهما السلام: أن ناساً من أهل (جرادة) أمراته، وكانت من أكرم نسائه عليه، تحاكموا إليه مع غيرهم، فأحب أن يكون الحق لأهل (جرادة) فيقضي لهم، فعوقب حين لم يكن هواه فيهم واحداً.

ومن ذلك آية الملوك التى أنزلها الله تعالى فى السلاطين، لما اقتضته من السياسة العامة، التى فيها بقاء الممالك، وثبوت الدول، قال الله تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ثم سمي المنصورين، وأوضح شرائط النصر، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١]، فضمن الله تعالى النصر للملوك، وشرط عليهم شرائط كما ترى، فمتى تضعضعت قواعدهم، وانتقض^(١) عليهم شئ من أطراف ممالكهم، أو ظهر عليهم عدو أو باغ فتنة، أو حاسد نعمة، أو اضطربت عليهم الأمور، أو رأوا أسباب الغير،^(٢) فليلجئوا إلى الله تعالى، ويستجئوا^(٣) من سوء أقداره بإصلاح ما بينهم وبينه، باقامة الميزان القسط الذى شرعه الله تعالى لعباده، وركوب سبيل العدل والحق الذى قامت به السموات والأرض، وإظهار شرائع الدين، ونصر المظلوم، والأخذ على يد الظالم، وكف يد القوي عن الضعيف، ومراعاة الفقراء والمساكين، وملاحظة ذوى الخصاصة^(٤)

(١) يقال: انتفض عليه البلد: إذا تغير عليه أهله وخلعوا الطاعة.

(٢) الغير: الأحداث المتغيرة.

(٣) استجئ: اختبأ واستتر.

(٤) ذوى الخصاصة: أصحاب الحاجة المعوزين.

والمستضعفين، وليعلموا أنهم قد أدخلوا بشئ من الشرائط الأربع التي شرطت في النصر^(١).

وروى أن النبي ﷺ، قال: «ألا كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولدها وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا كلُّكم راع وكلُّكم مسئول عن رعيته»^(٢) فجعل النبي ﷺ كلَّ ناظرٍ في حق غيره راعياً له، واللفظ مأخوذ من الرعاية والمراعاة، فإذا تقدم لرعاية غيره من يأكله فهو الهلاك، كما قال الشاعر:

وراعى الشاةَ يحمى الذئبَ عنها فكيف إذا الذئبُ لها رُعاءُ
وروى مسلم في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من امرئ يلى أمر المسلمين ثم لم يجتهد لهم وينصح، إلا لم يدخل الجنة معهم)^(٣).
وقال معقل بن يسار: سمعت النبي ﷺ يقول: (ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه إلا لم يجد رائحة الجنة)^(٤).

وروى عبد الرحمن بن سمرة، قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها)^(٥).

(١) شرائط النصر الأربع هي المذكورة في الآية السابقة وهي: (إقامة الصلاة - إيتاء الزكاة - الأمر بالمعروف - النهي عن المنكر).

(٢) هذا الحديث متفق على صحته رواه البخاري في الأحكام والجمعة والعتق والوصايا، ورواه مسلم في الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، ورواه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود والترمذي عن ابن عمر وقال حديث صحيح. ومعنى الراعى هنا: الحافظ المؤتمن على ما يليه.

(٣) رواه الإمام مسلم في كتاب الإمارة تحت باب «فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق» عن معقل بن يسار، بلفظ «ما من أمير يلى أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة». ويجهد لهم: أى يجتهد في مصالحهم وينصح في دينهم ودنياهم (صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢١٥).

(٤) هذا الحديث متفق على صحته، عن معقل بن يسار وبلفظ «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة» وفي رواية (فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة) (الجامع الصغير ج ٢ ص ١٥١).

ومعقل بن يسار هو: صحابي جليل روى كثيراً من الأحاديث، اسلم قبل الحديبية وشهد بيعة الرضوان توفي بالبصرة ٦٥ هـ (الأعلام ٧ / ٢٧١).

(٥) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الإمارة تحت باب «النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها»

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعمت المُرْضعة ، وبئست الفاطمة» (١) .
وقال أبو ذر رضى الله عنه : قلت : أمّرني يا رسول الله ، قال : «إنها أمانة وإنها حسرة وندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها» (٢) .

وروى البخارى : أن النبي ﷺ قال : (تجدون من خير الناس أشد الناس كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه) (٣) .

وفى الحديث : (من ولى من أمر المسلمين شيئاً ثم لم يحطهم بنصحه كما يحوط أهل بيته فليتبوا مقعده من النار) (٤) .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بعث إلى عاصم (٥) يستعمله على الصدقة ، فأبى ، وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالى فيوقف على جسر جهنم ، فيأمر الله سبحانه الجسر فينتفض

= ومعنى وكلت إليها .. أى « أسلمت إليها ولم يكن معك إعانة ، بخلاف ما إذا حصلت عليها بغير مسألة » (صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢٠٧) .

* وعبد الرحمن بن سُمرة بن حبيب أبو سعيد صحابى جليل ومن القادة الولاة ، كان اسمه فى الجاهلية (عبد كلال) وسماه الرسول (ﷺ) (عبد الرحمن) ، توفى سنة ٥٠ هـ (الأعلام ٣ / ٣٠٧) .

(١) هذا الحديث صحيح أخرجه الإمام النسائى فى (كتاب البيعة : فيما يكره من الحرص على الإمارة) وأخرجه الإمام البخارى فى (كتاب الأحكام : باب ما يكره من الحرص على الإمارة) ، ولفظ « فنعم المُرْضعة » ، وزاد فى رواية « وحسرة » أى وستكون ندامة وحسرة يوم القيامة ، وقوله « نعم المُرْضعة » مثل ضربه للإمارة وما يحصل للرجل من المنافع واللذات ، وقوله « بئست الفاطمة » أى الموت الذى يهدم عليه تلك اللذات ويقطع منافعها عنه . (انظر شرح السنة - الإمام البغوي - ج ١٠ ص ٥٨) .

وأبو هريرة هو عبد الرحمن بن صخر الدوسى ، من أكثر الصحابة حفظاً ورواية للحديث توفى بالمدينة سنة ٥٩ هـ .
(٢) رواه الإمام مسلم فى كتاب الإمارة تحت باب « كراهة الإمارة بغير ضرورة » ، بلفظ « يا أبا ذر أنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه منها » (صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢٠٩) .

وأبو ذر هو جندب من جناده الغفارى من كبار الصحابة ، يضرب به المثل فى الصدق فلا تأخذه فى الحق لومة لائم ، هاجر بعد وفاة النبي (ﷺ) إلى الشام فشكاه معاوية فاستقدمه عثمان إلى المدينة ثم ذهب إلى الربذة ومات فيها سنة ٣٢ هـ (الأعلام ٢ / ١٤٠) .

(٣) هذا جزء من حديث متفق عليه عن أبى هريرة بلفظ : (تجدون من خير الناس فى هذا الشأن أشدهم له كراهية قبل أن يقع فيه) (الجامع الصغير رقم (٣٢٤١) .

(٤) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، والطبرانى عن معقل بن يسار (كنز العمال ج ٦ رقم ١٤٧٤٣) .

(٥) هو عاصم بن سفيان الثقفى ، من أهل مكة وسكن المدينة .

انتفاضة، فيزول كل عظم منه عن مكانه، ثم يأمر الله العظام فترجع إلى مكانها، ثم يسأله: فإن كان لله تعالى طائعا أخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان لله عاصيا خرق به الجسر فيهوي به في جهنم مقدار سبعين خريفاً^(١). فقال عمر: سمعت من النبي ﷺ ما لم أسمع؟ قال: نعم. وكان سلمان وأبو ذر^(٢) حاضرين، فقال سلمان: إي والله يا عمر، ومع السبعين سبعين خريفاً في واد يلتهب التهابا، فقال عمر بيده على جبهته: إنا لله وإنا إليه راجعون، من يأخذها بما فيها؟ قال سلمان: من سلب الله أنفه، وألصق خدّه بالأرض.

وروى أن العباس^(٣) رضى الله عنه قال: أمرني يارسول الله فأصيب وأستريش^(٤)، فقال له: (يا عباس، يا عم النبي ﷺ نفسٌ تحييها خير من إمارةٍ لا تحصيها...». «... ألا أحدثكم عن إلامارة: أولها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها حسرة يوم القيامة)^(٥). وروى أبو داود في السنن جاء رجلٌ فقال: يا رسول الله: إن أبي عريف على الماء، وإني أسالك أن تجعل لي العرافة من بعده. فقال النبي ﷺ (العرفاء في النار)^(٦).

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه الطبراني عن عاصم بن سفيان الثقفي، وفيه من لم أعرفه. (بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ج ٥ / ٣٧٢). كما ذكره ابن سعد في الطبقات وقال أخرجه الثلاثة (ج ٣ / ٩). ومعنى الكفل: الحظ والنصيب.

(٢) أي سلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري، وقد سبقت ترجمتهما.

(٣) العباس بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ، وجد الخلفاء العباسيين، ومن أكابر قریش في الجاهلية والإسلام، توفى بالمدينة سنة ٣٢هـ. (الأعلام ٣ / ٢٦٢).

(٤) أستريش: أي يصلح حاله.

(٥) الجزء الأول من الحديث أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى في ترجمة العباس بن عبد المطلب، عن الضحاك بن حمزة مرسلاً (طبقات ابن سعد، ج ٤ ص ٢٧).

والجزء الثاني رواه الطبراني في الكبير عن شداد بن أوس (كنز العمال ج ٦ / ١٤٧٠٠).

(٦) أخرجه أبو داود مطولاً في الإمارة (باب في العرافة) وفي إسناده مجاهيل، والعريف: هو القيم بأمر القبيلة والمحلة يلبى أمورهم، ويتعرف الأمير منه على أحوالهم، والمقصود بقوله: «العرفاء في النار» التحذير من التعرض للرئاسة والتأمر على الناس لما فيه من الفتنة، وإنه إذا لم يقم بحقه ولم يؤد الأمانة فيه أثم واستحق العقوبة في النار. (شرح السنة للإمام البغوي ج ١٠ ص ٦٠).

وروى الساجي^(١) عن أبي سعيد الخدري^(٢)، قال: قال النبي ﷺ: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة: الإمام الجائر»^(٣).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: «ليس من والٍ ولا قاضٍ إلّا ويؤتى به يوم القيامة حتى يقف بين يدي الله سبحانه على الصراط، ثم تنشر الملائكة سيرته فيقرؤونها على رؤوس الخلائق، فإن كان عادلاً نجاه الله بعدله، وإن كان غير ذلك انتفض به الصراط انتفاضة صار بين كل عضو من أعضائه مسيرة سنة، ثم ينخرق به الصراط فما يلقى قعر جهنم إلّا بحر وجهه»^(٤).

وروى معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «إن القاضي يزل في مزلة أبعد من عدن في جهنم»^(٥).

وقالت عائشة رضي الله عنها: سمعت النبي ﷺ يقول: «يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة، فيلقى من شدة الحساب على ما قضى حتى يود أنه لم يقض بين اثنين في تمرة»^(٦).

وروى الحسن البصري، أن النبي ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله، فقال: يا رسول الله، خر لي^(٧) فقال: «اقعد في بيتك»^(٨).

(١) والساجي هو زكريا بن يحيى، محدث البصرة في عصره، كان من الحفاظ الثقات، توفي سنة ٣٠٧ هـ.
(٢) أبو سعيد الخدري: هو سعد بن مالك بن سفيان الخدري الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل كان من ملازمي النبي ﷺ (توفي بالمدينة سنة ٧٤ هـ) (الأعلام ٣ / ٨٧).
(٣) رواه أبو يعلى في مسنده والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية عن أبي سعيد الخدري والحديث حسن (الجامع الصغير للسيوطي ١ / ٤٢ ورقمه ١٠٥٠).
(٤) أخرجه السيوطي عن أبي القاسم بن بشر في أماليه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بلفظ مشابه، وقال حديث حسن (الجامع الصغير - للسيوطي، ١ / ١٢١، ورقمه ٣٠٠٠).
(٥) رواه أبو سعيد النقاش في كتاب القضاة عن معاذ ورجاله ثقات إلّا أن فيه بقية وقد عنعن.
(٦) كنز العمال للمتقي الهندي ٦ / ١٥٠٠٢. وعدن: مدينة معروفة باليمن.
(٧) ومعاذ من جبل صحابي جليل وهو أعلم الأمة بالحلال والحرام، بعثه الرسول ﷺ مرشداً إلى اليمن، توفي بالطاعون سنة ١٨ هـ. (الأعلام ٧ / ٢٥٨).

(٨) أخرجه السيوطي هذا الحديث بلفظ «أن القاضي العادل ليجاء به يوم القيامة، فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أن لا يكون قضى بين اثنين في تمرة» وقال رواه الدارقطني والشيرازي عن عائشة، والحديث ضعيف. (الجامع الصغير ١ / ٨٤، ورقمه ٢٠٨٤).
(٧) خرلي: أي اختر لي أصلح الأمرين.

(٨) رواه الطبراني عن عصمة أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً فقال له: [خر لي: أي اختر لي] قال الهيثمي: فيه الفضل بن مختار وهو ضعيف (بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ج ٥ رقم ٩٠٢٨). وعبد الرحمن بن سمرة هو صحابي جليل، سبق ترجمته.

وروي أن النبي ﷺ قال : « لِيُودَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ وَقَعُوا مِنَ الثَّرِيَّا وَلَمْ يَكُونُوا أَمْراءَ عَلَى شَيْءٍ »^(١) وكم من متخول^(٢) في مال الله ومال رسوله، له النار غدا.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : (صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة : إمام ظالم غشوم، وغال في الدين مارق منه)^(٣).
وقال أبو هريرة رضي الله عنه : (ما من أمير يؤمّر على عشرة إلا جئ به يوم القيامة مغلولاً نجّاه عمله أو أهلكه)^(٤).

وقال طاوس^(٥) لسليمان بن عبد الملك : هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذاباً يوم القيامة ؟ فقال سليمان : لا أدري، قال طاوس : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله في ملكه فجار في حكمه ». فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي، وما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه.

وقال : حذيفة بن اليمان^(٦) : من اقترب الساعة أن يكون أمراء فجرة، وقرّاء كذبة، وأمناء خونة، وعلماء فسقة، وعرفاء ظلمة.

وقال عبيد بن عمير^(٧) : (ما ازداد رجل من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً، ولا كثر اتباعه إلا كثر شيطانه، ولا كثر ماله إلا كثر حسابه).

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢ / ٣٥٢)، عن أبي هريرة بلفظ (ليتمنين أقوام يوم القيامة إنهم خروا من الثريا وإنهم لم يلوا شيئاً)، ورواه الحاكم في المستدرک، عن أبي هريرة بلفظ (ليودن رجل أنه خر من الثريا وأنه لم يل من أمر المسلمين شيئاً). (الجامع الصغير للسيوطي رقم ٧٥٤٨ / ٧٧٤١).

(٢) متخول : أي متعهد.

(٣) رواه الطبراني عن أبي أمامة، والحديث ضعيف، ومعنى الغال : الذي يخون في المغنم فيسرق من الغنيمة قبل القسمة. (الجامع الصغيرة ٢ / ٤٦ رقم ٥٠٤٣).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن بلفظ «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور» عن أبي هريرة، والحديث حسن. (الجامع الصغيرة للسيوطي ج ٢ ص ١٤٩ رقم ٨٠٠٦). ومعنى يوبقه الجور : أي يهلكه الظلم.

(٥) طاوس : هو طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني أبو عبد الرحمن، من أكابر التابعين تفقها في الدين ورواية للحديث وتفشفاً في العيش وجراً على وعظ الخلفاء والملوك. توفي سنة ١٠٦ هـ. (الأعلام ٣ / ٢٢٤).

(٦) حذيفة بن اليمان : صحابي من الولاة الشجعان الفاتحين، توفي سنة ٣٦ هـ سبقت ترجمته.

(٧) عبيد بن عمير : أبو عاصم المكي، من الرواة الثقات، مجمع على ثقته في رواية الحديث، ولد على عهد النبي ﷺ، ومات قبل ابن عمر (تهذيب التهذيب ١ / ٦٤٥).

وفي الحديث : عن النبي ﷺ (القضاء ثلاثة أثنان في النار، وواحد في الجنة، رجل قضى بغير علم فهو في النار، ورجل قضى بعلم فجار فهو في النار ورجل قضى بالحق فهو في الجنة) رواه بريدة^(١) عن النبي ﷺ .

وقال ابن سيرين^(٢) : جاء صبيان إلى عبدة السلماني^(٣) يتخايرون^(٤) إليه في ألواحهم، فلم ينظر فيها، وقال : هذا حكم ولا أتولى حكما أبدا .
وتخاير غلمان إلى ابن عمر، فجعل ينظر إلى كتابتهم، وقال : هذا حكم، ولا بد من النظر فيه .

والمصنفون يرسلون في كتبهم حديثا مرفوعا، رواه أبو داود في سننه، أن النبي ﷺ قال : (من قدم إلى القضاء فقد ذبح بغير سكين)^(٥) .

* * *

وفي أخبار القضاة:

أن قاضيا قدم إلى بلد، فجاءه رجل له عقل ودين، فقال له : أيها القاضي : أَبْلَغَكَ قولُ النبي ﷺ : (من قدم للقضاء فقد ذبح بغير سكين) ؟ قال : نعم . قال : فبلغك أن أمورَ النَّاسِ ضائعة في بلدنا فجئت تجبرها ؟ قال : لا . قال : أفأكرهك السلطان على ذلك ؟ قال : لا . قال : فاشهد أني لا أطأ لك مجلسا، ولا أؤدى عندك شهادة أبداً .

وروى أن أبا بكر الصديق، رضى الله عنه، قال في بعض خطبه : (إنَّ

(١) أخرجه أبو داود في إلاقضية، والترمذي وابن ماجه والنسائي وصححه الحاكم مع اختلاف في بعض الألفاظ بينهم، والحديث صحيح وله شاهد من حديث ابن عمر .

(الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٨٩ رقم ٦١٨٩ - ٦١٩٠) .

(٢) ابن سيرين : محمد بن سيرين البصري أبو بكر، صاحب التعبير، إمام وفقه في علوم الدين بالبصرة، من التابعين ومن أشراف الكتّاب، توفي سنة ١١٠ هـ . (الأعلام ٦ / ١٥٤) .

(٣) عبدة بن عمرو السلماني المرادي : تابعي، أسلم باليمن، كان عريف قومه وكان يوازي (شريحا) في القضاء، الأعلام (٤ / ١٩٨) .

(٤) يتخايرون إليه : يفوضونه في اختيار أيهم أفضل .

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود وابن ماجه والحاكم في المستدرک بلفظ (من جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين)، عن أبي هريرة، والحديث صحيح، وضرب المثل بذلك ليكون أبلغ في الحذر من الوقوع فيه . (الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ١٦٨ رقم ٨٦١٦) .

الْمَلِكُ إِذَا مَلَكَ، زَهَّده الله في ماله، ورغَّبه فيما في يد غيره، وأشرب قلبه
إلشفاق^(١)، فهو يحسد على القليل ويسخط الكثير، جذل الظاهر^(٢) حزين
الباطن، فاذا وجبت نفسه^(٣)، ونضب عمره^(٤)، ومُحي ظله، حاسبه الله
فأشد حسابه، وأقل عفوه .

وذكر السلطان لأعرابي فقال: والله لئن عَزُوا في الدنيا بالجور، لقد ذُلُّوا
في الآخرة بالعدل، وبقليلٍ فأنِ رَضُوا عن كثيرٍ باقٍ، وإنما يكون الندم حين لا
ينفع الندم.

وقال ابو بكر بن أبى مريم^(٥) (حج قوم، فمات صاحب لهم بأرض فلاة،
فلم يجدوا ماءً، فأتاهم رجل، فقالوا: دُلُّنا على الماء، قال: احلفوا لي ثلاثاً
وثلاثين يمينا أنه لم يكن فيكم. صرأفاً^(٦)، ولا مكاساً^(٧)، ولا عريفاً^(٨)،
ولا بريداً^(٩). ويروى: ولا عرافاً^(١٠) فأنا أدلكم على الماء، فحلفوا له ثلاثاً
وثلاثين يمينا، فدلَّهم على الماء، ثم قالو له: عاوننا على غسله، فقال: احلفوا
لي ثلاثاً وثلاثين يمينا - كما تقدم ذكره - فحلفوا له، فأعانهم على غسله،
ثم قالوا: تقدَّم وصلُّ عليه. قال: لا، حتى تحلفوا لي أربعاً وثلاثين يمينا -
كما تقدم - فصلَّى عليه. ثم التفتوا، فلم يجدوا أحداً. وكانوا يرون أنه
الخضر عليه السلام.

(١) الإشفاق: الخوف مع الحرص والشفقة.

(٢) جذل الظاهر: الجذل: الفرج والطرب، فهو جذلان في ظاهره. ويسخط الكثير: أي يمنعه.

(٣) وجبت نفسه: أي مات وسقط يُقال للقتيل (واجب)، ووجبت الشمس: غابت.

(٤) نضب عمره: انتهى، يُقال: نضب الماء إذا غار في الأرض.

(٥) أبوبكر بن أبى مريم: الفسائي الشامي، من زواة الحديث، قال ابن حجر عنه (ضعيف)،
مات سنة ٥٥٦هـ. (تقريب التهذيب رقم ٨٠٠٣).

(٦) الصراف: الذي يصرف الدراهم والدنانير و(المحاسب).

(٧) المكاس: هو من يأخذ الضرائب أو المكس، وهي الدراهم التي تُؤخذ من بائعي السلع عند
بيعها في الأسواق أو عند إدخالها المدن.

(٨) العريف: هو القيم بأمر القبيلة أو المحلة، يلي أمورهم ويتعرف منه الأمير على أحوالهم،
فهو دون الرئيس.

(٩) البريد: الذي يرسله الأمير في مهمة ما.

(١٠) العراف المنجم والمخبر عن الماضي والمستقبل.

وقال ابن مسعود^(١): قال النبي ﷺ : (أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً أو قتله نبياً، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين)^(٢).

وقال أبو ذر: قال لى رسول الله ﷺ ستة أيام: (أعقل يا أبا ذر ما أقول لك) ثم لما كان فى اليوم السابع قال : (أوصيك بتقوى الله فى أمر شرك وعلايتك ، فإذا أسأت فأحسن ، ولا تسألن أحداً وإن سقط سوطك ، ولا تؤوين أمانه ، ولا تؤوين يتيماً ، ولا تقضين بين اثنين)^(٣).

وقال أبو ذر- أيضاً: قال لى رسول الله ﷺ : (يا أبا ذر، إنى أحب لك ما أحب لنفسى ، وإنى أراك ضعيفاً لا تتأمررون على اثنين ، ولا تلين مال يتيماً)^(٤).

وروى أبو ذر- أيضاً - : قال : قلت : يا رسول الله : ألا تستعملنى ؟ فضرب بيده على منكبى ، وقال لى : (يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها)^(٥).

وروى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن وأنا حديث السن ، فقلت : يا رسول الله إنك تبعثنى إلى قوم شيوخ ذوى أسنان ولا علم لي بالقضاء ، فقال : [إن الله سبحانه هاد قلبك ولسانك ، فإذا جلس الخصمان فلا تقض للأول حتى تسمع كلام الآخر ، فإنك إذا سمعت ذلك عرفت كيف تقضى]^(٦).

(١) عبد الله بن مسعود : صحابى جليل ومن أكابر الصحابة فضلاً وعلماً وعقلاً وقرباً من رسول الله (ﷺ) ، توفى سنة ٣٢ هـ. الأعلام ٤ / ١٣٧

(٢) رواه الطبرانى ، ورواته ثقات ، إلا ليث بن أبى سليم ، ورواه البزاز باسناد جيد . (الترغيب والترهيب ، الإمام المنذرى ج ٣ ص ١٦٨) . وقال الشيخ الألبانى : هذا الحديث ضعيف (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ج ٣ / رقم ١١٥٩) .

(٣) روى الإمام أحمد هذا الحديث بلفظ «أوصيك بتقوى الله فى أمرك وعلايتك ، وإذا أسأت فأحسن ، ولا تسألن أحداً شيئاً ، ولا تقبضن لأحد أمانة ولا تقض بين اثنين» عن أبى ذر وقال السيوطى الحديث صحيح ، وعليه فإنه لا يوجد فى الحديث الصحيح عبارة «ولا تؤوين يتيماً» (الجامع الصغير ج ١ ص ١١ رقم ٢٧٩٢) .

(٤) رواه الإمام مسلم وبلفظ : (لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيماً) .

(٥) رواه الإمام مسلم فى كتاب الإمارة تحت باب (كراهة الإمارة بغير ضرورة) . (صحيح مسلم

بشرح النووى ج ١٢ ص ٢٠٩) .

(٦) أخرجه أبو داود (٣٥٨٢) فى الأقضية ، والإمام أحمد والترمذى (١٣٣١) وقال هذا حديث

حسن ، وقد صححه العلامة أحمد شاكر رحمه الله فى تعليقه على المسند . (شرح السنة - الإمام البغوى - ج ١٠ ص ٩٦) .

فإن قال قائل: كيف نهى أبا ذر عن القضاء وأمر علياً بالقضاء، مع ما فيه من التغرير^(١)؟ وما روي بأن من قُدِّم للقضاء فقد دُبِحَ بغير سكين؟ وفيه البعدُ عن حضرته والتمنُّ بالمشاهدة^(٢)، وتعلم سننه وشرائع دينه، والتخلق بأخلاقه وشيمه؟. وأيهما أفضل: المثلُ بين يديه، والكونُ بحضرته ومشاهدته والصلاة خلفه، أو القضاء في غيبته مع البعد عنه؟

قلنا: إنما نهى أبا ذر، لمعنى فيه يقصر به آخره عن رتبة القضاء، مما كان ضده في علي رضي الله عنه [من استجماع شرائط القضاء وقوته عليه، ألا تراه ﷺ قال لعلي: «إن الله هاد قلبك»، وقال لأبي ذر: «إني أراك ضعيفاً»]^(٣)، ثم قال في آخره: (إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها) فاستدلنا بذلك على أن: من استجمعت فيه شروط القضاء وكان قويا على إنفاذه، لم يدخل تحت النهي. ومما يعدُّ ضعفاً عن القضاء طلبه أياه، إذ لم يدر عواقبه، وقد وصف الله سبحانه المتسرع إلى إيمانه بالجهل، فقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، أى ظلوماً لنفسه، جهولاً بعاقبة امره، والدليل على صحة هذا التأويل: قول النبي ﷺ (القضاة ثلاثة: اثنان في النار واحد في الجنة: رجل عرف الحق ف قضى به فهو في الجنة، ورجل عرف الحق فلم يقض به وجار في الحكم فهو في النار، ورجل لم يعرف الحق ف قضى للناس على جهل فهو في النار)^(٤). قلت: فهذان الرجلان ضعيفان عن رتبة القضاء، أحدهما بغشه وظلمه، والآخر بجهله.

وقد عابت جهلة بنى إسرائيل (طالوت)^(٥)، فقالوا: ﴿أَنْتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فعابوه بخصلتين: الفقر، وأنه ليس من سبط المملكة، فقال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ

(١) الغرر: وهو التعريض للهلاك أو الغرير: الشاب الذى لا خبرة له

(٢) أى فى سفر على رضى الله عنه للقضاء البعد عن حضرة النبى (ﷺ) وفى (خ): التيمن بمشاهدته.

(٣) ما بين المعقوفتين سقطت من (ط).

(٤) أخرجه الأربعة وصححه الحاكم، والحديث صحيح (الجامع الصغير للسيوطي، ٣/ ٨٩، رقم: ٦١٨٩).

(٥) طالوت: ملك أرسله الله إلى بني اسرائيل، ولم يكن من بيت الملك، كان عالماً بالعلوم والحروب، وأمر الله داود - عليه السلام - أن يكون من جنوده، وقد حارب معه وقتل داود جالوت ملك العمالة الذى كان كافراً، وكان عدواً لهم، ولما قتله اعطاه الله ملك بني اسرائيل.

اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴿البقرة: ٢٤٧﴾ فَبَيَّنَ شروط الولايات والممالك ، وأنها تفتقر إلى العلم الذي به يُحْكَم ، وإلى القوة التي بها تُنفَّذ بها الأحكام دون ما ظنَّه بنو إسرائيل .

وأما قولك : أيهما أفضل القضاء في غيبته أو الحضور بين يديه والكون في حضرته ؟ .

فالجواب : أن أوامره عليه السلام فرض يُعصى بتركه ، والكون في حضرته مستحب بعد الهجرة ولا يعصى بتركه ، فعلمنا بهذا أنه أنما بعث عليا رضي الله عنه للقضاء ، لأنه أفضل من سكناه بحضرته ، ولأنه مبلَّغ عنه إلى الخلائق شريعته التي بعثه الله بها ، فهو خليفته في ذلك ، يدل على هذا أنه : أوجب الجنة لمن قضى بالحق .

* * *

الباب الرابع

فى بيان معرفة ملك سليمان بن داود عليهما السلام

ووجهه طلبه الملك، وسؤاله أن لا يؤتى لأحد من بعده

فإن قال لنا قائل: أليس سليمان بن داود عليهما السلام، قال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، فَطَلَبَ الْمُلْكُ، ثم زاد على ذلك، بأن لا يؤتى مثله أحد من بعده، وكان ظاهره يؤذن بالبخل.

والكلام على هذه الآية من وجوه:

أحدها: أنه إنما سأل هذا، بعد أن سلبه الله تعالى ملكه ثم أعاده إليه، فحين طلب الملك كان ملكاً، فكأنه قال: هذا الملك الذى جدّدته لى، هبّه لى على صفات لا أعصيك فيها، أفتسلبنى إياه وتعاقبنى. يدل هذا عليه أنه بدأ بالمغفرة، فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ أى: ملكاً لا أعصيك فيه فتؤاخذنى، والدليل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩] فكأنه أجاب دعاءه، فقال: تصرف كيف شئت فلا حساب عليك فيه.

وقيل: إن أعطيت أجزرت، وإن أمسكت فلا تبعه عليك فيه. وهذا تخصيص لسليمان بن داود عليهما السلام، ولم يخص به أحد من ولد آدم سواه، لأن الله تعالى قال للخلائق: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وأما قوله: ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾، فمعناه: لا أسلبه فى باقى عمري فيصير لغيري. كما سلبته فيما مضى من عمري.

وقيل: لا تسلط على فيه شيطاناً مثل الذى قد سلطت على.

وقيل: إنما سأل ذلك ليكون علماً له على المغفرة وقبول التوبة، فأجيب إلى ذلك، فعلم أنه قد غفر له.

وقيل: إنما سأل ذلك ليكون آيةً لنبوته وعلماً على معجزته.

وقال مقاتل^(١) : كان سليمان بن داود ملكاً ، ولكنه أراد بقوله : ﴿ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ تسخير الرياح والطير ... يدل عليه ما بعده وهو قوله تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ۖ ﴾^(٢) [ص: ٣٦] ، إلى آخر الآية .

وقيل : إنَّ سليمان كان ملكه في خاتمته ، ولهذا ذهب مُلكه بذهاب خاتمته ، فقال : ﴿ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ ، يعني : اجعل ملكي في نفسي لا في خاتمي ، حتى لا يملكه أحد غيري ، فإنَّ إبليس لما أخذ خاتم سليمان ، تحوَّل منك سليمان إلى إبليس ، وقعد على كرسيه يحكم فيه ، حتى أنكرت بني إسرائيل أحكامه ، وكان قد ألقى عليه شبهه .

وقال عمرو بن عثمان المكي^(٣) : إنما أراد به مُلك النفس وقهر الهوى ، يدل عليه ما روى سلامان الشعباني قال : بلغني أن النبي ﷺ قال : رأيتم سليمان وما أتاه الله من ملكه ، فإنه لم يرفع طرفه إلى السماء تخشعاً لله تعالى حتى قبضة الله تعالى .

وزاد غيره : إنما أراد ملك النفس وقهرها ، لئلا يفتتن بالمملكة ، ولهذا قدم سؤال المغفرة على طلب المملكة .

وقال بعض الوعاظ : إنما أراد : حتى انتقم لادم من إبليس وذريته ، حيث كان سببا في إخراجهم وذريته من الجنة .

وروى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ ، قال : «إن عفريتاً من الجن جعل يتفَلَّتْ علي البارحة ليقطع عليَّ صلاتي ، وإن الله تعالى أمكنني منه فصرعته . ولقد هممتُ أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد ، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول سليمان : ﴿ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ فردَّه الله خاسئاً»^(٤) .

(١) مقاتل : هو مقاتل بن سليمان بن بشر الأزدي البلخي ، من أعلام المفسرين ، توفي بالبصرة سنة ١٥٠هـ (الأعلام ٧ / ٢٨١) .

(٢) وتامها ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَاب ﴾ .

(٣) عمرو بن عثمان المكي : أبو عبد الله ، صوفي عالم بالأصول ، من أهل مكة ، له مصنفات في التصوف ، توفي سنة ٢٩٧هـ (الأعلام ٥ / ٨٢، ٨١) .

(٤) هذا حديث متفق على صحته ، رواه البخاري في الأنبياء باب قول الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِداود سليمان ﴾ ، وفي المساجد وفي بدء الخلق .. رواه مسلم في المساجد رقم (٥٤١) .

فإن قيل : فما معنى قول يوسف عليه السلام : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ
إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] .

قلت : يستفاد من الآية : أن من حصل (١) بين يدي ملك لا يعرف قدره ، أو
أمة لا تعرف فضله ، فخاف على نفسه ، أو أراد إبراز فضله ، جاز له ان ينبتهم
على مكانه وما يحسنه ، دفعا للشر عن نفسه ، أو إظهارا لفضله ، فيجعل في
مكانه . وفيه فائدة أخرى : وهي أنه إذا رأى الأمور في يد الخونه والصوص ،
ومن لا يؤدّي الأمانة ، ويعلم من نفسه أداء الأمانة مع الكفاية ، جاز له أن ينبت
السلطان على أمانته وكفايته ، ولهذا قال بعض العلماء من اصحاب
الشافعي (٢) : من كمل في الاجتهاد وشروط القضاء (٣) ، جاز له أن ينبت
السلطان على مكانه ، ويخطب خطبة القضاء . وقال بعضهم : بل يجب ذلك
عليه إذا كان الأمر في يدي من لا يقوم به .

* * *

(١) حصل : ثبت .

(٢) محمد بن ادريس الشافعي أبو عبد الله : أحد الأئمة الأربعة الأعلام ، وصاحب المذهب المتبع
في كثير من بلاد المسلمين ، ولد في غزة ، ونشأ في مكة والمدينة ، وقدم بغداد مرتين ، وخرج إلى
مصر وتوفي سنة ٢٠٤ هـ (الأعلام ج ٦ ص ٢٦) .

(٣) في (خ) : من كملت فيه آلات الاجتهاد وشروط القضاء .

الباب الخامس

فى فضل الولاة والقضاة إذا عدلوا

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] يعنى: لولا أن الله تعالى أقام السلطان فى الأرض، يدفع القوي عن الضعيف، وينصف المظلوم من الظالم، لأهلك القوي الضعيف، وتوابع^(١) الخلق بعضهم على بعض، فلا ينتظم لهم حال، ولا يستقر لهم قرار، فتفسد الأرض ومن عليها، ثم امتن الله تعالى على الخلق بإقامة السلطان، فقال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] يعنى فى إقامة السلطان، فىأمن الناس به، فىكون فضله على الظالم كف يده عن المظلوم، وفضله على المظلوم كف يد الظالم عنه.

وروى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال: (ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم)^(٢).

وروى أن النبى ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: (إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)^(٣).

وروى كثير بن مرة قال: قال النبى ﷺ: «السلطان ظل الله فى أرضه، يأوى إليه كل مظلوم من عباده، فإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر، وإذا جار عليه الإصر وعلى الرعية الصبر)^(٤).

(١) تواب القوم: وثب واعتدى كل منهم على الآخر.

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده وابن ماجه والترمذى عن أبى هريرة، والحديث حسن، حسنه ابن ماجه. (الجامع الصغير للسيوطى ١/ ١٤٠، رقم: ٣٥٢٠).

(٣) رواه الإمام مالك عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى ورواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم والنسائى، والحديث صحيح. (الجامع الصغير للسيوطى ٢/ ٣١، رقم: ٤٦٤٥).

(٤) رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عمر، والحديث ضعيف. (الجامع الصغير للسيوطى ٢/ ٣٨، رقم: ٤٨٢٠). وقال الألبانى: الحديث هذا موضوع (انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٢/ ٦٠٤).

وروى أبو هريرة يرفعه قال : (لَعَمَلُ الْإِمَامِ الْعَادِلِ فِي رِعِيَّتِهِ يَوْمًا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْعَابِدِ فِي أَهْلِهِ مِائَةَ سَنَةٍ أَوْ خَمْسِينَ سَنَةً) (١) .

وقال قيس بن سعد (٢) : « لِيَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ رَجُلٍ فِي بَيْتِهِ سِتِينَ سَنَةً » .

وقال مسروق (٣) : « لِأَنَّ أَقْضَى يَوْمًا بِحَقِّ أَحَبِّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَغْزُو سَنَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ » .

وروى أن سعد بن إبراهيم ، وأبا سلمة بن عبد الرحمن ، ومحمد بن مصعب بن شرحبيل ، ومحمد بن صفوان ، قالوا لسعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت (٤) : « لِقَضَاءِ يَوْمٍ بِالْحَقِّ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ صَلَاتِكَ عُمْرُكَ » .

وسيتضح لك صحة هذه الأقوال إذا وقفت على ما نالته الرعية من الصلاح بصلاح السلطان .

واعلم أرشدك الله : أن الإنسان أعزُّ جواهر الدنيا ، وأعلىها قدراً ، وأشرفها منزلة ، وبالسُّلْطَانِ صلاح الإنسان ، إذا فهو أعزُّ أَعْلَى (٥) الدنيا وأعمُّها بركة ، ولذلك خلق الله تعالى دارين ، دار الدنيا ودار الآخرة ، ثم كان بالسُّلْطَانِ صلاح الدارين . فاخلق بشخص يعمُّ نفعه العباد والبلاد ، ويصلح بصلاحه الدنيا والآخرة ، أن يكون شرفه عند الله عظيماً ، كما كان قدره في العقل جسيماً ،

(١) وفي رواية : « ستين سنة » ، الحديث ضعيف ، رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، قال الحافظ العراقي : إسناده الكبير حسن . وقال الألباني : إسناده الحديث ضعيف . (انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة ج ٢ رقم ٩٨٩) . ومعنى يرفعه : أى ينسبه إلى قائله .

(٢) هو قيس بن سعد بن عباد : وال ، صحابي ، كان يحمل راية الأنصار مع النبي (ﷺ) ، ويلى أموره ، وفي البخارى أنه كان بين يدي النبي (ﷺ) بمنزلة الشرطي من الأمير ، استعمله علي بن أبي طالب على مصر ، وكان معه فى صفين ، توفي سنة ٦٠ هـ .

(٣) مسروق بن الأجدع أبو عائشة ، تابعي ثقة ، من أهل اليمن ، قدم المدينة أيام أبي بكر ، وسكن الكوفة ، وشهد الحروب مع علي رضي الله عنه ، كان أعلم بالفتيا من شريح القاضي ، وشريح أبصر منه بالقضاء ، مات سنة ٦٣ هـ . (تهذيب التهذيب ١٠ / ١٠٩) .

(٤) سعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت : الأنصاري المدني ، قال الأصمعي عن مالك : كان فاضلاً عابداً كثير الصلاة ، أكره على القضاء ، وكان ثقة ، مات ليالي مروان بن محمد في حوالى سنة ١٣٢ هـ . (وأولئك الذين ذكرت أسماؤهم فهم من القضاة والعلماء والمحدثين) (تهذيب التهذيب ابن حجر ٤ / ٤٢ ، رقم ٦٨) .

(٥) العلق : النفيس من كل شيء .

ومقامه عند الله كريماً، كما كان نفعه عميماً^(١)، وعلى قدر عموم المنفعة تَشْرُفُ الأعمال، وعلى قدر النعمة تكون المنّة، ألا ترى أن الأنبياء عليهم السلام، أعم خلق الله نفعاً؟ فهم أجل خلق الله قدراً، لأنهم تعاطوا إصلاح الخلائق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، كذلك سلطان الله في الأرض، هو خلافة النبوة في إصلاح الخلائق، ودعائهم إلى فناء الرحمن وإقامة دينهم، وتقويم أودهم^(٢)، وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبي مرسل، أو ملك مُقَرَّب، فاتخذ عظم قدر السلطان عندك حجةً لله تعالى على نفسك، وناصحه على قدر ما نفعك، وليس نفعه مقصوراً على عَجالة من حطام الدنيا يحبوك^(٣) بها، ولكن صيانة جُمُوعِكَ، وحفظ حريمك، وحراسة مالك عن البغاة، أعم نفعاً لك إن عقلت^(٤)، وليس لله في الأرض سلطان إلا وقد أخذ عليه شرائط العدل، ومواثيق الإنصاف، وشرائع الإحسان، وكما أنه ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة، كذلك ليس دون رتبة السلطان الشرير الجائر رتبة لشرير، لأن شره يعم، كما أن خير الأول يعم.

وكما أن بالسلطان العادل، تصلح البلاد والعباد، وتنال الزُلْفى إلى الله تعالى، والفوز بجنة المأوى، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد، وتُقتَرَفُ المعاصي والآثام، وتورث دار البوار^(٥)، وذلك أن السلطان إذا عدل، انتشر العدل في رعيته، فأقاموا الوزن بالقسط، وتعاطوا الحق فيما بينهم، ولزموا قوانين العدل، فمات الباطل، وذهبت رسوم الجور، وانتعشت قوانين الحق، فأرسلت السماء غيثها، وأخرجت الأرض بركاتها، ونمت تجارتهم، وزكت زروعهم، وتناسلت أنعامهم، ودرت أرزاقهم، ورخصت أسعارهم، وامتألت أوعيتهم، فوأسى البخيل وأفضل الكريم^(٦)، وقُضيت الحقوق، وأُعيرت المواعين، وتهادوا فضول الأئمة والتحف، فهان الحطام لكثرت، وذل بعد عزته، فتماسكت على الناس مروءاتهم، وانحفظت عليهم أديانهم.

(١) في (خ) كما كان نفعه للعباد عميماً.

(٢) الأود : الكد والتعب، يقال : قام بأود عائلته : أى قام باعالتها.

(٣) يحبوك بها : يعطيك إياها، الحبة : العطية.

(٤) عقلت : ادركت.

(٥) البوار : الهلاك، دار البور : جهنم.

(٦) واسى البخيل : أى أطعم من ماله، وأفضل الكريم : زاد في إحسانه.

وبهذا تبين لك أن الوالي مأجورٌ على ما يتعاطاه، من إقامة العدل، ومأجورٌ على ما يتعاطاه الناس بسببه، وإذا جارَ السلطانُ انتشارَ الجورِ في البلاد، وعمَّ العباد، فرقت أديانهم، واضمحلتُ مروءاتهم، ففشت فيهم المعاصي، وذهبت أماناتهم، فضعفت النفوس، وقنطت القلوب، فمنعوا الحقوق، وتعاطوا الباطل، وبخسوا المكيال والميزان، وجوزوا البهرج^(١)، فرفعت منهم البركة، وأمسكت السماءُ غيثها، ولم تخرج الأرضُ زرعها ونباتها، فقلَّ في أيديهم الحطام، فقنطوا وأمسكوا الفضل الموجود، وتناحروا على المفقود، فمنعوا الزكاة المفروضة، وبخلوا بالمواساة المسنونة، وقبضوا أيديهم عن المكارم، وتنازعوا المقدار اللطيف، وتجاحدوا القدر الخسيس، ففشت فيهم الأيمان الكاذبة، والختل^(٢) في البيع، والخداع في المعاملة، والمكر والحيل في القضاء والاقتضاء، ولا يمنعهم من السرقة إلا العار، ومن الزنا إلا الحياء، فيظلُّ أحدهم عارياً عن محاسن دينه، ومتجرداً عن جلباب مروءته، وأكثرُهم قوتُ دنياه، وأعظمُ مسرَّاته أكله من هذا الحطام، ومن عاش كذلك، فبطن الأرض خيراً له من ظاهرها.

قال وهب بن منبه^(٣): «إذا همَّ الوالي بالجور، أو عمل به، أدخل الله النقص في أهل مملكته: في الأسواق، والزرع، والضرع، وكل شيء، وإذا همَّ بالخير والعدل، أو عمل به، أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك».

وقال عمر بن عبد العزيز^(٤): «تهلك العامة بعمل الخاصة، ولا تهلك الخاصة بعمل العامة»، والخاصة: هم الولاة.

وفي هذا المعنى قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقال الوليد بن هشام^(٥): «إن الرعية لتفسد بفساد الوالي، وتصلح بصلاحه».

(١) البهرج: الباطل والردى والزائف.

(٢) الختل: الغش والخداع.

(٣) وهب بن منبه: التابعى المؤرخ، سبق ترجمته.

(٤) عمر بن عبد العزيز: الخليفة الأموى العادل، سبقت ترجمته.

(٥) هو الوليد بن هشام المعيطى، من رواة الحديث الثقات، روى عنه الأزاعى وغيره.

وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ^(١) لأَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ^(٢) : «إِنِّي لأَعْلَمُ رَجُلًا، إِنْ صَلَحَ صَلَحَتِ الْأُمَّةُ» قال : ومن هو ؟ قال : «أَنْتَ» .

وقال ابن عباس^(٣) : «إِنَّ مَلِكًا مِنْ الْمُلُوكِ، خَرَجَ يَسِيرُ فِي مَمْلَكَتِهِ مُسْتَخْفِيًا، فَنَزَلَ عَلَى رَجُلٍ لَهُ بَقَرَةٌ، فَرَاَحَتِ الْبَقَرَةَ^(٤)، فَحَلَبَتْ لَهُ قَدْرَ حَلَابٍ ثَلَاثِينَ بَقَرَةً، فَعَجِبَ الْمَلِكُ لَذَلِكَ، وَحَدَّثَ نَفْسَهُ بِأَخْذِهَا، فَلَمَّا رَاَحَتَ عَلَيْهِ مِنَ الْغَدِّ، حَلَبَتْ عَلَى النِّصْفِ مِمَّا حَلَبَتْ بِالْأَمْسِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا بَالُ حَلَابِهَا نَقَصَ ؟ أَرَعْتَ فِي أَرْضٍ غَيْرِ مَرْعَاهَا بِالْأَمْسِ ؟ قَالَ : لَا، وَلَكِنْ أَظُنُّ مَلِكَنَا هَمًّا بِأَخْذِهَا فَانْقَصَ لِبْنِهَا، فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا ظَلَمَ، أَوْ هَمَّ بِالظُّلْمِ، ذَهَبَتِ الْبَرَكَةُ، فَعَاهَدَ الْمَلِكُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، أَنْ لَا يَأْخُذَهَا، فَرَاَحَتَ مِنَ الْغَدِّ فَحَلَبَتْ حَلَابَ ثَلَاثِينَ بَقَرَةً، فَتَابَ الْمَلِكُ، وَعَاهَدَ رَبَّهُ لِأَعْدَلَنَّا مَا بَقِيَتْ» .

ومن المشهور في أرض المغرب، أن السلطان بلغه، أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو، وإنَّ قصبة منها تعصر قَدْحًا، فعزم على أخذها منها، ثم أتاها وسألها عن ذلك، فقالت : نعم، ثم عصرت قصبة فلم تبلغ نصف قَدْحٍ، فقال لها : أين الذي كان يُقال، فقالت : هو الذي بلغك، إلَّا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها مني فارتفعت بركتها، فتاب السلطان وأخلص لله في نيته، أن لا يأخذها أبدًا، ثم أمرها فعصرت فجاءت ملء القَدْحِ .

وحدثني بعض الشيوخ ممن كان يروى الأخبار بمصر، قال : كان بصعيد مصر نخلةٌ تحمل عشرةً أرادب^(٥) تمرًا، ولم يكن في ذلك الزمان نخلةٌ تحمل نصف ذلك، فغصَّبها السلطان، فلم تحمل في ذلك العام شيئًا، ولا ثمرةً واحدة .

قال لي شيخٌ من أشياخ الصعيد : أعرف هذه النخلة في الغربية، تجنى عشرةً أرادب، ستين وبيبةً^(٦) وكان صاحبها يبيعها في سنين الغلاء كلَّ وبيبةٍ بدينار .

(١) سفيان الثوري : محدث ومن الأئمة المجتهدين، ولد بالكوفة، وتوفي بالبصرة سنة ١٦١ هـ .

(٢) أبو جعفر المنصور : الخليفة العباسي الثاني، سبقت ترجمته .

(٣) ابن عباس : عبد الله بن عباس بن عبدالمطلب، ابن عم رسول الله (ﷺ)، حبر الأمة وفقهها

ومن أفاضل الصحابة، مات بالطائف سنة ٦٨ هـ .

(٤) راحت : أى أوت إلى مراحتها ومأواها .

(٥) الأرْدَب : مكيال ضخيم في مصر يساوي ٢٤ صاعًا .

(٦) الوبيبة : تُعادل اثنان وعشرون أو أربعة وعشرون مُدًّا .

وشهدتُ وأنا بالإسكندرية، والصيدُ فى الخليج مُطلقٌ للرعيّة، والسّمكُ يغلى به الماء من كثرته، ويصيدهُ الأطفال بالخرق، ثم حَجَرَهُ الوالى ومنع الناس من صيده، فذهب السمك، حتى لا يكاد يُرى فيه إلا الواحدة بعد الواحدة إلى يومنا هذا.

وهكذا تتعدّى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنونُ ضمائرهم إلى الرعية، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وروى أصحاب التواريخ فى كتبهم، قالوا: كان النَّاسُ إذا أصبحوا فى زمان الحجاج^(١) يتلاقون يتساءلون: مَنْ قُتِلَ البارحة؟ وَمَنْ صُلِبَ؟ وَمَنْ جُلِدَ؟ وَمَنْ قُطِعَ؟ وأمثال ذلك.

وكان الوليد^(٢) صاحب ضياع، وإِتخاذ مصانع، فكان الناس يتساءلون فى زمانه عن البُنيان، والمصانع، والضياع، وشقّ الأنهار، وغرس الأشجار. ولما ولي سليمان بن عبد الملك^(٣) وكان صاحبَ نكاح وطعام، فكان الناس يتحدثون فى الأُطعمة الدقيقّة، ويتوسعون فى الأنكحة والسراري، ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز^(٤) كان النَّاسُ يتساءلون: كم تحفظ من القرآن؟ وكم وردك^(٥) فى كل ليلة؟ وكم يحفظ فلان؟ ومتى يختم؟ وكم تصوم من الشهر؟ وأمثال ذلك.

* * *

(١) الحجاج: أى الحجاج بن يوسف الثقفى، الأمير على العراق فى زمن الأمويين والمشهور ببطشه وجبروته.

(٢) الوليد: أى الوليد بن عبد الملك: الخليفة الأموى السادس الذى بلغت الدولة الأموية فى عهده أوجها.

(٣) سليمان بن عبد الملك: الخليفة الأموى السابع الذى تولى الخلافة بعد أخيه الوليد.

(٤) عمر بن عبد العزيز: الخليفة الأموى الثامن الذى تولى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك.

(٥) الورد: أى الجزء من القرآن الكريم.

الباب السادس فى أَنَّ السلطانَ مع رعيّته

مغبونٌ غيرُ غابنٍ، وخاسرٌ غيرُ رابحٍ

اعلموا أرشدكم الله : أَنَّ السلطانَ خطرُهُ عظيمٌ، وبليّتهُ عامّةٌ، وقد يطرُقُهُ من الآفاتِ، ويحتوشُهُ^(١) من الأمور المهلكاتِ، ما يجب على كل ذى لب أن يستعيذَ بالله ممّا حمّله، ويشكرَهُ على ما عصمه، لا يهدأ فكرُهُ، ولا تسكنُ خواطره، ولا يصفو قلبه، ولا يستقرُّ لبُّه، الخلقُ فى شُغلٍ عنه، وهو مشغولٌ بهم، والرجل يخافُ عدواً واحداً، وهو يخافُ ألفَ عدوٍّ، والرجل يضيقُ بتدبيرِ أهل بيته، وإنّالةُ صنعته^(٢)، وتقديرُ معيشتِهِ، وهو مدفوعٌ لسياسةٍ جميع أهل مملكته، وكلما رَتَقَ فتقاً^(٣) من حواشى مملكته انفتقَ آخر، وكلما رَمَّ منها شعثاً^(٤) رثَ آخر^(٥)، وكلما قمعَ عدواً أرصدَ له أعداء، إلى سائر ما يعانية من أخلاق الناس، ويقاسية من خصوماتهم، ونصب الولاه والقضاة، وبعث الجيوش وسدَّ الثغور، واستجباء الأموال ودفع المظالم، ثم العجبُ العُجَابُ، أَنَّ له نفساً واحدة، وأنّه يرزأ^(٦) من الدنيا قوتها، كما يرزأُ آحاد الرعايا، ثم يُسألُ غداً عن جميعهم ولا يسألون عنه، فيا لله، ويا للعجب، من رجل رَضِيَ أن ينال رغيفاً، ويحاسب منها^(٧) على ألف ألف رغيِف، ويأكل فى مَعِيٍّ^(٨) واحد، ويحاسب على ألف ألف مَعِيٍّ، ويستمتع بنفس واحدة، ويحاسب على آلاف آلاف الأنفس، وعلى هذا النمط فى جميع أحواله، يَحْمِلُ أثقالهم، ويريحُ أسرارهم، ويجاهدُ عدوَّهم، ويسدُّ ثغورهم، ويدافعُ

(١) ويحتوشه: يحيط به ويجتمع حوله.

(٢) فى (خ): إيالة ضيعته: أى تدبير أمرها.

(٣) رتق فتقاً: أصلحه.

(٤) رمَّ شعثهم: جمع شملهم.

(٥) رث الثوب: بلى وفسد.

(٦) يرزأ: يصيب أو يأخذ.

(٧) ويحاسب منها: أى من الدنيا.

(٨) المعى: مصران البطن.

مناوئهم^(١) ومناصبهم، ويعصى ربّه فيهم ويخالف أمره، ويركب نهيه من أجلهم، ويقتحم جرائمهم^(٢) جهنم على بصيرة فيهم، ثم تجدهم له قالين^(٣)، وعنه غير راضين، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يحول بين المرء وقلبه، لم يرض عاقل بهذه منزلة، ولا اختارها لبئس مرتبة، وكل ما ذكرته في هذا الباب أحكمه النبي ﷺ في كلمة، فقال: «ما لكم ولأمرائي؟ لكم صفو أمرهم، وعليهم كدره»^(٤).

* * *

مثال السلطان مع رعيته(*):

ومثال السلطان مع الرعية: كالطباخ مع الأكلة، له العناء ولهم الهناء، وله الحار ولهم القار^(٥)، طلب لقومه الراحة، فحصل عليّ التعب، وطلب لهم النعيم، فأخطأ الصراط المستقيم، وعن هذا قالوا: (سيد القوم أشقاهم) وفي الحديث: (ساقى القوم آخرهم شرباً)^(٦).

وكان بعض سلاطين المغرب يسير يوماً وبين يديه الوزراء، إذ نظر إلى جماعة من التجار، فقال لوزيره: أتحب أن أريك ثلاث طوائف؟ طائفة لهم الدنيا والآخرة، وطائفة لا دنيا ولا آخرة، وطائفة دنيا بلا آخرة؟

قال: وكيف ذلك أيها الملك؟ فقال: الذين لهم الدنيا والآخرة: فهؤلاء التجار يكسبون أقواتهم، ويصلون صلاتهم، ولا يؤذون أحداً. وأما الذين لا دنيا لهم ولا آخرة: فهؤلاء الشرطة والخدمة الذين بين أيدينا. وأما الذين لهم الدنيا بلا آخرة: فأنا وأنت وسائر السلاطين.

فحق على جميع الورى أن يمدوا السلطان بالمناصحات، ويخصونه بالدعوات، ويعينوه على سائر المحاولات، ويكونوا له أعيناً ناظرة، وأيدٍ

(١) أى معاديبهم.

(٢) جرائم جنهم: أى أصلها.

(٣) قالين: أى مبغضين له (تقلاً الرجلان: تباغضا).

(٤) جزء من حديث طويل رواه الإمام أحمد فى مسنده (٦ / ٢٧ - ٢٨) وأبو داود فى السنن فى

كتاب الاجتهاد عن عوف بن مالك الأشجعى.

(*) من إضافات المحقق.

(٥) القار: البارد.

(٦) رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى قتادة والطبرانى فى الأوسط، والقضاعي عن المغيرة،

والحديث صحيح. (الجامع الصغير للسيوطى ٢ / ٣٠، رقم: ٤٦٣٠).

باطشة، وجُنناً^(١) واقية، وألسنة ناطقة، وقوادم تُنهضه، وقوائم تُقلّه^(٢)، وهيهات منه السلامة، وأتّى له بالسلامة. وعن هذا قال بعض السلاطين يوماً لأصحابه: اعلّموا أن السلطان والجنة لا يجتمعان.

قال شيخنا رحمه الله: وحدثني رجلٌ له قدرٌ، قال: أرسل إلى السلطان أن طلق امرأتك، وكان قد أرادها لبعض أصحابه، فأبیت ذلك، وراجعت الرُّسلَ غيرَ مرةٍ، فقال لي ناصحٌ منهم: خذ الأمرَ مقبلاً^(٣) فإنه لا حيلة لك، فإن السلطان لا يخاف في الدنيا عاراً، ولا في الآخرة ناراً، ففارقتها.

وروي عن عبد الملك بن مروان^(٤)، انه لما ولي الخلافة، أخذ المصحف فوضعه في حجره، ثم قال: هذا فراقُ بيني وبينك.

ولما حج هارون الرشيد^(٥)، لقيه عبدالله العمري^(٦) في الطواف، فقال له: يا هارون: قال لبيك يا عم، قال: كم ترى ههنا من الخلق؟ قال لا يحصيهم إلا الله، فقال: اعلم أيها الرجل، أن كل واحد منهم يُسأل عن خاصّة نفسه، وأنت واحد تُسأل عنهم كلهم، فانظر كيف تكون، فبكى هارون وجلس، فجعلوا يعطونه منديلاً منديلاً للدموع، ثم قال له: والله إن الرجل ليسرع في مال نفسه، فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن أسرع في مال المسلمين. ويقال أن هارون كان يقول: والله إنني أحب أن أحج كل سنة، وما يمنعني إلا رجل من ولدِ عمر، يُسمعي ما أكره،

وقال مالك بن دينار^(٧): قرأت في بعض الكتب القديمة، يقول الله تعالى: من أحمق من السلطان؟ ومن أجهل ممن عصاني؟ ومن أعزُّ ممن اعتزّ بي؟ أيا راعى السوء: دفعت إليك غنماً سماناً صحاحاً، فأكلت اللحم وشربت اللبن، وائتمدت بالسمن، ولبست الصوف، وتركتها عظاماً تُقعقع، ولم تأو الضالة، ولم تجبر الكسير^(٨)، اليوم أنتقم لها منك.

* * *

(١) مفردة جُنّة وهي السترة.

(٢) القوادم: الريشات التي في مقدمة الجناح للطائر، والقوائم: الأرجل.

(٣) خذ الأمر مقبلاً: أى أرض ورحب به.

(٤) عبد الملك بن مروان: الخليفة الأموي الخامس، ولد بالمدينة وتوفي بدمشق سنة ٨٦ هـ.

(٥) هارون الرشيد: الخليفة العباسي الرابع، أشهر الخلفاء العباسيين، توفي سنة ١٩٣ هـ.

(٦) سبق ذكر هذه القصة، وقيل إن الذي لقيه هو عبيد الله العمري وليس عبدالله.

(٧) مالك بن دينار: العالم الورع، سبقت ترجمته. (٨) يجبر الكسير: يعمل على إصلاحه.

الباب السابع

فى بيان الحكمه فى كون السلطان فى الأرض

اعلموا أرشدكم الله : أن فى وجود السلطان فى الأرض ، حكمه لله تعالى عظيمه ، ونعمه على العباد جزيله ، لأن الله سبحانه جبل الخلق على حب الانتصاف ، وعدم الإنصاف^(١) ، ومثلهم بلا سلطان : مثل الحيتان فى البحر يزدر^(٢) الكبير الصغير ، فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر ، ولم يستقم لهم معاش ، ولم يهتئوا بالحياة ، ولهذا قال بعض القدماء : لو رفع السلطان من الأرض ، ما كان لله فى أهل الأرض من حاجة .

ومن الحكم التى فى إقامة السلطان : أنه من حجج الله تعالى على وجوده سبحانه ، ومن علاماته على توحيده ، لأنه كما لا يمكن استقامة أمور العالم واعتداله بغير مدبر ينفرد بتدبيره ، كذلك لا يتوهم وجوده وترتيبها ، وما فيه من الحكمة ، ودقائق الصنعة بغير خالق خلقه ، وعالم أتقنه ، وحكيم دبره .

وكما لا يستقيم سلطانان فى بلد واحد ، لا يستقيم إلهان للعالم ، والعالم بأسره فى سلطان الله تعالى ، كالبلد الواحد فى يد سلطان الأرض ، ولهذا قال علي بن أبى طالب رضى الله عنه : أمران جليلان لا يصلح أحدهما إلا بالتفرد ، ولا يصلح الآخر إلا بالمشاركة ، وهما الملك والرأى فكما لا يستقيم الملك بالشركة لا يستقيم الرأى بالانفراد به .

ومثال السلطان القاهر لرعيته ، والرعية بلا سلطان ، مثال بيت فيه سراج منير ، وحوله فئام^(٣) من الخلق يعالجون صنائعهم ، فبينما هم كذلك ، طفي السراج ، فقبضوا أيديهم للوقت ، وتعطل جميع ما كانوا فيه ، فتحرك الحيوان الشرير ، وخشخش ، الهام الخسيس^(٤) ، ودبت العقرب^(٥) من مكمنها ،

(١) حب الانتصاف وعدم الإنصاف : أى من طبع الإنسان أن يسعى لأخذ حقه ولا يسعى لإعطاء الناس حقوقهم .

(٢) يزدر : يبتلع . (٣) فئام من الخلق : الفئام : الجماعة ، (ولا واحد له من لفظه) .

(٤) خشخش الهام الخسيس : الهام والهامة جمعها هوأم وهو ما كان له سم كالحية ، ومعنى خشخش : أى سمع له صوت عند اصطكاكه .

(٥) دبت العقرب من مكمنها : أى خرجت وسرت من موضع اختبائها .

وَفَسَقَتْ^(١) الْفَأْرَةُ مِنْ جُحْرِهَا، وَخَرَجَتْ الْحَيَّةُ مِنْ مَعْدِنِهَا^(٢)، وَجَاءَ اللَّصُّ بِحِيلَتِهِ، وَهَاجَ الْبَرِغوثُ مَعَ حَقَارَتِهِ، فَتَعَطَّلَتِ الْمَنَافِعُ، وَاسْتَطَارَتْ^(٣) فِيهِمُ الْمَضَارُّ. كَذَلِكَ السُّلْطَانُ إِذَا كَانَ قَاهِرًا لِرِعِيَّتِهِ، كَانَتِ الْمَنْفَعَةُ بِهِ عَامَةً، وَكَانَتِ الدَّمَاءُ فِي أَهْلِهَا مُحَقَّقَةً، وَالْحُرْمُ فِي خُدُورِهَا مَصُونَةً، وَالْأَسْوَاقُ عَامِرَةً، وَالْمَرَافِقُ حَاصِلَةً، وَالْأَمْوَالُ مُحْرُوسَةٌ وَالْحَيَوَانُ الْفَاضِلُ ظَاهِرًا، وَالْحَيَوَانُ الشَّرِيرُ مِنْ أَهْلِ الْفُسُوقِ وَالِدَّعَارَةِ خَامِلًا.

وَإِذَا اخْتَلَّ أَمْرُ السُّلْطَانِ: دَخَلَ الْفُسَادُ عَلَى الْجَمِيعِ، وَلَوْ جُعِلَ ظَلَمُ النَّاسِ حَوْلًا فِي كَفَّةٍ، ثُمَّ جُعِلَ فَسَادُ الرِّعْيَةِ وَظَلْمُهُمْ وَهَرَجُهُمْ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إِذَا اخْتَلَّ أَمْرُ السُّلْطَانِ فِي كَفَّةٍ، كَانَ هَرَجٌ^(٤) سَاعَةً أَعْظَمَ وَأَرْجَحَ مِنْ ظَلَمِ السُّلْطَانِ حَوْلًا، وَكَيْفَ لَا؟ وَفِي زَوَالِ السُّلْطَانِ، أَوْ ضَعْفِ شَوْكَتِهِ سَوَقُ أَهْلِ الشَّرِّ، وَمَكْسَبُ الْأَجْنَادِ^(٥)، وَنِفَاقُ أَهْلِ الْعِيَارَةِ^(٦) وَالسُّوقَةِ، وَاللِّصُوصِ وَالْمُنَاهِبَةِ^(٧).

وَقَالَ الْفَضِيلُ^(٨): جَوْرُ سِتِينَ سَنَةً خَيْرٌ مِنْ هَرَجِ سَاعَةٍ^(٩).

وَلَا يَتِمَّنِي زَوَالُ السُّلْطَانِ إِلَّا جَاهِلٌ مُغْرورٌ، أَوْ فَاسِقٌ يَتِمَّنِي كُلُّ مُحْذورٍ، فَحَقِيقٌ عَلَى كُلِّ رَعِيَّةٍ أَنْ تَرْغَبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي إِصْلَاحِ السُّلْطَانِ، وَأَنْ تَبْذُلَ لَهُ نَصْحَهَا، وَتَخْصَهُ بِصَالِحِ دَعَائِهَا، فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ، وَفِي فَسَادِهِ فَسَادَ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ.

وَكَانَ الْعُلَمَاءُ يَقُولُونَ: إِذَا اسْتَقَامَتِ لَكُمْ أُمُورُ السُّلْطَانِ، فَأَكْثَرُوا حَمْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرَهُ، وَإِنْ جَاءَكُمْ مِنْهُ مَا تَكْرَهُونَ، وَجَهَّوْهُ إِلَى مَا تَسْتَوْجِبُونَهُ

(١) فَسَقَتِ الْفَأْرَةُ: خَرَجَتْ مِنْ جُحْرِهَا عَلَى النَّاسِ، وَتَسْمَى الْفَأْرَةُ (الْفُورِسْقَةُ) لَخُرُوجِهَا عَلَى النَّاسِ.

(٢) مَعْدِنِهَا: مَكَانُ أَقَامَتِهَا، يُقَالُ: (عَدَنَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ فِيهِ) وَمِنْهَا جَنَاتُ عَدَنَ: أَى جَنَاتُ إِقَامَةِ الْخُلُودِ.

(٣) اسْتَطَارَتْ: انْتَشَرَتْ.

(٤) الْهَرَجُ: الْفِتْنَةُ وَالْإِخْتِلَاطُ وَالْقَتْلُ.

(٥) الْأَجْنَادُ: الْبِلْدَانُ أَوْ الْجِيُوشُ.

(٦) يُقَالُ رَجُلٌ عِيَّارٌ: أَى كَثِيرُ التَّطَوُّافِ وَالْحَرَكَةِ يَخْلِي نَفْسَهُ وَهَوَاهَا.

(٧) الْمُنَاهِبَةُ: السُّطُورُ عَلَى مَالِ الْغَيْرِ وَأَخْذُهُ قَهْرًا.

(٨) الْفَضِيلُ: هُوَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضَ (سَبَقَتْ تَرْجُمَتُهُ).

(٩) فِي (ط) هَرَجَ سَنَةً.

بذنوبكم، وتستحقونه بآثامكم، وأقيموا عُذرَ السُّلطان^(١) لانتشار الأمور عليه، وكثرة ما يكابده من ضبط جوانب المملكة، واستئلاف الأعداء، وإرضاء الأولياء، وقلة النَّاصح، وكثرة المدلس والطامع.

وفى كتاب التاج^(٢): همومُ الناس صغارٌ، وهمومُ الملوك كبارٌ، وألبابُ الملوك مشغولةٌ بكل شيء، وألبابُ السُّوق مشغولةٌ بأيسر شيء، والجاهلُ منهم يعذر نفسه مع ما هو عليه من الراحة، ولا يعذر سلطانه مع شدة ما هو عليه من المؤنة، ومن هناك يُعزُّ الله سلطانه، ويرشده وينصره.

وعن هذا قالت حكماء العجم: (لا تستوطن إلا بلدا فيه سلطانٌ قاهر، وقاضٍ عادل، وسوقٌ قائمة، وطبيبٌ عالم، ونهرٌ جار).

* * *

(١) أقيموا عذره: أى التمسوا له العذر.

(٢) كتاب التاج: من كتب الفرس التى تروي أخبار ملوكهم، ترجمة ابن المقفع للعربية.

الباب الثامن

فى منافع السلطان ومضاره

قال حكماء العرب والعجم: مَثَلُ مَضَارِّ السُّلْطَانِ فى جنب منافعہ، مَثَلُ الغيث: الذى هو سقىا الله تعالى، وبركات السماء، وحياة الأرض ومن عليها، وقد يتأذى به المسافر، ويتداعى له البنيان، وتكون فيه الصواعق، وتدرُّ سيولُه، فتُهْلِكُ الناس والدواب والذخائر، ويموج له البحر، فتشتدُّ بليَّته على أهله، ولا يمنع ذلك الخلق - إذا نظروا إلى اثار رحمة الله تعالى فى الأرض التى أحيا، والنبات الذى أخرج، والرزق الذى بسط، والرحمة التى نشر - أن يُعْظَمُوا رحمة ربهم ويشكروها، ويلغوا ذكر خواص الأذية التى دخلت على خواص الخلق.

ومثاله أيضا مَثَلُ الرياح التى يرسلها الله تعالى نَشْراً بين يَدَي رحمته، فيسوق بها السحاب، ويجعلها لقاحاً للثمرات، ورواحاً للعباد، ويتنسَّمون منها، ويتقلَّبون فيها، وتجرى بها مياههم، وتَتَقَدُّ بها نيرانهم، وتسير بها فى البحر أفلاكهم، وقد تضرُّ بكثير من الناس فى برهم وبحرهم، وتخلُص إلى أنفسهم، فيشكروها الشاكرون، وقد يتأذى بها كثير من الناس، ولا يزيلها^(١) ذلك عن منزلتها من قوام عبادته، وتمام نعمته.

ومثاله أيضاً، مثال الشتاء والصيف: الذين جعل الله تعالى حرهما وبردهما، صلاحاً للحرث والنسل، ونتاجاً للحب والثمر، يجمعهما البرد بإذن الله تعالى، ويخرجهما الحر بإذن الله، فينضج على اعتدال إلى غير ذلك من منافعهما، وقد يكون الأذى فى حرهما وبردهما، وسُمومهما وزمهيرهما^(٢)، وهما مع ذلك لا يُنسَبَانِ إلا^(٣) إلى الصلاح والخير، وقد غمر صلاحهما أذيتهما.

(١) فى (خ) ولا يخرجها.

(٢) السُموم: الريح الحارة / والزمهير: شدة البردة.

(٣) سقطت إلا من (ط).

ومثاله أيضا، مثال الليل الذى جعله الله تعالى سكناً ولباساً ونوماً وراحة وسباتاً، وقد يستوحش له أخو الفقر، ويسارع فيه أهل الدعارة والفساد، واللصوص، وتعدو فيه السباع، وتنتشر فيه الهوام، وذوات الحمة^(١)، والسُموم القاتلة، ثم لا ينسى العباد نعم الله تعالى عليهم به، ولا يرزأ^(٢) صغير ضرره بكبير نفعه.

ومثاله أيضا، مثال النهار الذى جعله الله تعالى ضياءً ونوراً، ونشوراً واكتساباً وانتشاراً، وقد تكون فيه الحروب والغارات، والتعب والنصب، والشخوص^(٣) والخصومات، فتستريح الخلق منه إلى الليل، ثم لم ينس العباد نعمة الله تعالى عليهم فيه، وهكذا كل جسيم من أمور الدنيا يكون ضرره خاصاً، ونفعه عاماً، فهو نعمة عامة، وكل شئ يكون نفعه خاصاً فهو بلاء عام.

ولو كانت نعم الدنيا صفواً من غير كدر، وميسورها من غير معسور، لكانت الدنيا هي الجنة، التى لا تعب فيها ولا نصب. وقد قال الشاعر:

لا ترج شيئاً خالصاً نفعه فالغيث لا يخلو من العيب

* * *

(١) ذوات الحمة : الحشرات السامة.

(٢) لا يرزأ : لا يصيب.

(٣) الشخوص : الاختلاف.

الباب التاسع

فى بيان منزلة السلطان من الرعية

اعلموا أن منزلة السلطان من الرعية، بمنزلة الروح من الجسد، فإذا صفت الروح من الكدر سرت إلى الجوارح سليمة، وسرت فى جميع أجزاء الجسد، فأمن الجسد من الغير، واستقامت الجوارح والحواس، وانتظم أمر الجسد، وإذا تكاثرت الروح أو فسدت مزاجها، فبها ويح الجسد، فتسرى إلى الحواس والجوارح كدرة، وهى منحرفة عن الاعتدال، فإذا أخذ كل عضو وحاسة بقسطه من الفساد، مرضت الجوارح وتعطلت، فتعطل نظام الجسد، وجر إلى الفساد والهلاك.

ومثال السلطان أيضاً مثال النار، ومثال الخلق مثال الخشب، فما كان منها معتدلاً لم يحتج إلى النار، وما كان منها متأوداً^(١)، احتاج إلى النار ليقام أوده، فيعدل عوجه، فإن أفرطت النار احترق الخشب قبل أن يستقيم أوده^(٢)، وإن قصرت النار، لم يلن الخشب لقبول الاعتدال، فيبقى متأوداً، وإذا كانت النار معتدلة اعتدل الخشب. كذلك السلطان فى أطواره، إن أفرط أهلک الخلق، وإن فرط لم يستقيموا، وإن اعتدل اعتدلوا.

ومثاله أيضاً مثال عين خراة فى أرض خوارة^(٣)، فإن حلا مشربه، وعذب طعمه، وسلمت من الكدر والفساد أو صافه، اختلج^(٤) فى الأرض، فابتلعتة صافياً صرفاً، ثم شربته عروق الأشجار، فاغتذت به كذلك، فغلظت سوقها، وفرعت أغصانها، وامتدت أفنانها، ثم أخرجت أوراقها، وبرزت أزهارها، ثم قذفت ثمارها، فجاءت على أتم طبيعتها، كبراً وطعماً ولوناً ورائحة، فتقوت بها العباد، وأكلت حظوظها البهائم والحشرات، وسقط عليها الطير، فأحرز كل منها قوته، واستقام النظام، وإن كان فى حواشى الأرض ما يدق^(٥) عن

(١) متأوداً: معوجاً (الأود: الاعوجاج).

(٢) يستقيم أوده: يستقيم اعوجاجه.

(٣) العين الخراة: التى يتدفق ماؤها فيحدث خيراً أو صوتاً قوياً. والأرض الخوارة: الضعيفة.

(٤) اختلج: تحرك.

(٥) رق أو دق: أصبح رقيقاً دقيقاً غير غليظ.

الإنبات والنفع، ويؤكد^(١) عن الزكاة والرّيع، أو كان فيها من الشجر ما يبرز حمّله ويقل ريعه، أعطى كل ذلك الغاية من نفسه، وأطلع ما فى قواه، ولم يغادر ممكناً إلا وقاه.

وإن كان فى العين كدر أو فساد أو ملح، شربتها الأشجار كذلك، ففسد مزاجها، وأضر الجزء الفاسد بالطيب، فرقت سوقها، وضعفت أغصانها، وتغيّرت أوراقها، وقلت أزهارها وثمارها، ودخل الفساد على جميع ذلك، فجاءت الثمرة وهى نزر^(٢) قدرها، رديء طعمها، كاسف لونها، فدخل بذلك من النقص على جميع الحيوان، مثل ما دخل عليهم من المنافع فى الأولى، ولهذا قال الرسول ﷺ: «إن الحشرات لتموت فى أجحرتها هزلاً بذنب ابن آدم»^(٣) يعنى إذا كثرت المعاصى فى الأرض، حبست السماء غياثها، ومنعت الأرض نباتها، فهلك الهوام والحشرات والدواب.

* * *

(١) أكدى : انقطع أو قلّ خيره فلم تخرج زكاة من ريعه.

(٢) النزر: القليل، أى جاءت ثمرتها ضعيفة.

(٣) لم أجد حديثاً بهذا النص فى كتب الحديث، وقد وجدت فى كتاب «تخريج الأحاديث والآثار، للزيلعي» حديث عن أبي هريرة، قال: «إن الحبارى لتموت هزلاً بذنب ابن آدم»، وقال: رواه الطبراني فى تفسيره، كما روى الحاكم فى المستدرک من حديث أبي الأحوص، قال: «كاد الجعل يعذب فى جحره بذنب ابن آدم»، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كما رواه البيهقي فى شعب الإيمان. (انظر: تخريج الأحاديث والآثار، للزيلعي ٢ / ٢٢٦).

الباب العاشر

فى بيان معرفة خصال ورد الشرع بها

فيها نظام الملك والدول

وهى ثلاثة : اللين وترك الفظاظه ، والمشاوره ، وأن لا يستعمل على الأعمال والولايات راغب فيها ولا طالب لها ، ولما علم الله تعالى ما فيها من انتظام أمر الملة ، واستقامة الأمر ، نص عليها الله سبحانه ورسوله .

اعلم : أن هذه الخصال من أساس الممالك ، وقل من يعمل بها من الملوك : اثنتان نزلتا من السماء ، وواحدة قالها الرسول ﷺ .

أما الإلهية : فقال الله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وفى الآية إشارتان :

إحدهما : ان الفظاظه تُنْفَرُ الأصحاب والجلساء ، وتفرق الجموع والحشم ، وإنما الملك ملك بجلسائه وأصحابه وحشمه وأتباعه ، وأخلق (١) بخصلة تنفر الأولياء ، وتطمع الأعداء ، فقم (٢) بكل سلطان رفضها ، والاحتراز من سوء مغبتها ، ولتكن كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] .

وروي أن النبي ﷺ كان جالسا مع أصحابه ، فجاء رجل فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقالوا : هذا الأبيض المتكى ، فقال الرجل ، يا ابن عبد المطلب ، فقال النبي ﷺ : « قد أجبتك » ، دل الأثر على أنه ما استأثر بشرف المجلس ، ولا فاتهم بزي ، ولا مقعد .

وقد يبلغ باللين ما لا يبلغ بالغلظة ، ألا ترى أن الرياح تهون أصواتها (٣) ؛ فيتداخل لها الشجر ، وتنعطف الأفنان والأغصان ، وفى الفرط (٤) تنكسر

(١) أخلق بخصلة : أى جدير بها .

(٢) قم : خلىق وجدير .

(٣) فى (ط) تهول أصواتها أى تصوير مخيفة . وفى (خ) تهون أى تصوير هينة وهو الأصح .

(٤) فى الفرط : أى عند تجاوز الحد فى الشدة .

الأغصان، والماء بليته في أصول الشجر يقلعها من أصلها. وإذا كانت الحياة مع صعوبتها وسمها وتغيُّبها في جحرها، تُرقى بالكلام حتى تستعطف فتخرج، فالإنسان أخرى أن يستمال بلين القول وحسن المنطق، فإذا أردت أن تنضم ممن يسئ إليك، فكافئه بكل كلمة سوء قالها، كلمة جميلة وحسن ثناء عليه.

والإشارة الثانية: أنه قال: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فإذا قيل لنا: كيف يشاورهم وهو نبيهم وإمامهم وواجب عليهم مشاورته، وأن لا يفصلوا أمراً دونه؟ قلنا هذا أدب أدب الله تعالى نبيه عليه السلام به، وجعله مأدبة لسائر الملوك والأمراء والسلاطين، لما علم الله تعالى ما في المشاورة من حسن الأدب مع الجليس، ومساهمتها في الأمور، فإن نفوس الجلساء والنصحاء والوزراء تصلح عليه، وتميل اليه، وتخضع عنوة بين يديه، شرعة أنبياء عليه السلام، ولذوى الأمرة من أهل ملته ﷺ، ألا ترى أن النبي عليه السلام كان في غزوة، فأمرهم بالنزول، فقال له سعد^(١): يا رسول الله، إن كان دناء بأمرك، فسمع وطاعة، وإن كان غير ذلك فليس بمنزل، فسمع منه النبي عليه السلام، وقال: ارتحلوا.

ومن أقبح ما يوصف به الرجال، -ملوكاً كانوا أو سوقة- الاستبداد بالرأى، وترك المشاورة. وسن عقد للمشاورة باباً إن شاء الله تعالى.

والخصلة الثالثة: ما روى البخارى ومسلم وغيرهما، أن رجلاً قال يا رسول الله: استعملنى، فقال النبي ﷺ: «إِنَّا لَا نَسْتَعْمَلُ عَلَى عَمَلِنَا مَنْ أَرَادَهُ»^(٢) والسر فيه: أن الولايات أمانات، وتصرف في أرواح الخلائق وأموالهم، والتسرع إلى الأمانة دليل على الخيانة، وإنما يخطبها من يريد أكلها، وإذا

(١) سعد: المقصود سعد بن معاذ زعيم الأوس من الأنصار، استشهد في غزوة الخندق سنة ٦هـ، وقد ذكر ابن هشام في سيرته: أن صاحب هذا الاقتراح هو الحباب بن المنذر بن الجموح، حيث قال: يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمزلاً أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة». فأشار بأن يأتوا أدنى ماء من القوم فيشرب المسلمون ولا تشرب الكفار، ونزل الرسول ﷺ عند مشورته.

أما اقتراح سعد في هذه الغزوة (غزوة بدر) فكان بناء عريش للرسول ﷺ يكون فيه آمنة، (سيرة ابن هشام ج ٢/ ص ٦١٩-٦٢٠).

(٢) الحديث رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائي والإمام أحمد عن أبى موسى، والحديث صحيح (الجامع الصغير / السيوطى ج ١/ ١٠١، رقم: ٢٥٢٢)، ومعنى استعملنى: أى أسند لى عملاً.

أَوْتَمَنُ خَائِنٌ عَلَى مَوْضِعِ الْأَمَانَاتِ كَانَ كَاسْتِرْعَاءِ الذُّبِّ عَلَى الْغَنَمِ، وَمِنْ هَذِهِ الْخَصْلَةِ تَفْسُدُ قُلُوبُ الرِّعَايَا عَلَى مَلُوكِهَا، لِأَنَّهُ إِذَا اهْتَضَمَتْ حَقُوقُهُمْ، وَأَكَلَتْ أَمْوَالُهُمْ، فَسَدَتْ نِيَّاتُهُمْ، وَأَطْلَقُوا أَلْسِنَتَهُمْ بِالِدُّعَاءِ وَالتَّشْكِيِّ، وَذَكَرُوا سَائِرَ الْمُلُوكِ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، فَكَانُوا كَالْبَيْتِ السَّائِرِ الَّذِي أَنْشَدْنَاهُ:

وَرَاعَى الشَّاةَ يَحْمِي الذُّبَّ عَنْهَا فَكَيْفَ إِذَا الرُّعَاةُ لَهَا ذُنُوبٌ
وَإِذَا خَانَ أَهْلُ الْأَمَانَاتِ، وَفَسَدَ أَهْلُ الْوَلَايَاتِ، كَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ:

بِالْمَلْحِ يُصْلَحُ مَا يُخْشَى تَغْيِيرُهُ فَكَيْفَ بِالْمَلْحِ إِنْ حَلَّتْ بِهِ الْغَيْرُ^(١)
وَقَالَ آخِرُ:

ذُبُّ تَرَاهُ مُصَلِّيًا فَإِذَا مَرَرْتَ بِهِ رَكَعٌ
يَدْعُو وَجُلُّ دُعَائِهِ مَا لِلْفَرِيسَةِ لَا تَقَعُ
عَجَلُ بِهَا يَا ذَا الْعُلَا إِنَّ الْفُؤَادَ قَدْ انْصَدَعُ

وَمِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ التَّصَدَّى لِلْأَمَانَةِ وَخُطْبَةُ الْوَلَايَةِ.

وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تَكُونَ الزَّكَاةُ مَغْرَمًا وَالْأَمَانَةُ مَغْنَمًا»^(٢) فَحِينَئِذٍ يَدْعُو عَلَيْهِ الضَّعِيفُ وَأَهْلُ الصَّلَاحِ، وَيَقْعَدُ لَهُ بِالْمَرَاصِدِ الشَّرِيرِ، وَيُخَامِرُ عَلَيْهِ الْقَوَى، وَيَقْبُحُ ثَنَاؤُهُ عِنْدَ الْجَمَاعَةِ، وَيَتَمَنُّونَ الرَّاحَةَ مِنْهُ، وَيَنْظُرُونَ مَنْ يَصْلَحُ لَهَا^(٣) سِوَاهُ.

* * *

(١) الْغَيْرُ: الْأَحْدَاثُ الْمُتَغَيِّرَةُ.

(٢) الْحَدِيثُ: جُزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ طَوِيلٍ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَلِيٍّ بَلَفَظَ: «إِذَا فَعَلْتَ أَمْتَى خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً حُلَّ بِهَا الْبَلَاءُ...» وَذَكَرَ مِنْهَا: «أَنْ تَكُونَ الْأَمَانَةُ مَغْنَمًا، وَالزَّكَاةُ مَغْرَمًا». قَالَ السِّيُوطِيُّ: الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ (الْجَامِعُ الصَّغِيرُ رَقْمُ ٧٧٤).

(٣) أَى لِلْوَلَايَةِ.

الباب الحادى عشر

فى بيان معرفة الخصال

التي هى قواعد السلطان، ولا ثبات له دونها

فأولُ الخصال وأحقُّها بالرعاية العدل الذى هو قوامُ المُلْك، ودوامُ الدُّول، وأُسُّ كل مملكة، سواء كانت نبويةً أو إصلاحية .

اعلم ارشدك الله : أن الله تعالى أمر بالعدل ، ثم علم سبحانه أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل ، بل تطلبُ الإحسان ، وهو فوق العدل ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ [النحل: ٩٠] فلو وسع الخلق العدل ، ما قرن الله به الإحسان ، فمن لم يصلح حتى يزداد على العدل ، كيف يصلح إذا لم يبلغ به العدل ؟

والعدل ميزان الله تعالى فى الأرض ، الذى به يؤخذ للضعيف من القوى ، وللمحق من المبطّل ، وليس موضعُ الميزان بين الرعية فقط ، بل بين السلطان والرعية أيضا ، فمن أزال ميزان الله الذى وضعه من القيام بالقسط ، فقد تعرض لسخط الله تعالى .

واعلم أيها الوالى : أن المُلْكَ بمنزلة رَجُل ، فرأسه أنت ، وقلبه وزيرك ، ويده أعوانك ورجلاه رعيتك ، وروحه عدلك ، وما بقاء جسد بلا روح .

وإذا أردت ذروة العدل ، فاعلم أن الرعية ثلاثة أنفُس : كبير ، وصغير ، وسط ، فاجعل كبيرهم أبا ، وأوسطهم أخا ، وصغيرهم ابنا ، فبرّ أباك ، وأكرم أخاك ، وارحم ابنك ، فإنك واصل بذلك إلى بر الله ، وكرامته ورحمته .

واعلم أن عدلَ الملك ، يوجبُ الاجتماع عليه ، وجوره يوجبُ الافتراق عنه .

عدل الملك حياة رعيته : وفى منشور الحكم : سلطان جائر اربعين عاما ، خير من رعية مهملة ساعة واحدة من النهار . إذا عدل السلطان فيما قرب منه ، صلح له ما بعد عنه . فضل الملوك فى الإعطاء ، وشرفها فى العفو ، وعزها فى العدل .

عدّة السلطان ثلاثة : مشاورة النُصحاء ، وثبات نيّات الأعوان ، وإقامة سوق العدل ، أفضل الأزمنة أزمنة أئمة العدل .

والعدل ينقسم قسمين :

قسمٌ : إلهى جاءت به الرّسل والأنبياء عليهم السلام ، عن الله تعالى ،
والثانى : ما يشبه العدل وهو السياسة الإصلاحية التى هرم عليها الكبير ،
ونشأ عليها الصغير ، وبعيدٌ أن يبقى سلطان أو تستقيم رعية فى حال إيمان أو
كفر بلا عدل قائم ، ولا ترتيبٌ للأمور ثابت ، فذلك ما لا يجوز ولا يمكن .

وقد ذكرنا فى أول الكتاب : أن سليمان بن داود - عليهما السلام - سلب
ملكه ، حين جلس الخصمان بين يديه ، وكان لأحدهما خاصة بسليمان ، فقال
فى نفسه : وددت أن يكون الحق لخاصّتى ، فأقضى له ، فسلبه الله تعالى
ملكه ، وقعد الشيطان على كرسيّه .

فاجعل العدل رأسُ سياستك ، فتسقطُ عنك جميعُ الآفات المفسدة
للسياسة ، وتقوم لك جميعُ الشرائط التى تقوم بها المملكة .

قال عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه : إمامٌ عادلٌ خيرٌ من مطرٍ وابلٍ^(١) ،
وأسدٌ حطومٍ^(٢) خيرٌ من سلطانٍ ظلومٍ ، وسلطانٌ ظلومٌ خيرٌ من فتنةٍ تدوم .

وقال ابن مسعود : إذا كان الإمام عادلاً ، فله الأجر وعليك الشكر ، وإن كان
جائراً ، فعليه الوزر وعليك الصبر .

وقال سليمان بن داود عليهما السلام ، الرحمة والعدل يحرزان الملك .
واتفق حكماء العرب والعجم على هذه الكلمات ، فقالوا : المُلْكُ بناءٌ
والجُنْدُ أساسه ، فإذا قوّي الأساس دام البناء ، وإن ضَعُفَ الأساس انهار البناء ،
فلا سلطانٌ إلا بجندٍ ولا جندٌ إلا بمالٍ ، ولا مالٌ إلا بجبايةٍ ، ولا جبايةٌ إلا
بعمارةٍ ، ولا عمارةٌ إلا بعدلٍ ، فصار العدل أساساً لسائر الأساسات .

فأما العدل النبوى (فجملة القول فيه)^(٣) : أن يجمع السلطان إلى نفسه
حَمَلَةَ العلم ، الذين هم حُفَاظُهُ ورعاته وفقهاؤه ، وهم الأدلّاء على الله تعالى ،
والقائمون بأمر الله ، والحافظون لحدود الله ، والناصحون لعباد الله .

وروى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : «إن الدين النَّصِيحَةُ ، إن الدين

(١) المطر الوابل : المطر الشديد .

(٢) الأسد الحطوم : الشديد القوة ، من أسماء الأسد «المحطّم» لأنه يحطم كل شىء يأتى عليه .

(٣) سقطت من (ط) .

النصيحة، إِنَّ الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه
ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم^(١).

فاتخذ أيها الملك العلماء شعارا، والصالحين دثارا، فتدور المملكة بين
نصائح العلماء، ودعوات الصلحاء، وأخلق بملك يدور بين هاتين الخصلتين،
أن تقوم عُمْدُهُ، ويطول أمدُهُ، وكيف لا؟ وقد فرقهم الله في سلطانه،
واصطفاهم بخالص معرفته، فقال جلَّ من قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فبدأ بنفسه، وثنى
بملائكته، وثلث بأولي العلم، وهم ورثة الأنبياء عليهم السلام، الموفقون عن
الله تعالى، لأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، ففي
تعظيمهم وتقريبهم امتثال لأمر الله تعالى، وتعظيم لمن اثنى عليه، ويجب
ترفع مجالسهم، وتمييز مواضعهم عن سواهم، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وفيه استمالة قلوب الرعية، وخلوص نيّاتهم لسلطانهم، واجتماعهم على
محبه وتوقيره.

فواجب على السلطان أن لا يقطع أمرا دونهم، ولا يفصل حكما إلا
بمشاورتهم، لانه في ملك الله يحكم، وفي شريعته يتصرف.

وأقل الواجبات على السلطان: أن يُنزل نفسه مع الله منزلة ولاته معه،
أليس إذا خالف وإليه أمره، وما رسمه له من الأحكام عزله وعاقبه، ولم يأمن
سطوته؟ وإذا امتثل أوامره وازدجر من زواجره، حلَّ منه محل الرضا؟ فواجبا
لمن يغضب على وإليه إذا خالفه، ثم لا يخاف سطوة ربّه عليه إذا خالفه!

فهذه طريق إقامة العدل الشرعي، والسياسة الإسلامية الجامعة لوجوه
المصلحة، الآخذة لأزمة التدبير، والسالمة من العيوب، الممهدة لاستقامة
الدنيا والدين.

وكما أن الملك الحازم لا يتم حزمه إلا بمشاورة الوزراء والأخيار، كذلك لا
يتمهف عدله إلا باستفتاء العلماء الأبرار.

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم عن تميم الداري، ورواه النسائي والترمذي عن أبي هريرة، والحديث
صحيح (الجامع الصغير/ للسيوطي ج ١/ ٧٩، رقم: ١٩٦٨).

وقد وَقَعَ المأمون^(١) في قصة مُتَطَلِّم، من عمرو بن مسعدة^(٢): (يا عمرو، اعمر نعمتك بالعدل، فإن الجور يهدمها) وفي إشاعة العدل قوة القلب، وطيبة النفس، ولزوم اليقين، وأمان من العدو.

ولما استأذن الهُرمزان^(٣) على عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لم يجد عنده حاجباً ولا بواباً، ف قيل له: هو في المسجد، فأتى المسجد، فوجده مستلقياً، متوسداً كوماً من الحصباء، ودرته بين يديه، فقال له: عدلت فأمنت فمنت.

وقال الحسن: رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه، وقد جمع الحصباء في مسجد النبي عليه السلام عند رأسه، وقد وضع أحد جانبي رداءه عليه - وهو يومئذ أمير المؤمنين - ما عنده أحد من الناس، ودرته بين يديه.

وكتب عامل حمص إلى عمر بن عبد العزيز، أن مدينة حمص قد تهدمت، واحتاجت إلى إصلاح، فكتب إليه عمر: «صنّها بالعدل، ونقّ طرقها من الجور، والسلام».

وقالت الحكماء: من حرم العدل فلا خير فيه، ولا خير^(٤) للناس في سلطانه.

وقال يحيى بن أكثم^(٥): ما شئت المأمون في بستان، والشمس عن يسارى

(١) المأمون: المأمون بن هارون الرشيد الخليفة العباسي السابع، قتل أخاه الأمين وخلفه، ثم خلفه أخوه المعتصم، توفي سنة ٢١٨هـ، وقد سبقت ترجمته (الأعلام ٤ / ١٤٢).

(٢) عمرو بن مسعدة: هو وزير المأمون، ومن أبلغ كُتّابيه، كان يوقع بين يدي جعفر البرمكي أيام الرشيد واتصل بالمأمون فرفع مكانته، كان جواداً نبيلاً، توفي سنة ٢١٥هـ (الأعلام ٥ / ٨٦).

(٣) الهرمزان: من ملوك الفرس وأمراء الجيش الفارسي، قاوم المسلمين وانهزم في معركة القادسية سنة ١٤هـ، وجيء به أسيراً إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ولم يجدوه في بيته بل في المسجد نائماً متوسداً الحصباء... ولما أسلم سمّاه عمر رضى الله عنه «عُرفطة»؛ ولما قتل عمر بن الخطاب على يد أبي لؤلؤة المجوسي جرد عبيد الله بن عمر سيفه وقتله مع اثنين من الأعاجم هما بنت أبي لؤلؤة ورجل يقال له «جفينة». (انظر المعارف لابن قتيبة ١٨٧ و ٤٢١).

(٤) سقطت من (ط).

(٥) يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي الأسدي، قاض رفيع القدر عالي الشهرة يتصل نسبه بأكثم بن صيفى حكيم العرب، اتصل بالمأمون فاستولى على قلبه، فولّاه البصرة، ثم قضاء القضاة ببغداد، وأضاف إليه تدبير مملكته فكان وزراء الدولة لا يقدمون شيئاً إلا بعد عرضه عليه، أخباره كثيرة جداً، توفي بالربذة سنة ٢٤٢هـ (الأعلام ٨ / ١٣٨، وفيات الأعيان ٦ / ١٤٧).

والمأمون في الظل، فلما رجعنا وقعت الشمس أيضاً عليّ، فقال لي المأمون: تحوّل مكاني وأتحوّل مكانك، حتى تكون في الظل كما كنت، وأقيد الشمس كما وقّيتني، فإن أول العدل أن يعدل الرجل على بطانته، ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ العدل الطبقة السفلى، فعزم عليّ^(١)، فتحولت.

وكان يقال: ليس شيء أبعد من بقاء ملك الغاصب.

وقيل للإسكندر^(٢): لو أكثرت من النساء حتى يكثر نسلك ويحيا ذكرك، فقال: إنما يحيي الذكر الأفعال الجميلة، والسيرة الحميدة، ولا يحسن بمن يغلب الرجال أن تغلبه النساء.

وقال الحكيم: من اتخذ العدل سناً كان له أحسن جنة^(٣)، ومن استشعر حلة العدل، استكمل زينة الفضل.

وقال أبو عبد الله عبيد الله بن عبد الله بن مسعود^(٤): إن الإمام العادل ليسكت الأصوات عن الله، وإن الإمام الجائر، لتكثر منه الشكاية إلى الله تعالى.

وقال الحكيم: لا يزال السلطان ممهلاً، حتى يتخطى إلى أركان العمارة ومباني الشريعة، فحينئذ يريح الله منه.

وقالوا: لا تظلم الضعفاء فتكون من لئام الأقوياء.

وقال بعض الحكماء:

- أميرٌ بلا عدل: كغيم بلا مطر.

- وعالمٌ بلا ورع: كأرض بلا نبات.

- وشابٌ بلا توبة: كشجر بلا ثمر.

- وغنيٌ بلا سخاء: كقفل بلا مفتاح.

- وفقيرٌ بلا صبر: كسراج بلا ضوء.

- وامرأةٌ بلا حياء: كقطعام بلا ملح.

(١) عزم علي: أقسم علي.

(٢) الإسكندر: سبقت ترجمته.

(٣) جنة: وقاية.

(٤) أبو عبد الله عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي ابن أخى عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ مفتي المدينة وأحد الفقهاء السبعة، من أعلام التابعين، مؤدب عمر بن عبدالعزيز، كان ثقة عالماً فقيهاً شاعراً، مات بالمدينة سنة ٩٨ هـ (الأعلام: ٤ / ١٩٥).

وقال كسرى^(١) : اتفقت ملوك العجم على أربع خصال : أن الطعام لا يؤكل إلا على شهوة، والمرأة لا تنظر إلا إلى زوجها، والملك لا يصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل،

وأحق الناس بإجبار نفسه على العدل الملوك، الذي بعدلهم يعدل من دونهم، والذين إذا قالوا أو فعلوا، كان نافذا غير مردود.

وقالت الحكماء : رُم ما شئت بالإنصاف، وأنا زعيم لك بالظفر به، والظلم أدعى شيء إلى تغيير نعمة أو تعجيل نقمة.

وقال الحكيم : شرُّ الزَّادِ إلى المعاد الذنب بعد الذنب، وشر من هذا العدوان على العباد، ومتى أراد السلطان حسن الصَّيت^(٢)، وجميل الذكر، فليقم سوق العدل، وإن أحبَّ الزُّلفى عند الله^(٣) وشرفَ المنزلة عنده، فليقم سوق العدل، وإن أحبَّهما جميعا فليقم سوق العدل.

والذي يخلد به ذكر الملوك على غابر الدهور، عدلٌ واضح، أو جورٌ فاضح، هذا يوجب له الرحمة، وهذا يوجب له اللعنة.

أما القسم الثانى من العدل وهو السياسة الإصلاحية :

- وإن كان أصلها على الجور- فيقوم بها أمر الدنيا، وكأنها تُشاكل^(٤) مراتب الإنصاف، على نحو ما كانت عليه ملوك الطوائف فى أيام الفرس، وكانوا كفارا يعبدون النيران، ويتبعون هواجس الشيطان، فوضعوا بينهم سننا، وأسسوا لهم أحكاما، وأقاموا لهم مراتب فى النِّصْفَةِ بين الرعايا، واستجَبَاء الخراجات^(٥)، وتوظيف المَكُوس^(٦) على التَّجارات، كل ذلك بعقولهم على وجوه ما أنزل الله بها من سلطان، ولا نصَّب عليها من برهان، بيد أنه لما جاءت الشريعة من عند الله تعالى على لسان نبيه، صاحب المعجزة محمد ﷺ، فمنها ما أقرته فى نصابه، ومنها ما نسخته وأبطلت

(١) كسرى : سبقت ترجمته.

(٢) الصيت : الذكر الحسن.

(٣) الزلفى إلى الله : التقرب إليه.

(٤) تشاكل : تشابه.

(٥) اسجباء الخراجات : أى جباية الخراج، (المال المفروض على الأرض أو الجزية).

(٦) المكوس : دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى أسواق الجاهلية، أو ما يأخذه أعوان الدولة عن أشياء معينة عند بيعها أو عند إدخالها المدن.

حكمه، فعادت الحكمة البالغة إلى الله تعالى، والحكم بما أنزل الله، وبطل ما سواه، وكان ملكهم محفوظا برعاياتهم للقوانين المألوفة بينهم، فانقطع بذلك حبل الهمل^(١)، فكانوا يقيمون بها واجب الحقوق، ويتعاطون بها ما لهم وما عليهم، ومن هذا كان يقال: إن السلطان الكافر الحافظ لشرائط السياسة الإصلاحية، أبقى وأقوى من السلطان المؤمن العدل في نفسه، المضيع للسياسة النبوية العدلية، والجور المرتب أبقى من العدل المهمل، إذ لا شيء أصلح لأمر السلطان من ترتيب الأمور، ولا شيء أفسد له من إهمالها. واعلم أن درهما يؤخذ من الرعية، على وجه الإهمال والخرق^(٢) - وإن كان عدلا - أفسد لقلوبها من عشرة تؤخذ منها سياسية على زمام معروف، ورسم مألوف، وإن كان جورا، فلا يقوم السلطان لأهل الإيمان ولا لأهل الكفران إلا بإقامة العدل النبوي، وما يشبه العدل من الترتيب الاصطلاحي.

وقال ابن المقفع^(٣): الملوك ثلاثة: ملك دين، وملك حزم، وملك هوى. فأما ملك الدين: فإنه إذا أقام لأهل المملكة دينهم كانوا راضيين، وكان السائح فيهم بمنزلة الراضى.

وأما ملك الحزم: فيقوم به الأمر، ولا يسلم من الطعن والسخط، ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوي.

وأما ملك الهوى: فلعب ساعة ودمار دهر.

ولقد بلغنا أن ملكا من ملوك الهند نزل به صمم، فأصبح موجعا مهتما بأمر المظلومين، وأنه لا يسمع استغاثتهم، فأمر مناديه أن لا يلبس في مملكته ثوبا أحمر إلا مظلوم، وقال: لئن منعت سمعى لم أُنمَ بصري، فكان كل من ظلم لبس ثوبا أحمر ووقف تحت قصره، فكشف عن ظلامته.

(١) الهمل: الإهمال.

(٢) الخرق: سوء التصرف والجهل.

(٣) عبد الله بن المقفع: مؤلف عربي فارسي الأصل ولد في العراق سنة ١٠٦ هـ، كان مجوسيا وأسلم فتسمى عبد الله وكنى بأبي محمد، ولقب بالمقفع لأن الحجاج ضربه حتى تقفعت يداه. وهو من من أئمة الكتاب، ترجم كتب أرسطو الثلاثة في المنطق للخليفة المنصور، وترجم عن الفارسية كتاب «كليلة ودمنة»، اتهم بالزندقة فقتله أمير البصرة بأمر من المنصور سنة ١٣٨ هـ. (الأعلام ١٤٠/٤، وفيات الأعيان ١٥١/٢).

وأخبرني أبو العباس الحجازيَّ وكان ممَّن دخل الصين بسيرة عجيبة غريبة، لملوكها في سياستهم، وذلك أن للبيت الذي يكون فيه الملك ناقوساً موصولاً بسلسلة، وطرفُ السلسلة في خارج الطريق، وعليها أمناء للسلطان وحَفَظَة، فيأتى المظلوم فيحرك السلسلة، فيسمعُ الملكُ صوتَ الناقوس، فيأمر بإدخال المظلوم، فكل من حرَّك السلسلة تمسكه تلك الحَفَظَة، حتى تُدخله على السلطان.

* * *

الباب الثانى عشر

فى التنصيص على الخصال التى زعم الملوك

أنها أزالَت دولتهم وهدمت سلاطنتهم

أيُّها الملك : احرصْ كلَّ الحرص على أن تكون خبيراً بأمور عَمَّالِكَ ، فإنَّ المُسيءَ يَفَرِّقُ من خُبْرِكَ به ^(١) ، قبل أن تصيبه عقوبتُكَ ، والمحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتية ثوابك .

قال أبو جعفر المنصور ^(٢) : وما زال أمر بنى أمية مستقيماً حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المُتْرِفين ، فكانت همَّتُهُم - من عظيم شأن الملك وجلالة قدره - قصد الشهوات ، وإيثار اللذات ، والدخول فى معاصى الله ومساخطه ، جهلاً منهم باستدراج الله تعالى ، وأمناً لمكره ، فَسَلَبَهُمُ الله تعالى العزَّ ، ونقل عنهم النعمة .

قال عبيد الله بن مروان ^(٣) - ومروان هذا هو المعروف : بمروان الحمار ، وهو آخر ملوك بنى أمية ، قُتِلَ فى أرض مصر فى كورة بوصير - ^(٤) لما زال ملكنا ، وهربت إلى أرض النوبة ، فيمن اتَّبَعْنى من أصحابى ، فسمع ملك النوبة بخبرى ، فجاءنى فقعده على الأرض ولم يقعد على فراش افترشته ، فقلت له : ألا تقعد على ثيابنا ؟ قال لا ، قلت : ولم ؟ قال : لأننى ملك ، وَحَقٌّ على كُلِّ ملك أن يتواضع لأمر الله سبحانه وتعالى إذ رفعه . ثم قال لي : لِمَ تشربون الخمر وهى محرمةٌ عليكم ؟ ولم تطئون الزرع بدَوَابِكُمْ والفساد محرَّمٌ عليكم ؟ ولم تستعملون الذهب والفضة وتلبسون الديباج والحرير وهو محرَّمٌ عليكم ؟

(١) فى (خ) أن المسيء يفرق من معرفتك به .

(٢) أبو جعفر المنصور : الخليفة العباسى الثانى ، سبقت ترجمته .

(٣) مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية لقَّبَ بالحمار لجرأته فى الحروب ولُقِّبَ بالجعدى نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم ، هزمه العباسيون فى معركة الزاب وقتل فى مصر سنة ١٣٢هـ ، وكان له ولدان عبيد الله وعبد الله ، أما عبيد الله فقد قتل بعد أبيه ولا عقب له ، وأما عبد الله فكان جعله والده ولى عهده بعده ، سجن فى بغداد حتى مات زمن الرشيد (الأعلام ٢٠٨ / ٧ ، المعارف لابن قتيبة ص ٣٧٢) .

(٤) كورة بوصير : اسم يطلق على أربع قرى فى مصر .

فقلت : زالَ عَنَّا الملكُ ، فَقَلَّ أنصارُنا ، وانتصرنا بقومٍ من الأعاجم دخلوا ديننا ، ولنا عبيدٌ وأتباعٌ فعلوا ذلك على كُرْهِ منّا ، فأطرق ملياً -يَقْلَبُ كَفَّيْهِ وينكُتُ في الأرض- ثم قال : ليس كما ذكرت ، بل أنتم قومٌ استحللتم ما حرم الله ، وظلمتم فيما مَلَكَتُمْ ، فسلبكم الله العزَّ بذنوبكم ، ولله فيكم نَقْمَةٌ لم تبلغ غايَتَها ، وأخافُ أن يحلَّ بكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيبني معكم ، وإنّما الضيافة ثلاثة أيام ، فتزوّدوا ما احتجتم إليه ، وارتحلوا عن بلدي . فتزوّدنا وارتحلنا .

وسُئِلَ بزرجمهر^(١) : ما بال مُلْكِ آلِ ساسان^(٢) صار إلى ما صار إليه ، بعد أن كان فيه من قوّة السلطان ، وشدّة الأركان ؟ فقال : ذلك لأنهم قَلَدُوا كبار الأعمال صغار الرجال .

وعن هذا قالت الحكماء : موت ألف من العلية^(٣) ، أقلُّ ضرراً من ارتفاع واحد من السَفَلَةِ .

وفي الأمثال : إن زوال الدول باصطناع السَفَلِ .

وقال الشافعي^(٤) رضى الله عنه : أظلم الناس لنفسه اللئيم ، إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، واستخفَّ بالأشراف ، وتكبرَّ على ذوي الفضل .

وسُئِلَ بعضُ الملوك - بعد زوال مُلْكِهِ - ما الذى سلبك ملكك ؟ قال : إعطاؤنا من بطَرٍ وَطَعَى ، ورفعُ عمل اليوم لَغد .

وسُئِلَ بعضُ الملوك - بعد أن سلبوا مُلْكَهُمْ - ما الذى سلب عزَّكم ، وهدم مُلْكَكُمْ ؟ فقال : شغلّنا لذاتنا عن التفرُّغ لمهماتنا . ووثقنا بكُفّاتنا^(٥) ، فأثروا مُرافَقَهُمْ علينا . وظَلَمَ عَمَالُنَا رعيّتنا فانفسدت نيّاتهم لنا ، وتمنّوا الراحة منا .

(١) بزرجمهر : من حكماء الفرس وكان وزيراً لأنوشروان .

(٢) آل ساسان : ملوك الفرس .

(٣) العلية : أى علية القوم وأمرأؤهم .

(٤) الإمام الشافعي : محمد بن إدريس ، وُلِدَ في غزّة بفلسطين ، ونشأ في مكة ، ودرس على الإمام مالك في المدينة ، وهو إمام ومؤسس المذهب الشافعي (أحد المذاهب الققهية الأربعة) ، توفي في مصر سنة ٢٠٤ هـ ، وقبره معروف في القاهرة بسفح جبل المقطم ، (الأعلام ٢٦ / ٦) .

(٥) كفّاتنا : من يقومون مقامنا .

وَحُمِلَ عَلَى أَهْلِ خَرَجَانَا^(١) فَقُلَّ دَخْلُنَا وَبَطَلَ عَطَاءُ عَبِيدِنَا، فَزَالَتِ الطَّاعَةُ مِنْهُمْ لَنَا. وَقَصَدْنَا عَدُوَّنَا فَقُلَّ نَاصِرُنَا. وَكَانَ أَعْظَمُ مَا زَالَ بِهِ مَلَكُنَا، اسْتِتَارُ الْأَخْبَارِ عَنَّا.

وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ: أَسْرَعُ الْخِصَالِ فِي هَدْمِ السُّلْطَانِ، وَأَعْظَمُهَا وَأَسْرَعُهَا فِي إِفْسَادِهِ وَتَفْرِيقِ الْجَمْعِ عَنْهُ، إِظْهَارُ الْمُحَابَاةِ^(٢) لِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ، وَالْمِيلُ إِلَى قَبِيلَةٍ دُونَ قَبِيلَةٍ، فَمَتَى أَعْلَنَ بِحُبِّ قَبِيلَةٍ، فَقَدْ بَرَّئَ مِنْ قِبَائِلٍ، وَقَدِيمًا قِيلَ: الْمُحَابَاةُ مُفْسَدَةٌ.

وَقَالَ مَهْيُودُ الْمُوْبِذَانِ^(٣): مِنْ زَوَالِ السُّلْطَانِ: تَقْرِيبٌ مِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُبَاعَدَ، وَمُبَاعَدَةٌ مِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُقَرَّبَ، وَحِينَئِذٍ حَانَ أَوَانُ الْغَدْرِ.

وَقِيلَ لِمَلِكٍ بَعْدَ ذَهَابِ مُلْكِهِ: مَا الَّذِي أَذْهَبَ مُلْكَكُمْ؟ قَالَ: ثَقُتِي بِدَوْلَتِي، وَاسْتَبْدَادِي بِمَعْرِفَتِي، وَإِغْفَالِي اسْتِشَارَتِي، وَإِعْجَابِي بِشِدَّتِي، وَإِضَاعَتِي الْحِيلَةَ وَقْتَ حَاجَتِي، وَالتَّأَنِّيَ عِنْدَ الْعَجَلَةِ.

وَلَمَّا أُحِيطَ بِمُرْوَانَ الْجَعْدِيِّ^(٤) وَهُوَ آخِرُ مَلُوكِ بَنِي أُمَيَّةَ، قَالَ: يَا لَهْفَاهُ عَلَى دَوْلَةٍ مَا نَصُرْتُ وَكَفَّ مَا ظَفَرْتُ، وَنِعْمَةٌ مَا شُكِرْتُ، فَقَالَ لَهُ خَادِمُهُ (نَسِيلُ) - وَكَانَ مِنْ أَوْلَادِ أَشْرَافِ الرُّومِ -: مِنْ أَغْفَلَ الصَّغِيرَ حَتَّى يَكْبُرَ، وَالْقَلِيلَ حَتَّى يَكْثُرَ، وَالْخَفِيَّ حَتَّى يَظْهَرَ، أَصَابَهُ مِثْلُ هَذَا.

وَسُئِلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: مَا الَّذِي أَذْهَبَ مَلِكَ بَنِي مُرْوَانَ؟^(٥) قَالَ: تَحَاسَدَ الْأَكْفَاءُ، وَانْقِطَاعَ الْأَخْبَارِ، وَذَلِكَ أَنَّ يَزِيدَ بْنَ عُمَرَ^(٦) كَانَ يَحِبُّ أَنْ يَضَعَ مَنْ

(١) حُمِلَ عَلَى أَهْلِ الْخَرَجِ: الْخَرَجُ الْجُزْيَةُ أَوْ الْمَالُ الْمَفْرُوضُ عَلَى الْأَرْضِ، وَمَعْنَى حُمِلَ عَلَيْهِمْ أَيْ أَثْقَلَ عَلَيْهِمْ.

(٢) حَابِي مُحَابَاةٍ وَحَبَاءُ الرَّجُلِ: أَيْ نَصْرُهُ وَمَالٌ إِلَيْهِ وَاخْتَصَهُ دُونَ سِوَاهُ.

(٣) الْمُوْبِذَانِ: كَلِمَةٌ فَارْسِيَّةٌ وَتَعْنِي الْقَاضِي أَوْ رَئِيسَ الْقَوْمِ.

(٤) يَقْصِدُ مُرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ (مُرْوَانَ الْحِمَارِ)، آخِرَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ، قُتِلَ سَنَةَ ١٣٢ هـ، وَكَانَ يَلْقَبُ

بِمُرْوَانَ الْجَعْدِيِّ نِسْبَةً إِلَى مَعْلَمِهِ الْجَعْدِ بْنِ دُرْهَمٍ. (سَبَقَتْ تَرْجُمَتُهُ).

(٥) فِي (خ) مَلِكِ بَنِي أُمَيَّةَ.

(٦) فِي (ط) يَزِيدُ بْنُ عُمَرَ خَطَا، وَالْمَقْصُودُ يَزِيدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ مِنْ بَنِي فِزَارَةَ، قَائِدُ وَأَمِيرُ

جَمَعَتْ لَهُ وَلَايَةُ الْعِرَاقِ أَيَّامَ مُرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ، قَاتَلَهُ الْعَبَّاسِيُّونَ حَتَّى تَعَبُوا ثُمَّ أَعْطَوْهُ الْأَمَانَ، وَلَكِنْ السَّفَاحُ نَقَضَ عَهْدَهُ مَعَهُ وَبَعَثَ إِلَيْهِ مِنْ قَتْلِهِ سَنَةَ ١٣٢ هـ، (الْأَعْلَامُ ٨ / ١٨٥).

نصر بن سيار^(١)، وكان لا يمدده بالرجال، ولا يرفع إلى السلطان ما يرد عليه من أخبار خراسان، فلما رأى ذلك نصر بن سيار قال :

أرى خلل الرَّمَادِ وَمِیْضَ نَارٍ فَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضَرَامٌ
وَأَنَّ لِنَارٍ بِالْعُودَيْنِ تَذْكَو وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوْلُّهَا الْكَلَامُ
فَقُلْتُ تَجَاهُلًا، يَا لَيْتَ شِعْرِي أَلْيَقَاطُ أُمِّيَّةٌ؟ أَمْ نِيَامٌ؟

وكان العباسيون يؤسسون لدولتهم، ولا تصل أخبارهم إلى بني أمية، حتى استنحل أمرهم، وضعف أمر بني أمية.

وسئل مروان بن محمد الجعدي، -وهو آخر ملوك بني أمية- : ما الذى أضعف ملكك بعد قوة السلطان، وثبات الأركان؟ فقال : الاستبداد برأىي، لما كثرت عليّ كُتُب نصر بن سيار أن أمدّه بالأموال والرجال، قلتُ فى نفسى : هذا رجل يريد الاستكثار من الأموال بما يظهر من فساد الدولة قبله، وهيهات أن ينتقض على خراسان^(٢)، فانتقضت دولته من خراسان.

* * *

(١) نصر بن سيار: كان والياً على خراسان من قبل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وقد قاتل هناك أبا مسلم الخراسانى الذى كان يدعو للعباسيين، وقد دخل أبو مسلم دار الإمارة التى بها نصر بن سيار سنة ١٣٠هـ، فخرج هذا مع نفر من أصحابه ثم حوَّصر فى كل مكان يلجأ إليه حتى مات سنة ١٣١هـ، وكان خطيباً شاعراً ومن أصحاب الحروب والتدبير والعقل السديد (الأعلام ٨/ ٢٣).

(٢) هيهات، أن ينتقض على خراسان: أى من المستبعد أن يخلع أهل خراسان طاعته.

الباب الثالث عشر

فى الصفات الراتبة

التى زعم الحلماء أنها لا تدوم معها مملكة^(١)

ومن أعجب العجائب : دوام المُلْك مع الكبر والإعجاب .

اعلموا : أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ، ويكسبان الرذائل ، لأن الكبر يكون بالمنزلة ، والعُجب يكون بالفضيلة ، والمتكبر يُجلُّ نفسه عن رتبة المتعلمين ، والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين ، وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصيح ، وقبول التأديب .

والكبر يكسبُ المقت ، ويمنعُ من التآلف ، وكل كبر ذكره الله تعالى فى القرآن مقرون بالشرك ، ولذلك قال النبي ﷺ للعباس : «أنهاك عن الشرك بالله والكبر ، فإن الله سبحانه يغضب منهما»^(٢) .

وقال أردشير بن بابك^(٣) : ما الكبر إلا حمق ، لم يدر صاحبه أين يذهب به ، فصرفه إلى الكبر .

وقال الأحنف بن قيس^(٤) : ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها فى نفسه .

ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر وتأنف منه . قال الشاعر :

فَتَى كَانَ عَذَبَ الرُّوحَ لَا مِنْ خِصَاصَةٍ وَلَكِنْ كِبَرًا أَنْ يُقَالَ بِهِ كِبَرُ

(١) فى (خ) الصفات الذاتية .

(٢) لم أجد هذا الحديث فى كتب الصحاح ، إلا أن الكاتب أخذ النص والحديث عن كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردي ص ٢٠٩ وما بعدها مع بعض التعديلات ؛ حيث ذكره الماوردي بلفظ : «فإن الله يحتجب منهما» . انظر : أدب الدنيا والدين للماوردي ، الفصل الأول ، فى مجانبة الكبر والإعجاب ص ٢٠٩ وما بعدها ، نشر المؤسسة العربية الحديثة - القاهرة .

(٣) أردشير بن بابك : مؤسس سلالة الساسانيين فى فارس ، فرض الزرادشتية ديانة لدولته ، مات سنة ٢٤١م ، (انظر : المعارف لابن قتيبة ص ٦٥٣) .

(٤) الأحنف بن قيس : سيد بني تميم فى البصرة ، ومن دهاة العرب الفصحاء والشجعان وقادتهم فى صدر الإسلام ، لقب بالأحنف لحنف أو اعوجاج فى رجله ، توفى سنة ٧٢هـ ، (الأعلام ٥ / ٢) .

ونظر أفلاطون^(١) إلى رجل جاهل معجب بنفسه، فقال : وددت أني مثلك في ظنك، وأن أعدائي مثلك في الحقيقة.

قالت الحكماء : قد يدوم الملك مع معظم النقائص، فرب فقير ساد قومه، ورب أحمق ساد قبيلته، منهم الأقرع بن حابس^(٢)، الذي قال فيه النبي ﷺ : « ذلك الأحمق المطاع »^(٣).

قالوا : ولا يدوم الملك مع الكبر، وحسبك من رذيلة تسلب السيادة، وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرّم الجنة على المتكبرين، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]، فقرن الكبر بالفساد، ومنعنا من دخول الجنة، وقال جل وعز : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. وقال بعض الحكماء : ما رأيت متكبراً إلا تحول داؤه في . يعنى : أنى أتكبر عليه. واعلم أن الكبر يوجب المقت، ومن مقتَه رجاله لم يستقم حاله، ومن أبغضته بطانته كان كمن غصّ بالماء، ومن كرهه الحماة تطاولت عليه الأعداء. وأما الإعجاب فيحمله على الاستبداد [بالرأى]^(٤)، وترك مشورة الرجال، ومن الصفات التي لا تقوم معها المملكة، الكذب، والغدر، والخبث، والجور، والسخف.

وقال حكماء العرب والعجم : ست خصال لا تغتفر من السلطان : الكذب، والخلف، والحسد، والحدة، والبخل، والجبن.

فإنه إذا كان كذاباً لم يوثق بوعدته ولا بوعيده، فلم يرجّ خيرَه، ولم يخف شره، ولا بهاء لسلطان لا يرهّب.

(١) أفلاطون : من فلاسفة اليونان المشهورين قبل الميلاد (٤٢٧-٣٤٧ ق.م)، تلميذ سقراط ومعلم أرسطو.

(٢) الأقرع بن حابس : صحابى، كان من حكماء العرب وساداتهم فى الجاهلية، أسلم مع وفد (دارم) من تميم عام الفتح سنة ٨هـ، ومات سنة ٣١هـ، (الأعلام ٢ / ٥).

(٣) صحيح أن الأقرع بن حابس كان يتصف بالكبر فقد ورد فى صحيح مسلم أنه قال لرسول الله ﷺ : «إن حملى زين وبغضى شين»، فقال الرسول ﷺ : «ذاكم الله عز وجل» إلا أننى لم أجد قوله له : «ذلك الأحمق المطاع»، ولعل الكاتب خلط بينه وبين «عيسنة بن حصن» فكلاهما من المؤلفة قلوبهم حيث وصف عيسنة بذلك الوصف، انظر : كتاب المعارف لابن قتيبة ص ٣٠٣ تحقيق : ثروت عكاشة، منشورات الشريف الرضى، وانظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسى، تحقيق : عبد السلام هارون ص ٢٥٦.

(٤) سقط كلمة الرأى من (ط).

وقالت الحكماء: خرابُ البلاد وفساد العباد، مقرونان بإبطال الوعد والوعيد من الملوك.

والكذب أسقط الأخلاق، وأغلب شيء على صاحبه، وأحرى أد، لا ينزع عنه لضراوته. وقيل لأعرابي: لِمَ لَمْ تَكْذِبْ؟ قال: لو تَعَزَّزْتُ بِهِ (١) مَا تَرَكْتَهُ. وهو نوع من الفحش، وضرب من الدناءة، وأصله استعذاب المُنَى، وهو أضغاث فكر الحمقى، ومن بليته: أنه يحمل على صاحبه ذنب غيره، فإذا سمعت بكذبة طائحة نسبت إليه.

قال الشاعر:

حَسْبُ الْكَذُوبِ مِنَ الْمَهَا نَ بَعْضُ مَا يُحْكِي عَلَيْهِ
وَإِذَا سَمِعْتَ بِكَذِبَةٍ مِنْ غَيْرِهِ نُسِبَتْ إِلَيْهِ

وقال غيره (٢):

لِي حِيلَةٌ فَيَمْنُ يَنْمُ وَلَيْسَ فِي الْكَذَابِ حِيلَةٌ
مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَقْوُ لُفْ حِيلَتِي فِيهِ قَلِيلَةٌ

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥].
وأما الحسد: فإنه إذا كان حسوداً لم يُشَرِّفْ أحداً، وإذا ضاعت الأشراف هلك الأتباع، ولا يصلح الناس إلا على أشرافهم.

قال الشاعر:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سُرَاةَ لَهُمْ وَلَا سُرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا
وأما البخل: فإذا كان بخيلاً لم يناصره أحد، ولا تصلح الولاية إلا بالمناصحة، وليس للملك أن يبخل، لأن بيوت الأموال في يديه.
وأما الجبن: فإذا كان جبناً أجتراً عليه عدوه وضاعت ثغوره.
وإذا كان حديداً غضوباً (٣)، والقدرة من ورائه هلك رعيته، وليس للملك أن يغضب، لأن القدرة وراء حاجته.

(١) تعززت به: أي صرت عزيزاً به.

(٢) نسب الأبيشي هي هذه الأبيات لشاعر اسمه: «محمود بن أبي الجنود» (انظر: المستطرف في كل فن مستظرف ١٧/٢).

(٣) من الحدة والغضب.

ولما دخل أسقف نجران^(١) على مصعب بن الزبير^(٢) كلمه بشيء أغضبه، فضرب وجهه بالقضيب فأدماه، فقال الأسقف: إن شاء الأمير أخبرته بما أنزل الله على عيسى عليه السلام؟ قال: قل. قال: لا تغضب بعدها؟ قال: هات، قال: لا ينبغي للإمام أن يكون سفيهاً ومنه يلتمس الحلم، ولا جائراً ومنه يلتمس العدل.

وقال الأوزاعي^(٣): يهلك السلطان بالاعجاب والاحتجاب، فأما الإعجاب فقد ذكرناه. وأما الإحتجاب: فهو أوحى^(٤) الخلال في هدم السلطان، وأسرعها خيراً بالدول^(٥)، فإنه إذا احتجب السلطان فكأنه قد مات، لأن الحجة موت حُكمي، فتعبث بطنته بأرواح الخلائق وحریمهم وأموالهم، لأن الظالم قد أمن أن لا يصل المظلوم إلى السلطان، ومعظم ما رأينا في أعمارنا، وسمعنا عن سبقتنا، من دخول الفساد على الملوك، من حجبته عن مباشرة الأمور، ولا تزال الرعية ذات سلطان واحد ما وصلوا إلى سلطانهم، فإذا احتجب فهناك سلاطين كثيرة.

أيها الملك المغرور، احتجبت عن الرعية بالحجاب والأبواب، وجعلت دونهم بروجاً مشيدةً، وحظائر بالحجارة والماء والطين مانعة، وبابُ الله مفتوحٌ للسائلين، ليس هناك حاجب ولا بواب، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧].

وقال معاوية: ليس بين أن يملك السلطان رعيته، أو تملكه رعيته، إلا الحزم والتواني، وكماله أمران: شدة في غير إفراط، ولين في غير امتهان. وسئل بزرجمهر: أي الملوك أحزم؟ قال: من ملك جدّه هزلّه، وقهر لُبّه

(١) أسقف نجران، من رؤساء النصارى، ولعله «قس بن ساعدة» فقد كان أسقف نجران على عهد النبي ﷺ.

(٢) مصعب بن الزبير: مصعب بن الزبير بن العوام، أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام، كان عضد أخيه عبد الله بن الزبير في تثبيت ملكه في الحجاز والعراق، تولى البصرة وضبط أمورها وقتل المختار الثقفي، ثم تجرد عبد الملك بن مروان لقتاله، وقتل سنة ٧١هـ. (الأعلام ٧/ ٢٤٧).

(٣) الأوزاعي: عبد الرحمن بن عمرو، ولد في بعلبك، من أئمة الفقهاء، وصاحب مذهب معروف، كان جريئاً احتج على ظلم الولاة، توفي في بيروت سنة ١٥٧هـ. (الأعلام ٣/ ٣٢٠).

(٤) أوحى: أي أسرع.

(٥) خراً بالدول: أي سقوطاً بها.

هواه، وأعرب عن ضميره فعله، ولم يخذعه رضاه عن حظّه، ولا غضبه عن كيده.

وقال بعض الحكماء: زوال الدول في اصطناع السُّفل^(١)، ومن طال عدوانه زال سلطانه.

وقالوا: من لم يستظهر باليقظة، لم ينتفع بالحفظة.

وقال يحيى بن خالد^(٢): أحسن ما وجدتُ في طراز الحكم من البلاغة: البخل والجهل مع التواضع، خير من السخاء والعلم مع الكبر، فيها لها حسنة غطّت على سيئتين، ويا لها سيئة غطّت على حسنتين.

* * *

(١) جمع سافل وهو الجاهل.

(٢) يحيى بن خالد البرمكى: مؤدب ووزير هارون الرشيد (من أسرة البرامكة الذين علا شأنهم في زمن الرشيد، ثم انقضّ عليهم وقتلهم بما عُرِفَ في التاريخ بنكبة البرامكة سنة ١٩٠ هـ. وقد سبقت ترجمته).

الباب الرابع عشر

فى الخصال المحمودّة فى السلطان

وقد اتفقت العلماء والحكماء عليها فقالوا: أيها الملك: إن قصرت قوتك عن عدوك، فتخلّق بالأخلاق الجميلة، التى ليس لعدوك مثلها، فإنها الكافية من الغارة الشعواء^(١).

وقال معاوية^(٢) لصعصعة بن صوحان^(٣): صف لي عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال: كان عالماً برعيته، عادلاً فى قضيته، عارياً من الكبر، قبولاً للعدر، سهل الحجاب، مصون الباب، متحريراً للصواب، رفيقاً بالضعيف، غير محابٍ للقوى، ولا بجافٍ للقريب.

وقالوا: المنفعة توجب المحبة، والمضرة توجب البغضة، والمخالفة توجب العداوة، والمتابعة توجب الألفة، والصدق يوجب الثقة، والأمانة توجب الطمأنينة، والعدل يوجب اجتماع القلوب، والجور يوجب الفرقة، وحسن الخلق يوجب المودة، وسوء الخلق يوجب المباعدة، والانبساط يوجب المؤانسة، والانقباض يوجب الوحشة، والكبر يوجب المقت، والتواضع يوجب المقة^(٤)، والجود يوجب الحمد، والبخل يوجب المذمة، والتوانى يوجب التضييع، والجد يوجب رجاء الأعمال، والهوينى يوجب الحسرة، والحزم يوجب السرور، والتغريير يوجب الندامة، والحذر يوجب العذر، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة، وبالتأني تسهل المطالب، وبلين كنف المعاشرة تدوم المودة، وبحفظ الجانب تأنس النفوس، وبسعة خلق المرء يطيب عيشه. والاستهانة توجب التباعد، وبكثرة الصمت تكون الهيبة، وعدل المنطق يوجب الجلالة، وبالنصفة تكثر المواصله، وبالأفضال

(١) الشعواء: المتفرقة والممتدة، وفى (ط) فإن الكفاية من الغارة الشواء.

(٢) معاوية: هو معاوية بن أبى سفيان، مؤسس الدولة الأموية والمشهور بدهائه وحسن سياسته، توفى سنة ٦٠هـ. وقد سبقت ترجمته.

(٣) صعصعة بن صوحان: صعصعة بن صوحان بن حجر بن الحارث العبدي، من سادات عبد القيس، من أهل الكوفة، كان خطيباً بليغاً عاقلاً، شهد «صفين» مع علي بن أبى طالب، وله مع معاوية مواقف، مات نحو سنة ٧٠هـ (الأعلام ٣/ ٢٠٥).

(٤) المقة: المحبة (لسان العرب، ابن منظور).

يعظم القدر، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال، وباحتمال المؤمن يجب السؤدد^(١)، وبالحلم عن السفه يكثر أنصارك عليه، وبالرفق والتؤدة تستحق إسم الكرم، وبترك ما لا يعينك يتم لك الفضل.

واعلم: أن السياسة تكسو أهلها المحبة، والفظاظة تخلع عن صاحبها ثوب القبول. ومن صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة، والنظر في العواقب نجاة، ومن لم يحلم ندم، ومن صبر غنم، ومن سكت سلم، ومن خاف حذر، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن أطاع هواه ضل، ومع العجلة الندامة، ومع التأني السلامة.

زارع البر يحصد السرور، وصاحب العقل مغبوط، وصديق الجاهل تعب. إذا جهلت فاسأل، وإذا زلت فارجع، وإذا أسأت فاندِم، وإذا ندمت فأقلع، وإذا أفضلت فاكتم، وإذا منعت فأجمل، وإذا أعطيت فأجزل، وإذا غضبت فاحلم، من بدأك ببره فقد شغلك بشكره. المروآت كلها تبع للعقل، والرأي تبع للتجربة.

العقل أصله الثبوت وثمرته السلامة، والتوفيق أصله العقل وثمرته النجاح، والتوفيق والاجتهاد زوجان، فالاجتهاد سبب، والتوفيق ينجح بالاجتهاد، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] والأعمال كلها تبع للمقدور.

واختار العلماء أربع كلمات من أربع كتب.

من التوراة: من قنع شبع.

ومن الزبور: من سكت سلم.

ومن الإنجيل: من اعتزل نجا.

ومن القرآن: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل

عمران: ١٠١].

الحلم شرف، والصبر ظفر، والمعروف كنز، والجهل سفة، والأيام دول، والدهر غير، والمرء منسوب إلى فعله، ومأخوذ بعمله.

(١) المؤمن: أى احتمال المثوبة والقيام بكفاية القوم. والسؤدد: المجد.

اصطناع المعروف يكسب الحمد. أكرموا المجلس يعمرُ ناديكُم، أنصفوا
من نفوسكم يوثق بكم.

إياكم والأخلاق الدنيئة، فإنها تُضَيِّعُ الشرف وتهدم المجد، نهضة الجاهل
أهون من جريرته^(١)، رأس العشيرة يحمل أثقالها.

وأجمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات: لا تُحَمِّلْ بطنك ما لا
تطيق، ولا تعمل عملاً لا ينفعك، ولا تَغْتَرَّ بِأَمْرَةٍ^(٢)، ولا تثق بمالٍ وإن كَثُرَ.

* * *

(١) نهضة الجاهل: كَفَّه وزجره بالقول أو الفعل. الجريرة: الذنب والجنابة.

(٢) الإمرة: الإمارة، وفي (خ) امرأة.

الباب الخامس عشر

فيما يعزُّبه السلطان وهي الطاعة

قال ملك فارس لموبد موبدان^(١) : ما شيءٌ واحدٌ يعزُّ به السلطان ؟ قال : الطاعة . قال : فما ملاكُ الطاعة ؟ قال : التودُّدُ إلى الخاصة ، والعدل على العامة ، قال : صدقت . الأمانة معقلُ الطاعة^(٢) ، والطاعة زينة الملك .

وكان يقال : طاعة السلطان على أربعة أوجه : على الرغبة ، والرغبة ، والمحبة ، والديانة .

ولما دخل سعد العشيرة^(٣) ، على بعض ملوك حمير^(٤) قال له : يا سعد : ما صلاح الملك ؟ قال : معدلة شائعة ، وهيبة وازعة^(٥) ، ورعية طائعة ، فإن في المعدلة حياة الأنام ، وفي الهيبة نفى الظلام ، وفي طاعة الرعية التآلف والالتئام .

طاعة الأئمة فرضٌ على الرعية ، كما أن طاعة السلطان مقرونة بطاعة الله . اتقوا الله بحقه والسلطان بطاعته . من إجلال الله إجلال السلطان عادلاً كان أو جائراً . الطاعة تؤلف شمل الدين وتنظم أمور المسلمين . عصيان الأئمة يهدم أركان الملة .

أولى الناس بطاعة السلطان ومناصحته : أهل الدين والنعم والمروآت ، إذ لا يقوم الدين إلا بالسلطان ، ولا تكون النعم والحرم محفوظة إلا به .

الطاعة ملاك الدين . الطاعة معاقد^(٦) السَّلامة ، وأرفع منازل السعادة

(١) موبد موبدان : كلمة فارسية وتعني قاضي القضاة .

(٢) معقل : ملجأ .

(٣) سعد العشيرة : سعد العشيرة بن مالك بن أود ، جد جاهلي من القحطانية ، بنوه عدة بطون ، منهم الحكم وصعب ونمرة ... وسمي (سعد العشيرة) لأنه كان يركب ومعه أبنائه وأبناء أبنائه وهم نحو مائة رجل ، فإذا سئل عنهم ، يقول : هؤلاء عشيرتي (الأعلام للزركلي ٣ / ٨٦) .

(٤) حمير : شعب قديم في بلاد اليمن ، وريث الحضارة السبئية المعينية ، كانت لهم دولة قوية عاصمتها ظفار (المنجد في اللغة والأعلام ص ٢٢٥) .

(٥) معدلة من العدل . وازعة : زاجرة .

(٦) معاقد : منازل .

الطريقة المثلى والعروة الوثقى قوام الأمة، وقيام السنة بطاعة الأئمة. الطاعة عصمة من كل فتنة ونجاة من كل شبهة.

طاعة الأئمة عصمة لمن لجأ إليها وحرز لمن دخل فيها، وليس للرعية أن تعترض على الأئمة في تدبيرها، وإن سَوَّلَتْ لها أنفسها، بل عليها الإنقياد، وعلى الأئمة الاجتهاد.

بالطاعة تقوم الحدود، وتُؤدى الفرائض، وتُحقن الدماء، وتَأْمَنُ السَّبِيلُ. الإمامةُ عصمةٌ للعباد، وحياةٌ للبلاد، أوجب الله لمن خصّه بفضلها وحمّله أعباءها الطاعة، فقرنها بطاعته وطاعة رسوله، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

طاعة الأئمة هدى لمن استضاء بنورها، وموئل لمن حافظ عليها، الخارج من الطاعة مُنْقَطِعُ العصمة، بريءٌ من الذمة، مبدلٌ بالكفر النعمة. طاعةُ الأئمة حبلُ الله المتين، ودينه القويم، وجنته الواقية، وكفايته العاليه، وإياكم والخروج عن أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تُسرُّوا غش الأئمة، وعليكم بالإخلاص والنصيحة، ما مشى قوم إلى سلطان ليذُلُّوه إِلَّا أَذَلَّهُمُ اللهُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا.

الطاعة مقرونة بالمحبة، طاعة المحبة أفضل من طاعة الهيبة. للرعية على السلطان: الاستصلاح لهم والتعهد لأموالهم، وحسن السيرة فيهم، والعدلُ عليهم، والتعديلُ بينهم.

وحق السلطان عليهم: الطاعة، والاستقامة، والشكر، والمحبة. بالرعية من الحاجة إلى الراعى، ما ليس بالراعى من الحاجة إليهم. لولا الرُّعاةُ لهلكت الرعية، ولولا المسميم هلكت السوائم^(١).

* * *

(١) المسميم: المرعى، والسوائم جمع سائمة، الماشية والإبل الراعية.

الباب السادس عشر فى ملاك أمور السلطان

قال سليمان بن داود عليهما السلام: الرحمة والعدل يحرزان الملك^(١).
وقال زياد^(٢): ملاك السلطان ثلاثة أشياء: الشدة على المذنب، والمجازاة للمحسن، وصدق القول.

ولما غزا سابور ذو الأكتاف^(٣)، ملك الروم، وأخرب بلاده، وقتل جنده، وأفنى بطارقتة^(٤)، قال له ملك الروم: إنك قد قتلت وأخربت، فأخبرنى ما الأمر الذى تشبثت به، حتى قويت على ما أرى، وبلغت فى السياسة ما لم يبلغه ملك؟ فإن كان ممن يضبط الأمر بمثله، أدت إليك الخراج، وصرت كبعض الرعية فى الطاعة لك.

فقال له سابور: إني لم أزد فى السياسة على ثمان خصال: لم أهزل فى أمر ولا نهى، ولم أخلف فى وعد ولا وعيد، ووليت أهل الكفاية، وأثبت على العناء لا على الهوى، وضربت للأدب لا للغضب، وأودعت قلوب الرعية المحبة من غير جرأة، والهيبة من غير ضغينة، وعممت بالقوت، ومنعت الفضول^(٥). فأذعن له وأدى الخراج.

وكتب الوليد إلى الحجاج^(٦)، أن يكتب له بسيرته، فكتب إليه: إني أيقظت رأيي وأنمت هواي، وأدنييت السيد المطاع فى قومه، ووليت فى

(١) أى يصونانه.

(٢) زياد بن أبيه: أمير من القادة الفاتحين، كان يكتنف الغموض نسبه، ألحقه معاوية بن أبي سفيان بنسبه وولاه الكوفة والبصرة، واشتهر بشدته وحسن إدارته، توفى سنة ٥٣ هـ (الأعلام ٣ / ٥٣).

(٣) سابور ذو الأكتاف: هو شابور أو سابور الثانى، حيث أن هذا الاسم حمله ثلاثة من ملوك الفرس، والثانى لقّب بذى الأكتاف، قيل لأنه أمر بفك أكتاف الأسرى، وهو الذى حمى الديانة المزدكية وحارب البيزنطيين واضطهد المسيحيين، مات سنة ٣٧٩ م (المعارف لابن قتيبة ص ٦٥٦).

(٤) البطارقة: مفردا البطريق، وهو القائد من قواد الروم، أما البطارقة (بالكاف): فهم الأساقفة فى طائفة من الطوائف المسيحية أو على أقطار معينة.

(٥) عمت: شملت، والفضول: الزيادة.

(٦) أى كتب «الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى إلى عامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفى» وقد سبق التعريف بهما.

الحرب الحازمَ في أمره، وقلدتُ الخراجَ الموقى لأمانته^(١)، وقسمتُ لكلِّ خصمٍ من نفسي قسماً، يعطيه حظاً من نظري ولطيف عنايتي، وصرفتُ السيفَ إلى البطرِ والمُسيءِ، فخاف المذنب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب.

وقال أبو عبيدة^(٢): إذا كان الملك محصناً لسره، بعيداً من أن يُعرف ما في نفسه، متخيراً للوزراء، مهيباً في أنفس العامة، مكافئاً بحسن البلاء، لا يخافه البرئ، ولا يأمنه المجرم، كان خليقاً لبقاء ملكه.

* * *

(١) أي فوّضتُ أمر الخراج لمن يوفيه حقه.

(٢) أبو عبيدة: معمر بن المثنى البصري ولد بالبصرة سنة ١١٠هـ من أئمة العلم بالأدب واللغة استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد وقرأ عليه أشياء من كتبه، توفي ببغداد سنة ٢٠٩هـ (الأعلام ٧ / ص ٢٧٢).

الباب السابع عشر

فى خير السلطان وشر السلطان

أفضل الملوك : من كان شكره بين الرعايا ، لكل واحد منهم فيه قسطه ، ليس أحدٌ أحقَّ به من أحد ، لا يطمعُ القويُّ فى حيفه^(١) ، ولا ييأسُ الضعيفُ من عدله .
« كان النبى ﷺ تأخذ بيده الأمةُ من إماء المدينة ، فتطوف به على سكك المدينة حتى يقضى حاجتها »^(٢) .

وفى حكم الهند : أفضل السلطان ؛ من أمنه البريء وخافه المجرم ، وشر السلطان ؛ من خافه البرئ وأمنه المجرم .
وقال عمر للمغيرة^(٣) لما ولاه الكوفة : يا مغيرة : ليأمنك الأبرار ، ولتخفك الفجار .

وفى حكم الهند أيضاً : شرُّ المال ما لا يُنفق منه ، وشرُّ الإخوان الخاذل ، وشرُّ السلطان من خافه البرئ ، وشرُّ البلاد ما ليس فيه خصب ولا أمن ، وخير السلطان من أشبه النسر وحوله الجيف ، لا من أشبه الجيفة وحولها النسور .
وعن هذا المعنى قالوا : سلطانٌ تخافه الرعية ، خير للرعية من سلطان يخافها .
وفى الأمثال العامة (رَهْبُوتٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ رَحْمَوْتٍ)^(٤) .
وكان يقال : شرُّ خصال الملوك ؛ الجبن عن الأعداء ، والقسوة على الضعفاء ، والبخلُ عند الإعطاء .

(١) الحيف : الظلم والجور .

(٢) الحديث صحيح ، وهو من أفراد البخاري عن أنس بن مالك (باب : الكبير) ، وأخرجه الإمام أحمد عن هشيم بن بشير الواسطي (عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٢٢ / ١٤١) ، بلفظ : « كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتطلق به حيث شاءت » .

(٣) المقصود الخليفة عمر بن الخطاب وقد سبق ترجمته ، والمغيرة هو المغيرة بن شعبة بن أبى عامر الثقفى ، أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم ، صحابى ولد بالطائف سنة ٢٠ ق . هـ فأسلم سنة ٥ هـ شهدا الحديبية واليمامة وفتح الشام وذهبت عينه فى اليرموك وشهد القادسية ونهاوند وغيرها ، ولاه عمر على البصرة ففتح عدة بلاد وعزله ثم ولاه على الكوفة وأمره عثمان عليها ثم عزله ولما حدثت الفتنة بين عليٍّ ومعاوية اعتزلها وحضر مع الحكمين ثم ولاه معاوية الكوفة ولم يزل فيها إلى أن مات سنة ٥٠ هـ (الأعلام ٧ / ٢٧٧) .

(٤) رهبت ورحموت : الرهبة والرحمة .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ثلاثة من الفواقر^(١) ؛ جار ملازم إن رأى حسنة سترها وإن رأى سيئة أذاعها ، وامرأة إن دخلت عليها ألسنتك^(٢) ، وإن غبت عنها لم تأمنها ، وسلطان إن أحسنت لم يحمذك وإن أسأت قتلك .
وقال رجل لبعض العلماء : متى أضلُّ وأنا أعلم ؟ فقال : إذا ملكتك أمراء ، إن أطعتهم أذلوك ، وإن عصيتهم قتلوك .
وقال أبو حازم^(٣) لسليمان بن عبد الملك^(٤) : السلطان سوق ، ما نفق^(٥) عنده أتى به .

وفى كتاب ابن المقفع^(٦) : الناس على دين الملك إلا القليل ، فإن يكن للبر والمروءة عنده نفاق^(٧) ، فسيكسد بذلك الفجور والدناءة ، فى آفاق الأرض .

وسمع زياد رجلاً يذم الزمان ، فقال : لو كان يدري ما الزمان لعاقبته ، إن الزمان هو السلطان .

وقال معاوية^(٨) لابن الكواء^(٩) : صف لى الزمان ، فقال : أنت الزمان ، إن تصلح يصلح ، وإن تفسد يفسد ، والمثل السائر فى كل زمان وعلى كل لسان : الناس على دين الملك .

وقال بعض الحكماء : إن أحق الناس أن يحذر : العدو الفاجر ، والصديق الغادر ، والسلطان الجائر .

(١) الفواقر : الدواهى .

(٢) السنتك : عاتبتك بلسانك .

(٣) كنى بهذا اللقب أبو حازم : سلمان الأشجعى ، من المحدثين الثقات ، مات على رأس المائة هجرى . وأبو حازم : سلمة بن دينار الأعرج ، عالم المدينة وقاضيه ، كان زاهداً عابداً توفى سنة ١٤٠ هـ .

(٤) سليمان بن عبد الملك : الخليفة الأموى السابع ، سبقت ترجمته .

(٥) نفق : راج .

(٦) ابن المقفع : مؤلف عربى فارسى الأصل ، سبق ترجمته ، والمقصود بكتابة (التاج) المترجم عن الفارسية .

(٧) نفاق : اسم من الأنفاق .

(٨) معاوية : معاوية بن أبى سفيان ، مؤسس الدولة الأموية ، وسبقت ترجمته .

(٩) ابن الكواء : عبد الله بن عمرو بن النعمان اليشكرى (من بنى يشكر بن بكر بن وائل) كان ناسباً عالماً كبيراً قتل لأبيه الكواء لأنه كوى فى الجاهلية (المعارف لابن قتيبة ص ٥٣٥ وجمهرة أنساب العرب ص ٣٠٨) .

وقال بزرجمهر : أدومُ التعب ، صحبة السلطان السيئ الخلق .

وقال بعض الحكماء : إذا ابتليت بصحبة السلطان ، الذى لا يريد صلاح عيته ، فقد خُيرتَ بَيْنَ أمرين ليس بينهما خيار ، إما الميل مع الوالى على الرعية فهو هلاك الدين ، وإما الميل مع الرعية على الوالى فهو هلاك الدنيا ، فلا حيلة لك إلا الموت أو اللهرب منه .

وقالوا : الملك العادل : كالنهر الصافى ، ينتفع به الأشرار والأخيار ، ولا يضر أحداً ، والملك السوء : مثل الجيفة ، يسرع إليها شرار الحيوان ، ويتحاماها الناس (١) .

* * *

(١) يتحاماها : يتجنبها .

الباب الثامن عشر

فى منزلة السلطان من القرآن

رُوى عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «إِنَّ اللَّهَ لَيَزَعُ بِالْسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن» (١) معناه أى يدفع .

وقال كعب (٢) : مثل الإسلام والسلطان والناس ، مثل الفُسطاط (٣) والعمود والأُتُناب (٤) والأوتاد ، فالفسطاط الإسلام ، والعمود السلطان ، والأوتاد الناس ، لا يصلح بعضهم إلا ببعض .

وقال أردشير (٥) لابنه : يَا بُنَيَّ ، إِنَّ الْمَلِكَ وَالِدِينَ أَخَوَان ، لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فالدين أَسُّ والملك حارس ، وما لم يكن له أَسُّ فهو مهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع (٦) .

يَا بُنَيَّ اجْعَلْ حديثك مع أهل المراتب ، وعطيتك لأهل الجهاد ، وبِشْرِكْ (٧) لأهل الدين ، وسرِّكْ لمن عناه ما عناك ، ولتكن من أهل العقل .
وكان يقال : الدين والسلطان توأمان .

* * *

(١) فى (ط) (يرعى) بدل (يزع) فى الموضوعين ؛ وهذا ليس بحديث فقد جاء فى الآثار أنه قول لعثمان بن عفان رضى الله عنه وفى قول آخر لعمر بن الخطاب رضى الله عنه (انظر : الجذ الحثيث فى بيان ما ليس بحديث ، لأحمد العامري ١ / ٦٠) .

وقد أورده ابن كثير فى البداية والنهاية على أنه قول لعثمان رضى الله عنه ، كما أورده ابن تيمية فى مجموع الفتاوى كذلك . (انظر : البداية والنهاية ٢ / ١٠ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ١١ / ٤١٦) .

(٢) هو كعب بن ماتع الحميري اليماني أبو إسحق الحبر الذي كان يهودياً فأسلم بعد وفاة رسول الله ﷺ قدم المدينة من اليمن فى أيام عمر رضى الله عنه ، جالس الصحابة وكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية ، خرج إلى الشام ونزل حمص وتوفي فيها فى خلافة عثمان رضى الله عنه سنة ٣٢هـ ، (الأعلام ٥ / ٢٢٨ ، وسير أعلام النبلاء ٣ / ٤٩٢) .

(٣) الفسطاط : بيت من الشعر .

(٤) الأُتُناب : الحبال التى يُشدُّ بها سرادق البيت .

(٥) أردشير : مؤسس دولة الساسانيين فى بلاد فارس ، وفرض الديانة الزرادشتية . وابنه سابور سبق التعريف به فى الباب السادس عشر .

(٦) نسب الإمام الغزالي فى كتابه فضائح الباطنية ١ / ٢٠٥ ، وفخر الدين التميمي فى كتاب مفاتيح الغيب ٦ / ١٦٢ هذا القول إلى رسول الله ﷺ من رواية ابن عباس ، وقال المتقي الهندي فى كنز العمال : رواه الديلمي عن ابن عباس .

(٧) البشر : طلاقة الوجه والسرور .

الباب التاسع عشر

فى خصال جامعة لأمر السلطان

قالوا: ظَفَرُ الْمَلِكِ بَعْدُوهُ عَلَى حَسَبِ عَدْلِهِ فِى رَعِيَّتِهِ، وَنُكُوبُهُ^(١) فِى حُرُوبِهِ عَلَى حَسَبِ جَوْرِهِ فِى عَسَاكِرِهِ، وَإِصْلَاحُ الرِّعْيَةِ أَنْفَعُ مِنْ كَثْرَةِ الْجُنُودِ. وَقَالُوا: تَاجُ الْمَلِكِ عَفَافُهُ، وَحَصْنُهُ إِنْصَافُهُ، وَسِلَاحُهُ كِفَافَتُهُ، وَمَالُهُ رَعِيَّتُهُ. وَقَالَتْ حُكَمَاءُ الْهِنْدِ: لَا ظَفَرَ مَعَ بَغْيٍ، وَلَا صَحَّةَ مَعَ نَهَمٍ^(٢)، وَلَا بِنَاءَ مَعَ كِبَرٍ^(٣)، وَلَا شَرَفَ مَعَ سُوءِ أَدَبٍ، وَلَا بَرٍّ مَعَ شَحٍّ، وَلَا اجْتِنَابَ مُحَرَّمٍ مَعَ حَرَصٍ، وَلَا وِلَايَةَ حُكْمٍ مَعَ عَدَمِ فِقْهِ، وَلَا سُؤْدُدَ مَعَ انْتِقَامٍ^(٤)، وَلَا ثَبَاتَ مَلِكٍ مَعَ تَهَاوُنٍ وَجَهَالَةٍ وَزَارَةٍ.

وَلَمَّا وَلِيَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خَطَبَ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّهُ لَا أَحَدَ أَقْوَى عِنْدِي مِنَ الْمَظْلُومِ حَتَّى آخِذَ لَهُ بِحَقِّهِ، وَلَا أَوْفَرَ مِنَ الظَّالِمِ حَتَّى آخِذَ الْحَقَّ مِنْهُ. وَقِيلَ لِلْإِسْكَانْدَرِ: بِمِ نَلْتِ مَا نَلْتِ؟ قَالَ: بِاسْتِمَالَةِ الْأَعْدَاءِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَصْدِقَاءِ.

وَقَالَ بَزْرَجْمَهْرٌ: سَوَّسُوا أَحْرَارَ النَّاسِ بِمَحْضِ الْمُودَةِ، وَالْعَامَّةَ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَالسَّفَلَةَ بِالْمَخَافَةِ.

وَقَالَ الْمُوْبِذَانُ: السِّيَاسَةُ الَّتِي بِهَا صِلَاحُ الْمُلِكِ: الرِّفْقُ بِالرِّعْيَةِ، وَأَخِذَ الْحَقَّ مِنْهُمْ فِى غَيْرِ مَشَقَّةٍ، وَسَدَّ الْفُرُوجَ^(٥)، وَأَمَّنَ السُّبُلَ، وَأَنْ يُنْصَفَ الْمَظْلُومُ مِنَ الظَّالِمِ، وَلَا يُحْمَلِ الْقَوِيُّ عَلَى الضَّعِيفِ.

وَقَالُوا: الْوَالِىُّ مِنَ الرِّعْيَةِ كَالرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ، لَا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِهِ، وَبَعْدَ الْوَالِىِّ مِنْ إِصْلَاحِ الرِّعْيَةِ مَعَ إِفْسَادِ نَفْسِهِ، كَبُعْدِ الْجَسَدِ مِنَ الْبَقَاءِ بَعْدَ ذَهَابِ الرَّأْسِ، وَالسُّلْطَانُ خَلِيقٌ أَنْ يَعُودَ نَفْسَهُ الصَّبْرَ عَلَى مَنْ خَالَفَ رَأْيَهُ مِنْ ذَوَى

(١) النكوب: المصائب.

(٢) النهَم: الإفراط فى إشباع الشهوة (لسان العرب، باب: نهم).

(٣) فى (خ) ولا ثناء مع كبر، أى لا مدح مع تكبر وتجبّر.

(٤) السؤدد: الشرف والسيادة.

(٥) سد الفروج: أى الثغور والحدود التى يتسلل منها العدو.

النصيحة، والتجرُّع لمرارة قولهم، ولا ينبغي أن يحسد^(١) إلا على حسن التدبير، ولا أن يكذب لأن أحداً لا يقدر على استكراهه، ولا أن يغضب، لأن الغضب والقدرة لقاح الشرِّ والندامة، ولا أن ييخل لأنه أقلُّ النَّاسِ خوفاً من الفقر، ولا أن يحقد لأن قدره جلٌّ عن المجازاة.

ولا ينبغي للوالي أن يستعمل سيفه، فيما يكتفى فيه بالسوط، ولا سوطه فيما يكتفى فيه بالحبس، ولا حبسه فيما يكتفى فيه بالجفاء والوعيد.

وقال معاوية^(٢): إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا مدوها خلَّيتها، وإذا خلَّوها مدَّتها.

ونحو ذلك قول الشعبي^(٣): كان معاوية كالجمال الطَّبِّ، والجمال الطَّبِّ هو الحاذق بالشيء لا يضع يده إلا حيث تبصر عينه.

وينبغي له أن يُعلِّم رعيته، أنه لا يُصاب خيره إلا بالمعونة له على الخير، ولا ينبغي له أن يدع تفقد لطيف أمور الرعية، اتكالا على نظره في جسيمها، فإن لللطيف موقعا ينتفع به، وقد أتى الله تعالى ملك الدنيا سليمان بن داود عليهما السلام، ثم تفقد الطير فقال: ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠] ولأن التَّهاون باليسير أساس الوقوع في الكبير.

وقد قال الشاعر:

لا تحقرنَّ شَبِيباً كم جرَّ شراً شَبِيبٌ^(٤)

وقالوا: أصل الأشياء كلها شيء واحد.

ولا تدع مباشرة جسيم أمره، فللجسيم موضعٌ إن غُفِلَ عنه تفاقم، ولا يلزم نفسه مباشرة الصغير أبداً فيضيع الكبير.

وقال زياد لحاجبه: وليتَّك حجابتي وعزلتُك عن أربع: المؤذن للصلاة،

(١) في (خ) ولا ينبغي أن يحسد الولاة.

(٢) معاوية ابن أَى سفيان مؤسس الدولة الأموية سبقت ترجمته.

(٣) الشعبي: عامر بن شراحيل الشعبي الحميري أبو عامر، راوية من التابعين، يُضرب المثل بحفظه، وُلِدَ ونشأ ومات فجأة بالكوفة، وهو من رجال الحديث الثقات، كان فقيهاً، استقضاه عمر بن عبدالعزيز، مات سنة ١٠٣هـ (الأعلام ٣: ٢٥١).

(٤) الشبيب: أول شبوب النار.

وصاحب الطعام فإن الطعام إذا أعيد سَخْنُهُ فسد، وصارخ الليل لشرِّ دَهاه، وصاحب البريد، فالتهاون بالبريد ساعة يخرب عمل سنة.

وكان أبو العباس السفاح^(١) يقول: لأُعْمَلَنَّ اللينَ حتى لا ينفع إلا الشدة، ولأُكْثَرَنَّ من الخاصة ما أمنتهم على العامة، ولأُعْمَدَنَّ سيفي حتى يسأله الحق، ولأُعْطِيَنَّ حتى لا أرى للعطية موضعاً.

وقال: أردشير^(٢) - لما كَمَلَ ملكه وأباد أعداءه - إنه لم يحكم حاكمٌ على العقول كالعبر، ولم يُحْكَمْها محكمٌ كالتجربة، وليس شيء أجمع للعقل من خوف وحاجة يتأملُ بها صفحات حاله.

وكان عمر رضى الله عنه يقول: إن هذا الأمر لا يصلح له، إلا الدين في غير ضعف، والقوة في غير عنف.

وقال الأصمعي^(٣): قال لي الرشيد: هل تعرف كلمات جامعات لمكارم الأخلاق، يقلُّ لفظها، ويسهل حفظها، تكون لأغراضها لفقا، ولمقاصدها وفقاً^(٤)، تشرح المستبهم، وتوضح المستعجم،

قلت: نعم يا أمير المؤمنين:

دخل أكثم بن صيفي - حكيم العرب - على بعض ملوكها، فقال: إني سائلك عن أشياء لا تزال بصدري مختلجة، وما تزال الشكوك عليها والجة، فأنبئني بما عندك فيها. فقال: أبيت اللعن، سألت خبيراً، واستنبأت بصيراً، والجواب يشفعه الصواب، فسل عما بدا لك. قال: ما السؤدد؟ قال: اصطناع المعروف عند العشيرة، واحتمال الجريرة^(٥).

(١) أبو العباس السفاح: عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب أبو العباس، أول الخلفاء العباسيين، قاد الثورة على الأمويين بعد وفاة أخيه إبراهيم الإمام، وبويع له في مسجد الكوفة بعد وفاة أخيه إبراهيم الإمام، وبويع له في مسجد الكوفة بعد أن انصر على مروان بن محمد في معركة الزاب، وأتخذ الأنبار عاصمة له، مات سنة ١٣٦هـ (الأعلام ٤ / ١١٢).

(٢) أردشير: مؤسس دولة الساسانيين في بلاد فارس (سبقت ترجمته).

(٣) الأصمعي: لغوى بصرى من المشاهير، عهد إليه هارون الرشيد بتعليم الأمين، له عدة مؤلفات منها (الأصمعيات) سبقت ترجمته.

(٤) أن تكون مصيبة لأهدافها وموافقة للمراد منها.

(٥) يقال: جرّ عليهم جريرة: أى جنى جناية.

قال : فما الشرف ؟ قال كف الأذى وبذل الندى ، قال : فما المجد ؟
 قال : حملُ المغارم وابتناءُ المكارم ، قال : فما الكرم ؟ قال : صدق الإخاء
 فى الشدة والرخاء ، قال : فما العز ؟ قال : شدةُ العَصْد وكثرة العدد ، قال : فما
 السماحة ؟ قال : بذل النائل وحب السائل ، قال : فما الغنى ، قال : الرضا بما
 يكفي وقلة التمنى ، قال : فما الرأي ؟ قال : لبُّ تعينه تجربة ، قال له الملك :
 أوريث زناد بصيرتى ^(١) ، وأذكيث نار خبرتى ، فاحتكم ، قال : لكل كلمة
 هجمة ^(٢) ، قال : هي لك . قال الأصمعى : فقال لى الرشيد : ولك بكل كلمة
 بدرة ^(٣) ، فانصرفتُ بثمانين ألفاً .

وكان قسّ بن ساعدة ^(٤) ينفذ على قيصر فيكرمه ، فقال له يوماً : ما أفضل
 العقل ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه ، قال : ما أفضل العلم ؟ قال : وقوف الرجل
 عند علمه ، قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه ، قال :
 فما أفضل المال ؟ قال : ما قضيت به الحقوق .

* * *

(١) أورى الزناد : أورى : أشعل ، الزناد : العود الذى يقتدح به النار . (ومعنى القول : أى قضيت حاجتى) .

(٢) الهجمة من الإبل ما بين الأربعين أو السبعين إلى المائة .

(٣) البدرة : عشرة آلاف درهم .

(٤) قس بن ساعدة : خطيب جاهلي من حكماء العرب ، كان أسقف نجران ، وكان يعظ القوم فى عكاظ ، توفي نحو سنة ٦٠٠ م .

الباب الموفي عشرين

في الخصال التي هي أركان السلطان

قال أبو جعفر المنصور: ما كان أحوجني أن يكون على بابي أربعة، لا يكون على بابي أعفُ منهم، قيل: من هم يا أمير المؤمنين؟
قال: هم أركان الملك، لا يصلح الملك إلا بهم، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم، فإن نقص قائمة واحدة، عابه ذلك.
أحدهم: قاضٍ، لا تأخذه في الله لومة لائم.
والآخر: صاحبُ شرطة، ينصف الضعيف من القوي.
والثالث: صاحبُ خراج، يستقصي ولا يظلم الرعية، فإنني غنيٌّ عن ظلمهم.

- ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات، يقول في كل مرة: آه، آه - قيل: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد: يكتب بخبر هؤلاء على الصحة.
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يصلح الوالي إلا بأربع خصال، إن نقصت واحدة لم يصلح له أمر ولا نهى: قوة على جمع المال من أبواب حله، ووضعه في حقه، وشدة لا جبروت فيها، ولين لا وهن فيه.

* * *

الباب الحادي والعشرون

في بيان حاجة السلطان إلى العلم

قال ابن المقفع (١): إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان، فلا يعجبك ذلك، فإن زوال الكرامة بزوالهما، ولكن يعجبك إن أكرموك لأدب أو علم أو دين. اعلم -أرشدك الله- أن أكثر الناس حاجة إلى النفقة أكثرهم عيالا وأتباعا وحشما وأصحابا، والخلق مستمدون من السلطان ماله من الخلائق السنية (٢)، والطرائق العلية، مفتقرون إليه في الأحكام، وقطع التشاجر، وفصل الخصام، فهو أحوج خلق الله إلى معرفة العلوم، وجمع الحكم. و شخص بلا علم كبلد بلا أهل، وأفضل ما في السلطان خصوصا وفي الناس عموما، محبة العلم والتحلي به، والشوق إلى استماعه، والتعظيم لحملته، فإن ذلك دليل على قوة الإنسانية فيه، وبعده من البهيمة، ومضاهاته للعالم العلوي، وهو من أوكد ما يتحبب به إلى الرعية، وإذا كان الملك خاليا من العلوم ركب هواه، وأضر برعيته، كالدابة بلا رسن، تمر في غير طريق، وقد تتلف ما تمر به.

و اعلم: أن زهر الفضائل، وحسن المناقب، وبهاء المحاسن، وما ضاد ذلك من قبح المثالب، وفحش الرذائل، كل ذلك يظهر عليك ويعظم منك، بقدر ما أوتيته من علو المنزلة، وشرف الخطوة (٣)، فيكون حسنك أحسن، كما يكون قبحك أقبح.

وليس أحد من أهل الدرجات السنية، والمراتب العلية، أحوج إلى مجالسة العلماء، وصحبة الفقهاء، ودراسة كتب العلوم والحكم، ومطالعة دواوين العلماء، ومجامع الفقهاء، وسير الحكماء من السلطان، وإنما كان كذلك من وجهين: أحدهما: أنه قد نصب نفسه لممارسة أخلاق الناس، وفصل خصوماتهم، وتعاطي حكوماتهم، وكل ذلك يحتاج إلى علم بارع، ونظر ثاقب، وبصيرة

(١) ابن المقفع: عبد الله بن المقفع، سبقت ترجمته.

(٢) الخلائق أو الدرجات السنية: السنة الرفيعة.

(٣) الخطوة: علو المكانة عند الناس.

بالعلم قوية ، ودراسة طويلة ، فكيف يكون حاله ، لو لم يعد لهذه الأمور عدتها ، ولم يقدم لها أهبتها ! .

و الثاني : أن من سواه من الناس لا يعدمون من ينكر عليهم ويعارضهم ، ويذكر لهم مساوئهم ، ويخالفهم في مذاهبهم ، فيكون ذلك مما يعينهم على رياضة أنفسهم ويعلمهم مرادهم^(١) .

و مناظرة الأكفاء ، ومعاشرة النظراء : تلقيح للعقول ، وتهذيب للنفوس^(٢) ، وتدريب لِمآخذ الأحكام ، بخلاف السلطان ، فإن ارتفاع درجته يقطع عنه جميع ذلك ، إذ لا يلقاه ولا يجالسه إلا مُعظَّم لقدره ، مُبَجَّل لشأنه ، وساتر لمساوئه ، ومادح له بما ليس فيه . وإنما جوابهم له ؛ صدق الأمير .
و على قدر المرتبة ، يكون علو السَّقطة ، كما أن على قدر ارتفاع الحائط يكون صوت الوجبة^(٣) .

* * *

* فصل [في طلب العلم] (*) :

يا أيُّها الملك : ليس أحد فوق أن يُؤمر بتقوى الله ، ولا أحد دون أن يأمر بتقوى الله ، ولا أحد أجلُّ قدراً من أن يقبل أمر الله ، ولا أرفعَ خطراً من أن يتعلم حكم الله ، ولا أعلى شأنًا من أن يتَّصف بصفات الله ، ومن صفات الله تعالى العلم الذي وصف به سبحانه نفسه ، وتمدح بسعته ، فقال تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] والكرسي هو العلم ، والكراسي هم العلماء .

و إذا كان العلم فضيلةً ، فرغبة الملوك وذوي الأخطار والأقذار والأشراف والشيخوخ فيه أولى ، لأن الخطأ فيهم أقبح ، والابتداء بالفضيلة فضيلة .
حكى أن : إبراهيم بن المهدي^(٤) دخل على المأمون وعنده جماعة

(١) مرادهم : مقاصدهم .

(٢) في (ط) تلقيح العقول وتهذيب النفوس .

(٣) الوجبة : صوت السقوط . (*) من إضافات المحقق .

(١) إبراهيم بن المهدي : هو عم الخليفة المأمون وأخو هارون الرشيد ، ولاه الرشيد إمرة دمشق ولما انتهت الخلافة للمأمون اتخذ فرصة اختلاف الأمين والمأمون للدعوة لنفسه فبايعه كثيرون ، فطلبه المأمون فاستتر فهدر دمه فجاءه مستسلماً فسجنه ، ثم عاتبه المأمون فاعتذر فعفا عنه . وقد اشتهر بالغناء ، توفي سنة ٢٢٤ هـ (الأعلام ١ / ٥٩) .

يتكلمون في الفقه، فقال: يَا عَمُّ، ما عندك فيما يقول هؤلاء؟ فقال: يا أمير المؤمنين شغلونا في الصغر، واشتغلنا في الكبر، فقال المأمون: لم لا تتعلم اليوم؟ فقال: أو يَحْسُنُ بِمِثْلِي طلب العلم؟ فقال: نعم، والله لأن تموت طالبا للعلم، خير من أن تعيش قانعا بالجهل، قال: وإلى متى يحسنُ طلب العلم؟ قال: ما حسنت بك الحياة.

و رُوِيَ أَنَّ بَعْضَ الْحُكَمَاءِ، رَأَى شَيْخًا يَطْلُبُ الْعِلْمَ، وَيَحِبُّ النَّظَرَ فِيهِ وَيَسْتَحْيِي، فَقَالَ: يَا هَذَا، أَتَسْتَحْيِي أَنْ تَكُونَ فِي آخِرِ عَمْرِكَ، أَفْضَلَ مِمَّا كُنْتَ فِي أَوَّلِهِ؟ وَلَئِنَّ الصَّغِيرَ أَعْذَرَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَهْلِ عَذْر.

و فِي مَنْشُورِ الْحُكْمِ: جَهْلُ الشَّبَابِ مَعْذُورٌ، وَعِلْمُهُ مُحَقَّقٌ، فَأَمَّا الْكَبِيرُ فَالْجَهْلُ بِهِ أَقْبَحُ، وَنَقْصُهُ عَلَيْهِ أَفْضَحُ، لِأَنَّ عِلْمَ السَّنِ إِذَا لَمْ يُكْسِبْهُ فَضْلًا، وَلَمْ يُفِدْهُ عِلْمًا، كَانَ الصَّغِيرَ أَفْضَلَ مِنْهُ، لِأَنَّ الْأَمَلَ فِيهِ أَقْوَى، وَحَسْبُكَ نَقِصَةٌ فِي رَجُلٍ، يَكُونُ الصَّغِيرَ الْمَسَاوِي لَهُ فِي الْجَهْلِ أَفْضَلَ مِنْهُ.

و كُلُّ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَاجَةِ الشَّيْخِ إِلَى الْعِلْمِ، فَحَاجَةُ السُّلْطَانِ إِلَيْهِ أَكْثَرُ، وَدَوَاعِيهِ إِلَى اكْتِسَابِهِ أَشَدَّ، لِأَنَّ مِنْ عَدَائِهِ إِنَّمَا تَخْصُهُ نَفْسُهُ الْوَاحِدَةُ، فَيَقْرَبُ عَلَيْهِ تَحْصِيلُ مَا يَقُومُهَا بِهِ، وَالْمَلِكُ مُنْتَصَبٌ لِسِيَاسَةِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ وَتَعْلِيمِهِمْ، وَتَقْوِيمُ أَوْدِهِمْ، فَهُوَ إِلَى الْعِلْمِ أَحْوَجُ.

قال الشاعر:

إِذَا لَمْ يَكُنْ مَرُّ السِّنِّينَ مُتَرْجِمًا عَنْ الْفَضْلِ فِي الْإِنْسَانِ سَمِيَّتُهُ طِفْلًا
وَمَا تَنْفَعُ الْأَيَّامُ حِينَ تَعْدُهَا وَلَمْ تَسْتَفِدْ فِيهِنَّ عِلْمًا وَلَا عَقْلًا^(١)
أَرَى الدَّهْرَ مِنْ سُوءِ التَّصَرُّفِ مَائِلًا إِلَى كُلِّ ذِي جَهْلٍ كَأَنَّ بِهِ جَهْلًا

و قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: كُلُّ عَزٍّ لَا يُوْطِّدُهُ عِلْمٌ مَذَلَّةٌ، وَكُلُّ عِلْمٍ لَا يُؤَكِّدُهُ عَقْلٌ مُضَلَّةٌ، وَكَيْفَ يَسْتَنْكِفُ مَلِكٌ أَوْ ذُو مَنْزِلَةٍ عَلِيَّةٍ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ؟! وَهَذَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ارْتَحَلَ مِنَ الشَّامِ إِلَى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ^(٢)، فِي أَقْصَى الْمَغْرِبِ

(١) فِي (ط): وَمَا تَنْفَعُ (الْأَعْوَامُ) حِينَ تَعْدُهَا.

(٢) مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ: مُلْتَقَاهُمَا، قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: هُمَا بَحْرُ فَارَسٍ مِمَّا يَلِي الْمَشْرِقَ وَبَحْرُ الرُّومِ مِمَّا يَلِي الْمَغْرِبَ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ هُمَا عِنْدَ طَنْجَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (مختصر تفسير ابن كثير- محمد نسيب الرفاعي ج ٣/ ٨٣) وعليه فإن المقصود ببحر الظلمات هو البحر المتوسط.

على بحر الظلمات، إلى لقاء الخضر^(١) ليتعلم منه، فلما ظفر به، قال: ﴿هَلْ أَتَّبَعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، هذا وهو نبي الله وكليمه.

وهذا محمد رسول الله ﷺ، وصفوته من جميع خلقه، قد أوصاه ربه وعلمه كيف يستنزل ما في خزائنه، فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فلو كان في خزائنه أشرف من العلم لنبّه عليه.

وهذا آدم عليه السلام، لما فخرت الملائكة بتسبيحها وتقديسها لرّبّها، فخر آدم بالعلم، فقال: ﴿أُنَبِّئُوكَ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]، فلما عجزوا أمرهم بالسجود له، وأخلق بخصلة تستدعي السجود لحاملها، أن يتنافس فيها كل ذي لب، وهذا فصل الخطاب لمن تدبره.

ولا تنصّب لك عذرا بما روي في بعض الأخبار مثل: [الذي يتعلم في الصغر كالوشم على الصخر، والذي يتعلم في الكبر كالنقش على الماء] فقد سمع الأحنف رجلا يقول: التعلم في الصغر كالنقش في الحجر، فقال: (الكبير أكبر عقلا، ولكنه أشغل قلبا)، ففحص عن المعنى، ونبه عن العلة.

وقد كان أصحاب النبي ﷺ يُسلمون شيوخا وكهولا وأحداثا، وكانوا يتعلمون العلم والقرآن والسنن وهم بحور العلم، وأطواد^(٢) الحكمة والفقه، غير أن العلم في الصغر أرسخ أصولا، وأسبق فروعا، وليس إذا لم يحزه كلّهُ يفوته كلّهُ.

قال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه، إني أريد أن أتعلم العلم، وأخاف أن أضيعه، فقال أبو هريرة: كفى بتركك له تضييعا.

وبعض الخير خير من كل الشر، وإنما مثل الجاهل تحت عبء الجهل مثل الحمال تحت حمل ثقيل، فإنه كلما أعيا نقصه قليلا قليلا، يوشك أن ينقصه كله فيستريح منه، وإن هو لم يطرح القليل حتى يطرح الكثير، فما أوشكه أن يصرعه حملة، وكذلك الجاهل إذا تعلم قليلا قليلا، يوشك أن يأتي على بقيّته، وإن لم يتعلم في الكبر لما فاتته في الصغر، فأوشك به أن يموت تحت غبّ الجهل^(٣).

* * *

(١) الخضر عليه السلام: اختلف في اسمه ونبوته على عدة أقوال ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية (ج ١/ ٣٢٦).

(٢) الطود: الجبل العظيم الثابت في مقره. (٣) غب الجهل: عاقبته.

الباب الثاني والعشرون

فى وصية^(١) أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه لكميل بن زياد فى العلم وأهله

قال كميل بن زياد النخعي^(٢) : خرجت مع علي بن أبى طالب رضى الله عنه، إلى الجبانة^(٣)، فلما أصرح^(٤) تنفس الصعداء، ثم قال : يا كميل بن زياد : إنَّ القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير .

احفظ عني ما أقول لك ، الناس ثلاثة : فعالم رباني^(٥)، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعا^(٦) أتباع كل ناعق^(٧)، يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا منه إلى ركن وثيق .

العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزكو على الإنفاق، والمال تنقصه النفقة، والعلم حاكم والمال محكوم عليه . ومحبة العالم دينٌ يدانُ الله به، يكسبه الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته .

مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أخاصهم^(٨) مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة .

(١) وردت هذه الوصية في نهج البلاغة للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه مع اختلاف في بعض ألفاظها (انظر نهج البلاغة ضبط الدكتور صبحي الصالح دار الكتاب اللبناني ص ٩٥ وما بعدها) .
(٢) كميل بن زياد : كميل بن زياد بن نهيك النخعي، تابعي، ثقة، من أصحاب علي بن أبى طالب، وكان عامله على هيت، شهد معه صفين، كان شريفا مطاعا في قومه، وسكن الكوفة، وروى الحديث، قتله الحجاج صبورا سنة ٨٢هـ . (الإعلام ٥ / ٢٣٤) .

(٣) الجبانة : المقبرة .

(٤) صحر : خرج إلى الصحراء .

(٥) عالم رباني : العارف بالله المنسوب إلى الرب .

(٦) الهمج الرعا : الحمقى من الناس، الرعا : الأحداث الذين لا خير فيهم ولا منزلة لهم من الناس .

(٧) الناعق : الذي يصيح داعيا إلى حق أو باطل . نعيق الغراب : صياحه .

(٨) أخاصهم : أعيانهم (كذا في نهج البلاغة) .

إن ههنا - وأشار بيده إلى صدره - لعلمنا جماً لو أصبت له حَمَلَةٌ ^(١) بلى ، قد أصبت له لقنا ^(٢) غير مأمون عليه ، يستعلم آلة الدين للدنيا ، فيستظهر ^(٣) بحجج الله تعالى على كتابه - أو كما قال - وبنعمته على عباده ، أو منقاداً لأهل الحق ^(٤) لا بصيرة له في أحنائه ^(٥) ، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة ، ألا لا ذا ، ولا ذاك . أو مهموماً باللذائذ ^(٦) ، سريع الانقياد للشهوات ، أو آخر شأنه جمع المال والادخار ، ليسا من رعاة الدين ، أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة ، اللهم فكذلك يموت العلم بموت حامله .

ولكن لن تخلو الأرض من قائم لله سبحانه بحجة ، لئلا تبطل حجج الله وبياناته . ومن أولئك ؟ وأين أولئك ؟ أولئك الأقلون عدداً ، الأكثرون عند الله قدراً ، تخزن الحكمة في قلوبهم حتى يزرعوها في قلوب أشباههم ، ويودعونها في صدور نظرائهم . هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فباشروا روح اليقين ، فاستلنوا ما استخشنه المترفون ^(٧) ، واستأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأجسادٍ أرواحها متعلّقةٌ بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله في بلاده ، ودعاته إلى دينه ، آه ، شوقاً إلى رؤيتهم .

* * *

(١) لو أصيب له حملة : لو وجدت له حاملين لأبرزته وبيّنته .

(٢) اللقن : الذي يفهم بسرعة .

(٣) يستظهر : يستعين .

(٤) في نهج البلاغة (منقاداً لحَمَلَة الحق) : أي المنساق المقلد في القول والعمل لا بصيرة له في دقائق الحق وخفاياه .

(٥) كذا في نهج البلاغة : (لا بصيرة له في أحنائه) : أي جوانبه وفي (ط) أخباته : تواضعه وخشوعه .

(٦) في نهج البلاغة : (أو منهوماً باللذة) : أي المفرط في شهوة الطعام .

(٧) في نهج البلاغة : (استلنوا ما استعوره المترفون) : أي ما وجده أهل الترف والنعيم وعراً خشناً عدوه لينا .

الباب الثالث والعشرون

في العقل والدهاء والخبث (١)

قد ذكرتُ في كتاب الأسرار (٢)، حقيقةَ العقل وأقسامه، ومحله وأحكامه، بما لا مزيد عليه، ونذكر ههنا منافعهم ومداركهم، ولُبَاب ما تحرر من القول فيه: إنه الاستشهاد بالشاهد على الغائب، فمن كان في طوقه (٣) أن يستدل بما شاهد على ما غاب عنه، كان معه عقل، ويسمى عاقلاً عند الموحدين، وبه يتوجه التكليف عليه، وذلك أن من نظر إلى قَصْرِ قد كَمُلَ بنيانه، وحصنت أركانه، وجعلت فيه من الآلات ما يكتفي به ساكنوه، فأشرف عليه إنسان فرأى بيوتا مقطوعة (٤)، وأبواباً منصوبة (٥)، وفرشاً مفروشة، وزرابي مبنوثة (٦)، وموائد موضوعة (٧)، وصحافاً مصفوفة (٨)، وأرائك منصوبة (٩)، وحجلاً مشدودة (١٠)، وطسوتا وأباريق، وبيوت ماء، وميازيب (١١) تصب الماء، وتحتها بلاليع لغيض (١٢) الماء، إلى سائر ما يستعده العقلاء للانتفاع، ثم فكر: هل هذا القصر بما حواه، صنعه قادر صانع عالم حي، أو اتفق لنفسه، وتركب على صورته بلا صانع؟ فيستقر في عقله بالضرورة، استحالة وجوده من غير صانع، وأنه مفتقر إلى صانع صنعه، وهذا علم يهجم على العقول، لا يفتقر إلى نظر واستدلال.

وإنما كثرتُ لك هذه الأمثلة لأن ما في الإنسان من الأعضاء، ولطيف الصنعة والعجائب أكثر مما في القصر بأضعاف مضاعفة، فإذا نظر إلى ما في

(١) في (خ): (المكر): بدل الخبث.

(٢) كتاب الأسرار: من الكتب التي ألفها أبو بكر الطرطوشي وقد أشار إليه في أكثر من موضع من هذا الكتاب.

(٣) أي في وسعه واستطاعته. (٤) خاصة بأصحابها ولا نظير لها.

(٥) منصوبة: مقامة. (٦) بسط فاخرة مفروشة بالمجالس.

(٧) موائد بين أيديهم يسهل تناولها عليهم.

(٨) موضوعة بعضها فوق بعض. (٩) سرائر منجدة مزينة.

(١٠) الحجلة: السترة المضروبة للعروس في جوف البيت.

(١١) مصارف للمياه. (١٢) قنوات لتصريف المياه في جوف الأرض.

نفسه فرأى ما فيها من العجائب والتركيب، ومنفعة كل عضو وتخصيصه، إما بجلب نفع أو دفع ضرر، فأمعن نظره في عضو واحد مثلاً، وهو فمه، فيرى في أوله أسناناً تشبه الفأس تصلح للقطع، وفي آخره طواحين مخرسة تصلح للطحن، وشدقين كأنهما ثفال^(١) الرحي، يمنعان أن ينهرق الطعام إلى الخارج، ولساناً يرد ما انقلب من الطعام إليه على الطواحين، ثم يلي ذلك بلعوم لازدراجه بعد الطحن، علم بأدنى تأمل أن هذه الخلقة ما انفعلت بنفسها اتفاقاً، بل هي مفتقرة على قصد قاصدٍ، وجعل جاعل.

وعلى هذا النمط، لو ذهبنا نذكر منفعة كل عضو، لوقفت على العجب، ولكن تركناه كراهية التتويل، وعلي هذا المعنى نبه الكتاب المهيمن^(٢) فقال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وفي هذه العبرة تستقل العقول بإثبات الصانع، وتستغني عن النظر في الجواهر والأعراض^(٣).

فالعلم المفيد لإثبات الصانع في الشاهد: مثل البناء، والنجار والخياط، وأشباههم، بعد النظر في صنائعهم على اضطرار.

و العلم المثبت للصانع سبحانه، عند النظر في حدوث العالم، علم استدلال، اعتباراً للغائب بالشاهد، إذ لا فرق في العقول بين صنعة وصنعة في اقتضاء صانع، وإنما كان العلم في الشاهد ضرورياً، لأن الإنسان لم يزل يرى البناء يبني، والخياط يخيط، والنجار ينجر الخشب، ولم تر العقلاء القديم سبحانه يخلق ويخترع، وإنما استفادوه من النظر في الشاهد.

فإن قيل: فأأي العلمين أقوى في النفوس، وأثبت في العقول؟ العلم بالصانع عند النظر في السرير واقتضائه للنجار؟ أم العلم بالإله عند النظر في السموات والأرضين وما بينهما؟.

فالجواب: أن هذا يستدعي تفصيلاً وتدقيقاً، وليس هذا الكتاب موضوعاً لذلك، فحينئذ نعلم أن معه عقلاً غريزياً، ونسميه عاقلاً، ونوجه التكليف عليه، وهو العقل التكليفي.

(١) الثفال: جلد يبسط تحت الرحي، والثفال: حجر الرحي الأسفل.

(٢) القرآن الكريم.

(٣) الجواهر: ما قام بنفسه والأعراض: ما قام بغيره.

و إذا ثبت هذا فاعلم أن الله تعالى ، خلق الخلق على أربعة أنحاء : ملائكة ، وآدميين ، وشياطين ، وبهائم .

فأما الملائكة فعقول بلا شهوات ، ولا هوى يقارنه .

و أما البهائم فشهوات بلا عقول .

و أما الشياطين والجن فرُكِبَ الله فيها العقول والشهوات والهوى .

و هكذا رُكِبَ في بني آدم العقل والهوى والشهوة ، فغلبت شهوات الشياطين وهواهم عقولهم ، فقطعوا أوقاتهم بالأخلاق المذمومة بالكبر ، والعجب ، والمقت ، والفخر ، والدعوى ، والحسد ، والأذية ، وسائر الأخلاق المهلكة .

و أما البهائم فتقضي أوقاتها في شهوات البطن والفرج .

و أما الآدميون ، فرُكِبَ فيهم عقول الملائكة ، وأخلاق الشياطين ، وشهوات البهائم ، فمن غلب عقله هواه منهم فكأنه من عالم الملائكة ، كالأنبياء ، والرسل ، والأولياء ، والأصفياء ، وقليل ما هم .

و أما من كان عقله مغلوبا بهواه وشهواته ، فإن كان ذلك من المباحات من المطاعم والمشارب ، والملابس والمراكب ، والنساء والخيل المسومة ، والأنعام والحرث ، فأكل وتمتّع بعد أن كسبه من حله ، فهذا من عالم البهائم ، وإنما ألحقناه بعالم البهائم لأنه لا تكليف على البهائم ، وكذلك هذه المباحات ، لا حرج في الاستمتاع بها ، بعد أن يكون كسبه من حله .

و إن كان الغالب عليه أخلاق الشياطين من الكبر ، والعجب ، والحسد . والغش ، إلى سائر الأخلاق المذمومة ، فهذا من عالم الشياطين .

و إن اجتمع في الشخص إفراط الشهوات ، وآتباع الهوى ، والأخلاق المذمومة ، فيكون آدميا في صورته ، شيطانا في خلائقه ، بهيمة في شهواته ، فلا يصلح للصحة ، وإن ثبت هذا فاعلم أن هذا العقل الغريزي أطول رقدة^(١) من العين ، وأحوج إلى الشحذ من السيف^(٢) .

(*) من إضافات المحقق .

(١) الرقدة : النوم .

(٢) شحذ السيف أو السكين : أحده بجعله حادا .

فصل في العقل المكتسب (*)

و أما العقل المكتسب : فهو نتيجة العقل الغريزي ، وهو ثقابة المعرفة ، وإصابة الفكرة وليس له حد ينتهي إليه ، لأنه ينمو إذا استعمل ، وينقص إن أهمل ، ونماؤه يكون بأحد وجهين :

الوجه الأول :

إما أن يقارنه ^(١) من مبدأ النشوء ذكاء وحسن فطنة ، كالذي قال الأصمعي : قلت لغلام حدث ^(٢) من أولاد العرب ، كان يحدثني ، وأمتعني الله بفصاحته وملاحظته : أيسرُك أن يكون لك مائة ألف درهم ، وأنتك أحقق ؟ قال : لا والله ، قلت ولم ؟ قال : أخاف أن يجني علي حمقي جناية تذهب بمالي ، ويبقى علي حمقي . فاستخرج هذا الصبي بفراط ذكائه ما يدق على من هو أكبر منه سنا .

وقيل لبعض الصبيان : ألك أب ؟ قال : فكأنني عيسى ابن مريم ؟ ! .

وقد قالت الحكماء : آية العقل سرعة الفهم ، وغايته إصابة الوهم ، وليس للذكاء غاية ، ولا لجودة القريحة ^(٣) نهاية .

ألا ترى أن إياس بن معاوية ^(٤) ، الذي يضرب المثل بذكائه ، قال لأبيه وهو طفل - وكان أبوه يؤثر أخاه عليه - : يا أبت تعلم ما مثلي ومثل أخي معك : أنا كفرخ الحمام ، أقبح ما يكون أصغر ما يكون ، وكلما كبر ازداد ملاحظة وحسنا ، فتبنى له العلال ، وتتخذ له المربعات ، ويستحسنه الملوك ، ومثل أخي مثل الجحش ، أملح ما يكون أصغر ما يكون ، وكلما كبر قبح وصار إلى القهقري ، إنما يصلح لحمل الزبل والتراب .

(*) من إضافات المحقق .

(١) يقارنه : يصاحبه .

(٢) غلام حدث : غلام صغير السن .

(٣) قال لفلان قريحة جيدة : أي يستنبط العلم بجودة الطبع .

(٤) إياس بن معاوية المزني : قاضي البصرة المشهور بعدله وذكائه ، توفي سنة ١٢٢ هـ . (الأعلام

والوجه الثاني:

ما يحصل لذوي الحنكة (١)، وصحة الرؤية لطول ممارسة الأمور وكثرة التجارب، ومرور الغير على أسماعهم، وتقلب الأيام، وتصرف الحوادث، وتناسخ الدول، قد مرت على عيونهم وجوه الغير، وتصدت لأسماعهم أنواع الأخبار وآثار العبر.

قال بعض الحكماء: كفى بالتجارب تأدباً، وبتقلب الأيام عظةً.

وقالوا: التجربة مرآة العقل، والغرة (٢) ثمرة الجهل، ولذلك حُمدت آراء الشيوخ حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار، وينابيع الأخبار، لا يطيش لهم سهم، ولا يسقط لهم وهم، فعليكم بآراء الشيوخ، فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع، فقد أفادتهم الأيام حنكة وتجربة.

وقد قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْعَقْلَ زَيْنٌ لِأَهْلِهِ وَلَكِنْ تَمَامُ الْعَقْلِ طُولُ التَّجَارِبِ

وقال آخر:

إِذَا طَالَ عُمُرُ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ آفَةٍ أَفَادَتْ لَهُ الْأَيَّامُ فِي كَرِّهَا عَقْلاً
غير أن للعقل آفات، كما قال بعض الحكماء: كيف يرجو العاقل النجاة، والهوى والشهوة قد اكتنفاه، والهوى أبعد من أن تنفذ فيه حيلة الحازم المحتال، وهو أغمض مسلكا في الجنان، من الروح في الجثمان، وأملك بالنفس من النفس، والمالك للشيء. ولهذا قيل: كم من عقل أسير عند هوى أمير، فمن أحب أن يكون حراً فلا يهوى، وإلا صار عبداً، كما قال علي بن الجهم (٣):

أَنْفُسٌ حُرَّةٌ وَنَحْنُ عَبِيدٌ إِنَّ رِقَّ الْهَوَى لَرِقٌّ شَدِيدٌ
و اختلفت الناس في العقل المكتسب، إذا تناهي وزاد في الإنسان، هل يكون فضيلة، أم لا؟ فقال معظم العقلاء: إنه فضيلة إذا كان مجموع آحاد،

(١) ذو الحنكة: من جعلته التجارب وتقلبات الدهر حكيماً. (٢) الغرة: الغفلة والغرور.

(٣) علي بن الجهم: شاعر بغدادي، كان معاصراً لأبي تمام، غضب عليه الخليفة المتوكل لهجائه وسعاياته، فنفاه إلى خراسان وهناك حبسه طاهر بن عبد الله، وصلبه يوماً كاملاً، ثم انتقل إلى حلب وخرج يريد الغزو، فقتله فرسان من بني كلب، حوالي سنة ٢٤٩ هـ له ديوان وله شعر في حبسه وصلبه، ويتميز شعره بالركة. (الأعلام ٤/ ٢٦٩).

والآحاد فضائل، ولا شك أن كثرة الفضائل فضيلة، أما الشيء المحدود، فتكون الزيادة فيه نقصاً من المحدود، كالتَّهْوُر في الشجاعة، والتبذير في الكرم.

وأما الزيادة في العقل المكتسب، فزيادة علم بالأمر، وحسن إصابة بالظنون، ومعرفة ما لم يكن بما قد كان، ورؤى عن النبي (ﷺ) قال: «أفضل الناس أعقل الناس» وقال عليه السلام: «العقل حيث كان ألف مألوف»^(١).

وقال القاسم بن محمد^(٢): من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه، كان حتفه في أغلب الخصال عليه.

ولما مات بعض الخلفاء، احتشدت الروم واجتمعت ملوكها، وقالوا: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض فيمكننا الغرة^(٣) منهم والوثبة عليهم، وضربوا في ذلك مشاورات، وتراجعوا فيه بالمناظرات، وأجمعوا على أنها فرصة الدهر وثغرة النحر^(٤)، وكان رجل منهم من ذوي الرأي والمعرفة غائباً عنهم فقالوا: من الحزم عرض الرأي عليه، فلما أخبروه بما أجمعوا عليه، قال لا أرى ذلك صواباً، فسألوه عن علة ذلك؟ فقال: غداً أخبركم إن شاء الله.

فلما أصبحوا، غدوا عليه للوعد، وقالوا: لقد وعدتنا، قال: نعم، فأمر بإحضار كلبين عظيمين قد أعدَّهُما، ثم حرَّش بينهما، وألب كل واحد على الآخر، فتوثبا وتهارشا، حتى سالت دماؤهما، فلما بلغا الغاية، فتح باب بيت عنده، وأرسل منه على الكلبين ذئبا عنده قد أعدّه، فلما أبصره تركا ما كانا عليه، وتآلفت قلوبهما، ووثبا جميعاً على الذئب فنالا منه ما أحبا.

(١) الحديثان ضعيفان. ذكر العجلوني الحديث الأول في كشف الخفاء ١/ ٥٧١. قال الشيخ الألباني: إن كل ما ورد في فضل العقل من الأحاديث لا يصح منها شيء وهي تدور بين الضعف والوضع.. ونقل عن العلامة ابن القيم قوله (أحاديث العقل كلها كذب) (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ج ١/ ١٣ و ج ٣/ ٤١٠).

(٢) القاسم بن محمد: حفيد أبي بكر الصديق وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة، توفي سنة ١٠٧هـ فكان صالحاً من سادات التابعين (الأعلام ٥/ ١٨١).

(٣) الغرة منهم: أي مفاجأتهم وأخذهم على حين غرة.

(٤) ثغرة النحر: نقرة النحر بين الترقوتين وهو تعبير يعني القدرة على اختراق العدو من نقطة

ضعفه.

ثم أقبل الرجل على أهل الجمع، فقال لهم: مثلكم مع المسلمين، مثل هذا الذئب مع الكلاب، لا يزال الهرج والقتال بينهم، ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم، فإذا ظهر لهم عدو من غيرهم تركوا العدو بينهم، وتألفوا على العدو. فاستحسنوا قوله وتفرقوا عن رأيهم.

* * *

فصل في ذم الدهاء والمكر (*)

و أما المذموم في هذا الباب : فصرف العقل إلى الدهاء والمكر، قال الشعبي^(١) : وقعت الفتنة ودهاة العرب ستة :

معاوية بن أبي سفيان^(٢)، وعمرو بن العاص^(٣)، والمغيرة بن شعبة^(٤) وزياد ابن أمية^(٥) وقيس بن سعد بن عبادة^(٦) وعبد الله بن بديل بن ورقاء^(٧).

وقال الأصمعي : كان معاوية يقول : أنا للأناة، وعمرو للبدية، وزياد للصغار والكبار، والمغيرة للأمر العظيم.

قال قبيصة بن جابر^(٨) : ما رأيت أعطى لجزيل مال بغير سلطان، من طلحة بن عبيد الله^(٩)، ولا رأيت أثقل حلما ولا أطول أناة من معاوية،

(*) من إضافات المحقق.

(١) الشعبي : عامر بن شراحيل. أبو عامر من التابعين الرواة والذي يضرب المثل بحفظه، ولد ونشأ ومات بالكوفة سنة ١٠٣هـ. (الأعلام ٣ / ٢٥١).

(٢) معاوية بن أبي سفيان : الخليفة الأموي الأول، سبقت ترجمته.

(٣) عمرو بن العاص : قائد مسلم شهير، فاتح مصر وباني مدينة الفسطاط، اشتهر بدهائه، توفي في القاهرة سنة ٤٣هـ. (الأعلام ٥ / ٧٩).

(٤) المغيرة بن شعبة : صحابي ثقفي، من دهاة العرب وولاتهم، ولأه عمر بن الخطاب على البصرة والكوفة وولاه معاوية على الكوفة، مات سنة ٥٠هـ. (الأعلام ٧ / ٢٧٧).

(٥) زياد بن أمية : هو زياد بن أبيه أو ابن أبي سفيان بن أمية، سبقت ترجمته.

(٦) قيس بن سعد بن عبادة : أنصاري صحابي، خزرجي، حمل راية الأنصار مع النبي ﷺ. توفي سنة ٦٠هـ. (الأعلام ٥ / ٢٠٦).

(٧) عبد الله بن بديل بن ورقاء : الخزاعي، صحابي من الدهاة الفصحاء اسلم يوم الفتح وقاتل مع علي في صفين وقتل فيها سنة ٣٧هـ. (الأعلام ٤ / ٧٢).

(٨) قبيصة بن جابر بن وهب الأزدي الكوفي تابعي من رجال الحديث الفصحاء، من أهل الكوفة، ويعد من فقهاء الطبقة الأولى بعد الصحابة، وهو أخو معاوية في الرضاة توفي سنة ٦٩هـ. (الأعلام ٥ / ١٨٨).

(٩) طلحة بن عبيد الله : صحابي قرشي من الشجعان والأجواد فسمي طلحة الجود من العشرة المبشرين بالجنة استشهد في موقعة الجمل وهو إلى جانب عائشة سنة ٣٦هـ. (الأعلام ٣ / ٢٢٩).

ولا رأيت أغلب للرجال ولا أبدلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص، ولا أشبه سرا بعلانية من زياد، ولو أن المغيرة كان في مدينة لها ثمانية أبواب، لا يخرج من باب منها إلا بالمكر، لخرج من أبوابها كلها.

وقال أبو الدرداء: قال النبي ﷺ: (يا عويمر، ازدد عقلا تزدد من ربك قربا) قلت: بأبي أنت وأمي، ومن لي بالعقل؟ قال: (اجتنب محارم الله، وأد فرائض الله، تكن عاقلا، ثم تنفل صالح الأعمال، تزدد في الدنيا عقلا، وتزدد من ربك قربا، وعليه عزاً) (١).

ويروى لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، شعر:

فَالْعَقْلُ أَوْلَاهَا وَالِدَيْنِ ثَانِيهَا	إِنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مُطَهَّرَةٌ
وَالْجُودُ خَامِسُهَا وَالْعُرْفُ سَادِسُهَا	وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا وَالْحِلْمُ رَابِعُهَا
وَالشُّكْرُ تَاسِعُهَا وَاللِّينُ عَاشِرُهَا	وَالْبِرُّ سَابِعُهَا وَالصَّبْرُ ثَامِنُهَا
وَلَسْتُ أُرْشِدُ إِلَّا حِينَ أَعْصِيهَا	وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أَصَدِّقُهَا
إِنْ كَانَ مِنْ حَزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا	وَالْعَيْنُ تَعْلَمُ فِي عَيْنِي مُحَدِّثُهَا

وقال بعض الحكماء: العاقل: من عقله في إرشاد، ومن رأيه في إمداد، فقله سديد وفعله حميد. والجاهل: من جهله في إغواء، فقله سقيم، وفعله ذميم، فأما من صرف فضل عقله إلى الدهاء والمكر والسر والهيل والخديعة، كالحجاج وزياد (٢) وأشباههما، فمذموم.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لست بالخَبِّ (٢) والخَبُّ لا يخدعني.

وقال المغيرة (٣): كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أفضل من أن يخدع، وأعقل من أن يخدع.

(١) الحديث: ذكر في المطالب العالية لابن حجر رقم ٢٧٦٨ وأبو الدرداء هو عويمر بن مالك. سبقت ترجمته.

(٢) الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه: وقد اشتهدا بحزبهما وشدتهم وسفكهما للدماء أثناء توليهما العراق وقد مرت ترجمتهما.

(٣) الخب: الخداع.

(٤) أي المغيرة بن شعبة وقد سبقت ترجمته.

و الموصوف بالدهاء والمكر مذموم، وصاحبه محذور، تُخاف غوائله (١)،
وتُحذر عواقب حبائله (٢).

وقد أمر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أبا موسى الأشعري (٣) أن
يعزل زيادا عن ولايته، فقال زياد: أعن موجدة (٤) أو خيانة يا أمير المؤمنين؟
قال: لا عن واحدة منهما، ولكن كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك.

وكتب زياد إلى معاوية - رضي الله عنه - إن العراق في شمالي ويميني
فارغة، فوَلَّني الحجاز أكفك أهله، فبلغ ذلك ابن عمر، فقال: اللهم اكفه،
فطعن في أصبعه بعد أيام، فمات.

فنحن وإن كنا نرغب عن الدهاء والمكر (٥)، فإننا نرغب في الحيلة
ونرضى بها، والاتساع في الحيلة مما تواسى به العقلاء قديما وحديثا، وليس
شيء من أمور الدنيا لطالب الرفعة، وباغي الوسيلة، ومرتاد أي أمر كان، دق
أو جل، خيرا من الحيلة، وأضعف الحيلة أنفع من كثرة الشدة.

وقالت الحكماء: ملاك العقل: الحيلة والتأني للسبب الضعيف والقوي من
الأمر.

وروي أن رجلا وقف لكسرى، فقال: أنا أصنع ما تعجز الخلائق عنه، قال:
ما هو؟ قال: يُشَدُّ برجلي حبل، طرفه برقبة الفيل، وبرجلي الأخرى كذلك،
ويُشَدُّ طرفه برقبة الفيل، ثم يساق الفيل بالضرب والزجر فلا أتزحزح. ففعل
ذلك فتمت حيلته، ثم طلب أن يفعل ذلك بأربع من الفيلة فمرت بحدتها،
فقسموه شطرين، فقال كسرى: ومن لم يكن أكبر ما فيه عقله، هلك بأكبر
ما فيه، فنظمه بعض الشعراء وقال:

مَنْ لَمْ يَكُنْ أَكْبَرَهُ عَقْلُهُ أَهْلَكَهُ أَكْبَرُ مَا فِيهِ

(١) الغوائل: الدواهي والشر والحقد الباطن.

(٢) الحبائل: مفردا الحبال وهي المصيدة.

(٣) أبو موسى الأشعري: عبد الله بن قيس، أسلم بمكة وهاجر للحبشة، ولاه عمر بن الخطاب
رضي الله عنه على البصرة سنة ٢٠ هـ، فتح الأهواز ثم انتقل إلى مكة ومات بها سنة ٤٤ هـ. (الأعلام
١١٤/٤).

(٤) الموجدة: الغضب.

(٥) نرغب عن الدهاء والمكر: أي نرفضهما ولا نرضى بهما.

وسمعت أستاذنا: أبا الوليد ^(١) يحكي: أن رجلاً استأذن على هارون الرشيد، وقال: إني أصنع ما تعجز الخلائق عنه. قال الرشيد: هات. فأخرج أنبوبة قصب فيها إبرٌ عدة، ثم وضع واحدة في الأرض، وقام على قدميه، وجعل يرمي إبرة إبرة من قامته، فتقع كل إبرة في عين الإبرة الموضوعة، حتى فرغ دسته ^(٢)، فأمر الرشيد بضربة مائة سوط، ثم أمر له بمائة دينار، فسئل عن جمعه بين الكرامة والهوان، فقال: وصلته لجودة ذكائه، وأدبته كي لا يصرف فرط ذكائه في الفضول.

ومن زعم أن العقل المكتسب إذا تناهى لا يكون فضيلة، قال: لأن الفضائل هبات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين، فما جاوز التوسط، خرج عن حد الفضيلة، كالكرم الذي هو متوسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين التهور والجبن.

وقالت الحكماء للإسكندر: أيها الملك: عليك بالاعتدال في كل الأمور، فإن الزيادة عيب والنقصان عجز.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال: «خير الأمور أوسطها» ^(٣).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خير الأمور الأوسط، إليه يرجع العالي، ومنه يلحق التالي.

قالوا: ولأن زيادة العقل تفضي بصاحبها إلى الدهاء والمكر وذلك مذموم. قلنا: هذا كله باطل بما قدمناه لنصرة القول الأول، وهو منقوض بالعقل الغريزي، وبالعلوم، وبسائر الفضائل.

و أما قولهم: أنه يفضي بصاحبه إلى الدهاء والمكر.

فقلنا: الدهاء والمكر كسب معانٍ أخر غير العقل، ليست من لوازم العقل، فإن شاء تدهى ومكر، وإن شاء كف كما تقول:

(١) هو أبو الوليد الباجي: القاضي والفقيه الأندلسي المالكي، والذي صاحبه الطرطوشي وأخذ عنه مسائل الخلاف وقد سبقت ترجمته.

(٢) دسته: لعبه.

(٣) الحديث: رواه البيهقي في شعب الإيمان عن بعض الصحابة (كنز العمال ج ١٠ / رقم ٢٨٦٥٨) وذكره القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ دون ذكر الراوي (الجامع لأحكام القرآن - القرطبي ٢ / ١٠٤).

«في كل شر يكتسبه العاقل باختياره، وليس عقله أوقعه فيه بل إنما أوقعه قلة عقله».

كان بزرجمهر لما فرغ من كتاب أمثاله ونَسَقَ كلَّ بابٍ على حياله، يقول: ليس العجب ممن حفظ هذه الأمثال فصار عالماً، إنما العجب ممن حفظها ولم يصِرَ عالماً.

و أنا أقول: ليس العجب ممن قرأ كتابي هذا وصار مهذباً كاملاً، إنما العجب ممن قرأه ولم يصِرَ مهذباً كاملاً.

* * *

الباب الرابع والعشرون

في الوزراء وصفاتهم، والجلساء وآدابهم

قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩]، فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء، لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران.

ثم ذكر حكمة الوزارة، فقال: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٣١، ٣٢]، دلت الآية على أن موضع الوزارة، أن تشدَّ قواعد المملكة، وأن يفضي إليه السلطان بعجزه، ويجزه إذا استكملت فيه خلال المحمود.

ثم قال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣، ٣٤]، دلت هذه الكلمات على أن: بصحة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة، تنتظم أمور الدنيا وأمور الآخرة، وكما أن أشجع الناس يحتاج إلى السلاح، وأفره الخيل^(١) إلى السوط، وأحد الشفّار إلى المسن، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير.

و روى أبو سعيد الخدري قال: ما بعث الله نبياً ولا استخلف خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله تعالى.

و إنما اشتقت الوزارة من الوزر وهو الثقل، يريد أنه: يحمل من أمر المملكة وأعبائها وأثقالها مثل الأوزار.

أسعد الملوك: من له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه.

و قال وهب بن منبه^(٢): قال موسى عليه السلام لفرعون: آمن ولك الجنة ولك ملكك، قال: حتى أشاور هامان^(٣)، فشاورة في ذلك، فقال: (بينما أنت إليه تعبد إذ صرت تعبد) فأنف وأستكبر وكان من أمره ما كان.

(١) أفره الخيل: أمهرها وأجودها.

(٢) وهب بن منبه: مؤرخ من التابعين، اشتهر بمعرفة أخبار الأقدمين والأنبياء، ولد بصنعاء اليمن ومات فيها سنة ١١٤هـ. وقد سبقت ترجمته.

(٣) هامان: وزير فرعون، ورد ذكره في القرآن الكريم.

و على هذا النمط ، كان وزيرُ الحجاج ، يزيد بن أبي مسلم ^(١) ، لا يألوه خبالا ^(٢) ، ولبئس القرناء ، شرُّ قرينٍ لشرِّ خدين ^(٣) .
و أشرف منازل الآدميين النبوة ، ثم الخلافة ، ثم الوزارة .
الوزير عون على الأمور وشريك في التدبير ، وظهير على السياسة ، ومفزع عند النازلة ^(٤) .

الوزير مع الملك بمنزلة : سمعه ، وبصره ، ولسانه ، وقلبه .
و في الأمثال : « نعم الظهير الوزير » .

واعلم : أن أول ما يستفيد الملك من الوزراء أمران : علم ما كان يجهله ،
ويقوى عنده علم ما كان يعلمه ، فيزول شكُّه .

و أول ما يظهر نُبُل السلطان ، وقوة تمييزه ، وجودة عقله ، في : انتخاب
الوزراء واستنقاد الجلساء ^(٥) ومحادثة العقلاء ، فهذه ثلاث خلال تدل على
كماله ، وبها يجمل في الخلق ذكره ويجلُّ في العقول قدره ، وترسخ في
النفوس عظمته ، والمرء موسوم بقرينه . وكان يقال : حلية الملوك وزينتهم :
وزرائهم .

و في كتاب كليلة ودمنة ^(٦) : لا يصلح السلطان إلا بالوزراء ، ولا الأعوان إلا
بالمودة والنصيحة ، ولا المودة والنصيحة إلا بالرأي والعفاف . وأعظم الأشياء
ضررا على الناس عامة وعلى الولاة خاصة ، أن يحرموا صالح الوزراء والأعوان ،

(١) يزيد بن أبي مسلم : يزيد بن دينار الثقفي أبو مسلم كنية أبيه وال من الدهاة جعله الحجاج
كاتبا له ، ولما احتضر الحجاج استخلفه على الخراج بالعراق ، وأمره الوليد بن عبد الملك بعد موت
الحجاج سنة ٩٥ هـ ثم عزله سليمان ولكن بعد أن حادثه أعجبه عقله ومنطقه واستبقاه عنده ثم ولي
إمارة في أفريقيا وقتله أهلها هناك سنة ١٠٢ هـ . (الأعلام ٨ / ١٨٢) .

(٢) يألوه خبالا : أي لا يُقَصِّر في إفساد دينه . والجدير بالذكر أن هذا اللفظ مقتبس من الآية
الكريمة رقم ١١٨ من سورة آل عمران ، حيث قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ
دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ۖ ﴾ .

(٣) الخدين : الصاحب أو الصديق .

(٤) مفزع عند النازلة : يكشف ويزيل السوء عند حلول المصيبة .

(٥) استنخاب الوزراء : اختيارهم . واستنقاد الجلساء : اختبارهم .

(٦) كليلة ودمنة : كتاب في تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق والإرشاد إلى حسن السياسة وضعه
الفيلسوف الهندي (بيديا) وترجمه عبد الله بن المقفع من البهلوية إلى العربية ، يتكلم فيه على
السنة الطيور والحيوانات .

فتكون أعوانهم غير ذي جدوى وغناء، ويحذر الملك أن يولي الوزارة غير المتحرّين، كي لا تضيع الأمور، كما يحذر أن يتطبّب بغير طبيب بصيرٍ مأمون .
وقال شريح بن عبيد^(١) : لم يكن في بني إسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم، إذا رآه غضبان كتب له ثلاث صحائف، في كل صحيفة (ارحم المسكين، واخش الموت، واذكر الآخرة)، فكلما غضب الملك ناوله صحيفة حتى يسكن غضبه .

وقال أردشير : يحق على الملك أن يكون ألطف ما يكون نظرا أعظم ما يكون خطرا، ولا يذهب حسن أثره في الرعية خوْفُه لها، ولا يستغني بتدبير اليوم عن تدبير غد، وأن يكون حذره للمتلاقين أكثر من حذره للمتباعدين، وأن يتقي بطانة السوء أشد من اتقائه العامة، ولا يطمعن في إصلاح العامة إلا بالخاصة .

وقال أردشير : لكل ملك بطانة، حتى يجمع بذلك جميع المملكة، فإذا أقام الملك بطانته على حال الصواب، أقام كل امرئ منهم بطانته على مثل ذلك، حتى يجتمع على الصلاح عامة الرعية .

و مثال الملك الخير والوزير السوء، الذي يمنع الناس خيره، ولا يمكنهم من الدنو منه، كالماء الصافي فيه التمساح، فلا يستطيع المرء دخوله وإن كان سابحا، وكان إلى الماء محتاجا .

و مثل السلطان مثل الطبيب، ومثل الرعية كمثال المرضى، ومثل الوزير كمثال السفير بين المرضى والأطباء، فإن كذب السفير بطل التدبير، وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحدا من المرضى، وصف للطبيب نقيض دائه، فإذا سقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل، كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس في الرجل، فيقتله الملك .

فمن ههنا شرطنا : أن يكون الوزير صدوقا في لسانه، عدلا في دينه، مأمونا في أخلاقه، بصيرا بأمور الرعية، وتكون بطانة الوزير، من أهل الأمانة والبصيرة، ويحذر الملك أن يولي الوزارة لثيما، فاللثيم إذا ارتفع جفا أقاربه،

(١) شريح بن عبيد بن شريح الحضرمي الحمصي، من رواة الحديث الثقات، من الطبقة الثالثة، مات بعد المائة الهجرية، (تقريب التهذيب ١/٤١٦) .

وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف، وتكبر على ذوي الفضل.

ولما أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب كاتب الحجاج، يزيد بن أبي مسلم، قال له عمر بن عبد العزيز: أسألك بالله يا أمير المؤمنين، أن لا تحيي ذكر الحجاج باستكتابك إياه، فقال: يا أبا حفص: إنني لم أجد عنده خيانة دينار ولا درهم، قال عمر: أن أوجدك من هو أعف منه في الدينار والدرهم، قال: ومن هو؟ قال: إبليس، ما مس ديناراً ولا درهما، وقد أهلك هذا الخلق.

ودخل رجل له عقل وأدب على بعض الخلفاء، فوجد عنده رجلاً ذمياً كان الخليفة يميل إليه ويقربه فقال:

يا ملك طاعته في الوري وحبّه مفترض واجب
إن الذي شرفْت من أجله يزعم هذا أنه كاذب
- وأشار إلى الذمي - فأسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك، فسأله: فلم يجد بداً من أن يقول: هو صادق. فاعترف بالإسلام^(١).

لا يعرف وزير الملك ماله وما عليه حتى يراعي من صاحبه الواثق به، ما يراعيه العاشق الغيور من المعشوقة المتهومة.

وكان بعض الملوك، قد كتب ثلاث رقاع، وقال لوزيره: إذا رأيتني غضبان، فادفع إلي رقعة بعد رقعة^(٢).
فكان في الواحدة: إنك لست بإله، وإنك ستموت، وتعود إلى التراب، فيأكل بعضك بعضاً.

وفي الثانية: ارحم من في الأرض، يرحمك من في السماء.

وفي الثالثة: اقض بين الناس بحكم الله فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك.

وإذا كان الوزير يساوي الملك في الرأي والهيبة والطاعة، فليصرعه الملك، فإن لم يفعل فليعلم أنه المصروع.

(١) ذكر ابن خلكان وغيره: أن صاحب هذه الحكاية وصاحب أبيات الشعر والرجل الذي له عقل وأدب، هو المؤلف (أبو بكر الطرطوشي) وأن الخليفة الذي دخل عليه هو (الأفضل بن أمير الجيوش في مصر) وقد سبق ذكر هذه القصة في مقدمتنا وقد أنشد البيت الأول من الشعر بلفظ مشابه وهو: (يا ذا الذي طاعته قرية وحقه مفترض واجب). (انظر وفيات الأعيان ٤/ ٢٦٣).

٢- قوله (بعد رقعة) سقطت من (ط).

و في الأمثال : إذا سكنت الدهماء ^(١) ، خاف الوزراء
ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء ، وأزمة ^(٢) الملوك في أكف
الوزراء ، سيق فيهم من العقلاء المثل السائر فقالوا : (لا تغتر بمودة الأمير إذا
غشك الوزير ، وإذا أحبك الوزير فلا تخش الأمير) .

ويقال : (الخرق : ممارة الأمراء ^(٣)) ومعادة الوزراء ، ورب أمر كرهه الأمير
فتم بالوزير ، وكم من أمر أراده الأمير فثناه عنه الوزير ، وإنما السلطان كالدار
والوزير بابها ، فمن أتى الدار من بابها ولج ، ومن أتاها من غير بابها أزعج) .
وقال أنوشروان ^(٤) : لا يتم للملك أمره حتى يرفع نفسه عن كل عيب ،
ويكون له جلس مأمون الغيب ، وخادم ناصح الجيب .

و موقع الوزارة من المملكة كموقع المرأة من النظر ، فكما أن من لم ينظر
إلى المرأة ، لا يرى محاسن وجهه وعيوبه ، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير
لا يعرف محاسن دولته وعيوبها .

و كاتب الملك مستقر أسرارهِ ، ولسانه الناطق عنه في آفاق مملكته ،
والمخصوص بقربه ولزومه دون نظرائه .

ظهير الأمير وزيره ، وزينته حاجبه ، ولسانه كاتبه ، ورسوله عينه .
للكاتب على الملك ثلاثة أشياء : يرفع الحجاب عنه ، ويتهم الوشاة عليه ،
ويفشي سره إليه .

وقد قالت الحكماء : لا يطمعن ذو الكبر في الثناء ، ولا الخب ^(٥) في كثرة
الصدق ، ولا السيء الأدب في الشرف ، ولا الشحيح في البر ، ولا الحريص في
قلة الذنوب ، ولا الملك المتهاون الضعيف الوزراء في بقاء الملك .
وكما أن المرأة لا تريك وجهك إلا بصفاء جوهرها ، وجودة صقلها ،

(١) الدهماء / عامة الناس .

(٢) الأزمة : جمع زمام وهو المقود .

(٣) الخرق : الحمق والجهل ، والرجل الأخرق : الأحمق الجاهل سيء التصرف أو ضعيف الرأي .

ممارة الأمراء : أي مجادلته .

(٤) كسرى أنوشروان : من ملوك الفرس الساسانيين والذي اشتهر بعدله وصلاحه .

(٥) الخب : الخداع .

ونقائها من الصدا، كذلك الأمير لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير، وصحة فهمه، وصفاء نفسه، ونقاء قلبه.

و من شروط الوزير: أن يكون مكين الرحمة للخلق، رؤوفا بهم، ليأسو برحمته ما يجرحه السلطان بغلظته.

ومن شروطه: أن يكون نقي الجيب، ناصح الغيب، لا يقبل دقيقة^(١)، ولا يكتم نصيحة.

وقال بعض الملوك لوزيره: لا تكوننَّ إلى ما تسرني به أسرع مبادرة من إنذارني فيما يخاف عليّ منه.

وقال بعض الملوك: أعط من أتاك بما تكره، كما تعطي من أتاك بما تحب، فإن من أنذر كمن بشر.

ومن شروطه: أن يكون معتدلاً قليل تهامة، لا حرّاً ولا قر^(٢).

و موقع الوزير من الملك موقع الملك من العامة، وكما أن السلطان إذا صلح صلحت الرعية، وإذا فسد فسدوا، كذلك الوزراء، إذا فسدوا فسد الملك، وإذا صلحوا صلح الملك.

وكان يقال: آفة العقل الهوى، وآفة الأمير سخافة الوزير.

وقال المقتدر بالله^(٣) لوزيره: علي بن عيسى^(٤): اتَّقِ اللهَ يُعْطِفْنِي عليك، ولا تعصه فيسلطني عليك.

(١) الدقيقة: تأتي بمعنى الأمر الغامض.

(٢) القر: البرد.

(٣) المقتدر بالله: الخليفة العباسي الثامن عشر (جعفر بن المعتضد) في عهده ظهر الفاطميون في أفريقية سنة ٢٩٦هـ، والأمويون في قرطبة سنة ٣١٥هـ، وأغار القرامطة على العراق واحتلوا مكة، ونقلوا الحجر الأسود إلى الأحساء حوالي سنة ٣١٦هـ. ومات سنة ٣٢٠هـ. (الأعلام ٢/ ١٢١).

(٤) علي بن عيسى: ابن الجراح، أبو الحسن البغدادي وزير المقتدر بالله العباسي والقاهر، وأحد العلماء الرؤساء من أهل بغداد، أصله فارسي، نشأ كاتباً كأبيه، وولي مكة، ثم استقدمه المقتدر بالله إلى بغداد وولاه الوزارة، فأصلح الأحوال وأحسن الإدارة وحُمدت سيرته، وكانت حياته مليئة بالاضطرابات، حيث نَقِمَ عليه المقتدر بالله أكثر من مرة، وله مؤلفات عدّة توفي ببغداد سنة ٣٣٤هـ. (الأعلام ٤/ ٣١٧).

وقال المأمون، لمحمد بن يزيد^(١) : إياك أن تعصي الله فيما تتقرب به إليّ، فيسلطني عليك.

واعلم : أنه ليس للوزير أن يكتُم السلطان نصيحة وإن استقلها، وموقع الوزير من المملكة كموقع العينين من الإنسان، وكاليدنين، فإنه إذا صح قبضهما وبسطهما صح التدبير، وإذا سقما دخل النقص على الجسد. ولا تصلح الوزارة أن تكون في غير أهلها، كما لا يصلح الملك أن يكون في غير أهله.

وشر الوزراء : من كان الأشرار أيضا له وزراء وبطانة ودُخلاء. وأوصت امرأة ابنها وكان ملكا فقالت : يا بُنَيَّ ينبغي للملك أن يكون له ستة أشياء : وزيرٌ يثق برأيه ويفضي إليه بأسراره، وحصن يلجأ إليه إذا فزع، وسيف إذا نازل الأقران لم يخنه، وذخيرة خفيفة المحمل إذا نابته نائبة كانت معه، وامرأة إذا دخلت عليه أذهبت همه، وطباخ إذا لم يشته الطعام طبخ له ما يشتهيه.

* * *

(١) محمد بن يزيد بن سويد المرزوي، من كُتّاب الإنشاء في الدولة العباسية، استوزره المأمون، وتوفي المأمون وهو على وزارته، وله شعر جيد توفي بسر من رأى (سامراء) سنة ٢٣٠ هـ. (الأعلام ١٤٣/٧).

الباب الخامس والعشرون

في الجلساء وآدابهم

قال الله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٨ و ٢٩]، وينبغي للملك أن يجالس أهل العقل والأدب، وذوي الرأي والحسب، وذوي التجارب والعبر، فيفهم جالسة العقلاء لقاح العقل ومادته.

ولذلك حُمدت آراء الشيوخ، فقال القدماء: المشايخ أشجار الوقار، وينابيع الأخبار، لا يطيش لهم سهم، ولا يسقط لهم وهم. وقالوا: عليك بآراء المشايخ، فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع، فقد مرت على عيونهم وجوه العبر، وتصدت لأسماعهم آثار الغير. وقالوا: رأي الشيخ خير من مشهد الغلام.

وقال عبد الملك (١) لجلسائه: جنّبوني ثلاثاً: لا تطروني، فإني أعرفُ بنفسي منكم، ولا تكذبوني، فإنه لا رأي لكذوب، ولا تغتابوا عندي أحداً، فيفسد قلبي عليكم.

وقال بعض الحكماء: كفى بالتجارب تأديبا، وبتقلّب الأيام عظة.

وقالوا: التجربة مرآة العقل، والغرة (٢) ثمرة الجهل.

وقد قال هرم بن قطبة (٣) - وهو أحد حكماء العرب - حين تنافر (٤) إليه

(١) عبد الملك: هو عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي الخامس وقد سبقت ترجمته.

(٢) الغرة: أي الغرور.

(٣) هرم بن قطبة: بن سيار الفزاري، من قضاة العرب في الجاهلية، أسلم في عهد النبي ﷺ وكان من الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء وقد عاصر هرم بن سنان المشهور بجوده، وقد مات سنة ١٣هـ أما هرم بن سنان فقد مات سنة ١٥هـ. (الأعلام ٨/ ٨٣).

(٤) تنافر الرجلان: تحاكما وتفاخرا.

عامر بن الطفيل^(١)، وعلقمة بن علاثة^(٢) : عليكم بالحديث السن، الحديد النظر.

وقال كثير من حكماء العرب : عليكم بمشاورة الشباب، فإنهم ينتجون رأيا لم يقله طول القدم، ولا استولت عليه رطوبة الهرم، والمذهب الأول أصدق على العقول.

وقال عبد العزيز بن زرارة^(٥) لمعاوية : عليك بمجالسة الألباء، أعداء كانوا أو أصدقاء، فإن العقل يقع على العقل.

وقال ابن عباس : مجالسة العقلاء تزيد في الشرف.

وقال سفيان بن عيينة^(٤) : إن الرجل ممن كان قبلكم ليلقى الرجل العاقل فيكون بعقله عاقلا أيا ما.

وقال مالك بن أنس^(٥) : مر سليمان بن داود عليهما السلام، بقصر في أرض مصر، فوجد فيه مكتوبا :

إِلَى الْقَصْرِ فَعَلْنَاهُ ^(٦)	غَدَوْنَا مِنْ قُرَى اصْطَخَرٍ
فَمَبْنِيًّا وَجَدْنَاهُ	فَمَنْ يَسْأَلُ عَنِ الْقَصْرِ
إِذَا مَا الْمَرْءُ مَاشَاهُ	يُقَاسُ الْمَرْءُ بِالْمَرْءِ
عَلَامَاتٍ وَأَشْبَاهُ	وَفِي الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ
وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ	فَلَا تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ
حَلِيمًا حِينَ آخَاهُ	فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرَدَى

(١) عامر بن الطفيل : من مشاهير الجاهلية ومشاهير فرسانها من بني عامر بن صعصعة، له ديوان في الفخر والحماسة جمعه أبو بكر بن الأنباري، توفي سنة ٦٣٢ م في حدود ١١ هـ. (الأعلام ٣/ ٢٥٢).

(٢) علقمة بن علاثة : علقمة بن علاثة بن عوف الكلابي العامري، من بني عامر بن صعصعة، كان في الجاهلية من أشرف قومه، وفد على قيصر ثم أسلم، وارتد في أيام أبي بكر ثم أسلم وحسن إسلامه وولاه عمر بن الخطاب حوران ومات سنة ٢٠ هـ. (الأعلام ٤/ ٢٤٨).

(٣) عبد العزيز بن زرارة : الكلابي، قائد من الشجعان في زمن معاوية، كان في من غزا القسطنطينية وأبلى في قتال الروم بلاء حسنا استشهد في إحدى الوقائع سنة ٥٠ هـ. (الأعلام ٤/ ١٧).

(٤) سفيان بن عيينة : محدث كبير حدث في الحرم المكي، وعالم جليل توفي سنة ١٩٨ هـ. سبقت ترجمته.

(٥) مالك بن أنس : أمام أهل السنة سبقت ترجمته.

(٦) اصطخر : بلدة بفارس، وكان بها سرير الملك في القديم وبها آثار عظيمة وأول من أنشأها (اصطخر بن طهمورت) ملك الفرس. (معجم البلدان ١/ ٢١١).

قال : ووجد عليه نسرا واقعا ، فدعاه ، فقال : من بنى هذا القصر ؟ قال : لا أدري ، قال كم لك منذ وقعت عليه ؟ قال : تسعمائة سنة .
وفي الأمثال : يُظَنُّ بالمرء ما يُظَنُّ بخليله .

ولما حج عبد الله بن جعفر ^(١) ، نزل مكة ليلا ، فلما أصبح ، قال : يا أهل مكة : عرفنا خياركم من شراركم في ليلة واحدة . قالوا : كيف ذلك ؟ قال : نزلنا ومعنا أخيار وأشرار ، فنزل أختيارنا على أخياركم ، وأشرارنا على أشراركم فعرفناكم .
واعلم : أنه ليس الدخان على النار ، بأدل من الصاحب على الصاحب .
ونال الأوزاعي ^(٢) : الصاحب للصاحب كالرقعة في الثوب ، إن لم تكن في مثله شانتة ^(٣) .

وقال مالك بن مسمع ^(٤) للأحنف بن قيس ^(٥) : يا أبا بحر : ما أشتاق إلى غائب إذا حضرت ، ولا انتفع بحاضر إذا غبت .
فأخذه إبراهيم بن العباس الكاتب ^(٦) فنظمه فقال :

وَأَنْتَ هَوَى النَّفْسِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَنْتَ الْحَبِيبُ وَأَنْتَ الْمُطَاعُ
وَمَا بِكَ إِنْ بَعْدُوا وَحَدَةً وَمَا مَعَهُمْ إِنْ بَعْدَتْ اجْتِمَاعُ
وقال عبد الله بن طاهر ^(٧) : المال غاد ورائح ، والسلطان ظل زائل ،
والإخوان كنوز وافرة .

(١) في (ط) عبید الله بن جعفر (خطأ) وهو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، صحابي ولد بالحبيشة لما هاجر أبواه إليها وهو أول من ولد بها من المسلمين وأتى البصرة والكوفة والشام ، كان كريما يسمى بحر الجود ، وكان أحد الأمراء في جيش علي يوم «صفين» مات بالمدينة سنة ٨٠هـ (الأعلام ٤ / ٧٦) .
ووجدت في كتاب (مصرع التصوف للبقاعي ص ٢٤٦) إن هذا القول منسوب إلى علي رضي الله عنه قاله بعد قدومه الكوفة بثلاثة أيام .

(٢) الأوزاعي : عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي ، سبقت ترجمته .

(٣) شانتة : عابته أي إن لم تكن الرقعة مشابهة للثوب عابته .

(٤) مالك بن مسمع بن شيبان البكري ، سيد ربيعة في زمانه ، كان مقدما رئيسا ، وكان يقال (ساد الأحنف بحلمه وساد مالك بن مسمع بمحبة العشيرة له) توفي سنة ٧٣هـ (الأعلام ٥ / ٢٦٥) .
(٥) الأحنف بن قيس : سيد بني تميم في البصرة ومن دهاة العرب الفصحاء والشجعان والأذكياء وقادتهم في صدر الإسلام توفي سنة ٧٢هـ ، سبقت ترجمته .

(٦) إبراهيم بن العباس : أبو اسحاق الصولي كاتب العراق في عصره ، أصله من خراسان ، ومن الشعراء المجيدين ، قال المسعودي : لا نعلم فيمن تقدم وتأخر من الكتاب أشعر منه ، توفي سنة ٢٤٣هـ (الأعلام ١ / ٤٥) .

(٧) عبد الله بن طاهر : من أشهر الولاة في عهد الخليفة المأمون العباسي وطد الأمن في مصر ثم خلف أخاه طلحة بن طاهر في حكم خراسان توفي سنة ٢٣٠هـ (الأعلام ٤ / ٩٣) .

و قال الأصمعي : تناظر رجلان ، وأعرابيٌّ حاضر ، فقال لأحدهما : مناظرة مثلك في الدين فرض ، والاستماع منك أدب . ومجالستك زين ، ومعرفتك عز ، ومذاكرتك تلقيح للعقول وشحد ، وإخاؤك شرف وفخر .
وقال السمسmani (١) : غَنَى مُخَارِقُ (٢) بين يدي المأمون :

وَإِنِّي لَمُشْتَبِقٌ إِلَى ظِلِّ صَاحِبٍ يَرُوقُ وَيَصْفُوا إِنْ كَدَرْتُ عَلَيْهِ
عَذِيرِي مِنَ الْإِنْسَانِ لَا إِنْ جَفَوْتَهُ صَفَا لِي ، وَلَا إِنْ صَرْتُ طَوْعَ يَدِيهِ
فَطَرَبَ الْمَأْمُونُ وَقَالَ : ويحك يا مخارق ، خذ مني نصف الخلافة واعطني
هذا الإنسان .

و قالت الحكماء : النظر في عواقب الأمور ، تلقيح العقول .
وقالوا : العاقل لا تنقطع صداقته ، والأحمق لا تدوم مودته ، فاتخذ من
نصحاء أصحابك مرآة لطبائعك وفعائلك ، كما تتخذ لوجهك المرآة
المجلوة ، فإنك إلى صلاح طبائعك أحوج منك إلى تحسين صورتك .
وقال المأمون للحسن بن سهل (٣) : نظرت في اللذات فوجدتها كلها
مملولة خلا سبعة ، قال : وما السبع يا أمير المؤمنين ؟ قال : خبز الحنطة ،
ولحم الغنم ، والماء البارد ، والثوب الناعم ، والرائحة الطيبة ، والفراش
الوطيء ، والنظر إلى الحسن من كل شيء . قال : فأين أنت يا أمير المؤمنين
من محادثة الرجال ؟ قال : صدقت ، وهي أولاهن .

وقال هشام بن عبد الملك (٤) : قد قضيت الوطر من كل شيء ، فأكلت
الحلو والحامض حتى لا أجد لواحد منهما طعاما ، وشملت الطيب حتى
لا أجد له رائحة ، وأتيت النساء حتى ما أبالي امرأة أتيت أم جدار حائط ، فما
وجدت شيئا ألد من جليس يسقط بيني وبينه مؤنة التحفظ .

(١) السمسmani : أبو الحسن علي بن عبيد الله ، اللغوي المعروف بالسمسماني ، تصدر للرواية
وإقراء الأدب في بغداد ، ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه وقال : كتبت عنه وكان صدوقا توفي سنة
٤١٥ هـ ، (تاريخ بغداد ١٢ / ١٠) .

(٢) مخارق : أبو المهنا بن يحيى الجزار ، إمام عصره في فن الغناء ، أعجب به الرشيد وقربه ،
واتصل بالمأمون ، توفي سنة ٢٣١ هـ ، (الأعلام ٧ / ١٩١) . (والأبيات المذكورة لأبي العتاهية وقد
وردت في ديوانه ص ٤٦٤) .

(٣) الحسن بن سهل : الحسن بن عبد الله السرخسي ، وزير المأمون ، وأحد كبار القادة والولاة
في عصره ، اشتهر بالفصاحة والأدب وحسن التوقيعات وهو والد (بوران) زوجة المأمون وكان المأمون يجله
وبالغ في إكرامه ، وهو أخو الفضل بن سهل (ذو الرياسيتين) توفي سنة ٢٣٦ هـ . (الأعلام ٢ / ١٩٢) .

(٤) هشام بن عبد الملك : الخليفة الأموي العاشر ، سبقت ترجمته .

وقال عبد الملك بن مروان^(١): قد قضيت الوطر من كل شيء، إلا من محادثة الأخوان في الليالي الزهر على العلالى العفر^(٢).

وقال عبد الملك: من قرَّب السَّفلة وأدناهم، وباعد ذوي العقل وأقصاهم، استحق الخذلان، ومن منع المال من الحمد ورثه من لا يحمد.

و من الكلام الشريف قول الحكماء: ما أحوج ذا القدرة إلى: دين يحجزه، وحياء يكفُّه^(٣)، وعقل يعدله، وإلى تجربة طويلة، وعبر محفوظة، وإلى أعراق^(٤) تسري إليه، وأعلاق^(٥) تسهل الأمور عليه، وإلى جليس رفيق، ورائد شفيق، وإلى عين تنظر العواقب، وعقل يخاف الغير، ومن لم يعرف يوم ظفر الأيام، لم يحترس من سطوات الدهر، ولم يتحفظ من فلتات الزل، ولم يتعاضمه ذنب وإن عظم، ولا ثناء وإن سمح^(٦)، وإذا رأيت من جليسك أمرا تكرهه، أو خصلة لا تحبها، أو صدرت منه كلمة عوراء^(٧)، أو هفوة غبراء^(٨)، فلا تقطع حبله، ولا تصرم ودّه، ولكن داو كلمه^(٩)، واستر عورته، فأبقه وابرأ من عمله،

قال الله تعالى ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦] فلم يأمر بقطعهم وإنما بالبراءة من عملهم السوء.

قال الشاعر^(١٠):

إِذَا رَأَيْتُ مَنِّي مَفْصَلٌ فَقَطَعْتَهُ بَقَيْتُ وَمَا بِي لِلنُّهُوضِ مَفَاصِلُ
وَلَكِنْ أَدَاوِيهِ فَإِنْ صَحَّ سَرْنِي وَإِنْ هُوَ أَغْيَا كَانَ فِيهِ تَحَامِلُ

(١) عبد الملك بن مروان: الخليفة الأموي الخامس، سبقت ترجمته.

(٢) الليالي الزهر: الصافية. والعاللى العفر: الأماكن البعيدة.

(٣) يحجزه: يكفه: يمنعه من ارتكاب المآثم.

(٤) أعراق: جمع عرق وهو مجرى الدم من الجسد.

(٥) أعلاق: نفائس أو صدقات. (٦) سمح: قبح.

(٧) الكلمة العوراء: القبيحة الساقطة.

(٨) الهفوة الغبراء: الزلة أو السقطة الذاهبة.

(٩) داو كلمة: أي داو جرحه.

(١٠) الشاعر هو محمد بن أبان الكاتب يكنى بأبي جعفر أديب حسن البلاغة كان يكتب لنصر

ابن منصور بن بسام ثم اتهم بالزندقة فحبس في بغداد ثم أطلق، ومن شعره هذه الأبيات، وأولها:

إذا أنا لم أصبر على الذنب من أخ وكنت أجازيه فاين التفاضل

(انظر: الوافي بالرفيات ١/ ٢٥٠).

وأتى رجل إلى بعض الحكماء، فشكا إليه صديقه، وعزم على قطعه والانتقام منه، فقال له الحكيم: أتفهم ما أقول لك فأكلّمك، أم بك من فورة الغضب ما شغلك عنه؟.

فقال: إني لما تقول واع.

فقال: أسرورك بمودّته كان أطول، أم غمّك بذنبه؟

قال: بل سروري. قال: أفحسناته عندك أكثر أم سيئاته؟.

قال: بل حسناته.

قال: فاصفح بصلح أيامك عن ذنبه، وهب لسرورك جُرمه، واطرح مُؤنة الغضب والانتقام منه، ولعلك لا تنال ما أملت، فتطول مصاحبة الغضب وأنت صائر إلى ما تحب.

* * *

الباب السادس والعشرون

في بيان معرفة الخصال التي هي جمال العقل

قد ذكرنا الخصال التي تجري من المملكة مجرى الأساس من البنيان، ونذكر الآن الخصال التي تجري من المملكة مجرى التاج والطيلسان، وحسن الهيئة والكمال :

فأكملها وقاعدتها : العفو، قال الله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فلما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ قال : « يا جبريل ما هذا ؟ قال : لا أدري، حتى أسأل العالم، فذهب جبريل ثم عاد فقال : يا محمد، ربك يقرئك السلام، ويأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك » (١).

واعلموا - أرشدكم الله - أن الله تعالى أمر بالعفو، وندب إليه، وذكر فضيلته وحث عليه، ووصف به نفسه، فقال سبحانه : ﴿ وَالْكَاطِمِينَ أَعْيَظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. فأوجب الله تعالى محبته للعافين، وأثنى عليهم بالإحسان، فقال : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

وعزائم الأمور، من صفات المصطفين من الرسل، قال الله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال سبحانه : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢]، فاستعطف الخلق، وندبهم إلى أن يعفوا عن الجناة والظالمين والخاطئين، كما يحبون أن يفعل الله بهم.

وقال فيمن انتصر ولم يعف : ﴿ وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مَنْ سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: ٤١]، فرفع الحرج عن المنتصر والمنتقم، ولم يوجب له فضيلة. ثم كشف الغطاء، وأزاح العذر، وصرح بتفضيل العافين على المنتصرين

(١) ورد هذا الحديث في « إتحاف السادة المتقين - للزبيدي ٣١٨ » ولهذا الحديث ما يعضده ، عن عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال فقال : (صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، « وأعرض » وفي رواية « واعف عمن ظلمك » . رواه الإمام أحمد والحاكم (الترغيب والترهيب ج ٣ / ٢٢٧) .

والواهبين حقوقهم على المنتقمين، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وهذا نص لا يحتمل التأويل، وتحقيق القول في ذلك، أن الانتصار عدل والعفو فضل، وفضل الله أحب إلينا من عدله، لأنه إن عدل علينا فآخذنا بحقه هلكنا، وإن عفا عنا برحمته تخلصنا، ولو كان العدل يسع الخلائق لما قرنه الله تعالى بالإحسان، فلمَّا علم أن العدل استقصاء ومناقشة، وذلك مما تضيق عنده النفوس وتخرج له الصدور، ناط الإحسان بالعدل، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وأيضا فإن الانتصار انتقام وعذاب بلا امتنان، والعفو محبة من الله وإحسان، وأيضا فإن الانتصار سيئة والعفو حسنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤] والدليل على أن الانتصار سيئة قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، غير أنه إنما سميت سيئة، لمَّا كانت نتيجة سيئة، إلا أنه لا يجوز الانتصار، وهو كقول عمرو بن كلثوم التغلبي (١).

أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ
فَسَمَى الجزاء على الجهل جهلا، وإن لم يكن في الحقيقة جهلا.

وعن هذا روت عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت النبي ﷺ منتصرا من مظلمة ظلمها قط، غير أنه إذا انتهك شيء من محارم الله، فلا يقوم لغضبه شيء» (٢). وروي أنه قال: «ينادي مناد يوم القيامة، من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا» (٣).

فإن عفوت أيها الطالب، كان أجرك على الله، وإن لم تعف كان حَقُّكَ قَبْلَ من ظلمك. ولأن يكون أجرك في ضمان الله تعالى، أوثق من أن يكون قَبْلَ

(١) عمرو بن كلثوم بن مالك: أبو الأسود، من بني تغلب وأمه ليلى بنت المهلهل أخي كليب والوزير سالم، شاعر جاهلي ولد في بلاد ربيعة شمال الجزيرة، ساد قومه وهو فتى، وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند، وهذا البيت من معلقته الشهيرة التي مطلعها (ألا هبي بصحنك فأصبحنا....) ويقال أن معلقته وصلت إلى نحو ألف بيت، مات نحو سنة ٤٠ قبل الهجرة. (الأعلام ٨٤/٥).

(٢) الحديث صحيح أخرجه الإمام الترمذي في الشمائل وهو عند الإمام مسلم بلفظ آخر مشابه (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار رقم ٣١٤٣).

(٣) ذكره ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٣١٢/٥. ورواه الطبراني في مكارم الأخلاق، والبيهقي في شعب الإيمان، وأبو نعيم في الحلية (تخريج الأحاديث والآثار ٢٤٣/٣).

مخلوق، وأيضاً فإن لم تعف: نلت حَقَّك بلا زيادة عليه، وإن عفوت كانت لك حسنة أسديتها لأخيك، والله تعالى يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

و شفع الأحنفُ بن قيس، في محبوس إلى السلطان، فقال له: إن كان مجرماً فالعفو يسعه، وإن كان بريئاً فالعدل يسعه.

وقيل لبعض الكتَّاب بين يدي أمير المؤمنين: بلغ أمير المؤمنين عنك أمرٌ، فقال لا أبالي، ف قيل له: ولم لا تبالي؟ قال: إن صدق الناقل وسعني عفوه، وإن كذب الناقل وسعني عدله.

ولما دخل عيينة بن حصن^(١)، على عمر بن الخطاب قال: يا ابن الخطاب: «والله ما تعطينا الجزل»^(٢) وما تحكم بيننا بالعدل" فغضب عمر، وهم بأن يوقع به، فقال ابن أخيه، يا أمير المؤمنين: إن الله تعالى يقول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان عمر وقافاً عند كتاب الله تعالى.

وقال النبي ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(٣)، وقال: «ارحم ترحم»^(٤).

وكان يقال: أولى الناس بالسلطان، أحقهم بالرأفة والرحمة.

وفي الإنجيل: أفلح أهل الرحمة لأنهم سيرحمون.

وقال سليمان بن داود عليهما السلام: لقد أبغض الله المتسرعين إلى إراقة الدماء، فإليهم انتهت القسوة والغلظة، والتباعد من الرحمة.

ولما تمكن داود من قتل جالوت^(٥)، أبقى عليه وهو يومئذ عدوه وطالبه،

(١) عيينة بن حصن: أسلم وارتد وحارب مع المرتدين فأسر وقدم به إلى أبي بكر الصديق، فتجاوز عنه وحقق دمه، بعد أن أعلن إسلامه. (الإصابة ٤/ ٧٦٧).

(٢) الجزل: العطاء الكثير والواسع.

(٣) جزء من حديث صحيح (الراحمون يرحمهم الله تعالى أرحموا). رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم والترمذي عن ابن عمر (الجامع الصغير للسيوطي رقم ٤٤٨٩).

(٤) رواه الإمام أحمد والبخاري في الأدب، والبيهقي في شعب الإيمان بلفظ «ارحموا ترحموا» عن ابن عمر، والحديث صحيح (الجامع الصغير رقم ٩٤٢).

(٥) جالوت: ملك الكنعانيين العماليقة، وامتد ملكه ما بين مصر وفلسطين، وحاربه طالوت ملك بني إسرائيل، وقتله داود عليه السلام عندما كان جندياً في جيش طالوت ثم أصبح داود ملكاً على بني إسرائيل.

وقال : يا رب أعظم دمي في عين أعدائي ، كما عظمت في عيني دم عدوي ، وكذلك خلصني من جميع الهموم .

وقالت حكماء الهند : لا سؤدد مع انتقام ، ولا سياسة مع عزازة نفس وعُجب .

وقالت الحكماء : ليس الإفراط في شيء ، أجود منه في العفو ، ولا هو في شيء أقبح منه في العقوبة ، وكذلك التقصير ، مذموم في العفو محمود في العقوبة .

و اعلم : أنك إن تخطئ في العفو في ألف قضية ، خيرٌ من أن تخطئ في العقوبة في قضية واحدة .

وقال معاوية : إني لأرفع نفسي أن يكون ذنبٌ أعظم من عفوي ، وجهلٌ أكبر من حلمي ، وعورةٌ لا يوارئها ستري .

وقال المأمون : ليس عليَّ في الحلم مؤنة ، ولوددت أن أهل الجرائم علموا رأيي في العفو ، فيذهب الخوف عنهم ، فتخلص لي قلوبهم .

وقال رجل للمنصور ، يا أمير المؤمنين : إن الانتقام انتصاف والتجاوز فضلٌ ، والمتجاوز قد جاوز حدَّ المُنصف ، ونحن نعيذُ أمير المؤمنين أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين ^(١) ، وأن لا يرتفع إلى أعلى الدرجتين ، فاعف عنا يعف الله عنك ، فعفا عنهم . وأنشدوا :

وَإِذَا بَغَى بَاغٌ عَلَيْكَ بِجَهْلِهِ فَاقْتُلْهُ بِالْمَعْرُوفِ لَا بِالْمُنْكَرِ

وقال بعضهم لمسلم بن قتيبة ^(٢) لما عفا عنه : والله ما أدري أيها الأمير أي يوميك أشرف ، أيوم ظفرت أم يوم عفوت ؟ .

(١) أوكس النصيبين : أنقصهما وأقلهما .

(٢) مسلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي أمير ابن أمير كان أمير الجيوش ووالي خراسان زمن عبد الملك بن مروان من جهة الحجاج بن يوسف وهو المشهور بحزمه ونبله وفصاحته وكان جده كبير القدر عند يزيد بن معاوية ، وكان أهل البصرة يفخرون به . (الأعلام ٥ / ١٨٨) .

وقال الشاعر :

مَا زِلْتُ فِي الْعَفْوِ لِلذُّنُوبِ وَإِطْ لَاقَ لَعَانَ جُرْمِهِ عَلِقَ (١)
حَتَّى تَمْنَى الْعَفَاةَ أَنَّهُمْ عِنْدَكَ أَمْسَوْا فِي الْقَيْدِ وَالْحَلَقِ

ورفع إلى أنوشروان : أن العامة تُؤَنَّبُ الملك في معاودة الصفح عن المذنبين مع تتابعهم في الذنوب . فوقَّع (المذنبون مرضى ونحن أطباء ، وليس معاودة الداء إياهم بمانعنا عن معاودة العلاج لهم) .

وقال عمر بن عبد العزيز يرحمه الله : ما قُرْنُ شيءٍ إلى شيءٍ أفضل من حلمٍ إلى علمٍ ، ومن عفوٍ إلى مقدرة .

و قال رجل ، لعبد الملك بن مروان ، لما ظفر بالمهلب (٢) : ما رأيت أحداً يا أمير المؤمنين ظلم ظلمك ، ولا نصر نصرك ، ولا عفا عفوك .

و قال بعض التابعين : المُعاقِبُ مُستدعٍ لعداوة أولياء المذنب ، والعافي مُستدعٍ لشكرهم ، أو مكافأتهم أيام قدرتهم ، ولأن يُثنى عليك باتساع الصدر ، خير من أن تنسب إلى ضيقه ، وإقالة العثرة موجبة إقالة عثرتك عند ربك ، وعفوك عن الناس موصول بعفو الله عنك ، وعقابك لهم موصول بعقاب الله تعالى لك ، والله يحب العافين .

وقال المنصور : عقوبة الأحرار التعريض ، وعقوبة الأشرار التصريح .

وقال المأمون :

لَمَّا رَأَيْتُ الذُّنُوبَ جَلَّتْ عَنِ الْمُجَازَاةِ بِالْعِقَابِ
جَعَلْتُ فِيهَا الْعِقَابَ عَفْوَاً أَمْضَى مِنَ الضَّرْبِ لِلرَّقَابِ

(١) قال هذه الأبيات مادح للمأمون عند دخوله بغداد وبلغظ شبيه .

ما زالت في البذل للنوال وإط - لاق لعان بجرمه علق

حتى تمنى البراء أنهمم - عندك أسرى في القيد الحلق

ومعنى العاني : الأسير ، الجرم : الذنب ، علق : مأخوذ ومحاسب . (العقد الفريد ، لابن عبد ربه الأندلسي ج ٢ / ١٣) .

(٢) هو المهلب بن أبي صفرة : أبو سعيد ، أمير بطاش جواد ، قال فيه عبد الله بن الزبير : هذا سيد أهل العراق ، وقد ولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير ، ثم حارب الخوارج لمدة تسعة عشر عاماً إلى أن تم له الظفر عليهم وقد ولاه عبد الملك بن مروان على خراسان بعد أن عفا عنه ، وبقي فيها إلى أن توفي سنة ٨٣هـ . (الأعلام ٧ / ٣١٥) .

وقال الأحنف : لا تزال العرب بينة الفضل ، ما لم تعد العفو ضيما أو البذل سرفا (١) .

وفي الحكمة : إذا انتقمت فقد انتصفت ، وإذا عفوت فقد تفضلت .
وقال بعض الحكماء : اقبل العذر وإن كان مصنوعا ، إلا أن يكون ممن أوجبت المروءة قطيعته ، أو يكون في قبولك عذره تشجيعه على المكروه أو عونه على الشر ، فإن قبولك للعذر فيه اشتراك في المنكر .

ولما دخل الفيل دمشق ، حشر الناس لرؤيته ، وصعد معاوية إلى عليّة له متطلعا ، فبينما هو كذلك ، إذ نظر في بعض الحجر في قصره ، رجلا مع بعض حرمه ، فأتى الحجرة ودق الباب ، فلم يكن من فتحه بد ، فوقعت عينه على الرجل ، فقال : يا هذا أفي قصري وتحت جناحي تهتك حرمي ، وأنت في قبضتي ؟ ما حملك على ذلك ؟ فبهت الرجل وقال : حلمك أوقعني ، قال له معاوية : فإن عفوت عنك تسترها علي ؟ قال نعم . فخلى سبيله .

وهذا من الدهاء العظيم ، والحلم الواسع ، أن يطلب السّتر من الجاني ، وهو عروض قول الشاعر :

إِذَا مَرَضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وَتَذُنُّونَ فَنَأْتِيَكُمْ فَنَعْتَذِرُ
وَأَتَى موسى الهادي (٢) ، برجل قد جنى ، فجعل يُقرّعه بذنوبه ويتهدده ، فقال الرجل : اعتذاري مما تُقرّعني به ردّ عليك ، وإقراراي بما ذكرته ذنب ، ولكنني أقول :

فَإِنْ كُنْتَ تَرْجُو فِي الْعُقُوبَةِ رَاحَةً فَلَا تَزْهَدَنَّ عِنْدَ الْمُعَافَاةِ فِي الْأَجْرِ
فأمر بإطلاقه .

وقال المهلب (٣) : لا شيء أبقى للملك من العفو ، فإن الملك إذا وثقت رعيته منه بحسن العفو ، لم يوحشها الذنب وإن عظم ، وإن خشيت منه العقوبة أوحشها الذنب وإن صغر ، حتى يضطره ذلك إلى المعصية .

(١) الضيم : الظلم ، السرف : الإسراف .

(٢) موسى الهادي : موسى بن المهدي بن المنصور ، الخليفة العباسي الرابع ، وقد حاول إكراه أخيه هارون الرشيد على التنازل عن ولاية العهد ، فقتل في دار الحریم بالموصل وبتهريض من أمه الخيزران سنة ١٧٠هـ . فلم يتول الخلافة إلا سنة واحدة (الأعلام ٣٢٧/٧) .

(٣) المهلب بن أبي صفرة ، سبقت ترجمته .

و من الحكمة البالغة في مثل هذا، قول سابور وقد جمع أولاده، فقال: يا بني: إن أعجزكم أن تملئوا قلوب الرعية حبا، فاملئوها خوفا، وليس ذلك بأن تحمل العقوبة على من لا يستحقها، ولكن تعجلها لمن يستحقها.

وفي هذا المعنى قال الله تعالى: ﴿فَشَرَّدُ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] وهذا معنى لا يختل عما أوجبناه، وهو معنى قول سابور، ولا يخالف ما قررنا من حسن العفو، بل هذا محمول على الواجب المستحق، أو على ما في تركه إغراء بركوب أمثاله فيها هنا يكون العفو مفسدة.

فيا أيها المعاقب: إذا أقمت على مذب عقوبة، فلا تكن كالمتشفي المتلذذ بعذابه، لأنك وإياه إخوان لأب وأم - آدم وحواء - لم تفضله بحولك وقوتك، بل بما فضلك الله به تطولا عليك فاذا ذكر لو كنت في مقامه وكان في مقامك. ولا تأمن تقلب الدهر، فتقوم مقامه بين يدي من لا يرحم ولا ينظر في العواقب. واحذر التفريط والتقصير، وأقم نفسك مذنبا أقيم للعقوبة، وليكن عقابك مقدرا كما كان عطاؤك مقدرا، وليكن عقابك للتقويم لا للانتقام، وللزجر لا للهوى.

وعن هذا قال بزرجمهر: لا ينبغي للملوك أن يكرموا أحدا بهوان من ليس للهوان أهلا، ولا أن يهينوا أحدا بإكرام من ليس للكرامة أهلا.

لا تكن على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا على البخل أسرع منك إلى البذل، قال الشاعر:

صَفُوحٌ عَنِ الْإِجْرَامِ حَتَّى كَأَنَّهُ مِنْ الْعَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ النَّاسِ مُجْرِمًا
فَلَيْسَ بِبَالِي أَنْ يَكُونَ بِهِ الْأَذَى إِذَا مَا الْأَذَى بِالْكَرِهِ لَمْ يَغْشَ مُسْلِمًا

وقال سليمان بن داود عليهما السلام: التنكيل والعقوبة أمنية الملك الشرير، وعلى مثله يبعث الله ملكا غير رحيم.

وقال معاوية: لا ينبغي للملك أن يظهر منه غضب أو رضى، إلا لثواب أو عقاب.

وقال أردشير: فضل الملك على السوقة (١) إنما هو بقدرته على اقتناء المحامد واستفادة المكارم، فكلما استكثر منهما، بانت فضيلته واستحقاقه

(١) السوقة: عامة الناس.

لموضعه من الولاية عليهم، وكلّما نقص منهما قُرب من السُّوقة.
 وقال المأمون: إني لأجدُ لعفوي لذةً أعظمَ من لذة الانتقام.
 واعلم أنه: إذا عاقب الملكُ أو أهان على ظنٍّ بغير يقين، أدخل على نفسه
 من قُبْح الخطأ في الرأي، أعظمَ مما أدخل على صاحبه من العقوبة.
 وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الغالبُ بالشرِّ مغلوبٌ، وما ظفر من
 ظفر بالإثم.

وقيل لأفلاطون: أي شيء من أفعال الناس يُشبه أفعال الله تعالى؟ فقال:
 الإحسان إلى الناس.

وقال الحكيم: الحلمُ فِدام^(١) السفيه، والعفو زكاة العقل.
 وقال الحكيم: السيد، الذي لا يشين حُسن الظُّفر بقبح الانتقام، وخير
 مناقب الملوك العفو.

وكان يحيى بن معاذ^(٢) يقول: سبحان من أذلَّ العبد بالذنب، وأذلَّ
 الذنب بالعفو.... إلهي إن عفوت فخيرٌ راحم، وإن عذبت فغيرُ ظالم، إلهي،
 إن كنت لا ترضى إلا عن أهل طاعتك، فكيف يصنع الخاطئون، وإن كان
 لا يرجوك إلا أهل وفائك، فبمن يستغيث المستغيثون؟!
 وقال الشاعر:

وَإِنَّ اللَّهَ ذُو حِلْمٍ وَلَكِنْ لِعِزِّ الْحِلْمِ يَنْتَقِمُ الْحَلِيمُ
 وروى أن الحجاج أخذ أخا قطري بن الفجاءة^(٣)، فقال: لأقتلك. قال:
 ولم؟ قال: لخروج أخيك علي. قال: فإن معي كتاب أمير المؤمنين، أن
 لا تأخذني بذنب أخي. قال: هاته. قال: إن معي أو كد منه، قال الله تعالى:
 ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةً وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨] فتعجب من جوابه وخلي سبيله.

(١) فدام: مصفاة أو خرقة توضع على فم الإبريق ليصفى بها ما فيه أي أن الحلم يسد فم السفيه
 ويسكته.

(٢) يحيى بن معاذ الواعظ الزاهد، لم يكن له نظير في وقته، أقام ببلخ ومات في نيسابور سنة
 ٢٥٨ هـ (وفيات الأعيان ٦/١٦٥).

(٣) قطري بن الفجاءة: في (ط) أخذ قطري وهذا (خطأ) والصواب أنه أخذ أخا له: من رؤساء
 الخوارج وأبطالهم (من أهل قطر) واسمه جعونة بن مازن المازني التميمي، كان خطيبا فارسا شجاعا
 وشاعرا، قاتل في العراق مصعب بن الزبير وقاتل جيش الحجاج لمدة ثلاث عشرة سنة، والحجاج
 يسير إليه جيشا بعد جيش وهو يردهم، ولما قتل جئ برأسه إلى الحجاج سنة ٧٩ هـ.

ولما وفد عقيل بن أبي طالب^(١) على معاوية، أمر له بمائة ألف درهم، فلما أراد الانصراف، رأى في الطريق جارية بأربعين ألف درهم، فرجع إلى معاوية فأخبره، قال: وما تصنع بها؟ قال: تلد لي غلاما، فإن أغضبتني، يضرب مفركك^(٢) بالسيف. فأمر له بها، فابتاعها، فولدت له مسلم ابن عقيل^(٣)، ثم قدم مسلم الشام، فابتاع منه معاوية ضيعة، فبلغ الحسين ابن علي الخبر، فكتب إلى معاوية: إني لا أُجيز بيع مسلم، فأرسل معاوية إلى مسلم، فقال: هذا كتاب الحسين يأمر برد المال. فقال مسلم: أما دون أن أضرب مفركك بالسيف، فلا.

فضحك معاوية، وقال: والله لقد تهددني أبوك بذلك، قبل أن يشتري أمك. وسوغه المال^(٤)، فقال الحسين: غلبنا معاوية حلما وجودا.

* * *

(١) عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب أخو علي وجعفر لأبيهما وكان أسن منهما، أعلم قريش بأيامها وأنسابها قاتل ضد المسلمين في بدر وأسرهم المسلمون ففداه العباس بن عبد المطلب فرجع إلى مكة وأسلم بعد الحديبية وهاجر سنة ٨ هـ للمدينة وشهد مؤتة فارق أخاه عليا في خلافته ووفد إلى معاوية في دين لحقه. عمي في آخر أيامه ومات سنة ٦٠ هـ (الأعلام ٤ / ٢٤٢).

(٢) المفرك من الرأس حيث يفرق الشعر.

(٣) مسلم بن عقيل بن أبي طالب: تابعي من ذوى العلم والرأى والشجاعة، انتدبه ابن عمه الحسين بن علي ليتعرف له حال أهل الكوفة فشعر به «عبيد الله بن زياد» أمير الكوفة فقبض عليه وقتله سنة ٦٠ هـ (الأعلام ٧ / ٢٢٢).

(٤) سوغه المال: تركه خالصاً له.

الباب السابع والعشرون

في المشاورة والنصيحة

و هذا الباب مما يعدّه الحكماء من أساس المملكة، وقواعد السلطنة، ويفتقر إليه الرئيس والمرؤوس، وقد ذكرناه في باب الخصال الفرقانية، ونذكر ههنا فوائدها ومحاسنها.

اعلموا أن المستشي، وإن كان أفضل رأيا من المشير، فإنه يزداد برأيه رأيا، كما تزداد النار بالسليط^(١) ضوئا، فلا يُقذَفَنَّ في روعك أنك إذا استشرت الرجال، ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك، فيمنعك ذلك عن المشاورة، فإنك لا تريد الرأي للفخر به، ولكن للانتفاع به، فإن أردت الذكر كان أفخر لذكرك، وأحسن عند ذوي الألباب لسياستك أن يقولوا: لا ينفرد برأيه دون ذوي الرأي من إخوانه.

ولا يمنعك عزمك على إنفاذ رأيك، وظهور صوابه لك عن الاستشارة، ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام، أمر بذبح ابنه عزمة^(٢) لا مشورة فيها، فحملة حسن الأدب، وعلمه بموقعه في النفوس على الاستشارة فيه، فقال فيه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢] وهذا من أحسن ما يرسم في هذا الباب.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الرأي الفرد كالخييط السحيل^(٣)، والريان كالخيطين، والثلاثة آراء لا تكاد تنقطع.

ويروى أن روميا وفارسيًا تفاخرا، فقال الفارسي: نحن لا نملك علينا من يشاور، وقال الرومي، ونحن لا نملك علينا من لا يشاور.

وقال بزرجمهر: إذا أشكل الرأي على الحازم كان بمنزلة من أضلّ لؤلؤة، فجمع ما حول مسقطها، فالتمسها فوجدها، كذلك الحازم، يجمع وجوه الرأي في الأمر المشكل، ثم يضرب بعضها ببعض حتى يخلص له الصواب.

(١) السليط: زيت جيد يستعمل للإضاءة.

(٢) العزمة: ما عقد العزم على فعله.

(٣) الخييط السحيل: الحبل الذي قتل فتلا واحدا فيكون غير شديد.

وكان يقال : من كثرت استشارته ، حُمدت إمارته .

وفي حكم الهند ، قال بعضُ الملوك : إن الملكَ الحازمَ يزدادُ برأي الوزراء الحزْمَة (١) ، كما يزداد البحر بمَوادّه من الأنهار ، وينال بالحزم والرأي ما لا يناله بالقوّة والجند ، ولم تزل حَزْمَة الرجال يستحلون مراتر (٢) قول النصحاء ، كما يستحلي الجاهلُ المساعدة على الهوى .

وقال المأمون لطاهر بن الحسين (٣) : صف لي أخلاق المخلوع - يعني أخاه الأمين - فقال : كان واسع الصدر ، ضيق الأدب ، يُنتجُ من نفسه ما تأباه هممُ الأحرار ، لا مُصغيا إلى نصيحة ، ولا يقبلُ مشورة ، يستبد برأيه فيرى سوء عاقبته ، فلا يردعه ذلك عما يهْمُ به قال فكيف حروبه ؟ قال : يجمع الكتاب بالتذير ويفرقها بسوء التدبير ، فقال المأمون : لذلك ما حلَّ محلّه ، أما والله لو ذاق لذّة النصائح واختار مشورة الرجال ، ومَلَكَ نفسه عند شهوتها ، ما ظُفر به .

و قال بعضهم : إنقاذ الملوك الأمورَ بغير رويّة كالعبادة بغير نية ، ولم تزل العقلاء على اختلاف آرائهم ، يشهدون العيوب ، ويستثيرون صواب الرأي من كل أحد ، حتى الإمعة الوعك (٤) .

هذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول : رحم الله امرءا أهدى إلي عيوبي .

وكان يُقال : من أُعطيَ أربعاً لم يُمنع أربعاً : من أُعطيَ الشكر لم يُمنع المزيد ، ومن أُعطيَ التوبة لم يُمنع القبول ، ومن أُعطيَ الاستخارة لم يُمنع الخيرة ، ومن أُعطيَ المشورة لم يُمنع الصواب .
وقال بعضهم : خميرُ الرأي خيرٌ من فطيره ، وتأخيرُهُ خيرٌ من تقديمه .

(١) الحزمة : جمع حازم . (٢) مراتر : جمع مر .

(٣) طاهر بن الحسين : من كبار الوزراء والقواد ، أدبا وحكمة وشجاعة ، وهو الذي وطد الملك للمأمون بن الرشيد ، الخليفة العباسي ، حيث أنه هو الذي قتل الأمين لما مات الرشيد وعقد البيعة للمأمون ولذلك بقي في نفس المأمون شيء عليه لأنه قتل أخاه دون استشارته ولعله شعر بذلك فقد قطع خطبة المأمون لما استقر في خراسان فقتله أحد غلمانة في تلك الليلة سنة ٢٠٧ هـ . (الأعلام ٢٢١/٣) .

(٤) ورد ذكر الإمعة في الحديث وهو الذي يكون مع الناس إن أحسنوا أحسن وإن أساءوا أساء والوعك هو الذي أصابته وعكة وشدة وفي (خ) الأمة الوعكاء .

و ذكر صاحبُ كتاب التاج (١) : أن بعض ملوك العجم استشار وزراءه ، فقال أحدهم : لا ينبغي للملك أن يستشير منّا أحداً إلاّ خالياً ، فإنه أموت للسرّ ، وأحزم في الرأي ، وأجدر للسلامة ، وأعفى لبعضنا من غائلة (٢) بعض .

وكان بعض ملوك العجم إذا شاور مرزبته (٣) فقصّروا في الرأي ، دعا الموكلين بأرزاقهم فعاقبهم فيقولون : تُخطئ مرزبتك وتعاقبنّا ؟ ! فيقول : نعم لم يخطئوا إلا لتعلق قلوبهم بأرزاقهم ، وإذا اهتمّوا أخطأوا ، وكانوا إذا اهتموا بمشاورة رجل بعثوا إليه بقوته وقوت عياله لسنّته ، ليتفرّغ لبه .

و كان يقال : النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت .

و إذا شاورت فأصدّق الخبر تصدّقك المشورة ، ولا تكتّم المستشار فتؤتى من قبل نفسك .

و قال بعض ملوك العجم : لا يَمْنَعُكَ شِدَّةُ بأسِكَ في باطنك ، ولا علو مكانك في نفسك ، من أن تجمع إلى رأيك رأي غيرك ، فإن أحمَدت أحبت ، وإن أخطأت عذرت ، فإن في ذلك خصالاً منها : إن وافق رأيك رأي غيرك ازداد رأيك شِدَّةً عندك ، وإن خالفه عرَضَتْهُ على نظرك ، فإن رأيته مُعتلياً لما رأيته قَبْلَتْهُ ، وإن رأيته متصعباً استغْنيت عنه ، وتجدُ بذلك النصيحة ممن شاورته وإن أخطأ ، وتمحّض لك مودّته وإن قصّر ، ولو لم يكن من فضيلة المشاورة إلا أنك إن أصبته مستبداً سُلِبَت فائدة الإصابة باللسنة الحسدة .

و قال قائل : هذا اتفاق ، ولو فعل كذا لكان أحسن ، وإذا شاورت فأصبت أحمد الجماعة رأيك ، لأنهم لنفوسهم يحمّدون ، وإن أخطأت حمل الجماعة خطأك ، لأنهم عن نفوسهم يكافحون .

و اعلم أن القول الغليظ يُسْتَمَعُ لفضل عاقبته ، كما يُتَكَارَهُ شُرْبُ الدواء المرّ لفضل مغبّته .

و قال أعرابي : ما عثرت قطُّ حتى عثر قومي . قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم .

(١) كتاب التاج في سيرة أنوشروان من الكتب المتحدثة بالحكمة والتي ألفها الفرس لملوكهم .

(٢) الغائلة : الدهاء والمكر والشر والفساد .

(٣) المرزبة : كلمة فارسية تعني الرؤساء والمرزبة (الرئاسة) .

و نيل لرجل من بنى عبس : ما أكثر صوابكم يا بني عبس ! فقال : نحن ألف رجل . وفينا حازم واحد ونحن نطيعه ، فكأننا ألف حازم .

و كان ابن هُبيرة ^(١) أمير البصرة يقول : اللهم إني أعوذ بك من صحبة من غايت، خاصةً نفسه ، والانحطاط في هوى مستشيره .

وفي حكم الهند : من التمس من الإخوان الرخصة عند المشورة ، ومن الأصباء عند المرض ، ومن الفقهاء عند الشُّبه ، أخطأ الرأي ، وازداد مرضاً ، وحمل الوزر .

و قال الحكماء : لا تشاور معلماً ، ولا راعي غنم ، ولا كثير القُعود مع النساء ، ولا صاحب حاجة يريد قضاءها ، ولا خائفاً ولا من يرهقه أحد السبيلين ^(٢) .

وقالوا : لا رأي لحانق ، ولا لحازق ، ولا لحارق ، ولا لحاقب ، ولا تشاور من لا دقيق عنده . (والحازق : هو الذي ضَغَطَهُ الخُفُّ الضيق . والحاقب : هو الذي يجد في بطنه ثقلاً) .

و قالوا : من شكَا إلى عاجزٍ أعارَه عجزه ، وأمدّه من جزعه .

ومن لطيف ما جرى في الاستشارة : أن زياد بن عبيد الله الحارثي ^(٣) استشار عبيد الله بن عمر ، في أخيه أبي بكر أن يوليّه القضاء ، فأشار به ، فبعث إلى أبي بكر ، فامتنع عليه ، فبعث زياد إلى عبيد الله يستعين على أبي بكر ، فقال أبو بكر لعبيد الله : أنشدك الله ، أترى لي القضاء ؟ قال : اللهم لا . قال زياد : سبحان الله ، ، استشرتُك فأشرت علي به ، ثم أسمعك تنهاه ! فقال : أيها الأمير : استشرتني فاجتهدتُ لك الرأي ونصحتك ونصحت للمسلمين ، واستشارني فاجتهدت له رأيي ونصحتُه .

(١) عمر بن هبيرة بن سعد الفزاري : أمير من الدهاة الشجعان ، شارك الحجاج في قتال مناوئي الأمويين وفي عهد عمر بن عبد العزيز ولي الجزيرة وغزا الروم في أرمينية وهزمهم ، ثم ولاه يزيد بن عبد الملك على العراق وخراسان ثم عزله هشام بن عبد الملك وولى خالد القسري مكانه فقام بحبس ابن هبيرة ولكن تمكن من الهرب من السجن وذهب إلى الشام واستجار بمسلمة بن عبد الملك الذي كان واسطته عند هشام الذي رضي عنه وأمنه توفي سنة ١١٠ هـ . (الأعلام ٦٨/٥) .

(٢) السبيلين : مخرج البول والغائط .

(٣) زياد بن عبيد الله الحارثي : خال أبو العباس السفاح فقد ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ضمن أحداث سنة ١٣٣ هـ وذكر تولية السفاح له على الحجاز ومات سنة ١٥٠ هـ .

(٤) عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أحد الفقهاء السبعة بالمدينة توفي

سنة ١٤٧ هـ .

وروي أن الحجاج بعث إلى المهلب، يستعجله حرب الأزارقة (١)، فكتب إليه المهلب: إن من البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من لا يبصره.

* * *

فصل في النصيحة :

اعلموا: أن النصح للمسلمين والخلائق أجمعين من سنن المرسلين، قال الله تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

قال شعيب عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣] ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٩٧]

وقال عليه السلام: [إن العبد إذا نصح لسيدته وأحسن عبادة ربه، كان له أجره مرتين] (٢).

وروي أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةَ، إِنْ دَانَ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، قِيلَ لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأُئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ» (٣)

فالنصح في الجملة: فعل الشيء الذي به الصلاح ودفع الملامة، مأخوذ من النصيحة، وهي السلوك التي يخاطب بها، وتصغيرها نصيحة. تقول العرب: هذا قميص منصوح - أي مخيط - ونصحته نصحا: إذا خطته.

ويختلف النصح في الأشياء لاختلاف الأشياء، فالنصح لله: هو وصفه بما هو أهله، وتنزيهه عما ليس بأهل له عقدا وقولا، والقيام بتعظيمه، والخضوع له ظاهرا أو باطنا، والرغبة في محابه، والتباعد عن مساخطه، وموالاة من أطاعه، ومعاداة من عصاه، والجهاد في رد العصاة إلى طاعته قولا وفعلا، وإرادة بث جميع ما ذكرناه في عبادته.

(١) الأزارقة: فئة من الخوارج بقي المهلب بن أبي صفرة يحاربهم لمدة تسعة عشر عاما إلى أن قضى عليهم، والأزارقة نسبة إلى (نافع بن الأزرق) وزعيمهم قطري بن الفجاءة وقد سبقت ترجمته.

(٢) الحديث: رواه الإمام مالك والإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود عن ابن عمر والحديث صحيح (الجامع الصغير رقم ٢٠٦٣).

(٣) رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري، ورواه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة، والحديث صحيح (الجامع الصغير رقم ١٩٦٨).

و النصيحة لكتابه: إقامته في التلاوة، وتحسينه عند القراءة، وتفهم ما فيه. واستعماله، والذب عنه من تأويل المجرمين وطعن الطاعنين، وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

و النصيحة للرسول عليه السلام: مؤازرته ونصرتة والحماية من دونه حياً وميتاً، وإحياء سنته بالطلب، وإحياء طريقته في بث الدعوة وتأليف الكلمة والتخلق بالأخلاق الطاهرة.

و النصيحة للأئمة: معاونتهم على ما تكلفوا القيام به، في تنبيههم عند الغفلة، وإرشادهم عند الهفوة، وتعليمهم ما جهلوا، وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء، وإعلامهم بأخلاق عمالهم، وسيرهم في الرعية، وسد خلتهم عند الحاجة، ونصرتهم في جمع الكلمة عليهم، ورد القلوب النافر إليهم.

و النصح لجماعة المسلمين: الشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، والرحمة لصغيرهم، وتفريج كربهم، ودعوتهم إلى ما يسعدهم، وتوقي ما يشغل خواطرهم، ويفتح باب الوسواس عليهم، ومن النصيحة للمسلمين رفع مؤنة نفسه وبدنه وحوائجه عنهم.

قال الأصمعي: لَقَطَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نَوَاقِدَ مِنَ الطَّرِيقِ، فَأَمْسَكَهَا بِيَدِهِ حَتَّى مَرَّ بِدَارِ قَوْمٍ، فَأَلْقَاهَا فِي الدَّارِ، وَقَالَ: يَأْكُلُهَا دَاجِنُهُمْ^(١).

و النصح لجميع الملل: أن يحب إسلامهم، ويدعوهم إلى الإيمان بالقول ويحذرهم سوء مغبة الكفر، وبالسيف إن كان ذا سلطان، أو يكفوا عن قتال المسلمين فيكونوا ذمة، وإلا فالقتل نصحاً لله^(٢) لإقامة أمره فيهم.

و روي معاذ أن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ، إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمَنَاصِحَةُ وَلَاةِ الْأَمْرِ، وَالْإِعْتَصَامُ بِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ دَعَوْتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»^(٣).

(١) الداجن: الحيوان الأليف المقيم في البيوت.

(٢) سقطت كلمة (لله) من ط.

(٣) أخرجه الترمذي في العلم وقال حديث حسن صحيح بلفظ (النصيحة للمسلمين ولزوم جماعتهم ..)، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة دون قوله (ثلاث لا يغل ...) ومعنى لا يغل عليهن: أي لا يدخله حقد يزيله عن الحق (شرح السنة - الإمام البغوي ج ١ / ٢٣٦).

وقال جابر بن عبد الله : [بايعتُ النبي ﷺ على السمع والطاعة ، فلقنني : فيما استطعت ، والنصح لكل مسلم] (١) .

وروي أنس أن النبي ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٢) .
وقال أبو الدرداء : العلم يبلغه البرُّ والفاجر ، والحكمة ينطق بها البرُّ والفاجر ، والنصيحة لله تعالى ، لا تثبت إلا في قلوب المنتخبين ، الذين صحت عقولهم ، وصدقت نيّاتهم ، واعلم أن جرعة النصيحة مرة لا يقبلها إلا أولو العزم .

وكان عمر بن الخطاب ، رحمه الله يقول : رحم الله امرءاً أهدي إليّ عيوبي .
وقال ميمون بن مهران (٣) : قال لي عمر بن عبدالعزيز رحمه الله : قل لي في وجهي ما أكرهه ، فإنَّ الرجل لا ينصح أخاه ، حتى يقول له في وجهه ما يكرهه .
وقال مالك : النصيحة لله في أرضه ، هي التي بعث بها أنبياءه .

و من أمر الإسلام القصد والنصيحة لعباد الله في أمورهم ، والنفوس مستثقلة للنصح ، نافرة عن أهله ، ومائلة إلى ما وافق هواها .

وفي منشور الحكم : ودَّك من نصحك ، وقلاك من مشي في هواك ، وكان يُقال : أخوك من احتمل ثقل نصيحتك .

وقال بعضهم شعرا :

عَرَضْتُ نَصِيحَةً مَنِّي لَزَيْدٍ	فَقَالَ غَشَّشْتَنِي وَالنُّصْحُ مَرٌّ
وَمَا لِي أَنْ أَكُونَ نَصَحْتُ زَيْدًا	وَزَيْدٌ طَاهِرُ الْأَثْوَابِ بَرٌّ
وَلَكِنْ قَدْ أَتَانِي : أَنْ زَيْدًا	يُقَالُ عَلَيْهِ فِي مَغْنَاهُ شَرٌّ (٤)
فَقُلْتُ لَهُ تَجَنَّبْ كُلَّ شَيْءٍ	يُقَالُ عَلَيْكَ إِنَّ الْحُرَّ حُرٌّ

وقال آخر :

وَعَلَى النَّصُوحِ نَصِيحَتِي وَعَلَى عَصِيَانٍ النَّصُوحُ (٥)

(١) هذا الحديث متفق على صحته ، رواه البخاري في البيوع ، وأخرجه مسلم في الإيمان (باب بيان أن الدين النصيحة) عن طريق جرير بن عبد الله البجلي أبو عمرو (وليس جابر) .

(٢) هذا الحديث متفق على صحته رواه البخاري في الإيمان ومسلم في الإيمان والنسائي في الإيمان وزاد (من الخير) (شرح السنة - الإمام البغوي ج ١٣ / ص ٦٠) .

(٣) ميمون بن مهران الرقي : فيقه وقاضي كان مولى لامرأة من الكوفة وأعتته ثم استوطن الرقة واستعمله عمر بن عبد العزيز على خراجها وقضاؤها كان ثقة في الحديث كثير العبادة ، وفي مقدمة المجاهدين توفي سنة ١٠٨ هـ . (الأعلام ٣٤٢ / ٧) .

(٤) مغناه : المكان الذي يصبح به غنيا عن الناس .

(٥) النصوح : الذي يبالغ في النصح .

و للقطامي (١) شعر :

وَمَعْصِيَةُ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ مِمَّا
وَحَيْرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلَتْ مِنْهُ
تَزِيدُكَ مَرَّةً مِنْهُ اسْتِمَاعًا
وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَّبِعْهُ اتِّبَاعًا

و لورقة بن نوفل (٢) :

لَقَدْ نَصَحْتُ لِأَقْوَامٍ وَقُلْتُ لَهُمْ
لَا شَيْءَ مِمَّا تَرَى بِشَاشَتِهِ
أَنَا النَّذِيرُ فَلَا يَغُرُّكُمْ أَحَدٌ
إِلَّا الْإِلَهِ وَيُودِي الْمَالِ وَالْوَلَدُ
لَمْ تَغْنِ عَنْ «هَرْمَزٍ» يَوْمًا خَزَائِنُهُ
وَالْخُلْدُ قَدْ حَاوَلْتُ «عَادَ» فَمَا خَلَدُوا

وقال ابن وهب (٣) : إِنَّمَا يُحَسِّنُ الْاِخْتِيَارُ لغيره من يُحَسِّنُ الْاِخْتِيَارَ لِنَفْسِهِ ،
ولا خير لك فيمن لا خير له في نفسه .

وقالت العلماء : لن ينصحك امرؤ لا ينصح لنفسه .

وقال بعضهم : رأيي ورأيك في المعرفة ، أمثلُ لِنَفْسِكَ من رأيك ، لأنه خلؤُ
من هواك .

وقال أبو الدرداء : إِنْ شِئْتُمْ لِأَنْصَحَنَّ لَكُمْ : إِنْ أَحَبَّ عِبَادُ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ ،
الَّذِينَ يُحِبُّونَ اللَّهَ إِلَى عِبَادِهِ ، وَيَعْمَلُونَ فِي الْأَرْضِ نَصْحًا .

و روي أن رجلاً : لطم إبراهيم بن أدهم (٤) ، فرفع رأسه إلى السماء وقال :
إِلَهِي إِنْ كُنْتُ تُثَبِّئُنِي وَتَعَاقِبُهُ فَلَا تُثَبِّئُنِي وَلَا تَعَاقِبُهُ .

و من الخصال التي تجري مجرى الجمال والكمال الحلم .

* * *

(١) القطامي : الشاعر عمير بن رثيم بن عمرو بن عباد التغلبي ، شاعر فحل ، كان من نصاري
تغلب في العراق وأسلم وكان أول من لقب (صريع الغواني) لقوله : صريع غوان راقهن ورقنه
..... ومن شعره البيت المشهور :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

(٢) ورقة بن نوفل : حكيم جاهلي ، اعتزل الأوثان قبل الإسلام وتنصر وقرأ كتب الأديان وهو ابن
عم خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها أدرك أوائل عصر النبوة وأخباره في حديث ابتداء الوحي معروفة
، حين جاءت خديجة برسول الله ﷺ إليه وهو أعمى فقال لها ورقة : (هذا الناموس الذي نزل الله على
موسى ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك) مات نحو ١٢ قبل الهجرة . (الأعلام ٨ / ١١٤) .

(٣) ابن هب هو عبد الله بن وهب بن مسلم : فقيه من أصحاب الإمام مالك ولد بمصر سنة ١٢٥ هـ
جمع بين الفقه والحديث والعبادة عرض عليه القضاء فخبأ نفسه ولزم بيته مات سنة ١٩٧ هـ . (الأعلام ٤ / ١٤٤) .

(٤) إبراهيم بن أدهم : الزاهد المشهور والعابد الناسك سبقت ترجمته .

الباب الثامن والعشرون

في الحلم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥] وقال تعالى: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] .

قال علي رضي الله عنه، الصَّفْحُ الجميل: الرُّضَا بلا عتاب.

وقيل: الصَّفْحُ الجميل: الرُّضَا بلا توبيخ فيه ولا حقد معه.

وفي الأمثال القديمة: كاد الحلِيمُ أن يكون نبيلًا .

ويروى أن رجلاً قال: يا رسول الله علمني كلمات أعيش بهن ولا يكثرن علي فأنسى، قال: «لا تغضب» (١).

واعلم: أن الحلم أشرفُ الأخلاق، وأحقُّها بذوي الألباب، لما فيه من راحة السر، واجتلاب الحمد، وأحقُّ الناس به السلطان، لأنه منصوبٌ لإقامة أود الخلاق، وممارسة أخلاقهم، ولا يُطيفون به في حال سلمهم، وإنما يغشون بآبه حين تنازعهم وخصوماتهم وشرورهم، وتكدر نفوسهم، وضيق أخلاقهم، فإن لم يكن معه حلم يرد به بوادهم (٢) وقع تحت عبءٍ ثَقِيلٍ.

وكان أنوشروان ذا حلم وأناة، وكان يقول: في خصلتان، لولا أنهما ظاهرتان عند الرعية لضقت بهما ذرعا: الحلم والأناة.

و روي أن يحيى بن زكريا، لقي عيسى بن مريم، عليهما السلام، فقال: يا رُوحَ الله، أخبرني بأشدِّ الأشياء في الدارين؟ قال: غضبُ الله تعالى: قال: يا روح الله: وما ينجيني من غضب الله تعالى؟ قال: ترك الغضب: قال: يا روح الله: كيف بدؤُ (٣) الغضب؟ قال: التعزز، والتكبر، والفخر على الناس.

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «وجبت محبةُ اللهِ نعالِي على من أغضبَ فحلم» (٤).

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي عن أبي هريرة ورواه الإمام أحمد والحاكم عن جارية بن قدامة والحديث صحيح (الجامع الصغير- رقم ٩٨٣٥).

(٢) بوادهم: ما يبدو ويظهر منهم عند الغضب.

(٣) بدؤُ الغضب أي بدايته وعلامة ظهوره .

(٤) الحديث: رواه ابن عساكر عن عائشة (كنز العمال ج ٣ / رقم ٥٨٢٦).

و الذي يَجْمَلُ أن يُضْرَبَ في هذا الباب ، قصةُ إسحق عليه السلام ، قال له إبراهيم : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(١) [الصفات: ١٠٢] . ثم إنه تله للجبين وأمر على حلقه السكين فلم يقل إلا خيرا ، فقال الله تعالى : ﴿ وَبَشِّرْناه بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ ^(٢) [الصفات: ١٠١] .

وفي الأخبار يقول إبليس لعنه الله : إن الحديد من الرجال لم ييأس منه ، وإن كان يحيي الموتى بدعائه ، لأنه تأتي عليه ساعة يحتد فيها ، فيصير منه إلى ما يريد .

و يروى أن جعفر بن محمد ^(٣) ، دخل على الرشيد ، وقد استخفّه الغضب ، فقال له : يا أمير المؤمنين : إنك إنما تغضب لله تعالى ، ولا تغضب له بأكثر من غضبه لنفسه .

واعلم - أرشدك الله - أن هذه الكلمة لا قيمة لها ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته ، فما أفخمها وأجل قدرها وأعظم شأنها . لأنك إذا كنت أيها السلطان إنما تتصرف في ملك الله بأمر الله ، فالله تعالى قد حدد حدوداً ، وشرع شرائع ، وأقام فروضا وسنناً ، ونهى عن حدود ورسوم ، ثم قَدَّرَ في كل خصلة عند مخالفته حداً محدوداً ، ونهى أن يتجاوز ذلك الحد ، فلا يقتل من استحق القطع والحبس والأدب والحد ، ولا يُحبس غير من استوجب الحبس .

وكان الخلفاء ، يُؤدّبون الناس على قدر منازلهم ، فمن عشر من ذوي المروءات أُقيلت عشرته ولم يُقابل بشيء ، لقوله عليه السلام : «أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَشْرَاتِهِمْ» ^(٤) . ومن سواهم كان يقابل على قدر منزلته وهفوته ، فكان

(١) يرى بعض المفسرين أن الذبيح هو إسحاق ولكن المشهور لدى المفسرين أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام استناداً لقوله عليه الصلاة والسلام (أنا ابن الذبيحين أي إسماعيل وعبد المطلب) وأن البشارة بولادة إسحق ونبوته كانت بعد قصة الذبيح الخاصة بإسماعيل (مختصر تفسير ابن كثير ج ٤ / ص ١٥) .

(٢) ولكن البشري بولادته كانت قبل الرؤيا بذبحه فحبذا لو قال : لما أمر على حلقه السكين فلم يقل إلا خيراً فقال الله تعالى ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ الآية ١٠٧ .

(٣) جعفر بن محمد بن الأشعث من ولاية الرشيد على خراسان .

(٤) الحديث صحيح ، رواه الإمام أحمد ج ٦ / ١٨١ وغيره الكثير وزاد فيه (إلا الحدود) أي (إلا في الحدود) ومعنى أقيلوا عَشْرَاتِهِمْ : أي أقيلوا زلاتهم .

يقام قائماً في مجلس يقعد فيه نظرائه، فتكون هذه عقوبته . وآخر يشق جيبه ،
وآخر تنزع عمامته من رأسه ، وآخر يكلم بالكلام الذي فيه بعض الغلظة .

قال الشعبي : كانت العصاة في زمن عمر وعثمان وعلي - رضي الله عنهم -
إذا أخذ الرجل منهم ^(١) ، نزع عمامته ، وطيف به في المسجد على قومه ،
وقيل : هذا أخذ بثغره ^(٢) . فلما ولي زياد ^(٣) ، ضربهم ونزع عمامتهم . فلما
ولي مصعب بن الزبير ، حلق مع الضرب رؤوسهم . فلما ولي بشر ابن
مروان ^(٤) ، أقامهم على الكراسي ، ثم مدت أيديهم وسمرها بمسمار ، ثم نزع
الكرسي من تحت رجله حتى يخرم يده ، فمن ميت ومن حي . فلما ولي
الرجل المعروف بالحجاج قال : كل هؤلاء يلعب ، من أخذ بثغره ضرب عنقه .
و قال أرسطاطاليس : النفس الدليلة لا تجد ألم الهوان ، والنفس الشريفة
يؤثر فيها سير الكلام ، وفيه قيل :

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلِ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لَجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِسْلَامُ

و اعلم : أن من تجاوز في العقوبة ، فوق ما حد الله تعالى فيها ، شارك
المجرم في الذنب ، واستوجب ما استوجب المجرم من العقوبة ، ويتبين في
الآخرة أنه إنما يعاقب للهوى والتشفي . إذا فما غضب لله تعالى .

وفي كتاب سليمان بن داود عليهما السلام : القاهر لنفسه أشد ممن يفتح
المدينة وحده ، وصدق نبي الله عليه السلام « فإن السلطان يفتح المدينة
ويقهر أهلها ، ويغلب جنودها وحمااتها ، ويقتل أبطالها ، ثم تغلبه شهوته ،
 ويبقى أسيراً في ذل هواه ، قد قهرته قينة بطنبورها ^(٥) ، أو قدح خمر يذهب
بعقله » .

(١) في (خ) إذا أخذ الرجل منهم بعثرة : أي بذنب .

(٢) أخذ بثغره : أي أخذ بسبب زلته وسقطته (والثغر) موضع المخافة من فروج البلدان ، وفي

(خ) من أخل بثغره : أي أخل بواجب حماية الحدود والثغور .

(٣) أي زياد بن أبيه سبقت ترجمته .

(٤) بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي ، ولي البصرة والكوفة لأخيه عبد الملك بن

مروان ، وأول أمير يموت بالبصرة سنة ٧٥هـ (الأعلام ٢ / ٥٥) .

(٥) القينة : الأمة المغنية ، الطنبور : (كلمة فارسية) من آلات الطرب ذو عنق طويل وستة أوتار من

نحاس . وهذا القول من كتاب سليمان عليه السلام ، وليس حديثاً نبوياً .

و قال أكتثم بن صيفي^(١) : الصبر على جرع الحلم أعذب من جني ثمر الندم .
وسأل علي بن أبي طالب رضي الله عنه كبيراً من كبراء فارس : من أحمد
ملوكهم عندهم ؟ فقال : لأردشير فضل السبق ، غير أن أحمدهم سيرة
أنوشروان . قال : فأی أخلاقه كان أغلب عليه ؟ قال : الحلم والأناة . فقال علي
رضي الله عنه : هما توأم ينتجهما علو الهمة .

و من محمود السيرة : أن يعرف الناس من أخلاقك ، أنك لا تعجل بالشواب
ولا بالعقاب ، فإن ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الرأجي .

وقال محمود الوراق^(٢) :

سَأَلَزِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ وَإِنْ عَظُمَتْ مِنْهُ عَلَيَّ الْجَرَائِمُ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلُ مَقَاوِمٍ
فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ فَضْلَهُ وَأَتَّبِعُ فِيهِ الْحَقَّ وَالْحَقُّ لَازِمٌ
وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَإِنْ قَالَ صَنِتُ عَنْ إِجَابَتِهِ نَفْسِي وَإِنْ لَامَ لَائِمٌ
وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفَا تَفَضَّلْتُ إِنَّ الْحِلْمَ بِالْفَضْلِ حَاكِمٌ

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : أسرع الناس جواباً من لم يغضب ،
لا توقدن بين جنبيك جمرة الغضب ، وأردد إساءته بالحلم ، فإن شجر النار إذا
ألحت عليها الرياح تحاكت أغصانها ، فتشتعل ناراً وتحترق من أصولها .

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : ثلاث من اجتمعن فيه فقد سعد :
من إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق ، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ،
وإذا قدر عفا وكف .

و سئل جعفر بن محمد^(٣) عن حد الحلم ؟ فقال : وكيف يعرف فضل شيء
لم ير كماله في أحد .

وقال الأحنف لابنه : يا بني إن أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه ، فإن أنصفك
وإلا فاحذره .

(١) أكتثم بن صيفي : حكيم العرب في الجاهلية وأحد المعمرين أدرك الإسلام وقصد المدينة مع نفر
من قومه يريدون الإسلام فمات في الطريق سنة ٩ هـ . وقد قيل أنه نزل بشأنه قرآن : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ
مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [النساء : ١٠٠] . (الأعلام ٦ / ٢) .

(٢) محمود بن حسن الوراق : شاعر ، أكثر شعره في المواعظ والحكم ، روى عنه ابن أبي الدنيا
وقد جمع ما وجد من شعره في ديوان ، مات سنة ٢٢٥ هـ . (الأعلام ٧ / ١٦٧) .

(٣) جعفر بن محمد بن الأشعث أحد ولاة الرشيد على خراسان .

وكان سلم بن نوفل - سيد بني كنانة - فضربه رجل من قومه بسيفه، فأخذ فأتى به إليه، فقال له: ما الذي فعلت؟ أما خشيت انتقامي؟ قال: فلم سودناك^(١)؟ إلا أن تكظم الغيظ وتعفوا عن الجاني، وتحلم عن الجاهل، وتحتمل المكروه في النفس والمال. فخلّى سبيله، فقال قائلهم: يسود أقوام وليسوا بسادة بل السيد المعروف سلم بن نوفل وقال رجل من كلب^(٢)، للحكم بن عوانة^(٣): إنما أنت عبد، فقال: والله لأعطينك عطية ما يعطيها العبيد، فأعطاه مائة رأس من السبي.

ومن أمثال العرب: احلم تسد.

و يروى أن هشاماً^(٤)، غضب على رجل من أشراف الناس فشتمه، فوبّخه الرجل فقال له: أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في أرضه؟ فأتى هشام واستحيا، وقال له: اقتص. فقال: أنا إذا سفيه مثلك! قال: خذ بذلك عوضاً من المال، قال: ما كنت لأفعل، قال: فهبها لله، قال: هي لله ثم لك. فنكس هشام رأسه وقال: والله لا أعود لمثلها. وقال الشاعر:

لَنْ يَبْلُغَ الْمَجْدُ أَقْوَامٌ وَإِنْ شَرُّفُوا حَتَّى يَذْلُوا وَإِنْ عَزَوْا لِأَقْوَامٍ
وَيَشْتَمُوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مُسْفِرَةً لَا صَفْحَ ذَلٌّ وَلَكِنْ صَفْحَ إِكْرَامٍ
وقال آخر:

وَجَهْلٌ رَدَدْنَاهُ بِفَضْلِ حُلُومِنَا وَلَوْ أَنَّ شَيْئاً رَدَدْنَاهُ بِالْجَهْلِ
رَجَحْنَا وَقَدْ خَفَّتْ حُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَعَدْنَا عَلَى أَهْلِ السَّفَاهَةِ بِالْفَضْلِ

وقال هشام لخالد بن صفوان^(٥): صف لي الأحنف بن قيس، فقال: يا أمير المؤمنين، إن شئت أخبرتك عنه بثلاث، وإن شئت باثنتين، وإن شئت بواحدة.

(١) سودناك: جعلناك سيذا علينا.

(٢) كلب / قبيلة معروفة.

(٣) الحكم بن عوانة الكلبي: كان والياً على السند من قبل هشام بن عبد الملك ثم ولّاه خراسان وكان عالماً بالأنساب (وفيات الأعيان ٧/ ١٠٥، والبداية والنهاية ٩/ ٢٥٩).

(٤) هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي سبقت ترجمته.

(٥) السائل هو هشام بن عبد الملك، الخليفة الأموي العاشر وتوفي سنة ١٢٥ هـ. وأما المسؤول عنه، الأحنف بن قيس فهو من دهاة العرب وفصحائهم وقادتهم في صدر الإسلام وسيد بني تميم، وكانت وفاته سنة ٧٢ هـ. وقد سبقت ترجمتهما.

وخالد بن صفوان بن عبد الله التميمي المنقري من فصحاء العرب المشهورين كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك وعاش إلى أن أدرك خلافة السفاح العباسي وحظي عنده - ولد ونشأ بالبصرة وكان أيسر أهلها مالا. توفي سنة ١٣٣ هـ. (الأعلام ٢/ ٢٩٧).

فقال : أخبرني عنه بثلاث . قال : كان لا يحرص ، ولا يجهل ، ولا يدفع الحق إذا نزل به . قال : فأخبرني عنه باثنتين . قال : كان يؤثر الخير ، ويتوقى الشر . قال : فأخبرني عنه بواحدة . قال : كان أعظم الناس سلطانا على نفسه .

وقال أكتثم بن صيفي : الغلبة والعز للحلم .

وقال الأحنف بن قيس : وجدت الحلم أنصر لي من الرجال .

وصدق الأحنف ، فإن من حلم كان الناس أنصاره ، كما روي أن رجلا أسرف في شتم بعض الأدباء ، وهو ساكت ، فحمى له بعض المارين في الطريق ، وقال له : يرحمك الله : ألا نتصر لك ؟ قال : لا ، قال : ولم ؟ وقال : لأنني وجدت الحلم أنصر لي من الرجال ، وهل حاميت في إلا لحلمي ؟

وقال رجل لعمر بن العاص : والله لأتفرغن لك ، فقال له : الآن وقعت في الشغل .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : إن رجلا ممن كان قبلكم ، استضاف قوما فأضافوه ، ولهم كلبة تنبح ، فقالت : والله لا أنبح ضيف أهلي الليلة ، فعوى جروها في بطنها ، فبلغ ذلك نبيا لهم ، أو قِيلاً من أقبالهم ^(١) ، فقال : مثل هذا مثل أمة تكون بعدكم ، يظهر سفهاؤها على حلمائها .

وقال الأحنف : إياكم ورأي الأوغاد ^(٢) ، قالوا وما رأي الأوغاد ؟

قال : الذين يرون الصفح والعفو عارا .

وسئل الأحنف عن الحلم ، فقال : هو الذي تصبر عليه ، ولست بحليم ولكنني صبور .

ويروى أن المهلب ، نازعه رجل من كبار بني تميم ، فأربى ^(٣) على المهلب ، والمهلب ساكت ، ف قيل له في ذلك فقال : كنت إذا سبني ، استحييت من سخر السباب وغلبة اللئام والسفلة ، وكان إذا سبني تهلل وجهه ، وشمخت نفسه ، بأن ظفر بفضل القحة ^(٤) ، ونبذ المروءة ، وخلع ربة الحياء ، وقلة الاكتراث بسوء الشناء .

(١) القيل : الملك أو الرئيس دون الملك ، كان يلقب بذلك ملوك حمير .

(٢) الوغد : الأحمق ، الرذل والدنيء .

(٣) أربى : زاد وأفحش في الكلام .

(٤) القحة : القحة - بكسر القاف - أو القحة - بفتحها - وهي الرقاقة وقلة الحياء .

ومرَّ المسيحُ عليه السلام على قوم من اليهود، فقالوا له شراً، وقال لهم خيراً، فقيل له: إنهم يقولون شراً وأنت تقول خيراً؟ فقال: كلُّ ينفق مما عنده.

وقال أكثمُ بن صيفي: من حَلَمَ سَادَ، ومن تفهَمَ ازدَادَ، وكَفَرَ النِّعْمَةُ لَوُمَ، وصحبةُ الجاهلِ شُوْمٌ، ولقاءُ الإخوانِ غُنْمٌ، والمباشرةُ يُمْنٌ^(١). ومن الفسادِ إضاعةُ الزَّادِ.

وسبَّ رجلٌ الشَّعْبِيَّ بقبائحٍ نسبها إليه، فقال الشَّعْبِيُّ: إن كنتَ كاذباً فغفرَ اللهُ لك، وإن كنتَ صادقاً فغفرَ اللهُ لي.

وقال رجلٌ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: لأسبَّك سباً يدخلُ معك في قبرك، فقال أبو بكر: معك والله يدخلُ لا معي.

وقال رجلٌ للأحنف بن قيس: إن قلتَ كلمةً لتسمعنَّ عشراً، فقال له الأحنف: لكنك لو قلتَ عشراً لم تسمعْ مني واحدة.

ويروى أن رجلاً سبَّ الأحنفَ وهو يُمَاشِيهِ في الطريق، فلما قرب من المنزل، وقفَ الأحنفُ وقال: يا هذا: إن كان بقيَ معك شيءٌ فقله ههنا، فإني أخافُ إن سمعتُ فتیانَ الحي أن يؤذوك.

وسبَّ رجلٌ بعضَ الحكماء، فقال له الحكيم: لستُ أدخلُ في حربِ الغالبِ فيه شرٌّ من المغلوبِ.

وقال لقيط بن زرارَة^(٢) شعراً:
فَقُلْ لِبَنِي سَعْدٍ فَمَالِي وَمَا لَكُمْ
أَغْرَكُمُ أَنِّي بِأَحْسَنَ شِيْمَةٍ
وَأَنَّكَ قَدْ سَابَبْتَنِي فَقَهَرْتَنِي
تَرْقُونَ مِنِّي مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَعْتَقُ^(٣)
بَصِيرٌ وَأَنِّي بِالْفَوَاحِشِ أَخْرَقُ^(٤)
هَنِيئاً مَرِيئاً أَنْتَ بِالْفَحْشِ أَحْدَقُ^(٥)

(١) المباشرة يمن: أي أن تتولى أمورك بنفسك فيه الخير والبركة.

(٢) لقيط بن زرارَة الدارمي: من تميم، فارس، شاعر جاهلي، من أشرف قومه، وكان رئيس تميم، قتل يوم (شعب جيلة) وهو يوم من أعظم أيام العرب وأشدّها بين تميم وبني عامر بن صعصعة سنة ٥٣ قبل الهجرة. الإعلام ٥ / ٢٤٤.

(٣) ترقون مني: تحاولون استرقاقي، والرق: العبودية.

(٤) بالفواحش أخرج: أي أنني جاهل بأمور الفواحش ولا أحسن إتيانها.

(٥) الحاذق بالفحشاء: الماهر الذي يتفنن إتيان الفواحش.

و قال رجلٌ لأبي ذر رضي الله عنه : أنت الذي نفاك معاوية من الشام؟ لو كان فيك خيرٌ ما نفاك ، فقال : يا ابن أخي إن ورائي عقبة كؤوداً^(١) ، إن نجوت منها لم يضرني ما قلت ، وإن لم أنج منها فأنا شرٌّ مما قلت .

و قال لقمان لابنه : يا بني ، ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة : لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه .
و سبَّ رجلٌ بعضَ الحكماء ، فأعرض عنه ، فقال له : إياك أعني ، فقال الحكيم : وعنك أعرض .

وفي هذا المعنى قيل :
قُلْ مَا بَدَأَ لَكَ مِنْ زُورٍ وَمِنْ كَذِبٍ حِلْمِي أَصَمُّ وَأُذُنِي غَيْرُ صَمَاءٍ
وقيل يوماً للأحنف : ما أحلمك ! فقال : لست بحليم ، ولكني أتحالم^(٢) ،
والله إني لأسمع الكلمة فأجم^(٣) لها ثلاثاً ، ما يمنعي من جوابها إلا الخوف
من أن أسمع ما هو شرٌّ منها .

و قال الشاعر :
وَلَيْسَ يَتِمُّ الْحِلْمُ لِلْمَرْءِ رَاضِيًا إِذَا كَانَ عِنْدَ السَّخَطِ لَا يَتَحَلَّمُ
كَمَا لَا يَتِمُّ الْجُودُ لِلْمَرْءِ مُوسِرًا إِذَا كَانَ عِنْدَ الْعُسْرِ لَا يَتَحَشَّمُ
وروي أن رجلاً سبَّ جعفر بن محمد^(٤) رضي الله عنه فقال : أما ما قلت مما هو
فينا فإننا نستغفرُ الله منه ، وما قلت مما ليس فينا فإننا نكلُّك فيه إلى الله تعالى .
و قال بعض الحكماء : احذروا الغضب فربُّ غَضَبٍ استحقَّ الغضبانُ به
غَضَبُ الله تعالى .

و قال أكثم بن صيفي : لا يكونُ الرجلُ حليماً حتى يقولَ السَّفيهُ : إنه
لضعيفٌ مستذلٌّ ، ولا يكونُ مخلصاً حتى يقولَ الأحمقُ : إنه لمُفسدٌ .

(١) عقبة كؤود : أي شاقة المصعد صعبة المرتقى .

(٢) أتحالم : أتناظر بالحلْم .

(٣) وجم الرجل وجماً : سكنت عن غيظه ، أو سكن وعجز عن التكلم من كثرة الغم أو الخوف .

(٤) جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الهاشمي القرشي ، من أئمة الإمامية الإثنا عشرية ، كان من أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة في العلم ، أخذ عنه مالك وأبو حنيفة ولقب بالصادق لأنه لم يكذب قط ، له أخبار مع الخلفاء العباسيين حيث كان جريئاً عليهم توفي سنة ١٤٨ هـ . (الأعلام ٢/ ١٢٦) .

و من أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير^(١) :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِ وَالْخَنَى أَصَبْتَ حَلِيمًا أَوْ أَصَابَكَ جَاهِلٌ^(٢)

ووصف أعرابي رجلا فقال : أحلم من فرخ طائر ، وقال أعرابي : إن الغضب عدو العقل ، ولذلك يحول بين صاحبه وبين العقل والفهم .

وقال صعصعة بن صوحان : الغضب مقدحة العقل ، فربما أصلد وربما أزند^(٣) ، وقال أعرابي : إذا جاء الغضب تسلط العطب .

وكان ابن عون^(٤) إذا غضب على أحد من أهله قال : سبحان الله ، بارك الله فيك .

وقال الأصمعي : دفع أردشير إلى رجل كان يقوم على رأسه كتابا ، وقال له : إذا رأيتني اشتد غضب فادفعه إلي ، فكان فيه : اسكن فلست بإله ، إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا ، وتصير عن قريب للدود والتراب .

وهذه السيرة أول من سنّها ملك تبع^(٥) أمر أن يكتب في كتاب : اسكن فلست بإله ، وقال لصاحبه : إذا غضبت فأعرضه علي ، فكان إذا غضب عرضه عليه ، فإذا قرأه سكن غضبه .

وقال معاوية : أفضل ما أعطى الرجل : العقل والحلم ، فإذا ذكّر ذكّر ، وإذا أعطى شكر ، وإذا ابتلي صبر ، وإذا غضب كظم ، وإذا قدر عفا ، وإذا أساء استعفى^(٦) وإذا وعد أنجز .

(١) كعب بن زهير بن أبي سلمى من أشهر الشعراء في الجاهلية والإسلام لما ظهر الإسلام هجا النبي ﷺ وشبب بنساء المسلمين فهدر النبي ﷺ دمه ثم جاءه مستأمنا مسلما وأنشد لاميته التي مطلعها (بانت سعاد فقلبي اليوم متبول) فعفا عنه النبي ﷺ وخلع عليه برده ، وتوفي سنة ٢٦هـ . (الأعلام ٥ / ٢٢٦) .

(٢) الخنى : الفحش من الكلام .

(٣) يقال : أصلد العود ؛ إذا لم ينقدح منه النار ، وأزند العود : إذا زاد اشتعاله .

(٤) عبد الله بن عون بن أرطبان ، شيخ أهل البصرة كان إماما في العلم والعبادة ومن حفاظ الحديث الثقات وأعلم أهل العراق بالسنة توفي سنة ١٥١هـ . (الأعلام ٤ / ١١١) .

(٥) قوم تبع : قوم انشأوا دولة في اليمن (التبابعة) بعد الدولة الحميرية ، أول ملوكهم الحارث وآخر ملوكهم أبر نواس صاحب نجران ، الذي اضطهد المسيحيين فغزا الأحباش بلاده إلى أن دخلها الإسلام .

(٦) استعفى : طلب العفو .

وفي الحكمة مكتوبٌ: من أطاعَ الغضبَ حُرِمَ السلامة، ومن عصىَ الحقَّ غمرَهُ الدُّلُّ.

وقال بعضُ الحكماء: كظمُ الغيظِ حلمٌ، والحلمُ صبرٌ والتشفيُّ ضربٌ من الجزئ.

وقال آخرُ: أوَّلُ الغضبِ جنونٌ، وآخرُهُ ندمٌ.

وقال بعضُ الحكماء: إذا غلبَ على الرَّجلُ أربعُ خصالٍ فقد عَطِبَ: الرغبةُ، والرَّهبةُ، والشَّهوةُ، والغضبُ.

وقيل لبعض الصالحين: إنَّ فلاناً يقع فيك^(١)، فقال: لأغيظنَّ من أمره، يغفرُ اللهُ لي وله، قيل له: ومن أمره؟ قال: الشيطان.

وقال رجل لأخيه: إني مررت بفلان وهو يقع فيك، ويدكرُك بأشياء رَحِمْتُكَ منها، قال: فهل سمعتني أذكرُهُ بشيء؟ قال: لا، قال: فإياهُ فارحم.

وقال الفضيل^(٢): ثلاثة لا يَلامون على الغضب: المريضُ، والصائمُ، والمسافرُ.

وقال الأحنفُ بن قيس: لقد تعلَّمتُ الحلمَ من قيس بن عاصم المنقري^(٣).
إني جالس معه في فناء وهو يحدثنا، إذ جاء جماعة يحملون قتيلاً، ومعهم رجلٌ مأسور، ف قيل له: هذا ابنك قتله أخوك، فوالله ما قطع حديثه ولا حلَّ حبوته^(٤)، حتى فرغَ من منطقته، ثم أنشد:

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْنِيْبًا وَتَعَزِيَّةً إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتْنِي وَلَمْ تُرِدْ
كِلَاهُمَا خَلْفٌ مِّنْ فَقْدِ صَاحِبِهِ هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِي
ثم التفت إلى بعض ولده فقال: قم فأطلق عمَّك، ووارِ أخاك، وسُقِ إلي أمه مائةً من الإبل، فإنها غريبة.

(١) يقع فيك: يشتمك ويغتتابك.

(٢) هو الفضيل بن عياض، العابد الصالح، سبقت ترجمته.

(٣) قيس بن عاصم المنقري: أول من وأد البنات في الجاهلية للغيرة والأنفة وتبعه الناس في ذلك إلى أن أبطله الإسلام وهو من شعراء الجاهلية وحكمائها وفصحائها، أسلم مع وفد تميم سنة ٩ هـ نزل البصرة في آخر أيامه وتوفي فيها سنة ٢٠ هـ. (الأعلام ٥/ ٢٠٦).

(٤) ما حل حبوته: أي لم يقم من مكانه حتى فرغ من كلامه.

و من أنبل بيتِ قائِله العربُ ، قولُ بعضهم :

فُصِّحَ بِالْخَيْرِ خُرْسٌ بِالْخَنَى رُجِعَ الْأَحْمَدُ لَامٌ ذِيَالُ الْأُزْرِ (١)
وقال غيره :

بأحلامٍ عادٍ لا يُحَافُ جَلِيسُهُمْ إِذَا حَدَّثُوا لَمْ يَخْشَ سُوءَ اسْتِمَاعِهِمْ
إِذَا نَطَقَ الْعَوْرَاءُ عُرْبُ لِسَانِ (٢)
وإن حَدَّثُوا أَدْوَا بِحَسَنِ بَيَانِ

وقال المسيح عليه السلام : ما حلمٌ من لم يصبر عند الجهل ؟ وما قُدْرَةٌ من لم يردَّ الغضب ؟ وما عبادة من لم يتواضع للرب تعالى ؟ .

و قيل للإسكندر : إن فلاناً وفلاناً ينتقصانك ويثلبانك (٣) فلو عاقبتَهُمَا .
فقال : هما بعد العقوبة أعذر في ثلبي وتنقيصي .

و يروى : أن جرير بن عبد الله (٤) بينما هو راكب قد أردف ابنه ، إذ لقيه رجل فنال منه ، وجرير ساكت ، فلما ولى قال له ابنه : يا أبت لم سكت عنه ؟ .
قال : يا بني أَفَأَوْسَعُ جِرْحِي ؟

وقال بعض الحكماء : متى أشفي غيظي ؟ أحين أقدر فيقال لو عفوت ؟ أم حين أعجل فيقال لو صبرت ؟

و سُئِلَ بعض أصحاب الأحنف : أكان الأحنف يغضب ؟ فقال : نعم ، لو لم يغضب ما بان حلمه ، كان يغضبه الشيء ، يبين في وجهه اليومين والثلاثة ، وهو يصبر ويحلم ، ومن لم يغضب من الأشياء التي مثلها يغضب ، فقد فقد من الفضائل الشجاعة والأنفة والحمية والدفاع ، والأخذ بالثأر ، والغيرة ، لأن هذه الخصال نتائج الغضب ، ومن فقد الغضب فقد أُسَّ الفضائل - على ما سنذكر في باب الشجاعة ، إن شاء الله تعالى - وعند فقد الشجاعة تكون المهانة ، ومن المهانة يكون سفاف الأخلاق ، ورذالة الطباع ، فلا يبقى لسائر فضائله موقع .

(١) يتكلمون بالخير ويخرسون عن الفاحش من القول عقولهم راجحة ويشد بهما الأزر .

(٢) بأحلام عاد : ضخام الأجسام كما فهم من قوم عاد . لا يحاف : لا يظلم وفي (خ) لا يحاف عليهم . العوراء : المعاني الغامضة . عرب لسان : أي اللسان العربي الفصيح .

(٣) يثلبانك : يعيبانك .

(٤) جرير بن عبد الله البجلي أبو عمرو : صحابي مشهور روى عن النبي ﷺ وعمر ومعاوية وعنه روى أولاده الكثير من الأحاديث ، مات سنة ٥١ هـ . (مشاهير الأمصار ١ / ٤٤) .

و كان يُقال : من لم يغضب فليس بحليم، لأن الحليم إنما يُعرف عند الغضب .

و قال الشعبي : الجاهل خصم والحليم حاكم .

قال الشافعي : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضى فلم يرض فهو جبار ، وقد كان النبي ﷺ ، يغضب ، ولكنه إنما كان يغضب لا نفسه ، بل عند انتهاك حرمة ربه .

واعلم : أن الله تعالى ما مدح من لا يغضب ، وإنما مدح من كظم الغيظ ، فقال : ﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

و قد أنشد النابغة الجعدي (١) بحضرة النبي ﷺ :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَةٍ أَنْ يُكْدَرَا
وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أُوْرِدَ الْأَمْرُ أَصْدَرَا (٢)

فلم ينكر النبي ﷺ قزله .

وكان ابن عمر إذا سافر ، استتبع سفيها ، ويقول : أستاذف به شر السفهاء عني .
و اعلموا - أرشدكم الله - أن أحسن خصال الملوك وأجلها قدرا : - وهي حلية الأنبياء ، ولبسة الأصفياء ، وجمال السوقة والرؤساء ، وأعظمها في النفوس مرقعا ، وأعمها على الرعايا نفعا ، وأخلدها على مر الأيام ذكرا ، وأكملها في المحافل والمحاسن نشرا ، وهي الفضيلة التي تعم سائر الفضائل ، وتكمل بها سائر المحاسن - الحلم .

وها أنا أتلو عليكم من ذلك ما يفضي فيه العجب .

وهذه دولة آل العباس : أولهم أبو العباس السفاح ، وإلى يومنا هذا لم يكن فيهم ، أجل (٣) من المأمون ، بلغ من حلمه أنه كان يقول : (لو علم الناس مالي

(١) النابغة الجعدي هو قيس بن عبد الله بن ربيعة الجعدي العامري ، شاعر مخضرم من المعمرين عاش ١٢٠ سنة ولم يسقط له ضرر ولا سن كان سيد قومه ، كان ممن هاجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام وفد على النبي ﷺ واسلم وأدرك صفين وشهدا مع علي رضي الله عنه توفي نحو سنة ٥٥ هـ . (الأعلام ٥ / ٢٠٧) .

(٢) أورد خلاف أصدر : ويقال ورد الماء إذا جاءه وصدر عنه إذا رجع ، ويقال : أصدر الأمر : أي أبرزه وأوضحه .

(٣) في (خ) أحلم من المأمون .

في لَذَّةِ العفو، ما تقرُّبُوا إِلَيَّ إِلَّا بِالْجِرائِمِ). فاق حلمه سائر خلفاء بني العباس، حتى صار يُضرب المثل بحلمه، وبهذه الخصلة تهياً ملكه، وقهر أخاه الأمين.

ومنها دولة بني أمية: أولَّهم معاوية بن أبي سفيان، وآخرهم مروان الجعدي، لم يكن فيهم أحلم من معاوية، ولا جرم دانت له الدنيا^(١)، وملك بها رقاب العرب والعجم، وصار حلمه يُضرب به المثل، ويقتدى به الخلق، ويتخلَّق به العقلاء، حتى حُكي عنه أنه كان يقول: لو كان بيني وبين الناس خيطٌ عنكبوت، أو شعرة، ما انقطعت، إذا جذبوها أرسلت، وإذا أرسلوا جذبت.

وهذه دولة الفُرس: وكانت أعظم دُول الأرض وأشدّها بأساً، وأكثرها علوماً وحكماً، لم يكن في أكاسرها أحلم من كسرى أنوشروان، وصار يُضرب بحلمه المثل، وتطرز بسيرته الكتب والمصنّفات، فيُروى أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه - لقي كبيراً من كُبراء فارس، فقال له: ما أحمدُ خصال ملوككم؟ فقال: السُّبق لشيوخه، وأحمدُهم سيرة أنوشروان. فقال له علي: وما كان أغلبُ خصاله عليه؟ قال الحلم والأناة. فقال علي: هما توأمٌ ينتجهما علوُ الهمة.

و بلغ من حلمه أنه كان يضيق صدره بحلمه، فقال في خصلتان، لولا أنهما ظاهرتان عند الرعية، لضقت بهما ذرعاً، الحلم والأناة. فأخْلَقَ بخصلة تعمُ منفعتها، ويبقى على الدهر جمالها، وتخلدُ في العلماء والعقلاء والملوك والسوقة بهجتها، وحسن مصادرها ومواردها، أن يتخذها الملوك شعاراً ودياراً، وإنما قصدتُ الحكماء من الملوك خاصة، فأما من سواهم من الرعية - كالأحنف ونظرائه - فلا يُحصون كثرة.

* * *

(١) لا جرم: أي حقا.

الباب التاسع والعشرون

فيما يسكن الغضب (١)

فأول ذلك : أنك إذا نظرت إلى تَغْيِيرِ أشكالك (٢) ، وتبدل صورتك ، واحمرار وجهك ، وانتفاخ أوداجك ، وذهاب جنانك ، وسقط كلامك ، وفحش ما يخرج من فيك ، لأمسكت عن الغضب ، ولطالما كنت تستحي أن تتكلم بين يدي الجلساء باليسير الجائز ، فعمدت تهذر بالكثير الفاحش ، ولو أن من غضب استذكر إذا صحا وسكن ، غرَّ به (٣) انقلاب صورته ، وتغير وجهه ، واضطراب شفتيه ، وارتعاد أطرافه ، وسقط كلامه ، وفحوى خطابه ، والتفاف لسانه ، وخفة عقله ، وطيشه ، ووثوبه من مجلسه كأنه نمر ، وسرعة التفاته يميناً وشمالاً كأنه قرد ، وعدم فهمه لما يسمع ، وقلة التفاته إلى من يعظه وينصحه كأنه أحمق .

و من شؤم الغضب وعظيم بليته : أنه قد يقتل النفوس ، ويسلب الروح ، وكان سبب موت مروان بن عبد الملك (٤) أنه : وقع بينه وبين أخيه سليمان كلام ، فعجل عليه سليمان ، فقال : يا من يلحق أمه ، ففتح فاه ليُجيبه ، وإذا بجنبه عمر بن عبد العزيز ، فأمسك على فيه ، ورد كلمته ، وقال : يا ابن عبد الملك ، أخوك ، وإمامك وله السنُّ عليك ، فقال يا أبا حفص : قتلتنى . قال : وما صنعت بك ؟ قال : رددت في جوفي أحر من الجمر ، ومال لجنبه فمات . ولعمري إنه يزيد على الحمقى .

(١) في (خ) فيما يسكن فيه الغضب .

(٢) في (خ) تغير استكانتك أي هدونك .

(٣) غرَّ به : عرضه للهلاك وفي (خ) غرَّ به أي شق عليه .

(٤) مروان بن عبد الملك بن مروان الأموي : أمير من شجعان بني مروان وقد ذكره الزركلي في

(الأعلام ٢٠٨/٧) ، وذكر أن الذي تشاجر معه مروان هو الوليد بن عبد الملك وليس سليمان (كما ذكر الطوطوشي) وذكر : أنه حج مع أخيه الوليد أيام خلافته ، فتشاجرا وهما في وادي القرى وشمته الوليد وكان معهما عمر بن عبد العزيز فوضع يده على فم مروان ومنعه من الرد على الوليد فقال له قتلتنى رددت غيظي في جوفي قال فما انصرفوا من وادي القرى إلا وقد مات ودفنوه سنة ٩١ هـ . وباعتقادي أن هذا الصحيح لأن سليمان بن عبد الملك لم يصبح إماماً وخليفة إلا سنة ٩٦ هـ يوم وفاة الوليد ، والله أعلم .

ومنها : أن ينتقل من الحالة التي كان عليها ، إلى غيرها : كانت الفُرس تقول : إذا غضب القائمُ فليجلس ، وإذا كان جالساً فليقم ، وبهذا المذهب كان يأخذُ المأمون نفسه .

ويروى (أن رجلاً)^(١) شكى إلى النبي ﷺ القسوة ، فقال : « اطلع في القبور واعتبر بالنشور »^(٢) .

وكان بعضُ ملوك الطوائف إذا غضبَ أُلقيَ بين يديه مفاتيحُ ترَبِّ الملوك فيزولُ غضبه .

و كان عكرمة^(٣) يقول : في قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٤] يعني : إذا غضبت ، فإنه إذا ذكر الله خاف منه ، فيزولُ غضبه .

و في التوراة : يا ابن آدم : اذكرني حين تغضب ، اذكرك حين أغضب ، ولا أمحك فيمن أمحك .

ومنها : أن يذكر نفرة القلوب عنه ، وسقوط منزلته عند أبناء جنسه ، ووصفهم لمقابحه وطيشه وسخفه ، فيكون ذلك سبباً لزوال غيظه .

ومنها : أن يتذكر انعطاف القلوب عليه ، وانطلاق الألسنة بالثناء عليه ، وميل النفوس إليه ، وإن الحلم عزٌّ وزينٌ ، وإن السفه ذلٌّ وشينٌ .

روي أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : « ما ازداد رجل بعفرٍ إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله »^(٤) .

وقال بعضُ الحكماء : من تذكَّر قُدرة الله ، لم يستعمل قُدرة في ظلم عباده .

(١) سقطت (أن رجلاً) من (ط) .

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس والحديث ضعيف (الجامع الصغير - لمسيوطي رقم ١١١٦) .

(٣) عكرمة بن عبد الله المدني مولى عبد الله بن عباس ، تابعي ، أصله من المغرب وكان أعلم الناس بالتفسير والمغازي طاف بالبلدان وروى عنه أكثر من سبعين تابعين توفي بالمدينة سنة ١٠٥ هـ (الأعلام ٤ / ٢٤٤) .

(٤) لهذا الحديث أصل في صحيح مسلم في كتاب البر والصلة رقم ٦٩ ورواه الإمام أحمد والترمذي بلفظ (ما زاد الله عبداً بعفرٍ إلا عزاً) وزاد : (وما تواضع أحد لله إلا رفعه) . (الجامع الصغير - لمسيوطي رقم ٨١٢٠) .

و كتب بعض ملوك الفرس كتاباً ، ودفعه إلى وزيره ، وقال له : إذا غضبت فناولنيه ، وفيه مكتوب : مالك وللغضب ، إنما أنت بشر ، ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء .

وكان معاوية كثيراً ما ينشد :

إِنَّا إِذَا مَالَتْ دَوَاعِي الْهَوَى وَأَنْصَتَ السَّامِعُ لِلْقَائِلِ
وَأَعْتَلَجَ النَّاسُ بِالْبَّانِهِمْ نَقَضِي بِحُكْمٍ عَادِلٍ فَاَصِلِ
نَخَافُ أَنْ تُسَفِّهُ أَحْلَامُنَا فَنَحْمِلَ الدَّهْرَ مَعَ الْخَامِلِ

وقال بعض الحكماء : إِيَّاكَ وَعِزَّةُ الْغَضَبِ ، فَإِنهَا تُفْضِي إِلَى ذِلَّةِ الْعُدْرِ .

وقال الشاعر :

وَإِذَا مَا اعْتَرَّتْكَ فِي الْغَضَبِ الْعِزَّةُ فَادْكُرْ تَذَلُّلَ الْإِعْزَازِ
وقال غيره :

زَرَرْنَا عَلَى غَيْرِ الْفَوَاحِشِ قُمْصَنَا وَلَمْ نَسْتَجِزْ إِلَّا الَّذِي هُوَ أَجْوَزُ^(١)

وقال عبدالله بن مسلم بن محارب ، لهارون الرشيد ، يا أمير المؤمنين : أسألك بالذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك ، وبالذي هو أقدرُ على عقابك منك على عقابي ، لَمَّا عَفَوْتُ عَنِّي . فعفا عنه لَمَّا ذَكَرَهُ قدرة الله تعالى عليه .

وقال رجاء بن حيوة^(٢) لعبد الملك بن مروان في أسارى بن الأشعث : إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاكَ مَا تَحِبُّ مِنَ الظَّفَرِ ، فَأَعْطِ اللَّهَ تَعَالَى مَا يَحِبُّ مِنَ الْعَفْوِ .

وقال المأمون لعمه إبراهيم بن المهدي^(٣) وكان مع أخيه عليه : إِنِّي شَاوَرْتُ فِي أَمْرِكَ ، فَأَشَارُوا عَلَيَّ بِقَتْلِكَ ، إِلَّا أَنِّي وَجَدْتُ قَدْرَكَ فَوْقَ ذَنْبِكَ ، فَكَرِهْتُ الْقَتْلَ لِلْأَمْرِ حُرْمَتِكَ . فقال يا أمير المؤمنين : إِنَّ الْمَشِيرَ أَشَارَ بِمَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ فِي السِّيَاسَةِ ، إِلَّا أَنَّكَ أَبَيْتَ أَنْ تَطْلُبَ النِّصْرَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ

(١) زَرَأَ الْقَمِيصُ : شَدَّ أَزَارَهُ وَأَدْخَلَهَا فِي الْعَرِي .

(٢) رجاء بن حيوة : شيخ أهل الشام في عصره ، عالم وواعظ فصيح ، فلسطيني المولد ، كان وزير الخليفة سليمان بن عبد الملك وهو الذي أشار عليه باستخلاف عمر بن عبد العزيز ، وبقي ملازماً لعمر في عهدي الإمارة والخلافة ، مات سنة ١١٢ هـ . (الأعلام ٣ / ١٧) .

(٣) إبراهيم بن المهدي : عم المأمون وقد سبقت ترجمته .

عُودَتُهُ مِنَ الْعَفْوِ، فَإِنْ عَاقَبْتَ فَلَكَ نَظِيرٌ، وَإِنْ عَفَوْتَ فَلَا نَظِيرَ لَكَ. وَأَنْشَأَ
يَقُولُ :

الْبَرُّ بِي مِنْكَ وَطَا الْعُذْرَ عِنْدَكَ لِي فِيمَا فَعَلْتُ فَلَمْ تَعْذِلْ وَنَمَّ تَلَمَّ (١)
وَقَامَ عِلْمُكَ بِي فَاحْتَجَّ عِنْدَكَ لِي مَقَامَ شَاهِدٍ عَدْلٍ غَيْرِ مُتَّهِمٍ

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْغَضَبُ عَلَى مَنْ لَا تَمْلِكُ عَجْزًا، وَعَلَى مَنْ تَمْلِكُ
لُؤْمًا.

وَمِنْهَا: أَنْ يَتَذَكَّرَ مَا يُؤُولُ إِلَيْهِ الْغَضَبُ، مِنَ النَّدَمِ وَمِزْلَةِ الْإِنْتِقَامِ، وَشُرُوعِ
الْقَصَاصِ فِي بَدَنِهِ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ لَا يَرْحَمُهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَا يَرُدُّهُ مِنَ الْغَضَبِ (٢).

* * *

(١) العذل : اللوم.

(٢) يردده من الغضب : يمنعه منه.

الباب الثلاثون

في الجود والسخاء وهذه الخصلة الجليل

قدرها، العظيم موقعها الشريف موردها ومصدرها

وهي إحدى قواعد المملكة وأساسها، وتاجها وجمالها، تعنوا^(١) لها الوجوه، وتذل لها الرقاب، وتخضع لها الجبابرة، ويُسترق بها الأحرار، ويُستمال بها الأعداء، ويُستكثر بها الأولياء، ويحسن بها الثناء، ويملك بها القرباء والبعداء، ويسود بها في غير عشائريهم الغرباء.

وهذه الخصلة بالعزائم الواجبات أشبه منها بالجمال والمتممات، وكم قد رأينا من كافر ترك دينه والتزم دين الإسلام ابتغاء عرض قليل من الدنيا يناله، وكم قد سمعنا من مسلم ارتد في أرض الشرك افتتاناً بيسير من عرض الدنيا، وأخلق بخصلة يترك لها الإنسان دينه الذي يبذل دونه نفسه، أن تكون جليلة القدر، وعظيمة الخطر، وأحوج خلق الله إليها أفقرهم إلى عطف القلوب عليه، وصرف الوجوه إليه، وهم: الملوك والولاة.

واعلموا يا معشر من وسَّع الله عليه دنياه، وأسبغ عليه آلاءه ونعماءه أنه ليس في الجنة «لا» وحسبك بكلمة لا تدخل الجنة سقوطاً وضعة^(٢)، وإنما أُسست الجنة على ما تشتهيهِ الأنفس وتلدُّ الأعين.

وهذه الخصلة، أعني - الكرم والجود والسخاء والإيثار - بمعنى واحد يوصف البارئ تعالى بالجود ولا يوصف بالسخاء، كما يوصف بالعلم ولا يوصف بالعقل، لعدم التوقيف.

وحقيقة الجود: هي أن لا يصعب عليه البذل، ويقال: السخاء هو الرتبة الأولى، ثم الجود، ثم الإيثار، فمن أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكبر فهو صاحب جود، ومن أثر غيره بالحاضر وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار.

(١) تعنوا: تخضع وتذل ومنها قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

(٢) الضعة: الانحطاط.

قال ذو النون^(١): بداية السخاء، أن تسخو نفسك بما في يدك، ونهايته أن تسخو نفسك بما في أيدي الناس، وأن لا تبالي من كل الدنيا .
و تذكر قوم من الزُّهَّاد عند رابعة العدوية^(٢) فجعلوا يذمُّون الدنيا ويكثرون من ذلك، فقالت رابعة: من أحب شيئاً أكثر من ذكره .
وأصل السخاء هو السماحة، وأن يُؤتى ما يؤتیه عن طيبة نفس وانشرح صدر^(٣) .

وقد يكون المعطي بخيلاً إذا صعب عليه البذل، والممسك سخيّاً إذا كان لا يستصعب العطاء وإن منع، ولهذا قال علماؤنا: إن الله تعالى لم يزل جواداً وإن لم يقع منه عطاء في الأزل، لأن العطاء فعل، والفعل في الأزل مستحيل .
وقالت الحكماء: أيها الجامع لا تُخدَعَنَّ، فالمأكل للبدن، والموهوب للمعاد، والمترك للعدو . وقال الله تعالى: ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] .

قال أبو هريرة رضي الله عنه، جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إني جائع فأطعمني، فبعث النبي ﷺ إلى أزواجه، فقلن: والذي بعثك بالحق ما عندنا إلا الماء، فقال النبي ﷺ: ما عند رسول الله ما يطعمك الليلة، ثم قال: من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فحمّله إلى منزله، وقال لأهله: هذا ضيف النبي ﷺ، فأكرّمه ولا تدخري عنه شيئاً، فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية، فقال فعّلّهم^(٤) عن قوتهم حتى يناموا، ثم اسرجي وابرزي^(٥) فإذا أخذ الضيف يأكل، قومي كأنك تصلحين السراج فأطفئيه، وتعالى تمضمّع أسلنتنا لضيف النبي ﷺ، ففعلت، وجعلا يمضغان أسلنتهما، والضيف يظن أنهما يأكلان، وباتا

(١) ذو النون: هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم: صوفي مصري من الكبار أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية توفي بالجيزة سنة ٢٤٥ هـ. (الأعلام ١٠٢/٢) .
(٢) رابعة العدوية: متصوفة صالحة مشهورة من البصرة تنسكت واشتهرت بأخبارها في العبادة وادخلت على التصوف فكرة الحب الإلهي بدلا من الخوف والرهبة توفيت ١٣٥ هـ بالقدس . (الأعلام ١٠/٢) .

(٣) [انشرح صدر] سقطت من (ط) .

(٤) علّهم: أشغلهم .

(٥) اسرجي وابرزي: أوقدي السراج وأخرجي .

طاويين^(١)، فلمَّا أصبحوا ونظر النبي ﷺ إليهما، تبسم ثم قال: لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة، ونزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٢) [الحشر: ٩] الآية.

وقال أنس: أهدي لبعض الصحابة رأس شاة مشوية وكان مجهودا^(٣)، فوجه به إلى جاره، فوجه به الجار إلى أهل بيت آخر، فتداولته سبعة أبيات، حتى عاد إلى الأول فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾.

وقال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي، ومعني شيء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت: أسقيك؟ فإذا رجل يقول: آه، فأشار ابن عمي أن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص^(٤) فقلت: أسقيك؟ فسمع آخر يقول: آه فأشار هشام: أن انطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات، ثم رجعت إلى هشام فوجدته قد مات، ثم رجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات.

وروت عائشة رضي الله عنها، قالت: قال النبي ﷺ: «السخي قريبه من الله، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، والجاهل السخي أحب إلى الله من العابد البخيل»^(٥).

وروي أن النبي ﷺ قال: «ابن آدم، إنما لك من مالك، ما أكلت فأفريت، أو لبست فأبليت، أو أعطيت فأمضيت»^(٦).

واعلم: أن السخاء على وجوه: سخاء في الدين، وسخاء في الدنيا، فالسخاء في الدنيا: البذل والعطاء، والإيثار، وسماحة النفس، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وعلامته: ترك الادخار، وبغض جمع المال، وتعاهد الإخوان، مسرورا قلبه بذلك.

(١) باتا طاويين: أي جائعين.

(٢) والحديث صحيح رواه البخاري بلفظ شبيه في كتاب التفسير.

(٣) مجهودا: فقيرا.

(٤) هشام بن العاص بن وائل أخو عمرو بن العاص أسلم بمكة قديما كان شجاعا صالحا شهد الوقائع وقتل في اليرموك.

(٥) الحديث: رواه البيهقي في شعب الإيمان عن جابر والطبراني في الأوسط عن عائشة ورواه الترمذي في كتاب البر والصلة باب ما جاء في السخاء رقم ١٩٦١ وقال: غريب (كنز العمال رقم ١٥٩٢٨).

(٦) الحديث صحيح رواه مسلم في كتاب الزهد ورواه الترمذي في أبواب الزهد.

و السُّخَاءُ فِي الدِّينِ ، أَنْ تَسْخُو بِنَفْسِكَ أَنْ تَتْلِفَهَا فِي اللَّهِ تَعَالَى (١) ، وَتَرِيقَ دَمِكَ فِي اللَّهِ سَمَاحَةً مِنْ غَيْرِ كِرَاهَةٍ ، لَا تَرِيدُ بِذَلِكَ ثَوَابًا عَاجِلًا وَلَا آجِلًا ، وَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ مُسْتَغْنٍ عَنِ الثَّوَابِ ، لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَى قَلْبِكَ حَسَنُ كِمَالِ السُّخَاءِ ، بِتَرْكِ الْإِخْتِيَارِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، حَتَّى يَفْعَلَ اللَّهُ بِكَ مَا لَا تَحْسُنُ أَنْ تَخْتَارَهُ لِنَفْسِكَ .

وَقِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَنْ السَّيِّدُ ؟ قَالَ : الْجَوَادُ إِذَا سُئِلَ ، الْحَلِيمُ إِذَا اسْتُجْهِلَ ، الْكَرِيمُ الْمَجَالِسَةُ لِمَنْ جَالَسَهُ ، الْحَسَنُ الْخَلْقَ لِمَنْ جَاوَرَهُ .

وَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ الْمَنْذَرِ (٢) يَوْمًا لَجُلَسَائِهِ : مَنْ أَفْضَلُ النَّاسِ عَيْشًا وَأَنْعَمَهُمْ بَالًا ، وَأَكْرَمَهُمْ طَبَاعًا ، وَأَجْلَهُمْ فِي النُّفُوسِ قَدْرًا ؟ فَسَكَتَ الْقَوْمُ ، فَقَالَ : فَتَى : - أَبَيْتُ اللَّعْنَ (٣) - أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَاشَ النَّاسَ فِي فَضْلِهِ ، قَالَ : صَدَقْتَ .

وَقَالَ الْحَسَنُ (٤) : بَاعَ طَلْحَةُ بْنُ عَثْمَانَ (٥) أَرْضًا ، بِسَبْعِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الْمَالُ ، قَالَ : إِنْ رَجُلًا يَبِيتُ هَذَا عِنْدَهُ لَا يَدْرِي مَا يَطْرُقُهُ لَغَيْرِهِ بِاللَّهِ ، ثُمَّ جَعَلَ رَسُولُهُ يَخْتَلِفُ حَتَّى قَسَمَهَا ، وَمَا أَصْبَحَ عِنْدَهُ مِنْهَا دِرْهَمٌ .

وَكَانَ أَسْمَاءُ بْنُ خَارِجَةَ (٦) يَقُولُ : مَا أَحَبُّ أَنْ أُرَدَّ أَحَدًا عَنْ حَاجَةٍ ، لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ كَرِيمًا أَصَوْنَ عَرْضَهُ ، وَإِنْ كَانَ لَثِيمًا أَصَوْنَ عَنْهُ عَرْضِي .

وَكَانَ مُورِقُ الْعَجَلِيِّ ، يَتَلَطَّفُ فِي ادْخَالِ الرِّفْقِ عَلَى إِخْوَانِهِ ، فَيَضَعُ عِنْدَ أَحَدِهِمْ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، وَيَقُولُ : أَمْسِكُوهَا حَتَّى أَعُودَ إِلَيْكُمْ ، ثُمَّ يَرْسِلُ إِلَيْهِمْ : أَنْتُمْ مِنْهَا فِي حُلٍ .

(١) هَكَذَا فِي (خ) ، وَفِي (ط) أَنْ تَسْخُو بِنَفْسِكَ أَنْ يَتْلِفَهَا اللَّهُ تَعَالَى .

(٢) النُّعْمَانُ بْنُ الْمَنْذَرِ : أَشْهَرُ مُلُوكِ الْحِيرَةِ سَبَقَتْ تَرْجُمَتُهُ .

(٣) أَبَيْتُ اللَّعْنَ : تَحِيَّةُ الْمُلُوكِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَعْنَاهَا : لَا فَعَلْتُ أَيُّهَا الْمَلِكُ مَا تَسْتَوْجِبُ بِهِ اللَّعْنَ .

(٤) الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ سَبَقَ تَرْجُمَتُهُ .

(٥) طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَثْمَانَ الصَّحَابِيُّ الْمَعْرُوفُ بِكَرْمِهِ .

(٦) أَسْمَاءُ بْنُ خَارِجَةَ بْنِ حَصْنِ الْفَزَارِيِّ ، تَابِعِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ كَانَ سَيِّدَ قَوْمِهِ جَوَادًا مُقَدِّمًا عِنْدَ الْخُلَفَاءِ وَلَمَّا سَأَلَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ بِمِ سُدَّتِ النَّاسُ ؟ قَالَ مَا سَأَلَنِي أَحَدٌ حَاجَةً إِلَّا رَأَيْتُ لَهُ الْفَضْلَ عَلَى مَا مَاتَ سَنَةَ ٦٦ هـ .

و قال العتبي (١) : أعطى الحَكَم بن عبد المطلب (٢) ، جميع ما يملكه ، فلما نفذ ما عنده ، ركب فرسه وأخذ رمحه يريد الغزو ومات بمنبج (٣) ، فأخبرني رجل من أهل منبج ، قال : قدم علينا الحَكَم وهو مملق (٤) لا شيء معه فأغنانا ، قيل : كيف أغناكم وهو مملق ؟ فقال : ما أغنانا بمال ولكنه علمنا الكرم ، فعاد ببعضنا على بعض فاستغنينا .

و أكرم العرب في الإسلام : طلحة بن عبيد الله (٥) ، جاءه رجل فسأله برحم بينه وبينه ، فقال : هذا حائطي بمكان كذا وكذا ، وقد أُعطيتُ به ستمائة ألف درهم ، يراح بالمال إلى العشية فإن شئت فالمال وإن شئت الحائط .

ويروى : أن رجلا بعث إلى حنظلة بجارية ، فوافته بين أصحابه ، فقال : قبيح أن آخذها لنفسي وأنتم حضور ، وأكره أن أخص بها واحداً منكم وكلكم له حق وحرمة ، وهذه لا تحتمل القسمة ، وكانوا ثمانين رجلاً ، فأمر لكل واحد منهم بجارية أو وصيف (٦) .

وقيل لقيس بن سعد (٧) هل رأيت قط أسخى منك ؟ قال : نعم ، نزلنا بالبادية على امرأة ، فحضر زوجها ، فقالت له ، إنه نزل بك ضيفان ، فجاء بناقة فنحرها ، وقال : شأنكم ، فلما كان الغد جاء بأخرى ونحرها ، وقال : شأنكم ، فقلنا : ما أكلنا من التي نحرنا البارحة إلا اليسير ، فقال : إني لا أُطعمُ أضيافي

(١) العتبي أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله الأموي ، أديب كثير الأخبار توفي سنة ٢٢٨ هـ وهو غير العتبي المؤرخ محمد بن عبد الجبار (الأعلام ٦ / ٢٥٨) .

(٢) الحكم بن عبد المطلب بن عبد الله بن المطلب القرشي المخزومي كان من أجواد قريش من أهل المدينة قدم منبج وسكنها مرابطاً إلى أن مات فيها (فوات الوفيات ١٢ / ١٢٣) .

(٣) منبج : مدينة سورية في محافظة حلب ، كان أبو فراس الحمداني قد حكمها قبل أن تأسره الروم .

(٤) مملق : شديد الفقر .

(٥) كان يلقب بطلحة الجود ، صحابي شجاع من الأجواد وأكرم العرب في الإسلام وهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان التميمي القرشي المدني وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى كان من دهاة قريش وعلمائهم شهد الغزوات مع الرسول ﷺ ، وكانت له تجارة وافرة مع العراق ولكنه لم يدع أحداً من بني تميم عائلاً إلا كفاه مؤنته ، قتل يوم الجمل سنة ٣٦ هـ وهو بجانب عائشة . (الأعلام ٣ / ٢٢٩) .

(٦) الوصيف : الخادم .

(٧) هو قيس بن سعد بن عبادة الصحابي الخزرجي الأنصاري وقد سبقت ترجمته .

الفائت . فأقمنا عنده أياما والسماء تمطر ، وهو يفعل كذلك ، فلما أردنا الرحيل ، وضعنا مائة دينار في بيته ، وقلنا للمرأة : اعتذري لنا منه ، ومضيها ، فلما مَتَعَ النَّهَارُ ^(١) ، إذا برجل يصيح خلفنا : قفوا أيها الركب اللئام ، أعطيتموني ثمن القرى ؟ ثم إنه لحقنا وقال : لتأخذونها وإلا طعنْتُكم برمحي ، فأخذناها وانصرف .

وقال ميمون بن مهران : من طلب مرضاة الأخوان بلا شيء ، فليصحب أهل القبور .

وقال ابن عباس : لا يتم المعروف إلا بثلاثة : تعجيله ، وتصغيره ، وستره ، فإذا عَجَلَه فقد هَنَأه ، وإذا صَغَرَه فقد عَظَّمَه ، وإذا ستره فقد تَمَمَّه .

وقال الحسن : كان أحدهم يشقُّ إزاره لأخيه بنصفين .

وقال المغيرة : في كل شيء سرف إلا في المعروف .

وقيل للحسن بن سهل : لا خير في السَّرف ، فقال : لا سرف في الخير ، فقلب اللفظ واستوفي المعنى ، ونظمه محمد بن حازم ^(٢) فقال :

لَا الْفَقْرُ عَارٌ وَلَا الْغِنَى شَرَفٌ وَلَا سَخَاءٌ فِي طَاعَةِ سَرْفٍ
مَالِكَ إِلَّا شَيْءٌ تَقَدَّمَ هُ وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْـسَرَتْهُ تَلَفٌ

و أما طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي ^(٣) ، المعروف بطلحة الطلحات ، وإنما سمي بهذا الاسم ، لأنه كان عظيم البذل في كل وجه ، وكان يبتاع الرقاب فيعتقها ، وكان كل معتق يولد له ولد ذكر سماه طلحة ، فبلغ عددهم ألف رجل ، كل يسمى طلحة ، فسمي طلحة الطلحات ، ثم ولي سجستان وفيه يقول الشاعر ^(٤) :

نَضَّرَ اللَّهُ أَعْظَمًا دَفْنُوهَا بِسَجَسْتَانَ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ

(١) متع النهار : ارتفع أو بلغ غاية ارتفاعه .

(٢) محمد بن حازم : أبو جعفر الباهلي ، شاعر مطبوع ، لم يمدح من الخلفاء غير المأمون العباسي ، وأكثر شعره في الفناعة ومدح التصوف وذم الحرص والطمع مات سنة ٢١٥هـ . (الأعلام ٦ / ٧٥) .

(٣) طلحة بن عبد الله بن خلف بن أسعد بن عامر الخزاعي (طلحة الطلحات) أحد الأجواد كان أجود أهل البصرة في زمانه كان يميل إلى بني أمية فيكرمونه ولاه زياد بن مسلم على سجستان وتوفي فيها سنة ٦٥هـ . (الأعلام ٣ / ٢٢٩) .

(٤) هو عبيد الله بن قيس الرقيات العامري القرشي وهو أحد الشعراء المجيدين .

فقد بلغه أن معلمه كان في الكتّاب بالحجاز، قد قعد به الدهر، فأرسل إليه مع غلامه مائة ألف، فقال: سلمها إليه، فإن يكن مات وله ولد فادفعها إلى ولده، وإن لم يكن له ولد ففرّقها على قومه، فوافقه الرسول قد مات، ولم يعقب^(١) ففرّقها في قومه.

وقال زيد بن اسلم - وكان من الخاشعين -: يا ابن آدم: أمرك الله أن تكون كريما وتدخل الجنة، ونهاك أن تكون لثيما وتدخل النار.

وقال حكيم بن حزام^(٢): ما أصبحت قط صباحا، لم أربابي طالب حاجة، إلا عددتها مصيبة أرجو ثوابها.

[وقال أبو علي الثقفى: المعروف كنز لا يبعد من بر ولا فاجر].

[وكان الزبير^(٣) من أجود الناس وأشجعهم]^(*)، ولما مات وجد عليه مائتا ألف دينار، ووجد مكتوبا على حجر، انتهز الفرص عند إمكانها، ولا تحمل على نفسك هم ما لم يأتك، واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك، فكم من جامع لبلع حليلته.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما جمعت من المال فوق قوتك، وإنما أنت فيه خازن لغيرك.

وروى مالك في الموطأ: أن مسكينا سأل عائشة وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها، أعطيه إياه، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه، فقالت: أعطيه إياه، ففعلت، فلما أمست أهدى لها أهل بيت شاة وكفنها - يعني ملفوفة بالزعفران - فقالت لي عائشة: كُلي، هذا خير من قرصك.

وقال عبد الله بن عمر^(٤): ما كان أحدنا على عهد النبي ﷺ، يحسب أن له في الفضل شيئا.

(١) لم يعقب: لم يترك ولدا.

(٢) حكيم بن حزام: بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ابن أخ خديجة أم المؤمنين ولد بمكة صحابي قرشي كان صديقا للنبي ﷺ قبل البعثة بعدها، وكان من سادات قريش أسلم يوم الفتح عمر طويلا ومات سنة ٥٤هـ في المدينة وكان عالما بالأنساب. (الأعلام ٢ / ٢٦٩).

(*) ما بين المعقوفتين سقط من (ط).

(٣) الزبير بن العوام بن خويلد ابن عمه رسول الله ﷺ ومن العشرة المبشرين بالجنة اسلم وعمره ١٢ سنة شهد بدر وأحداً وغيرهما، قتل غيلة في معركة الجمل سنة ٣٦هـ (الأعلام ٣ / ٤٣).

(٤) عبد الله بن عمر بن الخطاب: صحابي من كبار رواة الحديث، هاجر للمدينة واشترك في غزو أفريقية، توفي بمكة سنة ٧٣هـ. (الأعلام ٤ / ١٠٨).

و قال الحسن : كنا نَعُدُّ البخيلَ ، من يُقرض أخاه الدرهم .

و من عجائب ما رُوي في الإيثار : ما ذكره أبو محمد الأزدي ، قال : لما احترق المسجد بمصر ، وظن المسلمون أن النصارى أحرقوه ، فأحرقوا خاناً لهم ، فقبض السلطان جماعة من الذين أحرقوا الخان ، وكتب رقاعاً فيها القتل وفيها القطع ، وفيها الجلد ، ونثرها عليهم ، فمن وقعت عليه رقعة ، فعل به ما فيها ، فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل ، فقال : ما كنت أبالي لولا أم لي ، وكان بجانبه بعض الفتيان ، فقال له : في رقعتي الجلد وليست لي أم ، فادفع إلي رقعتك وخذ رقعتي فقتل ذاك ، وتخلص هذا .

وحُكي أن أبا العباس الأنطاكي ^(١) ، اجتمع عنده نيف وثمانون رجلاً ، بقرية بقرب الرِّي ^(٢) ولهم أرغفة لم تَسَع ^(٣) جميعهم ، فكسروا الرغفان ، وأطفئوا السراج ، وجلسوا للطعام إلى أن كفوا ، فلما رفع ، إذا الطعام بحاله ، لم يأكل منه واحد منهم ، إيثاراً لصاحبه على نفسه .

و روي أنه اجتمع بالرَّملة ^(٤) جماعة من أرباب القلوب ، فحضر طبق فيه تين أخضر ، وقد غسق الليل ^(٥) فكان الواحد يمد يده ، فإذا ظفر بعصاة حصرم ^(٦) يأكلها ، وإن ظفر بطيب دفعه إلى صاحبه ولم يأكله ، فلما رفع الطبق ، إذا الطيب كله في الطبق لم يأكلوا منه شيئاً .

وقال بعض الرواة : دخلت على بشر الحافي ^(٧) في يوم شديد البرد ، وقد تعرَّى من الثياب ، فقلت : يا أبا نصر ، الناس يزدون الثياب في مثل هذا اليوم وأنت تنقص ؟ فقال : ذكرت الفقراء وما هم فيه ، ولم يكن لي ما أواسيهم به ، فاردت أن أرافقهم بنفسي في مقاساة البرد .

(١) أبو العباس الأنطاكي : مؤرخ من أهل أنطاكية له « ذيل التاريخ » توفي سنة ٤٥٨ هـ .

(٢) الري : مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات قبل أنه لم يكن بعد بغداد أعمر منها تبعد عن نيسابور ١٦٠ فرسخاً زاد المهدي في عمارتها منذ خلافة المنصور فجعل حولها خندقاً وبني فيها المسجد الجامع .

(٣) أرغفه لم تسع جميعهم : أي لم تكن تكفيهم .

(٤) الرملة : مدينة عظيمة في فلسطين شمال شرق القدس .

(٥) غسق الليل : أظلم .

(٦) الحصرم : ثمار غير ناضجة والطيب الثمار الناضجة .

(٧) بشر الحافي : بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن من كبار الصالحين له في الزهد والورع أخبار وهو من ثقات رجال الحديث من أهل مرو قال المأمون لم يبق في هذه الكورة أحد يستحي منه غير هذا الشيخ بشر بن الحارث توفي سنة ٢٢٧ هـ . (الأعلام ٢ / ٥٤) .

وَنَالِ الْأَسْتَاذَ أَبُو عَلِيٍّ : لِمَا سَعَى غَلَامٌ خَلِيلٌ بِالصُّوفِيَّةِ إِلَى الْخَلِيفَةِ بِالزُّنْدَقَةِ ، أَمْرٌ بِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمْ ، فَأَمَّا الْجَنِيدُ فَإِنَّهُ تَسْتَرُ بِالْفَقْهِ ، وَكَانَ يَفْتِي عَلَى مَذْهَبِ أَبِي ثَوْرٍ ، وَأَمَّا الشَّحَامُ وَالرَّقَامُ وَالنُّوْرِي وَجَمَاعَةٌ (١) فَقَبِضَ عَلَيْهِمْ ، وَبَسَطَ النُّطْعَ لَضَرْبِ أَعْنَاقِهِمْ ، فَتَقَدَّمَ النُّوْرِي أَمَامَهُ ، فَقَالَ لَهُ السِّيَافُ : أَتَدْرِي لِمَاذَا تَتَقَدَّمُ وَتُسَاقِقُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : وَمَاذَا يَعْجَلُكَ ؟ قَالَ : أَوْثَرَ أَصْحَابِي بِحَيَاةِ سَاعَةٍ ، فَتَوَقَّفَ السِّيَافُ عَنْ قَتْلِهِ . وَأَتَى الْخَبَرَ إِلَى الْخَلِيفَةِ فَرَدَّهُمْ إِلَى الْقَاضِي لِيَتَعَرَفَ حَالَهُمْ ، فَأَلْقَى الْقَاضِي عَلَى أَبِي الْحَسَنِ النُّوْرِي مَسَائِلَ فِقْهِيَّةٍ ، فَأَجَابَ عَنْ الْكُلِّ ، ثُمَّ أَخَذَ يَقُولُ : إِنْ لِلَّهِ عِبَادًا إِذَا قَامُوا قَامُوا بِاللَّهِ ، وَإِذَا نَطَقُوا نَطَقُوا بِاللَّهِ ، وَسَرَدَ أَلْفَاظًا حَتَّى أَبْكَى الْقَاضِي ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْخَلِيفَةِ وَقَالَ : إِنْ كَانَ هَؤُلَاءُ زُنَادِقَةً فَمَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُسْلِمٌ .

وَلَمَّا مَرَضَ قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عِبَادَةَ ، اسْتَبْطَأَ إِخْوَانَهُ فِي الْعِيَادَةِ فَسَأَلَ عَنْهُمْ فَقِيلَ : إِنَّهُمْ يَسْتَحْيُونَ مِمَّا لَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ الدِّينِ ، فَقَالَ : أَخْزَى اللَّهُ مَا لَا يَمْنَعُ الْإِخْوَانَ مِنَ الزِّيَارَةِ ، ثُمَّ أَمَرَ مَنْ يَنَادِي : مَنْ كَانَ لَقَيْسٍ عِنْدَهُ مَالٌ فَهُوَ مِنْهُ فِي حُلٍّ ، فَكَسَرَتْ عَتَبَةَ بَابِهِ بِالْعَشِيِّ لَكثْرَةِ الْعَوَادِ .

وَيُرَوَّى أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرَ (٢) - وَكَانَ أَحَدَ الْأَجْوَادِ - خَرَجَ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ ، فَنَزَلَ عَلَى نَخِيلٍ قَوْمٍ ، وَفِيهَا غَلَامٌ أَسْوَدُ يَقُومُ عَلَيْهَا ، فَأَتَى بِقَوْتِهِ - ثَلَاثَةَ أَقْرَاصَ - وَدَخَلَ كَلْبٌ وَدَنَا مِنَ الْغَلَامِ ، فَرَمَى إِلَيْهِ بِقَرَصٍ فَأَكَلَهُ ، ثُمَّ رَمَى إِلَيْهِ بِالثَّانِي -

(١) ذَكَرْتُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ فِي تَارِيخِ بَغْدَادَ لِلْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ (٥ / ١٣٤) بِعَنْوَانِ (مَحَنَةُ الصُّوفِيَّةِ) . وَالْأَسْتَاذُ أَبُو عَلِيٍّ هُوَ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَاقُ . وَغَلَامٌ خَلِيلٌ : هُوَ شَيْخُ بَغْدَادَ الزَّاهِدُ الْوَاعِظُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ غَالِبٍ . وَبَنُ مَرْدَاسٍ لَهُ أَمْرٌ الْمَعْرُوفُ وَنَهْيٌ عَنِ الْمَكْرِ وَلَكِنَّهُ يَرُوي الْأَحَادِيثَ الْكَذِبَ وَيُرِي وَضْعَ الْحَدِيثِ ، نَسَأَلَ اللَّهَ الْعَافِيَةَ . وَأَمَّا الْخَلِيفَةُ : فَهُوَ الْمَعْتَمِدُ عَلَى اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرِ الْمُتَوَكِّلِ بْنِ الْمَعْتَصِمِ وَلِي سَنَةِ ٢٥٦ وَكَانَتْ أَيَّامُ مَلِكِهِ مِضْطَرِبَةً بِسَبَبِ تَدْبِيرِ الْأَمْوَالِي وَغِلْبَتِهِمْ عَلَيْهِ وَمَاتَ فِي بَغْدَادَ سَنَةَ ٢٧٩ هـ .

وَأَمَّا الْجَنِيدُ وَالشَّحَامُ وَالرَّقَامُ وَالنُّوْرِي ... فَهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الصُّوفِيَّةِ وَلَهُمْ كَرَامَاتٌ ذَكَرَهَا الْبَغْدَادِيُّ وَذَكَرْتُ فِي حَلِيَّةِ الْأَوْلِيَاءِ وَقَدْ تَرَفَّى الْجَنِيدُ النَّهْأَوْنَدِيُّ سَنَةَ ٢٩٨ وَأَبُو الْحَسَنِ النُّوْرِي ٢٩٥ هـ . وَالشَّحَامُ مِنْ بَيْعِ الشَّحْمِ وَهُوَ أَبُو سَلْمَةَ عَثْمَانُ الشَّحَامُ ، وَالرَّقَامُ مِنْ يَرْقُمِ الثِّيَابِ أَوْ يَمِيزُ الْأَشْيَاءَ بِأَرْقَامٍ وَهُوَ أَبُو الْوَلِيدِ عِيَاشُ بْنُ الْوَلِيدِ الرَّقَامُ .

أَمَّا أَبُو ثَوْرٍ فَهُوَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ الْفَقِيهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ خَالِدِ بْنِ أَبِي الْيَمَانِ أَبُو ثَوْرٍ صَاحِبُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ أَحَدِ أئِمَّةِ الدِّينِ مَاتَ بِبَغْدَادَ سَنَةَ ٢٤٠ هـ .

(انظر : تَارِيخُ بَغْدَادَ ج ٥ / ١٣٤ ، وَحَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ ج ١٠ / ٢٤٩ ، وَالْبَابُ فِي تَهْذِيبِ الْأَسْمَاءِ ٢ / ٣٤) .

(٢) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : صَحَابِيُّ وَلَدَ بِالْحَبْشَةِ لَمَّا هَاجَرَ أَبَوَاهُ إِلَيْهَا ، أَتَى الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ وَالشَّامَ ، وَكَانَ كَرِيمًا يَسْمَى : بِحَرِّ الْجُودِ ، كَانَ أَحَدَ الْأَمْراءِ فِي جَيْشٍ عَلَى يَوْمِ صَفِّينَ ، مَاتَ بِالْمَدِينَةِ سَنَةَ ٨٠ هـ . (الْأَعْلَامُ ٤ / ٧٦) .

والثالث فأكلهما، وعبد الله ينظر، فقال: يا غلام كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلم آثرت هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعا، فكرهت رده، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، قال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء وهذا أسخى مني؟ فاشتري الغلام والحائط وما فيه من الآلات، فأعتق الغلام ووهب ذلك له.

وقال الثوري ^(١): رأيت محمد بن سوقة ^(٢) بالغداة، صاحب مائة ألف، وبالعشي سألنا له من أصحابه خبزة.

وقال أبو عبد الرحمن ^(٣): دخل أبو عبد الله الروذباري ^(٤)، إلى دار بعض أصحابه فوجده غائبا، وهناك بيت مقفل، فكسر القفل، وأمر بجميع ما وجد فيه من المتاع، فأنفذوه إلى السوق فباعوه، وأصلحوا به وقتا من الثمن ^(٥)، فجاء صاحب الروذباري فلم يقل شيئا، فدخلت امرأته بعدهم الدار، - وعليها كساء - فدخلت بيتا ورمت بالكساء، وقالت: يا أصحابنا: هذا أيضا من جملة المتاع فبيعوه، فقال زوجها: لم تكلف هذا باختيارك؟ فقالت: اسكت، مثل هذا الشيخ يباسطنا ويحكم علينا، ويبقى لنا شيء ندخره عنه؟!.

وأما عبد الله بن بحر فورث خمسة آلاف درهم، فبعث بها إلى إخوانه صررا، وقال: ما كنت لأسأل لأخواني الجنة في صلاتي، وأبخل عليهم بحالتي.

ويروى أن الأشعث بن قيس ^(٦)، أرسل إلى عدي بن حاتم ^(٧)، يستعير منه قدرا كانت لأبيه حاتم، فملأها وبعث بها إليه وقال: إنا لا نعيدها فارغة.

(١) هو سفيان الثوري، سبقت ترجمته.

(٢) محمد بن سوقة من القراء وأهل العبادة والفضل.

(٣) أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد الأزدي النيسابوري من علماء المتصوفة.

(٤) أبو عبد الله الروذباري: أحمد بن عطاء شيخ الصوفية في وقته، مات سنة ٣٦٩هـ.

(٥) أي أرسلوه إلى السوق واشتروا به حاجات من الثمن الذي باعوه به.

(٦) الأشعث بن قيس بن معدى كرب: أمير كندة في الجاهلية والإسلام، وكانت إقامته في حضرموت، أسلم وشهد اليرموك كان من المرتدين في أيام أبي بكر ثم أسر وجيء به إلى أبي بكر، وتاب وحسن إسلامه واشترك في الغزوات بعد ذلك ثم اشترك مع علي رضي الله عنه في صفين، ومات في الكوفة سنة ٤٠هـ، وأخباره كثيرة فقد كان من ذوى الرأي والإقدام والهيبة، (الأعلام ١ / ٣٣٢).

(٧) عدي بن حاتم الطائي: أمير، صحابي، من الأجواد العقلاء، كان رئيس طيء في الجاهلية والإسلام، أسلم سنة ٩هـ، وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب المثل بجوده وكرمه. سكن الكوفة وشهد الجمل وصفين مع علي رضي الله عنه ومات بالكوفة سنة ٦٨هـ، (الأعلام ٤ / ٢٢٠).

رقال بزرجمهر : لا عزَّ أثبت أركاننا ولا أبذخ بنيانا ، من بث الكرم واكتساب الشكر ، وذلك أن عزَّ التعظيم بالفعل الجميل باق في قلوب الرجال ، ومن تحصن بالجوود وتحرزَّ بالمعروف ، فقد ظفر بمن ناوأه^(١) وريح النُّكْر والثواب .

ويروى أن عبدالله بن أبي بكر ، - وكان أحد الأجواد - عطش يوسا في طريقه ، فاستسقى من منزل امرأة ، فأخرجت كوزا وقامت خلف الباب ، وقالت : تنحوا عن الباب وليأخذه بعض غلمانكم ، فإني امرأة من العرب مات زرجي منذ أيام . فشرب عبدالله وقال : يا غلام ، احمل إليها عشرة آلاف . فقالت : سبحان الله : تسخر بي ؟ فقال : يا غلام ، احمل إليها عشرين ألفا . فقالت : أسأل الله العافية ! فقال يا غلام ، احمل إليها الثلاثين ألفا ، فقالت ، أف لك . فحمل إليها ثلاثين ألف درهم ، فما أمست حتى كثر خطابها .

وقال بعض الرواة : قصد رجل إلى صديق له ، فدق عليه الباب ، فلما خرج ، قال : ما حاجتك ؟ قال : أربعمائة درهم علي دين ، فدخل الدار وأخرجها إليه ، ثم دخل الدار باكيا ، فقالت له امرأته : هلا تعلَّلت حين شقت عليك الإجابة ، قال : إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مكاشفتي .

وقال أكثم بن صيفي : صاحب المعروف لا يقع ، فإن وقع وجد متكأ .
وقال الفضيل : ما كانوا يعدون القروض معروفا .

ويروى عن امرأة من المتعبدات أنها قالت : لحبان بن هلال - وهو في جماعة من أصحابه - : ما السخاء عندكم ؟ قال : البذل والإيثار ، قالت : فما السخاء في الدين ؟ قال : أن تعبدني الله تعالى سخية بنفسك غير مكرهة ، قالت : أفتريدون على ذلك جزاء ؟ قالوا : نعم ، لأن الله تعالى وعد على الحسنة بعشر أمثالها ، قالت : فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرا ، فأى شيء سخيتم به ؟ وإنما السخاء : أن تعبدوا الله تعالى متنعمين متلذذين بطاعته ، غير كارهين ، لا تريدون بذلك أجرا ، ألا تستحبون أن يطَّلَعَ على قلوبكم ، فيعلم أنها تريد شيئا بشيء ؟

وقالت بعض المتعبدات لبعض المتعبدين : أتظن السخاء في الدينار والدرهم فقط ؟ إنما السخاء في بذل مهج النفوس لله تعالى .

(١) ناوأه : عاداه .

وقال أبو بكر الدقاق^(١): ليس السخاء أن يعطي الواحد المعدم، إنما السخاء أن يعطي المعدم الواحد.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن^(٢): كان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي^(٣) من الأجواد، لم يكن يناول أحدا شيئا بيده، وإنما كان يطرحه على الأرض، فيتناوله الآخذ من الأرض، وكان يقول: الدنيا أقل خطرا من أن يرى من أجلها يدي فوق يد أخرى، وقد قال النبي ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى»^(٤) وكان يتوضأ يوما في صحن داره، فدخل عليه إنسان وسأله شيئا، فلم يحضره شيء، فقال: اصبر حتى أفرغ، فلما فرغ قال: خذ القمقمة^(٥) وأخرج، فلما خرج وعلم أنه بعد، صاح وقال: دخل إنسان وأخذ القمقمة، فمشوا خلفه فلم يدركوه، وإنما فعل ذلك لأنهم كانوا يلومونه على البذل، وفي معناه قال الشاعر:

مَلَأْتُ يَدَيَّ مِنَ الدُّنْيَا مَرَارًا فَمَا طَمَعَ الْعَوَازِلُ فِي اقْتِصَادِي
وَلَا وَجَبَتْ عَلَيَّ زَكَاةُ مَالٍ وَهَلْ تَجِبُ الزَّكَاةُ عَلَى جَوَادِي

وكان أبو مرثد أحد الكرام فمدحه بعض الشعراء، فقال: ما عندي ما أعطيك. ولكن قدمني إلى القاضي، وادع علي في عشرة آلاف درهم، حتى أقر لك بها، ثم احبسني، فإن أهلي لا يتركونني مسجوناً، ففعل ذلك، فلم يمسوا حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم.

وقال زيد بن جرير: رأيت طلحة بن عبيد الله، فرق مائة ألف في مجلس، وأنه ليخيط إزاره بيده.

ولما دخل المنكدر^(٦) على عائشة - رضي الله عنها - قال لها: يا أم المؤمنين: أصابتني فاقة، فقالت: ما عندي شيء، فلو كانت عندي عشرة

(١) أبو بكر الدقاق: الإمام المحدث الحافظ ومقرئ المحدثين ببغداد، كان محبوباً إلى الناس فاضلاً، حسن الذكر، مات سنة ٤٨٩ هـ.

(٢) أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين الأزدي، سبق ذكره.

(٣) أبو سهل محمد بن سليمان العجلي المعروف بالصعلوكي، كان متصوفاً وإماماً في الفقه والحديث وعلوم اللغة.

(٤) الحديث: رواه الإمام أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير عن ابن عمر، والحديث صحيح (الجامع الصغير رقم ١٠٠٢٧).

(٥) قمقمة: إناء.

(٦) المنكدر بن عبد الله بن الهدير القرشي. ولد على عهد رسول الله ﷺ ومن رواة الحديث (انظر: الإصابة ٦/ ٢٢٦).

آلاف لبعثت بها إليك، فلما خرج من عندها، جاءتها عشرة آلاف من عند خالد بن أسيد، فأرسلت بها في أثره، فاشترى جارية بألف درهم، فولدت له ثلاثة أولاد، فكانوا عباد المدينة، محمد، وأبو بكر، وعمر بنو المنكدر.

وقال يحيى بن معين^(١) كان جرير بن يزيد في دار المطلب^(٢)، فجاء إنسان يسأله، فقال للغلام: اذهب إلى الجواري فقل لهن: من أرادت منهن أن تصبغ ثيابها فلتبعث بها، فجاء الغلام بثياب كثيرة، فقال للسائل: خذها.

وقال الأصمعي: كانت جرت حرب بالبادية، ثم اتصلت بالبصرة، فتفاقم الأمر فيها، حتى مشى بين الناس بالصلح، فاجتمعوا في المسجد الجامع، قال: فبعثت - وأنا غلام - إلى: ضرار بن القعقاع بن حازم، فاستأذنت عليه، فأذن لي، فإذا هو عليه شملة^(٣) يخبط^(٤) نوى لعنز له حلوب، فخبرته بمجتمع القوم، فأمهل حتى أكلت العنز، ثم غسل القصعة، وقال: يا جارية، غدينا، فأنته بزيث وتمر، قال: فدعاني فقدرته أن أكل معه، حتى إذا قضى من أكله حاجته، وثب إلى طين ملقى في الدار، فغسل به يده، ثم صاح بالجارية، فقال: اسقني ماء، فأنته بماء فشربه، ومسح فضله على وجهه، ثم قال: الحمد لله، ماء الفرات بتمر البصرة بزيث الشام، متى نؤدي شكر هذه النعم؟ ثم قال: علي بردائي، فأنته برداء عدني، فارتدى به على تلك الشملة. قال الأصمعي: فتجافيت عنه استقباحا لزيه، فدخل المسجد وصلى ركعتين، ومشى إلى القوم، فلم تبق حبة إلا حلت^(٥) إعظاما له، ثم جلس، فتحمل ما كان بين الأحياء من الديات في ماله، وانصرف.

وكان البهلول بن راشد^(٦) الفقيه لما سجن يعطي كل يوم السجان دينارا،

(١) يحيى بن معين: من أئمة الحديث ومؤرخي رجاله و سيد الحفاظ (كما قال الذهبي) و إمام الجرح و التعديل (كما قال العسقلاني) و أعلمنا بالرجال (كما قال أحمد بن حنبل) قال: كتبت بيدي ألف ألف حديث، و كان أبوه قد خلف له ثروة طائلة أنفقها في طلب الحديث، مات سنة ٢٣٣ هـ (الأعلام ٨/ ١٧٢).

(٢) المطلب بن عبد الله الخزاعي: كان واليا حيث ولي أمر مصر للمأمون سنة ١٩٨.

(٣) الشملة: كساء يلتف به. (٤) يخبط: يدق.

(٥) حل الحبة: كناية عن القيام يقال فلان حل حبوته: أي قام، و عقد حبوته، أي قعد.

(٦) البهلول بن راشد: من علماء القيروان و زهادها، و أما سبب سجنه: فإن أمير أفريقية في زمانه (محمد العكي) كان يلاطف الطاغية (ملك أسبانيا) فطلب الطاغية من الأمير حديدا و سلاحا و نحاسا، فعزم على ذلك، فلما علم البهلول، عارض العكي، فبعث إليه من قيده و ضربه و حبسه، فبقي أثر السياط في جسمه و كان ذلك سبب موته سنة ١٨٣ هـ (الأعلام - الزركلي ٢/ ٧٧).

فاستكثره أصحابه وكلموه في ذلك ، فقال لهم حفص بن عمار : سمعت
سفيان الثوري يقول : إذا كمل صدق الصادق ، لم يملك ما في يديه . فخر
بهلول على يديه وقبلها ، وجعل يقول : سألتك بالله أنت سمعته يقول هذا ؟
فحلف بالله لقد سمعته يقول .

وقال الشاعر :

ذَرِينِي أَكُنْ لِلْمَالِ رَبًّا وَلَا يَكُنْ لِي الْمَالُ رَبًّا تَحْمَدِي غِبَّهُ عَدَا (١)
أَرِينِي جَوَادًا مَاتَ هُزْلًا لَعَلَّنِي أَرَى مَا تَرِينَ أَوْ بِخِيَلًا مُخَلَّدًا

و كان عبد الله بن أبي بكر ، ينفق على أربعين دارا من جيرانه عن يمينه ،
وأربعين عن يساره ، وأربعين أمامه ، وأربعين خلفه ، ويبعث إليهم بالأضاحي
والكسوة في الأعياد ، ويعتق في كل عيد مائة مملوك ، واشترى يوما جارية
ب عشرة آلاف ، فطلب دابة يحملها عليها ، فقال رجل : هذه دابتي ، فقال :
احملوها على دابته إلى داره .

وقال عبد الله بن زهير :

وَعَادِلَةٌ تَخْشَى الرَّدَى أَنْ يُصِيبَنِي تَرُوحُ وَتَغْدُوا بِالْمَلَامَةِ وَالْقَسَمِ
تَقُولُ هَلَكْنَا إِنْ هَلَكْتَ وَإِنَّمَا عَلَى اللَّهِ أَرْزَاقُ الْعِبَادِ كَمَا زَعَمَ
وَإِنِّي أَحِبُّ الْخُلْدَ لَوْ أَسْتَطِيعُهُ وَكَالْخُلْدِ عِنْدِي أَنْ أَمُوتَ وَلَمْ أَلَمْ

وروي أن أعرابيا قدم على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال : يا أمير
المؤمنين ، لي إليك حاجة الحياء يمنعي أن أذكرها ، قال : فخطها في الأرض ،
فخط في الأرض : إني فقير ، فقال ل غلامه : يا قنبر (٢) اكسه حذني ، فكساه
الحلة فقال :

كَسَوْتَنِي حُلَّةً تَبْلَى مَحَاسِنَهَا فَسَوْفَ أَكْسُوكَ مِنْ حُسْنِ الثَّنَا حُلَلًا
إِنَّ الثَّنَاءَ لِيَحْيِي ذَكَرَ صَاحِبِهِ كَالْغَيْثِ يُحْيِي نَدَاهُ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ
إِنْ نَلْتِ حُسْنَ ثَنَاءٍ نَلْتِ مَكْرَمَةً لَا تَبْغِينَ بِمَا قَدْ نَلْتَهُ بَدَلًا
لَا تَزْهَدْ الدَّهْرَ فِي عُرْفٍ بَدَأَتْ بِهِ كُلُّ أَمْرٍ سَوْفَ يُجْزَى بِالَّذِي فَعَلَا

قال علي : زده مائة دينار . فأعطاه إياها ، فلما ولى الأعرابي قال قنبر : يا

(١) يحمد غبه : تحمد آخرته ، غب الأمر / عاقبته وآخره .

(٢) قنبر : خادم الإمام علي رضي الله عنه .

أمير المؤمنين : لو فرقتهما في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم فقال : مه (١)
يا قنبر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الشكر والمن أثنى عليكم وإذا
أتاكم كريم قوم فأكرموه» (٢).

وقال مطرف بن الشخير (٣) : إذا أراد أحدكم مني حاجة فليرفعها في
رقعة ، فإني أكره أن أرى في وجهه ذل الحاجة .

قرئ على القاضي أبي الوليد (٤) وأنا أسمع :

وآمرة بالبخل قلت لها أقصري
أرى الناس خلان الكرام ولا أرى
وإني رأيت البخل يرزى بأهله
ومن خير حالات الفتى لو علمته
ولعروة بن الورد (٥) :

وإني امرؤ عافي إنائي شركة
أتضحك مني أن سميت وأن ترى
أقسم جسمي في جسوم كثيرة

وقال بعض الحكماء : أصل المحاسن كلها الكرم ، وأصل الكرم نزاهة
النفس عن الحرام ، وسخاؤها بما ملكت على الخاص والعام ، وجميع خصال
الخير من فروعه .

و روي : أنه كان عند البهلول بن راشد طعام ، فغلا السعر ، فأمر به فبيع له ،
ثم أمر أن يشتري له ربع القفيز (٦) فقبل له : تبيع وتشتري ؟ فقال : نفرح إذا
فرح الناس ونحزن كما حزنوا .

(١) مه : اسم فعل مبني على السكون بمعنى : انكف .

(٢) حديث «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» رواه ابن ماجه ، والطبراني ، وابن عدي في الكامل ،
والبيهقي في شعب الإيمان ، والحاكم في المستدرک ؛ والحديث صحيح (الجامع الصغير ٣٤٥) .

(٣) مطرف بن الشخير : أبو عبد الله ، زاهد من كبار التابعين ، له كلمات مأثورة في الحكمة ، وهو
من رواة الحديث الثقة توفي سنة ٨٧ هـ . (الأعلام ج ٧ / ص ٢٥٠)

(٤) هو أبو الوليد الباجي صديق ومعلم الطرطوشي وقد سبقت ترجمته .

(٥) عروة بن الورد بن زيد العبسي : من شعراء الجاهلية و فرسانها و أجوادها و كان يلقب بعروة
الصعاليك ، لجمعه إياهم ، مات نحو ٣٠ قبل الهجرة .

(٦) أي اجعل غيري شريكاً لي في الإناء المملوء لبناً أو غيره و أنت تستأثر بإنائك لوحده .

(٧) القفيز : مكيال .

و لأم حاتم طيئ قالت (١) :

لعمري لقدما عَضَنِي الجوعُ عَضَّةً
فَقُولَا لِهَذَا اللَّائِمِ الْآنَ أَغْفِنِي
فَهَلْ مَا تَرَوْنَ الْآنَ إِلَّا طَبِيعَةً
وقال آخر :

فَالَيْتُ أَلَّا أَمْنَعَ الدَّهْرَ جَائِعَا
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَسْطِعْ فَعُضَّ الْأَعْيَا
فَكَيْفَ بَتَرَكِي يَا ابْنَ أُمِّ الطَّيَّائِعَا

أَصُونُ عَرْضِي بِمَالِي لَا أُدْنِسُهُ لَا بَارَكَ اللَّهُ بَعْدَ الْعَرْضِ فِي الْمَالِ
أَحْتَالُ لِلْمَالِ إِنْ أَوْدَى فَأَجْمَعُهُ وَلَسْتُ لِلْعَرْضِ إِنْ أَوْدَى بِسِحْتَالِ
و يروى أن رجلا سأل الحسن بن علي - رضي الله عنه - شيئا : فأعطاه
خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار ، وقال انت بحمال يحمله لك ، فأتاه
بحمال ، فأعطاه طيلسانة (٢) وقال : يكون كراء الحمال من قبلي .

و يروى أن الليث بن سعد (٣) سألته امرأة سُكْرُجَةَ (٤) عسل ، فأمر لها
بزق (٥) عسل ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنها سألت على قدر حاجتها ، ونحن
نعطيها على قدر نعمتنا .

و روي أن رجلا استضاف لعبد الله بن عامر بن كريز (٦) ، فلما أراد الرجل
أن يرتحل لم يعنه غلمانه ، فسئل عن ذلك ؟ فقال عبد الله : إنهم لا يعينون
من ارتحل عنا .

وفي معناه قول المتنبي (٧) :

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَّرُوا أَنْ لَا تُفَارِقَهُمْ فَارْحَلُونَ هُمْ

* * *

(١) في (ط) : [وليم حاتم فقال] : أي لأمه الناس على كرمه ، ولكن هذه الأبيات كما في (خ) لأمه ،
والسياق يدل على ذلك ، وكانت امرأة كريمة شاعرة ، لأمها قومها على الإنفاق ، فقالت هذه الأبيات .

وحاتم طيء هو حاتم الطائي نسبة إلى قبيلته طي ، الشاعر الجاهلي المشهور بكرمه و جوده و
شجاعته و الذي أصبح يضرب مَثْرَ في الجود و الكرم ، مات أواخر القرن السادس الميلادي و قد سبق
التعريف بابنه عدي الذي أسلم و حسن إسلامه .

(٢) الطيلسان : كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ و العلماء و هو من لباس العجم .

(٣) الليث بن سعد : أبو الحارث . إمام أهل مصر في عصره حديثا وفقها ، أصله من خراسان و كان
من الكرماء الأجواد ، أخباره كثيرة و له تصانيف ، توفي سنة ١٧٥ هـ .

(٤) السكرجة : إناء صغير . (٥) الزق : إناء كبير .

(٦) عبد الله بن عامر بن كريز : أمير فاتح ولي البصرة أيام عثمان بن عفان و فتح عدة بلدان ثم
ولاه معاوية كذلك على البصرة و عزله منها فرجع مكة ، و مات فيها سنة ٥٩ هـ .

(٧) أبو الطيب المتنبي : الشاعر الحكيم و أحد مفاخر الأدب العربي ولد بالكوفة و نشأ بالشام مدح
الخلفاء و الولاة و نال حظوة عند بعضهم و هذا البيت من قصيدة طويلة يعاتب فيها سيف الدولة الحمداني .

الباب الحادي والثلاثون

في بيان الشُّح والبخل وما يتعلق بهما

الشُّحُّ في كلام العرب : البخل ومنع الفضل ، كان النبي ﷺ يدعو : « اللهم إني أعوذ بك من شح نفسي وإسرافها ووساوسها » (١) .

و روى جابر (٢) : أن النبي ﷺ ، قال : « اتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (٣) ، وقد فرق بينهما (٤) مفرقون ، فقالوا : الشح أشد من البخل ، فإن البخل أكثر ما يقال في النفقة وإمساكها ، قال الله تعالى : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران : ١٨٠] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [محمد : ٣٨] .

وقال تعالى في الشح : ﴿ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ [الأحزاب : ١٩] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شَحِّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] فالشح يبني على الكرازة (٥) والامتناع ، فهو يكون في المال وفي جميع منافع البدن . وقال ابن عمر : ليس الشُّحُّ أن يمنع الرجل ماله ، وإنما الشُّحُّ أن يطمع فيما ليس له .

ولهذا قال ابن المبارك (٦) : سخاء النفس عما في أيدي الناس ، أفضل من سخاء النفس بالبذل .

(١) الحديث : رواه القرطبي عن أنس (الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٨ ص ٢١)

(٢) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حزام الأنصاري ، شهد بيعة العقبة الثانية ، وشهد أكثر الغزوات ، روى كثيرا من الأحاديث و كانت وفاته بالمدينة سنة ٧٤ هـ .

(٣) الحديث : رواه الإمام أحمد في مسنده ٣ / ٣٢٣ ، والقرطبي في الجامع ١٨ / ٢١ كما رواه الإمام مسلم والبيهقي وابن كثير وغيرهم والحديث صحيح .

(٤) أي بين الشح والبخل .

(٥) كز كرازة : انقبض و يس ، والكز هو المنقبض واليابس .

(٦) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي ، الحافظ شيخ الإسلام المجاهد التاجر ، صاحب التصانيف والرحلات الذي أفنى عمره في الأسفار صاحباً ومجاهداً وتاجراً ، جمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء ، كان من سكان خراسان ومات (بهيت) على الفرات سنة ٢٨١ هـ (الأعلام للزركلي ٤ / ١١٥) .

وقال رجل لابن مسعود^(١): إني أخاف أن أكون قد هلكْتُ، سمعتُ الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] وأنا رجلٌ شحيح لا يكاد أن يخرج من يدي شيء، فقال له ابن مسعود: هذا ليس بالشح الذي ذكره الله تعالى، فإنه: أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل، وبئس الشيء البخل. ففرق بينهما كما ترى.

وقال ابن العباس^(٢): الشحيح يتبع هواه، فلم يقبل الإيمان.

وقال طاووس^(٣): الشح، أن يبخل المرء بما في أيدي الناس، والبخل: أن يبخل بما في يديه.

وروي أنس^(٤): أن النبي ﷺ: «بريء من الشح من أدَّى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة»^(٥).

وقال ابن زيد^(٦): من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه، ولم يدعه الشح إلى أن يمنع شيئاً أمر الله به، فقد وقاه شح نفسه.

وقال أبو الهياج الأسدي^(٧): رأيت رجلاً في الطواف يقول: (اللهم قني شح نفسي). لا يزيد على ذلك شيئاً، فسألته عن ذلك، فقال: إذا وقيت شح نفسي، لم أسرق، ولم أزن، ولم أفعل شيئاً يكرهه الله تعالى. وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف^(٨).

(١) هو عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ و خادمه وقد سبقت ترجمته.

(٢) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ ولد قبل الهجرة بثلاث سنين بمكة و هو حبر الأمة وفقهها مات بالطائف ٦٨ هـ. (الأعلام ٤ / ٩٥).

(٣) هو طاووس بن كيسان الخولاني - سبقت ترجمته.

(٤) هو أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ و أخواله بنو النجار أخوال الرسول ﷺ، يكنى بأبي حمزة و من فقهاء الصحابة توفي سنة ٩٣ هـ.

(٥) رواه أبو يعلى في مسنده و الطبراني في الكبير و سعيد بن زيد الأنصاري (كنز العمال ١٥٧٨) كما أورده القرطبي في الجامع عن أنس (م ٢١ / ١٨). (الأعلام ٢ / ٢٤)

(٦) هو عبد الواحد بن زيد الزاهد القدوة و شيخ الزهاد - سبقت ترجمته.

(٧) أبو الهياج الأسدي هو عمر بن مالك بن جنادة من أبناء بن الحارث، جعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على خطط أهل الكوفة (انظر: البلاذري في فتوح البلدان ص ٣٨٨ والكلبي في جمهرة النسب ص ١٧٧).

(٨) عبد الرحمن بن عوف: من أكابر الصحابة و من العشرة المبشرين بالجنة و أحد الستة أصحاب الشورى، وكان من الأجواد الشجعان العقلاء أعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً، وكان يحترف في التجارة، فأجمعت له ثروة كبيرة و تصدق يوماً بقافلة فيها ٧٠٠ راحلة، توفي بالمدينة ٣٢ هـ. (الأعلام ٣ / ٣٢٠).

واعلم : أن البخل يكون من سوء الظن بالله ، أن لا يُخلف ولا يُثيب ، وهذا يؤهن التصديق بما تكفل الله به ، ويطرق الخلل والامتناع إلى جميع الأوامر بين العبد وبين الخالق ، وبين العبد وبين الخلق ، في ترك معاونتهم والنصح لهم .

وقال كسرى لأصحابه : أي شيء أضرّ بابن آدم ؟ قالوا : الفقر . فقال كسرى : الشح أضر من الفقر ، لأن الفقير إذا وجد اتسع ، والشحيح لا يتسع أبدا .

ولما قدم الشافعي ^(١) من صنعاء إلى مكة ، كان معه عشرة آلاف دينار ، فقالوا له : تشتري بها ضيعة ؟ فضرب خيمة خارج مكة ، وصب الدنانير . فكل من دخل عليه كان يعطيه قبضة قبضة ، فلما جاء وقت الظهر ، قام ونفض الثوب ولم يبق شيء .

ولما قربت وفاته قال : مروا فلانا يغسلني - وكان الرجل غائبا - فلما قدم أخبر بذلك ، فدعا بتذكّره ، فوجد عليه سبعين ألف درهم دينا ، فقضاها وقال : هذا غسلي إياه .

و روي أن رجلا أراد أن يؤذي عبد الله بن عباس ، فأتى وجوه البلد وقال : يقول لكم ابن عباس : تغدوا اليوم عندي ، فأتره فملؤوا الدار ، فقال : ما هذا ؟ فأخبر الخبر ، فأمر أن تُشترى الفواكه في الوقت ، وأمر بالخبز والطبخ ، فأصلح القرى ^(٢) ، فلما فرغ قال لوكلائه : أ موجود لنا هذا كل يوم ؟ قالوا : نعم ، قال : فليتغد هؤلاء كلهم كل يوم عندنا .

و من الخصال الجارية مجرى الكمال والجمال ولعلها من الأصول ، الصبر .

* * *

(١) محمد بن إدريس الشافعي الفقيه المعروف سبقت ترجمته .

(٢) القرى : طعام الضيف .

الباب الثاني والثلاثون

في الصبر

الصبر زمامُ سائر الخصال، وزعيمُ الغنمِ والظفر، وملاك كل فضيلة، وبه ينال كل خير ومكرمة، قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ٣٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] فمعظم وظائف الدين ذكر الله ورسوله جزاء معلوما لمن أقامها، إلا الصبر، فإنه بغير حساب.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ١٠]، قيل: عن الدنيا.

وقال ابن عيينه^(١) لما أخذوا برأس الأمر، جعلهم الله رؤساء.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ثم ندبهم إلى الصبر مع وجود الأذى، فقال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فالصبر: حبس النفس على الأوامر والمكاره، وعن النواهي والمعاصي، ألا ترى أن أهل الجنة نودوا فقبل لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤] فأخبر الله تعالى: أنه أثابهم جنته بصبرهم، يعني صبرتم على طاعة الله، وصبرتم عن معصية الله.

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨٦] أي أحبس نفسك الآية.

فمن أمارات حسن التوفيق، وعلامات السعادة: الصبر في الملمات، والرفق عند النوازل.

(١) ابن عيينه: هو سفيان بن عيينه المحدث و العالم الكبير سبقت ترجمته.

وفيما يروى أن الله تعالى، أوحى إلى داود عليه السلام: (يا داود: من صبر علينا وصل إلينا).

وقال سفيان: بلغنا أن لكل شيء ثمرة، وثمره الصبر الظفر، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فعلق الفلاح على الصبر والتقوى يعني اصبروا على ما فرض الله عليكم.

وصابروا عدوكم، وربطوا: فيه قولان: قيل: رابطوا على الجهاد، والثاني رابطوا على انتظار الصلوات، بدليل ما روى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يحط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء عند المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»^(١).

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] قال: ابتلاه بالكواكب فصبر، وابتلاه بذبح ابنه فصبر.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] فبدأ بالصبر قبل الصلاة، ثم قال قولاً عظيماً، فجعل نفسه مع الصابرين دون المصلين.

وقال النبي ﷺ للأَنْصار: «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاءً هو خير وأوسع من الصبر»^(٢).

وقال ابن مسعود: قَسَمَ النبي ﷺ قَسَمًا، فقال رجل من الأنصار: والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله، فأخبرت النبي ﷺ فشق عليه وتغير وجهه وغضب حتى وددت أني لم أكن أخبرته، ثم قال: «قد أودى موسى بأكثر من هذا فصبر»^(٣).

(١) الحديث صحيح رواه مالك والإمام مسلم. والإمام أحمد والنسائي والترمذي عن أبي هريرة وبلفظ (يمحو الله به الخطايا). كنز العمال (١٥ / ٤٣٣٢٣) والقرطبي (ج ٤ / ص ٢٠٦) وقال: الرباط: الملازمة في سبيل الله.

(٢) هذا الحديث متفق على صحته، رواه الإمام مالك في الموطأ كتاب الصدقة، والبخاري في الزكاة «باب الاستعفاف عن المسألة» وفي الرقاق ورواه الإمام مسلم في الزكاة «باب فضل التعفف والصبر» عن أبي سعيد الخدري (شرح السنة البغوي ٦ / ١١٠).

(٣) الحديث: أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود (الحافظ العراقي ج ٤ / ٢٨).

وروي أن النبي ﷺ مر على امرأة تبكي عند قبر فقال لها : اتقي الله واصبري ، فقالت : إليك عني ، فإنك لم تُصب بمثل مصيبتي ، فلما قيل لها : هذا رسول الله ، جاءت إليه تعتذر أنها لم تعرفه ، وقالت : سأصبر ، فقال النبي ﷺ : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى »^(١) ويحتمل هذا الحديث وجهين :

أما الخطابي^(٢) : فقال : معناه أن الصبر المحمود عند أول نزول المصيبة ، وقد فاتك بالجزع .

وأما القابسي^(٣) فقال : معناه أن الصدمة الأولى ، وقت أمرها النبي ﷺ بالصبر ، وكان هذا تعليماً لكل من فاته الصبر بذهول أو نسيان أو غلبه .

ويروي أن النبي ﷺ ، سئل عن الإيمان فقال : « الصبر والسماحة »^(٤) . وفي منشور الحكم قالت الصّحة : أنا لاحقة بأرض المغرب ، قال الجوع : وأنا معك .

قال الإيمان : أنا لاحق بأرض الحجاز ، قال الصبر : أنا معك .

قال الملك : أنا لاحق بأرض العراق ، قال الفتك^(٥) : أنا معك .

وأعلم أن العجلة خرق^(٦) ومخرجها من قلة العقل ، وأخرق من ذلك التفريط في الأمر بعد القدرة ، ومثل ذلك كالقدر على النار ، إن كان مأؤه قليلاً غلت بيسير من النار ، وإن كانت مملوءة لم تغل حتى تكثر نارها وتطول مدتها .

(١) الحديث متفق على صحته ، رواه البخاري في الجنائز وفي الأحكام ورواه مسلم في الجنائز . باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى والإمام أحمد في مسنده ١٤٣ / ٣ وقال البغوي : أي عند فورة المصيبة وحموتها (شرح السنة - البغوي ج ٥ / ٤٧) .

(٢) في (خ) الطائي ، وفي (ط) الطابني (خطأ) ، حيث أن هذا القول منسوب في فتح الباري إلى الخطابي وهو الفقيه والمحدث حمد بن محمد بن إبراهيم أبو سليمان الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ (فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣ / ١٤٩ ، ١٥٠) .

(٣) أبو الحسن علي بن محمد القابسي المالكي صاحب كتاب « الملخص » عالم المالكية بإفريقية في عصره ، والقابسي نسبة إلى قابس القريبة من القيروان في تونس ، وتوفي سنة ٤٠٣ هـ ، (الأعلام ٤ / ٣٢٦) .

(٤) الحديث : رواه أبو يعلى في مسنده والطبراني في الكبير في مكارم الأخلاق عن جابر (كنز العمال ج ١ / ٥٧) .

(٥) الفتك : القتل .

(٦) الخرق : الجهل والحمق وضعف الرأي .

وفي كتاب جاويدان خرد^(١) : وليس للعجم كتاب مثله ، قال : مُحَرَّمٌ على السامع تكذيب القائل إلا في ثلاث ، هن غير الحق : صبر الجاهل على مضض المصيبة ، وعاقل أبغض من أحسن إليه ، وحمأة أحببت كنة^(٢) .

* * *

فصل : في أقسام الصبر (*)

واعلم أن الصبر على أقسام : صبر على ما هو كسب للعبد ، وصبر على ما ليس بكسب . فالصبر على الكسب على قسمين : صبر على ما أمر الله تعالى به ، وصبر على ما نهى الله عنه .

فأما الصبر على ما ليس بكسب للعبد : فكصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله تعالى فيما له فيه مشقة .

وينقسم من وجه آخر على أربعة أقسام :

فأول أقسامه وأولها : الصبر على امتثال أمر الله سبحانه ، والانتهاز عما نهى عنه .

والثاني : الصبر على ما فات إدراكه من مسرة انقضت ، أو ما فاتته من مصيبة .

والثالث : الصبر فيما ينتظر وروده ، من رغبة يرجوها أو يخشى حدوثه من رهبة يخافها .

والرابع : الصبر على ما نزل من مكروه ، أو حلّ من أمر مخوف . وجميع أقسامه محمودة بكل لسان ، وفي كل ملة ، وعند كل أمة مؤمنة ، أو كافرة .

وقال أكثم بن صيفي^(٣) : من صبر ظفر .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه : الصبر مطية لا تكبو^(٤) ، والقناعة سيف لا ينبو^(٥) .

(١) كتاب «جاويدان خرد» كتاب يشتمل على مجموعة من حكم الفرس والهند والروم والعرب ألفه كيجور بن سافنديار وزير ملك إيران شهر ، وقد استخرج من إيوان كسرى في أيام الخليفة المأمون وأمر بترجمته للعربية .

(٢) الكنة : امرأة الابن .

(*) من إضافات المحقق .

(٣) أكثم بن صيفي : حكيم العرب في الجاهلية ، سبقت ترجمته . (٤) لا تكبو : لا تسقط .

(٥) لا ينبو : لا يكل ولا يرتد (يقال : نبا السيف : إذا لم يعمل في الضربة فارتد ولم يقطعها) .

وقال أردشير: الصبر الدَّرْكُ^(١).

وقال ﷺ: «الصبر ضياء وبالصبر يُتَوَقَّعُ الفرج»^(٢) وقال ﷺ: «الصبر ستر من الكروب، وعون على الخطوب»^(٣). وقال ابن عباس أفضل العُدَّة: الصبر عند الشدة.

وقال عبد الحميد الكاتب^(٤): لم أسمع أعجب من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كان الصبر والشكر مطيَّتين، ما باليت أيُّهما ركبت. وقال بعض الحكماء: بالصبر على مواقع المكروه تُدرك الحظوظ.

وقال ابن المقفع في كتاب «اليتيمة»: الصبر صبران، فاللثام أصبر أجساما، والكرام أصبر نفوسا، وليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون قوي الجسد على الكد والعمل، فإن هذا من صفات الحمير، ولكن أن يكون للنفس غُلُوبا، وللأمر محتملا، ولجأشه عند الحفاظ مُرتبطا.

وفي منشور الحكمة: من أحب البقاء، فليُعدَّ للمصائب قلباً صبوراً.

وقال بزرجمهر: لم أر ظهيرا على تنقل الدول كالصَّبر، ولا مُذلاً للحُساد كالتجمل، ولا مكسبة للإجلال كتوقِّي المزاح، ولا مجلبةً للمقت كالأعجاب، ولا متلفةً للمروءة كاستعمال الهزل في موضع الجد.

فأما القسم الأول: وهو الصبر على امتثال أوامر الله تعالى والانتهاز عن محارمه: فبه يصح أداء الفرائض واستكمال السنن، ويدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] ولذلك قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد)^(٥).

(١) الدرك: إدراك الحاجة.

(٢) الحديث: رواه الإمام مسلم في الطهارة، والترمذي في الدعوات، وقال حديث حسن صحيح، كما رواه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٣/٥)، وابن ماجه والنسائي والحديث جزء من حديث صحيح. (٣) لم يرد هذا النص كحديث نبوي شريف في كل كتب الحديث، إلا ما ذكره صاحب محاضرات الأدباء ٢/ ٥٢٤، وصاحب المستطرف ٢/ ١٤٤.

(٤) عبد الحميد الكاتب: عبد الحميد بن يحيى بن سعيد المعروف بالكاتب، عالم الأدب ومن أئمة الكتاب، يضرب به المثل في البلاغة، سكن الشام واختص بمروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ورفض مفارقتها مع حاجة العباسيين له، وبقي معه إلى أن قُتل معاً سنة ١٣٢هـ، (الأعلام ٣/ ٢٨٩).

(٥) هناك من قال أن هذا حديث، وقد ذكره السيوطي في الجامع الصغير برقم (٥١٣٦)، وقال: حديث ضعيف.

وقال الجنيد^(١): المسير من الدنيا سهل هين على المؤمن، وهجر الخلق في جنب الله شديد، والمسير من النفس إلى الله شديد، والصبر مع الله تعالى شديد. وسئل عن الصبر فقال: تجرُّع المرارة من غير تعبيس.

وكان حبيب ابن أبي حبيب^(٢) إذا قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] بكى، ثم قال: واعجابه، أعطى وأثنى.

وقال الخواص^(٣): الصبر: الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقال عبد الواحد بن زيد^(٤): من نوى الصبر على طاعة الله تعالى، صبره الله تعالى عليها وقواه، ومن عزم على الصبر عن معصية الله تعالى، أعانه الله تعالى وعصمه منها.

وقال عمر بن عبد العزيز: للقاسم بن محمد^(٥)، أوصني: فقال القاسم: عليك بالصبر في مواطن الصبر.

وقال الحسن: الصبر صبران: صبر عند المصيبة، وصبر عما نهى الله عنه، وهو الأفضل، وإنما يختلف الصبر بالخوف والرجاء، فإن من خاف شيئاً صبر على الفرار منه، وصبر عند الكراهية لما يحذر من ضرره، ومن رجا شيئاً صبر على طلبه ليظفر به.

وأما القسم الثاني: وهو: الصبر على ما فات إدراكه من مسرة أو تقصت أوقاته من مصيبة: فإنه يتعجل به الراحة مع اكتساب المثوبة، فإن صبر طائعا استراح وأحرز الثواب، وإن لم يصبر حمل الهم والوزر.

(١) الجنيد بن محمد النهاوندى، الفقيه الزاهد وصاحب الطريقة الجنيديّة، توفى سنة ٢٩٧هـ. (الأعلام ١٤١/٢).

(٢) حبيب بن أبى حبيب أبو عمرو البجلي البصرى، نزيل الكوفة، روى له الترمذى، قال الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين: صدوق يخطئ وذكر عنه ما ذكره الشيخ الطروشى هنا (انظر ج ١١ / ١٣).

(٣) سليمان الخواص: من العابدين الكبار، ذكره الأوزاعى من الزهّاد، وقال سعيد: «ما رأيت أزهد من سليمان الخواص»، وقال: لو كان فى السلف لكان علامة (حلية الأولياء ٨ / ٢٧٦، ٢٧٧).

(*) وممن حمل لقب الخواص أيضاً «إبراهيم بن أحمد الخواص» وهو صوفى من أقران الجنيد النهاوندى، توفى سنة ٢٩١هـ.

(٤) عبد الواحد بن زيد الزاهد وشيخ العباد وسبقت ترجمته.

(٥) القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، أحد الفقهاء السبعة فى المدينة، ولد فيها وتوفى بقديد (بين مكة والمدينة) حاجاً أو معتمراً، كان صالحاً ثقة من سادات التابعين بل ومن أفضل أهل زمانه، توفى سنة ١٠٧هـ. (الأعلام ١٨١/٥).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه للأشعث بن قيس^(١) : إن تجزع فقد استحق ذلك منك بالرحم، وإن تصبر ففي ثواب الله تعالى خلف من ابنك، وإن تصبر جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزع جري عليك القلم وأنت مأزور^(٢).

ونظمه أبو تمام^(٣) فقال :

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي التَّعَازِي لِأَشْعَثَ وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضَ تِلْكَ الْمَآثِمِ
أَتَصْبِرُ لِلْبَلَوِّ عِزَاءً وَحَسْبَةً فَتُوجَرُ أَمْ تَسْلُو سُلُو الْبِهَائِمِ
خَلَقْنَا رَجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَالْعِزَا وَتِلْكَ الْأَيَّامِي لِلْبُكََا وَالْمَآثِمِ

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لرجل : إن صبرت مضى أمر الله وكنت مأجورا، وإن جزع مضى أمر الله وكنت مأزورا.

وقال الحسن : والله لو كُلفنا الجزع ما قمنا به، فالحمد لله الذي آجرنا على ما لو نهانا عنه لصرنا إليه.

وعن هذا قالت الحكماء : الجزع أتعب من الصبر، ففي الجزع التعب والوزر، وفي الصبر الراحة والأجر، ولو صور الصبر والجزع، لكان الصبر أحسن صورة وأكرم طبيعة، وكان الجزع أقبح صورة وأخور^(٤) طبيعة، ولكان الصبر أولاهما بالغلبة، لحسن الخلقة وكرم الطبيعة.

وقال بعض العلماء : لو وُكِّل الناس بالجزع، للجئوا إلى الصبر.

وقال شبيب بن شيبه للمهدي^(٥) : إن المرء أحق ما صبر عليه ما لم يجد سبيلا إلى دفعه، وأنشد :

وَإِذَا تُصِبُّكَ مُصِيبَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا عَظُمَتْ مُصِيبَةٌ مُبْتَلٍ لَا يَصْبِرُ

(١) الأشعث بن قيس ممن اشترك مع علي في صفين، وقد سبقت ترجمته، وهنا يعزیه الإمام علي رضي الله عنه عن ابن له مات.

(٢) مأزور : مقترف للوزر والإثم.

(٣) أبو تمام : هو حبيب بن أوس الطائي الشاعر العباسي المشهور، نشأ في دمشق وتوفي في الموصل، مدح الخلفاء خاصة المعتصم، امتاز بخياله الواسع، توفي سنة ٢٣١هـ. (الأعلام ١٦٥ / ٢).

(٤) أخور : أضعف.

(٥) شبيب بن شيبه : أديب الملوك، ونديم الخلفاء من أهل البصرة توفي سنة ١٧٠هـ. والمهدي هو محمد بن أبي جعفر المنصور، ثالث الخلفاء العباسيين، وقد سبقت ترجمته، توفي سنة ١٦٩هـ.

وقال آخر :

وَعَوَّضْتُ أَجْرًا مِنْ فَقِيدٍ فَلَا تَكُنْ فَقِيدُكَ لَا يَأْتِي وَأَجْرُكَ يَذْهَبُ
وقال بعض الحكماء : ليس بمجموع له الرُّشد من تابع التلهُّف على فائت ،
أو أكثر الفرح عند مُستطرف^(١) .

وقال الحكيم : إن كنت جازعا ما تفلت من يديك ، فاجزع على ما لم يصل إليك ،
ومن يَيقن أنَّ كلَّ فائتٍ إلى نقصان ، حَسُنَ عَزَاؤُهُ عند نزول القضاء . وقال الشاعر :

إِذَا دَالَ بِالْمَحْزُونِ أَيَّامُ صَبْرِهِ كَسَاهُ ضِنًا طَوَّلَ الْمُقَامِ عَلَى الصَّبْرِ^(٢)
وَلَا شَكَّ أَنَّ الصَّبْرَ يَحْمَدُ غِبَهُ وَلَكِنْ إِنْفَاقِي عَلَيْهِ مِنَ الْعُمْرِ^(٣)

وقال بعض القدماء : الصبر على أربع مراتب : على الشوق ، والإشفاق ،
والزهد ، والترقب ، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من
النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات ، ومن راقب
الموت أقصر عن الخطيئات .

وأما القسم الثالث : وهو الصبر فيما ينتظر وروده من رغبة يرجوها ، أو
يخشى حدوثه من رهبة يخافها : فبالصبر والتلطف يدفع عادية ما يخاف ،
وينال نفع ما يرجو .

قال النبي ﷺ : «انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة»^(٤) .

وقال محمد بن بشير^(٥) :

إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا اشْتَدَّتْ مَسَالَكُهَا فَالصَّبْرُ يَفْتَحُ مِنْهَا كُلَّ مَارْتَجَا^(٦)
لَا تَيَأْسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مَطَالِبُهُ إِذَا اسْتَعْنَتْ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرْجًا
أَخْلَقَ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ وَمُدْمِنِ الْقَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلْجَا^(٧)

(١) مستطرف : مستحدث . وفي (خ) مُستظرف .

(٢) الضنى : المرض . (٣) يحمد غبه : يُحمد آخره .

(٤) رواه القضاعى عن ابن عمر وعن ابن عباس ، وروى مثله ابن أبى الدنيا فى الفرج وابن عساكر
عن على بلفظ : «انتظار الفرج من الله عبادة» (كنز العمال : ٦٥٠٧ ، ٦٥٠٨) .

(٥) محمد بن بشير : قاضى الأندلس و كاتب أحد الوزراء واستمر فى القضاء إلى أن توفى ، أخباره
كثيرة ، توفى سنة ١٩٨ هـ . (الأعلام ٢ / ٥٢) .

(٦) يقال : رجع الباب إذا أغلق ، ورج الخطيب : إذا أغلق عليه الكلام .

(٧) يلج : يدخل .

وقال بعض الرواة: دخلت مدينة يقال لها (ذمار) ^(١) فبينما أنا أطوف في خرابها، إذ رأيت مكتوبا على قصر خراب:

يَا مَنْ أَلَجَ عَلَيْهِ الْهَمُّ وَالْفَكْرُ وَغَيَّرَتْ حَالَهُ الْأَيَّامُ وَالْغَيْرُ ^(٢)
أَمَا سَمِعْتَ بِمَا قَدْ قِيلَ فِي مَثَلٍ عِنْدَ الْإِيَّاسِ فَأَيْنَ اللَّهُ وَالْقَدَرُ
نَمْ لِلْخُطُوبِ إِذَا أَحْدَاثُهَا طَرَقَتْ وَأَصْبِرْ فَقَدْ فَازَ أَقْوَامٌ بِمَا صَبَرُوا
فَكُلُّ ضَيْقٍ سَيَأْتِي بَعْدَهُ سَعَةٌ وَكُلُّ قُوْتٍ وَشَيْكٌ بَعْدَهُ الظَّفَرُ

وتحتة مكتوب بخط آخر: لو كان كل من صبر أعقب الظفر صبرت، ولكننا نجد الصبر في العاجل يُفني العمر ويُدني من القبر، وما كان أصلح لذي العقل موته وهو طفل، والسلام.

قلت لو رأيته لكتبت تحتة: في الصبر استعجال الراحة، وانتظار الفرج، وحسن الظن بالله، وأجر بغير حساب. وفي الجزع: استعجال الهم، ونهك البدن، واستشعار الخيبة، وسوء الظن بالله، وحمل الإثم مع العقوبة، وما أحسن بذي العقل اجتناب هذا، والسلام.

وقال بعض البلغاء: من صبر نال المني، ومن شكر حصن النعماء.

وقال الشاعر:

الصَّبْرُ مُفْتَا حُ كُلِّ خَيْرٍ وَكُلُّ شَرٍّ بِهِ يَهْـوُونَ
أَصْبِرْ وَإِنْ طَالَتْ اللَّيَالِي فَرُبَّمَا سَاعِدَ الْحَرُونَ ^(٣)
وَرُبَّمَا نِيلَ بِأَصْطَبَارٍ مَا قِيلَ هِيَ هَاتِ لَا يَكُونُ

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه صبرا، إلا كان ما عوضه أفضل مما انتزعه منه، وقرأ: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وروي أن جارية كانت لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، تنصرف في حوائجه، فكلما خرجت تصدى لها خياط كان بقرب دار علي، يقول لها:

(١) ذمار: اسم قرية باليمن على مرحلتين من صنعاء ينسب إليها نفر من أهل العلم، وقال قوم: ذمار اسم لصنعاء (معجم البلدان ياقوت الحموي ج ٣ / ص ٧).

(٢) غير الدهر: أحواله المتغيرة.

(٣) يقال: حرن البغل والحصان إذا وقف ولم ينقد، وحرن العسل في الخلية إذا لزق فعمس نزع.

والله إني لأحبك لله، فلما أكثر من ذلك شكته إلى علي، فقال لها علي: إذا قال لك مرة أخرى، فقلولي له: والله إني لأحبك، ما الذي تريد؟ فعاد فقال لها ذلك، فقالت له: وأنا والله أحبك فيه، فقال لها: تصبرين واصبر، حتى يوقى الصابرون أجرهم بغير حساب، فرجعت الجارية وأخبرت مولاهما، فدعا علي رضي الله عنه الخياط، فوجد أمره على الصحة، فوهبها له مع نفقة يستعين بها.

وقال علي رضي الله عنه: الصبر كفيلاً بالنجاح، والمتوكل لا يخيب ظنه، والعاقل لا يذل بأول نكبة، ولا يفرح بأول رفعة، وكان يقال: الصبر سلامة والطيش ندامة.

وأما القسم الرابع: وهو الصبر على ما نزل من مكروه، أو حل من أمر مخوف: فالصبر فيه تنفتح وجوه الآراء، وتُتوقى مكاييد الأعداء، قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ٧٢١] وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وروى ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل، وإن لم تستطع فاصبر، فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب واليسر مع العسر»^(١).

وقال علي رضي الله عنه: الصبر مُناضِلُ الحِثِّانِ^(٢) والجَزَعُ من أعوان الزمان.

وقال الحكيم: بمفتاح عزيمة الصبر، تُعالج مغاليق الأمور. (وأنشدوا):
إِنَّمَا أَجْزَعُ مِمَّا أَتَّقِي فَإِذَا حَلَ فَمَالِي وَالْجَزَعُ

(١) ورد في اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٣٣٨/٧ وري الجزء الأخير من الحديث (واعلم أن النصر...) الإمام أحمد في مسنده ج ١/٣٠٨

(٢) مناضل الحداث: أي مبارز وغالب نواب الدهر ومصابئه.
المناضل: المبارز أو المسابق، نقول: نضالاً ومناضلة) مبارزة في رمي السهام. وحداث الدهر: نوابه ومصابئه.

ولما حبس أبو أيوب^(١) في الحبس، خمس عشرة سنة، ضاقت حيلته، وقلَّ صبره، وكتب إلى بعض إخوانه، يشكو طول حبسه، وقلة صبره، فرد عليه جواب رُقعته:

صَبْرًا أَبَا أَيُّوبَ صَبْرَ مُبْرَحٍ
إِنَّ الَّذِي عَقَدَ الَّذِي انْعَقَدَتْ بِهِ
صَبْرًا فَإِنَّ الصَّبْرَ يَعْقُبُ رَاحَةً
فلما وقف عليها أبو أيوب كتب إليه:

صَبَّرْتَنِي وَوَعَّظْتَنِي فَأَنَا لَهَا
وَيَحِلُّهَا مَنْ كَانَ صَاحِبَ عَقْدِهَا
فَمَا لَبِثَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا أَيَّامًا حَتَّى أُطْلَقَ مُكْرَمًا.

ولتميم بن المعز^(٢):

سَأَسْكُتُ صَبْرًا وَاحْتِسَابًا فَإِنِّي
عَذَابِي أَنْ أَشْكُو إِلَى النَّاسِ أَنَّنِي
وَإِنَّ الَّذِي يَشْكُو إِلَى غَيْرِ نَافِعٍ

وأنشدوا:

دَعِ الدَّهْرَ يَجْرِي بِأَقْدَارِهِ
وَنَمِ نَوْمَةً عَنِ وِلَاةِ الْأُمُورِ
فَإِنَّكَ تَرَحَّمُ مَنْ قَدْ غَبِطْتَ
وأنشدني بعضهم:

وَيَمْنَعُنِي الشُّكْوَى إِلَى النَّاسِ أَنَّنِي
وَيَمْنَعُنِي الشُّكْوَى إِلَى اللَّهِ أَنَّهُ

(١) أبو أيوب المورياني: سليمان بن مخلد، من وزراء الدولة العباسية في العراق، ولي وزارة المنصور بعد خالد بن يحيى جد البرامكة ثم فسدت عليه نية المنصور فسجنه وعذبه وأخذ أمواله، كان لبيبا فصيحاً مات سنة ١٥٤هـ. (وفيات الأعيان ٢ / ٤١٠).

(٢) تميم بن المعز الفاطمي أبو علي، كان أبوه صاحب الديار المصرية، والمغرب، فربي في أحضان النعيم ومال إلى الأدب، فنظم الشعر الرقيق وكان فاضلاً له ديوان مطبوع توفي في مصر سنة ٣٧٤هـ. (الأعلام ٢ / ٨٨).

(٣) الوطر: الحاجة والبغية يقال فضى وطره أى: نال بغيته.

ولآخر:

إِذَا ابْتُلِيتَ فَثِقْ بِاللَّهِ وَارْضَ بِهِ
إِنِّ الَّذِي يَكْشِفُ الْبَلَاءَ هُوَ اللَّهُ
الْيَأْسُ يَقْطَعُ أَحْيَانًا بِصَاحِبِهِ
لَا تَيَأْسَنَّ فَإِنَّ الصَّانِعَ اللَّهُ
إِذَا قَضَى اللَّهُ فَاسْتَسْلِمَ لِقُدْرَتِهِ
مَا لَأْمَرِي حِيلَةٌ فِيمَا قَضَى اللَّهُ

وصرّف من هذه اللفظة: صابر، وصبور، وصبار، ومتصبر.

فالمتصبر: من صبر في الله على المكاره، فتارة يعجز، وتارة يصبر.

والصابر: من لا يشكو، ولا يعجز. والصار: الذي لو دفع عليه جميع
البلايا والمحن لم يتغير وجهه في الحقيقة، وإن تغير من وجهه الرسم
والبشرية والخلقة، كما قال القائل:

صَابِرَ الصَّبْرِ فَاسْتَغَاثَ بِهِ الصَّبْرُ فَصَاحَ الصَّبُّورُ يَا صَبْرُ صَبْرًا
وهذا أقوى بيت قيل في الصبر وأحسنه، وقريب منه قول القائل:

صبرت على الأيام صبراً أصارني إلى أن ينادي الحال لا صبر للصبر
والصبور: هو الثابت على هذه المقامات.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: تخلّق بأخلاقي، وإن من
أخلاقي: أنا الصبور.

ويقال: الصبر لله غنى، والصبر بالله تقي، والصبر في الله بلاء، والصبر
مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء، وأنشدوا:

إِذَا لَعِبَ الرَّجَالُ بِكُلِّ شَيْءٍ رَأَيْتُ الْحُبَّ يَلْعَبُ بِالرَّجَالِ
وَكَيْفَ الصَّبْرُ عَمَّنْ حَلَّ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ الْيَمِينِ مَعَ الشَّمَالِ

وقال المحاسبي^(١): بين الصبر والتصبر حالة، هي: التنعم، وذلك إذا رفع
الله له علماً من أعلام الآخرة، يدلّه على منازل الصابرين عنده، فيتنعم القلب
بسرور النعيم.

وقال أبو محمد الجريري^(٢): الصبر: هو أن لا نفرق بين حال النعمة
والمحنة، مع سكون خاطر فيهما، والصبر: هو السكون مع البلاء، مع
وجدان أثقال المحبة.

(١) الحارث بن أسد: المحاسبي أبو عبدالله، من أكابر الصوفية كان عالماً مبكياً له تصانيف في
الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم ولد ونشأ بالبصرة ومات ببغداد سنة ٢٤٣هـ (الأعلام ٢/ ١٥٣٣).

(٢) أبو محمد الجريري من مشايخ الصوفية، صاحب الجنيد وأقعد مكانه بعد وفاته.

وأنشدوا:

صبرتُ ولم أُطْلَعْ هَوَاكَ عَلَى صَبْرِي وأخفيتُ مَا بِي مِنْكَ عَنْ مَوْضِعِ السَّرِّ
مَخَافَةَ أَنْ يَشْكُو ضَمِيرِي صَبَابَتِي إِلَى دَمْعَتِي سِرًّا فَتَجْرِي وَلَا أُدْرِي
وقيل للمحاسبي، بماذا يقوى الصابر على صبره؟ فقال: إذا علمت أن في
صبرك رضا مولاك. أما سمعت قول الحكيم:

رَضِيتُ وَقَدْ أَرْضَى إِذَا كَانَ مُسْخِطِي مِنَ الْأَمْرِ مَا فِيهِ رِضًا صَاحِبِ الْأَمْرِ
وفي معناه:

سَأَصْبِرُ كَيْ تَرْضَى وَأَتْلَفُ حَسْرَةً وَحَسْبِي أَنْ تَرْضَى وَيَتْلَفَنِي صَبْرِي
قلت: وثكلك لمن تحبه أعظم من ثكلك لنفسك، هذا أيوب^(١)، لما
أصيب بنفسه قال: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾ ويعقوب^(٢) لما أصيب بحبيبه قال:
﴿وَأَسْفَا عَلَى يَوْسُفَ﴾.

قال أحمد^(٣): قال لي أبو سليمان الداراني^(٤): أتدري بماذا أزال العقلاء
اللائمة عن أساء إليهم؟ قلت: لا، قال: لعلمهم بأن الله تعالى ابتلاهم بذلك
فصبروا.

ويروى: أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: إذا أنزلتُ بعبدٍ بلائي،
فدعاني، فماطلته بالإجابة، فشكاني، فقلت: عبي؛ كيف أرحمك من شيء
به أرحمك^(٥)؟

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥] إنه الصبر الذي لا
شكوى فيه ولا بث.

(١) النبي أيوب عليه السلام: من الأنبياء الذين قص علينا قصصهم في القرآن الكريم، ذكر اسمه
أربع مرات، اشتهر بالاستقامة والتقوى، وردَّ في ابتلائه قصص كثيرة، والأصح أنها كانت قبل النبوة
فلما صبر أصبح نبيا، وموطنه بلاد الروم (أرض عوص). (انظر: قصص الأنبياء - ابن كثير ٢٤١).

(٢) النبي يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليه السلام، ولد جميع أولاده في آرم إلا بنيامين، ثم جاء
إلى فلسطين بمال كثير ونعم جليلة، وأصيب بابنه يوسف عليه السلام الذي رماه إخوته في الجب، وله
قصة مشهورة (اقرأ سورة يوسف). (انظر: قصص الأنبياء - ابن كثير ٢٠٦).

(٣) المقصود أحمد بن أبي الحواري الزاهد المعروف بريحانة الشام - سبقت ترجمته -.

(٤) أبو سليمان الداراني: عبدالرحمن بن أحمد بن عطية العنسي، زاهد مشهور من أهل (داريا)
بغوفة دمشق، رحل إلى بغداد وأقام بها مدة، ثم عاد إلى دمشق، كان من كبار المتصوفين، وله أخبار
في الزهد، مات سنة ٢١٥ هـ (الأعلام ٣/ ١٣١).

(٥) أي أن في ابتلاء الله للإنسان رحمة. وقد سقطت كلمة (كيف) من (ط).

قال أنس: ما صبر من بث^(١).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تستغزروا الدموع بالتذكُّر.
وقال الشاعر:

وَلَا يَبْعَثُ الْأَحْزَانُ مِثْلُ التَّذَكُّرِ^(٢)

ومما يعين على عظم الأسى وشدة الجزع، تذكر المسار المنقضية،
وتصور المضار الذاهبة، وكثرة الشكوى والأسف، وقال الشاعر:
لَا تُكْثِرِ الشُّكْوَى إِلَى الصَّدِيقِ وَأَرْجِعْ إِلَى الْخَالِقِ لَا الْمَخْلُوقِ
لَا يَخْرُجُ الْغَرِيقُ بِالْغَرِيقِ
وفي منشور الحكم: المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين.

واعلم: أنه قل من صبر على شدة إلا ونال ما يرجوه من فرج. وينبغي لمن
نزلت به مصيبة، أو كان في شدة، أن يسهلها على نفسه، ولا يغفل عن تذكر ما
يتيقنّه، من وجوب الفناء، وتقضي المسار، فإن الدنيا دار من لا دار له، ومال من
لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم له، وعليها يحسد
من لا فقه له، ولها يسعى من لا ثقة له، من صح فيها سقم، ومن سقم فيها
برم^(٣)، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، حلالها حساب، وحرامها
عقاب، ومتشابها عتاب، لا خيرها يدوم، ولا شرها يبقى، ولا فيها لمخلوق
بقاء، فإذا تصور حقيقتها، فحينئذ يرى الحوادث سهلة والمصائب هينة.

وقال الشاعر:

يَمَثُلُ ذُو اللَّبِّ فِي نَفْسِهِ مَصَائِبَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزِلَا
فَإِنْ نَزَلَتْ بَغْتَةً لَمْ تَرَعَهُ لَمَّا كَانَ فِي نَفْسِهِ مَثَلَا
رَأَى الْأَمْرَ يُفْضِي إِلَى آخِرٍ فَصَيَّرَ آخِرَهُ أَوَّلَا

وقال بعض الحكماء: من حاذر لم يخدع، ومن راقب لم يهلع، ومن كان

(١) البث: أشدّ الحزن: أي لم يصبر من أظهر الحزن الشديد وأكثر من الشكوى والأسف.

(٢) هذا شطر بيت من قصيدة للشاعرة ليلي الأخيلية ترثي فيها توبة بن حمير، ومنها:

لتبك عليه من خفاجة نسوة بماء شؤون الغبرة المتحدر
سمعن بهيجا أرهقت فذكرنه ولا يبعث الأحزان مثل التذكر

(الأغاني ١١/ ٢٣٣)

(٣) البرم: هنا بمعنى البخل، وتأتى بمعنى الضجر والسأم.

متوقعا لم يلف متوجعا، ومن لم يشعر نفسه ما ذكرنا من أحوال الدنيا، وتقضي المسار، ثم الثواء^(١) في اللحد، بين أطباق التراب والجنادل^(٢)، قد فارقه الأحباء، وهجره القرباء والبُعْدَاء، ألفتة الحوادث وابقأ^(٣)، فسلبته الصبر، وضاعفت عليه الأسى.

وقال ابن الرومي^(٤):

إِنَّ الْبَلَاءَ يُطَاقُ غَيْرَ مُضَاعَفٍ
وَأَنْشِدُوا:

تَعَوَّدْتُ مَسَّ الضَّرِّ حَتَّى أَلْفَتُهُ
وَوَسَّعَ صَدْرِي لِلأَذَى كَثْرَةَ الأَذَى
وَحَسَنَ لِي يَأْسِي مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ

ولبعض الأعراب:

تَعَزَّ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحُرِّ أَجْمَلُ
فَلَوْ كَانَ يُغْنِي أَنْ يَرَى الْمَرْءُ جَارِعًا
لَكَانَ التَّعْزِي عِنْدَ كُلِّ مُصِيبَةٍ
فَكَيْفَ وَكُلٌّ لَيْسَ يَعْدُو حِمَامُهُ
فَإِنْ تَكُنِ الأَيَّامُ فِينَا تَبَدَّلَتْ
فَمَا لَيْنَتْ مِنَّا قَنَاطَةُ صَلِيبَةٍ
وَلَكِنْ وَجَدْنَاهَا نَفُوسًا كَرِيمَةً
وَقِينَا بِفَضْلِ اللَّهِ مِنَّا نَفُوسَنَا

فَإِذَا تَضَاعَفَ فَهُوَ غَيْرُ مُطَاقٍ

وَأَسْلَمَنِي حُسْنُ الْعَزَاءِ إِلَى الصَّبْرِ
وَأِنْ كُنْتُ أَحْيَانًا يَضِيقُ بِهِ صَدْرِي
لِعَلْمِي بِصُنْعِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي

وَلَيْسَ عَلَى رَبِّ الزَّمَانِ مُعَوَّلٌ^(٥)
لِنَائِبَةٍ أَوْ كَانَ يُغْنِي التَّبَدُّلُ^(٦)
وَنَازِلَةُ بِالْحُرِّ أَوْلَى وَأَجْمَلُ
وَمَا لَأَمْرِي عَمَّا قَضَى اللَّهُ مُرْحَلٌ^(٧)
بِبُؤْسٍ وَنَعَمَى وَالْحَوَادِثُ تَفْعَلُ
وَلَا ذَلَّلْتَنَا لِلَّذِي لَيْسَ يَجْمَلُ^(٨)
تُحْمَلُ مَا لَا تَسْتَطِيعُ فَتَحْمَلُ
فَصَحَّتْ لَنَا الْأَعْرَاضُ وَالنَّاسُ هَزَلُ

* * *

(٢) الجنادل "الصخور العظيمة.

(١) الثواء في اللحد: الإقامة في القبور.

(٣) وابقأ: هالكها ومنها الموبقات: المهلكات.

(٤) ابن الرومي: علي بن العباس بن جريج الشاعر الكبير الرومي الأصل ولد ونشأ ببغداد ومات مسموماً من وزير المعتضد الذي كان ابن الرومي قد هجاه فهو لم يمدح أحداً من رئيس أو مرؤوس إلا د. وهجاه مات سنة ٢٨٣هـ. (الأعلام ٤/ ٢٩٧).

(٥) ريب الزمان: صنوف الدهر.

(٦) التبذل: ترك الإحتشام والتصون.

(٧) حِمَامُهُ: أي ما قدر وقضى عليه فيه.

(٨) القنطرة عند العرب: القامة يقال صلب القنطرة: أي صلب القامة. (لسان العرب، باب: قوم).

سيرتك المملوك

الجزء الثاني

من الباب الثالث والثلاثين

إلى

الباب الرابع والستين

الباب الثالث والثلاثون

في كتمان السر

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب (١) عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] فلما أفشى رؤياه بمشهد امرأة يعقوب، أخبرت إخوته، فحل به ما حل.

وفي الحديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود» (٢).

واعلم أن كتمان السر من الخصال المحمودة في جميع الخلق، ومن اللوازم في حقوق الملوك، ومن الفرائض الواجبة على الوزراء، وجلساء الملوك، والأتباع.

قال علي رضي الله عنه: سرُّك أسيرك، فإذا تكلمت به صرت أسيره. وأنشدوا:

أَسِيرُكَ سِرُّكَ إِنْ صُنَّتْهُ وَأَنْتَ أَسِيرٌ إِذَا مَا ظَهَرَ
واعلم: إن أمناء الأسرار أشدُّ تعذراً وأقلُّ جوداً من أمناء الأموال، وحفظ الأموال أيسر من كتم الأسرار، فإن أحرار الأموال منيعةً بالأبواب والأقفال، وأحرار الأسرار بارزةٌ يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق، وعبء الأسرار أثقل من عبء الأموال، وإن الرجل يستقلُّ بالحمل الثقيل يحمله، ويمشي به ويُقلُّه (٣)، ولا يستطيع كتم السر.

وإنَّ الرَّجُلَ يَكُونُ سِرُّهُ فِي قَلْبِهِ، فَيَلْحَقُهُ مِنَ الْقَلْقِ وَالْكَرْبِ مَا لَا يَلْحَقُهُ بِحَمْلِ الْإِثْقَالِ، فَإِذَا أَدَاعَاهُ اسْتَرَاخَ قَلْبُهُ، وَسَكَنَ جَأْشُهُ، وَكَأَنَّمَا أَلْقَى عَنْ نَفْسِهِ جَبَلًا.

(١) يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام: وهو والد النبي يوسف عليه السلام. وإخوته وقصتهم معروفة في سورة يوسف في القرآن الكريم.

(٢) الحديث: قال الحافظ العراقي: هذا الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ج ٣ / ص ١٧٧).

(٣) يقله: يرفعه.

وقال عمر بن عبد العزيز : القلوب أوعية والشِّفاهُ أقفالها ، والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كلُّ إمري مفتاح سرِّه .

ومن أعجب الأمور ، أن أغلاق^(١) الدنيا كلما كثرت خُزَّانُها كان أوثقَ لها ، إلا السر ؛ فإنه كلما كثرت خُزَّانُه كان أضعفَ له ، فكم من إظهارِ سرِّ أراق دم صاحبه ، ومنع من بلوغ مآربه ، ولو كتبه أمين من سطوته .

قال أنو شروان : من حصَّن سرَّه فله بتحصيله خصلتان : الظَّفَرُ بِحاجته والسَّلامةُ من السَّطَوَات ، وقال بعض الحكماء : سرَّك من دمك ، فلا تُجرِّه في غير أوداجك^(٢) ، فإذا تكلمت به فقد أرقته .

وكان لعثمان بن عفان - رضى الله عنه - كاتب يقال له : (حُمران)^(٣) فاشتكى^(٤) عثمان ، فقال : أكتب العهد بعدى لعبد الرحمن بن عوف . فقال حُمران لعبد الرحمن : البُشرى ، فقال عبد الرحمن : لك البُشرى ، بماذا ؟ فأخبره الخبر ، فانطلق عبد الرحمن فأخبر عثمان ، فقال عثمان : أعاهد الله أن لا يساكننى حُمران أبداً ، ونفاه إلى البصرة ، فلم يزل بها حتى قُتل عثمان رضى الله عنه .

واعلم أن كتمان الأسرار بدلٌ على جواهر الرِّجال .

وكما أنه لا خير فى آنية لا تُمسك ما فيها ، فلا خير فى إنسان لا يمسك سرَّه . ويروى أن رجلاً أودع سرَّه عند رجل ، فقال له : أفهمت ؟ قال : بل جهلت . قال : احفظت ؟ قال : بل نسيت .

وقيل لبعضهم : كيف كتمك السر ؟ قال : أجحدُ المُخبر ، وأحلف للمستخبر ، وقال الشاعر :

ولو قدَّرتُ على كتمان ما اشتَمَلْتُ مِنِّي الضَّلُوعُ على الأسرار والخبرِ
لكنتُ أوَّلَ من ينسى سرائره إذ كنت من نشرها يوماً على خطرِ

(١) أغلاق : أقفال .

(٢) الأوداج ؛ عروق فى العنق .

(٣) حمران بن أبان بن عمرو ، أبا زيد ، سباه المسيب الفزارى وكان يهوديا اسمه «طويدا» فاشترى لعثمان ثم اعتقه ، وصار يكتب بين يديه ، ثم غضب عليه ، فأخرجه إلى البصرة ، فلما قدم الحجاج إلى البصرة آذاه وأخذ منه مائة ألف درهم فكتب إلى عبد الملك بن مروان يشكوه . فأمر بالإحسان إليه ورد ماله (المعارف لابن قتيبة ص ٤٣٥) .

(٤) اشتكى عثمان : أى مرض .

قال شيخنا : ومن أحسن شيء سمعته في كتمان السر ، ما أنشدني بعض فقهاء البصرة ، بالبصرة ، فقال :
ولها سرائر في الضمير طويتها نسي الضمير بأنها في طيه
وفي معناه :

ومستودعي سرا كتمت مكانه عن الحس خوفاً أن ينم به الحس
وخفت عليه من هوى النفس شهرة فأودعته في حيث لا تبلغ النفس
قال العتبي^(١) : أسر معاوية رضي الله عنه ، إلى عثمان بن عنبسة^(٢) حديثاً ،
قال : فقلت لأبي : إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثاً. أفأحدثك به ؟ قال : لا ، من
كتم حديثاً كان الخيار له ، ومن أظهره كان الخيار عليه ، فلا تجعل نفسك
مملوكاً بعد أن كنت مالكا.

قلت : يا أبت ؛ أفيدخل هذا بين الرجل وأبيه ؟ قال : لا يا بني ، ولكن أكره
أن تذل لسانك بإفشاء السر ، قال : فحدثت به معاوية ، فقال : أعتقك أخي من
رق الخطأ.

وقيل لبعض الملوك : ما أصعب الأشياء على الإنسان ؟ قال : ان يعرف
نفسه ويكتم سره.

وقال قيس بن الخطيم^(٣) :

أجودُ بمكنون البلاد وإنني إذا جاوز الاثنين سرّاً فإنه
بسرّك عمّن سلّني لضيّن^(٤) يُبثُّ وتكثير الوشاة قمين^(٥)
كتوم لأسرار العشير أمين يكون له عندى إذا ضمنتُه
مكان سويداء الفؤاد مكين^(٦)

(١) العتبي (أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله الأموي ، سبقت ترجمته).

(٢) هو عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان بن حرب بن أخى معاوية بن أبي سفيان كان أبوه (عنبسة) والياً لمعاوية على مكة.

(٣) قيس بن الخطيم : شاعر الأوس في الجاهلية ، وأحد صناديدها ، أدرك الإسلام وتريث في قبوله ، فقتل قبل أن يدخله ، مات نحو سنة ٢ قبل الهجرة (الأعلام ٥ ص ٢٠).

(٤) الضنين : البخيل ، ضن بالشيء : يخل به.

(٥) القمين : الكريه ، يثال : رائحة مقمنة أى كريهة منتنة.

(٦) سويداء القلب : حبه.

قال شيخنا : قلت : الناس يقولون : أراد بالاثنين (المودع ، والمودع) ، ولا يَبْعُدُ أن يُريدَ به (الشفيتين) .

وكان يُقال : أصبرُ الناس : من صبر على كتمان سرّه فلم يُبْده لصديقه ، فيوشكُ أن يصيرَ عدوه .

وقد رُوي في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا حدّثَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ ثم التفت فهي أمانة » (١) قلت : وإذا كانت أمانة حرّمت فيها الخيانة ، كالأمانة في الأموال .

وقال أبو بكر بن حزم (٢) : إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله ، فلا يحل لأحدهما أن يفشى على صاحبه ما يكره .

وقال هشام بن عروة (٣) : ما من رجل ينتقص من أمانته إلا نقص إيمانه .

وقال جعفر بن عثمان (٤) :

يا ذا الذي أودعني سرّه لا ترج أن تسمعه مني
لم أجبره قط على فكرتي كأنه لم يجبر في أذني

وكان عمرو بن العاص يقول : ما أفشيت سرّي إلى رجل ، فأفشاه عليّ فلمته ، إذ كان صدري أضيق به .

وقال الأحنف بن قيس : يضيق صدر أحدكم بسرّه حتى يحدث به ، ثم يقول : اكتمه عليّ .

وفي منشور الحكم : إنفرد بسرك ، ولا تودعه حازماً فيزل ، ولا جاهلاً فيخون .
وأنشدوا :

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه
فصدر الذي يستودع السر أضيق

(١) الحديث : رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن جابر وابن أبي يعلى عن أنس (إذا حدث الرجل بحديث...) والحديث صحيح (الجامع الصغير - رقم ٥٦١) .

(٢) أبو بكر بن حزم : محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري من التابعين ورواة الحديث الثقات ، توفي سنة ١٢٠ هـ

(٣) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام : تابعي من أئمة الحديث ومن علماء المدينة ، دخل بغداد على عهد المنصور وكان من خاصته ، توفي ببغداد سنة ١٤٦ هـ

(٤) جعفر بن عثمان المصحفي : أديب وشاعر ووزير أندلسي من كبار الكتاب وله شعر جيد ، اعتقله المنصور بن أبي عامر أمير الأندلس لخدمته (أم هشام المؤيد بن الحكم) ، فاستعطفه جعفر بمنظومة ومنثورة ولكنه لم يرق له وقتله سنة ٣٧٢ هـ (الأعلام ٢ / ١٢٥)

وفى منشور الحكم: من أفضى سرّه كثر عليه المتآمرون.

وقال الشاعر:

وسرُّك ما كان عند امرئٍ وسِرُّ الثلاثة غير الخفيِّ
وقال آخر:

ولا تنطق بسرِّك، كلُّ سرِّ إذا ما جاوز الاثنين فاشي
وقال آخر:

تبوح بسرِّك ضيقاً به وتبغى لسرِّك من يكتُم
وكتمانك السرُّ فيما تخاف وفيما تحاذره أحزم
إذا ذاع سرُّك من مُخبرٍ فأنت إذا لمُتته ألوم
وقال آخر:

إذا ما ضاق صدرك من حديثٍ وأفشته الرجال فمن تلوم
وإن عاتبت من أفضى حديثي وسرِّي عنده فأنا المَلُوم

وقال حكيم: ما كتمته من عدوك فلا تطلعنَّ عليه صديقك، فإن لم يكن لك بد من إذاعته لقرينة تقتضيه من صديقٍ مساهم، أو استشارة ناصحٍ مسالم، فمن صفات أمين الأسرار أن يكون ذا عقلٍ ودين ونصح ومروءة، فإن هذه أمور تمنع الإذاعة وتوجب حفظ الأمانة، ومن كملت فيه فهو عنقاء مغرب^(١).

ولا تُودع سرُّك عند من يستدعيه، فإن طالب الودعة خائن.

قال صالح بن عبد القدوس^(٢): لا تدع سرّاً إلى طالبه منك، والطالب للسرِّ مذيع. وفي الجملة: إذا زال سرُّك عن عذبة لسانك^(٣)، فالإذاعة مستولية عليه، وإن أودعته قلب ناصحٍ محبٍّ، فاحتمالُ مرارة الكتمان على قلبك أسهلُّ عليك من التملُّل بتمليك سرِّك غيرك.

واعلم أن إفشاء سرِّ غيرك، أقبح من إظهار سرِّ نفسك، لأنه يبوح بإحدى

(١) عنقاء مغرب: العنقاء المغرب: طائر مجهول الجسم لا وجود له، ويقال في

الأخبار عن هلاك الشيء وبطلانه « حلفت به في الجو عنقاء مغرب » أي هلك وبطل

(٢) صالح بن عبد القدوس: أبو الفضل، شاعر حكيم، كان يعظ الناس في البصرة،

شعره كله أمثال وحكم، اتهم بالزندقة فقتله الخليفة المهدي ببغداد نحو سنة ١٦٠ هـ

(٣) عذبة اللسان: طرفه.

وصمتين^(١) : إما الخيانة إن كان مؤتمناً ، أو النميمة إن كان مستخبراً .
وقال بعض الحكماء لابنه : يا بني : كن جواداً بالمال في مواضع الحق ،
ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلق ، فإنَّ أحمدَ جُود المرء الإنفاق في وجه البرِّ ،
والبُخل بمكتوم السرِّ ، وكان يقال : صدورُ الأحرارَ قبورُ الأسرار .
وقال الشاعر :

ألم تر أن وشاة الرِّجاء ل لا يتركون أديماً صحيحاً
فلا تُفشِ سرِّكَ إلا إليك فإن لكل نصيحٍ نصيحاً
وقال غيره :

ما كلُّ مكتومٍ يُباحُ به احذر لسانك من جِوالبه^(٢)
ليس الهوى ما كنتَ تعرفه أيام تلعبُ في جِوانِبِه
هذا الهوى لو قد فصحتَ به ضحك الحُسامِ إلى مضاريه

* * *

(١) وصمتين : خصلتين .

(٢) من جِوالبه : ما يجلبه إليك .

الباب الرابع والثلاثون

فى بيان الخصلة التى هى رهنٌ بسائر الخصال، وزعيمٌ

بالمزيد من النعماء والآلاء من ذى الجلال

وهى: الشكر

قال الله تعالى، حكايةً عن سليمان. عليه السلام، وقد أتاه الله ملك الدنيا، والجن والإنس، والطير والوحش، والرياح تجرى بأمره كيف أراد، فلما استمكن ملكه، قال ﷺ: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، فما عدها نعمةً كما عدها ملوك الأرض، ولا حسبها كرامةً من الله تعالى عليه، كما ظنّها ملوك الأرض، بل خاف أن تكون استدراجاً من حيث لا يعلم، كما قال تعالى فى أمة أراد هلاكهم: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣ - القلم: ٤٤، ٤٥] جاء فى التفسير: أصب عليهم النعم، وأنسيهم الاستغفار.

وإنما الفرح بما أوتى من الدنيا، والغبطة بزهرتها، والاغترار بزخرفها من شعار الكفار، ألا ترى إلى قول (قارون) ^(١) اللعين: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصر: ٧٨] وكان جوابه ما قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصر: ٨١].

ولما خاف سليمان عليه السلام، أن يكون استدراجاً، كان جوابه ما قال الله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]. واعلم - أرشدك الله - أن الشكر ليس حافظاً للنعم فقط، بل هو مع حفظه لها، زعيمٌ بزيادة النعم، وأمانٌ من حلول النقم.

* * *

(١) قارون: من أثرياء العبرانيين فى أيام موسى عليه السلام، اضطهد موسى ومن معه فخسف الله به وبداره الأرض وذهبت ثروته وخزائن أمواله التى كانت تنوء عن حمل مفاتيحها العسبة من الرجال وهنا جزء من قصته التى وردت فى القرآن الكريم.

فصل: فى مراتب الشكر (*) :

والشكرُ على ثلاثِ مراتبٍ : شكرٌ بالقلب ، وشكرٌ باللسان ، وشكرٌ بالجوارح .
فأما الشكرُ الواجب على جميع الخلق ، فشكر القلب ، وهو أن يَعْلَمَ أَنَّ
النَّعمة من الله وحده ، ولا نعمة على الخلق من أهل السموات والأرض إلا
وبدايتها من الله تعالى ، حتى يكون الشكر لله تعالى عن نفسك وعن غيرك
بمعرفة نعم الله تعالى عليك وعلى غيرك .

وهذا النوع هو الذى يقال فيه : يجبُ على العبد أن يشكر الله على نعمة
أسديت إليه غيره ، والدليلُ على أن الشكرَ محلُّه القلب ، وهو المعرفة ، قوله
تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] أى أيقنوا أنها من الله ، وإلى
هذه الكلمة انتهى جميع ما قاله الخلق فى الشكر .

والدليلُ عليه أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] . أى اتَّقُونى ، فإنه شكرُ نعمتى .

وخلق الله تعالى الحياة نعمةً على العبد ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ
مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٦] والعبارةُ عنه أن يُقال : الشكر ، اعترافُ
القلب بإنعام الله تعالى على وجه الخضوع .

ويقال فيه : الشكرُ اعتكافٌ على بساط الشهود بإدامة حفظِ الحرمة .

وقال أبو عثمان (١) : الشكرُ معرفةُ العجزِ عن الشُّكرِ .

وروى أَنَّ داودَ عليه السلام قال : إلهى ، كيف أشكرك وشكرى لك نعمةً
من عندك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : الآن قد شكرتَنِى .

وقال وهبٌ بن مُنبّه : قال داود غلبه السلام : إلهى ، ابنُ آدمَ ليس منه شعرةُ

(*) من إضافات من المحقق .

(١) نقل الشيخ الطرطوشى عن أكثر من شخصية بهذا الاسم ، فقد نقل عن أبى عثمان الحيرى
سعيد بن إسماعيل الزاهد المعروف بحلمه والمتوفى سنة ٢٩٨ ، وعن أبى عثمان النهدى عبد الرحمن
بن مل الزاهد العالم المجاهد الذى توفى بالكوفة سنة ٧٦ هـ وهذا لعله أبو عثمان البصرى عمرو بن
عبيد شيخ المعتزلة وفقهائها والزاهد المشهور توفى سنة ١٤٤ هـ .

إِلَّا وَتَحْتَهَا نِعْمَةٌ، وَفَوْقَهَا مِنْكَ نِعْمَةٌ، فَمَنْ أَيْنَ يَكَاغُهَا؟ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: يَا دَاوُدَ: إِنِّي أُعْطِيَ الْكَثِيرَ، وَأَرْضِي بِالْيَسِيرِ، وَإِنَّ شُكْرَ ذَلِكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنْ مَا بَكَ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنِّي.

وَفِي هَذَا يُقَالُ: الشُّكْرُ عَلَى الشُّكْرِ أَتَمُّ الشُّكْرِ، وَذَلِكَ بِأَنْ تَرَى شُكْرَكَ بِتَوْفِيقِهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ التَّوْفِيقُ مِنْ أَجْلِ النِّعْمَةِ، فَتَشْكُرُهُ عَلَى الشُّكْرِ، ثُمَّ تَشْكُرُهُ عَلَى شُكْرِ الشُّكْرِ، إِلَى مَا لَا يَتَنَاهَى، وَهَذَا الشُّكْرُ أَيْضًا وَاجِبٌ.

وَلِمَحْمُودِ الْوَرَّاقِ (١):

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةً لِلَّهِ نِعْمَةً عَلَى لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بَلَوْغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتْ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمُرُ
إِذَا مَسَّ بِالسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الْأَجْرُ
فَمَا مِنْهُمَا إِلَّا لَهُ فِيهِ نِعْمَةٌ تَضِيقُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَالسَّرُّ وَالْجَهْرُ

وَمَنْ أَقْرَبُ نِعْمِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ، فَقَدْ أَقْرَبَ بِقَدْرِ مَا كَلَّفَ، لِأَنَّ أَحَدًا لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُوَازِيَ شُكْرَ نِعْمِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَفِي مُنَاجَاةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِلَهِي، خَلَقْتَ آدَمَ بِيَدِكَ، وَفَعَلْتَ وَفَعَلْتَ، فَكَيْفَ شُكْرَكَ؟ فَقَالَ: إِنْ يَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ مِنِّي، فَكَانَ مَعْرِفَتُهُ بِذَلِكَ شُكْرَهُ لِي.

* * *

فصل: في الشكر باللسان:

وَأَمَّا شُكْرُ اللَّسَانِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] قِيلَ: يَعْنِي النُّبُوَّةَ، وَقِيلَ: يَعْنِي الْقُرْآنَ. وَحُكِمَ الْآيَةُ عَامًّا فِي جَمِيعِ النَّعَمِ.

وَرَوَى النِّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ (٢)، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ

(١) محمود الوراق: شاعر، أكثر شعره في المواعظ والحكم مات سنة ٢٢٥ هـ

(*) من إضافات المحقق.

(٢) النعمان بن بشير: من الصحابة الولاة، تولى الكوفة لمعاوية وحمص ليزيد، بايع عبد الله بن

الزبير فقتل سنة ٦٥ هـ

يَشْكُرُ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ، وَالتَّحَدَّثَ بِالنِّعَمِ شُكْرًا^(١).

وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤].

قال عاملُ عمر بن عبد العزيز رحمه الله - لما حفر نهر البصرة، الذي يقال له: (نهر عمر): إني حفرت لأهل البصرة نهراً عذباً لهم مشرباً، وجادت عينه، ولم أر لهم على ذلك شكراً، فإن أدنت لي قسمت عليهم ما أنفقت عليه. فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: إني لا أحسب أهل البصرة خلواً من رجل قال: الحمد لله، حين حفر هذا النهر، وإن الله قد رضيها شكراً من جنته، فأرض بها شكراً من نهرك، والسلام.

وحقيقة الشكر في هذا القسم: الثناء على المحسن بذكر إحسانه، وعلى هذا القول يوصف الرب تعالى بأنه شكور حقيقة، فشكر العبد لله: ثناؤه عليه بذكر إحسانه، وشكر الله للعبد: ثناؤه عليه بإحسانه، وإحسان الرب للعبد: إنعامه عليه.

وهذه اللفظة مأخوذة من قولهم: دابة شكور، إذا أظهرت من السمن فوق ما تُعطى من العلف.

ويقال وجه شكور: إذا كان ممتلئاً بالمحاسن ظاهرة. وفي الحديث يقول الله تعالى: «أنا والجن والإنس في نب عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري»^(٢) وقال بعضهم: إنما أؤنى الناس لأنهم في موضع صبر^(٣)، وهم يحسبون أنهم في موضع شكر.

* * *

(١) الحديث: رواه البيهقي في شعب الإيمان عن النعمان بن بشير بلفظ، التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، وروى الإمام أحمد والترمذي عن أبي سعيد جزء من الحديث (ولمن لم يشكر الناس لم يشكر الله) الجامع الصغير (رقم ٣٣٩٨ ورقم ٩٠٢٨).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء - والحديث ضعيف - (الجامع الصغير - للسيوطي رقم ٦٠٠٨).

(٣) هكذا في (خ) وفي (ط) (موضع صبرهم).

فصل: الشكر بالجوارح(*):

وأما الشكر الذي على الجوارح، فقال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبا: ١٣] فجعل العمل شكرا.

وقال عطاء^(١): دخلت على عائشة - رضي الله عنها - مع عبيد بن عمير^(٢)، فقال لها عبيد: يا أم المؤمنين: حدثينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ، فبكت، وقالت: وأى شأنه لم يكن عجبا؟ إنه أتاني في ليلة، فدخل معي في فراشي، حتى مس جلدي جلده، ثم قال: يا ابنة أبي بكر؛ ذريني أتعبد لربي، قالت: قلت: إني أحبُّ قربك. فأذنت له، فقام إلى قربة من ماء، فتوضأ وأكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فبكي حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكي، ثم سجد فبكي، ثم رفع رأسه فبكي، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله: ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ فلم لا أفعل وقد أنزل علي: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤ - آل عمران ١٩٠]. فجعل النبي ﷺ الشكر بالعمل، وبين به مراد الكتاب، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] أى كل واحد منهما يخلف الآخر، فمن فاته العمل في أحدهما عملهُ في الآخر، فجعل الأوراد^(٣) والأعمال بالجوارح شكرا. وروى أن النبي ﷺ قام حتى انتفخت قدماه، فقيل: يا رسول الله، تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (أفلا أكون عبداً شكوراً)؟! وقال أبو هارون: دخلت على أبي حازم^(٥)، فقلت له: رحمك الله، ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيراً أذعته، وإن رأيت بهما شراً سترته.

(*) من إضافات المحقق.

(١) عطاء بن أبي رباح: تابعي ثقة كثير الحديث.

(٢) عمر بن عمير أبو عاصم المكي سبقت ترجمته.

(٣) الورد: جزء من القرآن يقوم به الإنسان كل ليلة.

(٤) الحديث: هذا الحديث متفق على صحته عن المغيرة بن شعبه قال: صلى رسول الله ﷺ، حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أنتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال أفلا أكون عبداً شكوراً (شرح السنة - الإمام البغوي ٤ / ٤٥ رقم ٩٣١).

(٥) أبو حازم: سلمان الأشجعي، من المحدثين الثقة في الكوفة وغيرها مات على رأس المائة الهجرية. أو أبو حازم سلمة بن دينار عالم المدينة وقاضيهما مات سنة ١٤٠ هـ.

قلتُ له : فما شكرُ الأذنين ؟ فقال : إذا سمعتَ بهما خيراً حفظته ، وإذا سمعتَ بهما شراً سترتهُ .

قلت : فما شكرُ اليدين ؟ قال : أن لا تأخذَ بهما ما ليس لك ولا تمنعَ حقَ الله تعالى فيهما .

قلت : فما شكرُ البطن ؟ قال : أن يكونَ أسفله صَبْرًا وأَعلاه علمًا .
قلت : فما شكرُ الفرج ؟ قال : كما قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿ [المؤمنون : ٥ ، ٦]
فإن أنت فعلت فأنت الشاكرُ حقًا .

وفى حكمةٍ إدريس عليه السلام : « لن يستطيعَ أحدٌ أن يشكرَ الله تعالى على نعمة ، بمثل الإِنعام على خلقه ، ليكونَ صانعاً إلى الخلق مثلاً ما صنَعَ به الخالقُ تعالى » .

وإذا ثبتَ أنَّ فعلَ الطاعات شكرٌ ؛ فإنَّ فيها ما هو أشدُّ ملازمةً من غيره ، فالطاعةُ في مواساة الفقراء أشكل (١) بالشُّكر على الغنى من غيرها ، لأنَّها من جنسِ النعمة ، فإذا أردتَ أن تحرُسَ دوامَ نعمِ الله تعالى عليك ، فأدمِ مواساةَ الفقراء .
والطَّاعةُ في رفعِ ذوى الضَّعة (٢) والخمول والمسكنة بغيرِ معصية ، أشبهُ بالشكر على رفعِ قدرِكَ ، والتنويه باسمِكَ .

والطَّاعةُ في تَمريضِ الفقراء وتلطيفِ أغذيتهم ، أشبهُ بالشكر على العافية من سائر الطاعات .

والطَّاعةُ في الشِّفاعات عند السلطان ، وقضاءِ حوائجِ الغرباء والإخوان أشبهُ بذوى الجاه من سائر الطاعات .

وعلى هذا المثال ، ينبغي أن يُقال في سائر نعمِ الله تعالى على العبد ، ومن العبارات الجامعة للشكر أن يُقال : الشكرُ معرفةُ بالجنان ، و (كَرُّ باللسان ، وعَمَلٌ بالجوارح .

* * *

(١) أشكل بالشئ : أى أشبه به .

(٢) الضعة : انحطاط القدرة والدناءة (وفى ط - ذوى الضعفة) .

فصل: فى قوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ (*)

فى الكلام على الزيادة قال الله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: ٧] فقال قوم: إنما خاطب الله تعالى بهذا، وبقوله: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠]: قوماً دون قوم، والدليل عليه أنا نرى من يشكر على الغنى ثم يبتلى بالفقر، ومن يشكر على العافية ثم يبتلى بالمرض، والله تعالى لا يخلف وعده.

وقال قوم: معناه لأزيدنكم نعمة الآخرة، فإن قيل: إنما تكون الزيادة من جنس المزيد عليه، فأجابوا: إن النعم الدنيوية والأخروية وإن تفاضلت واختلفت فكلها متجانسة من حيث أنها نعمة.

وقال قوم: معناه لأزيدنكم خيراً، والخير والصلاح قد يكون فى كثير من الأوقات بالمنع والسقم ونحوهما، فإن من سأل الله تعالى أن يعطيه مالا، أو يصح جسمه، وهو يعلم: أنه إن وهبه المال أنفقه فى المعاصى، أو وهبه الصحة صرف صحته إلى المشى فى الآثام، فالمنع هاهنا موهبة من الله تعالى جزيلة، وعن هذا قال العلماء: (منع الله تعالى عطاء).

وقال قوم: يمكن تقدير الاستثناء فيها: أى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ إلا أن تعصوا فأعاقبكم بالحرمان، أفعل ذلك كفارة لكم. وهو أصلح من أن أعاقبكم فى الآخرة، والناس لا يسلمون من الذنوب، ولو تهباً أن يسلموا من الذنوب لدرت الزيادات، قال الله تعالى: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ [المائدة: ٦٦] وقال: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفراً﴾ * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين [نوح: ١٠-١٢].

وقال قوم: الآية خاصة لا محالة، إذ لو كانت على عمومها، لوجب أن لا يموت من شكر الله تعالى على الحياة.

قلت: إن الله تعالى وعد الزيادة، وقوله الحق، وقد جعل الله العبادة علامة، يعرف بها الشاكر، فمن لم يظهر عليه المزيد، علمنا أنه لم يشكر، فإذا رأينا الغنى يشكر الله تعالى بلسانه، وماله فى نقصان، علمنا أنه قد أخل بالشكر الذى أخذ عليه، إما أن لا يزكيه، أو يزكيه لغير اهله، أو يؤخره عن وقته، أو يمنع حقاً واجباً عليه، من كسوة عريان، أو إطعام جائع وشبهه،

(*) من إضافات المحقق.

فيدخل في قول النبي ﷺ : « لو صدق السائل ما أفلح من رده »^(١) ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] بترك أدب أو إخلال بحق أو إمام بذنب قال بعضهم : أدنى الشكر : أن لا تعصى الله بنعمة ، فإن جوارحك كلها من نعم الله تعالى عليك ، فلا تعصه بها .

ويحتمل أن يكون معنى الآية : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ إن شئنا ، ألا ترى أنه قال : ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤتيه منها ﴾ [الشورى: ٢٠] وكثير من الخلق يريدون حرث الدنيا ولا يؤتونه ، فيكون التقدير : نؤتيه منها لمن نشاء بدليل قوله في الآية الأخرى : ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ [الإسراء: ١٨] وهكذا قوله تعالى : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ [غافر: ٦٠] . ثم إن كثيراً من الناس يدعون فلا يستجاب لهم ، ولكن معنى الآية : أستجب لكم إن شئت ، ولمن شئت ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ [الأنعام: ٤١] وهذا من باب حمل المطلق على المقيد .

قال الجنيد^(٢) : كنت بين يدي السري^(٣) ، وأنا ابن سبع سنين ، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر ، فقال لي : يا غلام : ما الشكر ؟ فقلت : أن لا يعصى الله تعالى بنعمه ، قال : يوشك أن يكون حظك من الله لسانك ، فلا أزال أبكي على هذه الكلمة .

فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وما يحصل من الأفعال في الوجود يمكن إحصاؤه ؟ قلنا : نعم الله تعالى على وجهين : دفع ، ومنع ، فالدفع يمكن إحصاؤه ، ودفع البلاء نعم لا يمكن إحصاؤها ، وما يدفع الله عنهم مما في مقدوره من ذلك ، وما يدفع الله تعالى عن العبد لا يحصى .

* * *

فصل : في بعض أقوال العلماء والحكماء في الشكر (*)

ثم عدنا إلى أقوال العلماء والحكماء في الشكر .

(١) الحديث موضوع : قال العجلوني في كشف الخفاء : حكم الصنعاني عليه بالوضع وقال ابن عبد الله إسناده ليس بالقوى وسبقه ابن المديني لذلك وأدرجه في خمسة أحاديث قال لا أصل لها ، ونقل عن الإمام أحمد قوله إن الحديث لا أصل له (كشف الخفاء ، العجلوني ج ٢ : ص ١٥٥) .

(٢) الجنيد بن محمد من الزهاد وهو ابن أخت السري وتلميذه وقد سبقت ترجمته .

(٣) السري : هو السري السقطي ، أحد كبار مشايخ الصوفية وخال الجنيد بن محمد الذي قال

فيه (ما رأيت أحدا أعبد من سري السقطي) كان يقول الشعر ، توفي سنة ٢٥٣ هـ (الأعلام ٣ / ٨٢) .

فقال بعض الحكماء: موضعُ الشكرِ من النعمة، موضع القرى من الضيف،
إِنْ وَجَدَهُ لَمْ يَرُمْ، وَإِنْ عَدِمَهُ لَمْ يَقُمْ^(١).

وأجمعت حكماء العرب والعجم على هذه اللفظة: فقالوا: الشكر قيدُ النعم.
وقالوا: الشكر قيدُ الموجود وصيدُ المفقود. وقالوا: مصيبةٌ وجب أجرُها
خيرُ من نعمة لا يؤدَّى شكرُها.

وقال بعض الحكماء: من أعطى أربعاً لم يُمنع أربعاً: من أعطى الشكر لم
يُمنع المزيد، ومن أعطى التوبة لم يُمنع القبول، ومن أعطى الاستخارة لم
يُمنع الخير^(٢)، ومن أعطى المشورة لم يُمنع الصواب.

وكان يقال: إذا رُعيت النعم بالشكر فهي أطواق، وإذا رُعيت بالكفر فهي أغلال.
قال حبيب^(٣):

نَعَمْ إِذَا رُعِيتَ بِشُكْرٍ لَمْ تَزَلْ نَعَمًا، فَإِنْ لَمْ تُرْعَ فَهِيَ مَصَائِبُ

وبعث الحجاج إلى الحسن^(٤)، بعشرين ألف درهم، فقال: الحمد لله الذى ذكرنى.
وقال على بن أبى طالب -رضي الله عنه: لا تكن ممن يعجز عن شكر ما
أوتى، ويبتغى الزيادة فيما بقى، ينهى ولا ينتهى، ويأمر الناس بما لا يأتى.

تحبُّ الصالحين ولا تعملُ بأعمالهم؟ وتبغضُ المسيئين وأنت منهم؟
تكره الموت لكثرة ذنوبك ولا تدعها فى طول حياتك؟

وقال المغيرة بن شعبة: أشكرُ من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنه
لا بقاء للنعمة إذا كُفرت، ولا زوال لها إذا شُكرت، وإن الشكر زيادةٌ من
النعم، وأمان من النقم.

وكان الحسن يقول: ابن آدم: متى تنفكُ من شكر النعم وأنت مرتهن بها،
كلما شكرت نعمةً تجدد لك بالشكر أعظمُ منها عليك، فأنت لا تنفكُ
بالشكر من نعمةٍ إلا إلى ما هو أعظمُ منها.

(*) من إضافات المحقق.

(١) القرى: إكرام الضيف - لم يرم: لم يطلب - لم يقم: لم يبحث عنه.

(٢) الخير من الشئ: الأفضل.

(٣) حبيب بن عيسى العجمي: كان زاهدا عابدا توفى بالبصرة سنة ١١٩ هـ (حلية الأولياء ٦/ ١٥٠).

(٤) الحسن البصري: سبقت ترجمته.

وقال سفيان^(١) : لما جاء البشير إلى يعقوب عليه السلام، قال : على أي دين تركته؟ قال : على دين الإسلام، قال : الحمد لله، الآن تمت النعمة. وروى أن عثمان بن عفان رضى الله عنه، دُعي إلى قوم ليأخذهم على ريبة، فافترقوا قبل أن يبلغهم، فأعتق عثمان رقبةً شكراً لله تعالى، أن لا يكون جرت على يديه فضيحة رجل مسلم.

ويروى أن الحسن بن علي التزم الركن، وقال : إلهي : نَعَمْتَنِي فلم تجدني شاكراً، وابتليتني فلم تجدني صابراً، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر، ولا أنت أدمت النعمة بترك الصبر، إلهي : ما يكون من الكريم إلا الكرم، ولا من الجافي إلا الجفاء.

وقال عون بن عبد الله^(٢) : الخير الذي لا شر فيه : الشكر مع العافية، والصبر عن المصيبة.

وروى : أن نملة قالت لسليمان بن داود عليه السلام : يا نبي الله، أنا على قدرى أشكر لله منك ! وكان راكباً على فرس ذلول^(٣) فخر عنه ساجداً شكراً لله، ثم قال : لولا أنى أبجلك، لسألتك أن تنزع منى ما أعطيتنى.

وقال صدقة بن يسار^(٤) : بينا داود عليه السلام فى محرابه، إذ مرت به دودة، فتفكر فى خلقها وقال : ما يعبأ الله بخلق هذه؟ فأنطقها الله تعالى، فقالت له : يا داود تعجبك نفسك؟ لأننا على قدر ما آتاني الله، أذكر لله واشكر له منك فيما أتاك.

ولمحمود الوراق^(٥) :

إلهي لك الحمد الذي أنت أهله على نعمة ما كنتُ منك لها أهلاً
متى إزددتُ تقصيراً تزدني تفضلاً كأني بالتقصير أستوجب الفضلاً

(١) سفيان الثوري : سبقت ترجمته.

(٢) عون بن عبد الله بن مسعود الهذلي من المحدثين الثقة والعابدين مات سنة ١١٥ هـ، (الأعلام ٩٨ / ٥).

(٣) الفرس الذلول : سهل الإنقياد.

(٤) صدقة بن يسار الجرجسي : سكن مكة، من الرواة الثقات. قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين أنه ثقة قال صدقة : كنت من الخوارج غير أن الله تعالى عافاني، توفي فى أول خلافة العباسيين حوالى سنة ١٣٢ هـ.

(٥) محمود الوراق : شاعر أكثر شعره فى المواعظ والحكم، وقد جمعت أشعاره فى ديوان، مات

سنة ٢٢٥ هـ.

وكان لبعضهم صديق فحبسه السلطان، فأرسل إليه، فقال له صاحبه: أشكر الله تعالى، فضرب الرجل، فكتب إليه: أشكر الله تعالى، فجئ لمحبوس مجوسى مبطون^(١) قيد، فجعل حلقه في رجله وحلقه في رجل المجوسى فكان المجوسى^(٢) يقوم بالليل مرات، ويحتاج هذا إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يفرغ، فكتب إلى صاحبه، فقال: أشكر الله تعالى، فقال: إلى متى تقول؟ وأى بلاء فوق هذا؟ فقال له صاحبه: لو وضع الزنار الذى فى وسطه فى وسطك، كما وضع القيد الذى فى رجله فى رجلك، ماذا كنت تصنع؟

ولبعضهم:

ومن الرزية أن شكرى صامتٌ عمّا فعلتُ وأنَّ بركَ ناطقٌ أأرى الصنعة منك ثم أسرها إننى إذا لندى الكريم لسارقٌ وقال رجل لسهل بن عبد الله^(٣): إن اللص دخل دارى وأخذ متاعى، فقال: أشكر الله تعالى، لو دخل اللص قلبك - وهو الشيطان - فأخذ التوحيد، ماذا كنت تصنع؟

ولما بُشِّرَ إدريس^(٤) عليه السلام بالمغفرة، سأل المغفرة، فقيل له فيه، فقال: لأشكره، فإننى كنت أعمل قبله للمغفرة، فبسط الملك جناحه فرفعه إلى السماء.

ويروى أن نبياً من الأنبياء عليهم السلام، مرَّ بحجر صغير يخرج منه الماء الكثير، فتعجب منه، فأنطقه الله تعالى، فقال: منذ سمعت الله يقول: ﴿وَقُودَهَا النَّاسُ وَالْحَجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] فإننا أبكى من خوفه، فدعا النبى عليه السلام ربّه (أن يُجيرَه من النار) فأوحى الله تعالى إليه (أنى أجرته من النار)، فمر النبى ﷺ، ثم عاد فوجد الحجر يتفجر منه مثل ما كان، فتعجب، فأنطق

(١) المبطون: من أصيب بوجع فى بطنه.

(٢) سقطت (فكان المجوسى) من (ط).

(٣) سهل بن عبد الله: أبو محمد التستري الصوفى الزاهد شيخ العارفين، ومن المتكلمين فى علوم الإخلاص والرياضيات وله كتاب فى تفسير القرآن، مات سنة ٢٨٣ هـ.

(٤) إدريس عليه السلام: أول من أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام، قيل أنه أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثمان سنين (قصص الأنبياء - عبد الوهاب النجار ص ٢٤ وما بعدها).

الله تعالى الحجر فقال له : لم تبكي ؟ فقال : ذلك بكاءُ الحزن والخوف ، وهذا بكاءُ الشكر والسرور .

وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام (أرحم عبادي المُبتلى والمعافى) فقال : إلهي ما بال المعافى ؟ فقال : لقلّة شكرهم على عافيتي إياهم . وبلاء^(١) رجل أعرابياً بلاءً حسناً ، فقال : لا أبلاك الله بلاءً يعجزُ عنه صبرك ، وأنعمَ عليك نعمةً يعجزُ عنها شكرُك .

وأنشد بعضهم :

سأشكر ، لا أتى أجازيك مُنعماً
وأذكر أياماً لدى أصطنعتّها
وأنشدوا :

أوليتني نعماً أبوحُ بشكرها
فلا شكرنك ما حيت وإن أمت
وكفيتني كلّ الأمور بأسرها
فلتشكرنك أعظمي في قبرها
ولبعض الأعراب :

إلهي قد أحسنتَ عوداً وبدأةً
فمن كان ذا عذرٍ لديك وحجةً
إلى فلم ينهضُ باحسانك الشكرُ
فعذري إقرارى بأن ليس لي عذرُ
وكان مطرف^(٢) يقول : إلهي ؛ منك تكونُ النعمة ، وعليك تمامها ، وأنت تُعين على شكرها ، وعليك ثوابها .

وهذا بابٌ عظيمٌ من النعم على العباد ، وقد أثنى الله تعالى علي بعض عباده فقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣] . وقال تعالى : ﴿ شَاكِرًا لِأَنعَمَهُ اجْتَبَاهُ ﴾ [النحل : ١٢١] وكذلك سائر ما أثنى الله تعالى به علي عباده ، ثم قال : ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ [النمل : ٤٠] : ﴿ وَمَنْ تَرَكَّى فَإِنَّمَا يَتْرَكِّي لِنَفْسِهِ ﴾ [فاطر : ١٨] : ﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء : ٧] ليس للرب تعالى فيها لاقيل ولا كثير ، فإنه أجلُّ من أن تناله^(٣) الحظوظ ، وأجلُّ من أن يلحقه ثناء مشن ، أو شكر شاكر ، فأخبر أن العلو والجلال له دونهم ، وأنه يتقدّس عن الناس بثناء مشن ، أو كفر كافر ، قال الله تعالى : ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ ﴾ [إبراهيم : ١٠] فواعجباً أعطى ثم أثنى .

(١) بلا - بيلو - بلاء : الشيء أو الشخص : اختبره .

(٢) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير العامري أبو عبد الله ، زاهد من كبار التابعين ، له كلمات في الحكمة ماثورة ومن رواية الحديث الثقات كانت إقامته ووفاته في البصرة سنة ٨٧ هـ (الأعلام ٧ / ٢٥٠) .

(٣) كذا في (خ) وفي (ط) (ينال الحظوظ) .

وقال عليّ رضي الله عنه : كُفِّرَ النِّعْمَةُ دَاعِيَةُ الْمَقْتِ ، وَمَنْ جَازَاكَ بِالشَّرِّ فَقَدْ
أَعْطَاكَ أَكْثَرَ مِمَّا أَخَذَ مِنْكَ ، وَحَقِيقُ بَمَنْ أَسَدَيْتَ إِلَيْهِ نِعْمَةً ، أَوْ قُضِيَتْ لَهُ حَاجَةٌ
أَنْ يَكَافِيَءَ ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ فَلْيَشْكُرْ ، فَإِنْ شَكَرَهَا فَقَدْ أَدَّى حَقَّهَا .

وقال الشاعر :

فَلَوْ كَانَ يَسْتَغْنِي عَنِ الشُّكْرِ مَا جَدَّ لَرْفَعَةٍ حَالٍ أَوْ عُلُوِّ مَكَانٍ
لَمَّا أَمَرَ الرَّحْمَنُ بِالشُّكْرِ خَلَقَهُ فَقَالَ : اشْكُرُونِي أَيُّهَا الثَّقَلَانِ
وَقَالَ الْبُسْتِيُّ (٢) :

لئن عَجَزْتُ عَنْ شُكْرِ بَرِّكَ قُوَّتِي وَأَقْوَى الْوَرَى عَنْ شُكْرِ بَرِّكَ عَاجِزُ
فِيَّانَ ثَنَائِي وَاعْتِقَادِي وَطَاعَتِي لِأَفْلَاكِ مَا أَوْلَيْتَنِيهِ مَرَاكِزُ

وقال إسحق بن إبراهيم الموصلي (٣) : وَقَفْتُ عَلَيْنَا إِمْرَأَةٌ فَقَالَتْ : يَا قَوْمُ ،
تَغَيَّرَ عَلَيْنَا الدَّهْرُ إِذْ قَلَّ مِنَّا الشُّكْرُ ، وَفَارَقْنَا الْغَنَى ، وَحَالَفْنَا الْفَقْرَ ، فَرَحِمَ اللَّهُ
امْرَأَةً فَهَمَّ بِعَقْلِ ، وَأَعْطَى مِنْ فَضْلِ ، وَوَاسَى مِنْ كِفَافٍ ، وَأَعَانَ عَلَى عِفَافٍ .
وَأَنشَدُوا :

فَلَوْ كَانَ لِلشُّكْرِ شَخْصٌ يَبِينُ إِذَا تَأَمَّلَ النَّظِيرُ
لَمَثَلْتُهُ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ فَتَعْلَمَ أَنِّي أَمْرٌ شَاكِرُ
وَلَكِنَّهُ سَاكِنٌ فِي الضَّمِيرِ يُحَرِّكُهُ الْكَلِمُ السَّائِرُ

وَقِيلَ لِكَسْرِي : مَا الشُّكْرُ ؟ فَقَالَ : الْمَكَافَأَةُ عَلَى قَدْرِ الطَّاعَةِ ، قِيلَ : فَمَا
الْكُفْرُ ؟ قَالَ : تَرْكُ الْجَزَاءِ وَلَوْ بِالثَّنَاءِ ، قِيلَ : وَهَلْ يَكُونُ أَحَدٌ أَبْخَلَ مِمَّنْ يَبْخُلُ
بِالثَّنَاءِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، مِنْ عَادَى عَلَى الصَّنِيعَةِ .

* * *

(١) البُستِيُّ : علي بن محمد بن الحسين البستي أبو الفتح شاعر عصره وكتابه ، ولد في (بست)
قرب سجستان وإليها نسبته كان من كتاب الدولة السامانية في خراسان وارتفعت مكانته عند الأمير
سبكتكين وخدم ابنه السلطان محمود بن سبكتكين ، مات غريباً في بخارى له ديوان شعر مطبوع منه
بعض شعره ومات سنة ٤٠٠ هـ (الأعلام ٤ / ٣٢٦) .

(٢) إسحق بن إبراهيم بن ميمون التميمي الموصلي ، من أشهر ندماء الخلفاء ، كان عالماً باللغة
والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلوم الكلام ، راوياً للشعر حافظاً للأخبار ، ندم الرشيد والمأمون
والواثق العباسيين ولما مات ، نعى إلى المتوكل فقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته ،
وكانت وفاته سنة ٢٣٥ هـ (الأعلام ١ / ٢٩٢) .

الباب الخامس والثلاثون

فى بيان السيرة التى يصلح عليها الأمير والمأمور

ويستريح إليها الرئيس والمرؤوس

مُستخرجة من القرآن العظيم

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٣٨] فأثبت الله تعالى المماثلة بيننا وبين سائر البهائم. ومعلوم أنهم لا يماثلونا فى خَلْقنا وأشكالنا، وسائر ما تدركه العين منهم ومنا، فتبقى المماثلة فى الأخلاق، فلا أحد من الخلق إلا وفيه خُلُقٌ من أخلاق البهائم، ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة: فإذا رأيت من الإنسان خُلُقًا خارجًا عن الاعتدال، فأبصر ما يُماثل ذلك الخلق من خلق سائر الحيوان، فألحقه به، وعامله كما كنت تعامله به، فحينئذ تستريح من منازعتهم ويستريحون منك، وتدوم الصُّحة.

فإذا رأينا الرَّجُلَ الجاهلَ فى خلائقه، الغليظَ فى طباعه، القويَّ فى بدنه، لا يؤمن طُغيانه وإفراطه، فألحقه بعالم النَّمور، والعربُ تقول: (أَجْهَلُ من نمر) وأنت إذا رأيت النمر بعدت عنه ولم تُخاصمه ولا تسابه، فاسلك بالرجل كذلك.

وإذا رأيت الرَّجُلَ الغالبَ على أخلاقه السَّرقة خُفِيَّةً، والنَّقبُ لَيْلًا على وجه الاستسرار، قلنا: هذا يُماثل الجرذ، فدع ملاحظته^(١) ومخاصمته، كما ندع سباب الجرذ إذا أفسد رحلك، ثم أحي رحلك^(٢) بما يصلح له.

وإذا رأيت هَجَامًا على أعراض الناس وتلبهم^(٣)، فقد ماثل عالم الكلاب، فإنَّ دأب الكلب أن يجفو^(٤) من لا يجفوه، ويتدىء بالأذية من لا يؤذيه،

(١) ملاحظته: أى مخاصمته.

(٢) أحي رحلك: الرجل هو مل يحمل على ظهر البعير كالسرج، وأخيه أى أصلحه.

(٣) التلب: الغيبة والسب.

(٤) الجفوة: الغلظة فى المعاشرة وجفا صاحبه: اعرض عنه.

فعامله بما كنت تُعاملُ به الكلبُ إذا أنبحك، أَلستَ تذهبُ في شأنك ولا تخاصمه ولا تسبُّه؟ فافعل بمن يهتضم (١) عرضك مثل ذلك.

وإذا رأيتَ إنسانا قد جُبِلَ على الخلاف، إن قُلتَ : لا، قال : نعم، وإن قُلتَ : نعم، قال : لا، فألحقه بعالم الحمير، فإن دأب الحمار إن أدنيتَه بعد، وإن أبعدته قُرب، وأنتَ تستمتع بالحمار، ولا تسبُّه ولا تفارقه، فاستمتع أيضا بهذا الإنسان ولا تسبُّه ولا تفارقه.

وإذا رأيتَ رجلا يطلبَ عِشْرَاتِ الناسِ وسَقَطَاتِهِمْ، فَمَثَلُهُ في الأَدَمِيِّينَ كَمَثَلِ الذَّبَابِ في عالم الطير، فإنَّ الذَّبَابَ يَقَعُ على الجسد فيتحامى (٢) صحيحه، ويطلب المواضع النَّغْلَةَ (٣) منه.

وإذا بُليتَ بسلطان يهجم على الأموال والأرواح، فألحقه بعالم الأسود، وخذ حذرَكَ منه كما تأخذ حذرَكَ من الأسد، وليس إلا الهربُ منه كما قال النابغة (٤) :
ولا قَرَارَ على زارٍ من الأسود

وإذا بُليتَ بإنسانٍ خبيث، كثير الروغان والمفاخرة، فألحقه بعالم الثعالب.

وإذا بُليتَ بمن يمشى بالنَّمائم ويفرِّقُ بين الأحبة، فألحقه بعالم الظُّرَبَانِ (٥) (وهي دابة صغيرة)، تقول العرب عند تفرق الجماعة : (فسا بينهم ظربانُ فتفرقوا) - وخاصةً هذه الدويبة : إذا حصلت وسط جماعة أن يتفرقوا - وكما أن الجماعة إذا أقبلت نحوهم هذه الدابة، طردوها ومنعوها الدخول بينهم، كذلك ينبغي إخراج النِّمام من بين الجماعة، فإن لم يفعلوا يوشك أن يفرق ما بينهم، ويقسد قلوب بعضهم على بعض.

وإذا رأيتَ إنسانا لا يسمع العلم والحكمة، وينفرُ من مجالس العلماء والحكماء، ويألفُ سماع أخبار أهل الدنيا وسائر الخرافات، وما يجرى في

(١) يظلمه ويكسر حقه.

(٢) يتحامى : يتعد.

(٣) الفاسدة، ويسمى النغل (المتولد من الحصان والأتان) بذلك.

(٤) النابغة الذبياني، الشاعر المعروف وقد سبقت ترجمته.

(٥) الظربان : حيوان من اللواحم في حجم القط، أغبر اللون، مائل إلى السواد، رائحته كريهة

منتنة. يقال (فسا بينهم الظربان : أي تقاطعوا وتفرقوا).

مجالس العوام، فالحقه بعالم الخنافس ^(١)، فإنه يعجبه أكل العذرات، ويألف روائح النجاسات، ولا تراه إلا ملابسا للأخلية والمراحيض، وينفر من روائح المسك والورد، وإذا طُرح عليه المسك والورد مات.

وإذا رأيت إنسانا إنما دأبه حفظ الدنيا، لا يستحي في الوثوب عليها، فالحقه بعالم الأحذية ^(٢)، بأن تنحي رجلك عنه.

وإذا بليت بالرجل تظهر عليه الديانة والسكينة، وقد نصب أشراكه لاقتناص الدنيا، وأكل أموال الودائع والأمانات، والأرامل واليتامى، فالحقه بعالم الذئاب، وهو كما قال فيه القائل:

ذئبٌ تراه مُصَلِّياً	فإذا مـررت به ركع
يدعُو وجلُّ دعائه	ما للفريسة لا تقع
عجل بها يا ذا العُلا	إن الفؤاد قد انصدع

احترز منه كما تحترز من الذئب.

وإذا بليت بصحبة إنسان كذاب، فاعلم أن الإنسان الكذاب كالميت في الحكم، لأنه لا يقبل له خبر كما لا خبر للميت، وكما لا تصحب الموتى لا تصحب الكذاب، وقيل في المثل: (كل شيء شيء وصحبة الكذاب لا شيء) ويجوز أن يلحق بعالم النعام، فإنه يدفن جميع بيضه تحت الرمل ثم يترك واحدة على وجه الرمل، وأخرى تحت طاقة من الرمل، وسائر بيضه في قعر الحفرة، فإذا رآه الغر ^(٣) يأخذ تلك البيضة وينصرف، أو يكشف عن وجه الرمل فيجد الأخرى، فيظن أنه ليس ثم شيء آخر، والخبير بحالة النعام إذا رأى البيضة لا يزال يحفر حتى يصل إلى حاجته، ولا يغتر بتلك البيضة، كذلك الكذاب إذا سمعت منه خبراً لا تصدقه حتى تبلغ الغاية في الكشف عنه. وإذا رأيت الرجل إنما دأبه يصنع نفسه، كما تصنع العروس لبعلها، يبيّض ثيابه ويعدلّ عمامته، ويتقى أن يمسه شيء غيره، وينظر في عطفه ^(٤)

(١) الخنفساء: دويبة سوداء أصغر من الجمل كريهة الرائحة.

(٢) مفردا حداة وهي الطائر الذي يصطاد الجرذات.

(٣) الغر: الجاهل.

(٤) عطفه: جانبه.

ويطرح القذى عن ثوبيه، ليس له همّة بين الجلساء إلا نظره إلى نفسه، وإصلاح ما انثنى من ثيابه، فألحقه في عالم الطواويس الذى هذه صفته، فإنه يتبختر فى مشيته، وينظر إلى نفسه، ويفرش ذنبه فيتخذه الملوك استحسانا له.

وإذا بُليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات، ويُجازى بعد المدة على السقطات، فألحقه بعالم الجمال، والعرب تقول: (فلان أحقد من جمل وتجنب قرب الجمل الحقود)، فاجتنب صحبة الرجل الحقود.

وإذا بُليت بإنسان منافق، يُبطن خلاف ما يُظهر، فألحقه بعالم اليربوع، فإن اليربوع - وهو فأر يكون فى البرية - يتخذ جحراً تحت الأرض، يقال له (النفاق)، وله فوهتان، يدخل من أحدهما ويخرج من الأخرى، ومنه اشتق اسمُ المنافق، فإذا هم أحد بأخذه دخل جحره وخرج من الباب الآخر، فيحفر الصياد خلفه فلا يظفر بشيء، كذلك حال المنافق لا يصحُّ منه شيء.

وعلى هذا النمط كن فى صحبة الناس، تستريحُ منهم وتريحهم منك، فلعمرو الله ما استقامت لى صحبة الناس، وسكنت نفسى واستراحت من مكابدة أخلاقهم، إلا من حيث سرت معهم بهذه السيرة.

وقال الرّياحى^(١): يا بنى رياح: لا تحقروا صغيراً تأخذون عنه، فإنى أخذت من الثعلب روغانه، ومن القرد مكايده، ومن السنور ضرعه^(٢)، ومن الكلب نصرته، ومن ابن آوى حذره، وقد تعلّمت من القمر مشى الليل، ومن الشمس الظهور فى الحين بعد الحين.

* * *

(١) الرّياحى: خالد بن عتاب بن ورقاء الرياحى، شجاع من الأبطال، حارب الخوارج فى جيش الحجاج، فقتل أخا شبيب الخارجى وغزاة الخارجية، فالتحم معه أصحاب شبيب، فانهزم والقى نفسه مع فرسه فى دجلة فغرق، فقال شبيب: قاتله الله، هذا أشد الناس وذلك سنة ٧٧ هـ (الأعلام ٢/ ٢٩٧).

(٢) التضرع: التذلل فى ضعف أو روغان.

الباب السادس والثلاثون

فى بيان الخصلة التى فيها غاية كمال السلطان، وشفاء

الصدر، وراحة القلوب، وطيبة النفوس

اعلم أيها الملك : انه متى كملت فيك الخصال المحموده ، والأخلاق المشكورة ، والسيرة المستقيمة ، وملكت نفسك ، وقهرت هواك ، ووضعت الأشياء مواضعها ، ثم أن الرعية اهتضمت حقك ، وجهلت قدرك ، ولم توفك حظك ، فبلغك منهم ما يسوءك ، ورأيت منهم ما لا يعجبك ، فاعلم أنك لست بإله ، فلا تطمعن أن يصفو لك منهم ما لا يصفو منهم للإله .

وفصل الخطاب فى هذا الباب : أن تعلم أن الله تعالى خلق الخلائق أجمعين ، وأنعم عليهم بأنواع النعم ، فأكمل حواسهم ، وخلق فيهم الشهوات ، ثم أفاض عليهم نعمه ، وكملت لهم اللذات ، وبعد هذا : فما قدروا الله حق قدره ^(١) ولا عظموه حق عظمته ، بل قالوا فيه ما لا يليق به ، ووصفوه بما يستحيل عليه ، وأضافوا إليه ما يتقدس عنه ، وسلبوه ما يجب له من الأسماء الحسنی ، والصفات العلی ، فمنهم من قال : هو ثالث ثلاثة ، ومنهم من قال : له زوجة ، ومنهم من قال : له ابن ، ومنهم من قال : له البنات ، ومنهم من يجسمه ، ومنهم من يشبهه ، ومنهم من أنكره رأساً وقال : ما للخلق صانع ، كما حكاه الخالق عنه ، فقال : ﴿ نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : ٢٤] ، وهو مع ذلك يحييهم ويبقيهم ، ويصح أجسامهم وحواسهم ، ويرزقهم ، وينعشهم ، ويقضى مآربهم وأوطارهم ، ويمتعهم متاعاً حسناً ويبلغهم آمالهم فى معظم ما يحتاجون إليه ، فمعاصيهم إليه صاعدة ، وبركاته عليهم نازلة ، كل يعمل على شاكلته ، وينفق مما عنده ، وكل ذى حال أولى بها .

وفى مناجاة موسى عليه السلام : انه قال : إلهى أسألك أن لا يقال فى ما ليس فى ، فأوحى الله تعالى إليه : ذلك شىء ما فعلته لنفسى ، فكيف أفعله بك ؟ وفى هذه السيرة عبرة لمن اعتبر ، وذكرى لمن اذكر ، مع أنك إن التمسست رضا جميع الناس ، التمسست ما لا يدرك ، وكيف يدرك رضا المختلفين ؟

(١) قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [سورة الأنعام : ٩١] .

فيا أيها الملك الذى كتب الله عليه الفناء، والعمر القصير، والزمان
اليسير، والأيام المعدودة، والأنفاس المحصورة، كيف أردت أن يصفو لك من
الرعية ما لم يصف منهم لخالقهم، ورازقهم، ومحبيهم، ومميتهم؟
هيهات هيهات، بعيد ما أمّلت، ومستحيل ما طلبت، فلك فى الله أسوة
حسنة، إن ترضى منهم بما رضى منهم خالقهم، وتسير فيهم بسيرة ربهم
فيهم، ألم تر كيف أحسن إليك فرضى منك باليسير من العمل، وأكثر لك من
النعم من الأموال والخول^(١)، فانظر كيف يستر زلاتك، ويتغمد سيئاتك، ولا
يفضحك فى خلواتك، ففي هذا ما يمهد النفوس، ويؤدب ذوى العقول،
ويهدى إلى الصواب، ويوضح طرق الرشاد.
ولله در عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لقد كان واعياً لما تلوته عليك،
فإنه روى عنه أنه كتب إلى عمرو بن العاص (كن لرعيّتك كما تحب أن يكون
لك أميرك).

* * *

(١) الخول: جمع خولى: العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية، وهو يستعمل بلفظ واحد للجميع،
وربما قيل للواحد: خائل، وهذا مأخوذ من التخويل أى التمليك، وقيل من الرعاية.

الباب السابع والثلاثون

فى بيان الخصلة التى فيها ملجأ الملوك عند الشدائد،

ومعقل السلاطين عند اضطراب

الأمر وتغيّر الوجوه والأحوال

أيها الملك : إذا اعتلجت الأمور فى صدرك، واضطربت عليك القواعد، ومرجت فى قلبك وجوه الرأى، وتكثرت عليك المعارف، وأكفهر لك وجه الزمان، فلا يغلبنك خصلتان : أترك للناس دينهم ودنياهم، ولك الأمان فى طوارق الحدثان^(١) وما يأتى به الملوك^(٢).

وقد روى أن المأمون قال فى آخر مواقفه مع أخيه الأمين - وقد نفدت بيوت الأموال، وألحت الأجناد فى طلب أرزاق المأمون - : بقيت لأخى خصلة، لو فعلها ملك موضع قدمي هاتين، قيل له : وما هى ؟ فقال : واللّه إنى لأضنّ بها على نفسى، فكيف على غيرى ؟ فلما خلص له الأمر، سئل عن تلك الخصلة ؟ فقال : لو أن الأمين نادى فى جميع بلاده، أنه قد حطّ الخراجات والوظائف السلطانية وسائر الجبايات عشر سنين، لملك الأمر على، ولكن الله غالب على أمره.

ولما خشى المأمون انتقاض بيعته مع أهل خراسان فى أمر فتنته مع أخيه الأمين، استشار الفضل بن سهل^(٣) - وكان وزيره - فقال له الفضل : قد قرأت القرآن وحديث الرسول ﷺ والذى عندي أن تجمع الفقهاء وتدعوهم إلى الحق والعمل به، وإحياء السيرة، وبسط العدل، والقعود على اللبود، وتواصل النظر فى المظالم، وتكرم القواد والملوك وأبناء الملوك، وتعهد

(١) حدثان الدهر : نوائبه، وطوارق الدهر : مصائبه ودواهيّه.

(٢) الملوك : الليل والنهار.

(٣) الفضل بن سهل : وزير الخليفة المأمون، إيراني الأصل، كان مواليا للبرامكة، ومعاديا للفضل ابن الربيع (الذى كان مناصرا للأمين وأبعده المأمون)، ولكن المأمون عاد ونقم على الفضل بن سهل فاغتيل فى الحمام بإيعاز منه ومات سنة ٢٠٤ هـ.

بالمواعيد الكريمة، والمراتب السنية^(١) والولايات المشاكلة^(٢) ففعل ذلك، وخط عن أهل خراسان ربع الخراج، فمالت وجوه الخلائق إليه، وكانوا يقولون: ابن اختنا، وابن عم نبينا عليه السلام، وانقاد إليه رافع بن الليث^(٣)، وكان من عظماء الملوك بخراسان.

ويدخل تحت هذه الترجمة، أمر اتفق عليه حكماء العرب والروم والفرس والهند، وهو: ان تصطنع وجوه كل قبيلة، والمتقدمين من كل عشيرة، وتحسن إلى حملة القرآن والعلم وحفاظ الشريعة، وتدنى مجالسهم، وتقرب الصالحين والمتزهدين، وكل متمسك بعروة الدين، وكذلك فليفعل بالأشراف من كل قبيلة، والرؤساء المتبوعين من كل نمط، فهؤلاء هم أئمة^(٤) الخلق، وبهم يملك من سواهم فممن كمال السياسة والرياسة: أن تبقى على كل ذي رياسة رياسته، وعلى كل ذي عز عزته، وعلى كل ذي منزل منزلته، فحينئذ يكون الرؤساء لك أعواناً، ومن دانت له الفضلاء من كل قبيلة، فأخلق به أن يدوم سلطانه.

والعامة والاتباع دون مقدميهم وساداتهم واتباعهم، أجساد بلا رؤوس، وأشباح بلا أرواح، ولما قامت العامة على السلطان بقرطبة ولبسوا السلاح، كان شيخ جالس على كيره^(٥) يعالج صنعته، فقال: ما بال الناس؟ قالوا: قامت العامة على السلطان، قال: ولهم رأس؟ قالوا: لا، قال: (شق الكير يا صبي)^(٦) فذهبت مثلاً.

* * *

(١) المراتب السنية: العالية الكريمة.

(٢) الولايات المشاكلة وذات الشواكل هي الجانية التي تتشعب منها طرق عديدة.

(٣) رافع بن الليث: هو رافع بن نصر بن سيار، قائد عباسي، خلع طاعة الرشيد في سمرقند سنة ١٨٩ هـ واستولى عليها ثم توجه لقتال الرشيد فانهزم وضعف أمره، ثم استماله المأمون وقتله سنة ١٩٥ هـ.

(٤) أئمة الخلق: أي قادتهم يقال: فلان زمام قومه: أي مقدمهم وصاحب أمرهم.

(٥) الكير: جلد غليظ يستعمله الحداد لإشعال النار ونفخها.

(٦) كناية عن تفرق جمعهم أو كلمتهم.

الباب الثامن والثلاثون

فى بيان الخصال الموجبة لذم الرعية للسلطان

قال حكيم الفرس : ذم الرعية للملك على ثلاثة أوجه :

إما كريمٌ قُصِّرُ به عن قَدْرِهِ ، فأورثه ذلك ضِعْفاً^(١) .

وإما لئيمٌ بُلِّغَ به فوق قدره ، فأورثه ذلك بَطْراً^(٢) .

وإما رجلٌ مَنَعَ حَظَّهُ من الإنصاف .

وفى الأمثال : إحسانك إلى الحرِّ يبعثه على المكافأة ، وإحسانك إلى اللئيم

الخبيس يبعثه على مُعاودة المسألة .

وقيل للإسكندر : إِنَّ فلاناً يَنْتَقِصُكُ وَيَسِيءُ الشَّاءَ عَلَيْكَ ، فقال : أنا أعلم

أنه ليس بشريِّرٍ ، فينبغى أن نعلم هل ناله من ناحيتنا أمراً دعاها إلى ذلك ؟

فبحث عَنْ حاله فوجدها رثّةً ، فأمر له بصلة سنيّة^(٣) ، فبلغه بعد ذلك أنه بسط

لسانه بالثناء عليه ، فقال : أما ترون أن الأمر إلينا أن يُقال فينا خير أو شر !

وينبغى للسلطان : أن لا يتخذ الرعيّة مالاً وقُنيّةً^(٤) ، فيكونوا عليه بلاء

وفتنة ، ولكن يتخذهم أهلاً وإخواناً ، فيكونون جنداً وأعواناً ، وقد سبق

المثل (إصلاح الرعية خير من كثرة الجنود) .

* * *

(١) الضعن : الحقد .

(٢) البَطْرُ : التَّكْبُرُ .

(٣) صلة سنية : مجزية .

(٤) المال : ما ملكته من جميع الأشياء وهو عند أهل البادية يطلق على النعم والمواشى كالإبل والغنم والعبيد من المال . والقنية : ما يُقْتَنى ويُكْتَسَبُ .

الباب التاسع والثلاثون

فى مثل السلطان العادل والجائر

مَثَلُ السلطان العادل مَثَلُ الياقوتة^(١) النَّفيسة الرّفّعة فى وسط العقد، ومثل الرعية مثل سائر الشّذر^(٢)، فلا تلحظ العيون إلا الواسطة، وأول ما يبصر المقلّبون^(٣) وينقد الناقدون الواسطة، وإنّما يُثنى المثنون على الواسطة، وكلّما حسنت الواسطة عمّرت سائر الشذر، فلا يكاد يذكر.

كما قال ابن صعدة: لقيت بالحجاز بين مكة والمدينة، سكيّنة بنت الحسين^(٤) رضى الله عنهما، فسفّرت لى عن وجه ابنتها، وإذا وجهه كأنه قطعة قمر، وقد أثقلتها بالجواهر واليواقيت وأنواع الدرر، فالتفتت إلى وقالت: والله ما علّقت عليها إلا لتفضّحنه.

وكما أن جمال السلك^(٥) أن يلى الواسطة الأفضل فالأفضل من الشذر، وإن كان على خلاف ذلك كان سيّء النّظم، كذلك السلطان: ينبغى أن يكون الأقرب فالأقرب إليه أهل العلم والعقل والأدب والرأى والأصالة والشرف والحصافة^(٦) وذوى الكمال من كل قبيلة، وإن كان على خلاف ذلك كان نقصاً فى التدبير.

(١) الياقوتة: حجر كريم شفاف صلب رزين تختلف ألوانه.

(٢) الشذر: اللؤلؤ الصغير أو قطع الذهب أو الخرز يفصل به من الجواهر فى نظم العقد، وواسطة العقد أغلى وأنفس هذه الجواهر.

(٣) المقلّبون: التجار.

(٤) سكيّنة بنت الحسين بن على رضى الله عنهم، قال ابن كثير: كانت من أجمل النساء. حتى أنه لم يكن فى زمانها أحسن منها وكان يضرب بحسنها المثل وكانت سيّدة فاضلة وشاعرة كريمة تجمع إليها الشعراء فتناقشهم وتفاضل بينهم ولا يرونها (البداية والنهاية [٢١٠ / ٨ ، ٢٥٥ / ٩] والأعلام ١٠٦ / ٣).

(٥) السلك: هو الخيط الذى ينظّم فيه الخرز.

(٦) الحصافة: جودة الرأى والعقل الذى لا خلل فيه.

وكما أن جمال العقد بواسطته، كذلك جمالُ الرعية بكمال سلطانهم
وفضله وبراعته وعدله.

ومثلُ السلطان الجائر: مثلُ الشوكة في الرجل، فصاحبها تحت ألم وقلق،
ويتداعى لها سائر الجسد، ولا يزال صاحبها يروم قلعها، ويستعين بما في
ميسوره من الآلات والمناقيش والإبر على إخراجها، لأنها في غير موضعها
الطبيعي، ويوشك أن تقلع بالأجرة، فأين غرز الياقوت من شوك القتاد^(١) ؟.

* * *

(١) القتاد : شجر صلب له شوك كالإبر.

الباب الموفى أربعين

فيما يجب على الرعية إذا جار السلطان

اعلم أرشدك الله : أن الزمان وعاء لأهله ، ورأس الوعاء أطيب من أسفله ، كما أن رأس الجرة أرقّ وأصفى من أسفلها ، فلئن قلت : إن الملوك اليوم ، ليسوا كمن مضى من الملوك ، فالرعية أيضاً ليسوا كمن مضى من الرعية ، ولست بأن تدم أميرك ، إذا نظرت آثار من مضى منهم ، بأولى من أن يدمك أميرك إذا نظر آثار من مضى من الرعية ، فإذا جار عليك السلطان فعليك الصبر وعليه الوزر^(١).

روى البخارى عن عبادة بن الصامت^(٢) قال : «بايعنا النبي ﷺ فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان»^(٣).

ومنه قال ابن عباس : من كره من أميره شيئا فليصبر عليه ، فإنه من خرج من السلطان شبرا ، مات ميتة جاهلية.

ومنه قال ابن مسعود قال لنا النبي ﷺ : «إنكم سترون بعدى أثره وأمورا تنكرونها ، قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : «أدوا لهم حقوقهم وأسألوا الله حقكم»^(٤).

(وروى) أبو داود فى سننه أن النبي ﷺ قال : «سيأتيكم ركب مبغضون ، يطلبون منكم مالا يجب عليكم ، فإذا سألوا ذلك ، فأعطوهم ولا تسبّوهم ،

(١) الوزر : الحمل الثقيل.

(٢) عبادة بن الصامت بن قيس الخزرجى الأنصارى شهد بدرأ وهو أحد النقباء فى العقبة ، روى عن رسول الله ﷺ الكثير من الأحاديث ومات بالرملة بفلسطين سنة ٣٤ هـ وقيل ببيت المقدس.

(٣) رواه البخارى فى الأحكام والفتن ، ومسلم فى كتاب الإمارة ، وابن ماجة فى الجهاد والإمام أحمد فى مسنده ٣ / ١٢ / ٨١ والحديث صحيح.

(٤) رواه البخارى فى الفتن والمناقب ورواه الإمام مسلم فى الإمارة والترمذى فى الفتن وقال حديث حسن صحيح والإمام أحمد فى مسنده ج ١ / ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٣٣.

ولتدعوا لهم»^(١) وهذا حديث عظيم الموقع في هذا الباب، فندفع إليهم ما طلبوا من الظلم، ولا ننازعهم فيه، ونكف ألسنتنا عن سبهم.

يا عبد الله، لا تجعل سلاحك على من ظلمك الدعاء عليه، ولكن الثقة بالله، فلا محنة فوق محنة إبراهيم عليه السلام، لما جعلوه في كفة المنجنيق^(٢) ليقدف به في النار قال: «اللهم إنك تعلم إيماني بك، وعداوة قومي فيك، فانصرني عليهم، واكفني كيدهم».

وقال مالك بن دينار^(٣): وجدت في بعض الكتب، يقول الله تعالى: «إني أنا الله، ملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، ولكن توبوا إلى الله، أعطفهم عليكم».

وفي بعض الكتب: (ابن آدم؛ تدعو على من ظلمك، ويدعو عليك من ظلمته، فإن شئت أجبناك وأجبننا عليك، وإن شئت أخرت الأمر إلى يوم القيامة، فيسعكم العفو).

وقال سليمان بن داود عليهما السلام: لا تجعل ملجأك في الأعداء المكافأة، ولكن الثقة بالله.

وروى أبو داود في السنن قال: (سُرِقَتْ ملحفة لعائشة رضي الله عنها، فجعلت تدعو على من أخذها، فسمعها النبي ﷺ، فقال: «لا تسبخي عنه»^(٤) يعني: لا تخففي عنه. فنهاها عن الدعاء على الظالم كما ترى.

فإذا قال المظلوم في دعائه: «اللهم لا توفقه» فقد دعا على نفسه، وعلى سائر الرعية، لأنه من قلة توفيقه ظلمك، ولو كان موقفاً ما ظلمك، فإن استجيب دعاؤك فيه، زاد ظلمه لك.

— ومن الألفاظ المروية عن سلف هذه الأمة قولهم: (لو كانت عندنا دعوة مستجابة، ما جعلناها إلا في السلطان).

(١) رواه أبو داود في سننه عن ثابت بن الغصين برقم ١٥٨٨ وبلفظ مشابه. والمقصود بالركب: جامعوا الصدقات والزكاة.

(٢) المنجنيق: آلة حربية يونانية كانوا يرمون بها الحجارة على الأعداء.

(٣) مالك بن دينار البصري: أبو يحيى من رواة الحديث، كان ورعاً يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالأجرة، توفي في البصرة سنة ١٣١ هـ.

(٤) رواه أبو داود في العبادات (باب الدعاء على العصاة برقم ١٤٩٧ عن عائشة رضي الله عنها ورواه الإمام أحمد في مسند ٦ / ٤٥، ١٣٦).

وقال الفضيل^(١): لو ظفرتُ بيتُ المال، لأخذتُ من حلاله، وصنعتُ منه أطيبَ الطعام، ثم دعوتُ الصالحين، وأهل الفضل، من الأخيار والأبرار، فإذا فرغوا قلتُ لهم: تعالوا ندعو ربنا أن يوفقَ ملوكنا، وسائرَ من يلي علينا، وجعلَ إليه أمرنا.

ولما قدم معاوية المدينة، دخل دار عثمان، فقالت عائشة ابنة عثمان: وا أبتاه! فقال معاوية: يا بنت أخى، إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلماً تحت غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا؟ ولأن تكونى ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكونى امرأة من عرض^(٢) المسلمين.

وروي أن رجلاً من العقلاء، غصبه بعض الولاة ضيعة له، فاستعدى عليه إلى المنصور^(٣)، فقال له: أصلحك الله، أأذكر حاجتى أم أضرب لك قبلها مثلاً؟ فقال: بل اضرب لى قبلها مثلاً، قال: أصلحك الله، إن الطفل الصغير، إذا نابه أمر يكرهه، فإنه يفر إلى أمه، إذ لا يعرف غيرها، وظناً منه أنه لا ناصر فوقها، فإذا ترعرع واشتد فأوذى، كان فراره وشكواه إلى أبيه، لعلمه بأن أباه أقوى من أمه على نصرته، فإذا بلغ وصار رجلاً وحزبه^(٤) أمر، شكا إلى الوالى، لعلمه بأنه أقوى من أبيه، فإذا زاد عقله واشتدت شكيمته^(٥)، شكا إلى السلطان، لعلمه بأنه أقوى من سواه، فإن لم ينصفه السلطان، شكا إلى الله عز وجل، وقد نزلت بى نازلة^(٦)، وليس فوقك أحد أقوى منك، فإن أنصفتنى، وإلا رفعت أمرها إلى الله فى الموسم^(٧)، فإنى متوجه إلى بيته وحرمة، إذ ليس فوقك أحد إلا الله تعالى، قال: بل ننصفك، وأمر بأن يكتب إلى واليه يردّ ضيعته إليه.

* * *

(١) هو الفضيل بن عياض العالم العابد وقد سبقت ترجمته.

(٢) عرض المسلمين: عامتهم.

(٣) أى أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى وقد سبقت ترجمته.

(٤) حزبه أمر: أصابه أمر شديد أو أصابه الغم والويل.

(٥) اشتدت شكيمته: أى أصبح أنيفاً ألباً لا ينقاد.

(٦) النازلة: المصيبة الشديدة.

(٧) أى موسم الحج.

الباب الحادى والأربعون فى كما تكونوا يولى عليكم

لم أزل أسمع الناس يقولون: «أعمالكم عمَّالكم، كما تكونوا يولى عليكم»^(١) إلى أن ظفرت بهذا المعنى فى القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وكان يُقال: ما أنكرت من زمانك، فإنما أفسده عليك عملك.

وقال عبد الملك بن مروان: أنصفونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبى بكر، وعمر، ولا تسيروا فينا، ولا فى أنفسكم بسيرتهما؟ نسأل الله أن يعين كلا على كل.

وقال قتادة^(٢): قالت بنو إسرائيل: إلهنا أنت فى السماء ونحن فى الأرض فكيف نعرف رضاك من سخطك؟ فأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائهم: إذا استعملت عليكم خياركم فقد رضيت عنكم، وإذا استعملت عليكم شراركم، فقد سخطت عليكم.

وقال عبدة السلماني^(٣) لعلّى رضى الله عنه: يا أمير المؤمنين: ما بال أبى بكر وعمر إنطاع الناس لهما، والدنيا عليهما أضيق من شبر، فاتسعت عليهما ووليت أنت وعثمان الخلافة، ولم ينطاعوا لكما والدنيا قد اتسعت فصارت عليكما أضيق من شبر؟ فقال: لأن رعية أبى بكر وعمر كانوا مثلى ومثل عثمان، ورعيتى أنا اليوم مثلك وشبهك.

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير على أنه حديث ضعيف وقال رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى إسحاق السبعى مرسلًا، ورواه الديلمى فى «الفردوس» وهو ضعيف (الجامع الصغير للسيوطى ٩٦/٢ رقم ٦٤٠٦).

(٢) هو قتادة بن دعامة بن قنادة، أبو الخطاب السدوسى البصرى مفسرٌ ضرير، قال الإمام أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة وكان مع علمه بالحديث، رأساً فى العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب مات بواسط فى الطاعون سنة ١١٨ هـ.

(٣) عبدة السلماني: عبدة بن عمرو (أبو قيس) السلماني المرادى، تابعى أسلم باليمن أيام فتح مكة، كان عريفاً فى قومه وكان يوازى شريحاً فى القضاء، توفى سنة ٧٢ هـ.

وكتب أخ لمحمد بن يوسف^(١)، يشكو إليه جور العمال، فكتب إليه
محمد بن يوسف: بلغنى كتابك تذكر ما أنتم فيه، وليس ينبغي لمن يعمل
المعصية، أن ينكر العقوبة، وما أرى ما أنتم فيه إلا من شؤم الذنوب،
والسلام.

* * *

(١) محمد بن يوسف الثقفى: أخو الحجاج بن يوسف وكان أمير فى اليمن توفى سنة ٩١ هـ

الباب الثاني والأربعون

فى بيان الخصلة التى تصلح بها الرعية

اعلم: أَنَّ أدْعَى خِصال السلطان إلى إصلاح الرعية، وأقواها أثراً فى تمسُّكهم بأديانهم، وحفظهم لمروءاتهم، إصلاح السلطان نفسه، وتنزهه عن سفاسف الأخلاق، وبعده عن مواضع الريب، وترفيهه نفسه عن استصحاب البطالة، والمجون، واللعب، واللهو، والإعلان بالفسوق.

وقد كانت صحبة محمد الأمين لذلك الرجل الخليع، والماجن الرقيع - أبى نواس الشاعر^(١) - وصمة عظيمة عليه، أو هن بها سلطانه، ووضع^(٢) عند الخاص والعام قدره، وأطلق ألسنة الخلق بالشتيم، والثناء القبيح على نفسه، فخلعه بذلك أخوه المأمون عن الولاية، ووجه طاهر بن الحسين^(٣) لمحاربتة ببغداد، وحاربه حتى قتله، وأنفذ برأسه إلى المأمون، وكان يعمل كتباً تقرأ على المنابر من خراسان، ويقف الرجل فيذم أهل العراق، فيقول: أهل فسوق وخمور وماخور^(٤)، ويعيب الأمين بذلك، فيقول: استصحب أباً نواس، شاعراً ماجناً كافراً، استخلصه معه لشرب الخمور، وإرتكاب المآثم، ونيل المحارم، وهو القائل:

أَلَا فَاسْقِنِي خَمِراً وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِراً إِذَا أَمَكْنَ الْجَهْرُ
وَبِحْ بِاسْمِ مَنْ تَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الْكُنَى فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ

(١) أبو نواس الحسن بن هانى: من كبار شعراء العصر العباسى، شاعر الخمر، قيل أن الرشيد قربه وأن محمد الأمين ابن هارون الرشيد جعله شاعره، اتصل بالبرامكة، عاقر الخمر وأسرف فى اللهو ثم تاب فى آخر حياته ومات سنة ١٩٨ هـ. (الأعلام ٢/ ٢٢٥).

(٢) وَضَعَ: صار وضعياً وحقيقياً.

(٣) طاهر بن الحسين: هو الذى وجهه المأمون لقتال الأمين وتمكّن منه وقتله وأرسل برأسه إلى أخيه المأمون وقد سبق ترجمة كل من الأمين والمأمون أبناء هارون الرشيد، وقد توجه طاهر بن الحسين بعد ذلك إلى خراسان فقضى على ثورة الخوارج ووطد دعائم حكم المأمون ولكنه قطع خطبة المأمون وأسس الدولة الطاهرية فبعث إليه المأمون من يقتله وقد قتل سنة ٢٠٧ هـ. (الأعلام ٣/ ٢٢١).

(٤) الماخور: مجلس الفساق أو بيت الدعارة والفساد.

حتى تغيرت عليه نفوس الخلق، وتنكرت له وجود الوري، فلما بلغ الأمين، حبسه ثم أطلقه، بعد أن أخذ عليه، أن لا يشرب خمراً، ولا يقول فيه شعراً.

همتى أراد السلطان إصلاح رعيته، وهو متماد على سييء أخلاقه، كان كمن أراد. بقاء الجسد مع فقد رأسه، أو أراد استقامة الجسم مع عدم حياته، و كمن أراد تقويم الضلع مع اعوجاج الشخص، وكيف يحيا النون^(١) مع فساد الماء. ولقد أصاب الخليل^(٢) في قوله: إصلاح نفسك لنفسك يكون الناس تبعاً لك. وقديما قيل: من أصلح نفسه أرغم أنف أعدائه، ومن أعمل جدّه بلغ كنه أمانيه. وسئل بعض الحكماء: بم ينتقم الإنسان من عدوه؟ فقال: بإصلاح نفسه. ولأبى الفتح البستي^(٣):

إذا غدا ملكٌ باللهو مُشْتَغِلاً فاحكم على مُلكه بالويل والحرب^(٤)
أما ترى الشمس في الميزان هابطةً لما غدا وهو بُرجُ اللهو والطرب^(٥)
وصحبة الأشرار تورث الشر، كالريح إذا مرت على النتن حملت نتنا، وإذا مرت على الطيب حملت طيباً، كقول الشاعر^(٦):

لا تشرب الرّاح مع من لا خلاق له واختر لنفسك حُرّاً طيب السلف
فالراح كالريح إن مرّت على عطر طابت، وتخبث إن مرّت على الجيف
فمحال استصلاح رعيته وأنت فاسد، وإرشادهم وأنت غاو، وهدايتهم وأنت ضال. وقد سبق المثل: (ومن العجائب أعمش كحال)^(٧) وتقول العرب: يا طبيب طب نفسك).

(١) النون: الحوت وقد لقب يونس عليه السلام بذى النون لأن الحوت ابتلعه ثم رماه على الشاطئ كما هو معروف في قصته عليه السلام.

(٢) الخليل بن أحمد: أشهر علماء اللغة وواضع علم العروض، من اهل البصرة، معلم سيبويه والأصمعي توفي نحو ١٧٠ هـ.

(٣) أبو الفتح البستي: كان شاعر عصره وقد سبقت ترجمته.

(٤) الحرب: الويل والهلاك.

(٥) الميزان: أحد أبراج السماء وهي اثنا عشر برجاً منها الميزان، ويقال: استقام ميزان النهار أي انتصف.

(٦) سقطت هذه الأبيات من (ط).

(٧) الأعمش: من ضعف بصره مع سيلان دمه في أكثر الأوقات.

وكيف يقدر الأعمى على أن يهدي، والفقير على أن يُغني، والدليل على أن يُعزَّز؟

فبعدك عن تطهير غيرك من العيوب قبل تطهير نفسك، كبعد الطبيب عن إبراء غيره من داءٍ به مثله.

وقال بعض حكماء الهند: لن يبلغ ألف رجل في إصلاح رجل واحد، بحسن القول دون حسن الفعل، كما يبلغ رجل واحد في إصلاح ألف رجل بحسن الفعل دون القول، وفيه قال القائل (١):

يا أيها الرجل المَعْلَمُ غيره	هلاً لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء من السَّقام لذي الضَّنَى	كيما يصحَّ به وأنت سقيم
ما زلت تُلقِحُ بالرَّشاد عقولنا	عظةً وأنت من الرَّشاد عديم
ابدأ بنفسك فانْهَها عن غيِّها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُقْبَلُ ما تقولُ ويقتدى	بالرأى منك وينفعُ التعليم
لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتى مثله	عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

ولكن أقوى الأسباب في صلاحهم، عند فوت صلاحه، استعماله عليهم الخاصة منهم، وذوى الأحلام (٢) والمروآت القائمة والأذيال الطاهرة، فمتى رأس العامة سراتهم، فهو الطريق إلى حفظ أديانهم، ومروآتهم، وتماسكهم عن الانهماك في المحظورات، وملابسة المحرمات، وقال الشاعر:

تُهدي الأمور بأهل الرأي ما صلحوا	فإن تَوَلَّوا فبالأشرار تنقاد (٣)
لا تصلح الناس فوضى لا سُراة لهم	ولا سُراة إذا جُهلهم سادوا (٤)

(١) قائل هذه الأبيات هو أبو الأسود الدؤلي، ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي، واضع علم النحو العربي، ويعد من الفقهاء والشعراء والأمرء والأعيان وهو من التابعين ومن أنصار علي بن أبي طالب شهد معه صفين وتوفي في البصرة سنة ٦٩ هـ.

(٢) في (خ) ذوى الأحلام الراجعة.

(٣) سقط هذا البيت من (ط).

(٤) قائل هذا البيت: هو الأفوه الأودى (صلاة بن عمرو بن مالك) الشاعر اليماني الجاهلي، سيد قومه وقائدهم في حروبهم، ومن حكماء الجاهلية المشهورين في عصره توفي نحو سنة ٥٧٠ م قبل الهجرة. ومعنى السراة: السادة والقادة.

وقال مردك الفارسي^(١): خلّتان في السلطان أقرب إلى صلاح الرعية مما سواهما: ثقة الرأي، وشدة الرحمة.

وما أحقَّ السلطان أن يسلك بالرعية كلّ سبيل يصلحون عليه، ويسودون معه، فحينئذ يكون رئيس الرؤساء، وأميراً على السادة والفضلاء، وإن أدملهم ورُكوب شهواتهم وتوسّط لذّاتهم، ذهبت أديانهم، وسقطت مروّاتهم، وبقوا - كما جاء المثل - في الجماعة المذمومة، تقول العرب في انقوم لا رؤساء فيهم ولا سروات بينهم: (هم سواسية كأسنان الحمار)، ورتقول: (سواسية كأسنان المشط) وفيهم يقول الشاعر:

سواس كأسنان الحمار فلا ترى لذي شعبةٍ منهم على ناشيءٍ فضلاً
ولأن يكون أميراً على الفضلاء والرؤساء خير من أن يكون أميراً على
الآخساء والرمادية^(٢) والغوغاء^(٣) والأدنياء^(٤).

وقد قال عبد الملك بن مروان يوماً، وقد استقام له الأمر: من يعذرني من عبد الله بن عمر؟ فإنه أبى أن يدخل في سلطاني، فقال بعض جلسائه: تستحضره وتضرب عنقه، وتستريح منه، فقال عيد الملك: ويلك، إذا قتلت ابن عمر، على من أكون أميراً؟ ولما صار داود^(٥) إلى الحجاز في الدولة العباسية ليقتل من هناك من بني

(١) مردك أو مزدك الفارسي: صاحب مذهب عند الفرس ظهر على أيام الكسرى قباد بن فيروز والد كسرى أنوشروان، ومن مبادئه التي نادى بها: أن الله تعالى جعل الأرض للعباد بالسوية ونحن قاسمون بين الناس ورادّون على الفقراء حقوقهم في أموال الأغنياء، فجعل أتباعه يدخلون على الرجل فيغلبونه في منزله ونسائه وأمواله، ولكن قام عليه جماعة الملك قباد وقتلوه وأعادوا الحكم إلى قباد (انظر: المعارف لابن قتيبة ص ٦٦٣).

(٢) هذه صفات السفلة من الناس والآخساء منهم الرمادية من الرماد والرماد الهلاك أو ما يتبقى من المواد المحترقة بعد احتراقها، والرمد من الثياب الوسخ ومنها عام الرمادة الذي هلك فيه الناس من الجوع حيث يقال أيضاً: أرمد الرجل: أي افتقر.

(٣) الغوغاء: السفلة من الناس والمتسرعين في الشر، وتستعمل كلمة الغوغاء للجلبية واللغة.

(٤) والدنيء: الذليل الخسيس الناقص.

(٥) داود بن علي بن عبد الله بن العباس: أبو سليمان، عم أبو العباس السفّاح، كان خطيباً فصيحاً ومن كبار الثائرين على بني أمية، تولى إدارة الكوفة لما ظهر العباسيون ثم ولاه إمارة المدينة فكان أول من ولي المدينة من بني العباس وأول من أقام الحج للناس في ولاية العباسيين ومات بالمدينة سنة ١٣٣ هـ. (الأعلام ٢/ ٣٣٣).

أمية، قال له عبد الله بن الحسن^(١) : يا ابن عم : إذا أسرعت في قتل أكفائك ،
فمن تباهى بسلطانك ؟ أعف يعف الله عنك ، فعفا .

وقال أرسطاطاليس للإسكندر^(٢) : استصلح الرعية ، وأذهب شرهم ، تكن
رئيساً لأخيار ممدوحين ، ولا تكن رئيساً لأشرار مذمومين ، فتكون كراعى البقر .

* * *

(١) عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب ، تابعى من أهل المدينة كان ذا هيبة
ولسان وشرف وكانت له منزلة عند عمر بن عبد العزيز ، حبسه المنصور عدة سنوات من أجل ابنية
محمد وإبراهيم ونقله إلى الكوفة فمات سجيناً فيها سنة ١٤٥ هـ . (الأعلام ٧٨ / ٤) .

(٢) سبق تعريفهما والمعروف أن أرسطو هو معلم الإسكندر .

الباب الثالث والأربعون

فيما يملك السلطان من الرعية

كتب أرسطاطاليس إلى الإسكندر: أملك الرعية بالإحسان تظفر منهم بالمحبة، فإن طلب ذلك منهم بالإحسان هو أدوم بقاء منهم بالاعتساف^(١)، وأعلم: إنك إنما تملك الأبدان، فتخطأها إلى القلوب بالمعروف.

واعلم: أنه إذا عدل السلطان ملك قلوب الرعية، وإذا جار لم يملك منهم إلا الرياء والتصنع.

وفى سير المتقدمين: قلوب الرعية خزائن ملوكها، فما أودعوها من شيء فليعلموا أنه فيها.

واعلم: أن الرعية إذا قدرت على أن تقول، قدرت على أن تفعل، فاجتهد أن لا تقول تسلم من أن تفعل.

وليس هذا، خلاف ما زوى عن معاوية: أن رجلاً أغلظ له فحلم عليه، فقليل له: أتحم على مثل هذا؟ فقال: إني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا، وذلك أن تفسير قوله: (فاجتهد أن لا تقول) يعنى: إذا عدلت لم يتكلموا بشيء.

وهذه السيرة أحسن من سيرة اردشير، لما رفع إليه أن جماعة من بطانته قد فسدت نيّاتهم، فوقع: نحن معاشر الملوك، إنما نملك الأجساد لا النيات، ونحكم بالعدل لا بالرضا، ونفحص عن الأعمال لا عن السرائر.

قلت: وإنما تحسن هذه السيرة لمن عجز عن الأولى، لأن ملك الأجساد قد يكون بالعدل والظلم، وملك القلوب لا يكون إلا بالعدل، وأين هذا من قوله -وقد رفع إليه-: إنك ركبت أمس في عدة قليلة، وتلك حالة لا يؤمن اغتيال الأعداء فيها، فوقع: من عم إحسانه أمن أعداءه.

وما أحسن ما قال عبد الملك بن مروان: يا أهل الشام: إنما أنا لكم كالظلم^(٢) الرائح على فراخه، ينقي عنهم القذر، ويباعد عنهم الحجر،

(١) التعسف والاعتساف: أخذ الأمر بالقوة من غير تدبير، وتأتى بمعنى: الظلم والجور.

(٢) الظلم: الذكر من النعام، وتجمع ظلمان، وظلمان، وأظلمة.

ويكنُّهم^(١) من المطر، ويحميهم من الضباب، ويحرسهم من الذئاب، يا أهل الشام: أنتم الجبة^(٢) والرداء، وأنتم العدة والجداء^(٣).

وقال العجم: أسوس^(٤) الملوك: من قاد رعيته إلى طاعت بقلوبها، ولا ينبغي للوالي أن يرغب في الكرامة، التي ينالها من العامة كُرْها، ولكن في التي يستحقها بحسن الأثر، وصواب التدبير.

وقال عمر بن عبد العزيز: إني لأُجمع أن أخرج للمسلمين أمرا من العدل، فأخاف أن لا تحمله قلوبهم، فأخرج معه طمعا من طمع الدنيا، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا.

وقال معاوية لزياد^(٥): من أسوس الناس؟ أنا أم أنت؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ما جعل الله رجلاً حفظ الناس بسيفه^(٦) كمن أسمع الناس وأطاعوا له باللين.

ويروى أن سليماً^(٧) مولى زياد، فخر بزياد عند معاوية، فقال معاوية: اسكت، فما أدرك صاحبك بسيفه، أدركت أكثر منه بلساني.

* * *

(١) أى يحميهم ويسترهم، الكنة: ستر الشئ ووقاؤه.

(٢) الجبة: ثوب واسع يلبس فوق الثياب، أو الدرع.

(٣) الجداء: النفع والعطية، يقال: فلان قليل الجداء عنك، أى لا يغنى عنك والأجدى: الأنفع.

(٤) أسوس الملوك: أى أقدرهم على فن الحكم وإدارة أعمال الدولة داخليا وخارجيا.

(٥) معاوية: أى معاوية بن أبى سفيان الخليفة الأموى. زياد: أى زياد بن أبية الذى ألحقه بنسبه

فسمى زياد بن أبى سفيان وقد سبقت ترجمتها.

(٦) حفظ الناس بسيفه: أطاعوه بالقوة.

(٧) سليم: مولى زياد بن أبية.

الباب الرابع والأربعون

فى التحذير من صحبة السلطان

اتفقت حكماء العرب والعجم ووصاياهم على النهي عن صحبة السلطان .
قال فى كتاب كيلة ودمنة ^(١) : ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل : صحبة
السلطان ، وائتمان النساء على الأسرار ، وشرب السم على التجربة .
وكان يقال : قد خاطر بنفسه من ركب البحر ، وأعظم منه خطراً صحبة
السلطان .

وقال مردك ^(٢) : أحق الأمور بالتثبت فيها أمر السلطان ، فإنه من صحب
السلطان بغير عقل ، فقد لبس شعار الغرور .

وفى حكم الهند أيضاً : صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة
عظيمة الخطر ، وإنما تُشبهُ بالجبل الوعر ، فيها الثمار الطيبة ، والسباع
العادية ، والشعابين المهلكة ، فالارتقاء إليه شديد ، والمقام فيه أشد .

وليس يتكافأ خير السلطان وشره ، لأن خير السلطان لا يعدو مزيد الحال
وشر السلطان قد يزيل الحال ، ويتلف النفس التى لها طلب المزيد ، ولا خير
فى الشئ الذى فى سلامته مال وجاه ، وفى نكبته الجائحة والتلف . ولهذا لما
قيل للعتابى ^(٣) : لم لا تصحب السلطان على ما فىك من الأدب ؟ قال : إنى
رأيتُه يُعطي عشرة آلاف فى غير شئ ، ويردى من الصُّور ^(٤) فى غير شئ ، ولا
أدرى أى الرجلين أكون .

(١) كيلة ودمنة : كتاب فى تهذيب النفس والإرشاد إلى حسن السياسة ، جعلوه على السنة
الحيوانات ، نقله عبد الله بن المقفع من البهلوية إلى العربية .

(٢) مردك الفارسى أو مزدك : سبقت ترجمته .

(٣) العتابى : هو كلثوم بن عمرو التغلبى ، شاعر بليغ ، مدح الملوك والخلفاء والأمراء والبرامكة
مات سنة ٢٢٠ هـ .

(٤) الصُّور : صفحة العنق جمعها صيوان والصور جمعها أصور : المجتمع من صغار النخل . أو
الصُّور : الوجه والأشكال .

وأخبرني أبو العباس الحجازي، وكان ممن دَوَّخَ أرض الهند والصين، وانتهى إلى صين الصين، إلى جبل الياقوت بالهند، وأن فيه ثعابين ليس في معمر الأرض أعظم منها، فإنَّ الواحد منها ليلُغُ (١) الثور صحيحاً، فلا يصل أحد إلى ذلك الجبل ولا يقربه، فإذا كثرت الأمطار، أحدثت السيول منه الحصى، وسائر ما فيه من المنافع إلى مستقر المياه، على مسير أيام من الجبل، فيبحث الناس ذلك الحصى، فيوجد فيه الواحدة بعد الواحدة، من أحجار الياقوت.

وقال معاوية لرجل من قريش: إياك والسلطان، فإنه يغضب غضب الصبي، ويرضى رضا الصبي، ويبطش بطش الأسد.

وقال المأمون: لو كنت رجلاً من العامة، ما صحبت السلطان.

وقال الأحنف بن قيس: ثلاثة لا أقولهن إلا ليعتبر بهن: لا أخلف نيلسي إلا بما أحضره به، ولا أدخل في أمر لا أدخل فيه، ولا آتي السلطان إلا أن يرسل إلي. وقال ابن المقفع لابنه: إن وجدت من السلطان وصحبته غنى، فاغن عنه نفسك، واعتزله جهدك، فإنه من يأخذه السلطان بحقه يحل بينه وبين لذة الدنيا، ومن لا يأخذه بحقه يكسبه الفضيحة في الدنيا، والوزر في الآخرة.

وقال ميمون بن مهران (٢): قال لي عمر بن عبد العزيز: يا ميمون: أحفظ عني أربعاً: لا تصحب سلطاناً وإن أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر، ولا تخلون بامرأة وإن قرأتها القرآن، ولا تصل من قطع رحمه فإنه لك أقطع، ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غداً.

وفي منشور الحكم: كثرة الأشغال مذهلة عن وجود اللذات بكهها.

وكم قد رأينا وبلغنا، ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه، ففسد هو به، فكان كما قال الأول:

عَدَوِي الْبَلِيدِ إِلَى الْجَلِيدِ سَرِيعَةٌ وَالْجَمْرُ يَوْضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخْمَدُ (٣)

(١) في (خ) لبيتلغ الثور صحيحاً.

(٢) ميمون بن مهران الرقي: فقيه وقاضى استعمله عمر بن عبد العزيز على خراج الرقة وقضائها وكان في مقدمة المجاهدين توفي سنة ١٠٨ هـ.

(٣) الجليد: ضد البليد وهو ذو القوة والصبر.

ومثل من يصحب السلطان ليصلحه ، مثل من ذهب ليقيم حائطاً مائلاً ،
فاعتمد عليه ليقيمه ، فخرَّ الحائطُ عليه فأهلكه .

وفى كتاب كليله ودمنة : لا يسعد من ابتلي بصحبة الملوك ، فإنه لا عهد
لهم ولا وفاء ، ولا قريب ولا حميم ، ولا يُكرم عليهم أحدٌ إلا أن يطمعوا فيما
عنده فيقربوه عند ذلك ، فإذا قضوا حاجتهم تركوه ، ولا ودَّ ولا إخاء ، إلا البلاء
يجزى ، والذنب لا يغفر له .

وقال بزرجمهر : لا تصلح صحبة السلطان إلا بالطاعة والبذل ، ولا مؤاخاة
الإخوان إلا باللين والمواساة .

وقال بعض حكماء الفرس : المال والسلطان مفسدان لكل واحد ، إلا لرجل
له عقلٌ كامل .

وقالت الحكماء : صاحبُ السلطان كراكب الأسد ، يخافه الناس وهو
لمركبه أخوف .

وقالوا : من لزم باب السلطان بصبر جميل ، وكظم الغيظ ، واطَّراح
الأذى^(١) ، وصل إلى حاجته ، كالكرم^(٢) لا يتعلق بأكرم الشجر لكن بأدناها .

وكانت العرب تقول : إن لم تكن من قُرباء الملك ، فكن من بُعْدائه .

وفى حكم الهند : إنما مثل السلطان فى قلة وفائه مع أصحابه ، وسخاء نفسه
عمن فقده منهم : كمثل الصبى والمُكْتَب^(٣) ، كلما ذهب واحد جاء آخر .

والعرب تقول : (السلطان ذو غَدَوَات ، وذو بَدَوَات ، وذو تَدَارُؤ^(٤)) وتريد
أنه : سريع الإنصراف ، كثير البدوات ، هجَّام على الأمور ، وأصله من الدرء
وهو : الدفع .

* * *

(١) اطراح الأذى : أى ابعاده ورميه وقذفه .

(٢) الكرم : العنب .

(٣) المكتَّب : معلم الكتابة .

(٤) فى (خ) العرب تقول : (السلطان ذو عُدَوَان وذو بُدَوَان) أى : يعدو على الناس ويجور
عليهم ، ويقال : «أبدى فى كلامه» أى جار ويقال : هو ذو تدارؤ : أى دفع أو هو (ذو تدره) : إذا كان
هجاماً على أعدائه من حيث لا يشعرون .

تعليق على الباب الرابع والأربعين؛

لى تعليق على هذا الباب، أو على ما أورده الشيخ الطرطوشي فى هذا الباب، من أحكام مستمدة من كتب الهند مثل كليله ودمنة أو أقوال حكماء الفرس ووزرائهم أو حتى أقوال العرب... حيث أصدرُوا حُكماً عاماً بالقسوة والظلم وعدم الوفاء والغدر على جميع الملوك والسلطين، فلم يستثنوا أحداً، مع أن الواقع يخالف هذه الأقوال ويناقض تلك الآراء والأحكام، فكم من ملك أو سلطان تمتع ناصحوه ومرشدوه وأعوانه وجلساؤه بكل الرعاية والتقدير ولم يتعرض أحد منهم لمثل ما ذكره الكاتب حتى غادروا الدنيا وهم على ذلك.

ثم إن أخذ الأمر على عموميه قد يفهم البعض منه تعطيل شعائر عدة من شعائر الإسلام:

منها: التنفير من قبول منصب الولاية والإمارة، مع أنه منصب واجب، وقد أفرد ابن تيمية -رحمه الله- فصلاً فى كتابه «السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية» سماه وجوب اتخاذ الإمارة -ص ١٦٩-، ومما قاله: «يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها...»، ومما قاله أيضاً -ص ٢٩-: «إن الراعى إذا اجتهد فى إصلاح رعيته، كان من أفضل أهل زمانه بل من أفضل المجاهدين فى سبيل الله، فقد روى: «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة» والتجربة تبين ذلك، بل اعتبر رسول الله ﷺ الإمام العادل أول السبعة الذين يظلمهم فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، كما روى ذلك فى الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه.

ومنها أيضاً: تعطيل واجب المشورة للسلطان، حيث لا غنى لولي الأمر عن المشاورة، فإن الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ بقوله سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ﴾ كما أثنى على المؤمنين الذين يمارسون هذا الواجب بقوله: ﴿... وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

ومنها أيضاً: تعطيل شعيرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإذا لم يتصدى العلماء وجلساء الملوك والسلطين لوعظهم وإرشادهم وتنبيههم إلى طريق الحق والصواب، فمن يقوم بهذه المهمة إذا؟! وأين العمل بأحاديث رسول الله ﷺ التى تأمر بمناصحة ولاة الأمر، وأذكر منها: قول النبي ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثة: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولأه الله أمركم» [رواه مسلم]، وقوله: «ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، لأن دعوتهم تحيط من ورائهم» [رواه أهل السنن]، وفى الصحيح عنه أنه قال: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة» قالوا لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وبمقابل هذا، توجد أحاديث كثيرة أفرد لها العلماء أبواباً خاصة، فالإمام مسلم مثلاً جمع فى صحيحه أحاديث (كتاب الإمارة) وصنّفها فى أبواب منها: (باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها) (وباب كراهة الإمارة بغير ضرورة) و(باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر) وغيرها. ولكننا لم نجد باباً أو حديثاً ينفر أو يحذر من صحبة السلطان أو خدمته أو الدخول عليه ونصيحته. والله أعلم.

الباب الخامس والأربعون

فى صحبة السلطان

قال ابن عباس : قال لى أبى : يا بُنى إئنّى أرى أمير المؤمنين يستخليك^(١) ، ويستشيرك ، ويقدمك على الأكابر ، من أصحاب محمد ﷺ ، وإنّى أوصيك بخلال ثلاث : لا تُفْشِينَ له سرّاً ، ولا يُجْرِينَ عليك كذباً ، ولا تغتابنّ عنده أحداً . قال الشّعبي : قلت لابن عباس : كل واحدة منهن خير من ألف ، قال : إي والله ، ومن عشرة آلاف .

وقالوا : صحبة السلطان بالحدز ، والصدق بالتواضع ، والعدو بالجهر ، والعامّة بالبشر ، ولا تحكم لأحد بحسن رأي الملك إلا بحسن أثره . قال بعض الحكماء : لا تستطلع السلطان ما كتمك ، ولا تفش ما أطلعك عليه . من أدل^(٢) على السلطان استثقله ، ومن امتنّ عليه عاداه ومن اظهر أنه يستشير به باعده .

وقال بعض الحكماء : إذا زادك السلطان تأنيساً فزده إجلالاً ، وإذا جعلك السلطان أخاً فاجعله أباً ، وإن زادك إحساناً فزده فعل العبد مع سيده ، وإن ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس ، فأخذوا فى الثناء عليه ، فعليك بالدعاء له ، وإن نزلت منه منزلة الثقة فاعزل عنه كلام الملق^(٣) ، ولا تكثر فى الدعاء له عند كل كلمة ، فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة^(٤) ، إلا أن تكلمه على رؤوس الناس ، فلا تألُ بما عظّمته وذكرته .

وقال ابن المقفع : لتكن حاجتك فى سلطانك ثلاثَ خلال : رضا ربك ، ورضا سلطانك ، ورضا من تلى عليه ، ولا عليك أن تلهو عن المال والذخ^(٥) ، فسيأتيك منهما ما يَكْفى ويطيّب .

(١) يستخليك : يجتمع معك على إنفراد وخلوة .

(٢) أدل على السلطان : اجتراً عليه ، وثق بمحبته فأفرط عليه ، يقال أدل فأمّل أى أفرط فى دلاله فأضجر .

(٣) الملق : الرياء والنفاق .

(٤) الوحشة : الخوف وانقباض القلب من الخلوة . الغربة : البعد وعدم الألفة .

(٥) الذخر : ما يُخْبَأُ لوقت الحاجة .

وقال مسلم بن عمرو^(١) لمن خدم السلطان : لا تغتر بالسلطان إذا أدناك ،
ولا تتغير إذا أقصاك.

وروى أن بعض الملوك استصحب حكيماً ، فقال له : أصحبك على ثلاث
خلال قال : وما هن ؟ قال : لا تهتك لى سترأ^(٢) ، ولا تشتم لى عرضاً ، ولا تقبل
فى قول قائل حتى تستشيرنى ، قال : هذا لك ، فما لى عندك ؟ قال : لا أفشى
لك سراً ، ولا أدخر عنك نصيحة ، ولا أوتر عليك أحداً قال : نعم الصاحب
المستصحب^(٣) أنت.

وقيل لعبد الله بن جعفر^(٤) : ما الخرق^(٥) ؟ قال الدالة^(٦) على السلطان ،
والوثبة قبل الإمكان.

وقال ابن المقفع : أولى الناس بالهلكة الفاحشة ، المقدم على السلطان بالدالة .
وقال يحيى بن خالد^(٧) الدالة تفسد الحرمة القديمة ، وتضر بالمحبة
المتأكدة.

وقال بزرجمهر : إذا خدمت ملكاً من الملوك ، فلا تطعه فى معصية خالك ،
فإن إحسانه إليك فوق إحسان الملك ، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه . اصحب
الملوك بالهيبة لهم والوقار ، لأنهم إنما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة ، فلا
تترك الهيبة وإن طال أنسك بهم ، فهو حسبهم منك ، لا تعط السلطان
مجهودك فى أول صحبتك له ، فلا تجد بعد للمزيد موضعاً ، ولكن دع للمزيد
موضعاً . علم السلطان وكأنك تتعلم منه ، وأشر عليه وكأنك تستشيرهُ ، إذا
أحكلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك ويشق بك ، فإياك والدخول بينه
وبين بطانته ، فإنك لا تدري متى يتغير لك ، فيكون عوناً عليك ، إياك أن
تعادي من إذا شاء يطرح ثيابه ، ويدخل مع الملك فى ثيابه.

(١) مسلم بن عمرو : الباهلى كان يتقلد البصرة مع عبيد الله بن زياد توفى سنة ٧١ هـ .

(٢) هتك ستره : فضحه وأصلها : أن يشق جزءاً من الستر فيبدو ما وراءه .

(٣) الصاحب المستصحب : الملازم المعاصر .

(٤) عبد الله بن جعفر بن ابي طالب : سبقت ترجمته .

(٥) الخرق : الحمق .

(٦) الدالة على السلطان : الجرأة يقال : له عليه دالة أى جرأة يسبب وجاهة عنده .

(٧) هو يحيى بن خالد البرمكى ، مؤدب ومعلم هارون الرشيد سبقت ترجمته .

وفى الأمثال القديمة : إْحْذِرْ زَمَارَةَ الْمَخْدَةِ^(١) ، وفيه قيل :
 ليس الشفيعُ الذى يَأْتِيكَ مُؤْتَرِّراً مثلَ الشفيعِ الذى يَأْتِيكَ عُريَّانَا
 وفى الأمثال : لا تَدَلَّ فَتُمَلَّ^(٢) ، ولا تُوجِفْ فَتَعَجَفَ^(٣) .
 وقال الرشيد ، لإسماعيل بن صبيح^(٤) : إِيَّاكَ وَالِدَّةٌ ، فَإِنَّهَا تُفْسِدُ الْحَرَمَةَ .
 وقال سليمان بن داود عليهما السلام : لا تَغْشِ السُّلْطَانَ ، ولا تَقْعُدْ عَنْهُ^(٥) .
 وقال الحكماء : شِدَّةُ الانْقِبَاضِ عَنِ السُّلْطَانِ تَوْرَثُ التَّهْمَةَ ، وشِدَّةُ الانْبِساطِ
 تَفْتَحُ بَابَ الْمَلَالَةِ . واعلم أن من طلب العز بلا ذل ، كانت ثمرة سعيه الذل .
 أحرز منزلتك عند السلطان بمثل ما اكتسبتها من الجِدِّ والمناصحة ، واحذر
 أن يحطَّكَ التَّهَانُ^(٦) عما رَقَّكَ^(٧) إِلَيْهِ التَّحْفِظُ^(٨) .
 إِنْ أَشْقَى النَّاسَ بِالسُّلْطَانِ صَاحِبُهُ ، كما أن أَقْرَبَ الْأَشْيَاءِ إِلَى النَّارِ أَسْرَعُهَا
 احْتِرَاقًا .

من لزم باب السلطان بصبر جميل ، وكظم الغيظ ، واطَّراح الأذى ، وصل
 إِلَى حاجته .
 وقال الأحنف بن قيس : لا تَنْقَبِضُوا عَنِ السُّلْطَانِ وَلَا تَهَالِكُوا عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ مِنْ
 أَشْرَفِ^(٩) عَلَى السُّلْطَانِ أَرْدَاهُ^(١٠) ، ومن تَضَرَّعَ لَهُ تَخَطَّاهُ^(١١) .

(١) أي : احذر ما تزينه لك الأحلام . تأتي الزمارة بمعنى «الإغراء» زَمَرَ بِالشَّيْءِ : أَى أَغْرَاهُ . وتأتى
 بمعنى الزانية .

(٢) لا تفرط فى الدلال فتُضْجِرْ وتُملَّ ، يُقال (أَدَلَّ فَأَمَلَّ) .

(٣) وجف الشيء : اضطرب (قلوب يومئذ واجفة) أى شديدة الإضطراب ، والإيجاف : سرعة السير
 منها قوله تعالى : ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أى ما أعلمتم وما أجريتم . ومعنى تعجف :
 أى تحبس وتمنع عما تشتهيه . يقال : (أَوْجَفْ فَأَعْجَفْ) .

(٤) إسماعيل بن صبيح كان من جلساء هارون الرشيد وعمل كاتباً عند الفضل بن الربيع وزير
 الرشيد وكان ممن حضر وفاة الرشيد ثم وُزِّرَ لِلْأَمِينِ مِنْ بَعْدِهِ .

(٥) أى لا تكثر التردد عليه ، ولا تقعد عنه : أى لا تتأخر عن تلبية حاجته .

(٦) يحطَّكَ التهانون : أى يحطَّ التهانون من قدرك .

(٧) رَقَّكَ : رفع مكانتك وصعد بقدرتك .

(٨) التحفظ : التيقظ وقلة الغفلة .

(٩) أشرف عليه : تعالى عليه .

(١٠) أَرْدَاهُ : اهلكه .

(١١) تخطاه : تجاوزه .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : ثلاثة من عاداهم عادت عزته ذلة : السلطان والولد والغريم^(١).

واعلم : أنه إنما يستطيع صحبة السلطان أحد رجلين : إما فاجر مصانع ، ينال حاجته بفجوره ويسلم بمصانعته ، وإما مغفل مهين لا يحسده أحد ، فأما من أراد أن يصحب السلطان بالصدق والنصيحة والعفاف ، فقلما تستقيم له صحبته ، لأنه يجتمع عليه عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد ، أما الصديق فينافسه فى منزلته ، فيطعن عليه لنصيحته له ، فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان ، كان قد تعرض للهلاك.

وقال بعض الحكماء : من شارك السلطان فى عزّ الدنيا ، شاركه فى ذلّ الآخرة.

لا يوحشك من السلطان إكرام الأشرار ، فإن ذلك للضرورة إليهم ، كما يضطر الملك إلى الحجاج ، فيشرط قفاه ويخرج دمه . وفى الأمثال : لا حلم لمن لا سفيه له .

وكان ابن عمر إذا سافر إلى مكة ، استصحب معه رجلاً فيه ما فيه ، يستدفع به شر السفهاء ، وأهل الوغادة^(٢) والدغارة^(٣).

وقال المعتصم^(٤) : إن للسلطان لسكرات ، فمنها : الرضا عمن استوجب السخط ، والسخط على من استوجب الرضا .

ومنه قوله الحكماء : خَاطَرَ من لَجَّجَ^(٥) فى البحر ، وأعظم منه خطراً من صحب السلطان .

وقال ابن المقفع لابنه : لا تَعُدَنَّ شتم السلطان شتماً ، ولا إغلاظه إغلاظاً ، فإنَّ رِيحَ العِزَّةِ تبسطه فى غير بأس ولا سخط .

(١) الغريم : الدائن .

(٢) الوغادة : الدناءة والوغد : هو الرجل الدنى الذى يخدم بطعام بطنه .

(٣) الدغارة : سوء الخلق . والداغر هو الخبيث المفسد .

(٤) المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد : الخليفة العباسى الثامن ، خلف أخاه المأمون وهو الذى

احتل عمورية بعد صرخة (وامعتصماه .) وهزم البيزنطيين توفى سنة ٢٢٧ هـ . (الأعلام ٧ / ١٢٧) .

(٥) لَجَّجَ فى البحر : خاضه .

وقال ساميد - أحد حكماء الفرس -: أربعة أشياء ينبغي أن تُفسّر للفهم كما تُفسّر للبليد، ولا يُتكل فيها على ذكاء أحد : تأويل الدين، وأخلاق الأدوية، وصفة الطريق المخوف، والرأى فى السلطان.

واعلم: أن السلطان إذا انقطع منك فى الآخر نسى الأول، فأرحامهم مقطوعة، وحبالهم مصرومة^(١)، إلا من رضوا عنه فى وقتهم وساعتهم، وإذا رأيت من الوالى خللاً^(٢) لا تنبغى، فلا تكابده^(٣) على ردّها، فإنها رياضة صعبة، لكن أحسن مساعدته على أحسن رأيه، فإذا استحكمت منه ناحية من الصواب، كان ذلك الصواب، هو الذى يبصره الخطايا اللطيفة أكثر من تبصيرك.

واجعل العدل من حكمتك، فإن العدل يدعو بعضه إلى بعض، فإذا تمكّن اقتلع الخطأ.

ولا تطلب ما قبل الوالى بالمسألة، ولا تستبطئه وإن أبطأ، ولكن أطلب ما قبله بالاستحقاق والاستيناء^(٤)، فإنك إذا استحققت أتك من غير طلب، وإذا لم تستبطئه كان أعجل له.

وقال يحيى بن خالد^(٥): إذا صحبت السلطان، فداره مداراة المرأة العاقلة القبيحة للزوج الأحقق المبغض.

وقال يحيى بن خالد لبعض إخوانه: تنكر لى هارون الرشيد، فقال له: أرض بقليله من كثيره، وإياك أن تسخط فيكون أسخط منك.

* * *

(١) انصرم الحبل: انقطع.

(٢) الخلال: الصفات أو الخصال.

(٣) كابد الأمر: قاسى شدته.

(٤) الاستيناء: من التأني.

(٥) يحيى بن خالد البرمكى: مؤدب هارون الرشيد ووزيره وسبقت ترجمته.

الباب السادس والأربعون

فى سيرة السلطان مع الجند

اعلم: أن الجند عددُ الملك وحصونه، ومعاقله^(١) وأوتاده^(٢)، وهم حماة البيضة^(٣)، والذابون^(٤) عن الحرمة، والدافعون عن العورة، وهم جنن^(٥) الثغور^(٦)، وحُرَّاسُ الأبواب، والعدة للحوادث، وأمداد المسلمين، والحد الذى يلقى العدو، والسهم الذى يرمى به، والسلاح المدفوع فى نحره، فبهم يُذَبُّ عن الحريم، وتؤمن السبل، وتسدُّ الثغور، وهم عزُّ الأرض، وحُماة الثغور، والذادة عن الحريم، والشوكة على العدو.

وعلى الجند الجدُّ عند اللقاء، والصبرُ عند البلاء، فإن كانت لهم الغلبة فليُجمعوا فى الطلب، وإن تكن عليهم، فليُكسروا الأعنة^(٧) وليجمعوا الأسنة^(٨)، وليذكروا أخبار غدٍ.

وينبغى للملك أن يتفقد جنده، كتفقد صاحب البستان بستانه، فيقلع العشب الذى لا ينفعه، فمن العشب ما لا ينفع، ومع ذلك يضر بالنبات، فهو بالقلع أجدر. ولا يُستصلحُ الجندُ إلا بإدارار أرزاقهم، وسد حاجاتهم، والمكافأة لهم على قدر عنائهم وبلائهم، وجنود الملوك وعددها، وقف على سعود الأئمة ونحوسها. وقال أبرويز لابنه شيرويه^(٩): لا تُوسَّعَنَّ على جندك فيستغنوا عنك، ولا تضيق عليهم فيضجوا منك، وأعطهم عطاءً قصداً، وامنعهم منعاً جميلاً، ووسَّع عليهم فى الرخاء، ولا توسَّع عليهم فى العطاء.

(١) المعقل: الملجأ أو الجبل المرتفع.

(٢) التود: ما رزَّ فى الأرض من خشب ونحوه، وأوتاد الأرض: جبالها، وأوتاد البلاد: رؤساؤها، وأوتاد الملك: جنوده.

(٣) بيضة القوم: ساحتهم.

(٤) ذبُّ عن الحرمة: دفع عنهم الشر وحماهم.

(٥) الجنن: مفردا جُنَّة وهى السترة.

(٦) الثغور: مواضع المخافة من فروج البلدان.

(٧) الأعنة: أى عنان الخيل.

(٨) الأسنة: جمع سنان وهى نصل الرمح (والعبارة كناية عن إيقاف القتال والإستعداد ليوم جديد).

(٩) أبرويز بن هرمز بن كسرى أنوشروان: من ملوك الساسانيين، كان مشهوراً بطشه وقوته.

وشيرويه: ابنه الذى حبسه ثم قتله واعتلى العرش مكانه وذلك سنة ٦٢٨ م وقد توفى بعد شهور ستة بمرض الطاعون.

ولما أفضى الأمر إلى أبي جعفر المنصور، أنفذ جيشاً وقال لقواده: سيروا بمثل هذه السيرة، ثم قال: صدق الأعرابي؛ (أجع كلبك يتبعك) فقام أبو العباس الطوسي^(١)، فقال: يا أمير المؤمنين؛ أخشى أن يلوح له غيرك برغيف، فيتبعه ويدعك.

ويروى: أن كسرى صنع طعاماً في سباط^(٢)، فلما فرغوا ورفعت الآلات، وقمت عينه على رجل من أصحابه، قد أخذ جاماً^(٣) له قيمة كبيرة، فسكت عنه، وجعل الخدم يرفعون الآلات، فلم يجدوا الجام، فسمعهم كسرى يتكلمون، فقال: ما لكم؟ فقالوا: فقدنا جاماً من الجامات، فقال: لا عليكم، أخذه من لا يرده، ورآه من لا يفضحه، فلما كان بعد أيام، دخل الرجل على كسرى، وعليه حلية جميلة، وحال مستجدة، فقال له كسرى: هذا من ذاك؟ قال: نعم، ولم يقل له شيئاً.

وسئل عمرو بن معاذ - وكان على الصوائف^(٤) - : بم قدرت على جيوش الصائفة؟ وكان يغزو في كل سنة، ويجر الجيوش إلى بلاد الروم، فقال: بِسَمَانَةِ الظَّهْرِ^(٥) والقديد^(٦) وكثرة الكعك.

وروى: أن بعض أمراء العرب، كان ظالماً لرعيته، شديد الأذى لهم في أموالهم، فعوتب في ذلك، فقال: (أجع الكلب يتبعك) فوثبوا عليه فقتلوه، فمر بعض الحكماء، فقال: (ربما أكل الكلب صاحبه إذا لم يشبعه).

* * *

(١) أبو العباس الطوسي: كان قائد حرس أبي جعفر المنصور في الكوفة بعد موت قائد حرسه المشهور عيسى بن مهنك.

(٢) السباط: ما يبسط ليوضع عليه الطعام.

(٣) الجام: وعاء موضوع للشراب أو الطعام مصنوع من فضة أو غيرها.

(٤) الصوائف: مفرد صائفة، وهي الجيوش التي تغزو في الصيف وغالباً ما تتجه نحو الشغور الجبلية التي تكون باردة في الشتاء.

(٥) سمانة الظهر: كثرة لحمه وشحمه.

(٦) القديد: اللحم المجفف في الشمس.

الباب السابع والأربعون

فى سيرة السلطان فى استجباء الخراج^(١)

أيُّها الملك : من طال عدوانه زال سلطانه، واعلم : أنَّ المال قوة السلطان، وعمارة المملكة، ولقاحه الأمن، ونتاجه العدل، وهو حصن السلطان، ومادة الملك، والمال أقوى العدد على العدو، وهو ذخيرة الملك، وعمارة المملكة، وحياة الأرض، ومن حقه أن يؤخذ من حقه، ويوضع فى حقه، ويمنع من سرف، ولا يؤخذ من الرعية إلا ما فضل عن معاشها ومصالحتها، ثم ينفق ذلك فى الوجوه التى يعود عليها نفعها، فيا أيها الملك : احرص كل الحرص على عمارة الأرضين، والسلام.

أيُّها الملك : مُرَّجُباة الأموال بالرَّفَق، ومجانبة الخرق^(٢)، فإنَّ العَلَقَةَ^(٣) تنال من الدم، بغير أذى ولا سماع صوت، ما لا تناله البعوضة بلسعتها وهول صوتها. ولما عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر، استعمل عليها ابن أبى السرح^(٤)، فحمل من المال أكثر مما كان يحمله عمرو فقال عثمان : يا عمرو ؛ أَشَعَرْتَ أَنَّ اللَّقَاح^(٥) دَرَّتْ بعدك ؟ فقال عمرو : ذلك لأنكم أعجفتم^(٦) أولادها.

وقال زياد : أحسنوا إلى المزارعين ، فإنكم لم تزالوا سمانا ما سمنوا.

(١) للخراج عدة معان هى : (الضريبة التى تؤخذ من أموال الناس - المال المفروش على الأرض - الجزية التى كانت تفرض على أهل الذمة - غلة الأرض .

(٢) الخرق : الحمق .

(٣) العلقه : دودة تمتص الدم .

(٤) عبد الله بن أبى السرح : من أبطال الصحابة ومن كتَّاب الوحي ، أسلم قبل فتح مكة ، كان على ميمنة عمرو بن العاص حين فتح مصر ثم وليها سنة ٢٥ هـ بعد عمرو بن العاص واستمر ١٢ سنة زحف خلالها على أفريقية بجيش فيه الحسن والحسين أبناء علي رضي الله عنهم أجمعين ودانت له كل أفريقية وكان قائد معركة (ذات الصوارى) سنة ٣٤ هـ حيث انتصر على الروم ، ولما قتل عثمان رضي الله عنه ولَّى عليّ مكانه قيس بن سعد فتوجه للشام ومات سنة ٣٧ هـ . (الأعلام ٤ / ٨٨) .

(٥) اللقاح : الإبل والأغنام المرصعة .

(٦) أي منعتم أولادها : من الرضاع فأصبحت هزيلة .

وفى منشور الحكمة : من جاوز فى الحلب حلب الدّم .
وفى الأمثال : إذا استقصى العجل فى مصّ أمّه رفته .

وقال جعفر بن يحيى^(١) : الخراج عمود الملك ، وما استغرر بمثل العدل ،
ولا استتر بمثل الظلم^(٢) ، وأسرع الأمور فى خرائب البلاد : تعطيل الأرضين ،
وهلاك الرعية ، وانكسار الخراج بالجور ، والتحامل .

ومثل السلطان إذا حمل على أهل الخراج حتى ضعفوا عن عمارة الأرضين ،
مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع ، فهو وإن قوى من ناحية ، فقد ضعف
من ناحية ، وما أدخل على نفسه من الوجع والضعف ، أعظم مما دفع عن نفسه
من ألم الجوع .

ومثل من كلّف الرعية من الخراج فوق طاقتها ، كالذى يطين سطحه بتراب
أساس بيته ، ومن يضمن حزّ العمود يوشك أن يضعف فتقع الخيمة .

وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين ، فيتركونها فتخرب
الأرض ، ويهرب الزرّاع ، فتضعف العمارة ، فيضعف الخراج ، وينتج ذلك
ضعف الأجناد ، وإذا ضعف الجند طمع الأعداء فى السلطان .

أيها الملك : كن بما يبقى فى يد رعيتك ، أفرح منك بما تأخذ منها لا يقلّ
مع الصلاح شيء ، ولا يبقى مع الفساد شيء ، وصيانة القليل أولى من تربية
الجيل - فلا مال لأخرق ولا عيلة^(٣) لمصلح .

وروي أن المأمون أرقّ ليلة ، فاستدعى سميرا فحدثه بحديث ، فقال : يا
أمير المؤمنين : كان بالموصل بومة^(٤) ، وبالبصرة بومة ، فخطبت بومة
الموصل إلى بومة البصرة بنتها لابنها ، فقالت بومة البصرة : لا أنكحك ابنتى
إلا أن تجعلى فى صداقها مائة ضيعة خراب ، فقالت بومة الموصل : لا أقدر
عليها الآن ، ولكن إن دام والينا - سلّمه الله - علينا سنة واحدة ، فعلت لك
ذلك ، قال : فاستيقظ المأمون ، وجلس للمظالم ، وأنصف الناس بعضهم من
بعض ، وتفقد أمر الولاة .

(١) جعفر بن يحيى البرمكى : وزير الرشيد ، سبقت ترجمته .

(٢) استغرر : من الغزارة والكثرة . واستتر : اختفى أو أصبح قليلاً .

(٣) العيلة : الفقر .

(٤) البومة : للذكر والأنثى - طائر يسكن الخراب يضرب به المثل فى الشؤم .

وسمعتُ بعضُ شيوخ الأندلس من الأجناد، وغيرهم يقولون : ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم، وأمر العدو في ضعف وانتقاص، لَمَّا كانت الأرضُ مقطَّعةً في أيدي الأجناد، فكانوا يستغلونها، ويرفقون بالفلاحين، ويربونهم كما يُربي^(١) التاجر تجارته، وكانت الأرض عامرة، والأموال وافرة، والأجناد متوافرين، والكراع^(٢) والسلاح فوق ما يُحتاج إليه، إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن أبي عامر^(٣)، فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال على النُّطع^(٤)، وقَدَّم على الأرض جباة يحبونها، فأكلوا الرعايا واجتاحوا أموالهم^(٥)، واستضعفوه، فتهاربت الرعايا، وضعفوا عن العمارة، فقلَّت الجبايات المرتفعة إلى السلطان، وَضَعُفَت الأجناد، وقوى العدو على بلاد المسلمين، حتى أخذ الكثير منها، ولم يزل أمر المسلمين في نقص، وأمر العدو في ظهور، إلى أن دخلها المثلثمون^(٦) فردوا الإقطاعات كما كانت في الزمان القديم، ولا أدري ما يكون وراء ذلك.

* * *

(١) ربا الشيء: أى زاد ونما.

(٢) الكراع: الخيل.

(٣) هو المنصور بن أبى عامر الذى استقل بأمور الدولة فى الأندلس لمدة ٢٦ سنة وقد سبقت ترجمته.

(٤) النُّطع: بساط من الجلد يُفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس، والمقصود هنا مقاسمتهم أرزاقهم وأكلها بالقوة.

(٥) اجتاح ماله: أى أتى عليه وأفقره.

(٦) المثلثون: أسم أطلق على بعض قبائل البربر فى افريقية، منهم المرابطون والطوارق.

الفصل الثامن والأربعون

فى سيرة السلطان فى بيت المال

وهذا باب سلكت فيه ملوك الطوائف والهند والصين والسند ، وبعض ملوك الروم ، خلاف سيرة الأنبياء والمرسلين ، والخلفاء الراشدين ، فكانت الملوك تدّخر الأموال ، وتحتجبها دون الرعية ، وتعدّها ليوم كريهة^(١) ، على ما بينا فى الباب قبله ، وكانت الرسل والخلفاء بعدهم تبذل الأموال ولا تدّخرها ، وتصطنع الرعية وتوسّع عليها ، فكانت الرعية هم الأجناد والحماة . وهذه سيرة نبينا محمد ﷺ ، وقد علمتم أن جُوعه كان أكثر من شَبَعه ، وأنه مات ودرعه مرهونة فى صاع شعير عند يهودى ، وكذلك الخلفاء الراشدون بعده ، أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وابنه الحسن ، وعمر بن عبد العزيز .

وأن النبي ﷺ ، لما فتح الله عليه اليمن ، كان تُجبى له الأموال فيفرقها ليومها ، وقد توضع فى المسجد ، وتُفرش الأنطاع^(٢) ، ويفرقها من الغد ، ولم يكن له بيت مال .

وروى أبو داود فى السنن : « أن النبي ﷺ صلى العشاء الآخرة ، ثم دخل حجرته وخرج مسرعا ، وفى يديه خريقة فيها ذهب ، فقسمه ، ثم قال : ما ظن آل محمد لو أدركه الموت وهذا عنده »^(٣) ؟ !

ولم يكن للنبي ﷺ بيت مال ، ولا للخلفاء الراشدين بعده ، وإنما كانت الخلفاء تقسم الأموال التى جبيت من حلّها بين المسلمين ، وربما يفضل منها فضلات ، فيُجعل فى بيت ، فمن حضر من غائب ، أو احتاج من حاضر ، قسم له حظه ، ثم يفرّق حتى لا يبقى فى البيت منه درهم .

(١) يوم كريهة : يوم ضيق وشدة وكرب .

(٢) الأنطاع : البُسط تفرش على الأرض .

(٣) روى الإمام أحمد فى مسنده مثله عن عائشة أنه كان عندها ستة دنانير شغلها مرضه عليه السلام عن توزيعها فلما عافاه الله قال لها : « ما ظن نبيّ الله لو لقي الله عز وجل وهذه عنده » مسند الإمام أحمد ٦ / ١٠٤ كما رواه ابن كثير بهذا (اللفظ) فى البداية والنهاية ج ٦ / ص ٥٦ . والخريقة : القطة من الثوب الممزق .

كما روى أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - أشرف على بيت المال وفيه مال، فقال: يا بيضاء ويا حمراء، ابيضّي وحمريّ وغريّ غيري، ثم أمر فقُسّم جميع ما فيه على المسلمين، وأمر قنبراً^(١) أن يكنسه ويرشه، ثم دخل فصلى فيه.

ثم كثير من الملوك ساروا في الأموال على نحو هذه السيرة، من ملوك الإسلام وملوك الروم، ومعظم ما أهلك بلاد الأندلس وسلط عليها الروم: أن الروم التي كانت تجاوزنا لم تكن لهم بيوت أموال، وكانوا يأخذون الجزية من سلاطين الأندلس، ثم يدخلون الكنيسة فيقسمها سلطانهم على رجاله بالطاس^(٢) ويأخذ مثل ما يأخذون، وقد لا يأخذ شيئاً منها، وإنما كانوا يصطنعون بها الرجال، وكانت سلاطيننا تحتجب الأموال وتضع الرجال، فكان للروم بيوت رجال، وللمسلمين بيوت أموال، فبهذه الخلة قهرونا وظهروا علينا.

وكان من يذهب هذا المذهب ولا يدخر الأموال تضرب فيه الأمثال، ويقال: عدو الملك بيت المال، وصديقه جنده، فإذا ضعف أحدهما قوي الآخر، وإذا ضعف بيت المال ببذله للحماة، قوى الناصر واشتد بأس الجند وقوى الملك، وإذا قوى بيت المال وامتألاً بالأموال، قلّ الناصر وضعفت الحماة، فضعف الملك، فوثبت عليه الأعداء، وقد شاهدنا ذلك في بلاد الأندلس مشاهدة.

وإذا كان الدفاع في الرجال لا في الأموال، وإنما يدفع بالأموال بواسطة الرجال، فلاشك أن بيت رجال، خير من بيت مال.

وقد قال بعض الملوك لابنه، يا بني: لا تجمع الأموال، لتتقوى بها على الأعداء، فإن في جمعها تقوية الأعداء. يعني: إذا جمعت الأموال أضعفت الرجال، فيطمع فيك الصديق، ويشب عليك العدو.

وإنما مثل الملك في مملكته، مثل رجل له بستان فيها عين معينة^(٣)، فإذا هو قام على البستان، فأحسن تدبيرها فهندس أرضها وغرس أشجارها، وحظّر

(١) قنبر: خادم علي بن أبي طالب رضى الله عنه.

(٢) الطاس: أناء يشرب فيه.

(٣) عين معينة: عين جارية، جرى ماؤها جرياً سهلاً.

على جوانبها^(١)، ثم أرسل عليها الماء، اخضرَّ عودها فقيوت أشجارها، وأينعت ثمارها، وزكت بركاتها، فكانوا جميعاً في أمان من الضيعة^(٢)، ولا يخافون فقراً ولا شتاتاً، وإن هو رغب في غلتها وجناها، ولم ينفق فيها ما يكفيها، ولا ساق إليها من الماء ما يرويها، رغبة في الغلة، وضنة بالمال، ضعفت عمارتها، ودقت^(٣) أشجارها، وقلت ثمارها، وذهبت غلتها، ومحق الدهر ما جنى من غلتها، فافتقر القوم، وهلكوا، وتشتتوا.

ومثال الملك في جمع المال ليتقوى به على عدوه، مثل طائر ينتف ريشه، ويمص أصولها، ويأكل ما نعم منها فلذ له طيبها، وأعجبه خصب جسمه على ذلك وقوته على عدوه، فلم يزل كذلك حتى خف ريشه، فسقط إلى الأرض، فأكلته الهوام والحشرات.

ورأيت في أخبار بعض الملوك: أن وزيره أشار عليه بجمع الأموال واقتناء الكنوز، وقال: إن الرجال وإن تفرقوا عنك اليوم فمتى احتجتهم عرضت عليهم الأموال فتهافتوا عليك، فقال له الملك: هل لهذا من شاهد؟ قال: نعم، هل بحضرتنا الساعة ذباب؟ قال: لا. قال: فأمر بإحضار جفنة^(٤) فيها عسل، فحضرت، فتساقط عليها الذباب لوقتها، فاستشار السلطان بعض أصحابه في ذلك، فنهاه عن ذلك، وقال: لا تغير قلوب الرجال، فليس في كل وقت أردتهم حضروا، فسأل: هل لذلك من دليل؟ قال: نعم، إذا أمسينا سأخبرك، فلما أظلم الليل قال للملك: هات الجفنة، فحضرت، ولم تحضر ذبابة واحدة.

وقد روينا عن سيرة بعض السلاطين في أرض مصر، وكان قد ملكها، وكان اسمه (يلدقور): إنه كان يجمع الأموال، ولا يحفل بالرجال، فقال له أصحابه: إن أمير الجيوش بالشام وهو يتواعدك، وكأنه قد قدم عليك. فاستعد الرجال، وأنفق فيهم الأموال، فأوماً إلى صناديق موضوعة عنده، وقال: الرجال في الصناديق. فغزا أمير الجيوش ذلك الملك في مصر، وقتله، وتسلم الصناديق والمُلْك، فكان رأيُه رأياً فاسداً، لأن رجالاً يقيمهم لوقتِه، ويصطنعهم لحاجته، إنما يكونون أجناداً مجتمعين، وشرذمة ملفقين، ليس فيه عناء، ولا عندهم دفاع، ولا ممارسة للحروب.

(١) حظر على جوانبها: أحاطها بسور أو حائط أو ما أشبه بذلك.

(٢) الضيعة: الضياع والهلاك والتلف والإهمال.

(٣) دقت: ضعفت وصغرت.

(٤) الجفنة: القصة أو الصحن.

ومن السير المروية في هذا الباب : انه لما فتحت العراق ، جيء بالمال إلى عمر ، فقال صاحب بيت المال : أدخله بيت المال ؟ فقال : لا ورب الكعبة ، لا يُؤوي تحت سقف بيت حتى نقسمه ، فغُطِّي في المسجد بالأنطاع^(١) ، وحرسه رجال من المهاجرين والأنصار ، فلما أصبح نظر إلى الذهب والفضة والياقوت والزبرجد والدر^(٢) يتلألأ ، فبكى ، فقال له العباس أو عب ، الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين ، والله ما هذا بيوم بكاء ، ولكنه يوم شكر وسرور ، فقال : إني والله ما ذهبت حيث ذهبت ، ولكنه والله ما كثر هذا في قوم إلا وقع بأسهم بينهم ، ثم أقبل على القبلة ورفع يديه ، وقال : اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجا فإني أسمعك تقول : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾^(٣) [الأعراف : ١٨٢] ، [القلم : ٤٤] ثم قال : أين سراقه بن جعشم^(٤) ؟ فأتى به أشعر الذراعين دقيقهما ، فأعطاه سوارى كسرى ، وقال : البسهما ، ففعل ، فقال : قل (الله أكبر) قال : (الله أكبر) ، قال : قل (الحمد لله الذى سلبهما كسرى ، وألبسهما سراقه بن جعشم ، أعرابيا من بنى مدلج) ، ثم قبلهما وقال : إن الذى أدى هذا لأمين ، فقال له رجل : أنا أخبرك ، أنت أمين الله تعالى ، وهم يؤدون إليك ما أديت لله تعالى ، فإذا رتعت رتعوا. قال : صدقت ، وإنما ألبسهما سراقه (لأن النبي ﷺ قال لسراقه - ونظر إلى ذراعيه - كأنى بك قد لبست سوارى كسرى)^(٥) ولم يجعل له إلا السوارين.

ولما ولى أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - جاءه مال من العدال ، فصُبَّ في المسجد ، وأمر فنأدى من كان له عند رسول الله ﷺ ، دين أو عدة^(٦) ، فليحضر ، قال أبو أيوب الأنصارى : فجئته ، فقلت : يا خليفة رسول الله إنَّ النبي ﷺ قال لي : لو قد جاءني مال ، أعطيتك هكذا وهكذا - وأشار بكفيه -

(١) الأنطاع : البسط من الجلد.

(٢) الياقوت - الزبرجد - الدر والذهب والفضة : كلها أنواع من الجواهر.

(٣) ومعنى سنستدرجهم : أى سنقربهم وندنيهم من الهلاك وذلك بالإمهال والإنعام.

(٤) سراقه بن مالك بن جعشم المدلجى : من بنى مدلج ، صحابى ، كان فى الجاهلية مشهورا بالقيافة أى اقتصاص الأثر ، حيث خرج إثر رسول الله ﷺ حين هاجر إلى المدينة وأسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ وتوفى سنة ٢٤ هـ . (الأعلام ٣ / ٨٠) .

(٥) رواه ابن كثير فى البداية والنهاية نقلا عن الإمام الشافعى ج ٦ / ص ١٩٤ .

(٦) روى البخارى ومسلم والإمام أحمد حديثا صحيحا عن جابر بن عبد الله بهذا المعنى فقال : أن رسول الله ﷺ قال له : «لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا..» إلى نهاية الحديث . ومعنى : عدة أى وعد .

فسكت أبو بكر فانصرفْتُ، ثم عاودتُهُ فسكتَ عني، ثم انصرفْتُ، وعاودته فقلت: إِمَّا أَنْ تَعْطِينِي وَإِمَّا أَنْ تَبْخَلَ عَنِّي، فقال: مَا أَبْخَلَ عَنْكَ، اذْهَبْ فَخُذْ. فَأَخَذْتُ حَفْنَةً. قَالَ: عُدَّهَا، فَعَدَّدْتُهَا، فَوَجَدْتُ فِيهَا خَمْسَمِائَةَ دِينَارٍ. وَأَبُو أَيُّوبَ مِنْ أَغْنِيَاءِ الْأَنْصَارِ وَهُوَ نَزِيلُ النَّبِيِّ ﷺ.

دل الحديث: على أن بيت المال، للغني والفقير، ودَلٌّ أيضاً: أنه لا يجب أن يساوى فيه جميع المسلمين، بل ذلك موكول إلى اجتهد الإمام.

* * *

فصل: فى ميزانية فرعون مصر وكيفية التصرف فيها(*):

قال الحسن بن على الأسدى: أخبرنى أبى، قال: وجدت فى كتاب قبطي^(١)، (باللغة الصعيدية، مما نقل بالعربية) مبلغ ما كان يستخرج لفرعون يوسف^(٢) من أموال مصر بحق الخراج، مما يؤخذ من وجوه الجبايات لسنة واحدة على العدل والإنصاف، والرسوم الجارية من غير اضطهاد ولا مناقشة، وبعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان، نظراً للعاملين وتقوية لحالهم، من العين «أربعة وعشرون ألف ألف، وأربعمائة ألف دينار».

من ذلك، ما ينصرف فى عمارة البلاد، لحفر الخليج^(٣) والإنفاق على الجسور وسد الترع، وإصلاح المنشآت، ثم تقوية من يحتاج إلى تقويته، من غير رجوع عليه بها، لإقامة العوامل^(٤)، والتوسعة فى البذار، وغير ذلك من الآلات، وأجرة من يستعان به، لحمل البذار، وسائر نفقات تطبيق الأرضين (ثمانمائة ألف دينار).

(*) من إضافات المحقق.

(١) القبط (الأقباط): سكان مصر الأصليون، الذين ظلوا محتفظين بلغتهم القومية، فى مختلف لهجاتهم، سموا بهذا الاسم تمييزاً عن العناصر الغربية التى توطئت البلاد واستعملت اللغة اليونانية، والأقباط اليوم فرعان كاثوليك وأرثوذكس، واللغة القبطية هى اللغة المصرية القديمة التى استعملها الفراعنة، احتفظ بها العامة وأهل الأرياف تفرغاً إلى لهجات أهمها: الصعيدية، والبحيرية، والفيومية. (المنجد فى اللغة والأعلام ص ٤٣٣).

(٢) فرعون يوسف: فرعون لقب لكل من ملك مصر، ذكر ابن كثير أن ملك مصر يومئذ هو الريان بن الوليد، رجل من العماليق وقد أسلم على يد يوسف عليه السلام واللّه أعلم. (التفسير الكبير ٦٣ / ٣).

(٣) فى (خ) لحفر الخُلج - بالجمع. (٤) العوامل: بقر الحراث والدراسة.

ولما ينصرف فى أرزاق الأولياء الموسومين بالسلاح^(١) ومن فى جملتهم من الشّادية^(٢) والغلمان وأشياهم، وعدّة جميعهم مع ألف كاتب موسومين بالدواوين، سوى أتباعهم من الخزان، ومن يجرى مجراهم (مائة ألف وأحد عشر ألف دينار وثمانية ألف ألف درهم).

ولما ينصرف للأرامل والأيتام، يُرَضُّونَ به من بيت المال، وإن كانوا غير محتاجين، حتى لا يخلو أمثالهم من برّ فرعون (أربعمائة ألف دينار).

ولما ينصرف فى كهنة برابيهم^(٣) وسائر بيوت صلواتهم (مائتا ألف دينار). ولما ينصرف فى الصدقات، مما يُصَبَّ صَبًّا، وينادى: برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر، فيحضر لذلك من يحضر، ولا يُردُّ أحد، والأمناء جلوس، فإذا رأوا إنساناً لم يُجَرَّ رَسْمُهُ بأن يأخذ، أفردوه، بعد قبضه ما قبضه، حتى إذا فُرِّقَ المال، واجتمع من هذه الطائفة عدد، دخل أمناء فرعون إليه وهنئوه بتفرقة المال، ودعوا له بطول البقاء، ودوام العز والسلامة، وأنهى إليه حال تلك الطائفة، فيأمر بتغيير شعثها^(٤) بالحمام واللباس ثم يُمدَّ السَّمَاطُ، فيأكلون بين يديه ويشربون، ويستعلم من كل واحد سبب فاقتة، فإن كان ذلك من آفة الزمان، رد عليه مثل ما كان له، وإن كان سوء رأى وتدبير غير مستقيم، ضمّه إلى من يُشرف عليه، ويأخذه بالأدب والمعرفة التى لا يصلح إلا بها (مائتا ألف دينار).

ولمّا ينصرف من نفقات فرعون الراتبّة لسنّته (مائتا ألف دينار). تكون النفقات على ما تقدم تفصيلها تسعة آلاف ألف وثمانمائة ألف دينار. ويحصل بعد ذلك ما يتسلمه، يوسف الصديق عليه السلام، ويحصله لفرعون فى بيت المال لنوائب الزمان (أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار).

(١) الأولياء الموسومين بالسلاح: أى الجنود الذين يتولّون أمر الحروب والسلاح.

(٢) الشادية: الأعوان الذين يشدون أزر القادة ويساعدونهم.

(٣) البرابى: كلمة قبطية وهى مواضع للعبادة أو السحر والشعوذة وهى باقية منذ أيام الفراعنة فى

عدة مواضع من صعيد مصر حتى الآن (معجم البلدان - ياقوت الحموى ج ١ ص ٤٣١).

(٤) تغيير شعثها: أى هيئتها.

وقال أبو رهم^(١): كانت أرض مصر أرضاً مدبرة^(٢) حتى أن الماء ليجرى تحت منازلها وافنيتها، فيحبسوه كيف شاؤوا، ويرسلوه كيف شاؤوا، وذلك قول فرعون: ﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون﴾ [الزخرف: ٥١] وكان ملك مصر عظيماً، لم يكن في الأرض أعظم من ملك مصر، وكانت الجنات بحافتي النيل متصلة، لا ينقطع منها شيء عن شيء، والزرع كذلك من أسوان إلى رشيد، وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً لما دبروا في جسورها وحافاتها، والزرع ما بين الجبلين من أولها إلى آخرها، وذلك قوله تعالى: ﴿كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦، ٢٧] والمقام الكريم: المنابر وكان بها ألف منبر.

وقال عبد الله بن عمرو^(٣): استعمل فرعون هامان^(٤) على حفر خليج سردوس^(٥)، فأخذ في حفره وتدبيره، فجعل أهل القرى يسألونه أن يجرى الخليج تحت قريتهم ويعطوه مالا، وكان يذهب به من قرية إلى قرية، من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى القبلة، ويسوقه كيف أراد، فليس في مصر خليج أكثر عطوفاً منه، فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة فحملها إلى فرعون وأخبره بالخبر، فقال له فرعون: إنه ينبغي للسيد أن يعطف على عبده، ويفيض عليهم من خزائنه وذخائره، ولا يرغب فيما بأيديهم، ردَّ على أهل القرى ما أخذت منهم، فردَّ عليهم أموالهم.

(١) أبو رهم: ورد في أسد الغابة أكثر من شخص بهذا الاسم منهم أبو رهم الغفاري الذي شهد أحدًا وأصيب بسهم في نحره فبصق عليه الرسول ﷺ فبرئ واستخلفه رسول الله ﷺ على المدينة مرتين وكان ممن حضر بيعة العقبة ومنهم أبو رهم الأشعري أخو أبو موسى الأشعري.

(٢) الأرض المدبرة: أي الصالحة للزراعة، والدبار: السواقي بين الزروع.

(٣) عبد الله بن عمرو بن العاص من الصحابة المجاهدين روى كثيراً من الأحاديث عن رسول الله ﷺ، اشترك في الحروب وكان يضرب بالسيفين وحمل راية أبيه في اليرموك وشهد صفين مع معاوية. وقد روى القصة التي بين أيدينا عن أبيه كما ذكر صاحب معجم البلدان ج ٣ / ٢٧٧.

(٤) هامان: وزير فرعون، ورد ذكره في القرآن الكريم.

(٥) خليج سردوس: ورد في معجم البلدان: أن خلجان مصر كانت سبعة على جوانبها الجنات ومنها هذا الخليج الذي أمر فرعون هامان بحفره، وكان هامان يأتي أهل كل قرية يسألونه أن يجرى الخليج تحت قريتهم يعطونه مالا قال: ولا يعلم في مصر خليج أكثر عطوفاً منه (والقصة مذكورة في معجم البلدان ٣ / ٢٣٧).

فهذه سيرة من لا يعرف الله، ولا يرجو لقاءه، ولا يخاف عذابه، ولا يؤمن
بيوم الحساب، فكيف يجب أن تكون سيرة من يقول: لا إله إلا الله، ويوقن
بالحساب والثواب والعقاب؟!

وقال ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] قال: هي خزائن مصر، وكانت أربعين
فرسخاً في مثلها، ولم يطع يوسف فرعون، ويخلفه وينوب عنه إلا بعد أن
دعاه إلى الإسلام فأسلم. فحينئذ قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.

ولما استوثق أمر يوسف الصديق عليه السلام وكمل، وصارت الأشياء
إليه، وأراد ربك أن يعوضه على صبره، لمَّا لم يرتكب محارمه، وحلَّت سنون
الغلاء والجوع، مات العزيز^(١)، وذهبت الذخائر، وافتقرت زليخا^(٢)، وعمى
بصرها، وحلَّت تتكفف الناس، فقيل لها: لو تعرضت للملك لعله يرحمك
ويغنيك فطالما حفظنيه وأكرمتيه، ثم قيل لها: لا تفعل، لأنه ربما يتذكر ما
كان منك إليه، من المراودة والحبس، فيسئ إليك ويكافئك فيما سبق منك
إليه، فقالت: أنا أعلم بحلمه وكرمه، وجلست له على رابية في طريقه يوم
خروجه، وكان يركب في زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته، فلما
أحسَّت به قامت وقالت: (سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم، وجعل
العبيد ملوكاً بطاعتهم)، فقال يوسف: ومن أنت؟ قالت: أنا التي كنت
أخدمك على صدور قدمي، وأرجل جُمَّتِكَ^(٣) بيدي، وأكرم مثواكَ^(٤)
بحهدي، وكان مني ما كان، وذقت وبال أمري، وذهبت قوتي، وتلف مالي
وعمى بصري، وصرت أسأل الناس فمنهم من يرحمني، ومنهم من لا

(١) العزيز: عزيز مصر أو الوزير بها هو الذي اشترى يوسف عليه السلام بدراهم معدودة كما ذكر
القرآن الكريم، وكان هذا الرجل يتسلم خزائن الأموال في مصر قبل يوسف عليه السلام واسمه «قطفير
ابن روحيب»، (قصص الأنبياء - ابن كثير ص ٢١٥).

(٢) زليخا: هي امرأة العزيز التي روادت يوسف عليه السلام عن نفسه قيل إن اسمها «زاعيل» ولقبها
«زليخة» كانت في غاية الحسن والجمال وبنت أخت ملك مصر في ذلك الوقت، وقد ذكر ابن كثير في
كتابه «قصص الأنبياء» أن ملك مصر قد أسلم على يد يوسف وأنه ولي يوسف مكان زوج زليخة وزوجه إياها
بعد موته، فوجدها بكرأ وانجبت له الأبناء والله أعلم. (قصص الأنبياء - ابن كثير ص ٢٢٦).

(٣) رجل الشعر: سرَّحه. الجُمَّة: مجتمع شعر الرأس وهي أكثر من الوفرة ودون اللمة في الطول.

(٤) أكرم مثواكَ: جعل محل إقامتك كريماً مرضياً.

يرحمنى ، بعدما كنت مغبوبة أهل مصر كلها ، صرت مرحومتهم ، بل محرومتهم ، هذا جزاء المفسدين .

فبكى يوسف عليه السلام بكاءً شديداً وقال لها : هل بقى فى قلبك من حبك إياى شئ ؟ فقالت : والذى اتخذ إبراهيم خليلاً ، لنظرة إليك أحب إلى من ملء الأرض ذهباً وفضة .

فمضى يوسف عليه السلام وأرسل إليها : إن كنت أيماً^(١) تزوجناك ، وإن كنت ذات بعل أغنياناك ، فقالت للرسول : الملك أعرف بالله من أن يستهزئ بى ، هو لم يردنى فى أيام شبابى وجمالى ، فكيف يقبلنى وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟ فأمر بها يوسف عليه السلام ، فجهّز فتزوجها ، وأدخلت عليه ، فصفاً قدميه وجعل يصلى ، ودعا الله باسمه الأعظم ، فردّ الله تعالى عليها شبابها وجمالها وبصرها كهيتها يوم راودته ، فواقعها فإذا هى بكر ، فولدت له أفراتيم بن يوسف ، وميشا بن يوسف ، وطاب فى الإسلام عيشهما حتى فرق الدهر بينهما .

فيجب للقويّ أن لا ينسى الضعيف ، وللغنيّ أن لا ينسى الفقير ، فربّ مطلوب يصير طالباً ، ومرغوب إليه يصير راغباً ، ومسؤول يصير سائلاً ، وراحم يصير مرحوماً .

فهذا يوسف الصديق عليه السلام ، أنظر إلى ضعفه فى يد إخوته يوم الجب ، ثم ضعفهم بين يديه يوم الصاع .

وهذه زليخا ملكة مصر وسيدة أهلها ، عادت تتكفّف الناس فى الطرقات ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، فكان يوسف عليه السلام بعد هذا ، يجوع ويأكل خبز الشعير ، ولا يشبع ، فقيل له : أتجوع وببئك خزائن الأرض ؟ قال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائعين .

وقد رأيت أن ألحقه بمنقبة^(٢) فى مثلها يتنافس العقلاء ، ويرغب فيها

(١) الأيم : من لا زوج لها سواء كانت تزوجت من قبل أم لا .

(٢) منقبة : مفخرة وفعل كريم .

الملوك والوزراء، وذلك أنى لما كنت بالعراق، وكان الوزير نظام الملك^(١) - والغالب على ألقابه «خواجه برك»^(٢) رحمه الله تعالى - قد وزر لأبى الفتح ملك الترك ابن ألب أرسلان، وكان قد وزر لأبيه من قبله، فقام بدولتهما أحسن قيام، فشد أركانها، وشيد بنيانها، واستمال الأعداء، ووالى الأولياء، واستعمل الكفاة، وعم إحسانه العدو والصديق، والبغض والحبيب، والبعيد والقريب، حتى ألقى الملك بجرانه^(٣)، وذل الخلق لسلطانه، وكان الذى مهد له ذلك بإذن الله تعالى وتوفيقه، أنه أقبل بكليته على مراعاة حملة الدين، فبنى دور العلم للفقهاء، وأنشأ المدارس للعلماء، وأسّس الرباطات^(٤) للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء، ثم أجرى لهم الجرايات والكساوى والنفقات، وأجرى الخير والرزق لمن كان من أهل الطلب للعلم مضافا إلى أرزاقهم، وعم بذلك سائر أقطار مملكته، فلم يكن من أوائل الشام - وهى (بيت المقدس) - إلى سائر الشام الأعلى، وديار بكر، والعراقين وخراسان بأقطارها، إلى سمرقند من وراء نهر جيحون، مسيرة زهاء مائة يوم حامل علم أو طالبه، أو متعبد أو زاهد فى زاويته، إلا وكرامته شاملة له، وسابغة عليه، وكان الذى يخرج من بيوت أمواله فى هذه الأبواب (ستمائة ألف دينار) فى كل سنة، فوشى به الوشاة إلى أبى الفتح الملك، وأوغروا صدره عليه، وقالوا: إن هذا المال المخرج من بيوت الأموال، يقيم به جيشا يركز رايته فى سور قسطنطينية، فخامر ذلك قلب أبى الفتح الملك، فلما دخل عليه قال: يا أبت، بلغنى أنك تخرج من بيوت الأموال كل سنة (ستمائة ألف دينار) إلى

(١) الوزير نظام الملك أبو على الحسن بن على بن إسحق الطوسى، منشئ المدارس النظامية فى بغداد، والبصرة وطوس ونيسابور ومرو وأصفهان وغيرها، تنقلت به الأحوال إلى أن أصبح وزيرا للسلطان ألب أرسلان وبقي فى خدمته عشر سنين، ولما مات خلفه ولده ملكشاه وصار الأمر كله لنظام الملك، وأقام على هذا عشرين سنة حيث دبر ممالكه على أتم مما ينبغى وذلك أيام الخليفة العباسى المقتدى بالله، ولكن ساءت الأمور فى النهاية بسبب الوشاة، بين الوزير والسلطان، فقتل يرحمه الله فى ليلة الجمعة سنة ٤٨٥ قرب نهاوند (وفيات الأعيان ٢/ ١٢٨، والأعلام ٢/ ٢٠٢).

(٢) من ألقاب الوزير نظام الملك (خواجه برك).

(٣) ألقى بجرانه: كناية عن الثبات والاستقرار مستعارة من قولهم (ألقى البعير جراحه، إذا برك) (وألقى المسافر عصاه، إذا وصل إلى مكان قصده).

(٤) الرباطات: الأماكن المبنية للفقراء والزهاد.

من لا ينفعنا ، ولا يغنى عنا ، فبكى نظام الملك ، وقال : يا بُني أنا شيخ أعجمي لو نودى على فيمن يزيد ، لم أحفظ خمسة دنانير ، وأنت غلام تركي لو نودى عليك ، عساك تحفظ ثلاثين ديناراً ، وأنت مشغول ببلداتك ، منهمك في شهواتك ، وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصيك دون طاعتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان ، وقوس لا ينتهي مدى مرماه ثلاثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور ، والملاهي ، والمزمار ، والطنبور^(١) ، وأنا أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل ، إذا نامت جيوشك ليلاً ، قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفاً بين يدي ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم ، ومدوا إلى الله أكفهم ، بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ، وبركاتهم تمطرون وترزقون ، تخرق سهامهم إلى السماء السابعة بالدعاء والتضرع . فبكى أبو الفتح الملك بكاء شديداً ثم قال : (شاباش يا أبت شاباش)^(٢) ، أكثر لي من هذا الجيش .

ومن مناقب هذا الرجل وفضائله : أنَّ رجلاً قصده يقال له : أبو سعيد الصوفي ، فقال له : يا خواجه : انا أبنى لك مدرسة ببغداد (مدينة السلام) ، لا يكون في معمور الأرض مثلها ، يخلد بها ذكرك إلى أن تقوم الساعة ، قال : افعل . وكتب إلى وكلائه ببغداد ، ان يملكوه من الأموال ، فابتاع بقعة على شاطئ دجلة ، وخط المدرسة النظامية ، وبنّاها أحسن بنیان ، وكتب عليها اسم نظام الملك ، وبنى حولها أسواقاً تكون محبسةً عليها ، وابتاع ضياعاً وخانات وحمامات وأوقفت عليها ، فكمملت لنظام الملك بذلك رياسة ، وسوّد ، وذكر جميل ، طبق الأرض خبره^(٣) ، وعم المشارق والمغارب أثره ، وكان ذلك في سنّى عشر الخمسين وأربعمئة من الهجرة ، ثم رفع حساب النفقات إلى نظام الملك ، فبلغ ما يقارب (ستين ألف دينار) ، ثم نمى الخبر إلى نظام الملك ، من الكتاب وأهل الحساب ، أن جميع ما أنفق فيها نحواً من تسعة عشر ألف دينار ، وأن سائر الأموال احتجبتها لنفسه وخانك فيها ، فدعاه نظام الملك إلى

(١) الطنبور : آلة طرب ذات عنق طويل لها أوتار من نحاس (فارسية) .

(٢) شاباش : كلمة فارسية تعنى : لا بأس ولا مانع .

(٣) طبق خبره : أى عم وانتشر .

أصبهان للحساب، فلما أحس أبو سعيد بذلك، أرسل إلى الخليفة أبي العباس^(١) يقول: هل لك في أن أطبق الأرض بذكرك، وانشر لك عزاً لا تمحوه الأيام؟ قال: وما هو؟ قال نمحو اسم نظام الملك عن هذه المدرسة، ونكتب عليها اسمك، وتزن له ستين ألف دينار، فأرسل إليه الخليفة يقول له: انفذ من يقبض المال، فلما استوثق منه مضى إلى أصبهان، فقال له نظام الملك: إنك قد رفعت إلينا نحواً من ستين ألف دينار نفقة، وأحب إخراج الحساب، فقال له أبو سعيد: لا تطل الخطاب إن رضيت وإلا مَحَوْتُ اسمك المكتوب عليها، وكتبتُ عليها اسم غيرك، وأرسل معي من يقبض المال، فلما أحس نظام الملك بذلك، قال: يا شيخ: قد سوغنا لك جميع ذلك كله، ولا تمح اسمنا، ثم أن أبا سعيد بنى بتلك الأموال الرباطات^(٢) للصوفية واشترى الضياع والخانات والبساتين والدور، وأوقف كل ذلك على الصوفية، فالصوفية إلى يومنا هذا، في رباط أبي سعيد الصوفي وأوقافه، يتقلبون ببغداد، ففي مثل هذه المناقب فليتنافس المتنافسون، ولمثل هذا فليعمل العاملون، فإن فيها عز الدنيا وشرف الآخرة، وحسن الصيت وخلود جميل الذكر، فإننا لم نجد شيئاً يبقى على الدهر إلا الذكر، حسنا كان أو قبيحاً، وقال الشاعر:

ولا شيء يَدُومُ فَكُنْ حَدِيثاً جَمِيلَ الذِّكْرِ فَالِدُنْيَا حَدِيثُ

فانتهاز فرصة العمر ومساعدة الدنيا ونفوذ الأمر، وقدم لنفسك كما قدموا، تذكر بالصالحات كما ذكروا، وأدخر لنفسك في الآخرة كما أدخروا، واعلم أن المأكول للبدن، والموهوب للمعاد، والمتروك للعدو، فاختر أي الثلاث شئت والسلام.

(١) أبو العباس: هو الخليفة العباسي الثامن والعشرون المستظهر بأمر الله، وقد تولى الخلافة سنة ٨٧ هـ وعليه فإنه يبدو أن في الأمر خلطاً، حيث أن نظام الملك مات سنة ٤٨٥ هـ فيكون المقصود الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله عبدالله بن محمد بن القائم بأمر الله (أبو القاسم) الذي تولى الخلافة سنة ٤٦٧ هـ إلى ٤٨٧ هـ أو من قبله وهو القائم بأمر الله عبد الله بن أحمد، أبو جعفر مات سنة ٤٦٧ هـ لأن هذه المدارس أسست في الخمسينيات من القرن الخامس، فالخلط يبدو في كنية الخليفة والله أعلم.

(٢) الرباطات: واحدها «الرباط» وهي المعاهد المبنية والموقوفة للفقراء.

وكان ابن أبي دؤاد^(١) الوزير، واسع النفس، مبسوط اليدين، يُعطي الجزيل، ويستقل الكثير، ولا يردّ سؤالاً، ويبتدئ بالنوال، فقال له الواثق^(٢) أمير المؤمنين يوماً: قد بلغني بسط يدك بالإعطاء، وهذا يتلف بيوت الأموال، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال: يا أمير المؤمنين؛ ذخائر أجرها واصل إليك، ومناتيح شكرها موصولة بك، وإنما لي من ذلك تعشُّقى في إيصال الشئ إليك، فقال الواثق: لله أنت، جُد بالعطاء، واكثر بالشكر والثناء.

* * *

(١) أحمد بن أبي دؤاد الإيادي المعتزلى: ولي القضاء للمعتصم والواثق كان موصوفاً بالجلود والسخاء وحسن الخلق ووفور الأدب، غير أنه حمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن، وأن الله لا يرى في الآخرة، قالوا فيه: (لم يكن بعد البرامكة أكرم منه، لولا ما وضع من نفسه من محبة المحنة لاجتمعت عليه الألسنة) وقد كانت وفاته سنة ٢٤٠ هـ انظر البداية والنهاية: ج ١ / ٢١٩ وما بعدها، والأعلام ١ / ١٢٤) ..

(٢) الخليفة الواثق بن المعتصم بن هارون الرشيد: بويغ به بالخلافة إثر موت أبيه ودامت خلافته خمس سنوات حيث مات سنة ٢٣٢ هـ وصلى عليه أخوه جعفر الملقب بالمتوكل على الله ودفن في سامراء. (الأعلام ٨ / ٦٢).

الباب التاسع والأربعون

فى سيرة السلطان فى الإنفاق

من بيت المال وسيرة العمال

اعلم: أن يوسف الصديق عليه السلام، لما ملك خزائن الأرض كان يجوع ويأكل الشعير، ف قيل له: أتجوع وب يدك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن اشبع فأنسى الجائعين.

وروى البيهقى^(١) بإسناده قال: لما استخلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه، غدا إلى السوق، فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أين تريد؟ قال: السوق، قال: قد جاءك ما يشغلك عن السوق، قال: سبحان الله، يشغلنى عن عيالى؟ قال: نفرض لك بالمعروف، قال: فأنفق فى سنتين وبعض أخرى، ثمانية آلاف درهم، ووصى أن ترد من ماله فى بيت المال.

وروى هذه القصة الحسن البصرى، قال: لما حضرت أبا بكر الوفاة، قال: انظروا كم أنفقت من مال الله؟ فوجدوه قد أنفق فى سنتين ونصف ثمانية آلاف درهم، قال: اقضوها عني، فقضوها عنه، ثم قال: يا معشر المسلمين إنه قد حضر من قضاء الله ما ترون، ولا بد لكم من رجل يلى أمركم، ويصلى بكم، ويقا تل عدوكم، فإن شئتم اجتمعتم وائتمرت لكم، وإن شئتم اجتهدت لكم، فوالذى لا إله إلا هو، ما آلوكم ونفسى خيراً، فبكوا، وقالوا: أنت خيرنا وأعلمنا، فاختر لنا، فقال: قد اخترت لكم عمر.

وروى مالك هذه القصة، على غير هذا الوجه، قال: بلغنى أن أبا بكر لما ولي، لم ينفق من مال الله شيئاً، وغدا يوماً من بنى عمرو بن عوف^(٢)، وكانت له هناك امرأة من الأنصار فى جمال له، يريد أن يبيعها، فلقى بعض

(١) البيهقى: الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن الحسين بن على والبيهقى نسبة إلى بهق. كان أوح د أهل زمانه فى الإتقان والحفظ والفقه والتصنيف، وكان فقيهاً محدثاً أصولياً، جمع أشياء كثيرة نافعة لم يسبقه أحد إلى مثلها منها كتاب السنن الكبرى والسنن الصغرى ونصوص الشافعى وشعب الإيمان والآداب وغيرها كان زاهداً كثير العبادة والورع مات سنة ٤٥٨ هـ. (الأعلام ١/ ١١٦).

(٢) عمرو بن عوف جد جاهلى من الأز د سلالة عدة بطون.

المسلمين فقالوا له : ما تصنع ؟ هذا يشغلك عن الناس وعن النظر فى أمرهم . قال . فكيف أصنع ؟ قالوا : تتفرغ للنظر فى أمورهم ، وتستنفق من هذا المال ، فباع تلك الإبل وغيرها من ماله ، إلا الأرض ، ثم طرحه فى بيت المال ، فكان ينفق من المال على نفسه وعلى عياله .

ثم كان عمر على مثل ذلك ، ثم وليه عمر بن عبد العزيز ، فلم ينفق منه ، فقيّل له : قد صنع أبو بكر وعمر ما قد علمت . قال : أجل ، ولكنى أخذت من هذا المال ، فإن يكن لى فيه حق فقد استوفيت وزدت ، ولولا ذلك لفعلت .

قال ابن القاسم^(١) : قلت لمالك : فأين قولهم عن عمر أنه ردّ ثمانين ألفاً ؟ قال : كذبوا ، إنما يقول هذا أعداء الله ، هو لم يجز لولده سلف أبى موسى إياه ، حين أخذ منه نصفه ، فكيف يأخذ من مال الله ثمانين ألفاً ؟ فلما توفى أبو بكر ، استرجع على رضى الله عنه ، وجاء مسرعاً باكياً ، وقال : [رحمك الله أبا بكر ، لقد كنت والله أول القوم إسلاماً ، وأكملهم إيماناً ، واشدهم يقيناً ، وأخوفهم لله تعالى ، وأحوطهم على رسول الله ﷺ ، وأشبههم به هدياً وخلقاً ، وسمتاً وفضلاً ، وأكرمهم عليه ، وأرفعهم عنده ، فجزاك الله عن الإسلام خيراً ، صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، فسماك الله فى كتابه (صديقاً) فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣] وأنستّه حين تخلفوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وصحبته فى الشدة حين تفرقوا أكرم الصحبة ، ثانى أننين وصاحبه فى الغار ، ورفيقه فى الهجرة ، والمنزل عليه السكينة ، وخلفته فى أمتّه أحسن الخلافة ، فقويت حين ضعف أصحابك ، وبرزت حين استكانوا ، وقمت بالأمر حين فشلوا ، ومضيت بقوة إذ وقفوا ، كنت أطولهم صمتاً ، وأبلغهم قولاً ، واشجعهم قلباً ، وأشدّهم يقيناً ، وأحسنهم عملاً ، كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً فى بدنك ، قوياً فى أمر دينك ، متواضعاً فى نفسك ، عظيماً محبوباً إلى أهل السموات والأرض ، فجزاك الله عنّا وعن الإسلام خيراً^(٢) .

وقال عمر : رحم الله أبا بكر ، لقد أتعب من بعده تعباً شديداً .

(١) عبد الرحمن بن القاسم بن جنادة : فقيه من أصحاب الإمام مالك .

(٢) جزء من خطبة على بن أبى طالب رضى الله عنه فى تأبين أبى بكر الصديق لما سمع بخبر وفاته رضى الله عنه (والخطبة ذكرت فى كتب السير منها مشاهير الإسلام / رفيق بك العظم) .

وروى البيهقي، عن عمر رضى الله عنه، أنه قال: إني أنزلتُ نفسي من مال الله تعالى بمنزلة ولىّ اليتيم، إن استغنيت استعفت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف. وفي رواية أخرى: إن احتجت أخذتُ منه، فإذا أيسرتُ رددته.

وفي رواية أخرى: أخبركم بما أستحلُّ من مال الله تعالى - وما قال: يحل لى - استحل منه حلَّتَيْن: حلة للشتاء، وحلة للقيظ، وما أحج عليه واعتمر، وقوتي وقوت عيالي، كقوت رجل من قریش، لا من أغنيائهم ولا من فقرائهم، ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم.

وقال أنس بن مالك^(١): غلا الطعام على عهد عمر رضى الله عنه، فأكل خبز الشعير، وكان قبل ذلك لا يأكله، فاستنكره بطنه فصوّت، فضربه بيده، وقال: هو والله ما ترى، حتى يوسع الله على المسلمين.

وقال أبو عثمان النهدي^(٢): رأيتُ عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يطوف بالبيت وعليه جبة^(٣) صوف فيها اثنتا عشرة رقعة، إحداها بأدم^(٤) أحمر.

وقال عطاء بن السائب^(٥) استعمل عمر بن الخطاب السائب بن الأقرع^(٦) على المدائن^(٧)، فدخل إيواناً من إيوان^(٨) كسرى، فإذا صنم يشير بإصبعه إلى الأرض قد عقد أربعين، فقال: والله ما يشير هذا إلى الأرض إلا وشم شيء،

(١) أنس بن مالك: أنصاري رضى الله عنه خادم رسول الله ﷺ أخواله بنو النجار وكنيته أبو حمزة من فقهاء الصحابة توفي سنة ٩٣ هـ. (الأعلام ٢ / ٢٤).

(٢) أبو عثمان النهدي: عبد الرحمن بن ملّ أسلم على عهد النبي ﷺ اشترك في القادسية ونهاوند وتستر وأذربيجان، كان كثير العبادة زاهداً عالماً توفي وعمره ١٣٠ بالكوفة سنة ٧٦ هـ (البداية والنهاية - ابن كثير ٩ / ١٥).

(٣) الجبة: ثوب واسع يلبس فوق الثياب.

(٤) الأدم: باطن أو ظاهر الجلد.

(٥) عطاء بن السائب: الثقفى محدث الكوفة كان من كبار العلماء، لكنه ساء حفظه قليلاً في أواخر عمره، وكان من خيار عباد الله تعالى، مات سنة ١٣٦ هـ (سير أعلام النبلاء ٦ / ١١٠).

(٦) السائب بن الأقرع: الثقفى ولأه عمر بن الخطاب على المدائن والقصة المذكورة هنا أوردها ابن الأثير في الكامل ج ٣ / ١٤).

(٧) المدائن: سماها العرب بذلك لأنها سبع مدائن بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة وآثارها باقية، لمّا زال ملك بنى أمية وبنى المنصور بغداد انتقل الناس إليها وهي اليوم قرية تبعد عن بغداد ستة فراسخ أهلها يفلحون ويزرعون وغالبهم شيعة وفيها قبر سلمان الفارسي قرب الإيوان. (معجم البلدان ٥ / ٧٥).

(٨) الإيوان: الصُفّة العظيمة أو المكان المتسع في البيت يحيطه ثلاثة حيطان ومنها إيوان كسرى في المدائن (والكلمة فارسية).

فاحتفروا فاستخرجوا منه سफطا^(١) فيه جوهر فكتب إلى عمر بن الخطاب، أما بعد : فإنني دخلت إيواناً من إيوان كسرى، فرأيت كذا وكذا، فاحتفرت فأخرجت سफطا فيه جوهر، فلم أجد أحقَّ به منك يا أمير المؤمنين، لم يكن من فيء^(٢) المسلمين فأقسمه بينهم، إنما أصبنا شيئاً تحت الأرض.

فلما قدم السَّفط علي عمر، وعليه خاتم السائب، فرأى عمر فيما يرى النائم، كأن ناراً أُجِّجَتْ وهو يراود أن يلقي فيها، فكتب إلى السائب : أن اقدم عليّ، قال : فقدمتُ عليه وهو يطوف في إبل الصدقة، فطفت معه إلى نصف النهار، ثم دعا بماء فاغتسل، ودعا لي بماء فاغتسلت، ثم ذهب إلى منزله، فأتى بلحم غليظ^(٣)، وخبز متحمش^(٤) فقال : أنظر من على الباب، فإذا سودان^(٥) من الصوفية، فأذن لهم، فجعل يأكل معهم، فإذا لحم غليظ لا أستطيع أن أسيغه، وقد كنت تعودت درمك^(٦)، أصبهان، إذا وضعته في فمي دخل بطني، ثم دعا بالسفط، وقال : أتعرف خاتمك؟ قلت : نعم، فقال كتبت ترفق لي تزعم أني أحق به، من أين أصبته؟ فأخبرته، قال : اذهب فاجعله في بيت مال المسلمين، حتى أقسمه بينهم.

وقال قتادة : قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشام، فصنع له طعام لم ير قبله مثله، فقال : هذا لنا؟ فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا، وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ قال خالد بن الوليد^(٧) : لهم الجنة، فاغرو رقت عينا عمر، وقال : لئن كان حظنا في هذا الطعام وذهبوا بالجنة، لقد باينونا بونا بعيداً.

وقال عبد الله بن عمر العمري : عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين قدم الشام قال لأبى عبيدة^(٨) : اذهب بنا إلى منزلك، قال : [ما تريد إلى أن

(١) السفط : وعاء كالقفة يعبأ فيه الطيب أو ما أشبهه من أدوات النساء.

(٢) الفىء : ما أخذ من الكفار بعد أن تنتهى الحرب أما الغنائم فما يؤخذ منهم والحرب قائمة.

(٣) لحم غليظ : أى قاس. (٤) خبز متحمش : جاف وصلب.

(٥) السودان : مجموعة من الناس الواحد سوداني يلبسون الصوف تقشفاً.

(٦) الدرمل : الدقيق الأبيض.

(٧) خالد بن الوليد : المخزومي القرشى سيف الله المسلول كان من أشرف قريش ومن فرسان الإسلام أسلم قبل فتح مكة سنة ٧ هـ مات فى حمص سنة ٢١ هـ. (الأعلام ٢ / ٣٠٠).

(٨) أبو عبيدة عامر بن الجراح : القرشى الأمير القائد فاتح الديار الشامية والصحابى وأحد العشرة المبشرين بالجنة، كان يلقب «أمين الأمة»، شهد كل المشاهد وقاد جيوش المسلمين بعد خالد بن الوليد حتى بلغ آسيا الصغرى شمالاً والفرات شرقاً توفى بطاعون عمواس ودفن فى غور بيسان سنة ١٨ هـ. (الأعلام ٣ / ٢٥٢).

تقصر عينك عليّ^(١)، قال : فدخل منزله ، فلم ير شيئاً ، فقال عمر : أين متاعك ؟ لا أرى إلا لبداً أو شناً^(٢) ، وصحفة ، وأنت أمير . اعندك طعام ؟ انقام أبو عبيدة إلى جُونة^(٣) فأخرج منها كسرات ، فبكى عمر . فقال أبو عبيدة : قد قلت لك تقصر عينك على يا أمير المؤمنين ، يكفيك من الدنيا ما بلغك المقييل ، فقال عمر : غرّتنا الدنيا بعدك يا أبا عبيدة .

وقال النخعي^(٤) : بعث عمر بن الخطاب مصدقين^(٥) ، فأبطأوا عليه وبالناس حاجة شديدة ، فجاءوا بالصدقات ، فقام فيها متزراً ، بعباءة ، يختلف في أولها وآخرها ، يقول : هذه لآل فلان ، وهذه لآل فلان ، حتى انتصف النهار وجاع ، ودخل بيته حتى إذا أمكن أكله أكله ، ثم قال : من أدخله طنه النار أبعد الله^(٦) .

وقال طاوس^(٧) : أجذب الناس على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فما أكل سمناً ولا سميناً حتى أكل الناس .

وقال سعيد بن جبیر^(٨) : إن علياً رضي الله عنه قدم الكوفة وهو خليفة ، وعليه إزاران قطريان ، قد رقع إزاره بخرقه - ليست بقطرية - من ورائه ، فجاءه أعرابي فنظر إلى تلك الخرقه ، فقال : يا أمير المؤمنين كل من هذا الطعام ، والبس واركب ، فإنك ميت أو مقتول ، قال : إن هذا^(٩) خير لي في صلاتي ،

(١) هكذا في (ط) ومعنى تقصر عينك أي تؤلمها . وفي (خ) : [ما تريد إلا أن تغض عينك عليّ] أي تخفض عينك استحياء مما ستجده عندي .

(٢) اللبد : بساط من شعر أو صوف . الشن : قربة يوضع فيها لماء .

(٣) الجونة : خابية مطلية بالقار .

(٤) الأشتر النخعي مالك بن الحارث : أمير من كبار الشجعان ، شهد اليرموك ، ذهبت عينه فيها ، شهد الجمل وصفين مع علي رضي الله عنه ، وكان من أشد أنصاره ، مات سنة ٣٧ هـ (الاعلام ٥ / ٢٥٩) .

(٥) مصدقين : الذين يجمعون أموال الصدقات .

(٦) سقطت كلمة (النار) من (ط) .

(٧) طاوس بن كيسان : سبقت ترجمته .

(٨) سعيد بن جبیر الأسدي : كوفي تابعي وأعلم التابعين على الإطلاق ، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر كان مع عبد الرحمن بن الأشعث لما خرج على عبد الملك بن مروان ولما قتل عبد الرحمن ذهب سعيد إلى مكة وهناك قبض عليه والي مكة وأرسله إلى الحجاج فقتله سنة ٩٥ هـ وما هي إلا أيام حتى مات الحجاج بنفس العام . (الاعلام ٣ / ٩٣) .

(٩) أي الإزار المرقوع .

وأصلح لقلبي ، وأشبه بسنة الصالحين قبلي ، وأجدر أن يقتدي بي من أتى من بعدي.

وقال الحسن : إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بينا هو يعسُّ في المدينة بالليل ، أتى على امرأة من الأنصار تحمل قربة ، فسألها ، فذكرت : أن لها عيالا ، وأن ليس لها خادم ، وإنها تخرج في الليل فتسقيهم الماء ، وتكره أن تخرج بالنهار ، فحمل عمر عنها القربة حتى بلغ منزلها ، وقال اغدى على عمر غدوة يُخَدِّمُكَ خادماً ، قالت : لا أصلُ إليه ، قال : إنك ستجدينه إن شاء الله تعالى ، فغدت عليه فإذا هي به ، فعرفت إنه الذي حمل قربتها ، فذهبت تولى ، فأرسل في إثرها وأمر لها بخادم ونفقة.

ولما حج عمر رضي الله عنه قال كم بلغت نفقتنا يا يرفأ^(٢)؟ قال : ثمانية عشر دينارا يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ، أجحفنا بيت مال المسلمين.

وقال شهر بن حوشب^(٣) : لما قدم عمر الشام ، طاف بكورها^(٤) حتى نزل حمص ، فقال : اكتبوا لي فقراءهم ، فرفعوا إليه الرقعة ، وإذا فيها سعيد بن عامر ، فقال : من سعيد بن عامر^(٥)؟ قالوا : أميرنا . فعجب عمر ، وقال : كيف يكون أميركم فقيراً؟ فقالوا : إنه لا يمسك شيئاً ، فبكى عمر ، وبعث إليه بألف دينار يستعين بها في حاجته ، فجعل يسترجع ، فقالت له امرأته : مالك؟ أصابك أمير المؤمنين بشيء؟ قال : أعظم من ذلك ، أتتني الدنيا ، دخلت على الدنيا ، وإنى سمعت النبي ﷺ يقول : «إن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل أغنيائها بأربعين عاماً»^(٦) فوالله ما يسرنى أني حبست عن الرعيل الأول ، وأن لى به ما طلعت عليه الشمس ، قالت : فاصنع فيه ما شئت ، قال : هل عندك معونة؟ قالت : نعم ، فأتته بخمارها ، فصر الدنانير فيها صريراً ، ثم جعلها في

(٢) يرفأ : خادم أو صاحب عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

(٣) شهر بن حوشب : فقيه قارئ من رجال الحديث شامى الأصل ، سكن العراق وقد ولى بيت المال مدة ، وهو متروك الحديث ولكنه كان ظريفاً ، من ذلك : قال له رجل : إني أحبك ، فقال : ولم لا تحبني وأنا أخوك في كتاب الله ووزيرك على دين الله ومؤنتى على غيرك مات سنة ١٠٠ هـ (الأعلام : ١٧٨ / ٣) .

(٤) الكُور : القرى أو البقع التى تجتمع فيها المساكن .

(٥) سعيد بن عامر الجمحي القرشى : صحابى ولاء عمر إمرة حمص بعد افتتاح الشام توفى فيها سنة ٢٠ هـ وكان مشهوراً بالزهد . (الأعلام ٩٧ / ٣) .

(٦) أخرجه ابن ماجه عن ابن عمر بلفظ (أن فقراء المهاجرين... خريفاً) والحديث صحيح (الجامع الصغير للسيوطى رقم ٢٣٠٥) .

مخللة، وبات يصلي ويبكي حتى أصبح، فأعرض جيشاً من جيوش المسلمين فأمضاها كلها، فقالت امرأته: رحمك الله، لو حبست منها شيئاً لنسنعين به، فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لو أطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض، لمألت الأرض من ريح المسك»^(١) وإنى والله ما أختارك عليهن فسكتن.

وروي أن عمر رضى الله عنه، استعمل على حمص رجلاً يقال له عمير بن سعد^(٢)، فلما مضت السنة، كتب إليه أن يقدم عليه، فلم يشعر به عمر إلا أن قدم ماشياً حافياً معه عكازته وأدواته ومزودته وقصعته على ظهره، فلما نظر إليه عمر قال: يا عمير أختنتنا؟ أم البلاد بلاد سوء؟ فقال: يا أمير المؤمنين: أما نهاك الله أن تجهر بالسوء، وعن سوء الظن، وما ترى من سوء الحال وقد جئتكم بالدينار أجراها بقرابها؟ فقال: وما معك من الدنيا؟ قال: عكازة أتوكأ عليها، وأدفع بها عدواً إن لقيته، ومزودى أحمل فيه طعامي، ودواتى هذه أحمل فيها ماء لشربى وصلاتى، وقصعتى هذه أتوضأ فيها، وأنسل فيها رأسى، وآكل فيها طعامى، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا تعد إلا تبعاً لما معى.

قال: فقام عمر من مجلسه إلى قبر رسول الله ﷺ وأبى بكر فبكى، ثم قال: (اللهم ألحقنى بصاحبى غير مفتضح ولا مبدل) ثم عاد إلى مجلسه.

ثم قال: ما صنعت فى عملك يا عمير؟ قال: أخذت الرقة من أهل الرقة^(٣)، والإبل من أهل الإبل، وأخذت الجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقى منها شيء عندى أتيتك به، فقال عمر: عد إلى عملك. فقال عمير: أنشدك الله أن لا تردنى إلى عملى، فإنى لم أسلم منه، - حتى قلت لذمى (أخزأك الله) ولقد خشيت أن يخاصمنى له محمد ﷺ ولقد سمعته يقول:

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والضياء عن سعيد بن عامر، والحديث صحيح (الجامع الصغير للسيوطى رقم ٧٤٠٦٩).

(٢) عمير بن سعد بن عبيد الأوسى: انصارى، صحابى، من الولاة الزهاد، شهد فتوح الشام، استعمله عمر بن الخطاب على حمص، فأقام فيها سنة، ثم دعاها إلى المدينة فجاءها، فلما أراد عمر إعادته أبى، ومات سنة ٤٥ هـ وقيل مات فى أيام عمر وكان عمر يقول: وددت أنى رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين بهم على أعمال المسلمين (الأعلام ٨٨/٥).

(٣) الرقة (الأولى) الدراهم أو نصاب الزكاة الخارج من الأرض ورد فى الحديث «فى الرقة ربع العشر» والرقة (الثانية) الأرض التي يصيبها المطر فى الحر فتنبت وتخضر

[أنا حبيج المظلوم؛ فمن حاججته حججته] (١) ولكن ائذن لي آتي أهلي، فأذن له، فأتى أهله، فبعث عمر رجلاً يقال له (خبيب) بمائة دينار، فقال: أتت عميراً، فأنزل عليه ثلاثاً (٢)، فإن يك خائناً، لم يخف عليك في عيشه، وحال أهل بيته، وإن لم يك خائناً لم يخف عليك، فادفع إليه المائة.

فأتاه خبيب فنزل به ثلاثاً، فلم ير له عيشاً إلا الشعير والزيت، فلما مضت ثلاث، قال: يا خبيب: إن رأيت أن تحول إلى جيراننا فلعل أن يكونوا أوسع عيشاً منا، أمّا نحن فوالله لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به.

قال فدفع إليه المائة، وقال: بعث بها إليك أمير المؤمنين، فدعا بفرو خلق (٣) لامراته، فصرّها الخمسة، والستة، والسبعة، فقسمها.

فقدم خبيب على عمر فقال: يا أمير المؤمنين: جئتك من عند أزهّد الناس، وما عنده من الدنيا لا قليل ولا كثير.

فبعث إليه عمر وقال: ما صنعت في المائة يا عمير؟ قال: لا تسلني عنها. قال: لتخبرني.

قال: قسّمتهأ بيني وبين إخواني المهاجرين والأنصار.

قال: فأمر له بوسقى طعام وثوبين، وقال: يا أمير المؤمنين: أما الثوبان فأقبل، وأما الوسقان فلا حاجة لي بهما، عند أهلي صاع من برّ هو كافيهما حتى أرجع إليهم.

وروي: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، صرّ أربعمائة دينار، وقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح (٤) ثم تلكأ ساعة في البيت، حتى ترى ما يصنع.

(١) لم أجد هذا الحديث في الصحاح من الكتب، وقد وردت هذه الحكاية بكاملها مع اختلاف في الألفاظ في (حلية الأولياء ١/ ٢٤٧)، ولم يرد ذكر لهذا الحديث!

(٢) أى أنزله في ضيافته ثلاثة أيام، وورد في الحلية أن اسمه: الحارث.

(٣) الفرو الخلق أو الثوب الخلق: أى البالي.

(٤) أبو عبيدة عامر بن الجراح: الأمير القائد فاتح الديار الشامية والصحابي الجليل، أحد العشرة المبشرين بالجنة كان يلقب (أمين الأمة) من السابقين للإسلام ولاه عمر قيادة الجيش الزاحف إلى الشام بعد خالد بن الوليد، فتح البلاد وتعلقت به قلوب الناس لرفقه وتواضعه توفي بطاعون عمواس ودفن في غور الأردن سنة ١٨ هـ. (الأعلام ٣/ ٢٥٢).

فذهب بها الغلام إليه وقال : يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك قال : وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالى يا جارية ، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان ، حتى أنفذها .

ورجع الغلام إلى عمر فأخبره ووجده قد أعد مثلها لمعاذ^(٢) فقال له : أذهب بهذه إلى معاذ بن جبل ، وتلكأ في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع فيها .

فذهب بها إليه وقال : إن أمير المؤمنين يقول لك : اجعل هذه في بعض حاجتك .

فقال : (رحمه الله وأوصله) ثم قال : يا جارية ، اذهبي إلى فلان بكذا ، وإلى فلان بكذا ، فقالت امرأة معاذ : ونحن والله مساكين فأعطنا ، ولم يبق في الخرقة إلا ديناران ، فرمى بهما إليها .

فرجع الغلام فأخبر بذلك عمر ، فقال عمر : إنهم إخوة بعضهم من بعض .

* * *

(٢) معاذ بن جبل : صحابي جليل وأعلم الأمة بالحلال والحرام ، أرسله الرسول ﷺ قاضياً ومرشداً إلى اليمن ، اشترك في فتوح الشام ، ولما أصيب أبو عبيدة في طاعون عمواس استخلف معاذاً وأمره عمر ومات في ذلك العام سنة ١٨ هـ . (الأعلام ٧ / ٢٥٨) .

الباب الموفى خمسين

فى سيرة السلطان فى تدوين الدواوين

وفرض الأرزاق وسيرة العمال

اعلم أرشدك الله تعالى : أن أول من اتخذ الدواوين^(١)، وأجرى الأعطية - على ما روي - عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكان يفضل أهل السابقة^(٢)، ثم الذين يلونهم، حتى أجرى على العامة شيئاً واحداً (ثلاثمائة، وأربعمائة) وفرض للعيال مائة درهم فى كل سنة.

وكان أبو بكر رضى الله عنه، يساوى بين الناس فى العطاء، ولا يفضل أهل السابقة، ويقول : إنما عملوا لله، فأجورهم على الله، وإنما هذا المال عرض حاضر، يأكله البر والفاجر، وليس ثمناً لأعمالهم.

وكان عمر يقول : لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه.

ولم يقدر عمر الأرزاق إلا فى ولاية عمار^(٣)، فأجرى على عمار ستمائة درهم، مع عطائه، وكتابه، ومؤذنيه، ومن كان يلى معه فى كل شهر، لما بعثه وبعث معه عثمان بن حنيف^(٤)، وابن مسعود^(٥) إلى العراق، وأجرى عليه فى كل يوم نصف شاة، ورأسها وجلدها وأكرعها، ونصف جريب^(٦) كل يوم.

(١) الدواوين : مفردا ديوان وهو هنا الكتاب الذى يكتب فيه أهل الجندية وأهل العطية وسواهم.

(٢) أهل السابقة : السابقون فى الدخول فى الإسلام.

(٣) عمار بن ياسر : صحابى أسلم قديماً وكان ممن عذب فى الله هو وأبوه وأمه سمية أول شهيدين فى الإسلام، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ولأه عمر بن الخطاب على الكوفة وشهد الجمل وصفين مع على بن أبى طالب واستشهد فى صفين سنة ٣٧ هـ. (الأعلام ٥ / ٣٦).

(٤) عثمان بن حنيف : الأنصارى الأوسى، صحابى شهد أحداً وما بعدها، ولأه عمر بن الخطاب على سواد العراق ثم ولأه على البصرة، ولما نشبت فتنة الجمل (بين عائشة وعلى) دعاه أنصار عائشة إلى الخروج معهم فامتنع ففتقوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه ثم أمرت عائشة رضى الله عنها بإطلاق سراحه ولحق بعلى فحضر معه الواقعة ثم سكن الكوفة وتوفى سنة ٤١ هـ. (الأعلام ٤ / ٢٠٥).

(٥) عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ وخادمه وقد سبقت ترجمته.

(٦) الجريب : مكيال، وهو أربعة أقدح حسب (مختار الصحاح) وعشرة أقدح حسب (لسان العرب)، والقفيز ثمانية مكايك، والمكوك صاع ونصف.

وأجرى على عثمان بن حنيف، رُبْع شاة، وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه، وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم.

وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم في كل شهر، وربْع شاة في كل يوم.

وأجرى على شريح القاضي^(١) مائة درهم في كل شهر وعشرة أجرة.

وإنما فضل عمّاراً عليهم لأنه كان على الصلاة.

قال مالك: وكان عمر لا يفرض لصغير رضيع، فإذا فُطم فرض له، فمر من الليل وصبي يبكي يبغي الرضاع، وأمه لا ترضعه، فقال لها عمر: أرضعيه، قالت: إذاً لا يفرض له عمر، قال: بلى هو يفرض له. ثم فرض عمر بعد ذلك للمولود مائة درهم في كل سنة.

قال ابن جبلة^(٢): وفرض عمر للعيالات، لكل عيّل من ذكر وأنثى جريبين من بُرّ في كل شهر، وقسطين من زيت، وقسطاً من خلّ، ومائة درهم في كل سنة - قال: والجريب: قفيز بالقرطبي^(٣)، والقسط: قدر ثمن ربع الزيت بالقرطبي.

قال الحسن: وكان عطاء سلمان^(٤) خمسة آلاف، وكان على زهاء ثمانين ألف من الناس، وكان يخطب الناس في عباءة، يلبس نصفها ويفترش نصفها، فإذا خرج عطاؤه أمضاه، وكان يسفّ الخوص^(٥) ويأكل من سفيف يده.

وقال الحسن: قدم على عمر بن الخطاب وفد من البصرة، مع أبي موسى الأشعري، قال: فكنا ندخل عليه، وله كل يوم خبز ثلاث، فربما وافقناها

(١) شريح القاضي ابن الحارث الكندي من أشهر القضاة الولاة في صدر الإسلام أصله من اليمن ولاه عمر على قضاء الكوفة وظل يقضى من المسلمين نحواً من ستين سنة متتابعة في عهد عمر وعثمان وعلي ومعاوية واستعفى على أيام الحجاج حيث بلغ عمره مائة وسبع سنوات له قصص مشهورة في القضاء مات بالكوفة سنة ٧٨ هـ. (الأعلام ٣ / ١٦١).

(٢) حكيم بن جبلة من بنى عبد القيس، صحابي، ولاه عمر إمارة السند ولم يستطع دخولها فعاد إلى البصرة كان ممن قاتل مع أصحاب علي وقطعت رجله فأخذها وضرب بها الذي قطعها فقتله بها وبقي يقاتل على واحدة ونزف دمه ومات سنة ٣٦ هـ. (الأعلام ٢ / ٢٦٨).

(٣) كذا في (ط)، وفي (خ) بالقرطبي: نسبة إلى بلاد القرظ وهي اليمن لأنها منابت شجر القرظ الذي يدبغ به (لسان العرب ٧٧ / ٤٥٤).

(٤) سلمان الفارسي، أصله من مجوس أصبهان، رحل يبحث عن الإسلام فقدم المدينة مملوكاً، وهو الذي دل المسلمين على حفر الخندق، ولاه عمر على المدائن وبقي فيها إلى أن توفي سنة ٣٦ هـ. (الأعلام ٣ / ٣٦).

(٥) الخوص: ورق النخل، ويسفّهُ أى ينسجه على شكل حصر وغيرها.

مأدومة بسمن، وأحياناً بزيت، وأحياناً باللبن، وربما وافقنا القديد^(١) اليابس قد دُقَّ، ثم أُغلي عليه بماء، وربما وافقنا اللحم الغريض^(٢)، وهو قليل، فقال لهم يوماً: إني أرى والله تقذيركم وكراهيتكم لطعامي، فإني لو شئت لكنت أطيّبكم طعاماً وأرقكم^(٣) عيشاً، أما والله ما أجهل كراكر^(٤) وأسمنه^(٥) وأعرف صلاء، وصنايا، وصلائق. قال: والصلاء: الشواء، والصناب: الخردل، والصلائق: الخبز الرقاق. ولكني سمعت الله تعالى غير أقواماً بأمر فعلوه فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] فكلّمنا أبو موسى فقال: لو كلّمتم أمير المؤمنين لفرض لكم من بيت المال طعاماً فأكلتموه، فكلّمناه، فقال: يا معشر الأمراء، هل ترضون لأنفسكم ما أرضاه لنفسى؟ فقلنا: يا أمير المؤمنين، إن المدينة أرض، العيش بها شديد، ولا نرى طعامك يغنينا، ولا يؤكل طعامك، وإنا بأرض ذات ريف، وإن أميرنا يغنينا، وإن طعامه يؤكل.

قال: فنظر ساعة ثم رفع رأسه وقال: قد فرضت لكم من بيت المال شاتين وجريبين، فإذا كان بالغداة فضع إحدى الشاتين على إحدى الجريبين وكل أنت وأصحابك، ثم ادع بشارب، ثم اسق الذي عن يمينك، ثم اسق الذي عن شمالك، ثم قم لحاجتك، وإذا كان العشاء، فضع الشاة الغابرة^(٦) على الجريب الآخر، فكل أنت وأصحابك، إلا وأوسعوا الناس في بيوتهم، وأطعموا عيالهم، والله ما أظن رستاقاً^(٧) يؤخذ منه كل يوم شاتان وجريان، إلا يسرعان في خرابه.

وكان عمر قد أطعم جريبين بالخل والزيت لثلاثين رجلاً فكفاهم، فأجراه على كل رجل في كل شهر، ممن كان في الديوان، مكان ما كانت فارس تجرية على خيولهم وأساورهم^(٨).

(١) القديد: اللحم المقطع.

(٢) أرقكم عيشاً: أرغدكم وأهناكم.

(٣) الكراكر: مفردا كركرة وهي صدر كل ذى خف من البهائم.

(٤) السنام: حذبة في ظهر الإبل.

(٥) الرستاق: كلمة فارسية معربة وتعني السواد أو الصف من الناس أو السطر من النخل.

(٦) الأساور: تعني عند الفرس القادة أو الفرسان الذين يرمون بالسهم.

وقال سعيد بن المسيَّب^(١) وأبو سلمة^(٢) : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا العيال ، يسلم على أبوابهن ، ويقول : ألكن حاجة ؟ وأيتكن تريد أن تشتري شيئاً ؟ فيرسلن معه بحوائجهن ، ومن ليس عندها شئ اشترى لها من عنده ، وإذا قدم الرسول من بعض الثغور ، يتبعهن بنفسه فى منازلهن بكتب أزواجهن ، ويقول : أزواجكن فى سبيل الله ، وأنتن فى بلاد رسول الله ، إن كان عندكن من يقرأ ، وإلا فاقربن من الأبواب حتى أقرأ لكن ، ثم يقول : الرسول يخرج يوم كذا وكذا ، فاكتبن حتى نبعث بكتبكن ، ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواة ، يقول : هذه دواة وقرطاس ، فادنين من الأبواب حتى أكتب لكن ، ويمرن إلى المغيبات^(٣) فيأخذ كتبهن ، فيبعث بها إلى أزواجهن .

وقال الربيع بن زياد الحارثي^(٤) : كنت عاملاً لأبى موسى الأشعري على البحرين ، فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بالقدوم عليه هو وعماله ، وأن يستخلفوا جميعاً ، فلما قدمت المدينة أتيت يرفاً^(٥) فقلت : يا يرفأ ، مسترشد وابن سبيل ، أى الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله ؟ فأوماً إلى الخشونة ، فاتخذت خفين مطارقين^(٦) ، ولبست جبة صوف ، ولست عمامتى على رأسى ، فدخلنا على عمر ، فصففنا بين يديه ، فصعد فينا وصوب^(٧) ، فلم تأخذ عينه غيرى ، فدعانى ، فقال : من أنت ؟ قلت : الربيع بن زياد الحارثي ، قال وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت : البحرين . قال : وكم ترزق ؟ قلت : ألفاً . قال : كثير ، فما تصنع بها ؟ قلت : أتقوت منها شيئاً ، وأعود على أقارب لى ، فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين ، قال : فلا بأس ، ارجع إلى موضعك ، فرجعت إلى موضعي من الصف ، فصعد فينا وصوب ، فلم تقع عينه إلا على ، فدعانى ، فقال : كم سنك ؟ قلت خمس وأربعون سنة ؟ قال : الآن حين استكملت .

(١) سعيد بن المسيَّب : سيد التابعين وأحد فقهاء المدينة السبعة جمع العلم والورع وكان يحفظ أحكام عمر وأفضيته حتى سمي « راوية عمر » توفي بالمدينة سنة ٩٤ هـ . (الأعلام ٣ / ١٠٢) .

(٢) الفقيه المحدث أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، توفي سنة ٩٤ هـ ، وقد سبقت ترجمته .

(٣) المغيبات : من غاب أزواجهن .

(٤) الربيع بن زياد الحارثي أمير فاتح ، ولى البحرين ، ولأه عبد الله بن عامر على سجستان ففتحت على يديه ، له أخبار مع عمر بن الخطاب ، بقى فى إمارته إلى أن توفي سنة ٥٣ هـ . (الأعلام ٣ / ١٤) .

(٥) يرفاً : خادم عمر بن الخطاب وحاجبه .

(٦) أى نعلين باليين وثوب طرائق أى خلق .

(٧) صعد فينا وصوب : أى تأمل فينا ناظراً من أعلى إلى أسفل .

ثم دعا بالطعام وأصحابي حديثو عهد بلين العيش، وقد تجوعنا له، فأتى بخبز وأعضاء بعير، فجعل أصحابي يعافون ذلك، وجعلت أكل، وجعلت أنظر إليه يلحظني من بينهم، ثم سبقت مني كلمة، تمنيت أني سَخْتُ في الأرض ولم أَقْلُهَا، فقلت يا أمير المؤمنين: إن الناس يحتاجون إلى سلامتك، فلنؤْ عمدت إلى طعام ألين من هذا؟ فزجرني ثم قال: كيف قلت؟ فقلت: قلت يا أمير المؤمنين: لو تنظر إلى قوتك من الطحين، أن يُخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم، ويطبخ لك اللحم كذا، فتؤتى بالخبز لنا، وباللحم غريضاً^(١).

فَسَكَنَ غِيظَهُ ثم قال: ههنا رُعْتُ؟ قلت: نعم، قال: يا ربيع: إنا لو شئنا لمألنا هذه الرحاب من صلائق وسنابك - يعني خبز الحوارى^(٢) - ولكني رأيت الله تعالى عاب على قوم شهواتهم فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] ثم أمر أبا موسى بإقرارى على عملى، وأن يستبدل بأصحابي.

وقال قبيصة بن ذؤيب^(٣). دعا عمر بن الخطاب عبيد الله بن سعد^(٤) - وكان على أهل حمص - فقال: علام يحبك أهل الشام؟ قال: إني أحبهم فأحبوني، قال: مَا لَكَ؟ قلت: عبيدي، وفرسي، وبعلي، وخادمي. قال: فماذا تلبس في الشتاء؟ قلت: عصاة أشد بها رأسى، وجبة وكساء، قال: فما تلبس في الصيف؟ قلت: قميصاً وربطة.

فأعطاني عمر ألف دينار. قال: خذها واستنفق منها، وأعط منها، قلت: لا أَرَبَ لى فيها^(٥)، وستجد من هو أحوج إليها منى، قال: خذها، فإن النبى ﷺ دفع إلى مالا، وهو دون الذى أعطيتك، فقلت له كما قلت لى، فقال: يا عمر: (ما آتاك الله من هذا المال، عطاء من غير أن تعرض له، أو تشرف له

(١) اللحم الغريض: الطرى.

(٢) خبز الحوارى: الدقيق الأبيض.

(٣) قبيصة بن ذؤيب الخزاعى، صحابى من الفقهاء والوجوه ولد فى حياة النبى ﷺ وكان على خاتم عبد الملك بن مروان بالشام توفى بدمشق سنة ٨٦ هـ (الأعلام ٥ / ١٨٩).

(٤) لعل المقصود هنا (عمير بن سعد) فهو من تنطبق عليه هذه الصفات الواردة فى النص والتي سبق الحديث عن مثلها فى الباب السابق لهذا الباب.

(٥) لا أرب لى فيها: لا حاجة لى فيها.

نفسك ، فاقبله) (١) فأخذه فانطلق به إلى امرأته ، فقال : أترين رجلاً له هذا ، من فقراء المهاجرين هو أم من الأغنياء ؟ فقالت : بل من الأغنياء .
فقسمها حتى بقيت منها صُرةً ، أظن فيها ثلاثين أو نحو ذلك ، فقالت له امرأته : أليس لى أنا حق ؟ فأعطاه إياها .

وقال رجاء بن حيوة (٢) : بينا نحن بخصاصة (٣) ، إذا بامرأة تسأل عن دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فأرشدناها إلى الدار ، فرأت داراً متهشمة ، فقالت لخياط هناك : استأذن لى على فاطمة (٤) - امرأة عمر بن عبد العزيز - قال : فادخلى وصوتى بها ، فإنها تأذن لك .

فدخلت ، فلما أبصرت ما هنالك ، قالت : جئت أرمُ فقري من بيت الفقراء ، وإذا رجل يعمل فى الطين ، فسألتها عن أمير المؤمنين ، فقالت : هو ذلك يعمل فى الطين .

فقالت له : يا أمير المؤمنين ، مات زوجى وترك ثمانى بنات ، فبكى عمر بكاء شديداً ، ثم قال لها : ما تريدين ؟ قالت : تفرض لهن ، قال : نفرض للكبرى ، ما اسمها ؟ قالت : فلانة . فكتبها . فقالت : الحمد لله ، قال : ما اسم الثانية ؟ قالت : فلانة . فكتبها ، فقالت : الحمد لله . حتى كتب السابعة . فقالت : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين . فطرح القلم من يده ، وقال لها : أما أنك لو وليت الحمد أهلها ، لأتممناهن لك . مرى السبع فليواسين هذه الثامنة .

* * *

(١) الحديث رواه النسائي عن عمر بلفظ (ما أتاك الله من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف فخذهُ فتموله أو تصدق به) والحديث صحيح (الجامع من الصغير للسيوطى رقم ٧٧٦٨) . ومعنى تشرف له نفسك : أي تطلبه .

(٢) رجاء بن حيوة : وزير خلفاء بن أمية ابتداء بعبد الملك بن مروان وانتهاء بعمر بن عبد العزيز سبقت ترجمته .

(٣) خصاصة : بليدة من أعمال حلب فى سوريا تحاذي قنسرين نحو البادية وهى نسبة إلى خصاصة بن عمرو ملك الشام قبل الإسلام ، (معجم البلدان ٢ / ٣٩٠) .

(٤) هى فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وزوجة عمر بن عبد العزيز .

الباب الحادى والخمسون

فى أحكام أهل الذمة

روى عبد الرحمن بن غنم^(١)، قال : كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ،
حين صالح نصارى أهل الشام :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من
نصارى مدينة كذا ، إنكم لما قدمتم علينا ، سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائنا
وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا ، أن لا نحدث فى مدائننا ولا
فيما حولنا (ديرا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب)^(٢) ولا نجدد ما خرب
منها ، ولا ما كان مختطا منها فى خطط المسلمين فى ليل ولا نهار ، وأن نوسع
أبوابها للمارة وابن السبيل ، وأن ننزل من مَرَبنا من المسلمين ثلاث ليال ،
نطعمهم ، ولا نؤوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم غشاً
للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً ،
ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أراد ، وأن نوَقِّر
المسلمين ، ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم فى
شئ من لباسهم ، من قلنسوة ، ولا عمامة^(٣) ولا نعلين ، ولا فرق شعر ، ولا
نتكلم بكلامهم ، ولا نتكنى بكناهم ، ولا نركب بالسروج ، ولا نتقلد
بالسيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتمنا
بالعربية ، ولا نبيع الخمر ، وأن نجزَّ مقدم رؤوسنا ، ولنلزم زِيناً حيثما كنا ،
وأن نشدَّ الزنابير على أوساطنا ، ولا نَظْهر صُلباننا وكتبنا فى شئ من طرق
المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقسنا فى كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً ، ولا
نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شئ من حضرة المسلمين ، ولا نخرج

(١) عبد الرحمن بن غنم : شيخ أهل فلسطين وفقه الشام فى عصره ، بعثه عمر بن الخطاب إلى
الشام ليفقه أهلها ، كان كبير القدر ورأس التابعين مات سنة ٧٨ هـ (الأعلام ٣ / ٣٢٢) .

(٢) (الدير - الكنيسة - القلية - الصومعة) أماكن للعبادة عند النصارى .

(٣) (القلنسوة والعمامة : مما يلبس على الرأس وهى على هيات متعددة .

شعانيننا^(١) ولا باعوثنا^(٢)، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نُظهر النيران في شئ من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، ولا نتطلع على منازلهم.

فلما أتيت عمر رضى الله عنه بالكتاب، زاد فيه: «ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شئ مما شرطناه لكم وضمنناه على أنفسنا، فلا ذمة لنا وقد حلّ منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق».

فكتب إليه عمر رضى الله عنه، أن أمض ما سألوه، وألحق فيه حرفين اشترطتهما عليهم، مع ما شرطوا على أنفسهم: أن لا يشتروا شيئاً من سبايا^(٣) المسلمين، ومن ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده.

وروى نافع، عن سالم - مولى عمر بن الخطاب - أن عمر كتب إلى أهل الشام في النصارى: أن يُقطع ركبهم، وأن يركبوا على الأُكف^(٤) وأن يركبوا في شق^(٥)، وأن يلبسوا خلاف زى المسلمين ليُعرفوا.

وروى: أن بنى تغلب، دخلوا على عمر بن عبد العزيز، فقالوا: يا أمير المؤمنين: إنا قوم من العرب، افرض لنا. قال: نصارى؟ قالوا: نصارى. قال: ادعوا لى حجّاماً. ففعلوا، فجزّ نواصيهم^(٦) وشقّ من أرديتهم حُزماً يتحزّمونها، وأمرهم أن لا يركبوا السروج، ويركبوا الأُكف من شقّ واحد.

وروى: أن أمير المؤمنين المتوكل^(٧)، أقصى اليهود والنصارى، ولم يستعملهم، وأذلهم وأقصاهم، وخالف بين زيهم وزى المسلمين، وجعل على

(١) الشعانين: أو السعانين عيد الأحد الذى قبل الفصح عند النصارى.

(٢) الباعوث: صلاة ثانى عيد الفصح عند النصارى أو صلاة فى طلب المطر (سريانية) والمعنى أن لا يظهرُوا شعائر عباداتهم علناً.

(٣) السبايا: الأسرى من الرجال والنساء، والغالب تخصيص الأسر بالرجال والسبى بالنساء.

(٤) الأُكف: جمع أكاف وهو البرذعة.

(٥) أى يركبوا عرضاً (أى الرجلان إلى جانب والظهر إلى جانب).

(٦) نواصيهم: مقدم شعر رؤوسهم.

(٧) المتوكل على الله جعفر بن المعتصم الخليفة العباسى العاشر الذى حارب المعتزلة ورفع المحنة عن الناس وكان موته على يد القادة الأتراك بالإشتراك مع ابنه المنتصر بداية انحطاط الدولة العباسية مات سنة ٢٤٧ هـ (الأعلام ٢/ ١٢٧).

أبوابهم مثلاً للشياطين، لأنهم أهل لذلك، وقرب منه أهل الحق، وباعد عنه أهل الباطل والأهواء، فأحيا الله به الحق، وأمات به الباطل، فهو يذكر بذلك، ويترحم عليه ما دامت الدنيا.

وكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول: لا تستعملوا اليهود وأنصارى، فإنهم أهل رشا^(١) في دينهم، ولا تحل في دين الله الرشا.

ولما استقدم عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعري من البصرة -وكان عاملاً عليها- للحساب، دخل على عمر وهو في المسجد، فاستأذن لكتابه، -وكان نصرانياً-، فقال له عمر: قاتلك الله -وضرب بيده على فخذه- ولئت ذمياً على المسلمين؟! أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] ألا اتخذت حنيفاً؟^(٢) فقال: يا أمير المؤمنين: لى كتابته وله دينه، فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله.

وكتب بعض العمال إلى عمر بن الخطاب: إنَّ العدد قد كثر، وأن الجزية قد كثرت، أفنستعين بالأعاجم؟ فكتب إليه عمر: إنهم أعداء الله، وإنهم لنا غشّة^(٣)، فأنزلوهم حيث أنزلهم الله، ولا تردوا إليهم شيئاً.

وقال عمران بن أسد: أتانا كتاب عمر بن عبد العزيز، إلى محمد بن المنتشر^(٤)، أما بعد: فإنه بلغنى أن فى عملك رجلاً يقال له: حسان بن برزى، على غير دين الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧] وإذا أتاك كتابي هذا، فادع حسان إلى الإسلام، فإن أسلم فهو منا ونحن منه، وإن أبى فلا تستعن به، ولا تأخذ من غير أهل الإسلام على شىء من أعمال المسلمين، فقرأ الكتاب عليه، فأسلم.

(١) الرشا: الرشوة ما يعطى لإبطال حق أو إحقاق باطل.

(٢) الحنيف: المتمسك بالإسلام أو صحيح الميل إليه والحنفية ملة إبراهيم عليه السلام.

(٣) الذين يَغشَوْنَ الناس، وتجمع على غَشَّاشٍ وغَشَّشه.

(٤) محمد بن المنتشر: كان خليفة عبد الحميد بن عبد الرحمن على واسط وكان رجل ثقة له أحاديث قليلة عن رسول الله ﷺ.

«ولما خرج النبي ﷺ إلى بدر، تبعه رجل من المشركين فلحقه عند الحرة^(١)، فقال: إني أريد أن أتبعك وأصيب معك، قال: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا، قال: ارجع، فلن نستعين بمشرك، ثم لحقه عند الشجرة^(٢)، ففرح به أصحاب النبي ﷺ، وكانت له قوة وجلد، فقال: جئتكم لأتبعكم وأصيب معكم، قال: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا، قال: ارجع، فلن نستعين بمشرك، ثم لحقه على ظهر البداء^(٣)، فقال له مثل ذلك، قال: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم. فخرج به»^(٤).

وهذا أصل عظيم في أن لا يستعان بكافر، هذا وقد خرج ليقاتل بين يدي النبي ﷺ ويراق دمه، فكيف استعملهم على رقاب المسلمين؟! وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: ان لا تولوا على أعمالنا إلا أهل القرآن، فكتبوا إليه: أنا وجدنا فيهم خيانة، فكتب إليهم. إن لم يكن في أهل القرآن خير، فأجدر أن لا يكون في غيرهم خير.

* * *

فصل فيما يتميز به الذمي وحكم نقضه للعهد^(٣):

ومتى نقض الذمي العهد، بمخالفته لشيء من الشروط المأخوذة عليه، لم يُرد إلى مأمنه، والإمام فيه بالخيار بين: القتل والاسترقاق.

(١) الحرة: أرض ذات حجارة سود تقع شرق المدينة المنورة.

(٢) أى شجرة الرضوان التى ورد ذكرها في القرآن الكريم (الآية ١٨ من سورة الفتح) التى وقعت تحتها بيعة الرضوان وهى بأرض الحديبية.

(٣) البداء: الصحراء أو الفلاة من الأرض.

(٤) الحديث صحيح. رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها تحت باب (كراهة الاستعانة في الغزو بكافر)، والإمام أحمد في مسنده (٦/ ١٤٨)، كما رواه النسائي والترمذي وقال حديث حسن غريب.

(٣) من إضافات المحقق، ومما يستفاد في أحكام أهل الذمة وجوب تميزهم عن المسلمين في أربعة أشياء:

- اللباس: بحيث يلبسوا ثوبا يخالف لون سائر الثياب مع شد زنار أو وضع طرفه في عمامته ليقع الفرق.

- الركوب: لا يركبوا الخيل لأن في ركوبها عز لهم وركوب ما سواها ويركبون عرضا أى (رجلاه إلى جانب وظهره إلى آخر).

وقال أصحاب الشافعي: ويلزمهم^(١) أن يتميزوا عن المسلمين في اللباس، وإن لبسوا قلانس^(٢): ميزوها عن قلانس المسلمين بالخرق^(٣)، ويشدون الزنانير في أوساطهم، ويكون في رقابهم خاتم من رصاص، أو نحاس أو جرس يدخل معهم الحمام، وليس لهم أن يلبسوا العمائم^(٤) والطيلسان^(٥)، وأما المرأة، فتشد الزنار تحت الإزار، وقيل فوق الإزار - وهو أولى - ويكون في عنقها خاتم يدخل معها الحمام، ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض.

ولا يركبون الخيل، ويركبون البغال والحمير بالأكف عرضاً، ولا يركبون بالسروج، ولا يتصدرون في المجالس، ولا يُبدؤون بالسلام. ويلجئون إلى أضيق الطريق.

ويُمنعون أن يعلوا على المسلمين في البناء، وتجاوز المساواة، وقيل لا تجوز بل يمنعون، وإن تملكوا داراً عالية أقرؤا عليها. ويُمنعون من إظهار المنكر كالخمر، والخنزير، والناقوس، والجهر بالتوراة والإنجيل.

ويُمنعون من المقام في الحجاز وهي (مكة والمدينة واليمامة).

ويجعل الإمام على كل طائفة منهم رجلاً يكتب أسماءهم وحلّاهم ويستوفي جميع ما يؤخذون به من جميع الشروط، وإن امتنعوا من أداء الجزية والتزام أحكام الملة انتقض عهدهم، وإن زنى أحدهم بمسلمة، أو أصابها بنكاح، أو آوى عينا للكفار، أو دلّ على عورة للمسلمين، أو فتن مسلماً عن دينه، أو قتله، أو قطع عليه الطريق، أو ذكر الله ورسوله ﷺ بما لا يجوز، قيل: ينتقض^(٦).

= - الشعور: يحلقون مقادير رؤوسهم ولا يفرقوا شعورهم لأن النبي ﷺ فرق شعره.

- الكنى: لا يتكنا بكنى المسلمين مثل أبي القاسم أو أبي محمد...

(انظر تفصيل الأحكام في كتب الفقه مثل المغنى - ابن قدامة ج ٨ ص ٥٣٠ وما بعدها)

(١) أي أهل الذمة.

(٢) القلنسوة: ما يلبس على الرأس وهي على هيئات متعددة.

(٣) الخرق: مفردا خرقة وهي قطعة قماش.

(٤) العمائم: تلبس على الرأس ويتميز بها المشايخ.

(٥) الطيلسان: كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء.

(٦) أي ينتقض العهد.

وإن فعل ما يُمنع منه مما لا ضرر فيه، كترك الغيار^(١)، وإظهار الخمر، وما أشبههما، عَزَرَ عليه^(٢)، ومتى فعل ما يوجب نقض العهد، ردَّ إلى مأمنه في أحد القولين، وقتل في الحين في القول الآخر.

* * *

فصل: في تقدير الجزية(*):

في تقدير الجزية اختلاف بين العلماء، فقليل: إنها مَقْدَرَةُ الأقل والأكثر، على ما كتب به عمر إلى عثمان بن حنيف^(٣) بالكوفة، فوقع على الغنى ثمانية وأربعون درهماً، وعلى من دونه أربعة وعشرون درهماً، وعلى من دونه اثنا عشر درهماً، وهذا مذهب أبي حنيفة، وابن حنبل، وأحد قَوْلِي الشافعي، وجعلوه كأنه حكم إمام فلا ينقض.

وقيل: إنها مردودة إلى الإمام، في الزيادة والنقصان، وهو الأقيس. وقيل: إنها مَقْدَرَةُ الأقل دون الأكثر، فيجوز للإمام أن يزيد على ما قدره عمر، ولا يجوز أن ينقص عنه، وقال بعضهم: يجوز أن يساوي بينهم، من كل واحد دينار.

وقال مالك: يؤخذ من الموسر أربعون درهماً، ومن الفقير دينار وعشرة دراهم، ويتخرج على مذهب مالك في وجوب تقدير طرفيها قولان، بناء على العشر المأخوذ منه، هل هو تقدير شرعي لا تجوز فيه الزيادة والنقصان؟ وعن مالك فيه روايتان.

ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن^(٤)، سلام عليك، أما بعد: فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة، وجور من العمال،

(١) الغيار: أي الحمية والنخوة.

(٢) عَزَرَ عليه: أي عوقب بعقوبة التعزير التي يقررها الحاكم.

(*) من إضافات المحقق.

(٣) عثمان بن حنيف والي عمر بن الخطاب على سواد العراق ثم البصرة، سبقته ترجمته.

(٤) عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العدوي وال من أهل المدينة، ثقة في الحديث،

استعمله عمر بن عبد العزيز على الكوفة وتوفي بحران في خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١١٥ هـ، الأعلام (٢٨٦/٣).

وَسَنَنْ سَيِّئَةً سَنَهَا عَلَيْهِمْ عُمَالُ السَّوْءِ، فَأَحْرَزُ^(١) عَلَيْهِمْ أَرْضَهُمْ، وَلَا تَحْمِلُ خَرَاباً عَلَى عَامِرٍ، وَلَا عَامِراً عَلَى خَرَابٍ، وَلَا تَأْخُذُ مِنَ الْخَرَابِ إِلَّا مَا يَطِيقُونَ، وَلَا مِنَ الْعَامِرِ إِلَّا وَظِيفَةُ الْخَرَاكِ، إِلَّا وَزَنَ سَبْعَةَ^(٢) لَيْسَ لَهَا أَسٌّ، وَلَا أَجُورُ الضَّرَابِينَ^(٣) وَلَا أَدَاةُ الْفِضَّةِ، وَلَا هَدِيَّةُ النِّيروزِ^(٤) وَالْمَهْرَجَانِ^(٥) وَلَا ثَمَنُ الْمَصْحَفِ، وَلَا أَجُورُ الْبَيُوتِ، وَلَا دِرَاهِمُ النِّكَاحِ، وَلَا خَرَاكِ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَالْوَاجِبُ أَنْ يُؤْخَذَ مَا ضَرَبَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : وَهُوَ مِنْ كُلِّ جَرِيْبٍ كَرَمٍ عَشْرَةَ دِرَاهِمٍ، وَمِنْ كُلِّ جَرِيْبٍ نَخْلٍ ثَمَانِيَةَ دِرَاهِمٍ، وَمِنْ كُلِّ جَرِيْبٍ حَنْطَةٌ أَرْبَعَةَ دِرَاهِمٍ، وَمِنْ كُلِّ جَرِيْبٍ شَعِيرٍ دَرَاهِمَانِ.

* * *

فصل: عن الكنائس (بناؤها - هدمها) (*):

وَأَمَّا الْكِنَائِسُ: فَأَمْرُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنْ تَهْدَمَ كُلُّ كَنِيسَةٍ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَمَنْعُ أَنْ تُحْدِثَ كَنِيسَةً وَأَمْرُ أَنْ لَا تُظْهَرَ عَلَيْهِ^(٦) خَارِجَةً مِنْ كَنِيسَةٍ، وَلَا يُظْهَرَ صَلِيبٌ خَارِجٌ مِنْ كَنِيسَةٍ إِلَّا كَسَرَ عَلَى رَأْسِ صَاحِبِهِ. وَكَانَ عُرْوَةُ بْنُ مُحَمَّدٍ^(٧) يَهْدِمُهَا بِصَنْعَاءَ، وَهَذَا مَذْهَبُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ.

وَشَدَّدَ فِي ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَأَمْرُ أَنْ لَا يَتْرَكَ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ بَيْعَةٌ^(٨)، وَلَا كَنِيسَةٌ (بِحَالٍ) قَدِيمَةٌ وَلَا حَدِيثَةٌ.

(١) احرز عليهم أرضهم: احفظها لهم.

(٢) وزن سبعة: أي سبعة مثاقيل، حيث أن المعتبر في زكاة الدراهم أن تكون العشرة منها بوزن سبعة مثاقيل (انظر: حاشية ابن عابدين ٢ / ٢٩٥).

(٣) الضرابين: المحاسبين الذين يحسبون أموال الخراج والزكاة وغيرها.

(٤) النيروز عند الفرس أول يوم من أيام السنة الشمسية وهو يوم الفرج عندهم (فارسية).

(٥) المهرجان احتفال عظيم عند الفرس وهو يوم عيدهم.

(*) من إضافات المحقق.

(٦) العلية: كل مكان مشرف من البناء.

(٧) عروة بن محمد بن عطية السعدي: عامل عمر بن عبد العزيز على اليمن، قال ابن حجر: إنه مقبول الرواية، مات بعد العشرين ومائة من الهجرة.

(٨) البيعة: المعبد سواء للنصارى أو اليهود.

وهكذا قال الحسن البصرى، قال: من السنة أن تهدم الكنائس، التى فى الأمصار القديمة والحديثة، ويمنع أهل الذمة من بناء ما خرب .
قال الاصطخرى^(١): إن طينوا ظاهر الحائط منعوا، وإن طينوا داخله الذى يليهم لم يمنعوا، ويمنعون أن يعلوا على المسلمين فى البناء، وتجاوز المساواة، وقيل لا تجوز.

* * *

(٤) الأصطخرى: الحسن بن أحمد بن يزيد الاصطخرى فقيه شافعى ولى قضاء قم (بين أصفهان وساعة) ثم ولى حبة بغداد واستقضاها الخليفة العباسى المقتدر على سجستان توفى سنة ٣٢٨ هـ (الأعلام ١٧٩ / ٢).

والإصطخرى: نسبة إلى اصطخر وهى من أقدم مدن فارس فيها آثار عظيمة من الأبنية وكان بها سرير الملك فى القديم، وأول من أنشأها اصطخر بن طهمورث ملك الفرس ينتسب إليها جماعة وافرة من أهل العلم منهم الحسن بن أحمد الإصطخرى. (معجم البلدان ١ / ٢١١).

الباب الثاني والخمسون

فى بيان الصفات المعتبرة فى الولاية

اعلم أرشدك الله تعالى: أن منزلة العمال من الوالى، منزلة السلاح من المقاتل، فاجتهد جهدك فى ابتغاء صالح العُمال.

وإذا فقد الوالى عُمال الصدق، كان ك فقد المقاتل السلاح يوم الحرب.

ويحتاج إلى طبقات الرجال كما تحتاج الحرب إلى أصناف العُدّة، فمنها الدرق للاستجنان^(١)، والسيف للمناجزة^(٢)، والرمح للمطاعنة، والسهم للمباعدة، والدرع للتحصن^(٣)، ولكل منها موضع ليس للآخر.

والرجال للملك كالأداة للصانع، لا يسد بعضها مسدّ بعض، كذلك طبقات الرجال للملك، منهم للرأى والمشورة، ومنهم لإدارة الحرب، ومنهم لمباشرة الحرب، ومنهم لجمع الأموال، ومنهم لحفظها، ومنهم للحماية، ومنهم للكتابة، ومنهم للجمال والفخر، ومنهم للمباهاة والذكر، ومنهم للدُّعاء والوقار، ومنهم للعلم والفُتيا وحفظ أساس الملة، فلا يكمل للملك مُلكٌ ما لم يجمع هذه الطبقات.

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: لما مات كسرى بلغ موته رسول الله ﷺ فقال: «من استخلفوا؟ قالوا: ابنته بوزان، قال: «لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة»^(٤).

وقال ابن عباس: لما كانت فتنة الحرة^(٥) قيل: من استعمل القوم؟ قالوا:

(١) الدرق للاستجنان: أى التروس للاستتار بها من الطعان والضربات (يقال استجنّ بالشيء: استتر به).

(٢) السيف للمناجزة: للمبارزة والقتال.

(٣) أى يستعمل الرمح للطعن من قريب، والسهم للرّمى من بعيد، والدرع للوقاية من الضربات.

(٤) الحديث: رواه الإمام أحمد فى مسنده والبخارى والترمذى والنسائى عن أبى بكر بلفظ (لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة) والحديث صحيح (الجامع الصغير للسيوطى رقم ٧٣٩٣).

(٥) فتنة الحرة أو وقعة الحرة: وقعت فى شرق المدينة فى الحرة حين استباح جيش يزيد بن معاوية بقيادة مسلم بن عقبة المدينة المنورة.

عبد الله بن مطيع^(١) على قريش، وعبد الله بن حنظلة الراهب^(٢) على الأنصار، قال: أميران؟ هلك والله القوم.

وليس يشترط النسب^(٣) إلا في الإمامة العظمى دون سائر الولايات.

ولما استحضر هشام بن عبد الملك، زيد بن علي بن الحسين - وكان من الخطباء - قال له هشام: بلغني أنك تخطب الخلافة، ولا تصلح لها، لأنك ابن أمة، قال زيد: فقد كان إسماعيل بن إبراهيم ابن أمة، وإسحق بن حرة، ومحمد ﷺ من ولد إسماعيل. ثم اتهمه في أمر، فقال له زيد: أنا أحلف لك، قال هشام: ومن يصدقك؟ قال زيد: إنه ليس أحد فوق أن يأمر بتقوى الله، ولا أحد دون أن يؤمر بتقوى الله.

وقال بعض الخلفاء: دلوني على رجل استعمله على أمر قد أهمنى، قالوا: وكيف تريده؟ قال: إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم، وإذا كان في القوم وهو أميرهم كان كأنه رجل منهم، قالوا: ما نعلمه إلا الربيع بن زياد الحارثي^(٤)، قال: صدقتم، هو لها.

= وسبها: ان أهل المدينة لما خلعوا يزيد بن معاوية، ولوا على قريش عبد الله بن مطيع، ولوا على الأنصار عبد الله بن حنظلة، فأخذ كل منهم يخطب ويقول خلعت يزيداً كما أخلع عمامتي أو كما أخلع نعالِي ويرميها، حتى اجتمع شيء كثير من النعال والعمائم.. ولكن لم يبايعهما كل أهل المدينة فكان بنو أمية هناك وكذلك عبد الله بن عمر لم يبايع.. فلما علم يزيد بن معاوية أرسل جبشاً بقيادة مسلم ابن عقبة وقال له: ادع القوم ثلاثة أيام فإن رجعوا وإلا أبح المدينة ثلاثة أيام ولما نزل مسلم بن عقبة ورفض القوم إلا القتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم انهزم أهل المدينة وقتل عبد الله بن مطيع وقيل أنه فر ونجا من الموت وقتل مع ابن الزبير سنة ٧٣ هـ، كما قُتل عبد الله بن حنظلة وخلق كثير، ثم أباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد، وقتل خلقاً كثيراً من أشrafها وقرائها وانتهب أموالاً كثيرة منها، ووقع شر عظيم وفساد كبير.. (البداية والنهاية - ابن كثير - ج ٨ ص ٢١٧ وما بعدها ضمن أحداث سنة ٦٣ هـ).

(١) عبد الله بن مطيع بن الأسود العدوي: من جلة قريش جلدأ وشجاعة، كان على قريش يوم الحرة، فلما انهزم قيل أنه قتل وقيل أنه فر إلى مكة المكرمة وقتل فيها مع ابن الزبير في حصار الحجاج سنة ٧٣ هـ، (الأعلام ٤ / ١٣٩).

(٢) عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر الراهب الأنصاري الأوسي، استشهد والده في أحد وهو جنين في بطن أمه فنشأ يتيماً، ولأه أهل المدينة أمرهم فبايعهم على الموت، وما زال يقاتل حتى قتل سنة ٦٣ هـ، (الأعلام ٤ / ٩٩).

(٣) سقطت كلمة: [النسب] من (ط).

(٤) الربيع بن زياد الحارثي: ولي البحرين وسجستان وتوفي سنة ٥٣ هـ أى في خلافة معاوية بن أبي سفيان وقد سبقت ترجمته.

ويروى أن عمر بن عبد العزيز استشار في قوم يستعملهم، فقال له بعض أصحابه: عليك بأهل العدل، قال: ومن هم؟ قال: الذين إن عدلوا فهو ما رجوت، وإن قصروا قال الناس: اجتهد عمر.

ولما قدم البريد من بشر بن مروان^(١) على عبد الملك بن مروان سأله عن بشر، قال: يا أمير المؤمنين: هو الشديد في غير عنف، اللين في غير ضعف، فقال عبد الملك، ذلك الأعسر^(٢) الأجود، الذي كان يأمن عنده البريء، ويخاف لديه السقيم، ويعاقب على قدر الذنب، ويعرف موضع العفو، الشديد في غير عنف، اللين في غير ضعف، كما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وقال الحكيم: اعتبر الرجال بأفعالهم لا بعظم أجسامهم، فإن النسر مع عظمه لا يأكل إلا ميتاً، وطير الماء مع ضعفه يتحامي ميت السمك، ويأكل الحي منها.

وفى حكم الهند: السلطان الحازم ربما أحب الرجل فأقصاه وأطرحه مخافة ضره، كالملسوع يقطع أصبعه لئلا ينتشر السم في جسمه، وربما أبغض الرجل فأكره نفسه على توليته وتقريبه، لغناء يجده عنده، كتكأره المرء على الدواء البشع لنفعه.

إلا أن للإسلام شروطاً، فلا تستقيم هذه السيرة عليها، ألا ترى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه، لما أفضت الخلافة إليه، كان معاوية والياً على الشام، من قبل عمر ثم عثمان، فاستشار في أمره، فقال له بعضهم: أقره على إمرته وأرسل إليه بعهدده، فإذا دخل بيعتك فاعزله، فقال له: رحمك الله، أتأمرنى أن أطلب العدل بالجور؟ ثم عزله، فكأنه سبب عصيانه، وهكذا أشاروا عليه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو فضلت هؤلاء الأشراف ومن نتخوف منهم، وإنما الناس أصحاب دنيا، حتى إذا استوثق الأمر عدت إلى التسوية، فقال: أتأمرنى أن أطلب العدل بالجور فيمن وليت عليه؟! والله لو كان مالى لسويت بينهم ولم أفضل بعضهم على بعض، فكيف والمال لهم.

(١) بشر بن مروان: أخو عبد الملك بن مروان وكان والياً على البصرة والكوفة توفي سنة ٧٥ هـ.

(٢) الأعسر: الذى يعمل بشماله والعامية تقول (عسراوى).

وإعطاء المال في غير حقه تبذير وسرف، وهو يرفع ذكر صاحبه في الدنيا، ويضعه عند الله في الآخرة، ولن يضع امرؤ ماله في غير حقه وعند غير أهله، إلا حرمه الله تعالى شكرهم، ويصير لغيره وذهم، فإن بقي معه منهم من يظهر له الود والشكر، فذلك ملق وخديعة لينال منه، فإن زلت به النعل يوماً ما، فاحتاج إلى معونته ومكافأته على ما سلف من مبرته فشر خليل، وألأم خدين^(١).

وإياك أيها الوالي وحب المدح، فإن من أحب المدح عد كمن مدح نفسه، وإذا علم ذلك منك، جعله الناس سلماً لقضاء حوائجهم منك، فحينئذ يكون قضاء الحوائج لنفسك لا لهم، وقال النبي ﷺ: «احتشوا في وجوه المداحين التراب»^(٢).

وسمع النبي ﷺ رجلاً يمدح رجلاً فقال: «قطعت ظهر أخيك، لو سمعها ما أفلح بعدها»^(٣).

ووصف أعرابي أميراً، فقال: كان إذا ولى لم يطابق بين جفونه، وأرسل العيون على عيونه، فهو غائب عنهم شاهد معهم، فالمحسن راج والمسيء خائف.

وقال عبد الله بن الزبير^(٤) يوماً: لا يبعدن ابن هند^(٥)، أن كانت فيه لمخارج^(٦) ما نجد لها في أحد بعده أبداً، والله أن كنا لنعرفه وما الليث

(١) الخدين: الصديق أو صاحب.

(٢) الحديث: رواه ابن ماجة عن المقداد بن عمرو، والهيثمى فى موارد الظمان عن ابن عمر والحديث فى صحيح (الجامع الصغير ١ / ١٠، رقم ٢٣٤).

(٣) الحديث: رواه الطبرانى عن أبى بكر (كنز العمال ٣ / ٨٢٣٦).

(٤) عبد الله بن الزبير بن العوام واه اسماء بنت أبى بكر، هاجرت وهى حامل به، صحابى جليل شهد معركة الجمل مع أبيه، ولما مات معاوية، بويغ بالخلافة فكان على الحجاز واليمن والعراق ومصر وسائر بلاد الشام إلا دمشق وذلك سنة ٦٤ هـ ولما مات يزيد وابنه معاوية واستلم الأمر مروان بن الحكم فى دمشق أخذت الحروب تشتعل بينهم ولما تولى الأمر عبد الملك بن مروان بعث إليه الحجاج الذى حاصر مكة المكرمة وهدم الكعبة وقتل ابن الزبير سنة ٧٣ هـ. (البداية والنهاية ٨ / ٣٣٢).

(٥) ذكر هذا القول ابن كثير فى البداية والنهاية بلفظ (لله در ابن هند) والمقصود معاوية بن أبى سفيان وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة (ص ١٣٦).

(٦) أى أشياء يخرج بها أو يمتاز بها.

الْحَرْبُ^(١) على برائته بأجرأ منه، فيتفارق^(٢) لنا وإن كنا لنخدعه، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدْهَى^(٣) منه، والله لوددت أنا مُتَّعنا به ما دام في هذا حجر - وأشار إلى أبي قبيس^(٤) - لا يتخَوَّنُ له عقل ولا ينتقصُ له قوة.

وقال الصَّنَابِخِيُّ^(٥): كتب عمر بن الخطاب، إلى أبي عبيدة^(٦) كتاباً في مثل أذن الفارة: أما بعد؛ فإنه لا يقيم أمر الله في الناس إلا: حصيف العقدة^(٧)، بعيد الغرّة^(٨)، لا يطلع الناس منه على عورة، ولا يحقن^(٩) في الحق على الجرأة، ولا يخاف في الله لومة لائم.

وقال مالك: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وسأله أن يكتب له كتاباً في أمر، فقال: اذهب إلى منزلنا فأتني بدواة وقرطاس، فذهب فلم يجد، فقال: اطلب عندهم شيئاً، فذهب فلم يجد عندهم إلا أذن مزود، فكتب له في تلك الأذن.

ولما ولي المأمون يحيى بن أكثم^(١٠) قضاء البصرة، بعد أن استمحن عقله وعلمه، وامتحنه بمسائل، فوجده فوق ما يريد، فتلقاه وجوه البصرة، فرأوا شاباً صبيهاً ما بقلت^(١١) لحيته، فتعجبوا ونظر بعضهم إلى بعض، يقلّبون الأكف، ويغمزون الحواجب، فقال له بعضهم: كم سنّ القاضي - أصلحه

(١) الْحَرْبُ: شديد الغيظ والغضب.

(٢) أى إن أردنا إخافته فإنه يظهر الفرق والخوف والفرع ولكنه ليس به.

(٣) الدهاء: المكر والخداع.

(٤) أبو قبيس: جبل شرقى مكة وهو أقرب الجبال إلى المسجد الحرام.

(٥) عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحي: نزيل دمشق، قدم المدينة بعد وفاة النبي ﷺ بليال خمس، وصلى خلف الصديق، وبقي إلى زمان عبد الملك بن مروان وكان يجلس معه. (الإصابة ١٠٥/٥).

(٦) أبو عبيدة عامر بن الجراح ولاء عمر على جيوش المسلمين في الشام بعد أن عزل خالد بن الوليد، وقد سبقت ترجمته.

(٧) الحصيف: جيد الرأي محكم العقل، ويقال أحصف الحبل: إذا شدّ فتلته.

(٨) الغرة: تطلق على أول كل شيء وأكرمه، يقال: فلان غرة قومه: أى أكرمهم وأفهمهم، وتطلق على الخبرة والعلم.

(٩) الحنق: شدة الاغتيال.

(١٠) يحيى بن أكثم: من كبار الفقهاء ولاء المأمون على قضاء بغداد والبصرة مات سنة ٢٤٢ هـ.

(١١) ما بقلت لحيته: أى لم يظهر فيها شعر.

الله-؟ قال : مثلُ سِنِّ عَتَّابِ بنِ أُسَيْدٍ^(١)، لما ولّاهُ النبي ﷺ مكة، فهابوه لحدّةِ جوابه، وعرفوا فضله، وكان لعتاب بن أُسَيْدٍ إحدى وعشرون سنة لما ولى مكة.

وكان عمر يقول : لا يصلح أن يلي أمور الناس، إلا حَصِيفُ العقل، وافر العلم، قليل الغرّة^(٢)، بعيد الهمة، شديد في غير عنف، لِينٌ في غير ضعف، جوادٌ في غير سرف، لا يخاف في الله لومة لائم.

وقال أيضا : ينبغي أن يكون في الوالى من الشدة، ما يكون ضرب الرقاب عنده في الحق كقتل عصفور، ويكون فيه من الرقة والحَنُوّ والرأفة والرحمة، ما يجزع من قتل عصفور بغير حق.

ويروى أن الرشيد أحضر رجلاً ليؤليه القضاء، فقال له : إني لا أحسن القضاء ولا أنا فقيه، فقال له الرشيد فيك ثلاث خلال : لك شرفٌ؛ والشرف يمنع صاحبه من الدناءة، ولك حلم يمنعك من العجلة، ومن لم يعجل قلَّ خطؤه، وأنت رجل تشاور في أمرك، ومن شاور كثر صوابه، وأما الفقه فنضم إليك من تتفقه به، فولى، فما وجدوا فيه مطعناً.

وقال إياس بن معاوية^(٣) : استحضرنى عمر بن هبيرة^(٤) فحضرت فساكتنى فسكت، فلما أطلت، قال : إيه ؟ قلت : سل عما بدا لك. قال : أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم، قال : فهل تُفرضُ الفرائض ؟ قلت : نعم، قال : فهل تعرف من أيام العرب شيئاً ؟ قلت : أنا بها أعلم، قال : فهل تعرف من أيام العجم شيئاً ؟ قلت : أنا بها أعلم، قال : إني أريد أن استعين بك، قلت : إن في ثلاثاً لا أصلح معهن للعمل، قال : ما هن ؟ قلت : أنا دميم^(٥) كما ترى، وأنا

(١) عَتَّابُ بنِ أُسَيْدِ بنِ أبى العيص القرشى الأموى، من الولاة الأشراف، أسلم يوم فتح مكة وكان شجاعاً عاقلاً، استعمله النبي ﷺ على مكة حين مخرجه إلى حنين وكان عمره ٢١ سنة، وأقره أبو بكر واستمر إلى أن مات فى السنة التى مات فيها أبو بكر الصديق رضى الله عنهم سنة ١٣ هـ وقيل مات سنة ٢٣ هـ والله أعلم (الأعلام ٤ / ١٩٩).

(٢) الغرة : الغفلة.

(٣) إياس بن معاوية : قاضى البصرة المشهور بذكائه وعدله.

(٤) عمر بن هبيرة : امير من الدهاة الشجعان، ولى العراق وخراسان وقد سبقت ترجمته.

(٥) الدميم : القيح المنظر.

حديد^(١)، وأنا عي^(٢)، قال : اما الدمامة : فإنني لا أريد أن أحاسن بك ، وأما العي^(٢) فإنني أراك تُعرب عن نفسك ، وأما سوء الخلق فيقومك السوط . فولأني وأعطاني ألف درهم فهو أول ما تمولته .

وقال سليمان بن داود عليهما السلام : ما ملاقة لبؤة سُلبت أشبالها بأصعب من لقاء جاهلٍ راضٍ عن نفسه .

* * *

(١) رجل حديد من قوم اجداء أو حداء مشتق من الحدة وهي ما يعتري الإنسان من الغضب والنزق أو مأخوذة من الحديد الذي يتحدى الناس ويتعمدهم .
(٢) العي : الذي يحصر في النطق فهو عي وعيي .

الباب الثالث والخمسون

فى بيان الشروط والعهود التى تؤخذ على العمال

اعلم أرشدك الله : أنه يجب أن يؤكلى على الأعمال ، أهل الحزم والكفاية ، والصدق والأمانة ، وتكون التولية للغناء لا للهوى ، وملاك الولايات وأساسها أن لا يؤكلى الأعمال طالب لها ، ولا راغب فيها .

روى البخارى فى صحيحة عن أبى موسى الأشعرى قال : أتيت النبى ﷺ ومعى رجل ، فلما سلّمنا عليه قال صاحبه : يا رسول الله : استعملنى ، فقال ﷺ : «إنا لا نستعمل على عملنا من أراده»^(١) فقلت : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ما عرفت الذى فى نفسه .

وقد روى عن بُزْر جمهر ، وقد قيل له : ما بال مُلك آل ساسان صار أمره إلى ما صار إليه ؟ قال : لأنهم قلدوا كبار الأعمال صغار الرجال .

ولله در عمرو بن العاص حيث قال : موت ألف من العلية^(٢) ، أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السفّل .

وقال العلاء بن أيوب^(٣) : غضب المأمون على بعض أصحابه غضباً شديداً ، ثم قال له : لا أملك الله أو يبلغك دولة السفّل .

وقال رجل من أصحاب محمد ﷺ لرجل قد آذاه : «أدر كنتك إمرة الصبيان» .

وقال المستوغر الأكبر^(٤) وكان قد عمر فى الجاهلية ثلاثمائة سنة :

(١) الحديث : رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم والنسائى أبو داود عن أبى موسى والحديث صحيح (الجامع الصغير للسيوطى رقم ٢٥٢٢) .

(٢) علية القوم : جلتهم وأشرافهم .

(٣) العلاء بن أيوب : هو الإمام المجود الحافظ أبو الفضل الموصلى كان عابدا خاشعاً متواضعاً ، ومن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الكريم ، ولى فارس من قبل الخليفة المأمون . (سير أعلام النبلاء ٣٥٠ / ١٣) .

(٤) المستوغر الأكبر : عمرو بن ربيعة بن كعب التميمى ، من المعمرين الفرسان الشعراء فى الجاهلية ، قيل أنه أدرك الإسلام ، لقب بالمستوغر لقوله بيتا من الشعر يصف فيه فرساً عرقت (الأعلام ٧٧ / ٥) .

وَمَا سَقَطَتْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ أُمَّةٌ إِلَى الذِّلِّ إِلَّا أَنْ يَسُودَ ذَمِيمُهَا
 إِذَا سَادَ فِينَا بَعْدَ ذُلِّ لئِمُنَا
 وَمَا قَادَهَا لِلْخَيْرِ إِلَّا مُجَرَّبٌ
 عَلِيمٌ بِإِقْبَالِ الْأُمُورِ كَرِيمُهَا
 وَمَا كُلُّ ذِي لُبٍّ يُعَاشُ بِفَضْلِهِ
 وَلَكِنْ لَتُدَبِّرِ الْأُمُورَ حَكِيمُهَا

واعلموا: أن معظم ما يدخل على الدول من الفساد، من تقليد الأعمال أهل الحرص عليها، لأنه لا يخطبها إلا لصٌّ في ثوب ناسك، وذئب في مسلاخ^(١) عابد، حريص على جمع الدنيا، نابذ لدينه ومروءته، (يبتغي عرض الحياة الدنيا، وقد سبق المثل: الحرص على الأمانة دليل على الخيانة)^(٢). يتخذون عباد الله خولاً^(٣)، وأموالهم دولاً^(٤).

وإذا اهتمت حقوق المسلمين وأكلت أموالهم، فسدت نيأتهم، وقلت طاعتهم، فانتقضت الأمور، ودب الفساد إلى الممالك، وقد ذكرنا في أول الكتاب الآثار في كراهية الولايات.

وقال المأمون: ما فتق عليٌّ قط فتقاً^(٥) في مملكتي، إلا وجدت سببه جور العمال.

فإن قيل: فما معنى قول يوسف عليه السلام للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

قلنا: يوسف كان نبياً من أنبياء الله تعالى، واثقاً من نفسه بالكفاية والأمانة بين يدي من لا يتحقق بواطن أسرارهِ، ولا يعلم خصائصه وفضائله، ويرى الأمور والأعمال والولايات في أيدي من ليسوا أهلاً لها، ويجوز مثل هذا اليوم، لمن حصل بين يدي جبار ولا يعلم منزلته، ولا ما عنده من الخصال والفضائل، أن يذكر بعض ما يعلم من نفسه، ليُعلم قدره، فيُسَلِّمَ بذلك من شره.

(١) مسلاخ: ثوب أو إهاب وهو «جلد الحية» بعد أن ينسلخ عنها.

(٢) سقطت هذه العبارة من (ط) باستثناء: «دليل على الخيانة».

(٣) الخول: العبيد.

(٤) دولاً: متداولاً.

(٥) الفتق: الخلل في العيش في الخلافات أو الآفات كالجوع والمرض أو الجذب أو الفقر.

وعن هذا قال بعض أصحاب الشافعي : إذا كان القضاء في يد من لا يصلح له ، وجب أن يخطبه من يصلح له ، وكان ذلك فرضاً عليه .
وفقهاء الأمصار على خلاف هذا الرأي .

ويحتمل أن يكون يوسف عليه السلام قد أُوحيَ إليه ، بما يصير أمره إليه من الملك والعدل ، ونشر كلمة الإسلام ، فلهذا نبه على نفسه .

ومن عجيب ما يروى في هذا الباب : أن لقمان الحكيم^(١) كان عبداً أسود حبشياً ، غليظ الشفتين ، مصفّح القدمين ، لامرأة من بنى الحسحاس ، وكان جليساً لداود عليه السلام فأتاه جبريل عليه السلام بالنبوة من عند الله ، الذي يصطفى لنبوته من يشاء ، فقال لقمان : يا جبريل : إن أمرني ربي فسمع وطاعة ، وإن خيّرني اخترتُ الحكمة ، فرضى الله تعالى قوله فأعطاه الحكمة ، وصرف عنه الرسالة إلى داود عليه السلام ، فكان داود يقول : طوبى لك يا لقمان : أوتيت الحكمة وأوتى داود البليّة .

وروى أنه جالس داود عليه السلام ، وداود يعمل الدروع ، فأقام حولاً يبصر صنعة الدرع ، ولا يعلم ما يصلح له ، ولا يسأل عن ذلك ، فلما تم حول ، لبس داود الدرع ، وقال : درع حصينة ليوم حرب ، فقال لقمان : الصمتُ حكمة وقليلٌ فاعله .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إذا بعث عاملاً اشترط عليه ، أن لا يركب البراذين^(٢) ، ولا يلبس الرقيق ، ولا يأكل النقي^(٣) ، ولا يتخذ حاجباً ، ولا يغلق باباً عن حوائج الناس وما يصلحهم ، ويقول له : إني لا أستعملك على أبشارهم^(٤) ، ولا أعراضهم ، ولا أعمالهم ، وإنما أستعملك لتصلي بهم ، وتقضى بينهم بالعدل .

(١) لقمان الحكيم : قال ابن كثير كان لقمان رجلاً صالحاً ذا عبادة وحكمة عظيمة وأنه كان قاضياً في زمن داود عليه السلام ، أصله من النوبة في صعيد مصر ، وقيل كان عبداً حبشياً نجاراً وهناك من يقول أنه عُرضت عليه النبوة فاختار الحكمة ، (وفي هذا نظر والله أعلم) فالمشهور أنه كان حكيماً وليس نبياً ، ذكره الله تعالى في القرآن الكريم وأثنى عليه . (البداية والنهاية ج ٢ / ص ١٢٢ وما بعدها) .

(٢) البراذين : الخيول الأصلية مفردة برذون وهو التركي من الخيل وخلافها .

(٣) النقي من الطعام : خياره وخلاصته .

(٤) أبشارهم : أجسادهم وظاهر جلودهم .

وروى عباية بن رفاعه^(١) قال: بلغ عمر بن الخطاب أن سعداً بن أبي وقاص^(٢)، اتخذ قصراً وجعل عليه باباً، وقال: انقطع الصوت، فأرسل عمر محمد بن مسلمة^(٣)، وكان عمر إذا أحب أن يؤتى بالأمر كما هو عليه بعثه، فقال له: أنت سعداً فأحرق عليه بابه، فقدم الكوفة، فلما أتى الباب، أخرج زنده واستورى ناراً، ثم أحرق الباب، فأتى سعداً الخبر، ووُصف له بصفته فعرفه، فخرج إليه سعد، فقال له محمد: إنه قد بلغ أمير المؤمنين إنك قلت: انقطع الصوت، فحلف سعد بالله ما قال ذلك، فقال له محمد: نفعل الذي أمرنا به، ونؤدّي عنك ما تقول.

ثم ركب راحلته، فلما كان ببطن البرية أصابه من الخمص^(٤) والجوع ما الله به أعلم، فأبصر غنماً، فأرسل غلامه بعمامته، فقال: اذهب فابتع منهم شاة، فجاء الغلام بالشاة وهو يصلى، فأراد ذبحها. فأشار إليه: أن كف، فلما قضى صلاته، قال: انظر فإن كانت مملوكة مسيئتها^(٥) فأردد الشاة وخذ العمامة، وإن كانت حرة فاذبح الشاة، فذهب فإذا هي مملوكة، فرد الشاة وأخذ العمامة، فأخذ بخطام ناقته، فجعل لا يمر ببقرة^(٦) إلا خطفها، حتى آواه الليل إلى قوم، فأتوه بخبز ولبن، وقالوا: لو كان عندنا شيء غير هذا أتيناك به، فقال: بسم الله، كل حلال أذهب السَّغْب^(٧) خير من مأكَل السَّوء، حتى قدم المدينة فنزل بأهله، فابتعد من الماء ثم راح، فلما أبصره عمر رضى الله عنه، قال له: لولا حسن الظن بك ما رأينا أنك أديت، - وذكروا أنه أسرع المسير - فقال: قد فعلت، وهو يعتذر ويحلف بالله ما قال. فقال عمر: هل أمر لك بشيء؟ قال: ما رأيت مكاناً أن تأمر لى، فقال عمر: إن أرض العراق أرض رفيقة، وإن أهل المدينة يموتون حولى من الجوع، فخشيت أن أمر لك بشيء يكون لك بارده، ولي الحار.

(١) عباية بن رفاعه بن رافع بن خديج روى عن والده بعض الأحاديث.

(٢) سعد بن أبي وقاص قائد جيوش المسلمين فى العراق وبطل القادسية، سبقت ترجمته.

(٣) محمد بن مسلمة: صحابى من الأمراء من أهل المدينة، شهد الغزوات إلا تبوك حيث استخلفه النبى ﷺ على المدينة، ولاه عمر على صدقات جهينة وكان عند عمر معداً لكشف أمور الولاية فى البلاد، مات بالمدينة سنة ٤٣ هـ (الأعلام ٩٧/٧).

(٤) الخمص: الجوع، والمخمصة: خلاء البطن من الطعام.

(٥) المسيمة: التى بها علامة يعرف من خلالها مالکها.

(٦) البقل: نبات عشبى يتغذى به الإنسان.

(٧) السَّغْب: الجوع، والمسغبة: المجاعة ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤، ١٥].

وروى زيد بن أسلم، ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه، استعمل مولى له يدعى [هنيأ] على الحمى^(١)، فقال: يا هنيأ: اضمم جناحك عن المسلمين^(٢)، واتق دعوة المظلوم، فإن دعوة المظلوم مستجابة وأدخل رب الصريمة والغنيمة^(٣)، وإياك ونعم ابن عوف، ونعم ابن عفان^(٤)، فإنهما أن تهلك ماشيتهما يرجعان إلى زرع ونخل، وإن رب الصريمة والغنيمة إن تهلك ماشيتهما، يأتينى ببينة فيقول: يا أمير المؤمنين، أفتاركهم أنا لا أبا لك؟ فالماء والكأأ يسر على من الذهب والورق^(٥)، وأيم الله، إنهم ليرون أنى قد ظلمتهم، إنها لبلادهم قاتلوا عليها فى الجاهلية، وأسلموا عليها فى الإسلام، والذي نفسى بيده، لولا المال الذى أحمل عليه فى سبيل الله، ما حميت^(٦) عليهم من بلادهم شبراً.

ومر يوماً ببناء يبنى بحجارة وجص، فقال: لمن هذا؟ فذكروا له أنه لعامل من عماله على البحرين، فقال: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها. وقاسمه ماله.

وكان يقول لى: على كل خائن أمينان: الماء، والطين.
وكان أنوشرون يكتب على عهد العمال، سُس خيار الناس بالمحبة، وامزج للعامة الرغبة بالرغبة، وسُس سفلة الناس بالإخافة.
وقال سليمان بن داود عليهما السلام: كما يصلح المِهمز^(٧) للفرس، والرسن للحمار، كذلك يصلح القضيب لظهر الجهال.
وفى الأمثال: من لم يصلح باللين أصلح بالتلين.

(١) الحمى: ما يحمى ويدافع عنه وهى هنا المراعى الخاصة بإبل الصدقة.

(٢) أى أرفق بهم وألن جانبك لهم.

(٣) أى أدخل فى المرعى صاحب الإبل القليلة والغنم القليلة (لسان العرب ٣ / ٤٣٥).

(٤) أى إبل وأغنام وماشية عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وكانت أموالهم كثيرة.

(٥) الورق: الفضة أو الدراهم المضروبة.

(٦) ما حميت عليهم: أى ما جعلتها حمى لا تقرب.

(٧) المِهمز: ما يهمز به كالعصا وما شابهها.

وقال هلال بن يساف^(١): استعمل النبي ﷺ ، المقداد^(٢) على سرية فلما رجع قال له النبي ﷺ : « كيف رأيت الإمارة أبا معبد؟ »، قال : خرجت يا رسول الله ، وما أدري أن لي فضلاً على أحد من القوم ، فما رجعت إلا وكأنهم عبيد لي ، قال : « كذلك الإمارة أبا معبد ، إلا من وقاه الله شرها » ، قال : والذي بعثك بالحق لا أعمل على عمل أبداً^(٣) .

وقيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما يمنعك أن تفشى العمل فى الأفاضل من أصحاب محمد ﷺ ؟ فقال : هم أجل من أن أدنسهم بالعمل .

وقال إبراهيم النخعي^(٤) : كان عمر إذا قدم عليه الوفد سألهم عن حالهم وأسعارهم ، وعن يعرف من أهل البلاد ، وعن أميرهم هل يدخل عليه الضعيف ؟ وهل يعود المريض ؟ فإن قالوا : نعم ، حمد الله تعالى ، وإن قالوا : لا ، كتب إليه أن أقبل .

ومثل السلطان إذا وكى العمال الظالمين ، مثل من يسترعى غنمه الذئاب ، ومثل من يربط الكلب العقور^(٥) ببابه ، وإن العامة لتشتم الحجاج بن يوسف^(٦) ، والخاصة تلوم عبد الملك بن مروان^(٦) ، لأنه استرعاه الرعية وقد قيل :

وَمَنْ يَرْبِطُ الْكَلْبَ الْعَقُورَ بِبَابِهِ
فَعَقَرُ جَمِيعِ النَّاسِ مِنْ رَابِطِ الْكَلْبِ

(١) هلال بن يساف أو إساف الأشجعي ، كوفى من رواة الحديث الشقاوة (تقريب التهذيب ٢٧٤/٣) .

(٢) هو المقداد بن الأسود أو المقداد بن عمرو الكندى الحضرمى وكنيته أبو معبد [وليس أبو مغيرة كما ورد في (ط) ، أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهر الإسلام بمكة ، وأول من قاتل على فرس فى سبيل الله ، لقّب بابن الأسود لأنه فى صغره وقع بينه وبين ابن شمر الكندى خصام فى حضر موت فضرب المقداد رجل ابن شمر بالسيف وهرب إلى مكة فتبناه «الأسود بن عبد يغوث» وبقي يدعى بذلك حتى نزل قوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ توفي سنة ٣٣ هـ . (الأعلام ٢٨٢/٧) .

(٣) لم أجد نص هذا الحديث فى الصحاح من الكتب ، وجدت قريباً منه فى المستدرک على الصحيحين ما نصّه : قال المقداد : «بعثني رسول الله ﷺ مبعثاً فلما رجعت قال لي : كيف تجد نفسك؟ قلت : ما زلت حتى ظننت أن معي خولي ، وأيم الله لا أعمل على رجلين بعدهما» ، قال المصنف : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه - أي البخاري ومسلم - (المستدرک على الصحيحين ٣٩٣/٣) .

(٤) إبراهيم النخعي فقيه العراق ومفتى الكوفة ، سبقت ترجمته .

(٥) يقال لكل جراح أو مفترس من السباع كلب عقور .

(٦) الحجاج بن يوسف الثقفى الذى ولاه عبد الملك بن مروان امرة جيشه فقضى على عبد الله بن الزبير وضرب الكعبة واشتهر بالشدة وسفك الدماء وقد سبقت ترجمتهما .

وكان العلاء بن أيوب^(١)، لما ولي فارس من قبل المأمون، يكتب عهد العمال، فيقرؤه على من يحضره من أهل ذلك العمل، ويقول: أنتم عيوني عليه، فاستوفوه منه، ومن تظلم إليّ منه فعليّ إنصافه ونفقتة جائياً وراجعاً، ويأمر العمال أن يقرؤوا عهده على أهل عمله في كل جمعة، ويقول لهم: هل استوفيتم؟

* * *

(١) العلاء بن أيوب: أبو الفضل الموصلي والي فارس من قبل المأمون، سبقت ترجمته.

الباب الرابع والخمسون

فى هدايا العمال والرشا على الشفاعات

روى أبو داود فى السنن أن النبى ﷺ ، قال : « من شفع لأخيه شفاعاً فأهدى له عليها هدية فقبلها ، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الربا » (١) .

والسر فيه : إنك إذا قدرت على قضاء حاجة ، من عند السلطان الظالم ، أو اليد القاهرة ، صار ذلك واجباً عليك .

وروى البخارى فى صحيحه : أن النبى ﷺ ، استعمل رجلاً يقال له (ابن اللبينة) (٢) فلما جاء قال : يا رسول الله ، هذا لكم وهذا لى ، قال : فغضب النبى ﷺ وقال : « ما بال الرجل نستعمله على عمل من أعمالنا ، فيقول هذا لكم وهذا لى ؟ أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه ، فينظر هل يهدى له ؟ » (٣) .

قال مالك : وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يشاطر العمال ، فيأخذ نصف أموالهم ، وشاطر أبا هريرة وقال له : من أين لك هذا ؟ فقال : أبو هريرة : دواب تناتجت وتجارا تداولت ، فقال : أذ الشطر . وإنما شاطرهم حين ظهرت لهم أموال بعد الولاية لم تكن تعرف لهم .

وروى مالك عن ابن عمر : أنه اشترى هو وعبيد الله (٤) أخوه إبلاً ، فبعثا بها إلى الحمى (٥) ، فرعت ، فقال عمر : رعيتهما فى الحمى ؟ فشاطرهما .

وشاطر سعد بن أبى وقاص حين قدم من الكوفة ، كأنه رأى أن ما أصاب

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب البيوع (باب فى الهدية لقضاء الحاجة رقم ٣٥٢٤) كما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى أمامة ونقل الهنذى عن المنذرى أن فيه مقال (كنز العمال رقم ١٥٠٧٠) . قال الشيخ شعيب الأرنؤوط : هذا الحديث ضعيف لأن فيه ابن لهيعة وهو سيء الحفظ .

(٢) عبد الله بن اللبينة بن ثعلبة الأزدى رجل من بنى سليم ، استعمله رسول الله ﷺ على الصدقات فلما جاء حاسبه (البخارى باب قوله تعالى : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾) .

(٣) الحديث : رواه البخارى ، وأبو داود فى كتاب الخراج باب فى هدايا العمال ج ٣ / ١٣٥ والإمام أحمد ج ٥ / ٤٢٣ وغيرهم والحديث صحيح .

(٤) عبد الله وعبيد الله أبناء عمر بن الخطاب رضى الله عنهم أجمعين .

(٥) الحمى : ما يحمى ويُدافع عنه وهو المرعى الخاص بإبل الصدقة أى تابع لبيت مال المسلمين .

العامل من غير رشوة، وإن كان حلالاً، فلا يستحق ذلك، لأن له بالإمرة قوةً على أن ينال من الحلال ما لا يناله غيره، فجعله كالمضارب للمسلمين .

ولما دفع أبو موسى الأشعري مالاً من بيت المال، لعبد الله وعبيد الله، ابني عمر بن الخطاب بالبصرة، اشتريا منه بضاعة، فريحت بالمدينة، فأراد عمر أن يأخذ جميع الربح، فراجعه عبيد الله، فحكم بينهم بنصف الربح، فأخذا جميعاً نصف الربح، وأخذ عمر النصف لبيت المال .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أما بعد، فإنما هلك من كان قبلكم، بمنعهم الحق حتى يشتري، وبسطهم الباطل حتى يفتدي، المُلْدُ، بالدين يقوى، والدين بالملك يبقى .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يأمر إذا قدم عليه العمال، أن يدخلوا نهراً ولا يدخلوا ليلاً، كي لا يحتجوا شيئاً من الأموال .

وقال عتاب بن أسيد^(١): والله ما أصبت في عملي الذي ولّاني النبي ﷺ إلا ثوبين معقدين، كسوتهما مولاى كيسان .

وروى أن علياً رضى الله عنه، استعمل أبا مسعود الأنصارى^(٢) على السواد، فرجع إلى داره وقد امتلأت، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: كذلك يصنعون بالرجل إذا استعمل^(٣)، قال: كل هؤلاء يريدون أن يأكلوا فى أمانتي؟ - ويروى فى إمارتي؟ - فرجع إلى عليّ رضى الله عنه، وقال: لا حاجة لى فى العمل .

وقد ذكرنا أن النبي ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة^(٤) ليستعماه، فقال: يا رسول الله اختر لى . قال اقعد فى بيتك .

وفى الأمثال: أن الهدية تُعمى وتُصمّ .

وقال بعض الحكماء: الرشوة رشاء^(٥) الحاجة .

(١) عتاب بن أسيد بن ابى العيص بن أمية بن عبد شمس، استعمله رسول الله ﷺ على مكة حين مخرجه إلى حنين سنة ٨ هـ . وقد سبقت ترجمته .

(٢) أبو مسعود الأنصارى: هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصارى من الخزرج، صحابى شهد العقبة وغزوة أحد وما بعدها، ونزل الكوفة، وكان من أصحاب على رضى الله عنه فاستخلفه عليها لما سار إلى صفين وتوفى بها سنة ٤٠ هـ (الأعلام ٤ / ٢٤٠) .

(٣) أى صار عاملاً أو والياً .

(٤) عبد الرحمن بن سمرة، صحابى من القادة الولاة، أسلم يوم فتح مكة، وشهد غزوة مؤتة، سكن البصرة وافتتح سجستان وولبها ثم عاد إلى البصرة وتوفى فيها سنة ٥٠ هـ، سبقت ترجمته .

(٥) الرشوة: ما يعطى لإبطال حق أو إحقاق باطل . الرشا: الحبل عموماً أو حبل الدلو .

وأنشد بعضهم :

إِذَا أَتَتْ الْهَدِيَّةُ دَارَ قَوْمٍ
وَلِبَعْضِهِمْ :

إِنَّ الْهَدِيَّةَ حُلْوَةٌ
تُدْنِي الْبَعِيدَ مِنَ الْهَوَى
وَتَرُدُّ مُضْطَغِنَ الْعَدَا
ومما قلته في الرشوة :

وَأَكْرَمُ مَنْ يَدُقُّ الْبَابَ شَخْصٌ
يَنْوِي إِذَا مَشَى نَفْسًا وَنَفْخًا
وَأَكْرَمُ شَافِعٍ يَمْشِي عَلَيْهَا
وقلت أيضا :

إِذَا كُنْتَ فِي حَاجَةٍ مُرْسِلًا
فَأَرْسِلْ بِأَكْمَمِهِ خَلَابَةً
وَدَعْ عَنْكَ كُلَّ رَسُولٍ سِوَى
وكتب عبد الملك بن مروان ، إلى قاضيه ، الحارث بن عامر ، وقد ارتشى بكرة (٥) :
إِذَا رَشْوَةٌ مِنْ بَابٍ بَيْتٍ تَقَحَّمَتْ
سَعَتْ هَرَبًا مِنْهُ وَوَلَّتْ كَأَنَّهَا

* * *

(١) الكوة : خرق أو نافذة في حائط الدار .

(٢) مضطغن العداوة : أى الذى يضر العداوة .

(٣) أبو المنقوش فوق الصفحتين : هو الدرهم أو الدينار .

(٤) الأكمة : الأعمى ، الخلاب ، الخداع . الصمم : الطرش وعدم السمع . الأغطش : من بعينه غطش أى ظلمة وضعف بصر ، الأبكى : الأخرس . المقصود أرسل الدراهم التى لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم ولكنها تخدع .

(٥) الكرامة : بستان العنب .

(٦) تقحمت البيت : دخلته عنوة .

(٧) السفية : الجاهل الأحمق أو نقيض الحليم .

الباب الخامس والخمسين

فى معرفة حسن الخلق

اعلموا أرشدكم الله تعالى : أن هذا الباب مما غلط الخلق فيه (وقلبوا القوس ركوة)^(١) فعمدوا إلى أخلاق العامة ، وخلائق الغوغاء والأدنياء وما يجرى بينهم إذا تلاقوا وتعاشروا ، من الإفراط فى مدح بعضهم بعضاً ، وتعاطيهم الكذب والتصنع والملق^(٢) والمرأاة والمعاريض^(٣) عن الأمور المكنونة التى يسوء إظهارها ، والانخراط فى سلك المزاح والمهاترة ، فهذا وما أشبهه عندهم من حسن الخلق ، وهو عندنا نقيض ما نص الله تعالى عليه ورسوله من حسن الخلق .

فأول ذلك : أن تعلم أنه لم تحترق^(٤) الأرض على بشر ، أحسن خلقاً من محمد ﷺ ، فكل من تخلق بأخلاق رسول الله ﷺ أو قاربها ، أو بعضها ، كان أحسن الناس خلقاً ، وكل خلق ليس يعد من أخلاقه ﷺ فليس من حسن الخلق . وهذا فصل الخطاب فى هذا الباب لمن عقل ، وإنما أوتى الناس فى هذا الباب ، لأنهم استحسنوا الأخلاق العامية ، واستخشنوا الأخلاق النبوية لجهلهم بأخلاق المصطفى ﷺ ، وها أنا أتلو عليك من أخلاق الأنبياء والمرسلين ، والأولياء والأصفياء ، والعلماء والصالحين ، ما نرجو أن ينفعنا الله وإياك به .

قال الله تعالى لنبيه وصفه محمد ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] فخص الله نبيه من كريم الطباع ، ومحاسن الأخلاق من الحياء والكرم ، والصفح وحسن العهد ، بما لم يؤته غيره ، ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشئ من فضائله ، بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ

(١) مثل يضرب فى انقلاب الأمور ، ومعلوم أن القوس آلة على شكل نصف دائرة ترمى بها السهام ، والركوة : إناء صغير يشرب فيه الماء .

(٢) الملق : التملق والنفاق .

(٣) المعاريض : خلاف المصرح به .

(٤) تحتوى : تضم وتحرز .

عَظِيمٌ ﴿١﴾ ، وعن هذا قال الشيوخ : إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ دَعَا الْخَلْقَ إِلَى حَسَنِ الْخَلْقِ ،
وَدَعَا نَبِيَهُ ﷺ مِنْ حَسَنِ الْخَلْقِ .

قال عبيد الله بن عمير : قلت لعائشة أم المؤمنين : صفى لى خلق رسول
الله ، ﷺ ، فقالت لى : أما تقرأ القرآن ؟ : « كان خلقه القرآن » (١) وحسبك بهذا
القول منقبة للرسول ، ﷺ وتعريفاً لك بحسن الخلق ، فإذا كان خلق النبي ﷺ
القرآن ، فالقرآن يجمع كل فضيلة ويحث عليها ، وينهى عن كل نقیصة
ورذيلة ، ويوضحها ويبينها .

ولذلك لما أنزل الله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال النبي ﷺ : « ما هذا يا جبريل ؟ قال : إن الله
تعالى يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » (٢)
فهذا من حسن الخلق كما ترى ، فانظر أين أخلاق العامة من هذا النمط ؟ وإن
أحدهم يقطع من وصله ، ويحرم من أعطاه ، ويظلم من سالمه ، ويغضب على
من اتهمه .

وإنما اقتصر على هذه الكلمات ، لأنها أصول الفضائل وينبوع المناقب لأن
فى أخذ العفو : صلة القاطع ، والصفح عن الظالم ، وإعطاء المانع ، وفى الأمر
بالمعروف : تقوى الله ، وصلة الرحم ، وصون اللسان ، وغض الطرف عن
المحرمات ، وفى تقوى الله يدخل جميع آداب الشرع ، فرضها ونفلها ، وفى
الإعراض عن الجاهلين الصفح والحلم ، وفتوة النفس عن مماراة السفیه ،
ومجاراة اللوح ، فهذه الأصول الثلاثة تتضمن محاسن الشرع نصاً وتنبهاً
وضمناً واعتباراً .

وروى أنس ، قيل : يا رسول الله : أى المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم
خلقاً » (٣) .

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ومسلم وأبو داود عن عائشة والحديث صحيح (الجامع الصغير -
رقم ٦٨٣١) .

(٢) الحديث : رواه القرطبى فى معرض تفسيرة للآية : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ... ﴾ وقال رواه سفيان بن
عيينة عن الشعبي وذكر الحديث ج ٧ / رقم ٣٤٥ ص ٢١٩ .

(٣) الحديث : رواه ابن ماجه والحاكم فى المستدرک عن ابن عمر بلفظ (أفضل المؤمنين أحسنهم
خلقاً) والحديث صحيح . (الجامع الصغير ١٢٩٣) ، ورواه الإمام أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم
عن أبى هريرة بلفظ (أكمل المؤمنين ...) والحديث صحيح (الجامع الصغير رقم ١٤٤٠ ص ٥١) .

وروى أبو داود في السنن، أن النبي ﷺ قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١) اقتضى الحديث: أن كل نبي مبعوث إلى أمة إنما بعث ليُعلم الخلق حسن الخلق، وأن نبينا محمد ﷺ بعث ليتمم مكارم الأخلاق، فيأذن حسن الخلق امتثال الشرائع بأسرها.

وروى البخاري عن ابن عمرو أن النبي ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، قال: «وإن من أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً»^(٢).

«وكان النبي ﷺ في بعض أسفاره، وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فجبذه أعرابي جبذة»^(٣) شديدة، حتى أثرت حاشية الرداء على عنقه، وقال يا محمد: مر لي من مال الله الذي أتاك، فلست تأمر لي بمالك ولا بمال أبيك، فالتفت إليه النبي ﷺ وقال: «مروا له ولم يكلمة بشئ»^(٤)، وروى معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال له: «أحسن خلقك للناس، يا معاذ بن جبل»^(٥).

واعلموا: أن الخلق الحسن أفضل مناقب العبد، وبه يظهر جواهر الرجال، والإنسان مستور بخلقه مشهور بخلقه، ألا ترى أن الله تعالى خص نبيه، ﷺ، بما خصه به من الفضائل، ثم لم يشن عليه بشئ من خصاله، بمثل ما أثنى عليه بخلقه. وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٩] قال: لا تخاصم ولا تخاصم من شدة معرفتك بالله تعالى، وقيل: لم يؤثر فيك جفاء الخلق بعد معرفتك بالحق.

وقال المحاسبى^(٥): كظم الغيظ وإظهار الطلاقة والبشر، إلّا لمبتدع أو

(١) الحديث: رواه الإمام مالك في الموطأ في باب ما جاء في حسن الخلق. قال ابن الأثير الجزري: إسناده منقطع ولكن للحديث شواهد يرتقى بها إلى درجة الحسن [جامع الأصول - ابن الأثير الجزري - ج ٤ / ص ٤].

(٢) الحديث: رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص، كتاب الأدب باب لم يكن رسول الله فاحشاً ولا متفحشاً. ورواه مسلم والترمذي والحديث صحيح، ومعنى متفحشاً: أي يتعمد ويتكلف الفحش (جامع الأصول ج ٤ / ٨).

(٣) جبذ وجذب بمعنى واحد، والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك ٢٢٤ / ٣ بلفظ: «فتبسم له ثم قال: مروا له» ورواه ابن جرير (كنز العمال رقم ١٨٦٥١).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في حسن الخلق بغير إسناد قال الزرقاني له شواهد منها ما رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما بإسناد حسن عن معاذ، قال ابن الجزري: قلت فالحديث حسن بطرقه وشواهدة التي تشهد له بالمعنى (جامع الأصول - ابن الأثير الجزري - ج ٤ / ٣، ٤).

(٥) المحاسبى: هو الحارث بن أسد المحاسبى أبو عبد الله، من كبار الصوفية، له تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة ولد ونشأ بالبصرة ومات ببغداد سنة ٢٤٣ هـ. (الأعلام ١٥٣ / ٢).

فاجر، إلا أن يكون فاجراً إذا انبسطت استحياء، والعفو عن الزالين، إلا بأدب أو إقامة حد، وكف الأذى عن كل مسلم ومعاهد، إلا لتغيير منكر، أو أخذ مظلمة لمظلوم، فهذا حسن الخلق.

وقيل حسن الخلق: أن لا تتغير ممن يقف في الصف بجنبك.

وقيل للأحنف^(١): ممن تعلمت حسن الخلق؟ قال: من قيس بن عاصم المنقري^(٢)، قال: بينما هو ذات يوم جالس في داره إذ جاءته خادمة بسفود^(٣) عليه شواء، فسقط من يدها، فوقع على ابن له فمات، فدهشت الجارية فقال: لا روع عليك، أنت حرة لوجه الله تعالى.

وكان ابن عمر إذا رأى واحدا من عبده يحسن الصلاة يعتقه، فعرفوا ذلك من خلقه، فكانوا يحسنون الصلاة مراعاة له فكان يعتقهم، ف قيل له في ذلك. فقال: من خدعنا في الله انخدعنا له.

وقال الفضيل^(٤): لو أن امرءاً أحسن الإحسان كله، وكانت له دجاجة وأساء إليها، لم يكن من المحسنين.

وكان المحاسبى^(٥) يقول: فقدنا ثلاثة أشياء: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الأمانة، وحسن الإخاء مع الرفاء.

وقال الحسن بن علي رضوان الله عليه: عنوان الشرف حسن الخلق.

وكان عبد الله بن محمد الرازي^(٦) يقول: حسن الخلق: استصغار ما منك، واستعظام ما إليك.

وقال سهل^(٧): حسن الخلق: أن لا تطمع فيما ليس لك، وليس بهذه الصفة أحد إلا الله تعالى، وقيل: حسن الخلق تحمل أثقال الخلق.

(١) هو الأحنف بن قيس سيد بنى تميم ومن دهاة العرب المعروفين. سبقت ترجمته.

(٢) قيس بن عاصم المنقري من شعراء الجاهلية ودهاتها. سبقت ترجمته.

(٣) السفود: حديدة يشوى عليها اللحم.

(٤) هو الفضيل بن عياض العالم العابد الزاهد. سبقت ترجمته.

(٥) هو الحارث بن أسد المحاسبى الصوفى - سبقت ترجمته.

(٦) عبد الله بن محمد الرازي / من كبار المشايخ الورعين والقائلين بالحق، توفي حوالى ٣١٠ هـ.

(٧) سهل بن عبد الله التستري، أحد أئمة الصوفية - سبقت ترجمته.

وقال شاه الكرمانى^(١) : علامة حسن الخلق : كف الأذى ، واحتمال المؤن .
وقيل : حسن الخلق أن تكون من الناس قريباً ، وفيما بينهم غريباً .
وقيل : حسن الخلق : قبول ما يرد عليك من جفاء الخلق ، وقضاء الحق : بلا
ضجر ولا قلق .

وقيل : الخلق الحسن : احتمال المكروه بحسن المداراة .
وقالت امرأة لمالك بن دينار : يا مرأتى ، فقال : يا هذه ، وجدت اسمى الدى
أضله أهل البصرة .

وفى الحديث أن النبى ﷺ قال : « لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن سعوهم
ببسط الوجه ، وحسن الخلق »^(٢) .

وروي أن أبا عثمان^(٣) اجتاز بسكة وقت الهاجرة ، فألقى عليه من فوق
سطح طست رماد ، فتغير أصحابه ، وبسطوا ألسنتهم فى الملقى ، فقال أبو
عثمان : لا تقولوا شيئاً ، من استحق أن يصب عليه النار ، فصولح على الرماد ،
لم يجز أن يغضب .

وقيل لإبراهيم بن أدهم^(٤) : هل فرحت فى الدنيا قط ؟ قال : نعم ، مرتين :
أحدهما كنت قاعداً ذات يوم فجاء إنسان فبال على ، والثانية : كنت جالساً
فجاء إنسان فصفعني .

وكان أويس القرنى^(٥) إذا رآه الصبيان رموه بالحجارة ، وكان يقول : إن كان
لأبد فارمونى بالحجارة الصغار ، كى لا قدموا على ساقى فتمنعونى الصلاة .

(١) شاه بن شجاع الكرمانى : أبو الفوارس من مشايخ كرمان وأبناء الملوك له مصنفات منها (مرآة
الملوك) توفى سنة ٢٧٠ هـ . (انظر : طبقات الصوفية ص ١٥٦ ، وصفة الصفوة ٤ / ٦٨) .

(٢) رواه القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن فى معرض تفسيره لقوله تعالى (خذ العفو ...) عن أبى
هريرة بلفظ : «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق» ج ٧ /
٢١٩ رقم ٣٤٥ ، وقال المتقى الهنذى رواه أبو نعيم فى الحلية والحاكم فى المستدرک والبيهقى فى
شعب الإيمان عن أبى هريرة (كنز العمال ج ٣ / ٥١٥٨) .

(٣) أبو عثمان الحيرى : سعيد بن إسماعيل بن سعيد النيسابورى الحيرى من شيوخ الصوفية ، إمام
محدث واعظ ولد فى الرى ومات سنة ٢٩٨ هـ . (سير أعلام النبلاء ١٤ / ٦٣) .

(٤) إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان سبقت ترجمته .

(٥) أويس القرنى : أحد النساک العباد من سادات التابعين ، أصله من اليمن ، أدرك حياة النبى ﷺ
ولم يره فوفد على عمر بن الخطاب ، ثم سكن الكوفة وشهد مع على وقعة صفين وقيل أنه قتل فيها سنة
٣٧ هـ (الأعلام ٢ / ٣٢) .

وروى أن علياً رضى الله عنه ، دعا غلاماً له فلم يجبه ، فدعاه ثانياً ، وثالثاً ، فلم يجبه ، فقام إليه فرآه مضطجعاً ، فقال : أما تسمع يا غلام ؟ قال نعم . قال : فما حملك على ترك جوابي ؟ قال : أمنتُ عقوبتك فتكاسلت . قال : امش فأنت حر لوجه الله .

وهذا كما ترى قوة إلهية يُفرغها الله على المصطفين من عباده ، وأهل الصفوة من أوليائه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] فجردّه عن حقائق البشرية ، وألبسه من نعوت الربوبية ، حتى قواه على صحبتهم ، وصبره على تبليغ الرسالة إليهم ، مع الذى كان يقاسيه من أخلاقهم ، مع كونه مستغرقاً باستيلاء الحق تعالى عليه ، يختص برحمته من يشاء .

وقال النبي ﷺ : « المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف »^(١) وإنما سمي بالآدمي ؛ لأنه تألف من الجواهر والألوان .

وقال ﷺ لرجلين متباغضين : « آدم الله بينكما » أى : أَلَّفَ بينكما . ومنه سمي الأدم المأكول ، لأنه يؤلف الطعام ويحسنه ، ومنه قول النبي ﷺ لرجل أراد أن يتزوج امرأة : « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما »^(٢) أى يؤلف بينكما .

وروي أن معروفاً الكرخي^(٣) ، نزل الدجلة يتوضأ ووضع مُصْحَفَهُ وملحفته ، فجاءت امرأة فأخذتهما ، فتبعها معروف ، وقال : يا أختي : أنا معروف ، لا بأس عليك ، ألك ابن يقرأ ؟ قالت : لا . قال : فزوج ؟ قالت : لا . قال : فهاتى المصحف وخذى الثوب .

وروى أن أبا ذر كان على حوض يسقى إبله ، فأسرع بعض الناس إليه

(١) الحديث : رواه الإمام أحمد بلفظ « المؤمن يألف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » والحديث صحيح (الجامع الصغير رقم ٩١٤٦ و ٩١٤٧) .

(٢) رواه النسائي والترمذي عن المغيرة بن شعبة وقال حديث حسن (كنز العمال - ج ١٦ رقم ٤٤٥٧٢) .

(٣) معروف الكرخي : أحد أعلام الزهاد والمتصوفين . كان من موالى الإمام على الرضا بن موسى الكاظم ، ولد فى كرخ بغداد وتوفى ببغداد سنة ٢٠٠ هـ . اشتهر بالصلاح والتقوى ، ولابن الجوزى كتاب فى أخباره وآدابه . (طبقات الصوفية ١ / ٨٠) .

فانكسر الحوض، فجلس ثم اضطجع، فقيل له في ذلك؟ فقال: إن النبي ﷺ أمرنا: «إذا غضب الرجل أن يجلس، فإن ذهب عنه، وإلا فليضطجع»^(١).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنا لنصافح أكفأ نرى قطعها، وقال أبو ذر: إنا لنكشر^(٢) في وجوه قوم، وأن قلوبنا لتلعنهم.

وقال الحارث بن قيس^(٣): يعجبني من القراء كل طليق مضحك، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس، يمن عليك بعمله، فلا أكثر الله في المسلمين مثله. وقال عروة بن الزبير^(٤): مكتوب في الحكمة: بُنِيَ لَتَكُنْ كَلِمَتِكَ طَيِّبَةً، وَلِيَكُنْ وَجْهُكَ طَلْقًا، وَلَتَكُنْ أَحَبَّ إِلَى النَّاسِ مِمَّنْ يَعْطِيهِمُ الْعَطَاءَ. وَمَنْ يَصْحَبُ صَاحِبَ السُّوءِ لَا يَسْلَمُ، وَمَنْ يَصْحَبُ صَاحِبًا صَالِحًا يَغْنَمُ.

وروي أن إبراهيم بن أدهم^(٥)، خرج إلى بعض البراري فاستقبله جندي، فقال له: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فأوضحه^(٦)، فلما جاوزه، قيل له: هذا إبراهيم بن أدهم، زاهد خراسان، فجاءه يعتذر إليه، فقال: إنك لما ضربتني سألت الله لك الجنة، فقال: لم؟ فقال: قد علمت أنني أوجرُ على ذلك، فلم أرد أن يكون نصيبك منك الخير، ونصيبك مني الشر.

وحكي أن أبا عثمان الحبري^(٧)، دعاه إنسان إلى ضيافة، فلما وافى باب الدار قال: يا أستاذ، ليس لي وجه في دخولك، وقد ندمت، فأنصرف رحمك الله، فرجع أبو عثمان، فلما وافى منزله عاد إليه الرجل، وقال: يا أستاذ: ندمت، وأخذ يعتذر، وقال: أحضر الساعة، فقام أبو عثمان ومضى معه، فلما

(١) روى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود وابن حبان عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإذا ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع» والحديث في صحيح (الجامع الصغير - رقم ٧٦٩).

(٢) كشر عن أسنانه: كشف عنها وأبداها (عند الضحك وغيره).

(٣) الحارث بن قيس الجعفي الكوفي، العابد الفقيه، صحب علياً وابن مسعود رضي الله عنهما، وقُلِّمًا روى، توفي في زمن معاوية (سير أعلام النبلاء ٤ / ٧٥).

(٤) عروة بن الزبير بن العوام القرشي، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة كان عالماً صالحاً كريماً لم يدخل في شيء من الفتن انتقل إلى البصرة، ثم إلى مصر فتزوج وأقام بها سبع سنين ثم رجع إلى المدينة وتوفي بها سنة ٩٣ هـ (الأعلام ٤ / ٢٢٦).

(٥) إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان سبقت ترجمته.

(٦) أي شج رأسه حتى كشف العظم.

(٧) أبو عثمان الحبري: من شيوخ الصوفية الزهاد، سبقت ترجمته.

وافى داره، قال مثل ما قال فى الأولى، واخذ يعتذر، ثم كذلك فى الثالثة، والرابعة، وأبو عثمان ينصرف ويحضر. ثم قال: يا أستاذ، إنما أردت اختبارك، والوقوف على أخلاقك، وجعل يعتذر إليه ويمدحه، فقال أبو عثمان: لا تمدحنى على خلقٍ تجد مثله مع الكلاب، فالكلب إذا دُعي حضر، وإذا زجر انزجر.

وروى: أن بعض الفقراء نزل على جعفر بن حنظلة، وكان جعفر يخدمه والفقير يقول: نعم الرجل أنت، لو لم تكن يهودياً، فقال له جعفر: عقيدتى لا تقدح فيما تحتاج إليه من الخدمة، فسل لنفسك الشفاء، ولى الهداية.

وروى أن أبا جعفر القمودى^(١) المتعبد، لقيه بعض الأجناد ومعه كلب للصيد، فقال له: خذ هذا الكلب وقده خلفي، فأبى، فضرب رأسه بالسوط حتى أوجعه، فقال له بعض المارين: ويحك هذا أبو جعفر القمودى العابد: فنزل عن فرسه وجعل يقبل يديه ويعتذر إليه، فقال: أنت فى حل.

قال إبراهيم بن الحسن: سمعت إبراهيم القمودى لىالى عديدة، إذا فرغ من حربه^(٢) فى جوف الليل، يدعو ويقول: اللهم اغفر لصاحب الكلب وارحمه. وقيل: مكتوب فى الإنجيل: عبدى، اذكرني حين تغضب، أذكرك حين أغضب.

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] أى كل من لقيته فقل له حسناً من القول.

وقال لقمان لابنه: ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاثة: الحليم عند الغضب، والشجاع فى الحرب، والأخ عند الحاجة إليه.

وروى أن عبد الله الخياط، كان له مجوسى يخطط عنده الثياب، ويدفع له دراهم زيوفاً^(٣)، وكان عبد الله يأخذها، فجاء المجوسى يوماً بالدراهم فلم يجده، فأعطاهما لتلميذه فلم يقبلها، فدفع له صحاحاً، فلماً رجع عبد الله قال

(١) أبو جعفر إبراهيم القمودى: الإمام زاهد المغرب، نسبة إلى «قمودة» قرية بالقيروان، كان سيداً عالماً منقطع القرين كما يقول الذهبي، مات فى سنة ٣٢٤ هـ (سير أعلام النبلاء ١٥ / ٧٨).

(٢) الحزب: أى القسم الذى يقرأه من القرآن والأدعية.

(٣) الدراهم الزيوف: أى الرديئة والمزيفة.

تلميذه: وهذه دراهم المجوسى وذكر قصته، فقال عبد الله: بئسما فعلت، إنه معاملى بهذه المعاملة منذ أعوام وأنا أصبر عليها وألقيها فى البئر، لئلا يَغُرَّ (١) بها غيرى.

وروي أن معاوية نظر إلى ابنه يزيد يضرب أمةً له، فقال: أتضرب من لا تمتنع منك؟ لقد حالت القدرة بينى وبين أولى التُّرات (٢) وقال بعضهم: أصل سوء الخلق ضيق القلب، وضيقه على قسمين: أدناه وأهونه: أن لا يتسع لمراد الخلق، وأقصاه وشره: أن لا يتسع لمراد الحق.

وقال المحاسبى: أصل سوء الخلق الإعجاب، وهل يسوء خلق الرجل إلا من عجبته وتكبره، وإنه لا يرى فوقه أحداً ولا يعرف قدر نفسه فتداخله العزة. وقال الحسن فى قوله تعالى: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرْ﴾ [المدثر: ٤] أى وخلقك فحسن. وكان لبعض النساك شاةً فرآها على ثلاث قوائم، فقال: من فعل هذا بها؟ فقال غلامه: أنا فعلته. قال: ولم، قال: لأُغمك (٣) بها. فقال: لأُغمن من أمرك بهذا، اذهب فأنت حر.

وروى البخارى عن أبي هريرة أن النبى ﷺ قال: «رأى عيسى بن مريم رجلاً يسرق، فقال له: أتسرق؟ فقال: كلا والذى لا إله إلا هو، فقال عيسى عليه السلام: آمنت بالله وكذبتُ عيني» (٤).

وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه: فساد الأخلاق معاشرَةُ السفهاء. وقيل: الخلق السيئ يضيّق قلب صاحبه، لأنه لا يسع فيه غير مراده كالمكان الضيق لا يسع فيه غير صاحبه.

ويقال: من سوء خلقك، أن يقع بصرك على سوء خلق غيرك.

وسئل النبى ﷺ عن الشؤم؟ فقال: «سوء الخلق» (٥) وروى أبو هريرة: أن

(١) يغرّ بها: يخدع بها.

(٢) أولى التُّرات: أبناء الأصول. فى (خ) أولى المراتب.

(٣) الغم: الحزن والكرب.

(٤) رواه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿واذكر فى الكتاب مريم﴾ ورواه الإمام أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة والحديث صحيح (الجامع الصغير للسيوطى رقم ٤٣٧٦).

(٥) قال السيوطى: رواه الإمام أحمد والطبرانى فى الأوسط عن جابر والحديث ضعيف (الجامع الصغير - رقم ٤٩٦٤).

النبي ﷺ قيل له : ادع الله على المشركين ، فقال : « إِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً وَلَمْ أُبْعَثْ عَذَاباً »^(١) ولما وصى يعقوب عليه السلام أولاده ، قال : « احفظوا عني خصلتين : ما انتصفتُ من ظالم قط قولاً وفعلًا ، وما رأيتُ حسنة إلا وأفشيتها ، وما رأيتُ سيئة إلا وسترتها ، وكذلك فافعلوا » .

وقال ابن عمر : إذا سمعتموني أقول لمملوك (أخزاه الله) فاشهدوا أنه حر .
السئ الخلق هو الذى لا يملك نفسه عند الغضب .

وقيل أصل سوء الخلق : مطالبة غيرك أن يوافقك ، دون أن تطلب نفسك بموافقة غيرك . وعلامة حسن الخلق : أن تحتمل معاملة سيء الخلق لتستر به سوء الخلق .

وقيل : العارف يعاتب نفسه ، ولا يعاتب خلقه ، وعلامة من بينه وبين نفسه عتاب ؛ أن لا يكون بينه وبين خلقه عتاب .

وروي أن عبد الله بن عمر ، كان فى حجره يتيماً سيئ الخلق ، فمات فحزن عليه ، فقيل له : إنك تجد غيره ، قال : فمن لى بسوء خلقه ؟ .

وكان ليحيى بن زياد الحارثي^(٢) غلام سوء ، فقيل له : لم تمسك هذا الغلام ؟ قال لأتعلم عليه الحلم .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] الظاهرة : تسوية الخلق ، والباطنة : حسن الخلق .

وقال الفضيل^(٣) : لأن يصحبنى فاجرٌ حسن الخلق ، أحبُّ إليَّ من أن يصحبنى عابدٌ سيئ الخلق .

فإن قيل أليس قد روى أن عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، عليهما السلام التقيا فقال يحيى لعيسى : تلقاني ضاحكا كأنك آمن ! فقال عيسى : وأنت تلقاني عابسا كأنك آيس ! فأوحى الله إليهما : أن أحبكما إلى أبشكما بصاحبه . قلنا : كذلك يستحب أن يكون المؤمن ، وليس إطلاق الوجه والتبسم فى

(١) رواه الإمام البخارى فى التاريخ عن أبى هريرة والحديث حسن (الجامع الصغير رقم ٢٥٨٥) .

(٢) يحيى بن زياد الحارثي ، شاعر ماجن يرمى بالزندقة من أهل الكوفة وهو ابن خال أبو العباس السفاح لم يحمده زمانه توفى أيام المهدي سنة ١٦٠ هـ (الأعلام ٨ / ١٤٥) .

(٣) هو الفضيل بن عياض العابد . سبقت ترجمته .

وجه أخيك منهياً عنه، وإنما المكروه: ما ذكرناه في أول الباب من التملُّق والتصنُّع.

وفصل الخطاب في هذا الباب: ما روى هند بن أبي هالة^(١) في صفة مجلس النبي ﷺ فقال: (كان أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير).

ومعلوم أن من كان على رأسه طائر لا يبرح، ولا يتحرك، ولا يتكلم ولا يطرف بعينه، حذراً أن ينفر الطائر.

وقال ابن المقفع: كان لي صديق من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا ما وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يدعو إليه مؤنة، ولا يستخف له رأياً ولا بدنأً، وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة، كان أكثر دهره صامتا، فإذا قال بذ القائلين^(٢)، وكان متضاعفاً^(٣) مستضعفاً^(٤)، فإذا جاء الجد فهو الليث عادياً^(٥)، كان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مرء^(٦)، ولا يدلي بحجة، حتى يرى قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً، وكان لا يلوم أحداً على ما يكون العذر في مثله، حتى يعلم ما اعتذاره، كان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء، ولا صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعاً، وكان لا يتبرم^(٧)، ولا يتسخط [ولا يشتكى، ولا ينتقم من الولي]^(٨)، ولا يغفل عن العدو، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشئ من اهتمامه، وحيلته، وقوته، فأقف^(٩) هذه الأخلاق، فإن لم تطق فخذ القليل خير من ترك الجميع.

(١) هند بن أبي هالة التميمي: ربيب رسول الله ﷺ فأمه خديجة بنت خويلد زوجة النبي ﷺ وأبوه هالة كان زوجها قبل النبي ﷺ وقد كان وصافاً وصف النبي ﷺ ومجلسه وأصحابه إستهدي يوم الجمل سنة ٣٦ هـ. (الإصابة ٦/ ٥٥٧، والاستيعاب ٤/ ٥٤٤).

(٢) بذ القائلين: غلبهم وفاق عليهم.

(٣) المتضاعف: من يفعل الضعف تواضعاً. (٤) المستضعف: من يستضعفه الناس لفقره.

(٥) عادياً: واثباً. (٦) المرء: الجدال.

(٧) لا يتبرم: لا يتضجر.

(٨) كذا في (خ) و(ط)، وفي كتاب الأدب الكبير لابن المقفع: [ولا يتشهى ولا يشتكى، وكان لا ينقم على الولي] والولي هو الرفيق المحب.

(٩) أقف أثره: اتبع أثره، وفي الأدب الكبير: [فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت - ولن تطيق - ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع].

وَرُؤِىَ أَنَّ حَكِيمًا سَمِعَ رَجُلًا يَذُمُّ نِزْمَانَ وَأَهْلَهُ، وَأَنَّهُ قَدْ فَسَدَ النَّاسُ، زَنِمَ
بَقِيَ أَحَدٌ يُصَحِّبُ، فَقَالَ لَهُ: يَا هَذَا: أَنْتَ طَلَبْتَ صَاحِبًا تُؤْذِيهِ فَلَا يَنْتَصِرُ،
وَتَنَالُ مِنْهُ فَلَا يَنْتَصِفُ^(١)، وَتَأْكُلُ رَحْلَهُ وَلَا يَرْزُوكَ بِشَيْءٍ^(٢)، وَتَجْفُو عَلَيْهِ
فِيحِلِّمُ، فَلَمْ تُنْصَفْ فِي الطَّلَبِ، فَلَمْ تَجِدْ حَاجَتَكَ. وَلَكِنْ أَنْ أَرَدْتَ صَاحِبًا
يُؤْذِيكَ فَلَا تَنْتَصِرُ، وَيَجْفُوكَ فَلَا تَنْتَقِمُ، وَيَأْكُلُ رَحْلَكَ فَلَا تَنَالُ مِنْهُ شَيْئًا،
وَجَدْتَ أَصْحَابًا وَإِخْوَانًا وَخُلَآنَا، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَصْحَبُكَ.

* * *

فصل: فى الفرق بين المداهنة والمداواة^(٣):

مَنْ دَارَى سَلَمَ، وَمَنْ دَاهَنَ أَثَمَ، وَهَذَا بَابٌ اخْتَلَطَ عَلَى مَعْظَمِ الْخَلْقِ، فَدَاحَنُوا
وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُدَارُونَ، فَالْمِدَاهِنَةُ مَنِيَّةٌ عَنِيَا، وَالْمِدَارَةُ مَأْمُورٌ بِهَا.
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمِدَاهِنَةِ: ﴿وَدَّوْا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [الْقَلَمُ: ٩] وَقَالَ
النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمِدَارَةِ: «رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ،
وَأُمِرْتُ بِمِدَارَةِ النَّاسِ كَمَا أُمِرْتُ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ»^(٤).
وَاعْلَمْ: أَنَّهُ إِذَا سَقِمَتِ الْمِدَارَةُ، صَارَتْ مِدَاهِنَةً.
فَالْمِدَاهِنَةُ: أَنْ تَدَارِيَ النَّاسَ عَلَى وَجْهِ يَذْهَبُ فِيهِ دِينُكَ.

وَالْمِدَارَةُ: مَخَالَفَتُهُمْ عَلَى وَجْهِ يَسْلَمُ لَكَ دِينُكَ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ
عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ قَالَتْ لَهُ قَرِيشٌ: يَا مُحَمَّدُ: اعْبُدْ آلِهَتَنَا سَنَةً وَنُؤْمِنُ بِكَ،
فَأَبَى. قَالُوا: فَشَهْرًا، فَأَبَى، قَالُوا: فَيَوْمًا، فَأَبَى، قَالُوا: سَاعَةً، فَأَبَى، قَالُوا:
فَاسْتَلِمْهَا بِيَدِكَ وَنُؤْمِنُ بِكَ، فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذَلِكَ وَطَمَعَ أَنْ يَفْعَلَ أَنْ
يُؤْمِنُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَدَّوْا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

(١) أَى تَصِيْبِهِ بِسَوْءٍ وَلَا يَطْلُبُ الْعَدْلَ وَالْإِنْصَافَ.

(٢) تَأْكُلُ مَا مَعَهُ مِنَ الزَّادِ وَلَا يَقَاسِمُكَ مِنْهُ شَيْءٌ.

(٣) الْمِدَاهِنَةُ: مُرَادِفَةٌ لِلْخِدَاعِ وَإِظْهَارُ خِلَافِ مَا يَبْطِنُ (فَبِى مَحْرُومَةً) أَمَّا الْمِدَارَةُ فَهِيَ مَأْخُودَةٌ مِنَ
الْمِدَارَةِ وَهِيَ الْمَلَاظِفَةُ وَالْمَلَايِنَةُ (فَهِيَ مَشْرُوعَةٌ).

(٤) الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنَ الْحَدِيثِ: قَالَ الْإِمَامُ السَّيُوطِيُّ فِيهِ رِوَاةُ الْبَيْهَقِيِّ فِي شُعْبِ الْإِيمَانِ عَنْ أَنَسٍ
وَأَبَى هُرَيْرَةَ وَالتَّحْدِيثُ ضَعِيفٌ (الْجَامِعُ الصَّغِيرُ ٤٣٦٧) أَمَّا الْجُزْءُ الثَّانِي مِنَ الْحَدِيثِ فَقَدْ رَوَاهُ الدَّيْلَمِيُّ
عَنْ عَائِشَةَ (كَشَفُ الْخِفَاءِ لِلْعَجَلُونِيِّ رَقْمُ ٦٧٩).

وقيل له: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ * إِذَا لَأَذَقْنَاكَ
ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴿ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

ومثاله: أن تقول للظالم (أبقاك الله)، ومن دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن
يُعصي الله سبحانه، وهذا باب ينبغي لذوى الدين حفظه.

وقد رأى بعض الفقهاء الخروج من هذه العهدة بالتعريض^(١)، وكان الفقيه
ابن الحصار^(٢) بقرطبة: له جار نصراني، يقضى حوائجه وينفعه، وكان الفقيه
يكثر أن يقول له: (أبقاك الله وتولاك، أقر الله عينك، يُسرني والله ما
يُسرُّك، جعل الله يومى قبل يومك)، ولا يزيده على هذه الكلمات، فيبتهج
النصراني بها وتسره، فعوتب الفقيه فى ذلك، فقال: إِنَّمَا أَدْعُو بِمَعَارِضٍ، قد
علم الله ذلك من نيتى.

أما قولى: أبقاك الله وتولاك: فأريد أن يبقيه الله لغرم الجزية ويتولاه
بالعذاب.

وأما قولى: أقر الله عينك، فأريد أن تقر حركتها بسترٍ يعرضُ لها، فلا
تتحرك جفونها.

وأما قولى: يُسرني والله ما يُسرُّك: فإن العافية تسرني كما تسره.

وأما قولى: جعل الله يومى قبل يومك: فأريد أن يجعل الله تعالى اليومَ
الذى أدخل فيه الجنة برحمته، قبل اليوم الذى يدخل فيه النار بكفره.

* * *

(١) التعريض: عكس التصريح

(٢) الفقيه ابن الحصار: عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد بن محمد بن بشر القرطبي المالكي
المعروف بابن الحصار أحد الفقهاء والأذكياء المتفنيين، قال ابن حيان: «لم يكن في وقته مثله» ولي
قضاء قرطبة سنة ٤٠٧ هـ ومات سنة ٤٢٢ هـ (سير أعلام النبلاء ١٧ / ٤٧٣).

الباب السادس والخمسون

فى الظلم وشؤمه وسوء عاقبته

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾
[المائدة: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
[المائدة: ٤٥] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾
[المائدة: ٤٧] .

فكل من لم يحكم بما جاء من عند الله ورسوله، كملت فيه هذه الأوصاف الثلاثة: الكفر، والظلم، والفسق.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾
[إبراهيم: ٤٢] وقال أحمد بن خضرويه^(١): لو أذن لي فى الشفاعة، ما بدأت إلا بالظالمين، لأنى تثبت لتعزية الله تعالى فى قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] قال: ولا أغتم سفراً لا يكون فيه من لا يؤذنى ويظلمنى، شوقاً منى لتعزية الله تعالى للمظلومين.

وقال ميمون بن مهران: كفى بهذه الآية وعيداً للظالم وتعزية للمظلوم.

وقال كعب لأبى هريرة: فى التوراة: (من يظلم يُخرب بيته) فقال أبو هريرة: وذلك فى كتاب الله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾
[النمل: ٥٢] فالظلم أدعى شئ إلى سلب النعم وحلول النقم.

وروى مسلم فى الصحيح عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه قال: «يا عبادى: إنى حرمت الظلم على نفسى^(٢) وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا^(٣)»،

(١) أبو حامد البلخى أحمد بن خضرويه: من كبار مشايخ خراسان، توفي سنة ٢٤٠ هـ وعمره جاوز التسعين سنة (سير أعلام النبلاء ١١ / ٤٨٧ وما بعدها).

(٢) قال العلماء فى معنى (إنى حرمت الظلم على نفسى): تقدست عنه وتعاليت. وأصل التحريم فى اللغة: المنع، فسمى تقدسه عن الظلم تحريماً، لمشابهته للممنوع فى أصل عدم الشياء.

(٣) أى لا تتظالموا، والمراد: لا يظلم بعضكم بعضاً.

يا عبادى كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديته^(١)، فاستهدوني أهدكم، يا عبادى: كلُّكم جائعٌ إلَّا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادى: كلُّكم عارٌ إلَّا من كسوته، فاستكسوني أكسبكم، يا عبادى: إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادى: إنكم لن تبلُغوا ضرى فتضرُّوني، ولن تبلُغوا نفعى فتنتفعوني، يا عبادى: لو أن أولَّكم، وآخركم، وإنسكم، وجنَّكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك فى ملكي شيئاً، يا عبادى: لو أن أولَّكم وآخركم، وإنسكم، وجنَّكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادى: لو أن أولَّكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم قاموا فى صعيد واحد، فسألوني فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألته، ما نقص ذلك مما عندى إلَّا كما ينقص المخيط^(٢) إذا دخل فى البحر. يا عبادى: إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلَّا نفسه^(٣) [يرويه أبو أدريس الخولاني، عن أبى ذر، ومسنداً إلى النبی ﷺ، وكان أبو أدريس إذا حدثه جثا على ركبته^(٤)].

وروى عبد الله بن عمر أن النبی ﷺ قال: «الظُّلُمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمُ الْقِيَامَةِ»^(٥) وروى ابن عباس أن النبی ﷺ قال: «اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(٦) وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت لأخيه

(١) نقل الإمام مسلم عن المازرى فى قوله (كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديته): ظاهر هذا أنهم خلقوا على الضلال إلَّا من هداه الله تعالى، وفى الحديث المشهور: «كل مولود يولد على الفطرة» وقد يكون المراد وصفهم بما كانوا عليه قبل مبعث النبی ﷺ، وإنهم لو تركوا وما فى طباعهم من إثارة الشهوات والراحة وإهمال النظر، لضلوا.

(٢) المخيط: أى أبرة الخياطة، قال العلماء: هذا تقريب إلى الأفهام ومعناه: لا ينقص شيئاً أصلاً لأن ما عند الله تعالى لا يدخله نقص. وضرب المثل بالمخيط فى البحر لأنه غاية ما يضرب به المثل فى القلة. (٣) رواه الإمام مسلم فى باب «تحريم الظلم» عن أبى إدريس الخولاني عن أبى ذر عن النبی ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى - صحيح مسلم ج ٤ / ١٩٩٤.

(٤) أبو إدريس الخولاني: عالم أهل الشام وواعظهم وقاضيتهم، من فقهاء التابعين، توفي سنة ٨٠هـ (الأعلام ٣ / ٢٣٩). ومعنى جثا على ركبته: أى جلس.

(٥) رواه البخارى ومسلم والترمذى عن ابن عمر والحديث صحيح (الجامع الصغير رقم ٢٠٥٨). (٦) هذا طرف من حديث طويل أخرجه الجماعة إلَّا مالك فقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى عن عبد الله بن عباس (جامع الأصول ج ٤ / ١٤٦).

عنده مظلمة من عَرَضَ أو شيء فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه قبل أن لا يكون درهمٌ ولا دينار، فإن كان له عملٌ صالحٌ أخذَ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسناتٌ، أخذَ من سيئات صاحبه فحملَ عليه»^(١) وروى سعيد بن زيد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من ظلم من الأرض شبراً طَوْقَهُ من سبع أرضين»^(٢) قال أبو جعفر الطحاوى^(٣): معناه: أنه يُقلب شجاعاً أقرع فيطوّقه. كما قال النبي ﷺ في مانع الزكاة: «يجيء ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع يتبعه ويقول: أنا مالك، أنا كنزك»^(٤) فكان هذا داخلاً في قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «مطلُ الغنى ظلم»^(٥).

وروى أبو موسى الأشعري قال: قال النبي ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»^(٦) وقرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وروى أنس أن النبي ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قالوا: يا رسول الله: كيف هذا؟ أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يده»^(٧).

وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات

(١) رواه البخارى والإمام أحمد عن أبى هريرة وهو صحيح ومعنى يتحلله: أى يسأل أن يجعله فى حلّ من قبله (شرح السنة - البغوى ج ١٠ ص ٣٥٩).

(٢) رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم عن عائشة وعن سعيد بن زيد والحديث صحيح (الجامع الصغير رقم ٨٨٤٢).

(٣) أبو جعفر الطحاوى أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوى، فقيه انتهت إليه رئاسة الحنفية فى مصر. وطحاوى نسبة إلى (طحا) فى صعيد مصر - له عدة تصانيف، رحل إلى دمشق واتصل بأحمد بن طولون وكان من خاصته توفى بالقاهرة سنة ٣٢١ هـ (الأعلام ١/ ٢٠٦).

(٤) رواه النسائى وابن ماجه بلفظ مشابه فى كتاب الزكاة» باب ما جاء فى منع الزكاة، ومعنى شجاع أقرع: الشجاع الأقرع من الحيات: من سقط شعر رأسه لكثرة سمّه (الثعبان الضخم السام جداً).

(٥) متفق على صحته عن أبى هريرة (الجامع الصغير رقم ٨١٨٢).

(٦) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى موسى الأشعري والحديث صحيح (الجامع الصغير رقم ١٨٠٠).

(٧) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب المظالم بلفظ «تأخذ فوق يديه» ورواه الترمذى بلفظ (تكفه عن الظلم) (إرواء الغليل - الألبانى - رقم ٢٤٤٩).

مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها»^(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] فى الآية تأويلان: أحدهما أمرناهم بالطاعة ففسقوا، أى خرجوا عن الطاعة. والثانى: على قراءة المدنى^(٢): أى كثّرنا عددهم، وأسبغنا النعم عليهم، فعصوا وتباغوا. ومنه قول النبى ﷺ: «خير المال سكة مأبورة ومهرة مأبورة»^(٣) أى كثيرة النتاج. واعلموا أن حشرات الأرض وهوامها تلعن العصاة، وقال مجاهد^(٤): إذا أشعثت^(٥) الأرض تقول البهائم: هذا من أجل عصاة بنى آدم، فذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وفى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الحسل لتموت بذنوب ابن آدم»^(٦). يعنى: أن بذنوب الخلق يمتنع القطر، فلا تنبت الأرض، فتتهالك الدواب والحشرات. وسمع أبو هريرة رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال: «بلى والله، إن الحبارى لتموت هزلاً فى وكرها بظلم الظالم»^(٧) وقال ابن مسعود: خطيئة بنى آدم قتلت الحسل.

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده والإمام مسلم عن أبى هريرة والحديث صحيح (الجامع الصغير رقم ٥٠٤٥) قال الإمام مسلم هذا الحديث من معجزات النبوة فقد وقع ما أخبر به النبى ﷺ ومعنى رؤوسهن كأسنمة البخت: أى يغطّين رؤوسهن بالخمير والعمائم وغيرها حتى تشبه أسنمة البخت (والبخت كلمة أعجمية معربة وهى الإبل الخراسانية) صحيح مسلم ج ٤ / رقم ٢١٢٨ ص ٢١٩٢).

(٢) قراءة المدنى قالون: مقرئ المدينة وتلميذ نافع الإمام المجرّد النحوي أبو موسى عيسى بن مينا، كان ربيب نافع فلقبه بقالون لجودة قراءته، وتلا عليه ابنه أحمد والحلواني وعدة غيرهم، مات سنة ٢٢٠ هـ، وقراءته ﴿آمرنا﴾، والقراءة المشهورة هى قراءة (أمرنا) كما ذكر ابن كثير فى تفسير الآية (٣ / ١٩).

(٣) رواه الإمام أحمد (٣ / ٤٦٨) والطبرانى فى الكبير عن سويد بن هبيرة بلفظ (خير مال المرء مهرة مأبورة أو سكة مأبورة) وقال: رجال أحمد ثقات. ومعنى مهرة مأبورة: أى كثيرة النتاج، ومعنى سكة مأبورة: أى السكة والطريق من النخل قد أبر أو لُقح (شرح السنة - البغوى - ج ١٠ / ٣٨٧).

(٤) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكى، شيخ القراء والمفسرين من التابعين، أخذ التفسير عن ابن عباس قرأه عليه ثلاث مرات، يقف عند كل آية يسأله: فيم نزلت وكيف كانت، قيل إنه مات وهو ساجد سنة ١٠٤ هـ. (سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٤٩).

(٥) أشعثت الأرض: أى لم ينبت زرعها.

(٦) الحسل: ولد الضب. ولم أعثر على الحديث فى أى من كتب الحديث المعروفة.

(٧) انظر تفسير ابن كثير (٢ / ٥٧٤).

وروى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ إنه قال: «من اقتطع حقَّ امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار وحرَّم عليه الجنة، فقال الرجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: وإن كان قضيباً من أراك»^(١).

وقال ابن عباس: «ما ظهر الغُلُول^(٢) في قوم قط [إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنى في قوم]^(٣) إلا فشا فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان، إلا انقطع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير حق، إلا فشا فيهم الدم، ولا خفر قوم بالعهد^(٤)، إلا سلط عليهم العدو»^(٥).

وقال بعض الحكماء: اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك، لا يعجبَنَّ رَحْبُ الذَّرَاعِينَ بسفك الدماء فإن له قاتلاً لا يموت. ورؤي أن بعض الملوك رَقَمَ^(٦) على بساطه:

لا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِراً فالظلمُ مصدره يُفْضِي إلى النَّدَمِ
تَنَامُ عَيْنُكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَصِبٌ يدعو عليك وعينُ الله لم تَنَمْ

أنشدنا قاضي القضاة أبو عبد الله الدامغانى^(٧) رحمه الله ببغداد:
إِذَا مَا هَمَمْتَ بِظُلْمِ الْعِبَادِ فَكُنْ ذَاكِراً هَوْلَ يَوْمِ الْمَعَادِ
فَإِنَّ الْمَظَالِمَ يَوْمَ الْقِصَاصِ لِمَنْ قَدْ تَزَوَّدَهَا شَرٌّ زَادَ
وقال سحنون بن سعيد^(٨): كان يزيد بن حاتم الحكيم^(٩) يقول: ما هبتُ

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان: «باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار» عن أبي أمامه، (صحيح مسلم ٢١٨ / ١) والأراك شجر يؤخذ من فروعه السواك.

(٢) الغلول: تأتي بمعنى الخيانة في الغنيمة، كما تأتي بمعنى الحقد.

(٣) هذه العبارة سقطت من (ط).

(٤) خفر القوم بالعهد: نقضه. وفي موطأ مالك: «ولا ختر قوم بالعهد» وهي بنفس المعنى.

(٥) هذا الحديث رواه مالك في الموطأ (٢ / ٤٦٠) موقوفاً على ابن عباس، ورفع الطبراني وغيره إلى النبي ﷺ: (الترغيب والترهيب ٢ / ٣٥٨)، (التمهيد لابن عبد البر ٢٣ / ٤٣٠).

(٦) رَقَمَ: كَتَبَ، والرقم: الكتاب. قال تعالى: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾.

(٧) محمد بن علي أبو عبد الله الدامغانى: شيخ الحنفية في زمانه، ينعت بقاضى القضاة، ولد بدامغان وتفقه بها ثم ببغداد، وولى بها القضاء حوالى ٣٠ سنة توفى سنة ٤٧٨ هـ (الأعلام ٦ / ٢٧٦).

(٨) عبد السلام بن سعيد التنوخي الملقب بسحنون القاضي والفقير المالكي، سبقت ترجمته.

(٩) يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة من القادة الشجعان، ولى مصر، وأفريقية لمدة خمس عشرة سنة وقضى على كثير من فتن البربر، كان جواداً كريماً شديد الشبه بجده المهلب توفى بالقيروان سنة ١٧٠ هـ (الأعلام ٨ / ١٨٠).

شيئاً قط هيبتي رجلاً ظلمته، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله، فيقول لي: حسبيك الله، الله بيني وبينك.

وقال بلال بن سعد^(١): اتقوا الله فيمن لا ناصر له إلا الله.

وقال أبو سليمان الداراني^(٢): لما دخل إخوة يوسف عليه السلام عرفهم ولم يعرفوه، وكان على وجهه بُرقع، فخلا بكبيرهم - وكان ابن خالته - فقال له: بم أوصاك أبوك؟ قال: بأربع، قال: وما هن؟ قال: يا بني: لا تتبع هواك فتفارق إيمانك، فإن الإيمان يدعو إلى الجنة، والهوى يدعو إلى النار، ولا تكثر منطقك بما لا يعينك، فتسقط من عينه. ولا تسيء بربك الظن فلا يستجيب لك، ولا تكن ظالماً فإن الجنة لم تُخلق للظالمين.

وبكى علي بن الفضيل^(٣) يوماً، ف قيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكى على من ظلمني، اذا وقف غدا بين يدي الله تعالى، ولم يكن له حجة.

ولمحمود الوراق^(٤):

وتركْتُ ذاكَ له على عِلْمي	إِنِّي وَهَبْتُ لظالِمي ظُلْمي
لَمَّا أَبَانَ بجهله حلمي	ورأيتُه أَسْدَى إلى يَدَا
فأَب مُضاعف الجُرم	رَجَعْتُ إِسَاءَتُهُ عَلَيهِ وإِحْسَانِي
وغَدَا بِكَسْبِ الدَّمِّ والإِثم	وغَدَوْتُ ذَا أَجْرٍ ومَحْمَدَة
حَتَّى رَثَيْتُ له من الظُّلم	ما زال يظلمُنِي وأَرْحَمُهُ
وأنا المُسيءُ إِلَيْهِ في الحُكْم	وكأنَّما الإِحْسَانُ كان له

(١) بلال بن سعد، أحد العلماء الزهاد في عهد هشام بن عبد الملك، كان بالشام كالحسن البصري بالعراق، قال الأوزاعي: كان بلال من العبادة على شيء لم يسمع بأحد من الأئمة قوى عليه، وتوفي في خلافة هشام في عداد المائة الثانية من الهجرة (حلية الأولياء ٥ / ٢٢١ وما بعدها).

(٢) أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي، زاهد مشهور من أهل (داريا) بغوطة دمشق، رحل إلى بغداد وأقام بها مدة، ثم عاد إلى دمشق، كان من كبار المتصوفين، وله أخبار في الزهد مات سنة ٢١٥ هـ (سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٨٢).

(٣) علي بن الفضيل بن عياض: والده أحد الزهاد المشهورين وقد سبقت ترجمته، وكان ابنه (علي) من كبار الصالحين مات قبل أبيه، قال أبو علي الرازي: صحبت الفضيل ثلاثين سنة فما رأيته ضاحكا ولا متبسما إلا يوم مات ابنه علي، فقلت له في ذلك، فقال: أن الله أحب أمراً فأحببت ذلك الأمر (وفيات الأعيان ج ٤ / ٤٦).

(٤) محمود الوراق من الشعراء، أكثر شعره في المواعظ والحكم مات سنة ٢٢٥ هـ. وقد سبقت ترجمته.

وروي أَنَّ النبي ﷺ قال : يقول الله تعالى : «اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد ناصرًا غيري» (١).

وقال ابن مسعود : لما كشف الله العذاب عن قوم يونس ، ترادُّوا المظالم حتى إنَّ الرجل كان ليقلع الحجر من أساسه ، فيردُّه إلى صاحبه .

وقال ثور بن زيد (٢) : الحجر في البنيان من غير حله ، عربون على غرابه .

وقال غيره : لو أن الجنة - وهي دارُ البقاء - أُسِّست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب . وقال الحكيم : العدل حُرمة والظلم ظُلْمَةٌ ، فالعدل يجزئ إليك الحوائج ، والجور يُهجم عليك الجوائح (٣) ، فاحذر من لا جُنَّة (٤) له إلا الثقة بنزول الغير ، ولا سلاح له إلا الابتهال إلى مقلِّب الدول .

قال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب : يا معشر الظلِّمة : لا تُجَالِسُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا ذَكَّرُونِي ذَكَّرْتُهُمْ بِرَحْمَتِي ، وَإِذَا ذَكَّرْتُمُونِي ذَكَّرْتَكُمْ بِلَعْنَتِي .

وقال أبو أمامة (٥) : يجيئ الظالم يوم القيامة ، حتى إذا كان على جسر جهنم ، لقيه المظلوم وعرف ما ظَلَمَهُ به ، فما يبرح الذين ظَلَمُوا بِالَّذِينَ ظَلَمُوا حتى ينزعوا ما بأيديهم من الحسنات ، فَإِنْ لم يجدوا حسنات ، حُمِلَ عليهم من سيئاتهم مثل ما ظلموا ، حتى يَرِدُوا الدَّرَكَ الْأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ .

ومن صحيح مسلم أن هشام بن حكيم (٦) مر بالشام على أناس وقد أقيموا في الشمس ، وصبَّ على رؤوسهم الزيت ، قال : ما هذا ؟ قال : يُعَذَّبُونَ فِي

(١) قال السيوطي : رواه الديلمي في مسند الفردوس عن علي ، والحديث ضعيف (الجامع الصغير

رقم ١٠٤٦) .

(٢) ثور بن زيد الديلمي المدني ، من رواة الحديث الثقات مات سنة ٣٥ هـ . ولكن هذا القول منسوب في حلية الأولياء إلى ثور بن يزيد الكلاعي الشامي وهو من رجال الحديث الثقات ، توفي في القدس سنة ١٥٣ هـ حيث روي أنه قال : «مكتوب في الإنجيل : الحجر في البنيان من غير حله عربون خرابه» (الأعلام ٢/ ١٠٢) ، (التاريخ الكبير ٢/ ١٨١) ، (حلية الأولياء ٦/ ٩٥) .

(٣) الجوائح : مفردها جائحة وهي الكارثة أو المصيبة .

(٤) الجُنَّة : السترة والوقاية .

(٥) أبو أمامة الباهلي السهمي صحابي جليل روى عن رسول الله الكثير من الأحاديث وهو آخر من

مات من الصحابة بالشام سنة ٨١ هـ . (الأعلام ٣/ ٢٠٣) .

(٦) وهو هشام بن حكيم بن حزام ، صحابي أسلم يوم الفتح ودخل الشام في أيام الفتوح - وعاش سائحا لم يتخذ أهلا ولم يرزق ولدا - بل متفرغا للإصلاح والنصيحة . توفي قبل أبيه حكيم بعد سنة ١٥ هـ ، (الأعلام ٨/ ٨٥ وما بعدها) .

الخراج، قال: أما إني سمعتُ النبي ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَعَذِّبُ الَّذِينَ يَعَذَّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا»^(١).

وأخبرني رجل ممن كان يقرأ العلم بالإسكندرية، قال: كان ههنا شيخ يكون عينا للمكاسين^(٢) يدور حولهم، فرأيتُه في النوم بعد وفاته، فقلت له: من أين تجيء؟ فقال لي: لا تسأل، فأعدت عليه. فقال: لا تسأل، فسألته فقال: من الجحيم، فقلت له: فيألي أين تذهب؟ قال: إلى مثل الدار التي خرجت منها، قلت: فكيف لقيت؟ قال: وماذا لقيت؟ كان لحمي قد جعل في هاون^(٣) ودُقَّ حتى صار مثل المخ.

وأخبرني رجل من أهل العلم والدين، قال: رأيت فلاناً البياع في النوم بعد وفاته، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أنا محبوس عن الجنة، قلت: فبماذا؟ قال: كنت أبيع في الدكان فيزدحمُ الناس عليّ، فأخذ دراهمهم فأضعها في فمي، وكلما تفرغت وزنتها وأعطيت كل إنسان حقه، فاختلطت في فمي الفضتان، فجاء اثنان فدفعتا لأحدهما بفضة الآخر، وكانت أنقص من فضته بحبة، ثم حوسبت فبقي عليّ حبة، فقلت: فادفع له الحبة وتخلص، فجعل يقلب كفيه، ويقول: من أين أدفع له؟ من أين أدفع له؟ فكررهما مرات.

ويُروى أن يونس عليه السلام^(٤): لما نُبذ بالعراء، وأُنبت الله عليه شجرة من يقطين، كان يأوي إلى ظلها، فبيست فبكى عليها، فأوحى الله تعالى إليه:

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده والإمام مسلم في صحيحه، وأبو داود عن هشام بن حكيم، كما رواه الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن عايض بن غنم والحديث صحيح (الجامع الصغير للسيوطي رقم ١٩١٦).

(٢) يأتي للمكاسين بالأخبار: المكاس هو الذي يأخذ المكس، والمكس هو ما يؤخذ من أموال الناس بغير الحق إما يؤخذ من بائعي السلع في أسواق الجاهلية، أو ما يأخذُه أعوان الدولة عن أشياء معينة عند بيعها أو عند ادخالها للمدن.

(٣) الهاون: كلمة فارسية معربة وهو ما يدق فيه الدواء وغيره.

(٤) يونس بن متى من بنى يعقوب، عليه والسلام، بعثه الله تعالى - كما يقول أهل التفسير إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله فكذبوه وتمردوا، فلما طال ذلك عليه من أمرهم، خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث ليال، وركب الفلك الذي أوشك على الغرق، فساهم معهم في القرعة فوقعت عليه فرموه في البحر فالتقطه حوت والذي أمره الله تعالى أن لا يهشم له لحماً ولا عظماً، ثم رماه على الشاطئ بأمر الله (وقصته تجدها في قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٥٧ أو البداية والنهاية لابن كثير أو قصص الأنبياء للنجار).

تبكي شجرةً فقدتها، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون، أردت أن أهلكهم؟! وقيل لابن السماك الأسدي^(١) أيام معاوية: كيف تركت الناس؟ قال: بين مظلوم لا ينتصف، وظالم لا ينتهى.

وقال بعض الحكماء: أفقر الناس أكثرهم كسباً من حرام، لأنه استدان بالظلم ما لا بد له من رده.

وقال رجل: كنت جالسا عند عمر بن عبد العزيز، فذكر الحجاج فسبته ووقعت فيه، فقال عمر: إن الرجل ليظلم بالمظلومة، فلا يزال المظلوم يشتم الظالم ويسبه، حتى يستوفى حقه، فيكون للظالم حق عليه.

وقال عمرو بن دينار^(٢): نادى رجل في بنى إسرائيل: من رآنى فلا يظلمنَّ أحداً، وإذا رجل قد ذهب ذراعه من عضده، وهو يبكي ويقول: من رآنى فلا يظلمنَّ أحداً، فسئل عن حاله؟ فقال: بينما أنا أسير على شاطئ البحر فى بعض سواحل الشام، إذ مررت بنبطي^(٣) قد اصطاد أربعة أنوان^(٤)، فأخذت منه نونا وهو كاره، بعد أن ضربت رأسه، فعرض النون إبهامى عضه يسيرة، ثم أكلناه، فوقع الأكلة^(٥) فى إبهامى، فاتفق الأطباء على قطعه فقطعته، فوقع فى كفى، ثم ساعدى، فمن رآنى فلا يظلمن أحداً، فخرجت أسيح فى البلاد، وأريد قطع عضدى، إذ رفعت لى شجرة فأويت إلى ظلها، فنعست، فقبل لى فى المنام: لأى شيء تقطع أعضائك؟ رد الحق إلى أهله. فجئت الصياد فقلت: يا عبد الله: أنا مملوكك فأعتقنى، فقال: ما أعرفك؟ فأخبرته فبكى وتضرع وقال: أنت فى حل. فلما قالها، تناثر الدود من عضدى وسكن الوجع. فقلت له: بماذا دعوت على؟ قال: لما ضربت رأسى وأخذت السمكة، نظرت إلى السماء وبكيت، فقلت: يارب، أشهد أنك عدل تحب العدل، وهذا منك عدل وأنت الحق تحب الحق، وخلقتنى وخلقته، وجعلته قويا وجعلتنى ضعيفاً، فأسألك يا من خلقتنى وخلقته أن تجعله عبرة لخلقك.

(١) ابن السماك الأسدي، سيد الوعاظ أبو العباس محمد بن صبيح العجلي، توفي سنة ٨٣ هـ، (الأعلام ٨/ ٣٢٩-٣٣١).

(٢) عمرو بن دينار الجمحي ويلقب بأبى محمد الأثرم، من أهل مكة، وروى مجموعة من الأحاديث توفي سنة ١٢٦ هـ (الأعلام ٥/ ٧٧).

(٣) النبطى: جمعها أنباط وهم قوم من العجم كانوا ينزلون بين العراقيين، وكان لهم دولة عاصمتها البتراء فى الأردن سموا نبط لاستنباطهم ما يخرج من الأرض، ثم استعمل فى أخلاط الناس وعوامهم.

(٤) مفردا نون وهو الحوت. (٥) الأكلة: الحكمة.

وقال معاوية: إن أولى الناس بالعتو، أقدرهم على الانتقام، وإن أنقص الناس عقلاً من ظلم من دونه.

وقال بعض الحكماء: الظلم على ثلاثة أوجه: ظلم لا يغفره الله، وظلم لا يتركه الله، وظلم لا يعبأ الله به شيئاً، فأما الظلم الذى لا يغفره الله: فهو الشرك بالله، وأما الظلم الذى لا يتركه الله، فمظالم العباد بعضهم بعضاً، وأما الظلم الذى لا يعبأ الله به، فظلم العبد ما بينه وبين الله تعالى.

وقال ميمون بن مهران^(١): من ظلم رجلاً مظلمة، ففاتته أن يخرج منها، فاستغفر الله دبر كل صلاة، رجوت أن يخرج من مظلمته.

وقال يوسف بن أسباط^(٢) توفي رجل من الحواريين^(٣)، فوجدوا عليه^(٤) وجداً شديداً، وشكوا ذلك إلى المسيح عليه السلام، فوقف على قبره ودعا، فأحياه الله تعالى وفي رجليه نعلان من نار، فسأل عيسى عن ذلك؟ فقال: والله ما عصيت قط، إلا أنى مررت بمظلوم فلم أنصره فتَنَعَلْتُ هاتين النعلتين.

وأما أنا: فأوصيك إذا فعلت بأحد مكروها، فادع الله تعالى له، واستغفر له، كما فعل موسى عليه السلام لما آذى هارون وأخذ بلحيته ورأسه، ثم تبين له براءته، وأن بنى إسرائيل غلبوه عليه وعلى عبادة العجل، فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وروي أن قوم لوط كانت فيهم عشر خصال، فأهلكهم الله تعالى بها: كانوا يتغوطون فى الطرقات وتحت الأشجار المثمرة، وفى المياه الجارية، وفى شطوط الأنهار، وكانوا يحذفون الناس الحصى فيدُمُونَهُمْ، وإذا اجتمعوا فى المجالس أظهروا المنكر بإخراج الريح منهم. والظلم على رقابهم، وكانوا يرفعون ثيابهم قبل أن يغوطوا، ويأتون بالطامة الكبرى وهى اللواط،

(١) ميمون بن مهران الرقى، فقيه ومن القضاة المشهورين توفي سنة ١١٧ هـ، سبقت ترجمته.

(٢) يوسف بن أسباط: من العلماء الزهاد، قال فيه بشر الحافى: أربعة رزقهم الله بطيب المطعم وذكر منهم إبراهيم بن أدهم وقد سبقت ترجمته وكذا يوسف ابن أسباط توفي سنة ١٩٩ هـ.

(٣) الحواريون: أتباع عيسى عليه السلام: قيل سموا بذلك لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم، والحوارى فى اللغة: ناصر الأنبياء.

(٤) وجدوا عليه: حزنوا عليه.

قال الله تعالى: ﴿أَتُنْكُمُ اللَّاتُوتَ الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ (١) [العنكبوت: ٢٩] - والنادى: المجلس - ويلعبون بالحمام. ويرمون بالجلاهق (٢). وضرب الدف، وشرب الخمر، وقص اللحية وتطويل الشارب، والتصفيق ولبي الحمرة (٣). وتزيد عليهم هذه الأمة: باتيان النساء بعضهن بعضاً.

وإنما حملهم على اتيان الرجال: أنهم كانت لهم ثمار كثيرة في منازلهم وحوادثهم، فأصابهم قحطٌ وقلة من الثمار، فقالوا: بأى شئ نمنع ثمارنا حتى لا يطرُقها أحد من الناس؟ فاصطلحوا على أن من وجدوه فيها نكحوه وغرموه أربعة دراهم، ففعلوا وما سبقهم بها أحد من العالمين.

قال ابن عباس: فكان بدء الفاحشة فيهم أنهم هموا بذلك، فجاءهم إبليس في هيئة صبي، أجملَ شئ رآه الناس، فنكحوه وتجرؤا على ذلك. وقال أبو العتاهية (٤).

أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ الظُّلْمَ لُؤْمٌ
إِلَى دِيَانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمُضِي
وَلَكِنَّ الْمُسِيءَ هُوَ الظُّلُومُ
وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ
سَلِّ الْأَيَّامَ عَنْ أُمِّ تَقْضَتْ
فَتُخْبِرُكَ الْمَعَالِمُ وَالرُّسُومُ

وروى أن أنوشروان كان له مُعَلِّمٌ حسن التأديب، فعَلَّمَهُ حتى فاق في العلوم، فضربه المعلم يوماً من غير ذنب فأوجعه، فحقد أنوشروان عليه، فلما ولى الملكُ قال له: ما حملك على ما صنعت من ضربي يوم كذا وكذا ظُلماً؟ قال: لما رأيتك ترغب في العلم، رجوت لك الملك بعد أبيك، فأحببت أن أذيقك طعم الظلم، لئلا تظلم فقال أنوشروان: زه (٥).

* * *

(١) وقد ذكر القرطبي في معرض تفسيره لهذه الآية جملة من اخلاق قوم لوط نقلها عن مجاهد ومكحول وابن عباس حيث قال: إن قوم لوط كانت لهم ذنوب عشرة.

(٢) الجلاهق: جسم صغير كروى من طين أو رصاص يرمى به، وقيل هو القوس التي يرمى بها البندق (فارسية).

(٣) لبس الحمرة: قال العلماء إن كراهة الحمرة من اللباس منصرف إلى ما صبغ من الثياب بعد النسيج للزينة.

(٤) أبو العتاهية: إسماعيل بن القاسم، الشاعر المعروف سبقت ترجمته.

(٥) زه. أى أحسنت، وتستعمل هذه الكلمة للإستحسان والتهكم.

الباب السابع والخمسون

فى تحريم السّعاية والنميمة وقبحها وما يؤول إليه

أمرها من الأفعال الرديئة والعواقب الذميمة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ [القلم: ١٠-١٣] فذكر الله تعالى فى القرآن: أصناف أهل الكفر والإلحاد والتثليث^(١) وأهل الدهر^(٢) والظلم والفسوق وأشباههم، ولم يسب الله سبحانه أحدا منهم، إلا النمام فى هذه الآية، وحسبك بها خسة ورذيلة، وسقوطا وضعة.

وهذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة^(٣) فى اصح الأقوال.

والهمَّاز: المغتاب الذى يأكل لحوم الناس، الطاعن فيهم. وقال الحسن البصرى: هو الذى يغمز بأخيه فى المجلس، وهو الهمزة اللزمة.

والعتلُّ فى اللغة: الغليظ وأصله من العتل، وهو الدفع بالقوة والعنف.

وقال على رضى الله عنه والحسن البصرى: العتلُّ: الفاحش السيئ الخلق.

وقال ابن عباس: العتلُّ: الفاتك الشديد المنافق، وقال عبيد بن عمير:

العتل: الأكل الشروب القوى الشديد، يوضع فى الميزان فلا يزن شعيرة.

وقال يمان: هو الجافى القاسى اللئيم العسر. وقال مقاتل: العتل: الضخم، وقال

الكلبى: الشديد فى كفره عند العرب عتل، وقيل: الشديد الخصومة بالباطل.

والزنيمة: هو الذى لا يعرف من أبوه. قال حسان بن ثابت^(٤):

(١) أهل التثليث: هم النصارى الذين يعتقدون وجود ثلاثة أقانيم فى الله سبحانه وتعالى عنا يشركون.

(٢) أهل الدهر: الدهريون الملحدون الذين يقولون إن العالم موجود أزلا ولا صانع ولا موجد له.

(٣) الوليد بن المغيرة: من زعماء قريش ومن قضاة العرب فى الجاهلية، أدرك الإسلام وهو شيخ ولم يسلم، وهو الذى قال: (إن أصلح ما يقال فى محمد إنه ساحر) مات بعد الهجرة بثلاث شهور ودفن بالجبون سنة ١ هـ من أولاده خالد بن الوليد، والوليد بن الوليد. (الأعلام ٨/ ١٢٢).

(٤) حسان بن ثابت: الخزرجى الأنصارى، الصحابى، شاعر الرسول ﷺ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش فى كل منها ستين سنة، مدح اليمانيين وملوك الحيرة قبل الإسلام، وبعد إسلامه كانت قصائده غاية فى الجودة مات سنة ٥٤ هـ. (الأعلام ٢/ ١٧٥).

وَأَنْتَ زَنْيِمٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْطٌ خَلْفَ الرَّاحِبِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ^(١)
وقال غيره:

زَنْيِمٌ لَيْسَ يُعْرَفُ مِنْ أَبَوِهِ بَغْيُ الْأُمِّ ذُو حَسَبٍ لِّئِيمٍ
وقال أكثر النُّقَلَة: هذا رجل إنما ادَّعاه أبوه بعد ثمانين سنة، وعن هذا
قال القدماء لا يكون نَمَاماً إلا وفي نسبه شيء.

وسعى رجل إلى بلال بن أبي بردة^(٣) برجل - وكان أمير البصرة - فقال
هل: انصرف حتى أكشف عنك، فكشف عنه فإذا هو لغير رَشْدَةٍ^(٤) - يعني
ولد زنا.

وقال أبو موسى الأشعري: لا يبغى على الناس إلا ولدٌ بَغِيٌّ.

وقيل الزنيم: الذي له زَنْمَةٌ^(٥) في عنقه يعرف بها، كما تُعرف الشاة.

قال ابن عباس: لما وصفه الله تعالى بتلك الحال المذمومة لم يُعرف حتى
قيل زَنْيِمٌ فُعُورٌ، لأنه كانت له زَنْمَةٌ يُعرف بها، كما تُعرف الشاة بزَنْمَتِهَا.

ومن ذلك: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ
فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات: ٦] نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي
مُعِيْطٍ^(٦) بعثه النبي ﷺ إلى بني المصطلق بعد الواقعة، وكان بينه وبينهم
عداوة في الجاهلية، فخرجوا يتلقونه تعظيماً لأمر النبي ﷺ، ففزع ورجع إلى

(١) يهجو الشاعر حسان في هذا البيت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. ومعنى: [زنيم نيط
في آل هاشم]: أي يدعي أنه ينتسب لهم. ومعنى [القدح الفرد] هي عبارة تعني أنه مؤخر في الذكر،
لأن القدح يعلقه الراكب في آخر الرحل. وفي الحديث: [لا تجعلوني كقدح الركب] أي لا تؤخروني
في الذكر.

(٢) بلال بن أبي بردة: عامر بن أبي موسى الأشعري، أمير البصرة وقاضيها، كان راوياً فصيحاً
أديباً، كان ثقة في الحديث ولكن لم تحمد سيرته في القضاء، عزله يوسف بن عمر الثقفي عن القضاء
سنة ١٢٥ هـ وحجسه ومات سجيناً سنة ١٢٦ هـ (الأعلام ٧٢/٢). ومعنى سعى: وشى ونم.

(٣) الرُّشْدَة والرَّشْدَة: صحة النسب

(٤) الزَنْمَة: علامة، وهي عبارة عن لحمية متدلّية في الحلق.

(٥) الوليد بن عقبة بن أبي معيط من فتيان قريش وشعرائهم، فيه ظرف ومجون ولهو، أسلم يوم
فتح مكة، وأرسله رسول الله ﷺ، على صدقات بني المصطلق، ثم ولاه عمر صدقات بني تغلب، وولاه
عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، وشهد عليه جماعة عند عثمان بشرب الخمر، فعزله وحجسه
وحده، مات بالرقعة سنة ٦١ هـ.

النبي ﷺ، وقال: منعوني صدقاتهم وأرادوا قتلى، فغضب النبي ﷺ، ثم كشف أمرهم، فوجد ما قاله كذباً، فنزلت هذه الآية وَسَمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى فَاسْقًا. ومن ذلك قول الله سبحانه: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢] فشارك الله تعالى بين السامع والقائل في القبح، وساوى بينهم في الذم، فكان فيه تنبيه على أن السامع نمام في الحكم.

وأما ما روي فيه عن النبي ﷺ، فروى مسلم في الصحيح قال همام: كنا مع حذيفة، ف قيل له: أن رجلاً يرفع الحديث إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه، فقال حذيفة: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات» (١) وفي لفظ آخر نمام.

وروي أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بشراركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «من شراركم: المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون العيوب» (٢).

وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «ملعون ذو الوجهين، ملعون ذو اللسانين، ملعون كل سفار، ملعون كل قتات، ملعون كل منان» (٣) فالسفار: المُحَرَّش بين الناس يُلْقِي بينهم العداوة. والقتات: النمام. والمنان: الذى يعمل الخير ويمن به.

وروى ابن عباس أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة» (٤). فأخذ جريدة رطبة فشققها نصفين فغرر في كل قبر واحدة

(١) رواه الإمام مسلم فى الإعيان، باب بيان غلظ تحريم النميمة، ورواه البخارى فى الأدب (باب ما يكره النميمة) والترمذى فى البر والصلة. ومعنى يرفع الحديث: ينقله على سبيل النميمة والإفساد، ومعنى القتات: النمام، الذى ينقل الحديث عن الناس ليوقع بينهم (جامع الأصول ٨ / ٤٥٠، ٤٥١).

(٢) الحديث: رواه الإمام أحمد فى مسنده (٦ / ٤٥٩) بلفظ..... (الباغون للبراء العنت) عن أسماء بنت يزيد وقال المتقى الهنذى فى كنز العمال (٤٣٩٠٢): أخرجه الإمام أحمد وابن أبى الدنيا فى الغيبة عن أسماء بنت يزيد - ومعنى العنت: المشقة والفساد، والبراء: جمع برئ.

(٣) رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى هريرة بلفظ ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين.

(٤) الحديث صحيح رواه البخارى ومسلم وأبو داود الترمذى والنسائى وابن ماجه.

فقالوا: يا رسول الله، لمَ فعلت هذا؟ قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبساً»^(١)، وذلك لبركة يده ﷺ.

وأما السَّعاية إلى السلطان وإلى كل ذي قدرة ومكانة، فهي المَهْلَكة والحالقة^(٢)، تجمع إلى الخصال المذمومة: الغيبة، ولؤم النميمة، والتغريب بالنفوس والأموال^(٣)، والقدح في المنازل والأحوال^(٤)، وتسلب العزيز عزه، وتحطُّ المكين^(٥) عن مكانته، والسَّيد عن مرتبته، فكم من دم أراقه سعي ساعٍ، وكم حريم استُبيح بنميمة باغٍ، وكم من صفيين تقاطعا، ومن متواصلين تباعدا، ومن محبين تباغضا، ومن إلفين تهاجرا، ومن زوجين افترقا.

فليتق الله ربه، رجل ساعدته الأيام، وتراخت عنه الأقدار، أن يصيخ لساع^(٦)، أو يسمع لنمام.

وروى ابن قتيبة^(٧) أن النبي ﷺ قال: «الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع»^(٨). فالديوث: الذي يجمع بين النساء والرجال، سمي بذلك لأنه يديث بينهم. والقلاع: الساعى الذي يقع في الناس عند الأمراء، لأنه يقصد الرجل المتمكن عند السلطان، فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه.

وقال كعب: أصاب الناس قحطٌ شديد على عهد موسى، عليه السلام، فخرج موسى يستسقى بنى إسرائيل، فلم يسقوا، ثم خرج ثانية فلم يسقوا، ثم خرج الثالثة، فأوحى الله تعالى إليه: «إني لا أستجيب لك ولا لمن معك»، فإن فيكم

(١) روى هذه الزيادة الإمام أحمد في مسنده عن أبي إمامة وعن أبي بكرة وقال المنذرى: رواه الإمام أحمد وغيره بإسناد رواه ثقات. (الترغيب والترهيب - المنذرى - ٣ / ٢٩٤ - ٣٠١).

(٢) روى الترمذى عن رسول الله ﷺ قوله: «فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين».

(٣) التغريب بالنفوس والأموال: تعريضها للهلاك.

(٤) القدح في المنازل والأحوال: سب ذوي المناصب العالية.

(٥) المكين: صاحب المكانة العالية. (٦) يصيح لساع: يصغي ويستمع لنمام أو واش.

(٧) هو ابن قتيبة الدينورى عبد الله بن مسلم من أئمة الأدب ومن المصنفين المكثرين ولد ببغداد وسكن الكوفة وولى قضاء (دينور) فنسب إليها وتوفى ببغداد سنة ٢٧٦ هـ. وقيل سنة ٢٩٦ (طبقات المفسرين للداودي ١ / ٤٤).

(٨) الحديث: رواه الطبرانى عن عمار بلفظ: (لا يدخل الجنة ديوث).

نمّاماً، فقال: يا رب: من هو حتى نخرجه من بيننا؟ فأوحى الله تعالى إليه: «يا موسى أنهاكم عن النميمة وآتيها؟!». فتابوا فأرسل الله سبحانه عليهم الغيث. ولما لقي أسقف نجران عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال له: يا أمير المؤمنين، أخطر قاتل الثلاثة. قال: ومن قاتل الثلاثة؟ قال: الرجل يأتي الإمام بالحديث الكذب فيقبله الإمام، فيكون قد قتل نفسه وصاحبه وإمامه. فقال عمر: ما أراك أبعدت.

ووجدنا في حكم القدماء: أبغضُ الناس إلى الله: المثلث. قال الأصمعي: هو الرجل يسعى بالنميمة بأخيه إلى الإمام، فيهلك نفسه وأخاه وإمامه. وذُكرت السُّعاية عند المأمون، فقال: لو لم يكن من عيبتهم، إلا أنهم أصدق ما يكونون، أبغض ما يكون عند الله تعالى. وقال حكيم الفرس: الصدق زينٌ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا السُّعَايَة، فَإِنَّ السَّاعِيَ أَذْمُ^(١) وَأَثَمُ ما يكون إذا صدق.

وروى أن رجلاً سعى بجار له عند الوليد بن عبد الملك^(٢)، فقال له الوليد: أما أنت فتُخبرنا أنك جارٌ سوء، إن شئت أرسلنا معك، فإن كنت صادقاً أبغضناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت تاركناك^(٣)، قال: تاركني يا أمير المؤمنين قال: قد تاركناك.

ولله درُّ الإسكندر حينَ وَشَى إليه واش برجل - فقال له الإسكندر: إن شئت قبلناك على صاحبك بشرط أن نقبله عليك، وإن شئت أقلناك، قال: أقلني، قال: قد أقلناك، كُفَّ عن الشر يُكفُّ عنك الشر.

ومن العجب الذي لا عجب بعده: أن الرجل يشهد عندك في باقة بقل^(٤)، فلا تقبله حتى تسأل الناس عنه، هل هو من أهل الثقة، والعدالة، والأمانة، والصيانة، ثم ينمُّ عندك بحديث، فيه الهلاك وفساد الأحوال، فتقبله.

(١) أذم: أى فعل ما يذم به.

(٢) الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي السادس سبقت ترجمته.

(٣) تاركه: خلّاه وسالاه.

(٤) البقل: نبات عشبي يتغذى به الإنسان.

وقال يحيى بن زيد^(١): قلت للحسن بن علي رضي الله عنهما لما سُقي السم: أخبرني من سقاك؟ فدمعت عيناه، وقال: أنا في آخر قدم من الدنيا، وأول قدم من الآخرة تأمرني أن أغمز^(٢).

وقال رجل للمهدي^(٣): عندي نصيحةٌ يا أمير المؤمنين، قال: لمن نصيحتك هذه؟ أأنا؟ أم لعامة المسلمين؟ أم لنفسك؟ قال: لك يا أمير المؤمنين، قال المهدي: ليس الساعي بأعظم عورة، ولا أقبح حالا، ممن قبل سعائته، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة، فلا نشفى لك غيظاً، أو عدوا فلا نعاقب لك عدوك، ثم أقبل على الناس، قال: أيها الناس: لا ينصح لنا ناصح إلا بما لله فيه رضا، وللمسلمين فيه صلاح.

وروى: أن ساعياً سعى برجلٍ إلى الفضل بن سهل^(٤)، فوقع^(٥) على ظهر كتابه: نحن نرى قبول السعاية أشر من السعاية، لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دل على شيء كمن قبل وأجاز، لأن من فعل أشر ممن قال.

ويروى: أن رجلاً رفع إلى المنصور^(٦) نصيحةً فوقع على ظهرها: هذه نصيحةٌ لم يرد بها وجه الله تعالى، ولا جواب عندنا لمن آثرنا على الله تعالى. وروى أن رجلاً قال للمأمون: يا أمير المؤمنين، الله الله في أصحاب الأخبار، فإنهم قوم إن أعطوا كذبوا، وإن حرموا كذبوا. فإن أعطوا مدحوا وهم كاذبون، وإن حرموا ذموا وهم كاذبون، فقال المأمون: لله درها من كلمة ما أقصدها وأبين فضلها، وأمر أن تُثبت في أمور أصحاب الأخبار.

وقال مروان بن زنباع العبسي^(٧): يا بني عبس احفظوا عني ثلاثاً: من نقل

(١) يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أحد الأبطال الأشداء، ثار مع أبيه ضد الأمويين، وقُتل أبوه وصلب ثم قتل هو وأُرسل رأسه إلى الوليد بن يزيد في دمشق سنة ١٢٥هـ، (الأعلام ٨/ ١٤٦).

(٢) غمز غمزاً بالرجل: طعن عليه وسعى به شراً.

(٣) المهدي: محمد بن المنصور، ثالث الخلفاء العباسيين سبقت ترجمته.

(٤) الفضل بن سهل: وزير الخليفة المأمون بن هارون الرشيد قبل أن يقتله سبقت ترجمته.

(٥) التوقيع: الحاق شيء في الكتاب بعد الفراغ منه.

(٦) المنصور: أبو جعفر عبد الله الخليفة العباسي الثاني وقد سبقت ترجمته.

(٧) مروان بن زنباع العبسي من رجالات بني عبس وحُكمائهم ويعتبر من الرجال الأوفياء من العرب، قيل أنه كان من وفائه أن أخذ عوداً من الأرض ودفعه رهناً بمائة من الأبل ووفى بها (المحبر - محمد بن حبيب - ص ٣٥٠، ٣٥١).

إليكم نقل عنكم، وإياكم والتزويج في البيوتات السوء، واستكثروا من الصديق ما استطعتم، واستقلُّوا من العدو ما استطعتم، فإن استكثاره ممكن.

وقال بعض الحكماء: احذروا أعداء العقول، ولصوص المودَّات - وهم السعاة والنَّمَّامون - إذا سرق اللصوص المتاع سرقوا المودَّات.

وقال حكيم العرب: إِيَّاكَ والسَّعاة فإنهم أعداء عقلك، ولصوص عدلك، فيفرُّون بين قولك وفعلك.

وقى المثل السائر: من أطاع الواشى ضيَّع الصديق، وقد يُقطع الشجر فينبُت، ويُقطع اللحم بالسيف فيندمل^(١)، واللسان لا يندمل جرحه.

وأحق الناس برعاية ما رسمته من هذه الخلال، ونقلته من هذه الحكم، واستودعته من هذه السير، من آتاه الله سلطاناً ومكَّن له في الأرض قدماً، فذو القدرة إذا أطاع الواشى هلك العالم.

وكان بعض الحكماء يقول: من أراد أن يسلم من الإثم، ويبقى له الإخوان، فيجعل نفسه بينه وبينهم قاضياً عدلاً، ويحكم بالعدل، ولا يقبل أحداً في أحد، ولا في نفسه، إلا بشهودٍ وتعديل، فإننا قد أحببنا بقولِ أقوامٍ، وأبغضنا بقول آخرين، فأصبحنا نادمين.

ومن لطيف حكمة الله تعالى في النميمة، لما علَّم من شؤمها، واستطارة شُرورها، وعموم مضرَّتها في الورى، حكم بفسق النَّمَّام حتى لا يُقبل له قول، فيستريح الخلق من شره.

وقال ابن عمر: وفدُّ الله الحاجَّ، ووفدُّ الشيطان قوم يرسلهم السلطان إلى الناس، ويسألهم عن حالهم، فيخبرونه أن الناس راضون وليسوا براضين.

واعلموا أن الله تعالى خلق الإنسان على أنحاء شتى، لسنا نذكرها الآن لكثرتها وطول تتبُّعها، فخلق الله الحواسَّ الشريفة، والأعضاء النافعة النفيسة، فمن أفضل ما ركَّب فيه اللسان، الذى هو آلة النطق والبيان، وبه فصل بينه وبين البهائم، ثم فضله على سائر الحيوان، وامتنَّ عليه فى أوَّل سورة الرحمن، فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ

(١) اندمل الجرح: تماثل وتراجع إلى البرء.

الْبَيَانُ ﴿ [الرحمن: ١-٤] وخلق فيه أعضاء تُذَلَّلُ (١) وتستهان، وجعلها مجرى لفضول الطعام والشراب، فمن يتبع سَقَطَاتِ الكلام، ويروى عشرات الأنام، التي هي كالعورات الواجب سترها ودفعها، كان قد استعمل أشرف الآلات في أخس (٢) المستعملات، فصار كمن لحس بلسانه سواة أخيه، وجعل أكرم جوارحه لأخس أجناس المستعرضين، ورضى أن يقع من الناس موقع الذباب من الطير، يتتبع ثفل (٣) الجسد، ويتحامي صحيحه، وقد كان له في نشر المحاسن شغل، ولكن أهل كل ذى حال أولى بها. وفي هذا سبق المثل: (إن لم تكن ملحاً تُصلح، فلا تكن ذباباً تُفسد) ومن لم يقدر على جميع الفضائل فلتكن همته ترك الرذائل، وإذا تتبع الإمام عورات الناس أفسدهم.

وروى: أن النبي ﷺ هم بالخروج يوماً فسمع قوماً من أصحابه يضحكون، فامتنع من الخروج إليهم حذراً أن لا يفسد قلبه عليهم (٤).

ولو علم الذى يسمع أخبار الناس ما جنى على نفسه، لعلم أن الصمم كان هنأً لعيشه، وأنعم لباله من سماع الأخبار.

يا واحد (٥): ماذا عمل نقلة الأخبار؟ حملوا إليك الصدق أو الكذب؟ فتكون فى سماع الكذب ممن قال الله تعالى فيه: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢] وتكون فى سماع الصدق حملاً لله، حرج الصدر على الخلق، معادياً لهم، متبّعاً لعشرات الخلق وخزاناً لسقطاتهم، قد وعيت منهم ما يجب ستره، وحفظت ما يجب نسيانه، ثم لا تستطيع النصفة من قائل، لأنك إن كنت ذا قدرة أهلك الرعية، ثم لا تستطيع أن تهلك جميع الرعية، وإن كنت سوقة (٦) لم يشف غيظك، ثم أفسدت إخوانك وأبغضت من يجب أن تحبه، وأحببت من يجب أن تبغضه، ثم لا تزال تتحمل

(١) فى (خ) تُذَلَّلُ وتستهان.

(٢) الخسّ والدناءة. (ط) أخس: من الخصوصية، والأول أوجه.

(٣) الثفل: ما يستقر فى اسفل الشئ من كدره.

(٤) لم أجده فى الصحاح من الكتب.

(٥) وردت هذه العبارة فى (ط) وفى (خ): [أماً واحدة].

(٦) السوقة أى عامة الناس.

الخصائف^(١) وتزيد الأحقاد والضغائن، وترصد لكل قائل يوماً يشفى صدرك فيه، فما أغنى العاقل عن هذه البلية.

ولله در عمرو بن العاص: روي أن لاحاه^(٢) رجل يوماً، فقال له الرجل: أما والله إن عشت لأتفرغن لك، فقال له عمرو بن العاص: الآن وقعت في الشغل يا ابن أخي.

* * *

(١) تتحمل الخصائف: أي تتحمل ما تكره من الإذلال أو المشقة.

(٢) لاحاه: لأمه، ويقول لاحاه الله: أي قبحه ولعنه.

الباب الثامن والخمسون

فى القصاص وحكمته

قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى الْقَصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩]
يعنى إذا علم القاتل والقاطع والفاتك إنه يُقْتَصُّ منه، أحجم ولم يُقدم على
الفعل، فيكون فى ذلك حياته، وحياة الذي هم به.

روى ابن مسعود: عن النبى ﷺ قال: «أول ما يُقضى بين الناس فى الدماء»^(١)
روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال: «من كانت عنده لأخيه مظلمة فليتحللها
منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن
لم يكن له حسنات، أخذ من سيئات أخيه فطرحته عليه»^(٢) وهذا حديث
صحيح رواه البخارى.

فإن قيل يعارضه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]
والإسراء: ١٥ وفاطر: ١٨ والزمر: ٧] فكيف يؤخذ الظالم بذنب ركبته^(٣) المظلوم؟
قلنا: معنى الآية: لا يعاقب أحد بذنب أحد ابتداء، وأما فى مسألتنا: فمظلمة
بقيت عنده وليس له وفاء بها، فهو الذى اكتسب هذا الوزر وهو معنى قوله
تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا تَعَالَى﴾ [العنكبوت: ١٣].

وروى أبو سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار
فيحسبون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصّ لبعضهم من بعض، مظالم
كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم فى دخول الجنة، فو
الذى نفسى بيده، لأحدهم أهدي لمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا»^(٤).

(١) رواه الإمام أحمد والبخارى وابن ماجه والنسائى عن ابن مسعود ولفظ مسلم: «أول ما يقضى
بين الناس - يوم القيامة - فى الدماء»، وقال: ذلك لعظم أمرها وكثير خطرهما، صحيح مسلم كتاب
القسامة باب المجازاة بالدماء فى الآخرة ج ٣ رقم ١٦٧٨.

(٢) سبق تخريج الحديث وهو صحيح رواه البخارى والإمام أحمد عن أبى هريرة (كنز العمال رقم ١٠١٦٩).

(٣) ركبته: أى ارتكبه.

(٤) أخرج البخارى حديث القنطرة هذا فى صحيحه (باب القصاص يوم القيامة) من حديث أبى
سعيد الخدرى رقم ٦١٧٠، ورواه الإمام أحمد ٦٣/٣ وغيرهم كما أورده القرطبي فى معرض تفسيره
لقوله تعالى: ﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٦]، وقوله تعالى: ﴿طَبِئْتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ﴾
[الزمر: ٧٣] [١٥/٢٨٦، ١٦: ٢٣١].

وروي أن النبي ﷺ قال قبل موته: « من كانت له عندى مظلمةٌ فليأت حتى أقصه من نفسه ». فقام سواد بن غزيرة (١) فقال: يا رسول الله إنك ضربتني على بطني ليلة العقبة فأوجعتني، فقال النبي ﷺ: « دونك فاقصص » فقال: يا رسول الله: إنك ضربتني وأنا مكشوف البطن، فكشف النبي ﷺ بطنه، فإذا هى كالقباطى - يعنى ثياب مصر - فاكب عليه يقبله، فقال: « يا سواد: ما حملك على هذا؟ » فقال: يا رسول الله: دنا لقاء هؤلاء المشركين، ولا ندري، فأردت أن يكون آخر العهد بك، ان أقبل بطنك (٢).

فهذا رسول الله ﷺ يقتص من نفسه، مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لعلمه أن الله تعالى لا يدع القصاص فى المظالم بين العباد، لأن الله تعالى أعدل من أن يدع مظلمة لأحد عند نبي، ولا غيره.

وفى الحديث يقول الله تعالى يوم القيامة: « أنا ظالمٌ إن فاتني ظلم ظالم » (٣). ويروى - أن داود عليه السلام - يقدمه خصمه إلى الله تعالى يوم القيامة، فيقضى له عليه، فيدفعه إلى (أوريا) (٤) سلماً، ثم يستوهبه الله تعالى من أوريا، ثم يعرض أوريا عن ذلك الجنة.

وقال حبيب (٥): دخل عثمان بن عفان رضى الله عنه، فوجد غلامه يعلف ناقة له، وإذا فى علفها شيء، فأخذ بأذنه فعرکها، ثم ندم، فقال لغلامه، قم فاقصص منى، فأبى الغلام، فلم يزل به حتى قام فأخذ بأذنه، ثم قال: أعرک أعرک (٦). وهو

(١) سواد بن غزيرة الأنصارى: من بنى عدى بن النجار، شهد بدرًا والمشاهد بعدها، وكان عامل الرسول ﷺ على خيبر. وذكر فى (ط) سوار خطأ (الإصابة ٣ / ٢١٨).

(٢) ذكر هذه الحادثة ابن هشام فى السيرة النبوية ضمن أحداث غزوة بدر ٢ / ٢٦٨، وابن الأثير الجزري فى أسد الغابة ج ٢ رقم ٣٢ مع اختلاف بسيط فى الألفاظ. ومعنى القباطى: الثياب البيض الرقيقة. ومعنى «ولا ندري»: أي ربما أقتل.

(٣) ورد الحديث القدسي فى فتح الباري لشرح صحيح البخاري فى باب القصاص يوم القيامة بلفظ: «لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم»، وفى مجمع الزوائد للهيثمى بلفظ: «وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم» (١٠ / ٣٥٣).

(٤) أوريا: كان أحد قواد داود عليه السلام ذكر ابن الأثير قصة افتنان داود بزوجه وكيف أنه بقى يرسل أوريا للقتال حتى قتل ثم تزوج داود بامرأته، والتى قيل أنها أنجبت له سليمان عليه السلام، ثم ندم داود بعد ذلك، انظر (الكامل فى التاريخ - ابن الأثير ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٦).

(٥) حبيب بن مسلمة بن مالك القرشي من كبار الفاتحين خرج مجاهداً إلى الشام منذ أيام أبي بكر، ودخل دمشق مع أبي عبيدة الذى ولأه على أنطاكية ولأه عمر على الجزيرة، توفي سنة ٤٢ هـ فى أرمينية (الأعلام ٢ / ١٦٦).

(٦) ثم قال: «أعرک اعرک» كذا فى (خ)، وفى (ط) يعرك، والأول أوجه.

يقول شدّ شدّ، حتى عرف عثمان أنه قد بلغ منه، ثم قال: وأها لقصاص الدنيا قبل قصاص الآخرة^(١).

روى عون بن عبد الله^(٢): أن النبي ﷺ دعا خادماً له فلم يجبه أو كان نائماً، فقال النبي ﷺ: «لولا القصاص لأوجعتك ضرباً»^(٣) وروى ابن وهب^(٤) في (موطئه) عن ابن شهاب^(٥) قال: وقد أقاد^(٦) النبي ﷺ والخليفان من أنفسهم، لِيُسْتَنَّ بهم، ولم يتعمدوا حيفاً^(٧)، وكانوا سلاطين.

ومن صحيح مسلم، روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعْطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإذا فُتيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرِحَ في النار»^(٨).

قال مالك: وبلغني أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، لما ولي الخلافة، ضرب رجلاً ثم ندم، وقال: مالي ولهذا؟ ألا رددتها عليهم^(٩). فسمعت عائشة، فأرسلت إلى عمر. فجاءه عمر، فقال له: إني قد ضربت رجلاً وقد كنت معافي من هذا أن أضرب. فقال عمر: كذلك الإمام، فقال: فما المخرج؟ قال: أن تأتي الرجل، فتسأله أن يجعلك في حل. فأتياه فاستحلاه^(١٠).

(١) ذكرت هذه الحكاية في تاريخ واسط برواية ابن أبي الفرات عن أبيه (١/ ١٨٤).

(٢) عون بن عبد الله بن مسعود الهذلي من المحدثين الثقات والعابدين مات سنة ١١٥ هـ. (الأعلام ٩٨/ ٥).

(٣) رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن أم سلمة بلفظ: «لولا القصاص لأوجعتك بهذا السواك» الجامع الصغير رقم ٧٥٢٥ وقال حديث حسن وخرجه المتقي الهندي في كنز العمال برقم ٣٩٨٢٠.

(٤) ابن وهب: الفقيه عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري، المصري، فقيه من الأئمة، جمع الفقه والحديث والعبادة من أصحاب الإمام مالك توفي بمصر سنة ١٩٧ هـ له كتابان في الحديث: الموطأ الصغير، والموطأ الكبير. (الأعلام ٤/ ١٤٤).

(٥) ابن شهاب الزهري: محمد بن مسلم بن عبد الله أول من دون الحديث وأحد أكثر الحفاظ والفقهاء من التابعين كان يحفظ (٢٤٠٠) حديثاً نصفها مسند توفي سنة ١٢٤ هـ. (الأعلام ٧/ ٩٧).

(٦) أقاد: من القود وهو القصاص. (٧) حيفاً: ظلماً.

(٨) أخرجه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب «باب تحريم الظلم» رقم (٢٥٨١) وقال: إن حقيقة المفلس المذكور في هذا الحديث فهو الهالك الهالك التام.

(٩) أي الخلافة. (١٠) استحلاه: طلباً منه أن يجعله في حل.

دَلَّتِ الآثارُ على أن الأَميرَ والمأمورَ في القصاصِ سواء، إذا جنى أحدهما على الآخر، وأن الأَميرَ إذا ظلم المأمورَ، زال تأمُّرُهُ عليه في ذلك المعنى، وكان الأَميرُ في ذلك المعنى كـبعضِ المؤمرِ عليهم، حتى يتحاكموا إلى السلطان الأعظم.

وكان عمر يقول: إنما بعثتُ أمراءي، ليعلموا الناس دينهم، ويقسموا بينهم فيئهم، ويعدلو فيهم، ولم أبعثهم ليضربوا أبشارهم ويحلّقوا أشعارهم، فمن ظلمه أميرٌ فلا إمرةً عليه دوني حتى آخذ له بحقه.

قال عمرو بن العاص: الله الله يا أمير المؤمنين، إن أدبَ رجلٌ رجلاً من رعيته، إنك لـقُصَصُه منه؟ فقال عمر: كيف لا أقصُه منه وقد رأيت النبي ﷺ يُقصُّ من نفسه؟

* * *

فصل في القصاص بين البهائم (*) :

فأما القصاص بين البهائم فاختلف الناس في حشرها، وفي جريان القصاص بينها.

فكان ابن عباس يقول: حشرها موتها. قال: وحشر كل شيء الموت، إلا الجن والأنس فإنهما يوافيان يوم القيامة.

وقال معظم المفسرين: إنها تحشر ويُقتَصُّ منها.

قال ابن حبيب: تحشر البهائم.

وقال قتادة: يحشر كل شيء حتى الدُّباب.

وقال أبو الحسن الأشعري^(١): لا نَقْطَعُ بإعادة البهائم والمجانين ومن لم تبلغه الدعوة، ويجوز أن يُعادوا ويدخلوا الجنة، ويجوز أن لا يُعادوا، والدليل على ثبوت الإعادة في الجملة، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

(*) من إضافات المحقق.

(١) أبو الحسن الأشعري: على بن إسماعيل بن اسحق من نسل الصحابي أبو موسى الأشعري، ومؤسس مذهب الأشاعرة، كان من أئمة المتكلمين والمجتهدين ولد في البصرة وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم خالفهم، بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب توفي ببغداد سنة ٣٢٤ هـ (الأعلام ٤ / ٢٦٣).

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «لَتُؤَدَّنَ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقاد للشاة الجِلحاء ، من الشاة القرناء» (١) .

وقال أبو ذر : انتطحت شاتان عند النبي ﷺ فقال : «أتدرون فيم انتطحتا ؟» قلت : لا أدري . قال : « لكن الله يدري وسيقضى بينهما » (٢) .

قال أبو ذر : لقد تركنا النبي ﷺ وما يقلُّبُ طائرٌ جناحية في السماء إلا ذكرنا منه علما .

وقال أبو ذر : إن الحَجَرَ لِيُسْئَلُ عن نَكْبِهِ إصبع الرجل .

وفى الحديث الصحيح في مسلم والبخاري وغيرهما أن النبي ﷺ قال : « لا يأتيني أحدكم على رقبتة بعير له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر ، ثم بسط لها بقاع قرقر ، فتطؤه بأظلافها ، وتنطحه بقرونها ، كلما مرت عليه أولاها عادت أخراها » (٣) والحديث وارد في مانع الزكاة .

وقال أبو الحسن (٤) : لا تجوزُ المُقاصَّةُ بين البهائم ، لأنها غير مُكَلَّفة ولا يجرى عليها القلم ، قال : وما ورد في ذلك من الأخبار ، نحو قوله ، ﷺ : « يقتص للجلحاء من القرناء » ، ويسئلُ العود لمَ خدش العود » (٥) . فعلى سبيل المثل والإخبار عن شدة التقصِّي في الحساب ، وأنه لا بد أن يُقتص للمظلوم من الظالم . وأبى ذلك الأستاذ أبو اسحق الأسفراييني (٦) ، قال في الجامع الجلي :

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم (٦٠) ورقم الحديث (٢٥٨٢) وقال : في الحديث تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وأما القصاص من القرناء والجلحاء فليس من قصاص التكليف ، إذ لا تكليف عليها بل قصاص مقابلة ، كما رواه البخاري في الأدب والترمذي والإمام أحمد في مسنده والحديث صحيح ، والشاة الجِلحاء : الجماء التي لا قرن لها .

(٢) الحديث ذكره أهل التفسير في معرض شرح الآية السابقة : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ ، فقد أورده القرطبي (٦/ ٤٢٢) ، والطبري ٧/ ١٨٩ ، وابن كثير ٤/ ٥٣ ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ١٦٢ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أبو يعلى وأحمد بنحوه وإسناده حسن .

(٣) هذا جزء من حديث صحيح طويل رواه البخاري في الزكاة باب إثم مانع الزكاة ، ورواه مسلم في باب إثم مانع الزكاة برقم (٩٨٧) كما رواه الإمام مالك في الموطأ وأبو داود والنسائي وغيرهم .

* معنى الرغاء : صوت البعير ، والخوار : للبقرة ، واليعار : صوت الغنم .

* وبسط لها بقاع قرقر : أى مد على وجهه أو ظهره بأرض مستوية حتى تدوسه تلك البهائم بأرجلها .

(٤) هو أبو الحسن الأشعري وقد سبقت ترجمته .

(٥) لهذه الجملة أصل في الأحاديث الصحيحة التي سبق تخريجها .

(٦) أبو اسحق الإسفراييني : إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران ، عالم بالفقه وأصوله ، كان يلقب بركن الدين نشأ في (أسفرايين) بين (نيسابور وجرجان) من أشهر كتبه «الجامع» الذي أخذ منه الشيخ هذا الحكم الفقهي ، مات في نيسابور ودفن في بلدته سنة ٤١٨ هـ (الأعلام ١/ ٦١) .

يُجرى القصاص بينها . قال : ويحتمل أنها كانت تعقل هذا القدر في دار الدنيا ، فلهذا أُجري فيه القصاص .

وكلام الأستاذ له وجه في الصحة ، لأن البهيمة تعرفُ النفع والضّر ، فتتفر من العصا وتقبل إلى العلف ، وينزجر الكلب إذا زُجر ، ويستأسد إذا أُشلي^(١) ، والطير والوحش يفر من الجوارح استدفاعاً لشرّها ، ثم إن لم يجر عليها القتل في الدنيا فإنما رفع القتل عنها في الأحكام .

فإن قيل : القصاص انتقام ، وهو جزاء على جناية وقعت من مخالفة الأمر ، والبهايم ليست بمكلفة ، ولا لها عقول ، ولا جاءها رسول ، والعقول عندكم لا يجب بها شيء على العقلاء ، فضلاً عن البهايم ، وفي هذا انفصال عن قول الأستاذ^(٢) إنها كانت تعقل هذا القدر ، إذ لا يجب بالعقل شيء ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : ١٥] .

فالجواب : أنها ليست مكلفة ، لأن من ضرورة التكليف : أن يعلم الرسول والمرسل ، وذلك من خصائص العقلاء ، وهم : الثقلان^(٣) .

وإذا لم تكن مكلفة : كانت في المشيئة ، يفعل الله بها ما أراد ، كما سلب عليها في الدنيا : الاستخمار^(٤) والذبح فلا اعتراض عليه ، ولله تعالى أن يفعل في ملكه ما أراد من تنعيم وتعذيب ، وإذا جاز أن يؤلم البهيمة ابتداءً ، جاز أن يؤلمها بعد حياتها .

والآية محمولة على من يعلم الرسول والمرسل ، ثم إن لم يجر عليهم القلم في الدنيا ، فإنما رفع القلم عنها في الأحكام ، ولكن فيما بينها تؤاخذ .

وقد روى البخاري أن النبي ﷺ قال : « اقتلوا الوزغ^(٥) فإنه كان ينفخ على

(١) إذا أشلى : أى دعى للصيد ، قال ابن السكيت : يقال : أوسدت الكلب بالصيد وأسدته إذا أغريته به ، ولا يقال أشليته إنما الأشلاء : الدعاء (لسان العرب ، باب : شلا - مختار الصحاح - الرازي ص ٣٠٤) .

(٢) أى الأستاذ أبى إسحق الإسفرايينى .

(٣) الثقلان : الإنس والجن .

(٤) الإستخمار : النحر والشق : نقول : مخر الذئب الشاة أى شق بطنها ومنها المواخر وهى السفن التى تشق المياه .

(٥) الوزغ : دويبة من الزحافات أشبه بالسحلية وهى سامة .

إبراهيم عليه السلام^(١) فهذه عجماء^(٢) عوقبت على سوء صنيع جنسها .
وفيه دليل : على أن الله تعالى يعذب بملكه لا بالمعصية .

وقد ضرب موسى عليه السلام الحجر الذى فرّ بثوبه ، وبنو إسرائيل ينظرون عورته ، رواه البخارى عن النبى ﷺ قال : « فضربه بعصاه والحجر يفر ، وموسى يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر » قال أبو هريرة : فو الذى نفسى بيده إن بالحجر لندباً ستة أو سبعة^(٣) .

وروى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة : ٣٤] ، أنها الحجارة التى تكسر الناس فى الدنيا .

وروي أن المسيح عليه السلام ، مر بجبل فسمع أنينه ، فسأله عن ذلك ؟ فقال : سمعت الله يقول : ﴿ وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة : ٣٤] ، التحريم : ٦ [فلا أدري أكون من تلك الحجارة أم لا ؟ وقد تأول بعضهم قول ابن عباس (حشرها : موتها) تحشر لضرب من القصاص بينها ، ثم تصير تراباً .

قلت : وتأويل ابن عباس بعيد ، لأن الحشر الجمع ، وليس فى موتها جمعها ، بل فيه تفرقتها وتفرقة أجزائها ، ثم قد قال : ﴿ وَإِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] وإنما يكون الحشر إلى الرب تعالى بإعادة الحياة إليها وجمعها إلى ربها .

* * *

(١) ذكره البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء عن أم شريك قالت : « أمر رسول الله ﷺ بقتل الوزع ... فتح البارى رقم ٣٣٥٩ ورواه مسلم فى باب السلام وابن ماجه والنسائى والإمام أحمد ٦ / ٤٢١ والدارمى .

(٢) العجماء : البهيمة وسميت عجماء لأنها لا تتكلم ، وكل ما من لا يقدر على الكلام أصلاً فهو أعجم .

(٣) جزء من حديث طويل رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والإمام أحمد (٣ / ٣١٥ و ٣٩٢) . ومعنى الندب بالحجر : وجود علامات عليه من أثر الضرب .

وقد ذكرت كتب التفسير القصة كاملة حيث كان بنو إسرائيل يغتسلون عرايا ، وكان موسى عليه السلام رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء ، فأذاه بنو إسرائيل حيث قالوا : إنه لا يستتر إلا من عيب فى جلده كبرص أو غيره .. فأراد الله تعالى أن يبرئه فخلاً يوماً وخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل لياخذ ثيابه وإذا الحجر يعدو بها فأخذ موسى يجري وراءها حتى مرّ بقوم من بني إسرائيل عرايا فرأوه أحسن ما خلق الله (تفسير ابن كثير ٣ / ٥٢١) .

الباب التاسع والخمسون

فى الفرج بعد الشدة

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨]،
وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]،
وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦]

وقال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «أبشروا فقد جاءكم اليسر، لن يغلب عسر يسرين» (١).

وقال ابن مسعود: (والذي نفسى بيده لو كان العسر فى جحر لطلبه اليسر، ولن يغلب عسر يسرين) ومعنى هذا: أنه عرف العسر ونكر اليسر، ومن عادة العرب إذا ذكرت اسماً معرباً ثم أعادته كذلك فهو هو، فإذا نكرته ثم كررته فهما اثنان.

وقال بعضهم:

عَظُمَتْ عِنْدَهَا الْخُطُوبُ وَجَلَّتْ	إِنْ يَكُنْ نَالِكَ الزَّمَانُ بَلَوَى
سُئِمَتْ دُونَهَا الْحَيَاةُ وَمَلَّتْ	وَتَلَتْهَا قَوَارِعُ نَاكِبَاتٍ
فَالرِّزَايَا إِذَا تَوَالَتْ تَوَلَّتْ	فَاصْطَبِرْ وَانْتَظِرْ بُلُوغَ مَدَاهَا
كُشِفَتْ عَنْكَ جُمْلَةٌ فَتَجَلَّتْ	وَإِذَا أَوْهَنْتَ قُورَاكَ وَجَلَّتْ

[فصل فى: بعض العبر من قصص الأنبياء والصالحين] (*)

من قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ظهور ماء زمزم (*)؛

وقال ابن عباس: (أول ما اتخذ النساء النطق (٢)، من قبل أم إسماعيل (٣)، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها عن سارة (٤)، ثم جاء إبراهيم وابنها

(١) رواه الحاكم في المستدرک عن الحسن مرسلًا والحديث حسن (الجامع الصغير رقم ٧٣٩٢) أو (ج ٢ ص ١٢٨).

(*) من إضافات المحقق.

(٢) النطق: النطاق مفردا المنطق والنطاق وهو شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها فترسل الأعلى على الأسفل والأسفل ينجر فيصبح كالذيل يخفي أثرها. وفي (خ): المنطق (بنفس المعنى).

(٣) أم إسماعيل هي هاجر زوجة إبراهيم عليه السلام.

(٤) سارة زوجة إبراهيم عليه السلام وأم اسحق.

إسماعيل وهى ترضعه، حتى وضعها عند البيت، عند دوحة (١) فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندها جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى (٢) إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى، ليس فيه أنيس ولا شىء؟ قالت ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية (٣) - حيث لا يرونه - استقبل البيت بوجهه، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] - حتى بلغ - ﴿يَشْكُرُونَ﴾.

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت (الصفاء) أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى هل ترى أحدا؟ فلم تر أحداً، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادى، ثم أتت (المروة) فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً. ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس قال النبى ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه (٤) - تريد نفسها (٤) - ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث (٥)، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه (٦)، وتقول بيدها هكذا (٧)، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها، وهو يفور بعدما تغرف.

(١) الدوحة: الشجرة العظيمة وجمعها الدوح. (٢) قفى الرجل: أى ولاك قفاه راجعاً عنك.

(٣) الثنية: الطريق فى العقبة وقيل: المرتفع من الأرض.

(٤) صه: اسكت، ومعنى تريد نفسها: أى تسكت نفسها لتحقيق الأمر.

(٥) الغوث والغوث: المعونة والنجدة.

(٦) تحوضه: أى تجعل له حوضاً يجتمع فيه الماء.

(٧) هذا القول من باب إطلاق القول على الفعل.

قال ابن عباس: فقال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف - لكانت عيناً معينا» (١).

قال: فشربت، وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: [لا تخافوا الضيعة] (٢)، فإن ههنا بيت الله تعالى، يبينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. (٣)

من قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك (٤)

ومنها قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا، وذلك أن كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية تخلفوا عن غزوة تبوك ونهى النبي ﷺ عن كلام الثلاثة، قال كعب: فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لنا الأرض بما رحبت، فما هي التي أعرف (٥) وكنت أطوف في الأسواق، وأشهد الصلاة مع المسلمين، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ، فأسلم عليه وأقول في نفسي، هل حرّك شفّتيه برد السلام، أم لا؟ [ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني] (٦)، حتى إذا طال ذلك على من جفوة الناس، تسوّرت (٧) جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي، وأحب الناس إليّ - فسلمت عليه. فو الله: مارد على السلام.

(١) معينا: المعين هو الماء الظاهر الجارى الذى لا يتعذر أخذه.

(٢) الضيعة: الضياع والهلاك.

(٣) هذا الحديث جزء من حديث طويل رواه البخارى عن ابن عباس فى كتاب الأنبياء باب قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

(٤) العنوان من إضافات المحقق، أما الثلاثة الذين أبطأت بهم الغيبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير شك ولا ارتياب ولانفاق فى غزوة تبوك سنة ٩ هـ هم:

- كعب بن مالك بن أبى مالك - مرارة بن الربيع - هلال بن أمية.

كانوا نفر صدق لا يتهمون فى إسلامهم، فقد شهد كعب أكثر المواقع مع رسول الله ﷺ ما عدا غزوة بدر فقد تخلف عنها ولم يعاتب، كما شهد مرارة بن الربيع غزوة بدر وشهد هلال بن الربيع بدرًا وأحُدًا، وقد تخلفوا فى تبوك بلا عذر ثم تابوا وثبتت توبتهم ونزل بشأنهم قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُوا أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

(٥) أى تغير كل شيء حتى الأرض توحشت وصارت كأنها أرض لا أعرفها.

(٦) سقطت العبارة التالية من (ط) و(خ): [ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني]، وقد وردت فى الصحيحين: «ثم أصلى... عني»، انظر صحيح البخاري (١٦٠٣/٤)، صحيح مسلم (٢١٢٤/٤).

(٧) أى صعدت سورة وعلوته.

فلما تمت خمسون ليلة من يوم نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، صليت صلاة الفجر [صباح خمسين ليلة] (١) على ظهر بيت من بيوتنا - فبينما أنا جالس على الحالة التي ذكرها الله تعالى - قد ضاقت على نفسي، وضاقت على الأرض بما رحبت - وما كان من شيء أهمُّ علىَّ من أن أموت فلا يصلى على النبي ﷺ، أو يموت النبي ﷺ فأكون من الناس في تلك المنزلة، لا يكلمني أحد ولا يصلى علىَّ، فأنزل الله تعالى توبتنا - فسمعت صوت صارخ من أعلى الجبل: يا كعب بن مالك أبشر، فخررتُ ساجداً لله تعالى، وعرفت أن قد جاء الفرج، فجعلتُ ثوبِيَّ على الصارخ ببشراه ووالله ما أملك غيرهما. ثم أتيت النبي ﷺ فسلمتُ عليه وهو يبرق وجهه من السرور فقال: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك» فقلت: يا رسول الله: إن من توبتي، أن أنخلع من مالي (٢) صدقة، إلى الله تعالى وإلى رسوله، فقال النبي ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» (٣).

إبراهيم عليه السلام وعبادة الكواكب ومناظرة النمرود(*):

وروي: أن إبراهيم ﷺ، لما شب ودرج في موضع ربِّي فيه ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ يقال: إنه رأى الزهرة ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ بعد طلوع الفجر ﴿قَالَ لَنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَصْبَحَ﴾ ﴿رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً﴾ ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾، ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ ﴿قَالَ أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ ﴿يَعْنِي إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤) [الأنعام: ٧٦-٨٠].

(١) من صحيح مسلم (٤/ ٢١٢٥).

(٢) أنخلع من مالي: أى أنصدق به.

(٣) هذا جزء من حديث طويل وصحيح متفق عليه رواه البخارى ومسلم وغيرهما وقد رواه الإمام البخارى في باب: [حديث كعب بن مالك] (٤/ ١٦٣)، والإمام مسلم في كتابه التوبة. باب [حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه] رقم (٢٧٦٩).

(*) من إضافات المحقق.

(٤) ومعنى ﴿جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾: ستره، ومعنى: ﴿أَفَلَ﴾: غاب.

قالوا: يا إبراهيم، أما تخاف من آلِهتنا أن تصيبك بسوء، إن أنت سببتها أو عبثتها؟ قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا، فَايُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١] وكان آزر^(١) يصنع أصناما يعبدها قومه، ثم يعطيها إبراهيم يبيعها، فيكسرهما ويذهب بها إلى نهر لهم فيصبها فيه على رؤوسها، ويقول لها: اشربي! استهزاء بها، وإظهارا لقومه فساد ما هم عليه. ففشا ذلك عندهم من غير أن يبلغ ذلك نمرود^(٢) فأول ما بدأ قومه أن ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ فقال إني سقيم ﴿[الصفات: ٨٨، ٨٩]﴾ يعنى من الغيظ عليهم وعلى أصنامهم، فظنوا إنه مطعون، وكانوا يفرّون من الطاعون إذا سمعوا به ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ فراغ إلى آلِهتهم ﴿[الصفات: ٩٠، ٩١]﴾ فدخل عليها وهم قد وضعوا لها طعاما وشرابا ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ما لكم لا تنطقون ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٩١، ٩٣] وكسرهما، وقطع أيديها وأرجلها، حتى جعلها جذاذا، وأراق طعامها وشرابها، وعمد إلى الفأس، فعلقه بيد إلههم العظيم، ثم خرج عنها وتركها.

فلما رجع قومه من عيدهم، دخلوا بيت أصنامهم، فلما رأوا ما صنع بها، راعهم ذلك وأعظموه ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قالوا سمعنا فتي يذكرهم يقال له إبراهيم ﴿[الأنبياء: ٥٩، ٦٠]﴾ سمعناه يسبها ويستهزئ بها ﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١] فلما أتى بإبراهيم عليه السلام ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴿[الأنبياء: ٦٢-٦٥]﴾ قالوا: إنا قد ظلمناه بما نسبنا إليه، ثم قالوا: - وقد عرفوا أنها لا تضر ولا تنفع - ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ قال أفعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ﴿أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥-٦٧] فقال له نمرود - حين سمع ذلك منه - صف لنا إلهك الذى تعبد وتدعو إلى عبادته.

(١) آزر: اسم والد إبراهيم الخليل وقيل أن اسمه «تارخ» وأن آزر هو لقب الصنم الذى كان يعبد. وقد قال ابن كثير إن الصواب أن اسمه «آزر» (قصص الأنبياء - ابن كثير ص ١٢٠).

(٢) نمرود: قيل أنه أول ملك جبّار فى الأرض وهو ملك بابل واسمه (النمرود بن كنعان بن كوش ابن حام بن نوح) قال مجاهد: كان أحد ملوك الدنيا، فقد ملك الدنيا أربعة (مؤمنان وكافران) المؤمنان: ذو القرنين وسليمان، والكافران: النمرود وبختنصر. (قصص الأنبياء - ابن كثير ص ١٢٩).

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، قَالَ ﴾ - نمرود ﴿ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ ﴾

[البقرة: ٢٥٨].

قال : كيف ذلك ؟

قال : آخذ رجلين قد استوجبا القتل فى حكمى ، فأقتل أحدهما ، فأكون قد أمته ، وأعفو عن الآخر فأكون قد أحييته .

فقال إبراهيم : إن كنت صادقاً ، فأحيى الذى قتلت بزعمك ، وأخرج روحاً من جسد ، من غير أن تقتله إن كنت صادقاً .

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾

[البقرة: ٢٥٨].

﴿ فَبُهِتَ ﴾ ^(١) عند ذلك النمرود ، ولم يرد على إبراهيم شيئاً ، وأمر به إلى السجن ، فلبث فيه سبع سنين ، وجعل يدعو أهل السجن إلى الله تعالى وإلى الإسلام ، حتى ظهر أمره وفشا ، واتبعه قوم كثير على دينه .

فلما أرادوا أن يحرقوا إبراهيم ، واجتمع أمرهم على ذلك ، بنوا حيزاً طول جداره ستون ذراعاً ، ووضعوه إلى سفح جبل منيف ، لا يرام ولا يرقا ، وبلطوا الجدار ، فلا يمشى فيه أحد إلا زلق عنه ، وأذن مؤذن نمرود : أيها الناس : احتطبوا لنار إبراهيم ، ولا يتخلفن عنها ذكر ولا أنثى ، ولا حر ولا عبد ، ولا شريف ولا وضيع ، ومن تخلف عن ذلك ألقى فى تلك النار ، فعملوا فى ذلك أربعين ليلة ، حتى إن المرأة منهم تنذر ذلك على نفسها لئن رجع غائبها أو أفاق عليها .

حتى إذا كمل ذلك قذفوا فيه النار ، حتى إنه كان يُسمع وهج النار على المسافة البعيدة ، فلما بلغ ذلك ، وضع إبراهيم فى كفة المنجنيق ^(٢) .

قال وهب بن منبه ^(٣) : فبلغنى أن السماء والأرض والبحار وما فيها ضجوا

(١) تمام الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(٢) المنجنيق : آلة حربية قديمة كانوا يرمون بها الحجارة الثقيلة على الأسوار فتهدمها .

(٣) وهب بن منبه : مؤرخ من التابعين ، من أهل اليمن اشتهر بمعرفة أخبار الأقدمين والأنبياء ،

مات بصنعاء سنة ١١٤ هـ . سبقت ترجمته .

إلى الله تعالى ضجة واحدة، قالوا: يا ربنا، ليس فى أرضك أحدٌ يعبدك غيره، فَأَذَّنَ لنا فى نُصْرته، فأوحى الله تعالى إليهم: «إن استغاث بشيء منكم فانصروه وأغيثوه، وإن دعانى فأنا وليُّه وناصره».

فلما وضعوه فى كفة المنجنيق وقذفوه قال: «حسبى الله ونعم الوكيل، اللهم: إنك تعلم إيمانى بك، وعداوة قومى فيك، فانصرنى عليهم، ونجنى من النار». فأوحى الله تعالى إلى النار أن: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فأطاعت النار ربها ولو لم يقل سلاماً لمات من شدة البرد.

ولبت إبراهيم فى النار سبعة أيام، وظن قومه أنه قد احترق.

ثم قال نمرود: انظروا ماذا فعل إبراهيم، فإنى رأيت الليلة فى نومي، أن جدار هذا الحيز قد تهدم، وخرج إبراهيم يمشي.

قال (١): وذاب النحاس الذى سدَّ به باب الحيز، واحترق الجدار فصار رماداً، فاطَّلَعوا على إبراهيم فرأوه صحيحاً سليماً، وخرج الناس ينظرون إليه على تلك الحال.

فلما رآهم خرج يمشي حتى قعد إلى أمه - وهى فى الجمع - وأقبلت سارة (٢) - وكانت أول من آمن به - حتى جلست إليه، فقالت: يا إبراهيم، إني آمنت بالذى جعل النار برداً وسلاماً.

قالت لها أم إبراهيم: احذرى القتل على نفسك.

فقالت: إليك عنى، فإنى لا أخاف شيئاً، وقد آمنت بآله إبراهيم.

وحول إبراهيم جمعٌ من الناس لا يحصى عددهم، يأتُمرون ليجدّوا له عذاباً، فأرسل الله تعالى ريحاً عاصفاً، فسَفَّتْ رماد تلك النار فى وجوههم وعيونهم ففروا عنه، وقام إبراهيم داعياً إلى الله تعالى ومذكراً به.

حكاية عن نبي الله سليمان عليه السلام (*) :

وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: أن نبي الله سليمان بن داود، عليهما

(١) أي وهب بن منبه؛ (وقد وردت الحكاية أيضاً فى المنتظم ١/ ٢٦١، وتاريخ الطبري ١/ ١٤٧).

(٢) سارة بنت هازان بن ماحور زوجة إبراهيم عليه السلام، وهى بنت عمه، وكانت من أحسن نساء العالمين (تاريخ مدينة دمشق ٦٩/ ١٨١).

(*) من إضافات المحقق.

السلام، انطلق إلى الحمام ومعه جنى - يقال له: صخر - ولم يكن سليمان عليه السلام يدخل الخلاء بالخاتم، فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه، فألقاه في البحر، فالتقمته سمكة، ونزع ملك سليمان منه، وألقى على الشيطان شبه سليمان، فجاء فجلس على كرسيه، وسلط على جميع ملك سليمان غير نسائه، فجعل يقضى بين الناس، والناس ينكرون قضاياه، حتى قالوا: لقد فُتن نبي الله سليمان.

ومكث على ذلك أربعين يوماً، ثم أقبل في حالته تلك وهو جائع نائع^(١)، حتى انتهى إلى صيادين في البحر، فاستطعم أحدهم من صيده وقال له: أنا سليمان. فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجَّ وجهه، فجعل يغسل دمه على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبهم على ضربه أياه، ثم أعطوا سليمان سمكتين مما قد تغير عندهم وتتن.

ولم يشغله ما كان فيه من الضرب، عن أن يقوم إلى شاطئ البحر، فشق بطونهما وغسلهما، فوجد خاتمه في بطن أحدهما، فأخذه فلبسه فرد الله عليه بهاءه وملكه، وجاءت الطير فحامت عليه، فعرف القوم إنه سليمان، فجاءوا يعتذرون إليه.

إبراهيم وولده الذبيح عليهما السلام(*) :

وروى وهب بن منبه: أن الله تعالى وهب لإبراهيم إسحق^(٢)، فلما كان ابن

(١) نائع: عطشان، وقيل جائع، فيقال: (فلان جائع نائع)، قال ابن منظور في لسان العرب (٣٦٠ / ٨): سئلت هند ابنة الحسن ما أشد الأشياء؟ فقالت: «ضرس جائع يقذف في معي نائع».

(*) من إضافات المحقق.

(٢) اختلف أهل التأويل في الذبيح من أبناء إبراهيم عليه السلام، فمنهم من قال إسحق عليه السلام، ومنهم من قال إسماعيل عليه السلام، وكل له أدلته المنشورة في كتب التفسير وغيرها، وأسوق هنا رأي ابن كثير، فقد قال: الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وليس إسحق، وذلك هو المشهور والمجمع عليه من العلماء والذي نص عليه القرآن الكريم، لأن الله تعالى بعد أن ذكر قصة الذبيح بشر إبراهيم بولد آخر اسمه إسحق، فالإتيان بالبشرى بإسحق بعد ذكر قصة الذبيح. وقد قال: ولد إسماعيل وعمر إبراهيم ست وثمانين سنة وولد له إسحق وعمره تسع وتسعون سنة، وعندهم (أى أهل الكتاب) أن الله أمر إبراهيم أن يذبح وحيداً. لذلك أقحم هنا أهل الكتاب (إسحق) كذباً وبهتاناً، وذلك لأنه أبوه، أما إسماعيل فهو أبو العرب، فحسدوهم وحرّفوا الوحيد حيث كان إسماعيل مع أمه في مكة، وهذا تأويل وتحريف باطل، حيث أن كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل والله أعلم.

[انظر: تفسير ابن كثير في سورة الصافات - البداية والنهاية ١ / ١٥٩، وقصص الأنبياء ص ١٤٥، وانظر كذلك (مع الأنبياء في القرآن الكريم عفيف طيارة ص ١٢٧).]

سبع سنين ، أوحى الله تعالى إلى إبراهيم أن يذبحه ، وأن يجعله قربانا ، فكتم إبراهيم ذلك على إسحق وأمه وجميع الناس ، وأسرّه إلى خليل له يقال له : (إلغاز) ، وكان أول من آمن به من قومه يوم أُحرق ، فقال له : إن الله سبحانه رفع اسمك في الملاء الأعلى على جميع أهل البلاء ، حتى كنت أرفعهم بليّة ، ليرفعك الله بقدر ذلك في المنازل والفضائل ، وقد علمت أن الله تعالى لم يبتليك بذلك ليفتنك ، ولا ليضلّك فلا يسوأن بالله ظنك ، وأعوذ بالله أن يكون ذلك حتماً مني على الله تعالى ، أو سخطاً بحكمه الذي حكم على عباده ، ولكن هذا حسن الظن بالله ، فإن عزم ربك على ذلك فكُن عند أحسن علمه بك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فتعزّى إبراهيم عليه السلام بقوله ، وأسند له رأيه وبصيرته ، وانطلق بإسحق ، فلما صعد الجبل ومعه السكين والحبل وأداة القربان .

فقال له إسحق : يا أبت ، أرى معك أداة القربان ولا أرى قرباناً .

قال إبراهيم : يا بُني ، القربان بعين ربك ينظر إليه ، وإن شاء رحم أباك ، فلم يفتن^(١) إسحق .

فلما وافى رأس الجبل ، قال إبراهيم : يا بُني ، إن الله تعالى أمرني أن أذبحك ، وأجعلك قرباناً يرفعك إليه ويتقبّلك ، فانظر ماذا ترى ؟ فتهلل إسحق واستبشّر ، فقال له والده : لقد فجعتك يا بُني بأمر ما فجّع به والدّ ولدّه ، وإنّي لأرى من سرورك بذلك ، وشكرك لربك ، أمراً أرجو به العاقبة والفرج .

فقال : يا أبت : لم يكن شيء من الدنيا أحبّ إليّ من البرّ بك وبأمّي ، وقد حرمني ربي ، فإذا أردت ذبحي فاشدد وثاقي ، فإنّي أخاف حين يفارقني عقلي وأجد ألم الحديد ، أن يتحرك مني عضو فيؤذيّك ، وأنا أكره أن أختتم بذلك عملي ، فإذا فرغت من أمري فأقريّ أمّي السلام ، وقل لها : لا تجزعي ، فقد أكرم الله لك ابنك في جنّاته .

فلما فرغ من وصيته ، عمد إبراهيم عليه السلام ، إليه فعصبه بعمامته ما بين منكبيه إلى الكعبين ، ثم كبّه لوجهه ، وكره أن يستقبل وجهه ، كي لا

(١) لم يفتن : لم يدرك القصد .

تدركه له رحمة إذا هو تشحط^(١)، فأدخل يده من تحت حلقه، فلما أراد أن يحز، انقلب السكين، فأوجس إبراهيم في نفسه، ثم عاد الثانية، فلما أراد أن يحز انقلب السكين، ونودي: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿[الصفات: ١٠٥-١٠٧]﴾ هذا فداء ابنك قد فداه الله لك به، فنظر إبراهيم خلفه، فإذا بكبش قد لوي قرنه الأيمن على ساق شجرة، فوجهه إبراهيم إلى القبلة - وقبلته يومئذ مكة - فذبحه إبراهيم وقصبه^(٢) إسحق، فلما فرغا منه وضعاه قرباناً، فرفعه الله إليه وتقبله.

* * *

جانب من قصة يوسف عليه السلام(*):

قال أبو هريرة: ولما صار يوسف عليه السلام إلى مصر، واسترق بعد الحرية، جزع جزعاً شديداً، وجعل يبكي الليل والنهار على أبويه، وإخوته، ووطنه، وما ابتلى به من الرق، فأحيا ليلة من الليالي يدعو ربه تعالى، وكان من دعائه أن قال: «يا رب، أخرجتنى من أحب البلاد إليّ، وفرقت بينى وبين إخوتى وأبويّ ووطنى، فاجعل لى فى ذلك خيراً وفرجاً، ومخرجاً من حيث احتسب، ومن حيث لا أحتسب، وحبّ إلى البلاد التى أنا فيها، وحبّها إلى كل من يدخلها، وحبّبنى إلى أهلها، وحبّهم إليّ، ولا تمتنى حتى تجمع بينى وبين أبويّ وإخوتى، فى يسر منك ونعمة وسرور، تجمع لنا به خير الدنيا والآخرة، إنك سميع الدعاء».

فأتى يوسف فى نومه فقيل له: إن الله تعالى قد استجاب لك دعائك، وأعطاك منالك، وورثك هذه البلاد وسلطانها، وجمع إليك أبويك وإخوتك، وأهل بيتك، فطب نفساً، واعلم أن الله تعالى لن يخلف وعده. وبدعاء يوسف صارت مصر محبوبة، يحبّها من دخلها، فلا يكاد يخرج منها.

(١) التشحط: الاضطراب فى الدم، يقال تشحط المقتول بدمه أى اضطرب وتخطب فيه (لسان العرب ٧/٣٢٧).

(٢) قصب الجزار الشاة: قطعها وفصل أجزائها.

(*) من إضافات المحقق.

قال قتادة: ما سكنها نبيُّ قبله.

ولما جمع الله شمله، وتكاملت النعمة عليه، اشتاق إلى لقاء ربه، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

* * *

فصل فى: بعض الحكايات عن الضرج بعد الشدة (*)

ولما وجه سليمان بن عبد الملك ^(١) محمد بن يزيد ^(٢) إلى العراق ليطلق أهل السجون ويقسم الأموال، ضيق على يزيد بن أبى مسلم. فلما ولى يزيد بن عبد الملك ^(٣) الخلافة ولى يزيد بن أبى مسلم ^(٤) إفريقية، فاستخفى محمد بن يزيد، فطلبه يزيد بن أبى مسلم، فأتى به فى شهر رمضان عند المغرب، وفى يد أبى مسلم عنقود عنب، فقال له يزيد حين دنا منه: محمد؟ قال: نعم. قال: اما والله لطالما سألت الله تعالى أن يمكّننى منك بغير عهد ولا عقد، فقال محمد: وأنا والله لطالما سألت الله أن يجيرنى منك ويعيدنى. فقال يزيد: فوالله ما أجارك ولا أعاذك، وإن سابقتنى ملك الموت إلى قبض روحك لسبقته، والله لا أكلت هذه الحبة حتى أقتلك.

(١) سليمان بن عبد الملك: الخليفة الأموى السابع توفى سنة ٩٩ هـ وقد سبقت ترجمته.

(٢) محمد بن يزيد: أمير إفريقية من سنة ٩٧ هـ وكانت الأندلس تتبع له وقد ولى لمدة سنتين وعدل ولكن تعسف فى بعض أحكامه فعزله عمر بن عبد العزيز، ثم أعاده أهل إفريقية للولاية بعد أن قتلوا يزيد بن أبى مسلم وأقره الخليفة يزيد بن عبد الملك توفى أو قتل سنة ١٠١ هـ، (الأعلام ١٤٣/٧).

(٣) يزيد بن عبد الملك الخليفة الأموى التاسع خلف عمر بن عبد العزيز، قضى على ثورة ابن المهلب عامل خراسان، قيل أنه انصرف إلى اللهو ومات سنة ١٠٥ هـ وودفن فى دمشق. (الأعلام ١٨٥/٨).

(٤) يزيد بن أبى مسلم، كاتب الحجاج ولأه يزيد بن عبد الملك على إفريقية وأراد أن يسير فى إفريقية بسيرة الحجاج فى العراق فنقم عليه أهلها وقتلوه كما نرى فى الحكاية وأعادوا (محمد بن يزيد) وكتبوا إلى الخليفة (بأننا لم نخلع أيدينا من الطاعة ولكن يزيد سامنا مالا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا علينا محمد بن يزيد - فأقر الخليفة تصرفهم وكان ذلك سنة ١٠١ هـ (الأعلام للزركلى ١٤٣/٧).

فأقام المؤذن الصلاة، فوضع يزيد العنقود، وتقدم ليصلي، وكان أهل أفريقيا قد اجتمعوا على قتله، فلما ركع، ضربه رجل على رأسه بعمود فقتله، وقيل لمحمد بن يزيد: اذهب حيث شئت. فسبحان من قتل الأمير وأحيا الأسير. سنة الله التي قد خلت في عباده، طلوع الحياة من شفار الموت، وحضور الموت من معدن الحياة.

ويروى: أن سلطان صقلية (١)، أرق ذات ليلة ومنع النوم، فأرسل إلى قائد البحر، وقال: أنفذ الآن مركباً إلى إفريقية يأتوني بأخبارها.

فعمّر القائد المركب وأرسله لحينه، فلما أصبحوا إذا بالمركب في موضعه لم يبرح، فقال له الملك: أليس قد فعلت ما أمرتك به؟ فقال: نعم، قد امتثلت أمرك وأنفذت المركب، فرجع بعد ساعة، وسيحدثك مقدّم المركب (٢).

فجاء ومعه رجل، فقال الملك: ما منعك أن تذهب حيث أمرتك؟ قال: ذهبت بالمركب، فبينما أنا في جوف الليل والبحّارون يقذفون (٣) إذا أنا بصوت يقول: يا الله يا الله، يا غياث المستغيثين، يكررها مراراً، فلما استقر صوته في أسماعنا، ناديناها مراراً، يا لبيك، يا لبيك، وهو ينادى: يا الله يا غياث المستغيثين، ونحن نجيبه: يا لبيك، يا لبيك، وقذفنا المركب نحو الصوت، فألفينا هذا الرجل غريقاً في آخر رمق من الحياة، فأخذناه من البحر وسألناه عن حاله، فقال: كنا مقلعين من إفريقية، ففرقت سفينتنا منذ أيام، وما زلت أسبح حتى وجدت الموت، فلم أشعر إلا بالغوث من ناحيتكم.

فسبحان من أسهر سلطاناً، وأرق جباراً في قصره، لغريق في البحر حتى استخرجه من تلك الظلمات: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الوحشة لا إله إلا أنت سبحانك.

وأخبرني رجل، كان إمام المسجد الجامع بالإسكندرية (٤)، قال: كنت

(١) صقلية: جزيرة في عرض البحر الأبيض المتوسط، فتحها المسلمون في بداية القرن الثالث الهجري ودام وجودهم فيها ٢٦٣ سنة إلى أن احتلها الرومان سنة ٤٨٤ هـ.

(٢) مقدّم المركب: أي قائده.

(٣) يقذفون: يجذفون.

(٤) الإسكندرية: مدينة مصرية على المتوسط وهي عاصمة محافظة أسسها الإسكندر سنة ٣٣٢ ق. م وغدت مركز الثقافة العالمية.

بصقلية أيام فتن العدو، فزحف إلينا فى البحر سفنٌ تقارب ثلاثمائة سفينة، وأرست فى الساحل، فرأينا أمراً مهولاً، وفينا الشيخ الصالح العابد ابن المستطارى، فلجأ الناس إليه، واستجمعوا حوله يتبركون به، وينتظرون الفرج على يديه. قال: فنظر إلى السماء حيناً، وسجد، وعفر خديه بالأرض يقلبهما يميناً وشمالاً، قال: فوالله ما ذهبنا حتى هبت ريحٌ، مزقتها كل ممزق، فلم يجتمع منها اثنان.

وأخبرنى: أبو القاسم بن فاتك رحمه الله تعالى قال: كنت فى طريق الحجاز، فعطش الناس فى مفازة (١) تبوك، ففقد الماء ولم يوجد إلا عند صاحب لى جمّال، فجعل يبيعه بالدنانير بأرفع الأثمان، فجاء رجل كان موسوماً بالصلاح عليه مقطّعة (٢)، يحمل ركوة (٣)، ومعه شيء من دقيق، فتشفع بى إلى الجمّال، لبيعه الماء بذلك الدقيق، فكلّمته فأبى علىّ، ثم عاودته فأبى، قال: فبسط الرجل النّطع (٤) فى الأرض، ونثر عليه الدقيق، ثم رمق السماء وقال: إلهى أنا عبدك، وهذا دقيقك ولا أملك غيره، وقد أبى أن يقبله، ثم ضرب بيده فى النّطع، وقال: (وعزّتك لا برحت حتى أشرب) فوالله ما تفرّقنا حتى نشأ السحاب، فأمطر للحين، فشرب الماء ولم يبرح، فكان كما قال النبى ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبّه له لو أقسم على الله لأبرّه» (٥).

(١) المفازة: الفلاة لا ماء فيها، وقيل سميت مفازة لأنها مظنة الموت فمن خرج منها وقطعها فقد فاز. وتبوك واحة فى الحجاز أشتهرت بغزوة النبى ﷺ سنة ٩ هـ.

(٢) المقطّعة: أى يلبس قطعة من جلد بالية وقديمة وممزقة.

(٣) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه.

(٤) النّطع: القطعة من الجلد التى كان يلبسها الرجل.

(٥) الحديث صحيح رواه الحاكم فى المستدرک وأبو نعيم فى الحلية عن أبى هريرة بلفظ (رب أشعث أغبر وذى كمرين تنبو عن أعين الناس... الحديث) ورواه البزار عن ابن مسعود (لا يؤبه له...) ورواه مسلم فى صحيحه برقم ٢٦٢٢ فى كتاب البر والصلة باب فضل الضعفاء والخاملين عن أبى هريرة (رب أشعث مدفوع الأبواب... الحديث) و _ الجامع الصغير رقم ٤٤٠١، ٤٤٠٢، (ومعنى أشعث: أى متلبد الشعر لا يدهنه ولا يرّجله ولا يكثر غسله. ذو الطمرين: من أثوابه خلقة بالية ممزقة. مدفوع الأبواب: أى تحجب عنه الأبواب لحقارته بأعين الناس ولا يؤبه له. لو أقسم على الله لأبره: أى لو حلف على وقوع شيء لأوقعه الله له إكراماً له بإجابة سؤاله.

وأخبرني شيخٌ مُسنٌّ، ممن كان يصحب العلماء بالقيروان (١) يقال له (جرير) قال: أخبرني عبد الكافي الديباجي قال: رأيت بالقيروان آية عظيمة، وذلك أن رجلاً جاء بصبيٍّ له، وقد أُسكت فلا يتكلم، فدخل به إلى الفقيه أبي بكر بن عبد الرحمن، وقال له: إنَّ ابني هذا قد أُسكت منذ أيام فلا يتكلم، فأدع الله أن يفرِّج ما نزل به، قال: فدعا الشيخ ساعة، ثم مسح وجه الصبي، فاستفاق الصبي، فقال له: قل لا إله إلا الله، فقال الصبي: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله) ثم التفت إلى الرجل، وقال: اكتمها عليَّ إلى الموت، ثم التفت إلى جاريته، فقال: اكتمى عليَّ هذا إلى الموت، وأنت حرة، فلما كان يوم توفي الشيخ أبو بكر، واجتمع الناس لجنازته، وتكاثر الأُمم، قام رجل فاستنصت الناس، فسكتوا، فقال: يا أهل القيروان: اسمعوا قصتي مع هذا الشيخ، وذكر الحديث كما سُقناه.

وحدثني هذا الشيخ قال: نزلت (٢) عندنا بالقيروان قصة، لم يُسمع في السالفين مثلها، وذلك: أن بعض الجزارين أضجع كبشاً ليذبحه، فتخط بين يديه، فأفلت منه وذهب، فقام الجزار يطلبه، وجعل يمشي إلى أن دخل خربة (٣) فإذا فيها رجل مذبح يتخبط في دمه، ففزع وخرج هارباً، وإذا صاحب الشرطة والرجالة عندهم خبر القتل، وجعلوا يطلبون خبر القاتل والمقتول، فأصابوه بيده السكين وهو ملوث بالدم، والرجل مقتول بالخربة، فقبضوه وحملوه إلى السلطان، فقال له: أنت قتلت الرجل؟ قال نعم، فما زالوا يستنطقونه، وهو يعترف اعترافاً لا إشكال فيه، فأمر به السلطان ليقتل فأخرج للقتل، واجتمع الأُمم ليبصروا قتله، فلما هموا بقتله اندفع رجلٌ من الحلقة المجتمعين، فقال لهم: لا تقتلوه، أنا قاتل القتل، فقبض وحمل إلى السلطان، فاعترف وقال: أنا قتلته، فقال له السلطان: قد كنت معافى من هذا، فما حملك على الاعتراف؟ قال: رأيت هذا الرجل يُقتل ظلماً، فكرهت أن ألقى الله تعالى بدم رجلين، فأمر به السلطان فقتل، ثم قالوا للرجل: يا

(١) القيروان: مدينة تونسية بناها القائد المسلم عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ. كانت عاصمة الأغالبة ثم للفاطميين بالإضافة إلى المهدية.

(٢) نزلت: حدثت.

(٣) الخربة: الأرض الخراب عكس العمار.

أيها الرجل : ما دعاك إلى الاعتراف بالقتل وأنت برئ؟ قال الرجل : فما حيلتي؟ رجل مقتول بالخربة، وأخذوني وأنا خارج من الخربة، ويدي السكين ملطخة بالدم، فإن أنكرت من يقبلني؟ وإن اعتذرتُ من يعذرني؟ فخلّى سبيله وانصرف مكرماً.

ولما وزر فخر المُلك بن نظام المُلك، لسنجار الملك^(١)، وكان لفخر الملك ابن عم يقال له (شهاب الملك) وكان يخاف منه على منزلته، فقال للملك سنجار: لا حياة لي معك، إلا أن تقتل ابن عمي شهاب الملك، فأبى سنجار، فما زال يراجعهُ إلى أن أمر به فحبس في بلد يقال له (بيهق)^(٢). وكان والي ذلك البلد يكرمه لجلالته وجماله أهل بيته، وأخلى له داراً في القلعة مشرفة، ثم جعل فخر الملك يفسد قلب سنجار ويحمّله على قتل شهاب الملك، إلى أن أرسل سنجار إلى واليه، بقتل شهاب الملك، فاستعظم الوالي قتله وأخره أياماً، ثم لم يجد بداً من قتله، فعزم على قتله في يوم جمعة، فبينما شهاب الملك يطّلع من طاقات الدار، إذا بفارس يركض، فأوجس في نفسه خيفة منه، وقال : هذا يريد أن يقتلني، فوصل الفارس، وقال : مات فخر الملك، فخلّى سبيل شهاب الملك، ثم وزر لسنجار فسبحان الفعّال لما يريد.

أخبرني أبو الفضل المعبر^(٣) بمصر قال : كان بمصر ملوك بني حمدان، وكان الرئيس ناصر الدولة^(٤) وكان يشكو وجع القولنج^(٥)، فأعيا الأطباء،

(١) فخر الملك بن نظام الملك (أبو ظفر) كان أكبر أولاد نظام الملك (الحسن بن علي الطوسي) والذي سبق أن عرفنا به حيث وزر للسلطان ألب أرسلان ولإبنه ملكشاه، وقد وزر فخر الملك وهو علي بن الحسن بن علي الطوسي، وزر للسلطان «سنجر بن ملكشاه» آخر سلاطين السلاجقة الكبار في نيسابور، هذا وقد قتل نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ كما قتل فخر الملك سنة ٥٠٠ هـ أما سنجر فكانت وفاته سنة ٥٥٢ هـ أنظر ابن كثير - البداية والنهاية (ج ١٢ أحداث هذه السنوات).

(٢) بيهق : مقاطعة قديمة في خراسان ينسب إليها الفقيه الشافعي أبو بكر البيهقي صاحب السنن الكبرى والصغرى.

(٣) المعبر والعبّار هو مفسر الأحلام.

(٤) ناصر الدولة حسين بن حسن بن حمدان التغلبي كان قد عمل في نيابة دمشق لصاحب مصر المستنصر بالله العلوي، ثم قدم مصر وتقدم على أمرتها وجرت له حروب وخطوب معهم لأنه كان عازماً على إقامة الدعوة لبني العباس، قهر المستنصر وأخذ منه أموالاً لا تحصى، ولكنه قتل هو وأخوه فخر العرب سنة ٤٦٥ هـ (سير أعلام النبلاء ١٨ / ٣٣٦).

(٥) القولنج : مرض يصيب القولون (الأمعاء الغليظة) يعسر معه خروج التفل والريح.

ولم يوجد له شفاء، ثم إنَّ السلطان دَسَّ على قتله، فأرصد له رجل معه خنجر، فلما جاء في بعض دهاeliz القصر، وثب عليه الرجل وضربه بالخنجر، فجاءت الضربة في أسفل خاصرته، فأصاب طرف الخنجر المعى - الذى هو: القولنج - فخرج ما فيه من الخلط، ثم عافاه الله تعالى، فصح وبرئ كأحسن ما كان.

ولما كنت بالإسكندرية نزلت سُفن العدو بساحل مدينة (برقا) (١) فأخذوا قوماً من المسلمين، وقتلوا بعضهم، وأسروا بعضهم، فأخذ رجل منهم وشدَّ كتافه من خلفه، فلما نهبوا السفينة، عمد إليه بعض الأعلاج (٢) فرفسه وألقاه فى البحر، ثم طعنه برمح كان معه، فلم يخطئ نصل الرمح حبل الكتاف فقطعه وانحلت يد الرجل، فسبح حتى لحق بالشاطئ سليماً، ووصل إلى الإسكندرية فى عافية.

وحدثنى بعض الشَّاميين: ان رجلاً خَبَّازاً، بينما هو يخبز فى تَنُوره بمدينة دمشق، إذ عبر عليه رجل يبيع المشمش، قال: فاشتري منه، وجعل يأكل بالخبز الحار، فلما فرغ سقط مغشياً عليه، فنظروا فإذا هو ميت، فجعلوا يتربصون به، ويحملون له الأطباء، فيلمسون دلائله ومواضع الحياة منه، فقصوا بأنه ميت، فغُسِّل، وكُفِّن، وحُمِّل إلى الجبَّانة، فبينما هم خارجون به من باب المدينة، استقبلهم رجل طبيب يقال له: البيرودي (٣) - وكان طبيباً ماهراً حاذقاً بالطب - فسمع الناس يلهجون بقصته، فقال لهم: حطوه حتى أراه، قال: فحطَّوه، وجعل يقلبه وينظر فى أمارات الحياة التى يعرفها، ثم فتح فمه، وسَفَّفَه شيئاً - أو قال حقنه - فاندفع ما هنالك يسيل، وإذا الرجل قد فتح عينيه، وتكلم، وعاد كما كان إلى دكانه.

وكان رجل يمشى ببغداد، فبينما هو فى الطريق إذا بدارٍ قد وقعت عليه، فخرَّت كالجبل العظيم، وإذا فى الحائط طاقة، فما أخطأت رأسه فصارت الدار كوماً، وخرج الرجل من الطاقة سليماً.

(١) برقة: شبه جزيرة فى ليبيا، شرقى خليج سرت، فى شمالها هضبة الجبل الأخضر.

(٢) العلاج: الرجل الضخم القوى من كفار العجم وبعضهم يطلقه على الكفار عموماً.

(٣) البيرودي: نسبة إلى بيروود - قرية قرب دمشق وبها نصارى كثير - وهو أبو الفرج جورجس

بن يوحنا بن سهل بن إبراهيم من النصارى اليعاقبة، كان فاضلاً فى صناعة الطب عالماً بأصولها وفروعها معدوداً من جملة الأكابر من أهلها، توفي بدمشق (انظر: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ٦١٠/١ وما بعدها).

وحدثني أبو القاسم الحضرمي : قال : كنت باليمن في أرض الصُّليحي^(١) ، فَوُشِّيَ بي إلى السلطان ، فأمر بقتلي ، فأُخْرِجْتُ وَقُدِّمْتُ للقتل ، وتركني السيَّاف ، ثم قال لي : مُد رقبتك ، فمددت عنقي لقضاء الله تعالى ، ثم قال لي السيَّاف : اشتد ، فقلت : دونك يا هذا ، فبينما نحن كذلك ، إذا بصائحٍ من داخل القصر : لا تقتلوه ، فخلُّوا سبيلي .

وجرت بقرطبة^(٢) قصة غريبة في أيام المنصور بن أبي عامر^(٣) ، وذلك أن رجلاً يعرف بقاسم بن محمد السنبسي - شهد عليه بالزندقة - فحبسه المنصور مدة مع جماعة من الأدباء من وجوه قرطبة ، مَرْمُوقُونَ^(٤) بالانهماك والزندقة ، وكان ينادى عليهم في كل جمعة ، يوقفون إثر صلاة الجمعة بباب الجامع الأعظم : من كانت عنده شهادة فيهم فليؤدِّها ، فثبت على قاسم عند القاضي سجلُّ شهادات الشهود ، بأنواع منكرة تتضمن الزندقة والكفر ، فطلعوا إلى القصر وعقدوا مجلساً عظيماً ، وحضر أبوه ، وحضر ابنان صغيران لقاسم ، ولبسوا ثياب الحداد ، وحمل أبوه معه نعشا وحمالين ، وجعل أبوه والصَّبِيَّان يَبْكُون على باب القصر ، وأحضر لضرب عنقه سيَّاف يُعْرِف (بابن الجندی) ودفعت إليه أسياف من القصر ، فجعل يروّزها ويلمس شفارها^(٥) ، وأبوه وابناه ينظران .

وحضر الفقيه أبو عمرو المكوذي الإشبيلي^(٦) على كره منه - وكان يأبى الحضور - فاستفتوه ، فقال : يا هؤلاء ، إن الدماء لا تُسْفَك إلا بالحق الواضح دون الشُّبْه ، احسبوا أن السَّنْبَسِي فرُّوجاً ، بماذا تذبِّحونه ؟ فقال القاضي ابن

(١) الصليحي : علي بن محمد بن علي الصليحي ، كانت له سلطنة اليمن ، وكان على مذهب الإمامية حيث دعا للمستنصر صاحب مصر ، وسمي بالداعي ، قُتِل وهو في طريق الحج سنة ٤٢٩ هـ (الوافي بالوفيات ٥٠ / ٢٢) .

(٢) قرطبة : مدينة في الأندلس على الوادي الكبير وهي عاصمة الدولة الأموية في الأندلس أسسها عبد الرحمن الداخل وكانت مركزاً حضارياً وثقافياً ينسب إليها الكثير من العلماء من آثارها قصر الزهراء .

(٣) المنصور بن أبي عامر أمير الأندلس الذي استقل بأمر الدولة ستاً وعشرين سنة مات سنة ٣٩٣ هـ ، سبقت ترجمته .

(٤) مرموقون : مُتَّهَمُونَ . وفي (خ) : مرموقون بالانهماك في الزندقة .

(٥) يروّزها ويلمس شفارها : يختبر حدّها وسرعتها في القطع .

(٦) أحمد بن عبد الملك الإشبيلي أبو عمرو المعروف بابن المكوي ، شيخ الأندلس في وقته حيث انتهت إليه رئاسة الفقه واعتلى على الفقهاء ونفذت الأحكام برأيه ، كان لا يداهن السلطان ولا يدع قول الحق ، توفي سنة ٤٠١ هـ (الديباج المذهب ص ٣٩) .

الشرفى : بما ثبت عندى وأمعنتُ النظر فيه ، قال الفقيه : أوقفني عليه . فأخذ السَّجْلَ ونظر فيه ، فقال : أخبرني بمن قَتَلْتَهُ وَمَنْ هَؤُلاءِ الشُّهُودُ ؟ قال : بهذا وهذا ، حتى عدَّ خمسة . قال الفقيه : فجميعهم تقتله ؟ قال : نعم ، قال : فلو شهد منهم اثنان خاصة كنت تقتله ؟ قال : لا ، إنما قَوَى بعضهم بعضاً ، وزكَّى أكثرهم عندى ، فالتفت الفقيه إلى الفقهاء المُشَاوِرِينَ ، فقال : يا هَؤُلاءِ بالدعائم^(١) يقتل المسلمون عندكم وتسفك دماءهم ؟ فلست أرى قتله ولا أشيرُ به . فرجع الفقهاء إلى قوله ، ولم يروا عليه شيئاً بعدما أفتوا بقتله منذ ستة أشهر ، فانفض الجميع وشيم السيف^(٢) . وطار البشير إلى ابن أبى عامر فأخبره بالمجلس ، فقال ابن أبى عامر : مضيتم تقتلون ابن السنبسى^(٣) فدفنتم القاضي : قد اجتهدنا للدين ولا قاتل لمؤجِّل ، فحبس أياماً ثم أطلق ، فكان ابن ذكوان^(٤) الفقيه يقول للقاضى فى مثل هذا قال القائل إذا سئل : بمَ عرفت الله ؟ قال : بنقضه عزائى .

ومعنى الدعائم - على لسان الفقيه - : هم الشهود : الذين لو انفرد منهم اثنان لم يثبت الحكم ، ولا قبلاً فيه ، فإذا كَثُرُوا قَوَى بعضهم بعضاً فلا يثبت الحكم بهم .
وفى نقيض هذا ، ما حدثنى القاضى أبو مروان الدانى^(٥) بطرطوشة - وقد ولى قضاءها - فتذاكرنها يوماً ، فقال : نزلت قافلةً بقرية خربة من أعمال دانية^(٦) ، فأووا إلى دار خرابٍ هناك ، ليستكنوا من الرياح والأمطار ، واستوقدوا نارهم وسووا معيشتهم ، وقُرب تلك الخربة حائطٌ مائلٌ قد أشرف على الوقوع ، فقال رجل منهم لأهل القافلة : يا هَؤُلاءِ ، لا تقعدوا تحت هذا

(١) الدعائم : الشهود على صفة معينة .

(٢) شيم السيف : وضع فى غمده .

(٣) أى قاسم بن محمد السنبسى المتهم بالزندقة فى القصة .

(٤) ابن ذكوان : احمد بن عبد الله أبو العباس - قاضى القضاة بالأندلس - ولاء المنصور بن أبى عامر القضاء بقرطبة ، وجعله من خاصته ومحلّه منه فوق محل الوزراء ، وبقي ابن ذكوان مع أولاد المنصور حتى انقضت دولة بنى عامر ، وقامت الفتن فى قرطبة فنفى منها ثم رجع واعتزل الناس ومات سنة ٤١٣ هـ . (الأعلام ١/ ١٥٦) .

(٥) أبو مروان الدانى : نسبة إلى دانية مرفاً بالأندلس

(٦) دانية : مرفاً جنوب بلنسية فى الأندلس ، كانت مملكة مزدهرة فى عهد مجاهد العامرى من ملوك الطوائف واشتهرت باسطولها ، ونسب إليها القاضى أبو مروان الدانى .

الحائط ، ولا تدخلوا هذه البقعة ، فأبوا إلا دخولها ، وبات الرجل مُتَبِذاً^(١) خارجاً عنهم ، لم يقرب ذلك المكان ، ثم أصبحوا في عافية وحملوا دوابهم فبينما هم كذلك إذ دخل الرجل الخربة ، ليستوقد^(٢) ببقية النار ، فخر عليه الحائط فمات مكانه .

وبلغني عن بعض الفقهاء ، إن جيشاً من الجيوش كان بصقلية ، ناهضاً من مكان إلى مكان ، فقعوا ساعة لبعض شأنهم ، فإذا عقربٌ يدب ، فضربه بعض الأجناد بمقرعة كانت معه ، ثم رفع المقرعة إلى نحو عنقه ، فإذا بالعقرب قد تشبث بأهداب المقرعة ، وهو لا يشعر ، فلدغته في عنقه ، فقضى مكانه .

وأخبرني القاضي أبو الوليد الباجي^(٣) ، عن أبي ذر^(٤) قال : كنت أقرأ على الشيخ أبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين^(٥) ببغداد جزءاً من الحديث ، في حانوت رجل يبيع العطر ، فجاء رجل طوافٌ بطبق يحمله في يده^(٦) ، وأعطاه عشرة دراهم ، وقال له : ادفع إليّ أشياء سماها من العطر ، فأخذها في طبقه ومشى ، فسقط الطبق من يده وتفرق جميع ما كان فيه ، فبكى الطواف وجزع حتى رحمناه ، فقال أبو حفص لصاحب الحانوت : لعلك تجبرُ له بعض هذه الأسباب ، قال : نعم ، فنزل وجمع ما تجمع منها ، وجبر له ما نقص ، وأقبل الشيخ على الطواف يُصْبِرُهُ ، وقال له : لا تجزع ، فأمر الدنيا أيسر من ذلك ، فقال الطواف : أتظن أيها الشيخ أن جزعى لضياع ما ضاع ؟ لقد علم

(١) متبذاً : منعزلاً عنهم .

(٢) أي ليتدقأ .

(٣) أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف الفقيه الأندلسي المالكي الذي أخذ عنه الطرطوشي مسائل الخلاف مات سنة ٤٧٤ هـ . سبقت ترجمته .

(٤) هو أبو ذر الهروي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري الهروي أصله من هراة عالم بالحديث من الحفاظ ومن فقهاء المالكية ، يقال له ابن السماك له عدة تصانيف منها (تفسير القرآن) مات بمكة سنة ٤٣٤ هـ (الأعلام للزركلي ٣ / ٢٤٩) .

(٥) أبو حفص عمر بن أحمد بن شاهين ، واعظ من أهل بغداد ، كان من حفاظ الحديث وله نحو (٣٠٠) مصنف منها كتاب السنة ، والتفسير ، وناسخ الحديث ومنسوخه توفي سنة ٣٨٥ هـ (الأعلام ٥ / ٤٠) .

(٦) في (خ) [فبينما أنا جالسٌ معه في الحانوت إذ جاء رجل من الطوافين ممن يبيع العطر في طبق يحمله في يده] .

الله تعالى أني كنت فى القافلة الفلانية، فضاع لى هميان^(١) فيه أربعمائة دينار أو أربعة آلاف دينار - الشك من أبى ذر - ومعها فصوص^(٢) قيمتها مثل ذلك، فما جزعت لضياعها، ولكن ولد لى فى هذه الليلة مولود، فاحتجت فى البيت إلى ما تحتاج إليه النفساء^(٣)، ولم يكن عندى غير هذه العشرة دراهم، فأشفقت أن أشتري بها حوائج النفساء، فأبقى بغير رأس مال، ولا أقدر على التكسب، فقلت: أشتري بها شيئاً، وأطوف صدر نهاري، فعسى أستفضل منه شيئاً أسد به رمقى ويبقى رأس المال أتصرف فيه، فلما قدر الله تعالى بضياعه جزعت، فقلت: لا عندى مال أرجع به إليهم، ولا ما أكتسب به، وعلمت أنه لم يبق لى إلا الفرار منهم، وتركهم على هذه الحال يهلكون بعدى، فهذا الذى أوجب جزعى.

قال الشيخ أبو ذر: وكان رجل من الجند جالساً على باب داره يستوعب الحديث، فقال للشيخ أبى حفص: أنا أرغب إذا تممت أمره أن تدخل معه عندى وقام، فظننا أنه يريد أن يعطيه شيئاً. قال: فدخلنا عليه، فأذن لنا، فقال الجندى للطواف: عجبت من جزعك، فأعاد عليه القصة، فقال الجندى: وكنت فى تلك القافلة؟ قال: نعم، وكان بها من عظام الناس فلان وفلان، فعلم الجندى صحة قوله، فقال له: وما علامة الهميان؟ وفى أى موضع سقط منك؟ فوصف المكان والعلامة، فقال له الجندى: لو رأيته كنت تعرفه؟ قال: نعم، فأخرج الجندى همياناً ووضع بين يديه، فقال: هذا هميانى، وعلامة صحة قوله: أن فيه من الأحجار ما صفته كذا، وكذا، ففتح الهميان فوجد الأحجار على ما ذكر، فقال الجندى: خذ مالك، بارك الله لك فيه، فقال الطواف: هذه الأحجار قيمتها مثل الدنانير أو أكثر، فخذ أنت الدنانير بنفسى طيبة بذلك، فقال الجندى لا آخذ على أمانتى شيئاً. فدخل الطواف وهو من الفقراء وخرج وهو من الأغنياء. فبكى الجندى بكاء شديداً وانتحب، فقال له أبو حفص: علام تبكى؟ وقد أدى الله أمانتك، وقد بذل لك مالا

(١) الهميان: كيس تجعل فيه النقود أو النفقة ويشد على الوسط.

(٢) الفصوص: ما يركب فى الخواتم من الأحجار الكريمة.

(٣) النفساء: المرأة إذا ولدت.

كثيراً، وإن شئت عرضنا عليه أن يعيده عليك؟ فقال: ما أبكي لذلك، وإنما أبكي لأنني أعلم أنه قد حان أجلي، فإنه ما كان بقي أمل أو مله ولا أمنية أتمناها، إلا أن يأتيني الله بصاحب هذا المال فيأخذه، فلما قضى الله تعالى ذلك بفضله، ولم يبق لي أمل، علمت أنه قد حان أجلي، قال الشيخ أبو ذر: فما انقضى شهر حتى توفي وصّلينا عليه.

قال القاضي (١) وحدثني أبو القاسم بن الحسين بالموصل (٢) قال: لقد جرت ههنا في هذا المسجد، وهذه الدار، وهذا الحانوت - وأشار إليه - قصة عجيبة: كان يسكن هذه الدار رجل من التجار، ممن يسافر إلى الكوفة في تجارة الخز (٣)، فبينما هو يحمل الخز في خُرجه على حماره وهو جميع ماله نزلت القافلة، فأراد إنزاله عن الحمار فثقل عليه، فأمر إنساناً هناك فأعانه على إنزاله، ثم جلس يأكل، فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه، فأجابه وأكل معه، ثم سأله عن أمره؟ فأخبره أنه رجل خرج من الكوفة لأمر أزعجه دون زاد، فقال له الرجل: تكون معي وتعينني على سفري، ويكون طعامك عندي؟ فقال الرجل: إني حريص على خدمتك، ومحتاج إلى طعامك، فسار معه في طريقه، فخدمه على أحسن حال، قال: فوصلاً تكرت (٤)، فنزلت الرُفقة (٥) خارج المدينة، ودخل الناس لقضاء حوائجهم، فقال الرجل للخادم: احفظ رحلنا حتى أدخل وأشتري حاجتنا، ثم دخل وقضى حوائجه، فأبطأ هناك، ثم خرج فلم يجد الرُفقة، ولا وجد صاحبه، فظن أنه لما رحلت الرُفقة رحل معها، فلم يزل يسعى حتى وصل إلى الرُفقة بعد الجهد، فسألهم عن صاحبه؟ فقالوا: ما جاء معنا ولا رأيناه، ولكنه ارتحل الأسباب (٦) على الحمار ودخل على أثرك، وظنناك أمرته بذلك.

فكرَّ الرجل راجعاً إلى تكرت، وسأل عنه فلم يجد له أثراً، ولا سمع له

(١) يعني أبو الوليد الباجي والمعروف عنه أنه تنقل في الأمصار وكان منها الموصل التي عاش فيها سنة قبل عودته لبلاده الأندلس، وقد سبقت ترجمته.

(٢) أبو القاسم بن الحسين بن ميمون، من رواة الحديث الثقات (تهذيب مستتر الأوهام لابن ماكولا ١/ ١٥٠). والموصل مدينة في العراق.

(٣) الخز: الحرير أو ما نسج من صوف أو حرير.

(٤) تكرت: مدينة في العراق على شاطئ دجلة الأيمن شمالي سامراء قاعدة محافظة كانت موطن صلاح الدين الأيوبي، هدمها تيمورلنك.

(٥) أي الرفاق في القافلة.

(٦) ارتحل الأسباب: وضع على الحمار الرحل.

خبيراً، فيئس منه وسار إلى الموصل، مسلوب المال، فوافاها نهراً جائعاً، عرياناً فقيراً، مجهوداً، فاستحيا أن يدخل نهراً فيشمت العدو ويحزن الصديق، فبقى حتى أمسى، ثم دخل فِدَقَ باب الدار، فقيل: من هذا؟ فقال فلان - يعني نفسه - فأظهروا سروراً عظيماً وحاجة إليه، وقالوا: الحمد لله الذى جاء بك فى هذا الوقت، على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة والفاقة، حملت جميع مالك وطال سفرك، واحتاج أهلك، وقد ولدت اليوم ولداً، ووالله ما وجدنا ما نشترى به شيئاً للنفساء، ولقد كانت هذه الليلة طاويةً على حالها، فتَحِيلَ لنا فى دقيق، ودهن نسرج به، فلا سراج عندنا.

فزاده ذلك غمّاً، وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم، وأخذ وعاءً للزيت وجراباً للدقيق، وخرج إلى هذا الحانوت، وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحوه، وقد أغلق دكانه وأطفأ مصباحه ونام. فناده فأجابه وعرفه، وشكر الله على سلامته، فقال التاجر لصاحب الحانوت: أقدح زناداً^(١) أزن لك الدراهم فى دقيق وزيت وعسل احتجت إليه الساعة، وكره أن يخبره بتأخير الثمن فيمتنع منه، فقدح البياع الزناد واستصبح، فقال له لتاجر: زن لى من الدقيق كذا، ومن الزيت كذا، ومن العسل كذا، ومن السمن كذا، ومن الملح كذا، وبينما هو كذلك إذ حانت منه التفاته إلى قعر الحانوت، فرأى فيه خُرْجه الذى هرب به صاحبه، فلم يملك أن وثب عليه والتزمه، وألقى يده فى أطواق صاحب الحانوت وجذبه إلى نفسه، وقال: يا عدو الله: أين مالى؟ فقال له صاحب الحانوت: مالك يا فلان؟ فوالله ما علمتك متعدياً، وما علمتني جنيت عليك ولا عليّ سواك، فما هذا؟ قال: [خُرْجى فرّ به خادمٌ لي خدمني بجميع مالى وبحماري]^(٢)، قال: مالى علم، غير أن رجلاً ورد عليّ بعد العشاء، واشترى مني عشاء، واستضافني فأضفته، وجعلت هذا الخرج فى حانوتي، وهذا الحمار فى دار جارنا، والرجل فى المسجد بائط، فقال له: احمل معي الخُرْج، وانهض إلى الرجل، فرفع الخرج معه وألقاه على عاتقه، ومشى معه إلى المسجد، فإذا الرجل نائم فى المسجد، فركضه برجله، فقام الرجل مذعوراً، فقال له: مالك؟ فقال له: أين مالى يا خائن؟ قال: هو ذا على عنقك، والله ما

(١) أقدح الزناد: أى اشعل النار أو المصباح.

(٢) في (خ) قال: [هذا خُرْجى فرّ لي به خادمٌ لي خدمني، فيه جميع مالى].

تَغَادَرَ^(١) منه ذرة، قال: فأين الحمار؟ قال: هو عند هذا الجائي معك^(٢).
 فنهض إلى داره، فوجد متاعه سليماً، واستخرج الحمار من الموضع الذي كان فيه، ووسع على اهله وأخبرهم بقصته، فزاد أهله فرحاً وتبركاً بذلك المولود.
 ولما وُقِيَ موسى عليه السلام لصهره شعيب عليه السلام الأجل الذي أجلاه لرعى غنم شعيب، التي رعاها موسى عوضاً عن مهر ابنته، أخذ موسى عليه السلام زوجته وكرراً راجعاً من مَدِينِ^(٣) فلما وافى الوادي المقدس عند جانب الطور^(٤)، أجنّهم الليل بظلمته، فأمسوا بائتين، فبينما هم كذلك إذ ضرب زوجته الطلقُ - وكانت حاملاً - وليس عندهم ما تحتاج إليه النفساء من الغذاء والدوا، وما يصلح به شأنهم، فبقوا في ضيق من الحال وقلة من الحيلة، فخرج موسى عليه السلام يلتفت وينظر يميناً وشمالاً، عسى فرجاً لما أمسوا فيه من الضرر ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هَدَى﴾ [طه: ١٠] ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ [طه: ١١، القصص: ٣٠] أضيق ما يكون ذرعاً، وأخرجه قلباً، وآيسه عن رفق، ﴿نُودِيَ مِنَ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾^(٥) [القصص: ٣٠] ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾^(٦) [طه: ١١-١٢].

وهكذا لطائف الحق سبحانه مع من سلّم لأمره، ورجا فضله، وتكلم بالهدى والبشرى، يفسح الله فيه أمله، ويعطيه فوق ما سأل. هذا موسى عليه السلام خرج يقتبس ناراً، نودى بالنبوة.

وعن هذا قال علماؤنا: ليس في خصال الخير وإن جلّت، ولا في أنواع الأعمال وإن عظمت، أعلى من حسن الظن بالله تعالى.

(١) ما تغادر منه: أى ما نقص منه.

(٢) الجائي معك: الآتي معك.

(٣) أرسل الله إلى مدين أحاهم شعيباً: مدين قرية قريبة من أرض معان في أطراف الشام ومما يلي ناحية الحجاز، قريباً من بحيرة قوم لوط، ومدين قبيلة عرفت بهم وهم من بنى مديان بن إبراهيم الخليل أرسل الله تعالى لهم شعيب بن ميكيل نبياً لهم وقيل إنه كان ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم أحرق بالنار قصته مذكورة في قصص الأنبياء ابن كثير ص ١٨٦ وما بعدها.

(٤) جبل الطور: جبل طور سيناء الذي كلم الله تعالى عنده موسى عليه السلام.

(٥) وتكملتها: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنَ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

(٦) وتكملتها: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

ونظمه بعض الشعراء فقال :

أَيُّهَا الْعَبْدُ كُنْ لِمَا لَسْتَ تَرْجُو مِنْ نَجَاحٍ أَرْجَى لِمَا أَنْتَ رَاجٍ
إِنَّ مُوسَى مَضَى لِيَقْبِسَ نَاراً مِنْ ضِيَاءِ رَأَاهُ وَاللَّيْلُ دَاجٍ
فَأَتَى أَهْلَهُ وَقَدْ كَلَّمَ اللَّهَ وَنَاجَاهُ وَهُوَ خَيْرُ مُنَاجٍ
وَكَذَا الْكَرْبُ كُلَّمَا اشْتَدَّ بِالْعَبْدِ دَنَتْ مِنْهُ رَاحَةُ الْإِنْفِرَاجِ

وروي أن العدو نزل بساحل إفريقية^(١)، في عدد كثير من المراكب، ففني ماؤهم وعطشوا، فنفر المسلمون لهم في خلق عظيم من تلك السواحل والحصون، فمنعواهم النزول لاستقاء الماء، وأرسلوا إلى المسلمين أن يخلوهم واستقاء الماء، فأبوا، فتضاعف عطشهم حتى أشرفوا على الهلاك، ففتحوا أناجيلهم^(٢) وأخذوا في الدعاء والاستسقاء إلى الله تعالى والتضرع إليه، فلم يك بأوشك من السماء أن ألقت بأوداقها^(٣) ثم أرخت ماء كثيراً، فبسط القوم أنطاعهم وجفانهم^(٤) وأنيتهم فشربوا وملئوا وأوانيتهم، فضج المسلمون عند ذلك وقالوا: هؤلاء كفار وأعداء الله ورسوله، قد أخلصوا إلى ربهم، وأنا بوا إليه، وسألوه ماء يحيون به رمقهم، فأغاثهم، فنحن أحق بالدعاء والتضرع إلى الله سبحانه، وأولى بالإجابة منهم، ثم جد المسلمون في الدعاء والصلاة، والابتهاال إلى الله تعالى في أن يريهم آية يقوى بها قلوب الضعفاء، ويتزايد شكر أهل المعرفة والأولياء، فبينما هم كذلك، إذ أرسل الله تعالى عليهم ريحاً فبددتهم، ومزقتهم كل ممزق، وكسرت مراكبهم، ولم يجتمع منهم اثنان.

ومن عجائب صنع الله تعالى في هذا الباب: أن رجلاً من ديار بكر^(٥) جاء إلى بيت المقدس، وزار قبر الخليل عليه السلام، وأكل من ضيافته، فطارت حبة عدس من ذلك الطعام في خيشومه، ورام خروجها بكل حيلة فأعجزته، حتى تركته مضنى، ثم رجع إلى بلاده، فبينما هو جالس إذ عطس فطارت العدسة في

(١) كذا في (خ) بساحل إفريقية، وفي (ط) بساحة إفريقية.

(٢) جمع إنجيل: وهو كتاب النصارى.

(٣) الودق: المطر. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدَقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: ٣٠].

(٤) النطع: قطعة من الجلد. والجفنة: القصعة. (٥) ديار بكر بن وائل، قبيلة عربية من ربيعة.

الأرض، فإذا طائرٌ قد التقطها لوقتها وبرئ الرجل، فسبحان من جعل أنف هذا الرجل حرزا لقوت هذا الطائر على بعد الشُّقَّة والمسافة.

وأما أنا: فلما هممتُ بالرحيل من بلدى (١) إلى المشرق فى طلب العلم، كنت لا أعرف التجارة، ولا لي حرفة أرجع إليها، فجزعت من الخروج، وكنت أقول: إن ذهبت نفقتى ماذا أفعل؟ وكان أقوى الآمال فى نفسى، أن أحفظ البساتين بالأجرة وأدرس العلم بالليل، ثم استخرتُ الله تعالى ورحلت، وكانت معى نفقة وافرة فى هميان (٢) على وسطى، وكنت أسمع المسافرين يقولون: (من نام بالليل فى الفياقى، وله نفقة على وسطه فليحلها، فإن اللصوص إذا كابرت (٣) الخلق يبتدرون أوساطهم) فخرجت من بلاد السويدية (٤) إلى أنطاكية (٥) وهى إذ ذاك حرب للروم - فسرينا ليلتنا وأصبحنا على باب أنطاكية، فأخذتنى عينى، وحللتُ الهميان ونمت، ولم استيقظ إلا ضحوة النهار، فاستيقظت ومددتُ يدي إلى الهميان فلم أجده، فجعلت أنظر إلى القافلة، والتفت إلى الناس - وقد أسقطَ فى يدي - ولم يبق لى حيلة، فاسترجعت (٦)، ورفعتُ أمرى إلى الله سبحانه وتعالى، وإذا رجل من أهل القافلة ملتفتاً إلىّ، فوقع وجهى فى وجهه، فإذا هو يضحك لما رأى ما بى، فقال: مالك أيها الفقيه؟ قلت: خير، فراجعنى، فقلت: خير، فقام إلىّ وقال: خذ هميانك - عافاك الله -، فسألته: كيف ظفرت به؟ فقال: رأيْتُك (٧) قد تدحرجت ذراعين أو ثلاثة، والتفتُ فرأيتُ سواداً فى الموضع الذى كنت فيه نائماً، فسرتُ إليه وأخذته، فإذا هو الهميان، رحمة الله عليه ورضوانه لديه.

* * *

(١) بلد الطرطوشى: هى طرطوشة شرقى الأندلس (انظر ترجمة المؤلف).

(٢) الهميان: كيس تجعل فيه النقود أو النفقة ويشد على الوسط.

(٣) يقال: كوبر الرجل فى ماله أى أخذ منه عنة.

(٤) بلاد السويدية: بلدة فى شمال سوريا (لواء الإسكندرية) قرب مصب نهر العاصى على المتوسط، كانت ترسو فيها مراكب الإفرنج ويرفعون منها أمتعتهم على الدواب إلى أنطاكية (معجم البلدان ١/ ٢٦٨).

(٥) أنطاكية: مدينة على نهر العاصى قرب مصبه فى البحر المتوسط، من المدن الكبرى فى العالم القديم (معجم البلدان ١/ ٣٤٥).

(٦) الاسترجاع: قول: «إنَّا لله وإنا إليه راجعون». (٧) فى (ط): (رأسك) قد تدحرجت..

الباب الستون

فى بيان الخصلة التى هى أم الخصال وينبوع الفضائل،
ومن فقدها لم يكمل فيه خصلة وهى الشجاعة، ويُعبّر
عنها بالصبر، ويُعبّر عنها بقوة النفس

قالت الحكماء: أصل الخيرات كلها فى ثبات القلب، ومنه تُستمد جميع
الفضائل، وهو الثبوت والقوة على ما يوجبهُ العدلُ والعلم، والجبن غريزةٌ يجمعها
سوء الظن بالله تعالى، والشجاعة غريزة يجمعها حسن الظن بالله تعالى.

سئل الأحنف (١) عن الشجاعة، فقال: صبر ساعة.

وسئل أبو جهل (٢) عن الشجاعة، فقال: تصبرون على حرّ السيوف فواق
ناقة (٣) - وهو ما بين الحلبتين -.

واعلم أن القادم للقتال (٤) طريدة من طرائد الموت، فاستقبال الموت خير
من استدباره.

وقد قال الأول: ربّ حياة سببها التعرّض للوفاة، ووفاة سببها طلب الحياة،
ومن حرص على الموت فى الجهاد وهبت له الحياة.

وقالوا: الهزيمة شفرة من شفار الموت، والفارّ يُمكن من نفسه، والمقاتل
يدفع عن نفسه.

وقالوا: ثمرة الشجاعة الأمن من العدو.

واعلم: ان من قُتل فى الحرب مُدبراً أكثرُ ممن قتل مقبلاً.

(١) هو الأحنف بن قيس سبقت ترجمته.

(٢) أبو جهل عمرو بن هشام من أعداء الإسلام قتل فى معركة بدر سنة ٢ هـ. وكان زعيم بنى
مخزوم فى قريش. (الأعلام ٥/ ٨٧).

(٣) حر السيوف: شدة القتال، وفواق ناقة: ما بين الحلبتين من الوقت لأنها تحلب ثم تترك بعض
الوقت يرضعها الفصيل لتُدّر ثم تحلب ثانية من ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ أى راحة أو نظرة
وإفاقة، وتقرأ بفتح الفاء وضمها (مختار الصحاح، باب فوق).

(٤) فى (خ) واعلم أن الفارّ من القتال.

وقالوا: تأخير الأجل حصن المحارب .

وقيل لبعضهم: في أي جُنَّةٍ تُحِبُّ أن تلقى عدوك؟ [قال: في أجل متأخر .

وقيل لآخر: في أي سلاح تحب أن تلقى عدوك] (١) قال: بإدبار دولته وانقضاء مدته .

واعلم: ان الشجاعة لمن كانت له الدولة، وإذا انقضت المدة لم تُغن كثرة العدد . وقال علي رضي الله عنه: إذا انقضت المدة كانت الهلكة في الحيلة .

واعلم أن كل كراهية تُرفع، أو مكرمة تُكتسب، لا تتحقق إلا بالشجاعة، ألا ترى أنك إذا هممت أن تمنح شيئاً من مالك خار طبعك، ووهن قلبك، وعجزت نفسك فشحت به، وإذا حققت عزمك، وقويت نفسك، وقهرت ذلك العجز، أخرجت المال المضنون به، وعلى قدر قوة القلب وضعفه، تكون طيبة النفس بإخراجه، أو كراهية النفس لإخراجه مع إخراجه، وعلى هذا النمط جميع الفضائل، مهما لم يقارنها قوة نفس لم تتحقق، وكانت مخدوعة . وروي أن الرسول ﷺ قال: « الشجاعة والجبين غرائز، يضعها الله تعالى فيمن يشاء من عباده، فالجبان يفرُّ عن أمه وأبيه، والشجاع يقاتل عمن لا يُؤوب به إلى رحله » (٢) .

فبقوة القلب: يُصاب امتثال الأوامر، والانتهاز عن الزّواجر، وبقوة القلب: يصاب اكتساب الفضائل، وبقوة القلب: ينتهي عن اتباع الهوى، والتضمُّخ (٣) بالردائل .

قال الشاعر:

جَمَعَ الشَّجَاعَةَ وَالْخُضُوعَ لِرَبِّهِ مَا أَحْسَنَ الْمِحْرَابَ فِي الْمِحْرَابِ (٤)
وبقوة القلب: يصبر الجليس على إيذاء الجليس، وجفاء الصاحب، وبقوة القلب: يكتُم الأسرار، ويدفع العار، وبقوة القلب: يقتحم الأمور الصعاب،

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ط) .

(٢) رواه البيهقي عن عمر بن الخطاب بلفظ: « الشجاعة والجبين غرائز في الناس، تلقى الرجل يقاتل عمن لا يعرف، وتلقى الرجل يفر عن أبيه »، وذكره العجلوني في كشف الخفاء بلفظ: « الجبن والجرأة غرائز يضعها الله حيث يشاء » كشف الخفاء - العجلوني رقم (١٠٦٥)، ومعنى يؤوب به: يرجع به .

(٣) نقول ضمخ جسده بكذا: أي لطخه .

(٤) المحراب الأولى: صاحب الحرب الشجاع . المحراب الثانية: محراب المسجد وهو مقام الإمام فيه، والمعنى ما أحسن أن يجمع المرء بين الشجاعة والعبادة .

وبقوة القلب : يتحمل أثقال المكاره، وبقوة القلب : يصبر على أخلاق الرجال، وبقوة القلب : تُنفذ كل عزيمة وروية أوجبها الحزم والعدل . وبقوة القلب : يضحك الرجال في وجوه الرجال وقلوبهم مشحونة بالضغائن والأحقاد - كما قال أبو ذر : [وإنَّا لنكشّر في وجوه قوم، وإنَّ قلوبنا لتلعنهم] . وقال على رضى الله عنه : [إنَّا لنصافح أكفأ نرى قطعها] .

وليس الصبر والشجاعة وقوة النفس، إن تكون مصراً في المحال، لجوجاً^(١) في الباطل، ولا أن تكون جلدأ عند الضرب، صبوراً على التعب، مُصمماً على التعزير والتهور، فإن هذه صفة الحمير والخنازير . ولكن أن تكون صبوراً على أداء الحقوق عليك، صبوراً على سماعها وإلقائها إليك، غالباً لهواك، مالكاً لشهواتك، ملتزماً للفضائل بجهدك، عاملاً في ذلك على الحقيقة، التي لا يُحيلك^(٢) عنها حياة ولا موت، حتى يكون عندك موتك على الخير الذى أشار به العلم وأوجبه العدل، خيراً من البقاء على ما أوجب رفض العلم والعدل .

كما قال عليّ لولده الحسين^(٣) رضوان الله عليهما : يا بُنى : وما يبالي أبوك لو أن الخلق خالفوه إذا كان على الحق، وهل الخير كله للمُحق إلا بعد الموت ؟

ومن هذا قالت حكماء الهند : إذا لم يكن للملك من نفسه معين، كان في جميع اموره ضعيفاً مخذولاً .

واعلم : أنَّ الجُبْنَ مَقْتَلَةٌ، والحِرْصُ مَحْرَمَةٌ، والعجزُ ذُلٌّ، والجُبْنُ ضَعْفٌ، والجبانُ يعين على نفسه، يفرّ عن أبيه وأمه وصاحبته وبنيه .

واعلم : أن كل كراهية ما بين الحَلَبَتَيْنِ، والشُّجَاعِ يحمي عَمَّنْ لا يناسبه، ويقي مال الجار والرفيق بمُهجته، والجبانُ يخافُ ما لا يُحسُّ به، والجبانُ حتفه من فَرَقِهِ^(٤) .

واعلم : أن الشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه :

(١) اللجوج : التماذى فى العناد والخصومة عما نهى عنه .

(٢) لا يُحيلك عنها : لا يمنعك عنها .

(٤) أى موته بسبب خوفه .

(٣) في (ط) قال علي بن الحسين .

رجل إذا التقى الجمعان، وتزاحف الزحفان، واكتحلت الأحداق بالأحداق^(١)،
برز من الصف إلى وسط المعترك، يحمل ويكر، وينادى: هل من مبارز؟

والثانى: إذا التحم القوم واختلطوا، ولم يدر أحد من أين يأتيه الموت،
يكون رابط الجأش، ساكن القلب، حاضر اللب، لم يخامره الدهش، ولا
خالطه الحيرة، فينقلب بقلب المالك لأمره، القائم على نفسه.

والثالث: إذا انهزم أصحابه، يلزم الساقة^(٢)، ويضرب فى وجوه القوم،
ويحول بينهم وبين عدوهم، ويقوى قلوب أصحابه ويرجى^(٣) ضعيفهم، ويمدّهم
بالكلام الجميل، ويشجع نفوسهم، فمن وقع أقامه، ومن وقف حمّله، ومن
كُردس فرسه^(٤) كشف عنه، حتى ييأس العدو منهم، وهذا أحمدهم شجاعة.

وعن هذا قالوا: المقاتل وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومن
أكرم الكرم: الدفاع عن الحرم.

وقالوا: لكل واحد يومان لا بد منهما: أحدهما: لا يعجل عليه، والثانى: لا
يغفل عنه، فما للجبان والفرار؟!

وكان شيوخ الجند يحكون فى بلادنا^(٥) قالوا: دارت حرب بين
المسلمين والكفار، ثم افترقوا، فوجدوا فى المعترك قطعة من بيضة الحديد،
قُدِّرَ ثلثها بما حوته من الرأس، فيقال: أنه لم يُرَقَطْ ضربة أقوى منها.

وكان شيوخ الجند فى بلدنا - طرطوشة - يحكون: انهم خرجوا فى ايام
سيف الملة^(٦) فى سرية إلى بلاد العدو، فبينما هم يسيرون، إذ لقيتهم سرية
للروم، يريدون منا ما نريد منهم، قال: وعرف بعضهم بعضاً، وكان فينا
صناديد الفرسان، وفيهم صناديد الروم، فتواقفنا ساعة، ثم شددنا وشدوا،
فالتقينا، وتجالدنا ساعة، ثم منحنا الله تعالى أكتافهم، فجعلناهم حصيداً

(١) الأحداق: العيون والأنظار أى: حدد وحدق كل منهم النظر إلى الآخر.

(٢) الساقة: مؤخرة الجيش.

(٣) يرجي: يؤخر.

(٤) كردس الفرس: جمعت يداه ورجلاه بمعنى وقع أو قيّد.

(٥) طرطوشة: بلد أبو بكر الطرطوشى فى الأندلس.

(٦) سيف الملة: لقب أحد حكام طرطوشة.

كَأَنَّهُمْ (جزر على الأوضام) ^(١)، وكان هناك بقبريهم قربةً فيها شيء من الخمر، فشرباه وسكرنا، ثم اشتهينا شرائح اللحم، فقمنا نقطع من لحومهم ونجعل على النار، وأكلنا منها، ففزع من كنا أسرناه منهم، وبلغ الحديث إلى الروم، فقضت النصراني ^(٢) تعجباً منا، وقذف الرعب في قلوبهم.

وروي: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لقي عمرو بن معد يكرب ^(٣) فقال له: يا عمرو: أي السلاح أفضل في الحرب؟ فقال: عن أيها تسأل؟ قال: ما تقول في السهام؟ قال: منها ما يخطئ ويصيب، قال: فما تقول في الرمح؟ قال: أخوك، وربما خانك قال: فما تقول في السيف؟ قال: ذاك ذاك، لا أم لك قال: فما تقول في الترس؟ قال: هو الدائرة وعليه تدور الدوائر.

وكان عمرو هذا من شجعان العرب وأبطالها، نزل يوم القادسية ^(٤) علي النهر، فقال لأصحابه: إنني عابر على الجسر، فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور، وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي، وقد عقرني القوم وأنا قائم بينهم، وإن أبطأتم وجدتموني قتيلاً بينهم، ثم أنغمس فحمل على القوم فقال بعضهم لبعض: يا بني زبيد علام تدعون صاحبكم؟ والله ما أرى أن تدركوه حياً، فحملوا، فانتهوا إليه وقد صرع عن فرسه، وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم فأمسكها، وإن الفارس ليضرب فرسه، فما يقدر الفرس أن يتحرك، فلماً غشينا، رمى الرجل بنفسه وخلي فرسه، فركبه عمرو وقال: انا (أبو ثور) كدتم والله تفقدوني قالوا: أين فرسك؟ قال: رُمي بنشابة ^(٥)، فعار وشب فصرعني ^(٦).

(١) الجزر: هنا ما يصلح من الإبل أو الغنم للذبح. الأوضام: جمع وضم وهي الخشبة التي يقطع عليها اللحم. ويقال: «تركهم لحماً على وضم» أي ذلهم وأوجعهم.

(٢) في (ط) فقضت الناس، ومعنى قضت: أي توقفت عن الهجوم.

(٣) عمرو بن معد يكرب: شاعر فارس من شعراء الجاهلية من أهل اليمن، أسلم سنة ٩ هـ ثم ارتد ثم أسلم وحسن إسلامه، وشهد اليرموك وذهبت فيها إحدى عينيه ثم بعثه عمر إلى العراق فشهد القادسية وكانت أخبار شجاعته كثيرة، فكانت فيه قسوة الجاهلية ويكنى «أبا ثور» له شعر جيد، قيل أنه مات عطشاً يوم القادسية وقيل أنه استشهد في حصار نهاوند سنة ٢١ هـ (الأعلام ٨٦/٥).

(٤) القادسية: موقع في العراق غربى النجف، وهي الآن محافظة لها أربعة أقضية قاعدتها الديوانية، حدثت بها معركة كبرى انتصر فيها المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص على الفرس بقيادة رستم سنة ١٤ هـ.

(٥) النشابة: السهم.

(٦) معنى: عار وشب فصرعني: أي انفلت وذهب ها هنا وها هنا، ورفع يديه، فآلقاني على الأرض.

ويروى: أن عَمراً حمل يوم القادسية على رستم^(١) - وهو الذي قدّمه
يزدجرد^(٢) ملك الفرس على قتال المسلمين - فاستقبل عمرو رستمًا على فيل
فقطع عرقوبه، فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خُرج كان عليه، فيه أربعون
ألف دينار، فقتل رستمًا، وانهزمت العجم - وروى أن قاتل رستم زنيم بن فلان.
وأما الضربة التي حكيناها التي حازت ثلث البيضة^(٣)، بما حوته من
الرأس، فلم يسمع بمثلها في جاهلية ولا إسلام، فحملتها الروم وعلقتها في
كنيسة لهم، وكانوا إذا غُيروا بانهزامهم، يقولون: لقينا أقواماً هذا ضربهم،
فيرحل أبطال الروم إليها ليروها.

وإنما كانت العرب تفخر في هذا الباب بقول النمر بن تولب^(٤) يصف
ضربة سيف.

أَبْقَى الْحَوَادِثَ وَالْأَيَّامَ مِنْ نَمْرِ آثَارُ سَيْفٍ قَدِيمٍ أَثَرُهُ بَادِي^(٥)
تَظَلُّ تَحْفَرُ عَنْهُ إِنْ ضُرِبَتْ بِهِ بَعْدَ الذَّرَاعِينَ وَالْقَيْدِينَ وَالْهَادِي^(٦)

وَيُنْشَدُ قَوْلُ النَّابِغَةِ^(٧) فِي السَّيْفِ أَيْضًا:

يَقْدُ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَيُوقِدُ بِالصُّفَّاحِ نَارَ الْحُبَّاحِبِ^(٨)

(١) رستم: القائد الفارسي الذي هزمه سعد بن أبي وقاص في القادسية سنة ١٤ هـ.

(٢) يزيد جرد: حمل هذا الاسم ثلاثة من ملوك الساسانيين الفرس أشهرهم ابن شاهبور الذي
اشتهر بعدله، أما هذا فهو يزيد جرد الثالث بن شهريار والذي قتله المسلمون في معركة القادسية سنة
١٤ هـ وبموته انقرضت دوله الفرس وقيل أنه قتل بعد هذا التاريخ.

(٣) أي القصة التي مرّت قبل صفحتين وفيها أن أهل بلده وجدوا قطعة من بيضة حديد (ص ٤٦١).

(٤) النمر بن تولب بن زهير العكلي - شاعر مخضرم كان من ذوى الهمة والوجاهة لم يمدح أحداً
ولا هجا وكان كريماً وهاباً لِماله، أدرك الإسلام وهو كبير السن فوفد على النبي ﷺ وكتب عنه كتاباً
لقومه يدعوهم للإسلام، وعاش إلى أن خرف وقيل مات سنة ١٤ هـ (الأعلام ٨/ ٤٨).
(٥) أثره بادي: يعني ظاهر مكشوف.

(٦) القيد: القدر والمنسافة. الهادي: العنق.

(٧) النابغة الذبياني الشاعر المشهور سبقت ترجمته.

(٨) يقْدُ: يمزق. السلوقي: الدروع، وسلوقية: نسبة إلى قرية باليمن اسمها سلوق. المضاعف
نسجه: أي الدروع المنسوجة على ضعفين. الصصفاح: الحجارة. الحبّاحب: دوية تضيء كالنار ليلاً.
والمعنى: أن هذا السيف يمزق الدروع المضاعفة الصنع، ومن شدة الضربة يصل للحجارة فتنقذ
منها النار.

وأين هذا من قدّ الحديد بما حواه من الرأس؟ وأين الثُّرَيّا من الثرى؟ وأين
الحسام من المنجل؟

ولولا كراهة التطويل لذكرنا من أمثال هذا ما فيه العجب، وقد قالوا:
السيف ظل الموت، السيف لُعاب المنيّة، والرمح رشاء^(١) المنيّة، والسهام
رُسل لا تُؤامر^(٢) من أرسلها، والرمح أخوك وربما خانك، والدرع مشغلة
للراجل^(٣) ومتعبة للفارس، وانها لحصن حصين، والترس يَجَنّ^(٤) وعليه
تدور الدوائر.

* * *

(١) الرشاء: هو الحبل الذي توصل به إلى ماء البئر.

(٢) لا تؤامر: أى لا تشاور.

(٣) الراجل عكس الفارس

(٤) يَجَنّ أى يستتر ويقي. ومنها المجن: وهو الدرع الساتر.

الباب الحادى والستون

فى ذكر الحروب وتدابيرها وحيلها وأحكامها

من حَزَمَ الملك : أن لا يُحَقِّرَ عدوه وإن كان ذليلاً ، ولا يغفل عنه وإن كان حقيراً ، فكم من برغوث أسهر فيلاً ، ومنع الرقاد ملكاً جليلاً .
وقال الشاعر :

فلا تحقرنَّ عَدُوًّا رَمَاكَ وإن كان فى ساعديه قَصَر
فإنَّ السيوفَ تحزُّ الرُّقَابَ وتعجز عَمَّا تَنَالُ الإِبْر

وفى الأمثال : لا تحقرن الذليل ، فربما شرق بالذباب العزيز .
ومثل العدو مثل النار ، إن تداركت أولها سهل إطفائها ، وإن تركت حتى استحکم ضرامها (١) ، صعب مرامها ، وتضاعفت بليتها .
ومثله أيضا : مثل الجرح الردىء ، إن تداركته سهل برؤه ، وإن أغفلته حتى نغل (٢) ، عَظُمَتْ بليته ، وأعيا الأطباء برؤه .

واعلموا : أن الناس قد وضعوا فى تدبير الحروب كتباً ، ورَتَّبوا فيها ترتيباً ، فلا يسعُ أهل سائر الأقاليم حملها ، إذ لكل أمة فى الغالب نوعٌ من التدبير ، وصنف من الحيلة ، وضربٌ من المكيدة ، وجنس من اللقاء ، والكر والفر وتعبية المراكب ، وحمل بعضهم على بعض .

ولكن نصفُ منه أشياء تجرى مجرى المعاهد (٣) ، لا تكاد تختلف فى إنهاء أزمة الحروب :

ونبدأ أولاً : بما ذكره الله تعالى فى القرآن قال الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] فقلوه ﴿ ما استطعتم ﴾ مشتمل على كل ما فى مقدور البشر من العدة ، والآلة ، والحيلة .

(١) استحکم ضرامها : اشتد اشتعالها وتمكن .

(٢) نغل : فسد .

(٣) المعاهد : الاعتقاد الجازم أو مواضع العقد .

وفسر النبي ﷺ القوة، فمرَّ على أناس يرمون، فقال: «ألا إنَّ القوة الرمي، إلا إنَّ القوة الرمي، ألا إنَّ القوة الرمي»^(١) وكان بعض أصحابه إذا أراد الغزو، لا يقص أظفاره، ويتركها عدة، ويرأها قوة.

فأول ذلك: أن يُقدِّم بين يدي اللقاء، عملاً صالحاً من صدقة وصيام، وردِّ مظلمة، وصلة رحم، ودعاء مخلص، وأمر بمعروف، وتغيير منكر، وأمثال ذلك، فقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يأمر بذلك، ويقول: إنما تقاتلون بأعمالكم.

وروى أن بريداً ورد عليه بفتح للمسلمين، فقال له عمر: أي وقت لقيتم العدو؟ قال: غدوة. قال: ومتى إنهزم؟ قال: عند الزوال. فقال: عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، وقام الشرك للإيمان من غدوة إلى الزوال؟! لقد أحدثتم بعدى حدثاً، أو أحدثت بعدكم حدثاً.

والشأن كلُّ الشأن: في استجادة القُود، وانتخاب الأمراء وأصحاب الولاية، فقد قالت حكماء العجم: (أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد) فلا ينبغي أن يُقدِّم على الجيش، إلا الرجل ذو البسالة والنجدة، والشجاعة والجرأة، ثبت الجنان^(٢)، صارم القلب جريئة، رابط الجأش، صادق البأس، ممن قد توسَّط الحروب، ومارس الرجال ومارسوه، ونازل الأقران، وقارع الأبطال، عارفاً بمواضع الفرص، خبيراً بمواقع القلب والميمنة والميسرة من الحروب، وما الذي يجب شحنه بالحماة والأبطال من ذلك، بصيراً بصنوف العدو ومواقع الغُرَّة منه^(٣)، ومواقع الشدة منه، فإنه إذا كان كذلك، وصدر الكل عن رأيه، كان جميعهم كأنه مثله، فإن رأى لقراع الكتائب^(٤)، وجهاً وإلا (ردَّ الغنم للزربية)^(٥).

واعلم: أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء، وآخر ما يجب ركوبه قرع الكتائب، وحمل الجيوش بعضها على بعض، فلنبداً بتصريف الحيلة في نيل الظفر.

(١) الحديث صحيح رواه الإمام مسلم عن عقبة بن عامر في كتاب الإمارة (باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه) رقم ١٩١٧ كما رواه أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن وهب.

(٢) ثبت الجنان: قوى القلب.

(٣) غُرَّة القوم: أى الأشراف من القوم وسادتهم.

(٤) القراع: أى القتال والنزال.

(٥) رد الغنم للزربية: كناية عن وقف القتال.

قال نصر بن سيار^(١): كنت أمير خراسان، من قبل مروان الجعدي^(٢) - آخر ملوك بني أمية - قال: وكان عظماء الترك يقولون: ينبغى للقائد العظيم القياد، أن يكون فيه عشرة أخلاق من أخلاق البهائم: شجاعة الديك، وبحث الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير^(٣)، وروغان الثعلب، وصبر الكلب على الجراح، وحراسة الكركي^(٤)، وغارة الذئب، وسمن نغير - وهي دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء^(٥).

وكان يقال: أشد خلق الله تعالى عشرة: الجبال، والحديد ينحت الجبال، والنار تأكل الحديد، والماء يطفئ النار، والسحاب تحمل الماء، والريح تصرف السحاب، والإنسان يقني الريح لحاجته^(٦)، والسكر يصرع الإنسان، والنوم يذهب السكر، والهـم يمنع النوم، فأشد خلق ربك الهـم.

فأول ذلك: أن يثبت جواسيسه في عسكر عدوه، يستعلم أخباره مع الساعات، ويستعلم رؤساءهم وقادتهم وذوى الشجاعة منهم، ويدس إليهم، ويعدهم وعداً جميلاً، ويوجه إليهم بضروب الخدعة، ويقوي أطماعهم في أن ينالوا ما عنده من الهبات الفاخرة، والولايات السنية^(٧)، وإن رأى وجهاً عاجلهم بالهدايا والتحف، وسألهم: إما الغدر بصاحبهم وإما اعتزاله وقت اللقاء، وينشيء على ألسنتهم كتباً مدلسةً إليه، ويبثها في عسكره، ويكتب على السهام أخباراً مزورة ويرمى بها في جيوشهم، ويضرب بينهم بما في الميسور من ذلك.

(١) نصر بن سيار: والى خراسان من قبل مروان بن محمد، وقد سبقت ترجمته.

(٢) مروان بن محمد ويلقب بمروان الحمار لتهوره وجرأته في الحروب ويلقب بمروان الجعدي نسبة إلى مؤذبه ومستشاره (الجعد بن درهم) وهو آخر خلفاء بني أمية وقد سبقت ترجمته.

(٣) حملة الخنزير: هجومه.

(٤) الكركي: طائر طويل الساق والعنق، ابتز الذئب قليل اللحم، يأوى إلى الماء أحياناً.

(٥) الصفة العاشرة لم يسجلها المصنف وقد ذكرها الذهبي في تاريخ الإسلام ٣٤/١، وذكر منها ما لم يذكره المصنف: حمل النملة أكثر من وزنها، تكبر النمر وعدم تواضعه، صبر الحمار.

(٦) كذا في (ط)، وفي (خ): [يبقي الريح لحاجته]. وفي المستطرف: [والإنسان يتقي الريح بجناحيه]، انظر: (المستطرف في كل فن مستظرف - للأبشيحي ١/٤٦٤).

(٧) السنية: العالية.

فإن جميع ما ذكرنا تُنفقُ فيه الأموال والحيل، واللقاء تُنفقُ فيه الأرواح والرؤوس، ووجوه الخداع فيه لا تحصى، والحاضر فيها^(١) أبصر من الغائب. ولله درُّ المهلب^(٢)، لما كتب إليه الحجاج، يستعجله في حرب الأزارقة^(٣)، رد الجواب فقال: إن من البلاء أن يكون الرأي عند من يملكه، لا عند من يبصره.

وقال المختار^(٤) ليزيد بن أنس^(٥) - حين ولاه الجزيرة وأمره بقتال عبيد الله بن زياد^(٦) - أمض إلى عدوك برأى غير مستبد، وبحزم غير متكل، ولا تركز إلى الدولة، فربما انقلبت، واستشر من لا يطمع في عملك ولا تسر بقلبك، واستخر الله تعالى قبل إقدامك توفّق.

وأوصت أم الذّيال العبسية ابنها الفتاك^(٧) - وهو من أشد العرب -: يا بني لا تنشب في حرب إن وثقت شدتك حتى تعرف وجه المهرب منها، فإن النفس أقوى شيء إذا وجدت سبيل الحيلة، وأضعف شيء إذا يئست منها، وأحمد الشدة ما كانت الحيلة مدبرة لها، إذا لم يكن النصر من الله تعالى فابذلها، واختلس من المحارب خلصة الذئب، وطّر منه طيران الغراب، فإن الحذر زمام الشجاعة، والتهور عدو الشدة.

(١) أي الحرب.

(٢) هو المهلب بن أبي صفرة الذي أرسله الحجاج لقتال الخوارج ثم قضى عليه وهو في إمارة خراسان في عهد عبد الملك بن مروان سنة ٨٣ هـ (الأعلام ٧/ ٣١٥).

(٣) الأزارقة: طائفة من الخوارج نسبة إلى نافع بن الأزرق قضى عليهم المهلب بن أبي صفرة.

(٤) هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي من الثائرين على بنى أمية واحد الشجعان الأفاذا كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في العراق، ولما قتل الحسين بن علي سنة ٦١ هـ انحرف لقتال عبيد الله بن زياد (قاتل الحسين) فحبسه ابن زياد ونفاه إلى الطائف، ولكن عاد إلى الكوفة في عهد ابن الزبير ليعتبع قتلة الحسين فقتل ابن زياد، ولكن مصعب بن الزبير (أمير البصرة) أراد إخضاع المختار فقاتله وقتله سنة ٦٧ هـ. (الأعلام ٧/ ١٩٢).

(٥) يزيد بن أنس المالكي الأسدي قائد من أصحاب المختار الثقفي وجهه المختار من الكوفة لدخول الموصل وكان فيها عبيد الله بن زياد فقاتله ابن زياد ومرض ومات في حروبه تلك سنة ٦٦ هـ (انظر: الأعلام ٨/ ١٧٩).

(٦) عبيد الله بن زياد هو عامل الأمويين في العراق وهو الذي قتل الحسين بن علي في كربلاء فقتله ابن الأشتر قائد جيش المختار الثقفي سنة ٦٧ هـ. (الأعلام ٤/ ١٩٣).

(٧) أم الذيال العبسية: في (خ): أم الدبال وابنها القتال.

وقال أبو السرايا^(١) - وكان أحد القتّال^(٢) - لابنه : يا بُنَيَّ : كن بحيلتك
أوثق منك بشدتك ، وبحذرِك أوثق منك بشجاعتك ، فإن الحرب حربُ التَّهَوُّرِ
وغنيمة الحذر .

واعلم : ان الدول إذا زالت ، صارت حيلها وبالا عليها ، وإذا أذن الله تعالى
في حلول البلاء ، كانت الآفة في الحيلة .

وقالت الحكماء : إذا نزل القضاء كان العطب^(٣) في الحيلة ، وإذا انقضت
مدة الدول أدبرت سُنَّةُ الغفلة عن سُنَّةِ الحذر ، ويَغلب الضعيف بإقبال دولته ،
كما يُغلب القوي بفناء مدته .

وقالوا : سعود الدول ونحوسها ، مقرونةٌ بسعود الملك ونحوسه .

وقالوا : أبهى زى كل امرئ دولته ، فإذا انقضت بدت عورته .

وقالوا : ربّ حيلة أهلك المحتال .

فمن الحزم المألوف عند سُوءِ الحروب : ان تكون حماة الرجال
وكُماة^(٤) الأبطال في القلب ، فإنه مهما انكسر الجناحان فالعيون ناظرة إلى
القلب ، فإذا كانت راياته تخفق ، وطبوله تُضرب ، كانت حصنا للجناحين ،
يأوى إليه كل منهزم ، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان ، مثال ذلك : الطائر
إذا انكسر إحدى جناحيه ، يرجى عوده ولو بعد حين ، وإن كُسِرَ الرأس ذهب
الجناحان ، ولا تُحصى كثرة انكسار جناحي العسكر وثبات القلب ، ثم يرجع
الفارون إلى القلب ، ويكون الظفر لهم ، وقلّ عسكر انكسر قلبه فأفلح أو
تراجع ، اللهم إلا أن يكون مكيدة من صاحب الجيش ، فيُخِلَّ القلبُ قصداً
وتعمداً ، ولا يغادر به كبير أمر ، حتى إذا توسطه العدو ، اشتغل بنهبه ،
وأطبقت عليه الجناحان .

(١) أبو السرايا : هو السري بن منصور الشيباني خرج بالكوفة داعياً لولد علي بن أبي طالب رضى
الله عنه فهرب حين فتحت الكوفة ، ثم ألقى القبض عليه وأرسل إلى الحسن بن سهل وزير الخليفة
المأمون فقتله وصلبه ببغداد بقطعتين ، قطعة في الجانب الشرقي وقطعة في الجانب الغربي (المحبر -
ابن حبيب ص ٤٨٩) ، و(النجوم الزاهرة ٢ / ١٦٦) .

(٢) في (خ) الفتاك . القتال : أى كثير القتل (صيغة مبالغة) .

(٣) العطب : الهلاك .

(٤) الكُماة : الشجعان أو لابسى السلاح .

ومن أعظم المكايد في الحرب الكُمْناء^(١)، ولا يحصى كثرة كم من
عسكر استبيحت بيضته، وقلّ عزمه بالكُمْناء، وذلك: أن الفارس لا يزال
على حمية في الدفاع وحمى الدّمار^(٢)، حتى يلتفت فيرى وراءه بنداً^(٣)
منشوراً، أو يسمع ضرب الطُّبول، فحينئذ همته خلاص نفسه، ولتكن همّتكَ
وراء ذلك، وعليه مدار الحروب في اصصطناع^(٤) الشجعان، واختيار
الأبطال، فاصطنع ذوى البسالة والإقدام والجرأة، ولا عليك أن لا يكثروا،
وبعيد عليك أن يكثروا، ولا تنس بيت الشاعر:

والناسُ أَلْفٌ منهم كواحدٍ وواحدٌ كالألف إن أمرٌ عني^(٥)
بل قد جُربَ ذلك فوجد الواحد منهم خيراً من عشرة آلاف، وسأحكى لك من
ذلك ما تقضى منه العجب، فهم في الجيش وإن قلوا، كالأنفحة^(٦) في اللبن.

فمن ذلك: لما التقى المستعين بن هود^(٧)، مع الطاغية ابن ردميل
النصراني على مدينة (وشقة)^(٨) في ثغور بلاد الأندلس وكان العسكران
كالمتكافئين، كل واحد منهما يراهاق^(٩) عشرين ألف مقاتل بين خيل ورجل،
فحدثني رجلٌ ممن حضر الواقعة من الأجناد، قال: لما دنا اللقاء، قال الطاغية
ابن ردميل لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله: استعلم من في

(١) الكمناء: هم القوم الذين يستخفون في مكنن ثم ينتهزون غرة القوم فينقضون عليهم.

(٢) الدمار: كل ما يلزمك حمايته، فيقال فلان حامى الدمار: إذا حمى ما لو لم يحمه عُنْفٌ ولِمْ.

(٣) اصصطناع: اختيار. (٤) أمر عني: وقع.

(٥) البند: العلم الكبير. ويندأ منشوراً: علماً مرفوعاً.

(٦) الأنفحة: شيء يستخرج من بطن الجدى قبل أن يطعم غير اللبن، فيعصر في صوفه مبتلة في

اللبن فيغلظ كالجبين.

(٧) المستعين بن هود سليمان بن محمد بن حمود أبو أيوب من ملوك الطوائف في الأندلس
ومؤسس الدولة اليهودية توفي سنة ٤٣٨ هـ هو المقصود هنا (المستعين الصغير) وهو أحمد بن يوسف
بن أحمد بن سليمان بن حمود فهو رابع ملوك الدولة اليهودية من دول الطوائف في الأندلس والذين كانوا
يقيمون في سرقسطه، ولى بعد وفاة أبيه سنة ٤٧٨ هـ وكان من الغزاة، وله وقائع مع الأفرنج، ووقعت في
أيامه معركة (وشقة) سنة ٤٨٩ هـ أو سنة ١٠٩٦ م والتي قيل أنه قتل فيها نحو عشرة آلاف من جيشه،
واستمر في الإمارة إلى أن قتل بظاهر سرقسطه وهو يدافع عنها سنة ٥٠٣ هـ (الأعلام ١/ ٢٧٣).

(٨) وشقة: مدينة بالأندلس شرقي مدينة سرقسطه، وهي مدينة كبيرة قديمة رائعة البنيان فيها
أكثر من ستين مسجداً، حاصرها المسلمون منذ الفتح الإسلامي حصاراً طويلاً حتى فتحوها سنة ٩٥ هـ
وينتسب إليها الكثير من أهل العلم.

(٩) يراهاق: أى يكافئ، يقال: كانوا رهاق مائة أى زهاء ومقدار مائة.

عسكر المسلمين من الشجعان، الذين نعرفهم كما يعرفوننا، ومن غاب منهم ومن حضر، فذهب ثم رجع، فقال: فيهم فلان وفلان، حتى عد سبعة رجال، قال: انظر الآن من في عسكرى من الرجال المعروفين بالشجاعة ومن غاب منهم، فعدّوهم فوجدوهم ثمانية رجال لا يزيدون، فقام الطاغية ضاحكا مسرورا، وهو يقول: يا بياضك من يوم، ثم ناشب الحرب^(١) بينهم، فلم تزل المصابرة بين الفريقين، لم يُولَّ أحدهم دُبْرَه، ولا ترحزح عن مُقامه، حتى فنى أكثر العسكرين، ولم يفرّ واحدٌ منهم، فلما كان وقت العصر، نظروا إلينا ساعة، ثم حملوا علينا حملة واحدة، وداخلونا مداخلة، ففرقوا بيننا، وصارنا شطرين، وحالوا بيننا وبني أصحابنا، وصاروا بيننا، فكان ذلك سببُ وهننا وضعفنا، ولم نُقِم الحرب إلا ساعة ونحن في خسارة معهم، فأشار مقدّمو العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه، وانكسر عسكر المسلمين وتفرق جمعهم، وملك العدو مدينة وشقة.

فليعتبر ذو الحزم والبصيرة، من جمع يحتوى على أربعين ألف مقاتل، ولا يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر رجلاً، وليعتبر بضمان العلاج^(٢) بالظفر، واستبشاره بالغنيمة لما زاد في أبطاله رجل واحد.

وسمعت أستاذنا القاضى أبا الوليد الباجى^(٣) رحمه الله، يخكى، قال: بينما المنصور بن أبى عامر^(٤) فى بعض غزواته إذ وقف على نَشَرٍ من الأرض مرتفع، فرأى جيوش المسلمين بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه ويساره، قد ملئوا السهل والجبل، فالتفت إلى مُقدّم العسكر، وهو رجل يعرف (بابن المصحفى)^(٥) فقال: كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير؟ قال ابن المصحفى: أرى جمعاً كثيراً، وجيشاً واسعاً، فقال له المنصور: لا يعجزُنا أن يكون فى هذا الجيش، ألف مقاتل من اهل الشجاعة والبسالة؟ فسكت ابن المصحفى. فقال المنصور: وما سكوتك؟ أليس فى هذه الجيوش ألف مقاتل؟

(١) يُقال نشبت الحرب أو ناشبه الحرب أي نابذه.

(٢) العلاج: الرجل الضخم القوى من كفار العجم والمقصود (ابن ردميل النصرانى)

(٣) أبو الوليد الباجى القاضى سليمان بن خلف معلم الطرطوشي وصديقه، سبقت ترجمته.

(٤) المنصور بن أبى عامر أمير الأندلس، سبقت ترجمته.

(٥) هو جعفر بن عثمان أبو الحسن الحاجب الكاتب الوزير - سبقت ترجمته.

قال : لا . قال : فتعجب المنصور ثم انعطف عليه فقال : أفيهم خمسمائة رجل من الأبطال المعدودين ؟ قال : لا . فحنق المنصور ثم أنعطف عليه ، فقال : أفيهم مائة رجل من الأبطال ؟ قال : لا . قال : أفيهم خمسون من الأبطال ؟ قال : لا ؟ قال : فسبّه المنصور واستخفّ به ، وأمر به ، فأخرج على أقبح صفة .

فلما توسطوا بلاد المشركين اجتمعت الروم وتصافّ الجمعان ، فبرز عِلاج^(١) من الروم بين الصفين ، شاك في سلاحه^(٢) يكر ويفر ، وهو ينادى : هل من مبارز ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين ، فتجاولا ساعة ، فقتله العالج ، ففرح المشركون . وصاحوا ، واضطرب لها المسلمون ثم جعل العالج يمر بين الصفين وينادى : هل من مبارز ؟ اثنين لواحد ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين ، فتجاولا ساعة فقتله العالج ، وجعل يكر ويحمل وينادي هل من مبارز ؟ ثلاثة لواحد ؟ فبرز إليه رجل [من المسلمين]^(٣) فقتله العالج ، فصاح المشركون ، وذُلّ المسلمون ، وكادت تكون كسرة ، فقبل للمنصور : ما لها غير ابن المصحفى ، فبعث إليه فحضر ، قال له المنصور : ألا ترى ما يصنع هذا العالج الكلب منذ اليوم ؟ قال : بعينى جميع ما جرى ، قال : فما الحيلة فيه ؟ قال : ما الذى تريد ؟ قال : أن تكفى المسلمين شرّه ، قال : نعم الآن .

ثم قصد إلى رجال يعرفهم ، فاستقبله رجل من أهل الثغور ، على فرس قد نشزت أوراكها^(٤) هُزالا ، وهو يحمل قربة ماء بين يديه على الفرس ، والرجل فى نفسه وحليته غير متصنع . فقال له ابن المصحفى : ألا ترى ما يصنع هذا العالج منذ اليوم ؟ قال : قد رأيته ، فماذا ترى فيه ؟ قال : أريد رأسه الآن . قال : نعم ، فحمل القربة إلى رحله ، ولبس لامة حرب^(٥) ، وبرز إليه ، فتجاولا ساعة ، فلم ير الناس إلا المسلم خارجا إليهم يركض ، ولا يدرون ما هنالك ، وإذا الرجل يحمل رأس العالج ، فألقى الرأس بين يدى المنصور ، فقال له ابن

(١) العالج : الرجل الضخم القوى من كفار العجم وبعضهم يطلقه على الكافر عموماً .

(٢) من الشوكة وهى القوة والبأس والحدة فى السلاح .

(٣) [من المسلمين] سقطت فى (ط) .

(٤) الورك : ما فوق الفخذ كالكتف فوق العضد والمقصود أن هذه الفرس هزيلة قد بانّت عظامها .

(٥) لامة الحرب : أى الدرع وسميت لامة لإحكامها وجودة حلقها وتعنى هنا عدة الحرب .

المصحفي: عن هؤلاء الرجال أخبرتك، إنه ليس في عسكريك منه ألف، ولا خمسمائة، ولا مائة، ولا خمسون، ولا عشرون، ولا عشرة. فرد ابن المصحفي إلى منزله وأكرمه.

واعلم أن أول الحرب شكوى، وأوسطها نجوى، وآخرها بلوى، الحرب شعشاء^(١) عابسة^(٢)، شوهاء^(٣) كالحة^(٤)، حرور^(٥) في حياض الموت، شמוש في الوطيس^(٦)، تتغذى بالنفوس، الحرب أولها الكلام وآخرها الحمام^(٧) مرة المذاق إذا قلصت عن ساق^(٨)، من صبر فيها عرف، ومن ضَعَف عنها تلف، جسم الحرب الشجاعة، وقلبها التدبير، وعينها الحذر، وجناحها الطاعة، ولسانها المكيدة، وقائدها الرفق، وسائقها النصر.

وقال الرسول ﷺ «الحرب خدعة»^(٩) وقالوا: الحرب غشوم، سميت بذلك لأنها تتخطى إلى غير الجاني.

قال الشاعر:

لم أكن من جناتها علم الله
وقال آخر:

رأيت الحرب يجنيها أناس
وقال آخر:

الحرب أول ما تكون فتية
حتى إذا اضطربت وشب ضرامها
شمطاء ينكر لونها وتغيرت
تسعى ببزتها لكل جهول^(١٠)
عادت عجوزا غير ذات خليل^(١١)
مكروهة للشتم والتقيل^(١٢)

(١) الشعث: انتشار الأمر.

(٢) الشوهاء: القبيحة.

(٣) الحرور: الريح الحارة.

(٤) الحمام: الموت.

(٥) قلصت عن ساق: كشفت، وكل هذه الصفات تدل على قبح الحرب وشدةها.

(٦) الحديث: رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن جابر وأبي هريرة وعن

أنس وغيرهم والحديث صحيح (الجامع الصغير رقم ٣٨١٢).

(٧) البزة: الهيئة.

(٨) اضطربت النار: اشتعلت.

(٩) الشمطاء: من خالط بياض شعر رأسها سواداً.

وقال بعض الحكماء: قد جمع الله تعالى آداب الحرب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿[الأنفال: ٤٥، ٤٦].

واستوصى قوم أكثم بن صيفي^(١) في حرب أرادوها، فقال: أَقْلُوا الخلاف على أمرائكم، واعلموا: أن كثرة الصياح فشل، ولا جماعة لمن اختلف، وثبتوا فإن أحزم الفريقين الركين^(٢).

وقال عتبة بن ربيعة^(٣) يوم بدر لأصحابه: ألا ترون أصحاب محمد جثياً على الركب كأنهم خرس^(٤)، يتلمظون تلمظ الحيات^(٥).

ورأيت غير واحد ممن ألف في الحروب، يكره رفع الصوت بالتكبير ويقولون: يذكر الله في نفسه.

وأعلم أرشدك الله تعالى: أن الله تعالى قد أوضح لنا في كتابه علة النصر وعلة الهزيمة والفرار فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] يعني أن تنصروا رسوله ودينه.

وأما الفرار: فعلته المعاصي، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]، أى بشؤم ذنوبهم وتركهم المركز الذى رسمه لهم رسول الله ﷺ.

وذلك أنه ﷺ رتب الرماة يوم أحد على ثلثة الجبل، ليمنعوا قريشاً أن يخرجوا عليهم كميناً من ذلك الموضع، ثم التقى المسلمون فانهزم الكفار،

(١) أكثم بن صيفي: حكيم العرب فى الجاهلية. سبقت ترجمته. ومعنى استوصوه: أى طلبوا وصيته ورأيه.

(٢) الركين: الثابت.

(٣) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أبو الوليد كبير قريش وأحد ساداتها فى الجاهلية، كان موصوفاً بالرأى والحلم، قيل أنه توسط للصلح فى حرب الفجار بين هوازن وكتانة أدرك الإسلام وطفى حارب المسلمين فى بدر فقتل فيها هو وابنه الوليد وأخوه شيبة. (الأعلام ٤ / ٢٠٠).

(٤) الخرس والخرسان من بهم خرس أى انعقد لسانهم فلا يسمع لهم صوت.

(٥) تلمظت الحية: أى أخرجت لسانها ولمظ الرجل لمظاً: أى أخرج لسانه بعد الأكل أو الشرب فمسح به شفتيه، والمقصود أنهم يتحفزون للانقضاض.

فقال الرماة : لا تفوتنا الغنائم . فأقبلوا على الغنائم وتركوا المركز الأول ، فخرجت خيل المشركين من هناك ، وأقبلوا على المسلمين ، فكانت مقتلة أحد^(١) .

وليُخَفَّ قائد الجيش العلامة التي هو مشهور بها ، فإنَّ عدوّه قد يستعلم حيلته ، وألوان خيله ورايته ، ولا يلزم خيمته ليلاً ونهاراً وليبدّل زيّه ويغير خيمته ، ويَعْمَى مكانه كي لا يلتبس عدوّه غُرته .

وإذا سكنت الحرب ، فلا يمش في النفر اليسير من قومه خارج عسكره ، فإنَّ عيون عدوه قد انكبّت عليه .

وعلى هذا الوجه ، كسر المسلمون جيوش إفريقية عند فتحها ، وذلك أن الحرب سكنت في وسط النهار ، فخرج مُقدّم العدو يمشي خارج العسكر ، يتميز عساكر المسلمين ، فجاء الخبر إلى عبد الله بن أبي السرح^(٢) وهو نائم في قُبته ، فخرج فيمن وثق به من رجاله ، وحمل على العدو ، فقتل الملك ، وكان الفتح .

ولما عبر طارق^(٣) مولى موسى بن نصير^(٤) - إلى بلاد الأندلس ليفتحها ، وموسى إذ ذاك بإفريقية ، خرجوا في الجزيرة الخضراء ، وتحصّنوا في الجبل

(١) قصة النفر هؤلاء صحيحة رواها البخاري عن البراء عن عازب في المغازي وفي تفسير سورة آل عمران وفي الجهاد ورواها أبو داود في الجهاد باب في الكمائن رقم (٢٦٦٢) .

(٢) عبد الله بن سعد بن أبي السرح القرشي ، فاتح إفريقية من أبطال الصحابة ، أسلم قبل فتح مكة وهو من أهلها ، وكان من كتاب الوحي وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين فتح مصر وولى مصر سنة ٢٥ هـ بعد عمرو لمدة ١٢ سنة زحف خلالها إلى إفريقية بجيش فيه الحسن والحسين أبناء علي رضي الله عنهم أجمعين ففتح ما بين طرابلس وطنجة كما غزا الروم بحرا وانتصر في معركة « ذات الصواري » سنة ٣٤ هـ وأخباره كثيرة جدا ، مات بعسقلان فجأة وهو قائم يصلي سنة ٣٧ هـ (الأعلام ٤ / ٨٨) .

(٣) طارق بن زياد ، فاتح الأندلس أصله من البربر وقد أسلم على يد موسى بن نصير فكان من أشد رجاله ولما تم لموسى فتح طنجة ولاء عليها ثم جهز جيشاً لفتح الأندلس وولى عليه طارق بن زياد فاجتاز المضيق واستولى على الجبل الذي سمي باسمه وفتح قرطاجنة وكان قد احرق السفن ، حتى لا يفكر أحد في الفرار ، وأخباره كثيرة منها أن موسى عاقبة بالعزل لتوغله في الفتح وأن الوليد بن عبد الملك أصلح ما بينه وبين موسى وعاد للفتوحات وقد مات سنة ١٠٢ هـ (الأعلام ٣ / ٢١٧) .

(٣) موسى بن نصير بن عبد الرحمن اللخمي ، أصله من الحجاز (وادي القرى) كان أبوه على حرس معاوية فنشأ في دمشق وولى غزو البحر لمعاوية فغزا قبرص وبنى فيها حصونا ، وكان على خراج البصرة في عهد الحجاج ، وفي عهد الوليد بن عبد الملك تولى إفريقية الشمالية وما وراءها فأقام في القيروان ومنها وجه الجيوش لفتح المغرب والأندلس ، وقد كان شجاعاً عاقلاً كريماً لم يهزم له جيش قط ، وقد رجع للشام ثم حج مع سليمان بن عبد الملك وتوفي في المدينة سنة ٩٧ هـ (سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٩٦) .

الذى يسمى اليوم: (جبل طارق)، وهم فى ألف وتسعمائة رجل، فطمعت الروم فيهم، فاقتتلوا ثلاثة أيام، وكان على الروم «تدمير» استخلفه لذريق^(١). - ملك الروم - وكان قد كتب إلى لذريق يعلمه أن قوماً لا ندرى أمن الأرض أم من السماء قد وصلوا إلى بلادنا، وقد لقيتهم، فانهض إلى بنفسك، فأتاه لذريق فى تسعين ألف عنان، ولقيهم طارق وعلى خيله مغيث الرومى^(٢). - مولى للوليد بن عبد الملك - فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة، فقام فحضرهم على الصبر، ورغبهم فى الشهادة، وبسط فى آمالهم، ثم قال: أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، فليس إلا الصبر منكم، والنصر من ربكم، وأنا فاعل شيئاً فافعلوا كفعلى، فوالله لأقصدن طاغيتهم، فإما أن أقتله، وإما أن أقتل دونه، فاستوثق طارق من خيله، وعرف حلية (لذريق) وعلامته وخيمته، ثم حمل مع أصحابه عليه حملة رجل واحد، فقتل الله تعالى (لذريق) بعد قتل ذريع فى العدو، وحمى الله تعالى المسلمين فلم يقتل منهم كثير، وانهزم الروم، فأقام المسلمون يقتلونهم ثلاثة أيام، واحتز طارق رأس (لذريق) وبعث بها إلى موسى، وبعث بها موسى إلى الوليد بن عبد الملك، وسار مغيث إلى قرطبة^(٣) وسار طارق إلى طليطلة^(٤)، ولم يكن همّه غير المائدة^(٥) التى يذكر أهل الكتاب أنها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام، فدفع إليه ابن أخت لذريق المائدة والتاج، فقومت المائدة بمائتى ألف، لما فيها من الجواهر التى لم ير مثلاً لها.

(١) لذريق: ملك الفرنج بالأندلس وكان السابع والعشرين من ملوكهم والمشهور من القول أن طارق بن زياد قتله فى هذه الموقعة، أما (تدمير) فهو الذى استخلفه لذريق على المملكة لأنه كان قد قصد عدواً فى مكان آخر وإلى هذا تنسب بلاد تدمر فى الأندلس. [نفع الطيب ١ / ٢٤٠ وما بعدها].

(٢) مغيث الرومى: ليس برومى على الحقيقة بل هو مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني، سبى من الروم وهو صغير ثم أدبه الخليفة عبد الملك بن مروان مع ولده وأنجب وصار منه (بنو مغيث) من سادات قرطبة، وكان وجهه عبد الملك إلى الأندلس مع طارق بن زياد فقدمه طارق لفتح قرطبة مع سبعمائى فارس وفتحها سنة ٩٢ هـ وأسر ملكها وبقي نسله فى قرطبة مات نحو سنة ١٠٠ هـ (الأعلام ٧ / ٢٧٦).

(٣) قرطبة: عاصمة الدولة الأموية فى الأندلس وعاصمة بنى هود من ملوك الطوائف.

(٤) طليطلة: تقع جنوب مدريد، اشتهرت فى الأندلس عاصمة لبنى ذى النون من ملوك الطوائف واشتهرت كمركز عالمى لصناعة السيوف الرماح.

(٥) ذكر ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان ٥ / ٣٢٣ وما بعدها أصل خبر بيت الحكمة والمفتاح على بابهِ وبداخله هذه المائدة، فانظر إليها، وكذلك المقرئ التلمساني فى نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١ / ٢٤٣-٢٤٥.

وبهذه الحيلة قهر ألب أرسلان^(١) ملك الترك، ملك الروم^(٢)، وقمعه وقتل رجاله وأباد جمعه، وكانت الروم قد جمعت جيوشاً، يقلُّ أن يُجمع لمن بعدهم مثلها، وكان مبلغُ عددهم ستمائة ألف مقاتل، كتائب متواصلة، وعساكر مترادفة وكراديس^(٣) يتلو بعضها بعضاً، لا يدركهم الطرف^(٤)، ولا يحصيهم العدد، وقد استعدوا من الكراع^(٥) والسلاح، والمجانيق^(٦)، والآلات المعدة لفتح الحصون في الحرب بما لا يحصى، وكانوا^(٧) قد قسموا بلاد المسلمين: الشام، ومصر، والعراق، وخراسان، وديار بكر، ولم يشكّوا أن الدولة قد دارت لهم، وإن نجوم السُّعود قد خدمتهم، ثم استقبلوا بلاد المسلمين، فتواترت أخبارهم إلى بلاد المسلمين، واضطربت لها ممالك الإسلام، فاحتشد للقائهم ألب أرسلان التركي، وهو الذي يسمى - الملك العادل -، وجمع جموعه بمدينة أصبهان - واستعد بما قدر عليه، ثم خرج يؤمهم فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين، وقالوا لألب أرسلان: غدا يتراءى الجمعان، فبات المسلمون ليلة الجمعة، والروم في عدد لا يحصيهم إلا الذي خلقهم، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع، فبقى المسلمون واجمين^(٨) لما دهاهم^(٩)، فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة، نظر بعضهم إلى بعض، فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدو، وقوتهم وآلاتهم، فأمر ألب أرسلان أن يُعدّ المسلمون، فبلغوا إثني عشر ألف

(١) السلطان ألب أرسلان الملقب بسلطان العالم ابن داود جفرى بك بن ميكائيل بن سلجوق التركي، صاحب الممالك المتسعة ملك بعد عمه طغرل بك، كان عادلاً كريماً رحيماً بالرعية كثير الصدقات وكان وزيره نظام الملك الذي سبق وعرفنا به، اغتيل سنة ٤٦٥ هـ (بغية الطلب في تاريخ حلب ٤ / ١٩٧١).

(٢) هو الملك أرمانوس، هزمه السلطان ألب أرسلان في (ملاذ كرد) سنة ٤٦٤ هـ وأسره وقمع رجاله كما في النص. (الكامل في التاريخ ٨ / ٣٨٧).

(٣) الكراديس طائفة عظيمة من الخيل والجيش.

(٤) الطرف: البصر أو العين.

(٥) الكراع: اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير.

(٦) المجانيق: جمع منجنيق وهي الآلة الحربية التي كانوا يرمون بها.

(٧) أي الروم.

(٨) وجم وجوما: سكت وعجز عن الكلام إما من الغيظ أو الخوف.

(٩) دهاهم: أصابتهم داهية والداهية هي المصيبة أو الأمر العظيم.

تركى، وإذا هم منهم كالرّقمة^(١) فى ذراع الحمار، فجمع ذوى الرأي من أهل الحرب والتدبير والشفقة على المسلمين والنظر فى العواقب، واستشارهم فى استخلاص صواب الرأي، فتشاوروا برهة، ثم أجمع رأيهم على اللقاء، فتوابع القوم وتحالفوا، وناصحوا الإسلام وأهله، ثم تآهبوا أهبة اللقاء، وقالوا لألب أرسلان: نسمى الله تعالى ونحمل على القوم، فقال ألب أرسلان: يا معشر أهل الإسلام، أمهلوا فإن هذا يوم الجمعة، والمسلمون يخطبون على المنابر، ويدعون لنا فى شرق البلاد وغربها، فإذا زالت الشمس، وفاءت الأفياء^(٢)، وعلمنا أن المسلمين قد صلوا ودعوا لنا وصلينا نحن، عملنا أمرنا، فصبروا إلى أن زالت الشمس، ثم صلوا ودعوا الله تعالى أن ينصر دينه، وأن يربط على قلوبهم بالصبر، وأن يوهن عدوهم، وأن يلقي فى قلوبهم الرعب، وكان ألب أرسلان قد استوثق من خيمة ملك الروم وعلامته وفرسه وزيه ثم قال لرجاله: لا يتخلف أحدكم أن يفعل كفعلى، ويضرب بسيفه، ويرمى بسهمه، حيث أضرب بسيفى وأرمى بسهمى، ثم حمل جميعهم حملة رجل واحد إلى خيمة ملك الروم، فقتلوا من كان دونها، فخلصوا إليه وقتل من حوله، وأسر ملك الروم، وجعلوا ينادون بلسان الروم: قُتل الملك، فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل، فتبددوا وتمزقوا كل ممزق، وعمل السيف فيهم أياماً، وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم، واستحضر ملك الروم بين يدي ألب أرسلان بحبل فى عنقه، فقال له ألب أرسلان: ما كنت تصنع بي لو أخذتني؟ قال: فهل تشك أني كنت أقتلك؟ فقال له ألب أرسلان: أنت أقل فى عيني من أن أقتلك، اذهبوا به وبيعوه فيمن يزيد، فكان يقاد بالحبل فى عنقه، وينادى عليه: من يشتري ملك الروم؟ ومازالوا كذلك يطوفون به على الخيام ومنازل المسلمين، وينادى عليه بالدرهم والفلوس، فلم يدفع فيه أحد شيئاً، حتى باعوه من إنسان بكلب، فأخذ الذى كان تولى ذلك من أمره الكلب والملك، وحملهما إلى ألب أرسلان، وقال: قد طفت جميع العسكر وناديت عليه، فلم يبذل فيه أحد شيئاً، إلا رجل واحد دفع لى فيه كلباً، قال: قد أنصف، لأن

(١) الرقم: العلامة أو اثر الكى. والعبارة كناية عن قلة عددهم أمام حشود الروم.

(٢) فاءت الأفياء: أى صارت لذوات الظل ظلال وذلك ما بين الزوال إلى الغروب.

الكلب خيرٌ منه، فاقبض الكلب وادفع إليه هذا الكلب^(١). ثم أنه أمر بعد ذلك بإطلاقه، فذهب إلى قسطنطينية^(٢)، فعزلته الروم، وكحلته بالنار. فانظر: ماذا يتأتى على الملوك إذا عرفوا في الحروب من الحيلة والقصد في المكيدة.

واعلم: أن القدماء قالوا: الكثرة للرعب والقلّة للنصر. وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] فالكثرة أبدا يصحبها الإعجاب، ومع الإعجاب الهلاك، وخير الأصحاب أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يغلب جيش يبلغ اثني عشر ألفا من قلة إذا اجتمعت كلمتهم.

فأما صفة اللقاء - وهو أحسن ترتيب رأيناه في بلادنا، وهو أرجى تدبير نفعله في لقاء عدونا: - أن نُقدِّم الرِّجَالَةَ بالدَّرَقِ^(٣) الكاملة والرماح الطوال، والمزاريق^(٤) المسنونة النافذة، فيصفّوا صفوفهم، ويركّزوا مراكزهم، ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض، وصدورهم شارعة إلى عدوهم، وهم جاثمون في الأرض، وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبته اليسرى، وترسه قائم بين يديه، وخلفهم الرُّمّة المختارون، التي تمرق سهامهم من الدروع، والخيّل خلف الرُّمّة، فإذا حملت الروم على المسلمين، لم تتزعزع الرِّجَالَةُ عن هياتها، ولا يقوم رجل منهم على قدميه، فإذا قرب العدو رشقهم الرُّمّة بالنشّاب^(٥)، والرِّجَالَةُ بالمزاريق، وصدور الرماح تلقاهم، فأخذوا يمينه ويسرة، فتخرج خيل المسلمين بين الرُّمّة والرِّجَالَةَ، فتنال منهم ما شاء الله.

ولقد حدثني من حضر مثل هذه الواقعة في بلدي (طرطوشة)^(٦) قال:

(١) يعني ملك الروم.

(٢) القسطنطينية هي بيزنطة القديمة، أعاد بناءها قسطنطين ودعاها باسمه فكانت مقر الإمبراطور وعاصمة الإمبراطورية البيزنطية السياسية والدينية والثقافية وقد فتحها السلطان العثماني محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م أو سنة ٨٥٧ هـ فأصبحت عاصمة العثمانيين وسميت الآستانة أو استانبول. (معجم البلدان ٤ / ٣٤٧).

(٣) الرِّجَالَةُ: جمع راجل وهو الماشي على رجله، ويقصد المشاة غير الخيالة. والدرق: التروس.

(٤) المزاريق: الرماح القصيرة. (٥) النشّاب: السهام.

(٦) طرطوشة: بلد أبي بكر الطرطوشي المؤلف - سبق التعريف بها.

صاففت الروم على هذا الترتيب، فحملوا علينا، فبينما رجلٌ منا كان في آخر الصف فقام على قدميه، فحمل عليه عِلج^(١) من العدو فأصاب غُرَّتَه فقتله.

ولما برز المقتدر بالله بن هود^(٢) ملك الأندلس، من سرقسطه - في ثغور بلاد الأندلس - للقاء الطاغية رُدْمِيلَ عظيم الروم، وكان كل واحد منهم قد احتشد بما في ميسوره، فالتقى المسلمون والكفار، ثم تنازلوا للقتال وتصاففوا، ودام القتال بينهم صدراً كبيراً من النهار، وكان المسلمون في خُسْران، فَأَفْرَعُ المقتدر ذلك، وَفَرَّقَ المسلمون^(٣) من شر ذلك اليوم، فدعا المقتدر رجلاً من المسلمين، لم يكن في الثغور أعرف بالحرب منه يسمى (سعدارة) فقال له المقتدر: كيف ترى في هذا اليوم؟ فقال سعدارة: هذا يوم أسود، ولكن قد بقيت لي حيلة، فذهب سعدارة - زِيَهُ زِيَ الروم وكلامه كلامهم، لمجاورتهم وكثرة مخالطتهم - فانغمس في عسكر الكفار، ثم صعد إلى الطاغية (رُدْمِيلَ)، فألفاه شاكاً في السلاح^(٤)، مكفناً في الحديد، لا يظهر منه إلا عيناه، فجعل يتخيَّله ويطرصد غُرَّتَه^(٥)، إلى أن أمكنته الفرصة، فحمل عليه فطعنه في عينه فخر صريعاً لليدين والقم، ثم جعل ينادى بلسان الروم: قُتِلَ السلطان يا معشر الروم، فشاع قَتْلُهُ في العسكر، فتخاذلوا وولوا منهزمين، وكان الفتح بإذن الله.

ولما استضعف الروم صِقْلِيَّةً وضربوا عليهم الخراج، فكانوا يحملون إليهم الخراج، ويحملون الأموال إلى العرب بإفريقية، ويستنجدون بهم على الروم، فقال لهم ملك الروم: إنما مثلي ومثلكم يا أهل صقيلية، مثل رجل له زوجتان: عجوز وصبية، فكان إذا بات عند الصبية تَلْقَطُ الشيب من لحيته

(١) العِلج: الرجل الضخم القوي من كفار العجم.

(٢) المقتدر بالله بن هود ثاني ملوك الدولة الهودية من دول الطوائف وعاصمتهم سرقسطه (سبق التعريف بوالده المستعين بالله، وكيف قسم مملكته على أبنائه في حياته...) وقد احتال أحمد هذا على أخوته واعتقلهم وسمل أعينهم إلا واحدا منهم، وفي أيام المقتدر هذا اقتحم الروم مدينة (بشتر) وارتكبوا فيها الفظائع فقاومهم وانتصر عليهم في منطقة وانبسطت أيديهم في أخرى. ومات بسرقسطه سنة ٤٧٥ هـ (الأعلام - الزركلي ج ١ / ١٣٢).

(٣) فرق المسلمون: خافوا كثيراً.

(٤) شاكا أو شائكا في السلاح أى وجده ذا شوكة وحدة في سلاحه مستعداً للقتال.

(٥) يترصد غُرَّتَه: ينتظر ساعة غفلته، وليأخذه على حين غرّة (غفلة).

لُتَصْبِيهِ^(١)، فيزهّد في العجوز، وإذا بات عند العجوز، تلتقط الشعر الأسود من لحيته لُتُشْيَخَهُ^(١)، فتزهّد الصبيّة فيه، فيوشكُ إن دام هذا به أن يصبح أطلس^(٢). كذلك حالكم معي ومع العرب، إذا أدبتم المال لي ولهم، يوشك أن تنفذ أموالكم، فتبقوا فقراء ضغفاء، فأتسلمكم وأتسلم البلاد.

ويروى أنه لما همّ بحصار صقلية، أمر أن يُبسط بساطٌ في الأرض، ثم جعل في وسطه ديناراً، ثم قال لوجوه رجاله: من أخذ منكم هذا الدينار ولم يطأ البساط، علمنا أنه يصلح للملك، فوقفوا حوله ولم يصل أحد إليه، فلما أعياهم ذلك، طوى ناحية من البساط من عنده، وأمر كل واحد أن يطوي ممّا يليه، حتى طوى البساط، فمدوا أيديهم فالحقوا الدينار، فحينئذ قال لهم: إذا رأيتم مدينة صقلية خذوا ما حولها من الحصون والمدن الصغار، والضياع والقرى، حتى إذا ضعفت أخذتموها.

وكان بسرّ قُسطه فارس يقال له [ابن فتحون] وكان يناسبني^(٣) - فيقع خال والدتي - وكان أشجع العرب والعجم، وكان المستعين أبو المقتدر^(٤)، يرى له ذلك ويعظّمه، وكان يُجرى عليه^(٥) في كل عطية خمسمائة دينار، وكانت النصرانيّة بأسرها قد عرفت مكانه، وهابت لقاءه، فيحكى أن الرومي إذا سَقَى فرسه فلم يشرب، يقول له اشرب، هل ابن فتحون رأيت في الماء؟ فحسده نظراؤه على كثرة العطاء، ومنزلته من السلطان، فأوغروا به^(٦) صدر المستعين، فمنعه أياماً. ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم، فتوافقت المسلمون والمشركون صفوفاً، ثم برز عِلجٌ إلى وسط الميدان ينادى: هل من مبارز؟ فخرج إليه فارس من المسلمين، فتجاولا ساعة فقتله الرومي، وصاح الكفار سروراً، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الرومي يكرّ بين الصفين، وينادى هل من أثنين لواحد؟ فخرج إليه فارس من المسلمين، فقتله

(١) تصبیه: عکس تشبیحه ای توهمه أنه ما زال صبيّاً. وتشبيحه (تجعله يبدو شيخاً هرمًا).

(٢) الأطلس: الذئب الأعمط في لونه غيرة إلى السواد (الذي تساقط شعره).

(٣) أي قريب للشيخ الطرطوشي في النسب.

(٤) هو المستعين بالله سليمان بن هود أبو المقتدر، سبقت ترجمته.

(٥) يجري عليه: يعطيه عطاء دائماً.

(٦) أوغروا صدره: ملئوه غيظاً.

الرومى فصاح الكفار سروراً، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل يجول بين الصفيين وينادى ويقول: ثلاثة لواحد؟ فلم يستجري أحد من المسلمين أن يخرج إليه، وبقي الناس فى حيرة، فقبل للسلطان: ما لها إلا أبو الوليد بن فتحون، فدعاه وتلطّف به، وقال له: أما ترى ما يصنع هذا العليج؟ قال: هو بعينى. قال: فما الحيلة فيه؟ فقال أبو الوليد: فماذا تريد؟ فقال: اكف المسلمين شره. فقال: الساعة يكون ذلك إن شاء الله تعالى. فلبس قميص كتان، واستوى على سرجه بلا سلاح، وأخذ بيده سوطاً طویل الطّرف، وفى طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه، فعجب منه النصرانى، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه، فلم تُخطِ طعنة النصرانى سرج ابن فتحون، وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس، ونزل إلى الأرض لا شيء منه فى السرج ثم طفر^(١) على سرجه، وحمل عليه وضربه بالسوط فى عنقه، فالتوى عنقه، فجذبه بيده من السرج، فاقتلعه، وجاء به يجره، فألقاه بين يدى المستعين، فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ فى صنعه معه، فأكرمه وردّه إلى أحسن أحواله.

أيها الأجناد: أقلّوا الخلاف على الأمراء فلا ظفر مع اختلاف، ولا جماعة لمن اختلف عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. أول الظّفر الاجتماع، وأول الخذلان الافتراق، وعماد الجماعة السمع والطاعة.

وإنما أتى على بن أبى طالب رضى الله عنه، يوم صفين^(٢) من العصيان، وكان قد ظهر أهل العراق على أهل الشام، وتضععت صفوف معاوية، فأحس بالشر وأنه مغلوب، فقال لعمر بن العاص: اذهب فخذ لنا الأمان من ابن عمك - يعنى علياً - فأدار عمرو الحيلة، فأمرهم أن يرفعوا المصاحف فى أطراف الرماح، وينادون: ندعوكم إلى كتاب الله تعالى، فلما رأى ذلك أصحاب على كفوا عن الحرب، فقال لهم على رضى الله عنه: أى قوم: هذه مكيدة منهم، ولم يبق فى القوم دفاع، فعصوه وتركوا القتال، وكان ذلك سبب الحكمين.

(١) طفر على سرجه: أى وثب فى ارتفاع كما يقفز الإنسان على الحائط.

(٢) موقعة صفين فيها تلاحم جيش على بن أبى طالب رضى الله عنه مع جيش معاوية بن أبى سفيان وذلك سنة ٣٧ هـ وانتهت بالتحكيم، ومن أثارها ظهور الخوارج وثورتهم.

واعلموا: أن من أحزم مكايد الحرب: إذكاء^(١) العيون واستطلاع الأخبار، وإفشاء الغلبة، وإظهار السرور، وإيانة الحذر والاحتراس من العدو وأن لا تخرج هارباً إلى قتال، ولا تضيق أماناً على مستأمن.

وقال بعض المصنّفين: كثرة التكبير عند اللقاء فشل، غَضُّوا الأصوات وتجلّبوا^(٢) السكينة، وأكملوا الوئام^(٣)، واحتموا الجبن^(٤) وأدرّعوا^(٥) الليل فإنه أخفى للويل.

الليل يكفيك الجبان، ويصفُ الشجاع، الليل المددُ الأعظم.
الحازم يحذر عدوه على كل حال: المواثبة إن قُرب، والغارة إن بُعد، والكمين إن انكشف، والاستطراد إذا ولى.
الجهل قوة الجراءة، من اغتر بقوته فقد وهن، ليس من القوة التورط في الهوة.

لكن أشد ما كنت حذراً، ما كنت عند نفسك أكثر قوة وعدداً.
من استضعف عدوه اغترّ، ومن اغترّ ظفر به عدوه.
أشعروا قلوبكم في الحرب الجراءة، فإنها سبب الظفر، واذكروا الضغائن^(٦) فإنها تبعث على الإقدام، والتزموا الطاعة فإنها حصن المحارب.
- إذا وقع اللقاء برز القضاء، إذا لقي السيف السيف زال الخيار.
- رب مكيدة أبلغ من نجدة ورُب كلمة هزمت عسكرياً
- الصبر سبب النصر، الظفر مع الصبر.
- اجعل قتال عدوك آخر حيلك.
- النصر مع التدبير.

(١) إذكاء العيون: أى دفع الجواسيس لاستطلاع الأخبار. وفي (ط): ذكاء العيون.

(٢) تجلبب الثوب: لبسه وتجلّبب السكينة: تحلى بها.

(٣) الوئام: الوفاق.

(٤) احتموا الجبن: أى أخفوا الخوف.

(٥) ادرّعوا الليل: اجعلوه درعاً وساتراً.

(٦) الضغائن: الأحقاد.

- لا ظفر مع بغى .

- ولا تغتر بالأقوياء لفضل قوتهم على الضعفاء .

- لا تجبنوا عند اللقاء .

- لا تميلوا^(١) عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تغلوا^(٢) عند

الغنائم، ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا .

* * *

(١) لا تميلوا: لا تظلموا، وفي (خ) لا تمثلوا .

(٢) الغل: الخيانة .

الباب الثانى والمستون

فى القضاء والقدر والتوكل والطلب

اعلم وفقك الله تعالى : أن مذاهب الخلق فى القضاء والقدر^(١) وخلق الأفعال وإرادة الكائنات منتشرة، ولا يخرج عن علمه وقضائه وقدره وحكمه حادثٌ، فمن خالفنا فى القضاء والقدر وافقنا فى العلم، وقد تباين الخلق فيه وتشتت مذاهبهم، وتقاطعوا فيه وتدابروا، كل حزب بما لديهم فرحون، ولم نضع هذه الترجمة لاستيفاء ما قالوا، والاحتجاج لكل فريق، لأن ذلك يستدعى مجلدات وأسفاراً، وإنما نذكرُ فى هذا الكتاب أحكاماً ظاهرة قريبة من العقول، لتقرب الفائدة على الناظر فيه.

فاعلم أولاً: أن كل ما يجرى فى العالم من حركة وسكون، وخير وشر، ونفع وضر، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، بقضاء وقدر، وكذلك لا يطير طائر بجناحيه، ولا يدب حيوان على بطنه ورجليه، ولا تطير بعوضة ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره، وإرادته ومشئته، كما لا يجرى شىء من ذلك إلا وقد سبق علمه به.

ثم اعلم: أن القدرَ والطلبَ لا يتنافيان، والتوكلَ والكسبَ لا يتضادان، وذلك أن تعلم أن كل ما قضى الله تعالى وقدره فهو كائن لا محالة، كما أن ما علم الله تعالى أنه يكون فهو كائن، ومن خالفنا فى القضاء والقدر وافقنا فى العلم، فربَّ أمرٍ قدر الله تعالى وصوله إليك بغير طلب فهو واصل، وربَّ أمرٍ قدر وصوله إليك بعد الطلب، فلا يصل إلا بالطلب، والطلب أيضاً من القدر، ولا فرق بين الأمر المطلوب وبين الطلب فى إنهما مقدوران، فمن ههنا قلنا إنهما لا يتنافيان.

وكذلك التوكل مع الكسب، لأن التوكلَ محلُّ القلب، والكسبَ محلُّ الجوارح، ولا يتضادُ شيئان فى محلين، بعدما يتحقق العبدُ أنَّ المقدور من قِبَلِ الله تعالى، فإن تعسرَ شىءٌ فبتقديره وإن اتفق فبتيسيره، قال أنس: جاء

(١) فى (خ) مذهب أهل الحق فى القضاء والقدر.

رجل على ناقة له، فقال يا رسول الله، أدعها وأتوكل؟ فقال: «اعقلها وتوكل»^(١).

والتوكل والاعتصام بالقدر يستمدان من العقل، والطلب والكسب يستمدان من الأمر، فالتوكل على الله تعالى هو الثقة بما ضمنه، والقطع بكون ما حَكَمَ به.

فمن رام أمراً من الأمور: ليس الطريق في تحصيله أن يُغلقَ بابَه عليه، ويفوض أمره إلى ربه، وينتظر حصول ذلك الأمر، بل الطريق: أن يشرع في طلبه على الوجه الذي شرعه الله فيه. (وقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين^(٢)) واتخذ خندقاً حول المدينة) يستظهر^(٣) فيه، ويحترس من العدو، وأقام الرُماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد^(٤)، وكان يلبس لأمة الحرب^(٥) ويعبئ الجيوش، ويأمرهم وينهاهم بما فيه مصالحهم، واسترقى^(٦) وأمر بالاسترقاء، وتداوى وأمر بالمداوة، وقال (أنزل الداء الذي أنزل الدواء)^(٧).

(١) رواه الترمذي عن أنس وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقال السيوطي: الحديث ضعيف (الجامع الصغير: السيوطي رقم ١١٩١)، وكشف الخفاء ١ / ١٦١.
(٢) أى لبس درعين فوق بعضهما البعض وقد ذكر الحافظ الذهبي أن رسول الله ﷺ لبس يوم أحد درعين - (السيرة النبوية - الحافظ الذهبي ص ٣٥٦).
(٣) يستظهر: يحتمي ويستعين به.

(٤) سبق الحديث عن الرماة وكيف نزلوا عن الجبل ظناً منهم أن الحرب قد انتهت، فالتف حولهم خالد بن الوليد بن المغيرة وكان على الكفر وقد أسلم قبل فتح مكة سنة ٧هـ فسر رسول الله ﷺ بإسلامه، وولاه أعنة الخيل وقد وجهه أبو بكر الصديق لقتال المرتدين كما سيره للعراق ففتح الحيرة، ثم سيره للشام فكان بطل معركة اليرموك إلى أن عزله عمر بن الخطاب وولى مكانه أبو عبيدة عامر بن الجراح فأصبح خالد جندياً من جنوده يجاهد في سبيل الله ومات بحمص في سورية سنة ٢١هـ (الأعلام ٢ / ٣٠٠).
(٥) لأمة الحرب: عدة الحرب، ومنها الدرع المحكم الجودة والرمح والسيف ...

(٦) استرقى وأمر بالاسترقاء: أى استعمل الرقية وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط وهي: أن تكون بكلام الله أو أسمائه وصفاته، وأن تكون باللسان العربي وما يعرف معناه، مع الاعتقاد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى (فتح المجيد - شرح كتاب التوحيد - عبد الرحمن آل شيخ ص ٩٦).

وبهذا الخصوص فقد وردت أحاديث كثيرة تجيز الرقية إذا كانت بالمعوذات والنفث كما وردت أحاديث أخرى تنهى عن الرقية إذا خالطها شرك (صحيح مسلم / باب رقية المريض بالمعوذات والنفث) (باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك)، انظر صحيح مسلم (الأحاديث رقم ٢١٩١ - ٢٢٠٠).

(٧) حديث إن الله أنزل الداء والدواء.. رواه أبو داود عن أبي الدرداء، وقال السيوطي حديث ضعيف (الجامع الصغير ١٦٩٦) ولكن روى مسلم في صحيحه مثل هذا الحديث عن جابر (رقم ٢٢٠٤) بلفظ [لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء تبرأ بإذن الله عز وجل].

فإن قيل : قدر روي أن النبي ﷺ قال : « من اکتوى أو استرقى فقد برئ من التوکل » (١).

قلنا : أليس قد قال : اعقلها وتوکل ؟ وظاهر بين درعين وسائر ما ذکرناه أنفاً ؟

فإن قيل : فما الجمع بين ذلك ؟

قلنا : معناه ؛ من استرقى واکتوى متکلاً على الرقية والکي ، وأن البرء من قبلهما خاصة ، فهذا يخرجهم من التوکل ، وإنما يفعلهم کافر يضيف الحوادث إلى غير الله تعالى ، فأما من باشر الأسباب والأدوية ، وتعاطى تدبير الأمور بنفسه وأعوانه وماله ، على ما جرت به سيرة الله تعالى في أرضه ، وعادته في خلقه ، غير معتمد على شيء من ذلك ، بل هو واثق القلب أن ما حصل فبتقديره ، وما تعسر فبتقديره ، معتمداً في ذلك على المسبب لا على الأسباب ، فهذا هو المتوکل ، لكن شرطه أن يمشى في ذلك كله مع الأثر (٢) ، ولا يسلك طريقاً فيه معصية ، فليس يستدرج (٣) ما عند الله بمعاصيه .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : من ابتغى أمراً بمعصية الله كان أبعد لما رجا وأقرب لمجئ ما اتقى .

ومن ظن أن الطلب والاكتساب يناقض التوکل ، فقعده في بيته وأغلق بابه متکلاً على الله تعالى في زعمه ، كان عن العقل خارجاً ، وفي تيه الجهل والجأ (٤) ، ويقال له : قُبْحَتَ يَا هَذَا ، إِذْ جُعْتَ وحضر الطعام ، فهو إلى الطعام أحوج منه إلى المعرفة ، وينبغي لأهله ان يداووه .

ألا ترى أن الله تعالى قال لمريم (٥) : ﴿ وَهْزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنَّبًا ﴾ [مريم: ٢٥] فهلاً أمرها بالسكون ، ثم حمل الرطب إلى فيها ؟

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم في المستدرک عن المغيرة والحديث صحيح الجامع الصغير للسيوطي رقم (٨٥٠٧) .

(٢) الأثر : ما أثر عن النبي ﷺ أو صحابته من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية وخلقية ، وفي (خ) الأمر .

(٣) يستدرج : يؤخذ بالتدريج .

(٤) التيه : الضياع ، والجأ : دخلا .

(٥) مريم العذراء أم عيسى عليه السلام ورد ذكرها في القرآن الكريم في سورة مريم .

وهكذا القول فيمن له دابةٌ أو بستان، يؤمر بسقى البستان وحفره، وإصلاح شأنه، ويؤمر بأن يعلف الدابة ويسقيها.

وأنشدوا:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَرْيَمَ إِلَيْكَ فَهَئِذَا الْجَذَعُ، تَسَاقُطُ الرُّطْبُ
وَلَوْ شَاءَ أَجْنَى الْجَذَعُ مِنْ غَيْرِ هَؤُلاَءِ إِلَيْهَا وَلَكِنْ، كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبٌ

وهكذا قال الرسول ﷺ: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»^(١) لم يحمل أرزاقها إليها في أوكارها، بل ألهمها طلبه بالغدو والرواح.

وقد كان جهيل -رئيس القندهاريين^(٢)- يرى من تصديق القدر وتكذيب الطلب -دون أهل زمانه من الملوك- ما حجزه عن الطلب والتدبير، فأخرجه إخوته من سلطانه، وقهره على مملكته.

فقال له بعض الحكماء: إن ترك الطلب يضعف الهمة ويذل النفس، وصاحبه سائر إلى أخلاق ذوات الأجر من الحيوان، كالضب وسائر الحشرات، تنشأ في أجحرتها، وفيه يكون موته.

ثم جمعوا بين القدر والطلب، وقالوا: إنهما كالعدلين^(٣) على ظهر الدابة، إن حمل في واحد منهما أرجح مما حمل في الآخر، سقط حمله^(٤) وتعب ظهره، وثقل عليه سفره، وإن عادل بينهما، سلم ظهره ونجح سفره وتمت بغيته وضربوا فيه مثلاً عجيباً فقالوا:

إن أعمى ومقعداً كانا في قرية، بفقر وضُرٍّ، لا قائد للأعمى، ولا حامل للمقعّد، وكان في القرية رجل يطعمهما كل يوم -احتساباً^(٥)- قوتهما من الطعام والشراب، فلم يزا في عافية إلى أن هلك المحتسب، فأقاما بعده

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه والحاكم في المستدرک عن عمر بن الخطاب والحديث صحيح (الجامع الصغير - رقم ٧٤٢٠) ومعنى تغدو خماصاً تذهب أول النهار فارغة البطون، ومعنى تروح بطاناً: ترجع آخر النهار مليئة البطون.

(٢) نسبة إلى قندهار: وهي مدينة في جنوب أفغانستان، وقاعدة مقاطعة. [في (ط): رئيس القندهار].

(٣) العدلين: أي خرج ذو فئتين متماثلتين.

(٤) حمله) سقطت من (ط).

(٥) الاحتساب: رجاء الأجر والثواب من الله تعالى.

أياماً، فاشتد جوعُهُما، وبلغ الضرُّ منهما جهده، فأجمعوا رأيهما على أن يحمل الأعمى المقعد، فيدله المقعد على الطريق ببصره، ويستقلَّ المقعد بحمل الأعمى، فيدوران في القرية يستطعمان أهلها، ففعلاً، فنجح أمرُهُما، ولو لم يفعلا هلكا، فكذلك القدر سببه الطلب، والطلب سببه القدر، وكل واحد منهما مُعين لصاحبه.

فأخذ (جهيل) في الطلب، فظفر بأعدائه، ورجع إلى مُلكه، فكان (جهيل) يقول: لا تدعَنَّ الطلب اتكالاً على القدر، ولا تجهدن نفسك في الطلب معتمداً عليه، مستهيناً بالقدر، فإنك إذا أجهدت نفسك بالطلب بوجوه التدبير المحموده، مصدّقاً بالقدر، نلت ما تحاول، ولم تلتو عليك الأمور، وإن عملت بذلك، فالتوى عليك أمر من مطلوبك، فذلك من إعاقة القدر^(١)، وأنك قد أتيت ذنباً، فتفقد جوارحك، واستكشف ظاهرك وباطنك، وتب إلى الله تعالى من كل ذنب أتيته بجارحة من جوارحك، وأخرج من كل مظلمة ظلمتها، فإذا فعلت ذلك قابلك الحظ، وساعدك القدر إن شاء الله تعالى.

واعلم أن هذا الأصل الذي قررناه يُخرجُ عليه كل ما ورد في القرآن، وحديث الرسول ﷺ، من الأمر بالتوكل على الله، والتسليم إليه، والتفويض له.

من ذلك أن سليمان الخواص^(٢) تلا يوماً قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] فقال: ما ينبغي لعبد بعد هذه الآية، أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى.

قلنا: معناه؛ لا يلجأ إلى الأسباب اعتماداً عليها، ولكن يلجأ إليها واثقاً بأن الله تعالى يفعل ما يشاء، كما أمر النبي ﷺ بعقل الناقة ولبس درعين.

ألا ترى أن من يطلب الزرع والولد ثم قعد في بيته، لم يطأ زوجته ولا بذر أرضه، معتمداً في ذلك على الله تعالى، واثقاً به أن تلد امرأته من غير وقاع، وتنبت أرضه الزرع من غير بذر، كان عن المعقول خارجاً، ولأمر الله تاركا.

(١) في (ط) إعانة القدر.

(٢) سليمان الخواص: من الزهاد سبقت ترجمته.

وللأئمة والحكماء فى القدر ألفاظ بارعة على السُّبر^(١) والامتحان منها :

ما روى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، سئل عن القدر؟ فأعرض عن السائل ، فأبى إلا الجواب ، فقال عليٌّ : أخبرني ، أخلَقَك الله كما تشاء ، أو كما يشاء؟ فأمسك الرجل . فقال عليٌّ للحاضرين : أترونه يقول : كما أشاء؟ إذا والله أضرب عنقه . فقال الرجل : كما يشاء ، فقال عليٌّ : أحييك كما تشاء ، أو كما يشاء؟ فقال : كما يشاء . قال : أيميتك كما تشاء ، أو كما يشاء؟ قال : كما يشاء . قال : أفيحشرك كما تشاء أو كما يشاء؟ قال : كما يشاء ، قال : أفيدخلك حيث تشاء أو حيث يشاء؟ قال : حيث يشاء . قال : قم فليس لك من الأمر شيء .

وروي أن رجلاً قدرياً^(٢) ومجوسياً^(٣) تناظرا ، فقال القدريُّ للمجوسى : مالك لا تُسلم؟ فقال المجوسى : لو أراد تعالى لأسلمت . فقال القدري : قد أراد الله تعالى أن تُسلم ، ولكن الشيطان يمنعك . قال المجوسى : فأنا مع أقواهما . وروى فى الإسرائيليات : أن نبياً من أنبياء الله تعالى ، مر بفخٍّ منصوب ، وإذا طائرٌ قريب منه ، فقال الطائر : يا نبيَّ الله ؛ هل رأيت أقلَّ عقلاً من هذا؟ نصب هذا الفخ ليصيدنى فيه ، وأنا أنظر إليه ! قال : فذهب عنه . ثم رجع ، فإذا الطائر فى الفخ ، فقال له : عجباً لك ، أو لست القائل أنفاً كذا ، وكذا؟ فقال : يا نبيَّ الله : إذا جاء الحين^(٤) لم يبق أذن ولا عين . وقال رجل من الخوارج^(٥) ، لعلى رضى الله عنه : رأيت من جنبى سُبُل

(١) السبر : التجربة والاختيار .

(٢) القدريّة : هم الذين يقولون : إن القدر خيرُه وشرُه من العبد لا من الله ، فسموا بذلك لأنهم أثبتوا للعبد قدرة توجد الفعل بإنفرادها واستقلالها دون الله تعالى ، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله وقضائه . وهؤلاء من ضلالتهم تراهم يضيفون هذا الاسم إلى مخالفيتهم من أهل الهوى فيقولون أنتم القدريّة حين تجعلون الأشياء جارية بقدر الله ، وقد قال رسول الله ﷺ (القدريّة مجوس هذه الأمة) انظر جامع الأصول فى أحاديث الرسول - ابن الأثير الجزرى ج ١٠ / ١٢٨ .

(٣) المجوس : عبدة الشمس أو النار .

(٤) جاء الحين : أى جاء الهلاك .

(٥) الخوارج : من أقدم الفرق الإسلامية الذين خرجوا على أبى طالب رضى الله عنه لأنه رضى بالتحكيم إثر موقعة صفين سنة ٣٧ هـ ، عسكروا فى حروراء ، ومن أشهر زعمائهم الضحّاك بن قيس وقطرى بن الفحّاء ، تفرقوا عدة فرق منها ، الأزارقة والاباضية والصفريّة ومنهم ابن ملجم الذي قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه سنة ٤٠ هـ .

الهُدَى، وسلك بى سُبُل الرَّدَى، أحسن إلى أم أساء؟ فقال له علي: إن كنت استوجبت عليه حقا فقد أساء، وإن كنت لم تستوجب عليه شيئا، فهو يفعل ما يشاء.

وقال ميمون بن مهران ^(١) لغيلان القدرى ^(٢): سل، فأقوى ما تكونون إذا سألتهم، فقال غيلان: أشاء الله أن يعصى؟ فقال ميمون: أيعصى كارها؟ فانقطع غيلان.

وروى أن رجلا قال لبرزجمهر: تعال نتناظر فى القدر. فقال: وما تصنع بالمناظرة فى القدر؟ رأيت ظاهراً استدلت به على الباطن، ورأيت أحقق مرزوقا، وعاقلا محروما، فعلمت أن التدبير ليس إلى العباد. وقال بعضهم:

يَخِيبُ الْفَتَى مِنْ حَيْثُ يُرْزَقُ صَاحِبُهُ وَيُعْطَى الْمُنَى مِنْ حَيْثُ يُحْرَمُ طَالِبُهُ
ولما قدم موسى بن نصير ^(٣) بعد فتح الأندلس، على سليمان بن عبد الملك ^(٤) فقال له يزيد بن المهلب ^(٥): أنت ادهى الناس وأعلمهم فكيف طرحت نفسك فى يدى سليمان؟ فقال موسى: إن الهدهد يهندس الماء فى الأرض الفيافي ^(٦)، ويبصر القريب منه والبعيد، على بعده فى التخوم ^(٧)، ثم ينصب له الصبي الفخ بالدودة والحبة، فلا يبصره حتى يقع فيه.

(١) ميمون بن مهران الرقى الفقيه والقاضى سبقت ترجمته.

(٢) غيلان القدرى: غيلان بن مسلم القدرى الدمشقى أبو مروان متظلم وكاتب من البلغاء تنسب إليه فرقة «الغيلانية» من القدرية (القدر خيرُه وشره من العبد لا من الله) ثانى متكلم بالقدرية بعد معبد الجهنى، قيل أنه تاب فى عهد عمر بن عبد العزيز ثم جاهر بمذهبه فى عهد هشام بن عبد الملك فأفتى العلماء بقتله (ومنهم الأوزاعى) وأمر هشام بن عبد الملك بقتله وصلب على باب كيسان بدمشق سنة ١٠٥ هـ (الأعلام ٥/ ١٢٤).

(٣) موسى بن نصير والى أفريقيا والذى وجه الجيوش لفتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد. سبقت ترجمته.

(٤) سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموى السابع. سبقت ترجمته.

(٥) يزيد بن المهلب بن أبى صفرة، أمير من القادة الشجعان ولى خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٣ هـ وعزله عبد الملك بن مروان برأى الحجاج الذى كان يكرهه ويخشى بأسه، فلما ولى سليمان بن عبد الملك ولاء العراق ثم خراسان ثم البصرة، ثم لما جاء عمر بن عبد العزيز عزله وحبسه وبعد وفاة الخليفة عمر أخرجه غلمانُه من السجن وهرب للبصرة وقاتل أمير العراق مسلمة بن عبد الملك وقتل هناك سنة ١٠٢ هـ (الأعلام ٨/ ١٩٠).

(٦) الأرض الفيافي: الراسعة.

(٧) التخوم: الحدود.

وفى الإسرائيليات : أن الهداهد كانت رائدة (١) سليمان بن داود عليهما السلام إلى الماء، فتتقدم معسكره، ثم تنظر الأرض، فتقول الماء ههنا، على ألف قامة، أو أقل، أو أكثر. فتبادر الجن تحفره، فلا يلحق سليمان إلا وقد استعد الماء. واعلموا أن الهارب مما هو مقضى مقدر، كالمتقلب فى كف الطالب. وأنشد بعضهم:

وَإِذَا خَشِيتُ مِنَ الْأُمُورِ مُقَدَّرًا وَفَرَرْتُ مِنْهُ فَنَحْوَهُ تَتَوَجَّهُ
وَلِبِشَارٍ (٢):

طُبِعْتُ عَلَى مَا فِي غَيْرِ مُخَيَّرٍ هَوَاىَ وَلَوْ خَيْرْتُ كُنْتُ الْمُهَذَّبَا
أُرِيدُ فَلَا أُعْطَى، وَأُعْطَى وَلَمْ أُردْ وَقَصَّرَ عِلْمِي أَنْ يَنَالَ الْمُغَيَّبَا
وَأَصْرَفُ عَنْ قَصْدِي وَعِلْمِي مُقَصَّرٌ وَأُمْسِي وَمَا أُعْطِيتُ إِلَّا التَّعَجُّبَا

ولما وقع الطاعون بالكوفة، فرأى ابن أبى ليلى (٣) على حمار له يطلب النجاة، فسمع منشداً ينشد:

لَنْ يُسَبِّقَ اللَّهَ عَلَى حِمَارٍ وَلَا عَلَى ذِي مَنْعَةٍ طِيَّارٍ
أَوْ يَأْتِيَ الْحَتْفُ عَلَى مِقْدَارٍ قَدْ يُصْبِحُ اللَّهُ أَمَامَ السَّارَى (٤)

فكر راجعا إلى الكوفة، وقال: إذا كان الله أمام السارى، فلات حين مهرب. وأنشد بعضهم:

أَقَامَ عَلَى الْمَسِيرِ وَقَدْ أُنِيختْ مَطَايَاهُ وَغَرَّدَ حَادِيَاهَا (٥)
وَقَالَ أَخَافُ عَادِيَةَ اللَّيَالِي عَلَى نَفْسِي وَأَنْ أَلْقَى رَدَاهَا (٦)
وَمَنْ كُتِبَتْ مَنِيَّتُهُ بِأَرْضٍ فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا

(١) الرائد: هو الرسول الذى يرسله القوم لينظر لهم الماء أو المرعى أو المكان ينزلون فيه.

(٢) هو بشار بن برد الشاعر الأعمى الفارسى الأصل عاش بالبصرة وأكثر من الهجاء والتشبيه بالنساء، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط سنة ١٦٧ هـ. (الأعلام ٢/ ٥٢).

(٣) هو عبد الرحمن بن أبى ليلى فقيه ومن المحدثين الفقهاء وكان من كتبة القراء الذين حاربوا الحجاج بن يوسف وقتل فى معركة دير الجماجم سنة ٨٣ هـ. (المقنع فى علوم الحديث ٢/ ٥٣٢).

(٤) الحتف: الموت يأتى فى موعده المقدر والمحدد. والسارى: الماشى ليلاً.

(٥) أنيخت مطاياها: أى نزلت وبركت، والمطية: هى الدابة التى تركب يستوى فيها المذكر والمؤنث، فالبعير مطية والناقة مطية. والحادي: الذى يسوق الإبل ويتغنى بها.

(٦) عادية الليالى: الخيل المغيرة ليلاً، وتطلق على (كل أمر جليل أو مصيبة) نقول: عوادى الدهر أى عواقبه.

ولما قُتِلَ كسرى بزرجمهر، وجدوا في منطقتة^(١) كتابا فيه، إذا كان القدر حقاً فالحرصُ باطلٌ، وإذا كان الغدر في الناس طباعاً فالثقة بكل أحد عجزٌ، وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حمقٌ.

وقال ابن عباس، وجعفر بن محمد، والحسن البصري^(٢) في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] إنما كان الكنز لوحاً من ذهب، مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبتُ لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب! وعجبتُ لمن يوقن بالموت كيف يفرح! وعجبتُ لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل! وعجبتُ لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئنُ إليها! لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وقال يحيى بن معاذ^(٣): عجبت من ثلاث: رجل يريد تناول رزقه بتدبيره وهو يرى تناقض تدبيره، ورجلٌ شغله همُّ غده، وعالمٌ مفتون يعيبُ على زاهدٍ مغبوط.

ومن عجيب ما نزل بالإسكندرية: أن رجلاً من خدمة السلطان، غاب عن خدمته أياماً، فقبضه الشرطُ وحملوه دار السلطان، فانساب منهم في بعض الطريق، وترامى في بئر والمدينة مسربةٌ تحت الأرض بأسراب يمشى الماشى فيها قائماً، يخترقها ويدورها، لأن في دورها أباراً على تلك السروب، فما زال الرجل يمشى إلى أن لاح له بئرٌ مضيئة، فطلع فيها وإذا البئر في دار السلطان، فطلع الرجل في دار السلطان، فادّبه السلطان فكان فيه المثل سائر: الفارُّ من القضاء الغالب كالمنقلب^(٤) في يد الطالب.

وقال ابن مسعود: إنَّ الرجلَ ليشرَفَ على الأمر، من الإمارة، والتجارة، أو غيرها، ذكره الله تعالى فوق سماواته، فيقول للملِك: اصرف عن عبدى هذا

(١) المنطقة: ما يشد على الوسط من حزام أو ماشابه.

(٢) سبق التعريف بهم.

(٣) يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، واعظ زاهد لم يكن له نظير في وقته، من اهل الرأي، أقام ببلخ ومات في نيسابور سنة ٢٥٨ هـ، وله كلمات سائرة منها ما هو في النص أعلاه، ومنها قوله: اجتنبت صحبة ثلاثة أصناف من الناس: العلماء الغافلين - والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين (الأعلام ٨/ ١٢٧).

(٤) في (ط): كالمنفلت.

الأمر، فإنني إن أُيسرهُ له أدخلهُ به جهنم، فيظلُّ يتَغَيِّظُ (١) على جيرانه فيقول :
سبقني فلان، وحسدني فلان، وما صرفه عنه إلا الله تعالى :

وأنشدوا :

قَالُوا تُقِيمُ وَقَدْ أَحَا	طَبَّكَ الْعَدُوُّ وَلَا تَفَرُّ
فَأَجَبْتُهُمُ الشَّيْخُ مَا	لَمْ يَنْتَفِعْ بِالْعِلْمِ غَرُّ (٢)
لَا نَلْتُ خَيْرًا مَا بَقِيَ	تُ وَلَا عَدَانِي الدَّهْرُ شَرُّ
إِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ غَيِّ	رَ اللَّهُ يَنْفَعُ أَوْ يَضُرُّ

استأذن العقل على الجدِّ (٣) فقال : اذهب لا حاجة لي بك، فقال العقل :
ولم ؟ فقال : إنك تحتاج إليّ، ولا احتاج إليك .

وأوصى حكيم ابنه فقال : يا بني، رزقك الله جدًّا يخدمك به ذوو العقول
ولا رزقك عقلا تخدم به ذوى الجودود .
وكان يقال : افراط العقل مضرٌّ بالجدِّ .

وروى : أن رجلا خيّر في أمر، فأبى أن يختار وقال : أنا بجدِّي أوثق مني
بعقلي، فأفرغوا .

وفي الأمثال : أسع بجدًّا لا بكدًّا (٤) أسع بجد أودع، جدك لا كدك (٤) ، الجدُّ
لا الجدُّ، الجدُّ أغنى من الكد .

واعلم أن زمام الأمور التوفيق، ولم ينزل من السماء إلى الأرض أقلُّ من
التوفيق، وهو مقرون بالاجتهاد، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا
لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

(١) يتَغَيِّظُ : من الغيظ وهو شدة الغضب .

(٢) الغرُّ : من لا خبرة له .

(٣) تطلق كلمة الجدِّ ويراد بها عدة معاني، وسياق الكلام هو الذي يحدد المقصود، وذلك كما يلي :

- الجدِّ (بالفتح) : الحظ أو البخت . أبو الأب أو أبو الأم .

- الجدِّ (بالكسر) : الحق ضد الهزل . الاجتهاد والاهتمام .

معنى (لا ينفع ذا الجدِّ منك الجدِّ) : لا ينفع ذا الغنى غناه، بل ينفعه العمل بطاعتك . ومعنى (جدُّ
ربنا) عظمة ربنا (لسان العرب باب : جدد) .

(٤) الكد : الشدة في العمل وطلب الرزق والإلحاح في الطلب، في المثل : [بجدك لا بكدك] أي إنما
تدرك الأمور بما ترزقه من الجدِّ لا بما تعمله من الكد (لسان العرب لابن منظور . باب : كد ٣ / ٣٧٧) .

وقد كنت جمعت فيه كتاباً، من جملة كتابي [فى الأسرار]^(١)، هل
التوفيق مكتسب؟ أو موهبة بلا سبب فلا مزيد عليه؟
ومن لطيف ما وقفت عليه فى مجاري القضاء والقدر (أنّ الهارب من
المقدور كالمنفلت فى يد الطالب) ما نزل فى مدينة الإسكندرية فى قضية
الرجل الذى تقدم ذكره.

* * *

(١) كتاب للطوطوشى أشرنا إليه فى المقدمة.

الباب الثالث والستون

وهو جامع من أخبار ملوك العجم وحكاياتهم

وهو يشتمل على خمسة فصول :

الأول : يشتمل على أخبار رُفِعَتْ إلينا بعد الفراغ من الكتاب ، فألحقناها .

الثاني : يشتمل على حكم لحكيم الفرس خاصة .

الثالث : يشتمل على حكم لحكيم السند خاصة .

الرابع : يشتمل على حكم لحكيم العرب خاصة .

الخامس : يشمل على حكم مجموعةٍ مُنْتَخَبَةٍ (١) .

* * *

الفصل الأول :

يشتمل على : أخبار رُفِعَتْ إلينا بعد الفراغ من الكتاب ، فألحقناها (٢) .

رسمنا ذلك لتنظر في عقول القوم وأغراضهم ، ومنتهى مرامهم ، في كتاب (جاويدان خرد) (٣) الفارسي ، قال : ثلاثة لا يصلحُ فسادُهُنَّ بشئ من الحيل :
العداوةُ بين الأقارب ، وتحاسدُ الأكفاء ، والرَّكاكةُ في العقول .

وثلاثة لا يُسْتَفْسَدُ صلاحُهُنَّ بنوع من المكر والحيل : العبادةُ في العلماء ،
والقُنُوعُ في المستبصرين ، والسَّخاءُ في ذوي الأخطار .
وثلاثٌ لا يُشْبَعُ منهن : الحياةُ ، والعافيةُ ، والمال .

(١) هذا الفصل رَدّه المصنف إلى الباب الرابع والستون .

(٢) من إضافات المحقق .

(٣) (جاودان خرد) : اسم كتاب للفرس منسوب إلى هوشنك شاه ، وقد عرّبه الحسن بن سهل وزير المأمون ولخصه أيضاً في تعريب ، وأورد الشيخ أبو علي بن مسكويه هذا الملخص في مقدمة كتابه المسمى بآداب العرب والفرس . ومعنى جاودان : الدائم الباقي (كشف الظنون ١ / ٥٧٧ وما بعدها) ، و(الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ / ٤٣٢) .

وقال ابن لقمان لأبيه : ما الداء العيَاء (١) ؟ قال : رعونة (٢) مولودة . قال :
فما الجرح الدَّوي (٣) ؟ قال : المرأة السوء ، قال : فما الحمل الثقيل ؟ قال :
الغضب . ولما قرأ هذه الحكاية أبو عبَّاد الكاتب - وكان ظريفاً في أخباره -
قال : والله ، الغضب أخفُّ عليَّ من ريشة - وكان أسرع الناس غضباً ففعل له :
إنما عني لقمان : أن احتمال الغضب ثقيلٌ ، فقال : لا والله ، لا يقوى على
احتمال الغضب إلا الجمل . وغضب يوماً على بعض أصحابه ، فرماه بدواة ،
فشجّه ، فجعل الدم يسيل فقال أبو عبَّاد : صدق الله العظيم حيث قال :
«وَالَّذِينَ إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» (٤) فاستدعاه المأمون (٥) وقال : ويحك ، لا
تحسن أن تقرأ آية من كتاب الله تعالى ؟ قال : بلى والله يا أمير المؤمنين ، إنني
لأقرأ من سورة واحدة ألف آية ، فضحك المأمون وأمر بإخراجه .

وقيل لأنوشروان : ما العقل ؟ قال : القصد (٦) في كل الأمور . قيل : فما
المروءة ؟ قال : ترك الريّة ، قيل فما السخاء ؟ قال : أن تُنصف من نفسك .
قيل : فما الحمق ؟ قال : الإغراق في الذمِّ والمدح .

وقيل لبعض الحكماء ؟ ما الحزم ؟ قال : سوء الظن . وقال بعضهم في قوله :
الحزم سوء الظن . قال : إنما أراد سوء الظن بنفسه لا بغيره . قيل : فما
الصواب ؟ قال : المشورة . قيل : فما الذي يجمع القلوب على المودة ؟ قال :
كفُّ بذول ، وبشرٌ جميل (٧) . قيل : فما الاحتياط ؟ قال : الاقتصاد في الحبِّ
والبغض .

وقال معاوية لزياد حين ولّاه العراق (٨) يا زياد : ليكن حبُّك وبغضُك

(١) الداء العيَاء : الداء الذي لا دواء له ، أو أعياء الأطباء ولم ينجح فيه الدواء (لسان العرب ١١٣/١٥) .

(٢) الرعونة : الحمق والأرعن هو الأهوج في كلامه .

(٣) الدوى : الفاسد الجوف .

(٤) الآية دون تحريف ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الشورى : ٣٧] .

(٥) في (خ) : [فبلغ ذلك المأمون فاستدعاه ، فقال :] .

(٦) القصد : الاعتدال .

(٧) كف بذول : كثير البذل والعطاء . بشر جميل : اللقاء بوجه طلق .

(٨) أى معاوية بن أبى سفيان حين ولّى زياد بن أبيه على العراق .

قصداً، فَإِنَّ الْغَيْرَةَ كَامِنَةٌ، واجعل للرجوع والنزوع بقيةً من قلبك، واحذر صولة الانهماك، فَإِنَّهَا تَوْدِي إِلَى الْمَهَالِكِ^(١).

وهو مثل قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أَحِبُّ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَبْغُضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغُضَ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا»^(٢).

ومن ذلك قول الأول:

وَأَحِبُّ حَبِيبَكَ حُبًّا رَوِيدًا فَلَيْسَ يَعُولُكَ أَنْ تُصْرِمَا^(٣)
وقال آخر:

وَلَا تَيَاسَنَّ الدَّهْرَ مِنْ حُبِّ كَاشِحٍ وَلَا تَأْمَنَنَّ الدَّهْرَ صَرْمَ حَبِيبٍ^(٤)
وسئل بزرجمهر عن العقل، فقال: ترك ما لا يعنى، قيل: فما الحزم؟ قال: انتهاز الفرصة، قيل: فما الحلم؟ قال: العفو عند المقدرة. قيل: فما الشدة؟ قال: ملك الغضب. قيل فما الخرق^(٥)؟ قال: حبٌّ مفرق وبغضٌ مفرط.

وقيل لبعض الملوك - وبلغ في المنزلة والقدر ما لم يبلغه أحد من ملوك زمانه -: ما الذى بلغ بك هذه المنزلة؟ قال: عفوى عند قدرتى ولينى بعد شدتى، وبذل الإنصاف، ولومى لنفسى، وإبقائى فى الحب والبغض مكانا لموضع الاستبدال.

(١) القصد: الاعتدال. الرجوع والنزوع: العودة للحق والتوبة والمبادرة لها. صولة الانهماك: غلبة التماذي في الشيء.

(٢) اعتبر الشيخ الطروشى رحمه الله هذا الأثر مثلاً أو قولاً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولعله الأصح. على حين اعتبره بعض أهل السنن حديثاً لرسول الله ﷺ، وفي تخريجه قال الزيلعي: رواه الترمذي عن أبي هريرة في باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض، وقال حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه عن أبي هريرة مرفوعاً، وقد رواه الحسن بن أبي جعفر بإسناده عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ وهو ضعيف أيضاً، والصحيح هذا عن علي موقوفاً، (تخريج الأحاديث والآثار، الزيلعي، تحقيق: عبد الله السعد ٢ / ٤٦٤ وما بعدها).

- كما رواه الطبراني في معجمه الأوسط عن ابن عمر، وقال فيه عبد السلام الهروي ضعيف جداً.

- كما ذكره الدارقطني في علله وقال: لا يصح رفعه والصحيح أنه عن علي موقوفاً.

- رواه ابن حبان في كتاب الضعفاء وقال ليس هذا من حديث أبي هريرة وإنما هو من قول علي.

* ولعل هذا ما جعل الطروشى رحمه الله يعدّه قولاً لعلي لا حديثاً والله أعلم.

(٣) الصرم والصرامة: القطيعة.

(٤) الكاشح: العدو الباطن العداوة، كأنه يطويها في كشحه أو باطنه. (٥) الخرق: الحمق.

وقال الإسكندر لبعض الحكماء، وأراد سفرأ: أرشدني لأحزم أمري؟^(١). قال: لا تملكَنَّ قلبك محبة الشيء، ولا يستولينَّ عليك بغضه، واجعلهما قصداً، فإن القلب كإسمه يتقلب، وله خاصية في القلب تنزع وترجع، واجعل وزيرك الثبُت، وسميرك التيقُّظ، ولا تُقدم إلا بعد المشورة، فإنها نعم الدليل، وإذا فعلت ذلك ملكت قلوب رعيتك ملك استعباد.

قال الشاعر:

وَمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِأَنْسِهِ وَلَا الْقَلْبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ
وقيل لبعض الحكماء: ما الدليل الناصح؟ قال: غريزة العقل مع الطبع.
قيل: فما القائد المُشفق؟ قال: حسن المنطق. قيل: فما العناء المعيي؟ قال: تطبيعك من لا طبع له.

وقال الفضل بن مروان^(٢) سألتُ رسول ملك الروم عن سيرة ملكهم، قال: بذلُ عُرفه^(٣). وجرَّد سيفه، فاجتمعت عليه القلوب رغبة ورهبة، لا يُنغصُ جنده، ولا يُحرج رعيته، سهل النِّوال، حزن النُّكال^(٤)، الرجاء والخوف معقودان في يده. قلتُ: فكيف حكمه؟ قال: يردُّ الظُّلم ويردع الظالم، ويُعطى كل ذي حقٍّ حقَّه، فالرَّعيَّة اثنان: راضٍ ومُغتبط. قلتُ: فكيف هيبتهم له؟ قال: يتصوَّرُ في القلوب فتغضي^(٥) له العيون. قال: فنظر رسول ملك الحبشة إلى إصغائي إليه وإقبال عيني عليه، وكانت الرسل تنزل عندي، فقال لترجمانه: ما الذي يقول الرومي؟ قال: يصف له ملكهم ويذكر سيرته، فكلَّم الترجمان بشئ، فقال لي الترجمان: يقول أن ملكهم ذو أناة^(٦) عند القدرة، وذو حلم عند الغضب، وذو سطوة عند المغالبة، وذو عقوبة عند

(١) حزم الأمر: الأخذ فيه بثقة (لسان العرب باب: حزم).

(٢) الفضل بن مروان: وزير، كان حسن المعرفة بخدمة الخلفاء، جيد الإنشاء، أخذ البيعة للمعتصم الخليفة العباسي بعد وفاة أخيه المأمون وكان المعتصم في بلاد الروم، فجعله المعتصم وزيراً له نحو ٣ سنوات واعتقله ثم أطلقه وخدم بعده جماعة من الخلفاء إلى أن توفي سنة ٢٥٠ هـ، (الأعلام ١٥١/٥).

(٣) عُرفه: المعروف والكرم والجلود.

(٤) حزن النُّكال: شديد النكال والعقاب.

(٥) تغضي له العيون: أي تنخفض مهابة واحتراماً.

(٦) ذو أناة: تأني ولين.

الاجترام^(١)، قد كسا رعيته جميع نعمته، وقصرهم^(٢) تعنيف عقوبته، فهم يتراءونه ترائي الهلال حياً^(٣)، ويخافونه مخافة الموت نكالا^(٤)، وقد وسعهم عدله، ورد عنهم سطوة عقله، فلا تمتهنه مزحة، ولا تؤيسه غفلة، إذا أعطى أوسع، وإذا عاقب أوجع، فالناس اثنان: راج وخائف، فلا الراجي خائب الأمل، ولا الخائف بعيد الأجل، قلت: فكيف رهبتهم له؟ قال: لا ترفع إليه العيون أجفانها، ولا تتبعه الأبصار إنسانها^(٥)، كأن رعيته قطا^(٦) فرقت عليها صقور صوائد. قال فحدثت المأمون بهذين الحديثين، فقال لى: كم قيمتهما عندك؟ قلت: ألفا درهم. قال: يا فضل: إن قيمتهما أكثر من الخلافة، أما علمت حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، قال: (قيمة كل امرئ ما يحسن). أفتعرف أحدا من الخطباء البلغاء يحسن أن يصف أحداً من خلفاء الله الراشدين المهديين بمثل هذه الصفة؟ قلت: لا، قال: فقد أمرت لهما بعشرين ألف دينار معجلة لهما، واجعل العدة مائة^(٧) بينى وبينهما على العود، فلولا حقوق الإسلام وأهله لرأيت أعطاهما ما فى بيت المال الخاصة والعامة دون ما يستحقانه.

وقال الفضل بن سهل^(٨): كان عندى رسول ملك الروم، وكان يحدثنى عن أخت للملك، يقال لها (خاتون) قال: أصابتنا سنة^(٩)، احتدم شواظها علينا بحرارة المصائب، وصنوف الآفات، ففزع الناس إلى الملك فلم يدر ما يجيبهم به، فقالت له خاتون: أيها الملك: أن الحزم علق^(١٠) ولا يخلق جديده^(١١) ولا يمتهن عزيزه، وهو دليل الملك على استصلاح رعيته، وزاجر

(١) عند الاجترام: عند ارتكاب جريمة أو مخالفة.

(٢) قصرهم: كف عنهم.

(٣) حيال الشيء: قبالة وإزاءه.

(٤) نكالا: العقاب والتنكيل.

(٥) إنسان العين: يؤرؤ العين أو ناظرها.

(٦) القطا: طائر معروف.

(٧) اجعل العدة مائة: أي الوعد بالعودة ممدوداً ومستمراً.

(٨) الفضل بن سهل: وزير الخليفة المأمون، وقد سبقت ترجمته.

(٩) سنة: قحط ومجاعة.

(١٠) العلق: الثوب الجيد أو النفيس من كل شيء لتعلق القلب به.

(١١) لا يخلق جديده: لا يصبح جديده خلقاً بالياً ولا عزيزه ممتناً محتقراً.

له عن استفسادها، وقد فرغت رعيته إليك لفضل العجز عن الالتجاء إلى من لا تزيد الإساءة إلى خلقه عزا، ولا ينقصه العود بالإحسان إليهم ملكا، وما أحد أولى بحفظ الوصية من الموصي، ولا بركوب الدالة من الدال^(١)، ولا بحسن الرعاية من الراعي، ولم تزل في نعمة لم تُغيّرْها نعمة، وفي رضى لم يكدره سخط، إلى أن جرى القدر بما عمي منه البصر، وذهل عنه الحذر، فسلب الموهوب، والسالب هو الواهب، فعد إليه بشكر النعم، وعد به من فطيع النقم، فمتى تنسه ينسك، ولا تجعل الحياء من التذلل للمعز المذل شركا^(٢) بينك وبين رعيته، فتستحق مذموم العاقبة، ولكن مرهم ونفسك بصرف القلوب إلى الإقرار لله بكنه القدرة وتذليل الألسن في الدعاء بمحض الشكر، فإن الملك ربما عاقب عبده، ليرجعه عن شيء فعل إلى صالح عمل، أو ليبعشه على دؤوب^(٣) شكر يحوز به فضل أجر، فأمرها الملك أن تقوم فيهم فتُنذرهم بهذا الكلام ففعلت، فرجع القوم عن بابه، وقد علم الله تعالى منهم قبول الوعظ في الأمر والنهي، فحال عليهما الحول، وما بينهم مفتقد نعمة كان سلبها، وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع، فاعترف الملك لها بالفضل، فقلدها الملك بعده، وجمع الرعية على الطاعة لها في المحبوب والمكروه، فهذا فعل الله تعالى بأعدائه وضرائر^(٤) نعمته، لما شكروه أعاد لهم من نعمه ما كان قد استرجع، وزادهم من فضله ما تمنّوه، فكيف بمن يوحدونه ويؤمنون به، لو صدقت نيأتنا وصحت ضمائنا؟

وقال الواقدي^(٥): توفي رسول بعض الملوك بدمشق، في خلافة هشام^(٦) فوجد في جيبه لوح من ذهب، مكتوب فيه: إذا ذهب الوفاء نزل البلاء، وإذا مات الاعتصام عاش الانتقام، وإذا ظهرت الخيانات امتحنت^(٧) البركات.

(١) الدالة: مؤنث الدال وهي الجرأة.

(٢) الشرك: الشراكة بينك وبينهم.

(٣) دأب دأبا ودؤوبا في العمل: استمر عليه فهو دائب ودؤوب.

(٤) ضرائر: جمع ضروري.

(٥) الواقدي محمد بن عمر بن واقد السهمي من أقدم المؤرخين في الإسلام تولى قضاء بغداد واتصل بخالد البرمكي كان عالما إماما له عدة تصانيف منها المغازي والفتوحات، توفي سنة ٢٠٧ هـ، (الأعلام ٣١١/٦).

(٦) أي هشام بن عبد الملك الأموي العاشر وقد سبقت ترجمته.

(٧) امتحنت: زالت.

وقال الوضّاحي^(١) : وجّه أنوشروان رسولا له إلى ملك قد أجمع على محاربته ، وأمره أن يتعرّف سيرته في نفسه ورعيته ، فرجع إليه ، فقال : وجدتُ عنده الهزلَ أقوى من الجد ، والكذبُ أكثرَ من الصدق ، والجورُ أرفعَ من العدل ، فقال أنوشروان : رزقتَ الظفرَ به ، سرّ إليه ، وليكن عملك في محاربته بما هو عنده أضعفُ وأقلُّ وأوضع ، فإنك منصورٌ وهو مخذولٌ ، فسار إليه^(٢) فقتله ، واستولى على مملكته .

وقال بُزرجهر : المزعجُ آفةُ الجدِّ ، والكذبُ عدوُّ الصدق ، والجورُ مفسدةُ الملكِ فإذا استعملَ الملكُ الهزلَ ذهبتْ هيبتُهُ ، وإذا استصحَبَ الكذبُ استُخِفَّ به ، وإذا بسطَ الجورُ فسَدَ سلطانهُ .

وكان نقش خاتم رستم - وهو أحد ملوك الفرس - الهزلُ مبغضةً ، والكذبُ منقصةً ، والجورُ مفسدةً .

وقُتِلَ لبعض أصحاب (اسفنديار)^(٣) رجلٌ من الترك ، فأصيب^(٤) في عنقه لوح ذهب ، مكتوب فيه : آفةُ الشدةِ التهيبُ ، وآفةُ المنطقِ الحياءُ ، وآفةُ كلِّ شيءٍ الكذبُ .

وقيل لبعض الحكماء : ما قيمة الصدق ؟ قال : الخلدُ في الدنيا . قيل : فما قيمة الكذب ؟ قال : موتٌ عاجلٌ . قيل : فما قيمة العدل ؟ قال : مُلكُ الأبد . قيل : فما قيمة الجور ؟ قال : ذلُ الحياة .

وقال : وسألَ ملكَ الهند الإسكندر - وقد دخل بلاده - ما علامةُ الملكِ ودولتهُ ؟ قال له : الجد في كل الأمور . قال : فما علامةُ زواله ؟ قال : الهزلُ فيه . قال : فما سرور الدنيا ؟ قال : الرضا بما رُزقت . قال : فما غمُّها ؟ قال : الحرص على ما لعلَّك لا تناله .

(١) الوضّاحي : محمد بن الحسن بن علي بن الوضاح الأنباري أبو عبد الله ، شاعر أصله من الأنبار ، انتقل إلى خراسان ونيسابور - وعلت شهرته توفي في نيسابور سنة ٣٥٥ هـ ، (الأعلام ٦ / ٩٧) .
(٢) في (خ) فسار إليه فعمل بما أوصاه فقتله .

(٣) اسفنديار بن بشتاسب من ملوك الفرس ، ملَّك تركيا لما نقضت الصلح مع والده بشتاسب ، فسار إليهم وقتل وسبى ودوخ البلاد ثم سيّره والده إلى رستم وقتله ، انظر : الكامل في التاريخ ٢٠٨ / ١ وما بعدها .

(٤) أصيب في عنقه : أي وُجد في عنقه .

وقال بزرجمهر: ثلاثٌ هُنَّ سرورُ الدنيا، وثلاثٌ هُنَّ غمُّها، فأما السرور: فالرضا بالقسم، والرضا بالطاعة في النعم^(١)، ونفى الاهتمام بالرزق لغد. وأما الغم: فحرص مسرف، وسؤال مجحف، وتمنى ما يُلْهِف.

ومر بعض الملوك بسلام يسوق حماراً غير منبعث^(٢) وقد عَنَّف عليه في السوق، فقال: يا سلام أرفق به، فقال السلام: يا أيها الملك، في الرفق به مضرة عليه، قال: وما مضرته؟ قال: تطول طريقه ويشتدُّ جوعه، وفي العنف إحسان إليه. قال: وما الإحسان إليه؟ قال: يخفُّ حملة ويطولُ أكله، فأعجب الملك بكلامه، وقال له: قد أمرت لك بألف درهم، قال: رزقٌ مقدور، وواهبٌ مأجور، قال: قد أمرت بإثبات اسمك في حشمتي. قال: كُفيتُ مئونة، ورُزقت بها معونة، قال: لولا أنك حديثُ السن لاستوزرتك. قال: لن يُعَدِم الفضل من رزق العقل. قال: فهل تصلح لذلك؟ قال: إنما يكون الحمدُ والذمُّ بعد التجربة، ولا يعرف الإنسان نفسه حتى يبلُوها. قال: فاستوزره فوجده ذا رأيٍ صليب وفهم رحيب^(٣)، ومشورةٍ تقعُ مواقعَ التوفيق.

قال: وكتب الإسكندر إلى أرسطاطاليس^(٤) - وقد نفذ في الشرق والغرب، وبلغ منهما ما لم يبلغه أحد قبله - اكتب إليّ وعظاً موجزاً ينفع ويردع، فكتب إليه: إذا استولت بك السلامة فجددْ ذكر العطب، وإذا هتَكَ العافية فحدثْ نفسك بالبلاء، وإذا اطمأنَّ بك الأمن فاستشعر الخوف، وإذا بلغت نهاية الأمل فاذكر الموت، فإن أحببت نفسك فلا تجعل لها في الإساءة إليها نصيباً.

قال: ووعظ بعض الحكماء ملكاً فقال له: أيها الملك؛ إن الدنيا دار عمل، والآخرة دار ثواب، ومن لا يُقَدِّم لا يَجِدْ، فَهَنَ نفسك حلاوة عيشها بترك الإساءة إليها، واعلم أن زمام العافية بيد البلاء، وأمن السلامة تحت جناح العطب، وباب الأمن مستور بالخوف، فلا تكونن في حال من هذه الثلاثة غير

(١) غير منبعث: أى بطيء في سيره لأنه مقيد بقيد.

(٢) في (خ) والعمل بالطاعة في النعم.

(٣) وجده صلب الرأي واسع الفهم.

(٤) أرسطاطاليس: مربى الإسكندر فيلسوف يوناني من كبار مفكرى اليونان وتأثر كثير من المفكرين عبر العصور بفكره وتأليفه التي نقلت للعربية قيل إنه مات (٣٢٢ ق. م)

متوقع لأضدادها، ولا تجعل نفسك غرضاً^(١) لسهام الهلكة، فإن الدهر عدو ابن آدم، فاحترز من عدوك بغاية الاستعداد، وإذا فكرت في نفسك وعدوها استغثت عن الوعظ.

قال: وكتب الإسكندر على باب الإسكندرية: أجل قريب في يد غيرك، وسوق حثيث من الليل والنهار^(٢)، وإذا انتهت المدة حيل بينك وبين العدة^(٣)، فاحتل قبل المنع، وأكرم أجلك بحسن صحبة السابقين^(٤)، وإذا آنتك السلامة فاستوحش بالعطب، فإنه الغاية، وإذا فرحت للعافية فاحزن للبلاء، فإنه تكون الرجعة، وإذا بسطك الأمل فاقبض نفسك عنه بذكر الأجل، فهو الموعد وإليه المورد.

وقال ابن الأعرابي^(٥): حدثني من رأى بين أصبهان وفارس حجراً مكتوباً عليه: العافية مقرونة بالبلاء، والسلامة مقرونة بالعطب، والأمن مقرون بالخوف.

ولما ضرب أنو شروان عنق بزرجمهر - لما رغب عن دين المجوسية وانتقل إلى دين المسيح عليه السلام - وجد في منطقته^(٦) كتاباً فيه ثلاث كلمات: إذا كان القدر حقاً فالحرص باطل، وإذا كان الغدر في الناس طباعاً فالثقة بكل أحد عجز، وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق.

ولما تاب الله تعالى على النبي سليمان عليه السلام، ورد عليه ملكه كتب على كرسيه: إذا صحت العافية نزل البلاء، وإذا تمت السلامة نجم العطب، وإذا تم الأمن علن الخوف^(٧).

(١) الغرض: البغية والقصد والهدف.

(٢) تعاقب سريع لليل والنهار.

(٣) العدة: الاستعداد.

(٤) في (ط) السابقين.

(٥) ابن الأعرابي محمد بن زياد أبو عبد الله المعروف بابن الأعرابي - راوية وناسب وعلامة باللغة من أهل الكوفة، أبوه مولى للعباس بن محمد بن علي الهاشمي، كان يحضر مجلسه زهاء مائة إنسان يسأل فيجيب من غير كتاب له تصانيف كثيرة منها أسماء الخيل وفرسانها وفي الشعر مات بسامراء سنة ٢٣١ هـ، (الأعلام ٦/ ١٣١).

(٦) منطقته: حزامه.

(٧) علن: انتشر.

وحفر حفير^(١) بفارس، فوجد فيه لوح رخام، فيه أربعة أسطر محفورة، أولها: أيُّها المُعافى أبشر بالبلاء. والثاني: أيُّها السالم توقَّع العطب، والثالث: أيُّها الآمن خذ أهبة الخوف، والرابع: أيُّها الموسر لن يبعد عنك العسر.

ولما نزل أبو مسلم^(٢) مدينة سمرقند، أتاه أسبَهَنْدُها^(٣). فقال: أيُّها الملك إن بالقنْدَهَار^(٤) حجرا مدفونا فيه ثلاثة أسطر، وجدت في الكتب، أن سليمان بن داود عليهما السلام بعث به ودُفِنَ في هذا الموضع، ووُجِدَ أنك أنت الذي تستخرجه، وتعمل بما فيه، فأمر به فأُخرج، فإذا أول سطر منه: الحزم انتهاز الفرصة وترك الونى^(٥) فيما يُخاف عليه الفُوت، والسطر الثاني: الرِّياسة لا تتم إلا بحسن السياسة، والسطر الثالث: لم يُقتل الآباء من ترك الأبناء، ولم يُصب من لم يُخَب^(٦).

فكان أبو مسلم يقول: علمٌ جليل به تتمُّ هذه الدولة، إن لم ينزل القدر بما يحولُ بيننا وبين الحذر، فلم يزل يستعمل هذا الكلام إلى أن قدم العراق فأعماه القدر عن الاستعانة بالحذر، فقتله أبو جعفر المنصور.

ولما حج أبو مسلم قيل له: إن بالحيرة نصرانياً قد أتت عليه مائتا سنة، وعنده علم من العلم الأوَّل، فوجَّه إليه فأتى به، فلما نظر الشيخ إلى أبي مسلم قال: قدمت بالكفاية، ولم تألُ^(٧) في العناية، وقد بلغت النهاية، أحرقتَ نفسك لمن سيُسَكَّتُ حِسْكُك، وكان قد عاينتَ رمسك^(٨). فبكى أبو مسلم.

(١) حفرة وحفير وحفيرة بمعنى واحد.

(٢) هو أبو مسلم الخراساني عبد الرحمن بن مسلم أحد كبار القادة الذين قامت على أكتافهم ولادة الدولة العباسية أرسله إبراهيم بن محمد إلى خراسان فأقام فيها داعية ولما استمال أهلها وثب على الكرمانى فقتله واستولى على نيسابور وخطب باسم السفاح ثم قاتل جيش مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وهزمه وصفا الجوّ للعباسين ولما جاء أبو جعفر المنصور خشى من طمع أبو مسلم فقتله سنة ١٣٧ هـ، (الأعلام ٣/ ٣٣٧).

(٣) أى أسقفها.

(٤) القندهار: مدينة في جنوب أفغانستان.

(٥) الونى: أى التأنى.

(٦) لم يُصَب من لم يُخَب: لا يتأذى من يتأنى ولم يتعجل.

(٧) لا يأل: لا يقصّر.

(٨) الرمس: القبر مستويا لا يعلو عن وجه الأرض.

فقال : لا تبك فإنك لم تؤتَ من حزم وثيق، ولا من رأى رتيق^(١)، ولا تدبير نافع، ولا من سيف قاطع، ولكن ما استجمع أحد لأمله إلا أسرع في تقريب أجله، قال : فمتى تراه يكون؟ قال : إذا تواطأ الخليفتان على أمر كان، والتقدير في يدَي من يبطلُ معه التدبير، وإن رجعتَ إلى خراسان سلمت، وهيئات . فأراد الرجوع، فكتب إليه السلطان بالمضى، ووجهَ إليه من يحثه، فلولا أن البصر يعمى إذا نزل القدر، لكانت هذه دلالةً تقع موقع العيان، وتبعث على التيقُّظ في الحذر، والاحتياي في الهرب، على أن لكل نفس غاية، ولكل أمر نهاية.

وقيل لجالينوس^(٢)، وهو حكيم الطب وفيلسوفه - وقد نهكته العلة - ألا تتعالج؟ فقال : إذا كان الداء من السمَاء بطل الدواء، وإذا قدر الربُّ بطلَ حذرُ المربوب^(٣)، ونعم الدواء الأجل وبئس الداء الأمل .

وقال بعض الغزاة : فتحنا حصناً من بلاد الروم، فرأينا فيه صورة أسدٍ من حجر، مكتوب عليه : الحيلةُ خيرٌ من الشدة، والتأني أفضل من العجلة، والجهل في الحرب أحزم من العقل، والتفكر في العاقبة مائة الجزع .

وقال أحمد بن سهل^(٤) : وجه ملك الروم إلى هارون الرشيد بثلاثة أسياف، مع هدايا كثيرة، وعلى سيف منها مكتوب : أيها المقاتل : احمل تَغْنَمٌ، ولا تفكر في العاقبة فتَهْزَم، وعلى الثاني منها مكتوب : إذا لم تصل ضربة سيفك فصلها بالقاء خوفك، وعلى الثالث مكتوب : التأني فيما لا يخاف عليه الفوات أفضل من العجلة إلى إدراك الأمل .

(١) الرأي الرتيق : الصائب والصالح .

(٢) جالينوس : طبيب يوناني اشتهر خاصة باكتشافاته في التشريح، ترجم العرب مؤلفاته وأخذوا من علومه، قيل مات سنة ٢٠١ هـ .

(٣) المربوب : المخلوق .

(٤) أحمد بن سهل البلخي : أحد الكبار الأفاضل من علماء الإسلام، جمع بين الشريعة والفلسفة والأدب والفنون له مصنفات كثيرة منها ما سبق به علماء البلدان في الإسلام كافة إلى استعمال رسم الأرض في كتابه (صور الأقاليم الإسلامية)، توفي سنة ٣٢٢ و قيل سنة ٣٤٠ هـ، (انظر : الأعلام ١٣٤ / ١، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ٤ / ١٩٦) .

وقال الحسن بن سهل ^(١): قرأت في كتاب (جاويدان خرد) ^(٢) ثلاث تبطل مع ثلاث: الشدة مع الحيلة، والعجلة مع التأني، والإسراف مع القصد. وقال الخضر بن علي: رأيت بعدن ^(٣) حَجراً مكتوب عليه - مكتوب بالحميرية ^(٤) - أيها الشديد: احذر الحيلة، أيها العجول: احذر التأني، أيها المحارب: تأيس ^(٥) من الفكر في العاقبة، أيها الطالبُ موجوداً: لا تقطع أملك من بلوغه.

وكتب قيصر إلى كسرى: أخبرني بأربعة أشياء لم أجد من يعرفها، وأخالها ^(٦) عندك: أخبرني ما عدو الشدة؟ وصديق الظفر؟ ومُدرك الأمل؟ ومفتاح الفقر؟ فكتب إليه: الحيلة عدو الشدة، والصبر صديق الظفر، والتأني مُدرك الأمل، والجور ^(٧) مفتاح الفقر.

وقال بعض الملوك لحكيم - وأراد سفراً -: أوقفني على أشياء من حكمتك أعمل بها في سفري، فقال: اجعل تأنيك زمامَ عَجَلَتِكَ، وحيلتك رسولَ شِدَّتِكَ، وعفوك ملكَ قُدْرَتِكَ، وأنا ضامن لك قلوب رعيّتك، إن لم تُخرجهم بالشدة، أو تُبْطِرهم بالإحسان إليهم.

وقال الخضر بن علي: قرأت في كتاب (جاويدان خرد) - وهو أجلُّ كتاب للفُرس -: الحيلة أنفع من أقوى الشدة، وأقلُّ التأني أجلُّ من أكثر العجلة، والدولة رسولُ القضاء المبرم، وإذا استبدَّ الإنسانُ برأيه عَمِيَ عليه المرشد. وكان البختكان أبو بزرجمهر خامل القدر، وضعَّ الحال، مُفْهَهُ ^(٨) المنطق، فلما أتت لبزرجمهر خمس عشرة سنة، حضر في مجلس الملك،

(١) الحسن بن سهل: وزير المأمون الخليفة العباسي ونسيبه وأحد كبار القادة والولاة في عصره. سبقت ترجمته.

(٢) كتاب جودان خرد: كتاب فارسي سبق الحديث عنه.

(٣) عدن: عاصمة اليمن الجنوبي تقع على خليج عدن بالقرب من باب المندب.

(٤) الحميرية: نسبة إلى حمير في بلاد اليمن، كانت لهم دولة قوية عاصمتها ظفار.

(٥) تأيس من الفكر في العاقبة: كن يائساً من التفكير....

(٦) أخالها: أحسبها وأظنّها.

(٧) الجور: الظلم.

(٨) مُفْهَهُ المنطق: من ينطقه عيَّ وعسر.

وقد جلست الوزراء على كراسيها، والمرزابة (١) في مجالسها، وقف بحيال الملك ثم قال: الحمد لله المأمول نعمه، المرهوب نقمه، الدالّ عليه بالرغبة إليه، المؤيد الملك بسعوده في الفلك، حتى رُفِعَ شأنه وعَظُمَ سلطانه، وأَنَارَ به البلاد، وأعاش به العباد، وقَسَمَ له في التقدير وجوه التدبير، فرعى رعيته بفضل نعمته، وحماها بالمؤيدات (٢)، وأوردها المعشبات (٣)، وذادها عن الآكلين (٤)، وألّفها بالرفق واللين، إنعاماً من الله تعالى عليه، وتثبيتاً لما في يديه، وأسأله أن يبارك له فيما آتاه، ويُخَيِّرَ له فيما استرعاه، ويرفع قدره في السماء، وينشر ذكره تحت الماء، حتى لا يبقى له بينهما مناوى (٥)، ولا يجد له فيهما مدانى (٦)، وأستوهبُ له حياة لا تنغيص فيها، وقدرة لا شاذُّ عنها، وملكاً لا بُؤس فيه، وعافية تديم له البقاء وتكثر له النماء، وعزاً يؤمنه من انقلاب رعية، أو هجوم بليّة، فإنّه مولى الخير، ودافع الشر.

فأمر الملك فحشى فمه بثمانين الجواهر ورفيعه، ولم يدفع حداثة سنه مع نبيل كلامه أن استوزره، وقلّده خيرَه وشرّه، فكان أوّل داخلٍ وآخر خارج.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما لله على العاقل نعمة بعد الإسلام أفضل من مباينة هذه السفلة (٧) بالفهم والعقل. ولو لم يكن هذا، ما عرف الله تعالى إلا بالجهل، ألا ترى أن الله تعالى خاطب أولى النهى، وذوى الألباب وذوى البصائر، ويجب على العلية أن يحمداوا الله تعالى، على مباينتهم هذه السفلة بالعقول والأفهام، كما يحمدونه على جميع النعم.

وقيل لمروان بن محمد - وهو آخر ملوك بني أمية -: ما الذى أشارك إلى هذا؟ قال: الاستبداد برأى، لما كثرت عليّ كتب نصر بن سيار (٨) أن أمدّه

(١) المرزابة: كلمة فارسية وتعنى الرؤساء، واحدهم مرزبان.

(٢) المؤيدات: كل ما تؤيد وتقوى به.

(٣) المعشبات: الأرض الكثيرة العشب.

(٤) ذادها عن الآكلين: حماها من المفترسين.

(٥) مناوى: معادي.

(٦) مدانى: قريب، من دنا يدنو.

(٧) مباينة هذه السفلة: مخالفة أراذل الناس وسفهاءهم، والنص هذا في محاضرات الأدياء

للأصفهاني ٣٧٥/١.

(٨) نصر بن سيار كان والياً لمروان بن محمد على خراسان وكان يحاربه أبو مسلم الخراساني

ليأخذ السلطة منه وقد سبقت ترجمته.

بالأموال والرجال، قلت في نفسي: هذا رجل يريد الاستكثار من الأموال والجند، بما يظهر لى من فساد الدولة قبله، وهيهات أن ينتقص^(١) علي خراسان. فانتقضت دولته من خراسان.

وقال الواقدي^(٢): قال الفضل بن سهل^(٣): لما دُعي للمأمون في كور خراسان بالخلافة، جاءتنا هدايا الملوك، سروراً بمكانه من الخلافة، ووجه ملك كابليستان^(٤) شيخاً يقال له (ذوبان) وكتب يذكر انه قد وجهه بهدية، ليس في الأرض أسنى منها، ولا أرفع ولا أنبل ولا أفخر منها، فعجب المأمون، وقال: سل الشيخ ما معه؟ فسألته. فقال: ما معي شيء أكثر من علمي، قلت: وأي شيء علمك؟ قال: رأى ينفع، وتدبير يقطع، ودلالة تجمع، قال: فسُـرَّ المأمون بذلك، فأمر بإنزاله وإكرامه وكتمان أمره، فلما أجمع على التوجه إلى العراق لقتال أخيه^(٥)، قال لذوبان: ما ترى في التوجه إلى العراق؟ قال: رأى وثيق، وحزم مصيب، ومُلك قريب، فالسَّير ماض، فاقض ما أنت قاض. قال له: فمن نوجه؟ قال: الفتى الأعور الطاهر^(٦) الأطهر، يسير ولا يعثر، قوى مرهوب، مقاتل غير مغلوب، قال: فكم نوجه من الجند؟ قال: أربعة آلاف، صوارم الأسياف، لا ينتقصون العدد، ولا يحتاجون إلى المدد. فسُـرَّ المأمون بذلك، ووجه بطاهر بن الحسين، قال: وفي أي وقت يخرج؟ قال: مع طلوع الفجر، يجمع لك الأمر، ويصير إلى النصر، نصر سريع وقتل ذريع، وتفريق تلك الجموع، والنصر له لا عليه، ثم يرجع الأمر إليك وإليه، فظفر طاهر وكان له النصر، وقُـتِلَ علي بن عيسى^(٧) - وزير الأمين - واستولى على عسكره، وحاز أمواله.

(١) ينتقص الناس على الإمام: يخرجوا عليه.

(٢) الواقدي المؤرخ المشهور. سبقت ترجمته.

(٣) الفضل بن سهل وزير الخليفة المأمون. وسبقت ترجمته.

(٤) كابليستان هي أفغانستان وعاصمتها كابل. (٥) أي لقتال أخيه الأمين بن الرشيد.

(٦) يقصد طاهر بن الحسين القائد الذي وطد الملك للمأمون وقتل الأمين وبعث برأسه لأخيه

وقد كان أعور، وقد سبقت ترجمته.

(٧) علي بن عيسى بن ماهان، أحد كبار القادة في عصر الرشيد والأمين ولده، وهو الذي حرَّض

الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد، وسَيَّرَه الأمين لقتال المأمون بجيش كبير، فتلقاه طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون - كما في النص - في الري وقُـتِلَ ابن ماهان وانهزم أصحابه وكان ذلك سنة ١٩٥ هـ، (الأعلام ٤/ ٣١٦).

فأمر الملك لذوبان بمائة ألف درهم، فلم يقبلها، وقال : أيها الملك : إنَّ ملكي لم يوجَّهني إليك لأنَّقصكَ مالك، فلا تجعل ردِّي لنعمتك تسخَّطاً^(١)، وسأقبل ما يفي^(٢) هذا المال ويزيد عليه، قال المأمون : وما هو ؟ قال : كتاب يوجد بالعراق، فيه مكارم الأخلاق وعلوم الآفاق، من كتب عظيم الفرس، فيه شفاء النَّفس من صنوف الأداب، بما ليس في كتاب عند عاقل لبيب، ولا فطن أريب، يوجد تحت إيوان بالمدائن^(٣) فيقاس بالذُّرعان في وسط الإيوان، لا زيادة ولا نقصان، فاحفر المدر^(٤)، واقلع الحجر، فإذا وصلت إلى الساحة^(٥) فاقلعها تجد الحاجة، ولا تلزم غيرها فيلزمك عبء ضرِّها، فأرسل المأمون إلى إيوان كسرى، فحفروا في وسطه، فوجدوا صندوقاً صغيراً من زجاج، عليه قفلٌ منه، فحُمِلَ إلى المأمون، فقال لذوبان : هذا بُغيتك ؟ قال نعم أيها الملك. قال : خذها وانصرف. فتكلم بلسانه ونفخ في القفل فانفتح، فأخرج منه خرقة ديباج، فنشرها فسقط منها أوراق، فعدها مائة ورقة، ولم يكن في الصندوق شيء غيرها، فأخذ الأوراق وانصرف إلى منزله، قال الفضل بن سهل : فجئته فسألته ؟ فقال : هذا كتاب (جاويدان خرد)^(٦) تأليف : (كيجور) - وزير ملك إيران شهر - فطلبت منه شيئاً. فدفع إليَّ ورقات منه، وترجمها لي الخضر بن علي، ثم أخبرت المأمون، فقال : احمل إليَّ الورقات، فحملتها إليه. فقرأها، فقال : والله هذا الكلام لا ما نحن فيه، من ليَّ ألسنتنا في فجوات أشداقنا، ولولا أن العهدَ حبْلٌ طرفه بيد الله وطرفه بأيدينا لأخذته.

* * *

(١) تسخَّطاً : كراهية وعدم رضا.

(٢) ما يفي : ما يساوي.

(٣) أي إيوان كسرى الموجود في المدائن بجانب بغداد.

(٤) المدر : الطين.

(٥) الساحة : الخشبة الواحدة المربعة، وفي (خ) الساحة.

(٦) كتاب (جاويدان خرد) فارسي، سبق أن أخذ منه المؤلف الكثير من الحكم.

الفصل الثانی

(يشتمل على: حكم لحكيم الفرس خاصة) (١)؛

من نوادر بزرجمهر- حكيم الفرس- قال (٢)؛

نصحنی النصحاء ووعظنی الوعطاء، شفقة، ونصيحة، وتأديباً، فلم يعظني أحدٌ مثل شيبى، ولا نصحنى مثل فكرى.

ولقد استضأت بنور الشمس وضوء القمر، فلم أستضيء بشئ أضوأ من نور قلبى .
وكنت عند الأحرار والعبيد، فلم يملكنى أحد، ولا قهرنى غير هواى،
وعادانى الأعداء، فلم أر أعدى من نفسى إذا جهلت، واحترزت لنفسى بنفسى
من الخلق كلهم، حذراً عليها وشفقة، فوجدتها أشرّ الأنفس لنفسها، ورأيت
أنه لا يأتىها الفساد إلا من قبلها.

وزحمنى المضايق فلم يزحمنى مثل الخلق السوء.

ووقعت من أبعد البعد وأطول الطول، فلم أقع فى شئ أضرّ علىّ من لسانى .
ومشيت على الجمر، ووطئت على الرمضاء (٣)، فلم أر ناراً أحر من
غضبى إذا تمكن منى .

وطالبنى الطلاب، فلم يدركنى مدرك مثل إنسانى (٤)، ونظرت : ما الداء
القاتل ؟ ومن أين نالنى ؟ فوجدته من معصية ربى سبحانه .

والتمسْتُ الراحةَ لنفسى، فلم أجِد شيئاً أروحَ لها من تركها ما لا يعينها .
وركبتُ البحار ورأيتُ الأهوال، فلم أرَ هولاً مثل الوقوف على سلطان جائر .
وتوحشتُ فى البريةِ والجبال، فلم أرَ مثل القرين السوء (٥).

وعالجتُ السَّباع والضَّبَّاع والذئاب وعاشرتهاا وغلبتها، فغلبنى صاحب
الخلقُ السَّوء.

(٢) سقطت كلمة (قال) من (ط).

(١) من إضافات المحقق.

(٣) الرمضاء : الأرض الحارة.

(٤) هكذا فى (ط) أى شخصى، وفى (خ) أساتى : أى من يواسونى.

(٥) فى (خ) فلم أرَ أوحش من القرين السوء.

وأكلتُ الطيب، وشربتُ المسكر، وعانقتُ الحسان، فلم أجد شيئاً ألدَّ من العافية والأمن.

وتوسَّطتُ الشياطين، والجبال، والسَّباع، فلم أجزع إلا من الإنسان السَّوء. وأكلتُ الصبر، وشربتُ المر، فلم أرَ شيئاً أَمَرُّ من الفقر.

وشهدتُ الحروب، وتعبئة الجيوش، وباشرتُ السيوف، وصارعتُ الأقران^(١)، فلم أرَ قريناً أغلب من المرأة السَّوء.

وعالجتُ الحديد، ونقلتُ الصخر، فلم أرَ حملاً أثقل من الدين. ونظرتُ فيما يُذلُّ العزيز، ويكسر القوي، ويضعُ الشريف، فلم أرَ أذلَّ من ذي فاقة وحاجة.

ورشقتُ بالنُّشاب^(٢)، ورجمتُ بالحجارة، فلم أرَ أنفذَ من الكلام السَّوء، يخرج من فم مُطالب بحق.

وعمرتُ السَّجن، وشددتُ في الوثاق، وضربتُ بعُمَدِ الحديد، فلم يهدمني مثل ما هدمني الغم، والهَم^(٣)، والحزن.

واصطنعتُ الإخوان، وانتخبتُ الأقوامَ للعدَّة، والشَّدة، والنَّابة، فلم أرَ شيئاً أخيرَ من التَّكْرُم عندهم.

وطلبتُ الغنى من وجوهه، فلم أرَ أغنى من القُنوع.

وتصدَّقتُ بالذَّخائر، فلم أرَ صدقةً أنفعَ من ردِّ ذي ضلالةٍ إلى هدى.

ورأيتُ الوحدة، والغربة، والمذلة، فلم أرَ أذلَّ من مُقاساة الجار السَّوء.

وشيدتُ البُنيان لأعزُّ به وأذكر، فلم أرَ شرفاً أرفعَ من اصطناع المعروف.

ولبستُ الكُسا الفاخرة، فلم ألبس شيئاً مثل الصَّلَاح.

وطلبتُ أحسن الأشياء عند الناس، فلم أجد شيئاً أحسنَ من حُسن الخلق.

وسررتُ بعطايا الملوك وحبائهم^(٤)، فلم أَسْرُ بشيء أكثرَ من الخلاصِ منهم.

* * *

(١) الأقران: مفردهما قرين وهو الكفو والنظير في العلم والشجاعة.

(٢) النشاب: السهام.

(٣) سقطت كلمة (الهَم) من (خ).

(٤) الحباء: العطاء بلا من ولا جزاء.

الفصل الثالث

(يشتمل على: حكم لحكيم السند خاصة)^(١)؛

ومن حكم (شاباق السندي) من كتابه الذي سماه (منتحل الجواهر) للملك بن قمايص الهندي)^(٢)؛

يا أيها الملك، اتق عشرات الزمان، واخش تسلط الأيام، ولؤم غلبه^(٣) الدهر .
واعلم: أن للأعمال جزاء فاتق العواقب، وللأيام عشرات^(٤) فكن على حذر، وللأقدار مغيبات^(٥) فاستعد لها، وللزمان منقلب فاحذر دولته، لنسيم الكرة فحفر سطوته، سريع الغرة فلا تأمن دولته .

واعلم: أن من لم يُداو نفسه من سقام الآثام في أيام حياته، فما أبعده من الشفاء في دار لا دواء له بها، ومن أذل حواسه واستعبدها فيما يُقدم من خير لنفسه، بأن فضله وظهر نبُله، ومن لم يضبط نفسه وهي واحدة، لم يضبط حواسه وهي خمس، وإذا لم يضبط حواسه مع قلتها وذلّتها، صعب عليه ضبط الأعوان مع كثرتهم وخشونة جانبهم، فكانت عامة الرعية في قواصي البلاد وأطراف المملكة أبعد من الضبط .

فليبدأ الملك بسلطانه على نفسه، فليس من عدوٍّ أحقُّ أن يبدأه بالقهر من نفسه، ثم يشرع في قهر حواسه الخمس، لأن قوة الواحدة منهن دون صواحبتها، قد تأبى على النفس القوية الحذرة، فكيف إذا اجتمعت خمس أنفس على واحدة؟!
واعلم: أن لكل واحدة منهن شرّة ليست للأخرى، فميزها تسلم من شرّها .
وإنما يهلك الحيوان بالشهوات: ألا ترى أن الفراش يكره الشمس فيسكن من حرها، ويعجبه ضياء النار فيدنو منها فتحرقه، والطبيب على نفار قلبه

(١) من إضافات المحقق .

(٢) هكذا في (ط)، وفي كشف الظنون [كتاب منتحل الجواهر لشاناق الهندي الطبيب ألفه بعض ملوك الهند في زمانه، ويقال له بن قمانص الهندي] كشف الظنون ١٨٤٨/٢ .

(٣) في (ط) عليه: أي: علو وغلبة .

(٤) في (خ) وللأيام غدرات .

(٥) في (خ) وللأقدار مغبات .

وشدة حرصه، ينصت للسماع المونق^(١) الملهي فيمكن القانص من نفسه .
وذباب الورد المتبع لطيب الأراج^(٢)، يطلب ما يقطر من أذن الفيل لطيب
رائحته، فإنه في طيب رائحة المسك، فيلهيه طيب الرائحة^(٣) عن الاحتراس
من تحريك الفيل أذنه، فيتولج في أصل أذنه، فتقع عليه ضربة الأذن فتقتله،
والسمك في البحر تحمله لذة الطعم أن يبتلعه فتحصل الصنارة في جوفه،
فيكون فيه حتفه .

وذكر الحكيم: أن خصالاً معروفة، قتلت بالإفراط فيها ملوكاً
معروفين^(٤)، فالصيد مات فيه (قيدة) الملك، والإفراط في العهار^(٥) مات
منه (قفيشون) الملك، والإفراط في السكر مات فيه (حازق) الملك، وشدة
الحرص مات منه (مهریق) الملك. والغضب (أخرسخي) الملك، والطمع
(وائل)، والفرح و(اطاب)، والأنفة (بوليس)، والتواني (زمير بهر)،
وأخلق بخصال أهلك ملوكاً يجتنبها الملوك .

واعلم: أن الرعية تستظمي^(٦) إلى الملك العادل، استظماء أهل الجذب
إلى الغيث، وينتعشون بطلعته عليهم كانتعاش النبات بما يناله من القطر، بل
الرعية بالملك العادل أتم نفعاً منها بالغيث، لأن لمنفعة الغيث وقتاً معلوماً،
وعدل الملك على الدوام لا يتعين له وقت .

ويحسن بالملك أن تشبه تصاريه بتدبيره بطباع ثمانية أشياء وهي:
الغيث، والشمس، والقمر، والرياح، والنار، والأرض، والماء، والموت .

فأما شبه الغيث: فتواتره في أربعة أشهر من السنة، ومنفعته لجميع السنة،
كذلك ينبغي للملك أن يعطي جنده وأعوانه في الأربعة الأشهر تقديراً لتتممة
السنة، فيجعل رفيعهم ووضعهم في الحق الذي يستوجبونه، بمنزلة واحدة،

(١) المونق: الحسن المعجب ومنه الأنافة .

(٢) الأراج: جمع أريج .

(٣) في (خ) فيلهيه طيبه .

(٤) هؤلاء مجموعة من الملوك الهالكين عبر الأزمان نتيجة افراطهم في مجموعة من الخصال لم

تتح لى الفرصة التأكد من سيرتهم .

(٥) العهار: من العهر والفجور، وفي (خ) القمار .

(٦) من الظما وهو العطش .

كما يسوَّى المطربين كل أكمة ^(١) مشرفة وغائط مستفل ^(٢)، ويغمر كلاً من مائة بقدر حبة، ثم يستجبي الملك في الثمانية الأشهر حقوقه من غلاتهم وخراجهم، كما تُسخنُ الشمسُ بحرَّها وشدة فعلها، نداوة الغيث والأمطار، في الأربعة الأشهر.

وأما شبهُ الريح: فإنَّ الريحَ لطيفة المداخل، تسرح في جميع المنافذ حتى لا يفوتها مكان، كذلك الملك، ينبغي أن يتولَّج قلوب الناس بجواسيسه وعيونهم، لا يختفون عنه بشئ حتى يعرف ما يأتَمرون به في بيوتهم وأسواقهم، وكالقمر إذا استهل أيامه، فأضاء واعتدل نوره على الخلق وسرَّ الناس بضوئه، ينبغي أن يكون الملك ببهجه وزينته، وإشراقه في مجلسه، وإيناسه رعيته ببشره، فلا يخصُّ شريفاً دون وضعٍ بعدله.

وكالأرض: في كتمان السر، والاحتمال، والصبر، والأمانة.

وكالنار: على أهل الدعارة والفساد.

وكعاقبة الموت في الثواب والعقاب، يكون ثوابه، لا يُقصرُ عن إقامة حد ولا يتجاوزَه.

وكالماء: في لينه لمن لاينه، وهدمه وإقلاعه عظيم الشجر لمن حاربه.

واعلم: أنه قد يكتنف السلطان ^(٣) من شرار الناس والأعوان - على الحاجة إليهم - من يستبشع ويستكره، كالحيات تكتنف بالصنْدل ^(٤) فيقتلها الصنْدل بطيب رائحته وبرده ويُبسه، وينتفع الصنْدل بها، إذ لا يقرب منه من يريد أن يقطعه.

ليكن فيك مع تلطُّفك تشديدُ البلاء، فلا يتجرأ عليك، فإنَّ القمر يُستنار بضوئه ويظهر له، لكنَّ الشمسُ يُستظلُّ من حرِّها ويسكن لها، وقد قالت العرب في مثل هذا: (لا تكن حلواً فتسُطر ^(٥) ولا مرأاً فتُلُفُظ).

اجعل لكل طبقة من أعدائك، أشباههم من أعوانك يسوسونهم، فإنَّهم كالماء في الأذن، لا حيلة في إخراجهِ إلا بأَرْفَق من الماء الذي هو من جنسه.

(١) الأكمة: التل أو الموضع الذي يكون أكثر ارتفاعاً

(٢) الغائط المستفل: المنخفض من الأرض. (٣) يكتنف السلطان: يحيط به.

(٤) تكتنف الصنْدل: تحتمي به، والصنْدل: شجر طيب الرائحة.

(٥) يسُطر الشيء: يبتلعه.

إذا عاديت رجلاً فاسقاً فلا تعاد كلَّ جنسه^(١)، واستبق من دونه أحداً
فعسى تنتفع به، فإن السيفَ القاتل من جنس الدرع الواقى.
ولا تطمعن في الكذوب والمطبوع على الشرِّ، أن تُعطَفهُمَا بالإحسان
فإنهما كالقرد: كُلُّمَا سَمِنَ بِإِطْعَامِ الحلاوة والدَّسم، ازداد وجهه قبحاً.
قَدْ يَرُدُّ الواحد كيد الجميع إذا كان عاقلاً، كما يردُّ الظلَّ حرَّ شعاع
الشمس إذا كان وافياً^(٢).

غايةُ أرمى الناس: أن يقتل بسهمه واحداً، لكنَّ رميةَ عاقلٍ ذهنٍ تقتل
الجيش بأسره، والملك الشريف العاقل لا يتقد فيه^(٣) قدح أهل البغي، من
انقطع إليه ولزمه كان كالجوهر المضيء بنوره، لا تطفئه عصف^(٤) الرياح.
من كان قابلاً لما يُورد عليه من إصغائه إلى كلِّ قول يسمعه، كان كالسراج
يميلُ به كلُّ ريحٍ لينة^(٥) ثم لا يلبث أن عصفت الرياح أن يُطفأ.
تدبير الملك الحازم في سلطانه، كتعاهد صاحب البستان ببستانه، يُخرجُ
ناحل عيّدانه وشوك شجره، فيحيطُ به على ثمره وزرعه، ليقيه من الشرِّ
والفساد، كما ينتخبُ الملك أهل الشكيمة^(٦) والشوكة فيجعلهم في أقاصيه
وحدوده ردئاً للمملكة^(٧).

وليكن الملك أحذر ما يكون، آمن ما يكون.

قلت: وقد صدق الشاعر:

أَمِنْتُمْ رَبِّبَ الْمُنُونِ فَنِمْتُمْ فَلَرُبَّ خَوْفٍ مُكْمَنٍ فِي أَمَانٍ^(٨)

(١) هكذا في (خ) وهو الأولى، وفي (ط): [إذا عاديت رجلاً فلا تعاد جنسه].

(٢) في (خ) إذا كان وافياً. (٣) لا يتقد فيه: لا يؤثر فيه، وفي (خ) [لا ينفذ فيه].

(٤) عصفت الريح: اشتدت. (٥) الريح اللينة: الضعيفة.

(٦) ذو الشكيمة: الأنف الأبى القوى الذى لا يتقاد.

(٧) ردئاً للمملكة: مدافعا وداعماً وناصرها لها.

(٨) ورد هذا البيت في وفيات الأعيان لابن خلكان في ترجمة الوزير يعقوب بن كلّس الذي كان
يهودياً وخدم كافور الإخشيدي ثم أسلم وسار للمغرب وصار وزيراً للمعز الفاطمي ثم اعتقله ثم أطلق
سراحه، قال: وجدت رقعة في داره سنة ٣٨٠ هـ ونسختها:

احذروا من حوادث الأزمان وتوقّفوا طوارق الحداث

قد أمنتُم من الزمان ونمتُم رب خوف مكمن في أمان

فلما قرأها قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، واجتهد أن يعرف كاتبها فلم يقدر على ذلك (وفيات
الأعيان، ابن خلكان ٣٢/٧).

قال : ألا ترى أن (بهرشان) الملك ، انامت المرأة على فراشه رجلاً ، فلما رام فراشه وثب عليه فقتله ، و (باسراح) الملك قتلته امرأة^(١) بخلخال مسموم .

و(دروف) الملك قتلته امرأته بمدية ، خبأتها في عقاصها^(٢)

واعلم : أن العدو قد علم منك [مواقع الغرة]^(٣) ومواضع الحذر وحالات الأمن ، وإنما ترصده لك في حالات الأمن ، والمواضع التي تظن أن العدو لا يكمن فيها ، فكن أحذر ما يكون فيها .

وسائر حكم هذا الباب قد قدمتها في تراجم كتابنا [هذا]^(٤) .

* * *

(فصل في كراهة ظهور الملك أياماً معلومة)^(٥) :

قال غيره^(٦) : لا ينبغي للملك أن يكون له أيام معلومة يظهر فيها ، فإن في ذلك خصالاً مذمومة .

منها : أنه قد يعوق عن ذلك اليوم ممسك يهم ، أو بعض كسل ، أو لذة مغتنة ، فيلزمة الخروج على كره .

ومنها : أنه إذا تخلف عن الظهور في ذلك اليوم لأمر ما ، تطاولت الأعناق من الرعية وكثر كلامها ، وقالوا : مرض ، أو مات^(٧) ، أو أصابته آفة ، فيكسب العدو جرأة وسروراً ، ويكسب الولي حزناً وحسباً .

ومنها : أنه قد يواعد عدوه ليوم يلتقيان فيه ، فلا يتم له ذلك .

ولا ينبغي أن يكون الملك كثير التصرف عند فساد الزمان ، وخُبث الرعية ، وعن هذا قالت الحكماء : إذا كان الجمل كثير القفز كان نصيب الذئب .

* * *

(١) سقطت كلمة (امرأة) من (ط) .

(٢) عقاص المرأة : الخيط الذي تشد به ذوائب شعر رأسها .

(٣) سقطت عبارة [مواقع الغرة] من (ط) ، ويقصد بها : مواقع وأوقات الغفلة .

(٤) سقطت كلمة (هذا) من (ط) .

(٥) العنوان من إضافات المحقق .

(٦) قال غيره : أي من الحكماء .

(٧) في (خ) وقالوا [مرض الملك] وسقطت منها [أوقات] .

الفصل الرابع

(يشتمل على: حكم لحكيم العرب خاصة)^(١)؛

من نوادر كلام العرب: من حكم أكثم بن صيفي^(٢)؛

وهذا الرجل كان له عقلٌ وعلم، ومعرفة وتجربة، وقد علق^(٣) الناس عنه حكماً لطيفة، وألفوا فيها تصانيف، فمن حكمه قال :

— من فسدت بطانته كان كمن غصَّ بالماء .

— أفضل من السؤال ركوب الأهوال .

— من حسد الناس بدأ بمضرة نفسه .

— العديم^(٤) من احتاج إلى لثيم .

— من لم يعتبر فقد خسر .

— ما كُلُّ عثرة تقال، ولا كل فرصة تنال .

— لا وفاء لمن ليس له حياء .

— قد يشهر السلاح في بعض المزاح .

— من وفى بالعهد فاز بالحمد .

— الموت يدنو والمرء يلهو .

— طول الغضب يورث الوَصَبَ^(٥) .

(١) العنوان: من إضافات المحقق .

(٢) أكثم بن صيفي: تميمي من المعمرين وأحد حكماء العرب في الجاهلية، أدرك الإسلام، وقصد المدينة مع مائة من قومه يريدون الإسلام، فمات في الطريق، ولم ير النبي ﷺ، مات سنة ٩ هـ، قال الزركلي في الأعلام ج ٩ ص ٦: «أنه المعنى بالآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] وذلك كما يبدو نقلاً عن الأموي في مغازيه عن عبد الملك بن عمير وذلك مرسل وإسناده ضعيف انظر: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ١ / ٨٠، والواقع كما ذكر المفسرون أنها عامة في كل من قصد فعل الطاعة ثم عجز عن إتمامها، وقد ذكر ابن كثير في معرض التفسير الآية فيما رواه عن ابن عباس أنها نزلت في «ضمرة بن جندب» الذي مات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ .

(٣) علقوا حكمه: أي أحبوها وتعلقوا بها .

(٤) العديم: الأحق أو المعدوم .

(٥) الوصب: المرض والوجع والتعب .

- رَبَّ عَتَقِ شَرًّا مِنْ رِقٍّ .
- مِنْ اصْطَنَعَ قَوْمًا احْتَاجَ إِلَيْهِمْ يَوْمًا مَا .
- الْكَذِبُ بَهْتٌ ، وَالْحَلْفُ مَقْتٌ .
- مَنْ لَمْ يَكْفِ أَذَاهُ لَقِيَ مَا سَاءَ (١) .
- الْحَرُّ يَتَقَاضَى لَكَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّيْمُ يَسْتَحْسِنُ تَسْوِيفَهُ وَحَبْسَهُ .
- لَيْسَ بِإِنْسَانٍ مَنْ لَيْسَ لَهُ إِخْوَانٌ .
- أَنْتَ مُزِرٌ بِنَفْسِكَ إِنْ صَحَبْتَ مَنْ هُوَ دُونَكَ .
- عَلَيْكَ بِالْمَجَامِلَةِ لِمَنْ لَا تَدُومُ لَهُ مُوَاصِلَةٌ .
- فِي الْأَسْفَارِ يَبْدُو الْاِخْتِبَارُ .
- أَفْسَدَ كُلَّ حَسَبٍ مَنْ لَيْسَ لَهُ أَدَبٌ .
- أَفْضَلُ الْفَعَالِ صِيَانَةُ الْعَرَضِ بِالْمَالِ .
- لَيْسَ مِنْ حَادَثِ الْجَهْلِ بَذَى مَعْقُولٍ .
- لَيْسَ لِلْمَلْحَفِ (٢) مِثْلُ الرَّدِّ .
- مَنْ جَالَسَ الْجَهَالَ فَلْيَسْتَعِدْ لِقِيلٍ وَقَالَ .
- مَا جَلَا عَنْكَ النِّسْيَانُ مِثْلَ الْبَيَانِ ، وَلَا نَفَى عَنْكَ الْبَهْتَانُ مِثْلَ الْبِرْهَانِ .
- لَمْ يَنْجُ مِنَ الْمَوْتِ غَنِيٌّ لِمَالِهِ ، وَلَا فَقِيرٌ لِإِقْلَالِهِ .
- إِذَا أَرَدْتَ طَرْدَ الْحُرِّ فَسِمِّهِ (٣) الْهَوَانُ .
- كَثْرَةُ الْعِلَلِ آيَةُ الْبَخْلِ .
- كَفَرَ النِّعْمَةُ لَوْمٌ ، وَصَحْبَةُ الْأَحْمَقِ شَوْمٌ .
- إِنْ مِنَ الْكَرَمِ لَيْنُ الشِّيمِ .
- إِيَّاكَ وَالْخَدِيعَةَ فَإِنَّهَا خَلَقَ لئِيمٍ .
- أَمَحْضُ (٤) أَخَاكَ النَّصِيحَةُ ، حَسَنَةُ كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةٌ .

(١) ما ساء : أي ما ساءه .

(٢) المثل في الأغاني : [ليس للسائل المُلح مثل الرد الجامس] حيث سأل رجل أبا الأسود الدؤلي فردّه ولم يعطه فآلح في الطلب والمسألة فقال له المثل ، ومعنى الرد الجامس أي الجامد القوي (الأغاني ١٢ / ٣٦٧) .

(٣) أي أذقه الهوان .

(٤) محض فلاناً النصيحة : أخلصه إياه .

- رَبَّ سَبَّابٍ قَدْ هَاجَهُ الْعَتَابُ .
- الصَّدُودُ آفَةُ الْحَرَمَانِ .
- سَبَبُ الْحَرَمَانِ التَّوَانِي .
- مَنْ سَأَلَ فَوْقَ قُدْرِهِ اسْتَحَقَّ الْحَرَمَانُ .
- لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يَصِيبُ ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يُوُوبُ .
- إِنْ مِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ .
- مِنْ حَلَمَ (١) سَادَ ، وَمَنْ تَفْهَمَ ازْدَادَ .
- لَا تَرْغَبْ فِيمَنْ يَزْهَدُ فِيكَ .
- رَبُّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ .
- الْمَزَاحُ يُوْرِثُ الضَّغَائِنَ (٢) .
- سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ .
- غَثُّكَ (٣) خَيْرٌ مِنْ سَمِينٍ غَيْرِكَ .
- مِنْ أَجَدِّ الْمَسِيرِ أَدْرَكَ الْمَقِيلِ .
- اسْتَرْ عَوْرَةَ أَخِيكَ لِمَا يَعْلَمُ فِيكَ .
- لَا تَكْثُرْ مِنَ الْمَزَاحِ فَتَذْهَبَ هَيْبَتُكَ ، وَلَا مِنَ الضَّحْكِ فَيُسْتَخْفَ بِكَ .
- مِنْ أَكْثَرِ مِنْ شَيْءٍ عُرفَ بِهِ .
- كَفَى بِالْحَلَمِ نَاصِرًا .
- الْمَنَّةُ تُهْدِمُ الصَّنِيعَةَ .
- نَعَمْ الشَّيْءُ الْهَدِيَّةُ بَيْنَ يَدَيِ الْحَاجَةِ .
- رُبَّمَا نَصَحَ غَيْرَ النَّاصِحِ ، وَرُبَّمَا غَشَّ الْمُنْصَحَ .
- الْكَلَامُ فِيمَا يَنْفَعُكَ خَيْرٌ مِنَ السَّكُوتِ ، وَالسَّكُوتُ عَمَّا يَضُرُّكَ خَيْرٌ مِنَ الْكَلَامِ .
- لَا يَغْرُنُكَ مِنْ جَاهِلٍ قَرَابَةٌ ، وَلَا جَوَارٍ ، وَلَا إِلْفٌ ، فَإِنْ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ مِنَ النَّارِ قَرِيبًا ، أَقْرَبَ مَا تَكُونُ مِنْهَا تَلْهُبًا .

(١) حَلَمَ حَلَمًا : صَفَحَ وَكَانَ ذَا حَلَمٍ .

(٢) الضَّغَائِنُ : الْأَحْقَادُ .

(٣) الْغَثُّ : الْهَزِيلُ أَوْ الرَّدِيُّ .

— ارفض أهل الدناءة تلزمك المهابة .

— دع مجالسة أهل الرِّيب^(١) على كل حال ، فإنك إن يسلم دينك لم تسلم من سوء المقال .

— الكرم شكر البلاء ، واللؤم كفر النعمة .

— أَكْرَمُ الصَّنَائِعِ سلامة الصدور .

— لن تسلم من الناس حتى يسلموا منك .

— من عدم الإيمان لم تزده الرواية فقهاً .

— الحزن مفسدة للعقل ، ومقطعة للحيلة .

— كثرة النوم إمارة للقلب .

— شدة الحذر تدل على ضعف اليقين .

— محادثة الحمقى والسفهاء تورث سوء الخلق .

— الدليل على الحمق إعجاب المرء بعقله .

— من لم يسمع الحديث فارفع عنه مُؤَنَّتَهُ .

— من حَدَّثَ من لا يفقه كمن قدم مائدة لأهل القبور .

— من قطع عليك الحديث فلا تحدثه ، فليس بصاحب أدب .

— من عُرِفَ بالصدق جاز كذبه ، ومن عُرِفَ بالكذب لم يُقبل صدقه .

— من وصل من يَحْسُدُهُ ، قَوَّى عَدُوَّهُ ، وقصَّرَ بنفسه .

— اغتفر زلة صديقك .

— من غضب من غير شئ ، رضى من لا شئ .

— من غضبَ على من لا يقدر عليه طال حُزنُهُ .

— الرَّجُلُ عَبْدُ هَوَاهُ .

— لولا جهل الجاهل ما عرف عقل العاقل .

— من خاف ربه كفَّ ظُلمه .

— كسل الفقير هلاكه .

— شُحُّ الغنيّ فضيحتُهُ .

(١) الرِّيب : جمع ريبة وهي الشك .

- من لم يتورع فى كلامه أظهر فجوره .
- كلُّ شىء لا يوافق الأحمق ، فاعلم أنه صواب .
- إذا غلبتك امرأتك فجاهدها ، فإنها عدوك .
- من لم يعرف الخير من الشر فألحقه بالبهايم .
- من طلب ما عند البخيل مات جوعاً .
- جار الرجل الجواد كمجاور البحر ، لا يخاف العطش ، و جار البخيل فى المفازة هالك .

- إذا لم تنتفع بمصادقة الأحياء ، فأتِ أهل القبور .
- من عادى من فوقه أبغضه من تحته .
- الرزق مقسوم والحريص محروم .
- من كثر كلامه على المائدة غشَّ بطنه ، وأبغضه أصحابه .
- العلم زينٌ ومنفعة ، والجهل شين ومضرة .
- الجاهل يستطعم الشر ، والعاقل يمنع نفسه من الشر .
- من لم يرتح للثناء فليس له نصيب فى المروءة .
- إذا كان لك جار أو صديق لا ينتفع به ، فصور مثله فى الحائط ، فإنه أزين للحائط ، وأخفٌ للمؤنة .

- العاقل يرغب فى الأدب ، والجاهل يهرب منه .
- العاقل إذا فاته الأدب لزم الصمت .
- لا تسنطق من تكذبه .
- العاقل يتهم رأيه فى نفسه ، والجاهل يقيم على جهله .
- من لم يملكه عقله لم يملك نفسه .
- من أظهر محاسنه ودفن مساويه كَمَلَ عقله .
- من غلب هواه عقله افتضح .
- من استشاره عدوه فى صديقه أمره بقطيعة .
- مصادقة الكرام غنيمة ، ومصادقة اللئام ندامة .
- لا تدخل على صديقك التهمة فيرجع لك عن النصيحة .

- إذا انقطع رجاؤك عن صديقك فآلحقه بعدوك .
- من طلب مراضاة الإخوان بغير شيء ، فليصادق أهل القبور .
- العاقل ليس في مصادقته مخادعة .
- رأس مال الأحمق الخديعة ، وفائدتها الغضب ، والحليم رأس ماله الصمت ، وفائدته الحلم .
- إذا جهل عليك الأحمق ، فالبس له سلاح الرفق واللفظ .
- صديق كل امرئ عقله ، وعدو كل امرئ حمقه .
- من أنزل نفسه عاقلاً ، أنزله الناس جاهلاً .
- من قنع بكذب الشناء أظهر للناس رقااعته^(١) .
- السكوت عن الأحمق جوابه ، والسكوت يزينُ الأحمق والكلام يشينه .
- من استطال عليك بملبسه ، وتحلى بفضله ، فلا أكثر الله في الناس مثله .
- الجواد محببٌ والبخيل مبغضٌ .
- إذا حمَلتَ البخيل مؤنةً ، أبدى لك الحرمان والعداوة .
- البخيل يمنع ما عنده ، ويبخل على الجواد بجوده .
- من طلب من البخيل حاجة فهو شرٌّ منه .
- من بذل لبخيل صلاته ، ورفع عنه مؤنته ، دامت له مودته .
- ضيف البخيل آمنٌ من التُّخمة .
- من طلب من لئيم حاجة ، كمن طلب السمك في المفازة^(٢) .
- عدة^(٣) الكريم نقد ، وعدة اللئيم تسويق .
- الكريم يواسى إخوانه في دولته ، واللئيم يقطعهم .
- لا تخضع للئيم فإنه لا يعطيك شيئاً .
- إنما الصديق الذى يبذلُ لك ماله عند الحاجة ، ونفسه عند البلية ، ويحفظك عند الغيب ، وينفعك عند الرجاء .
- إذا صادقت الوزير فلا تخش الأمير .

(١) رَفَع رقااعة : حَمَقُ وكان قليل الحياء .

(٢) المفازة : الفلاة لا ماء فيها .

(٣) العِدَّة : الوعد .

- من لم ينصحك في الصداقة فعاده .
- من غشك في العداوة فلا تلمه .
- من كان الناس عنده سواء لم يكن له أصدقاء .
- من صادق الإخوان بالمكر كافئوه بالغدر .
- من لم يواس الإخوان في دولته خذل عند مأمنه .
- إياك أن تبغى مودة من يحسدك فإنه لا يقبل إخاءك .
- من حسدك على علمك لم يستمع حديثك .
- الحاسد يفرح بزنتك ، ويعيب صوابك .
- إذا رأيت من يحسدك وسرك أن تسلم منه ، فعم عليه أمورك .
- من صبر على مودة الكاذب فهو مثله ، وكل شيء شيء ومودة الكاذب لا شيء .
- من بدأك بجهله فكافئه بحلمك تغمه .
- أول المروءة طلاقة الوجه ، والثانية التودد ، والثالثة الفصاحة .
- الفاجر لا يبالي ما قال ، والورع يتعاهد كلامه .
- من شغل مشغولاً فقد أظهر ثقله .
- من صبر على شغل سوء ، فقد نظر إلى سخنة عينه^(١) .
- من لم يغلب الحزن بالصبر طال غمه .
- من استطال على الناس بغير سلطان ، فليصبر على الذل والهوان .
- لا تحقر الفقير السري^(٢) ، ولا ترغب في الغني الدنيء .
- من تشبه بالسراة^(٣) وغلبت عليه الدناءة فلا تكرمه .
- من أغضبته أنكرته ، من أغنيته أعطفته .
- من تعرض لصاحب الدولة أنقلب بهزيمة .
- من صانع بماله ، لم يحتشم من طلب حاجته .

(١) يقال : سخنت العين أي حزنت وذرفت دموع الحزن الساخنة ، وذلك على النقيض من قولك هرت عينه .

(٢) السري : صاحب المروءة في شرف .

(٣) سراة القوم : سادتهم .

- من صاحب الكتاب تولَّوه^(١)، ومن عاداهم أنكروه.
- من شمع عليك بأنفه^(٢)، وطمح ببصره^(٣)، ولم يدخل عليك فضله، فليهن عليك سلَّبه^(٤).
- السفیه یقطع مودة لم تزل، ويكتسب عداوة لم تكن.
- حمل المروءة ثقیل.
- من سالم الناس غنم.
- خذلان الجار لؤم، ورجال البلاء قليل.
- احفظ إخوانك تُذلَّ أعداءك.
- ما أجمل الصبر على ما لا بد لك منه.
- المحروم من طال نصبه^(٥)، وكان لغيره نشبه^(٦).
- لا قوی أقوى ممن قوی على نفسه، ولا عاجز أعجز ممن عجز عنها.
- الخیر فی أهله غریب [والشر من أهله قریب]^(٧).
- ما أضعف قوَّة من یُغالب من لا یُغلب.

* * *

(١) هكذا في (خ) وفي (ط) [ملَّوه] خطأ. ومعنى تولَّوه: أحبوه وصاحبوه.
 (٢) شمع بأنفه: رفعه تكبراً.
 (٣) طمح وأطمح فلان بصره: أي رفعه، ومنه: الطَّماح: وهو الكبر والفخر.
 (٤) يقال: أخذ سلب القتيل: أي ما يؤخذ منه في الحرب.
 (٥) النَّصب: التَّعب.
 (٦) النَّشب: المال والعقار.
 (٧) سقطت من (ط).

الباب الرابع والستون

مشتمل على حكم منثورة^(١)

اعلم أيها المريد : أن الله تعالى يمتحن أنبياءه وأصفياه بأعدائه، ويضطر أوليائه وأحبابه إلى أعدائه، رفعة وتقريباً لأنبيائه، وتمحيصاً لهفوات أوليائه، وذخراً لهم عنده وزلفى لديه، تعظيماً لأقدارهم، وتشريفاً لمنازلهم، وترفعاً لدرجاتهم.

قال الله سبحانه وتعالى - تعزية لنبيه محمد ﷺ لعظيم ما كان يلقاه من سطوات أعدائه - : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان: ٣١] يا محمد : لا تستوحش منّا، ولا تتهمنا في سيرتنا فيمن نحبه ويحبنا، فالبلاء على وجهين : أحدهما كفارة^(٢) لذنب، والآخر رفع درجة وتوفير أجر. ولذلك كان أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، فالبلاء بلآن : بلاء رحمة : لتضعيف درجة وتمحيص سيئة، وبلوغ فضيلة وعلو منزلة، وبلاء عقوبة : لانتهاك حرمة، واقتراف معصية.

لن تخلو المكاره أن تكون لحادث رحمة، فلا رغبة عما أنعم الله به منها، أو لسيئة عن إضاعة فلا غنى عن زاجر عنها، فلائى ذلك كان حلولها، عظمت به المنّة، ووجبت لله به النعمة.

وكان جعفر بن محمد^(٣) رضى الله عنه، إذا وقع فى شئ يكرهه يقول : «اللهم اجعله أدباً ولا تجعله غضباً».

وفى الحديث عن النبي ﷺ : «لو كان المؤمن فى رأس جبل لقيض الله له من يؤذيه»^(٤) يا من ضاق صدره، وخرج قلبه، وساء خلقه، من عدو أقلقه،

(١) فى (خ) مشتمل على حكم منثورة وأحاديث مشهورة، وهو الفصل الخامس من الباب ٦٣.

(٢) سقطت كلمة (كفارة) من (ط).

(٣) هو جعفر الصادق. سبقت ترجمته.

(٤) قال العجلونى فى كشف الخفاء رقم (٢١١٧) رواه الديلمى بلا سند عن انس مرفوعاً، وقال السيوطى : رواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى عن أنس بلفظ : (لو كان المؤمن فى جحر ضب لقيض الله له من يؤذيه) وقال حديث ضعيف (الجامع الصغير رقم ٧٤٦٧، ٧٤٦٨).

وحاسد حسده، طبُ نفساً، وقرَّ عيناً، وأنعم عيشاً، بشهادة الرسول ﷺ لك بالإيمان، ولعدوك بالنفاق، بَخِ بَخِ (١) إن عقلتَها.

أما لك في الأنبياء أسوة؟ أما لك في الصالحين قُدوة؟ فلو لم نلق الله عز وجل من الحسنات، إلا بما اقترفناه اختياراً، للقينا الله تعالى فقراء من الحسنات ثقلأ من السيئات.

قال الشاعر:

قَدْ يُنْعِمُ اللَّهُ بِالْبُلُوَى وَإِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَلِي اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنِّعَمِ
قال بعض الحكماء: الذي رأينا مما نحب فيما نكره، أكثر مما رأينا مما نحب فيما نحب.

وقال علي بن ابي طالب رضى الله عنه: ما أهمنى ذنبٌ أمهلْتُ بعده حتى أصلى ركعتين.

- السَّجون قبور الأحياء، وشَماتةُ الأعداء، وتجربةُ الأصدقاء.

- وأسعد الناس من كان القضاء له مساعداً، وكان لمساعدته أهلاً.

- غلب على الكريم من بدر (٢) إليه. الشماتة لؤم (٣).

- عوام الناس عدة لخواصهم.

- مجئ القدر يسبق الحذر.

- من سخر من شيء حاق به.

- من عَيَّرَ بشيءٍ ابتلي به.

- الخلقُ نهبُ المصائب.

- مذاكرة الرجال تلقيح لألبابها (٤).

- أقلُّ ما في طلب الحيلة الخروج من الاستكانة.

(١) بَخِ بَخِ: (تقال بالفتح والتنوين): اسم فعل معناه: عظم الأمر وفخم، ويكون للرضى والإعجاب بالشيء أو الفخر والمدح، ويكرر للمبالغة، فيقال: (بَخِ بَخِ بالكسر والتنوين).

(٢) بدر إليه: أسرع إليه.

(٣) هذا المثل قاله أكثم بن صيفي، ومعناه: «لا يفرح بنكبة الإنسان إلا من لؤم طبعه» انظر مجمع الأمثال ١/ ٣٦٧.

(٤) أي: «الخوض مع الرجال في أمر ما يزيدهم تجربة وخبرة».

- جاني العقوبة على نفسه، أعظم جرماً عليها من المعاقب له عليها .
- ترابة بغير منفعة بليّة عظيمة .
- النعمة متعة .

- كفالك أدباً لنفسك ما كرهته من غيرك .

- الحميّة شُبوب (١) الجهل .

- الأنفة (٢) قوامُ السّفه، قلّ أنفٌ لم يعقب ذلاً .

- الغادر كمين لا يُؤمن .

- من ازدحام الكلام، مضلة الصواب .

- عجلّوا القرى قبل سوء الظن وإلحاق السبّة .

- أعجب ما في هذا الإنسان قلبه : له مواد من الحكمة وأضداد من خلافها ،

فإن سَنَحَ له الرجاء أذّلّه الطمع ، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص ، وإن مَلَكَه

اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن استعد بالرضا

نسى التَّحَفُّظَ ، وإن ناله الخوف شغله الحَذَرُ ، وإن اتسع له الأمن استلبته

الغرّة (٣) ، وإن حدثت له نعمة أخذته العزّة ، وإن امتحن بمصيبة فضحه

الجزع ، وإن أفاد مالاً أطفاه الغنى ، وإن عضّته فاقة (٤) أشغله البلاء ، وإن أجهده

الجوع قعد به الضّعف ، وإن أفرط في الشبع كظّته (٥) البطنة ، فكلُّ تقصير به

مضر ، وكل إفراط له مفسد .

- أفضل القول بديهة امرئ (٦) وردت في مقام خوف .

- أشدّ الناس غمّاً الذي يرى غيره في الوضع الذي هو فيه أولى .

- ما أخذ الله طاقة أحدٍ إلا رفع عنه طاعته .

- من العجب أن لا ترضى عمّن ابتغى رضاك ، وأعجب من ذلك أن تسخط عليه .

(١) الشُبوب : أول ما يظهر من الشيء ، وشُبوب كل شيء حدّه .

(٢) الأنفة : الحميّة والعزّة ..

(٣) الغرّة : الغفلة .

(٤) الفاقة : الفقر .

(٥) اكتظ من الطعام : امتلأ حتى لا يطيق التَّنَفُّسَ .

(٦) صاحب البديهة : من يصيب الرأي أول ما يُفاجأ به .

- زئير الأسد يشبه صولته (١) .

- علامة العلم العمل بالإعراض عند المبادهة (٢) .

- لا تعادوا حتى تروا (٣) ، ولا تفخروا حتى تفعلوا ، ولا تأنفوا حتى تظلموا .

- أوجه الشفعاء براءة الساحة .

- من لزم الصحة والاستقامة لزمته الغبطة والسلامة .

- قصص الأولين مواعظ الآخرين .

- البحث يوضح الحق ، كما يوري النار القدح .

- ليس مع الحسد سرور ، ولا مع الحرص راحة ، ولا مع السخط غناء .

- قال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه : عجبتُ لمن بُلي بأربع كيف

يغفل عن أربع :

لمن ابتلى بالضر ، كيف يذهب عنه أن يقول : ﴿ أَنِّي مَسْنِي الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣] والله تعالى يقول : ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ فُكَشِفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ﴾ [الأنبياء: ٨٤] .

وعجبتُ لمن بُلي بالغم كيف يذهب عنه أن يقول : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] والله تعالى يقول : ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨] .

وعجبتُ لمن خاف شيئاً كيف يذهب عنه أن يقول : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] والله تعالى يقول : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٤] .

(١) الصولة : السطوة والحملة في الحرب .

(٢) هكذا في (خ) ، ومعنى المبادهة والبداهة والبدية : أن يفجأك أمر أو تنشئ كلاماً لم تستعد

له .

وفي (خ ١ ، ٤) : علامة العلم بالإعراض عند المداهنة . والمداهنة : الملاينة والمصانعة وإظهار خلاف ما يظهر .

وفي (خ ٣) حكمتان : علامة العلم التعلّم . الإعراض عند المبادهة .

وفي (ط) علامة العلم العمل بالإعراض عند المناداة .

(٣) هكذا في (ط) ، وفي (خ) لا تغاروا حتى تروا .

وَعَجِبْتُ لِمَنْ مُكْرَبٌ بِهِ كَيْفَ يَذْهَبُ عَنْهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿وَأَفْوَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤] واللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَوْقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر: ٤٥].

وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى (١) عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ خَافَ زَوَالَهَا، كَيْفَ يَذْهَبُ عَنْهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].
كَذَا سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فَيَمُنْ صَدَقَ فِي التَّجَائِهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَتَوَكَّلْ فِي مَهْمَاتِهِ إِلَّا عَلَيْهِ.
- اليمين مأثمة أو مذمة.

- أَلَذُّ الْمَوَارِدِ: مَنْجَاةٌ مِنْ مِتْلَفَةٍ، أَوْ قُدُومٌ غَائِبٌ بَعْدَ أَنْ جَاءَتْ بِالْيَأْسِ مِنْهُ الرِّكَائِبُ، وَأَشْرُ الْمَصَادِرِ: ظَفَرٌ عَلَى قَنُوطٍ.
- الطَّبِيعَةُ مُخَالَفَةٌ لِلْمَرْوَةِ، فَاصْبِرْ لِحَقٍّ وَجِبْ عَلَيْكَ وَإِنْ خَالَفَ هَوَاكَ.
- بِهَاءِ الْمَجْلِسِ الشَّرِيفِ بِالرَّجُلِ الْفَاضِلِ.
- الْيَقِينُ رَاحَةٌ وَرُوحٌ.

- الْعَمَلُ النَّافِذُ بِالرَّجُلِ الْمُدَبِّرِ، كِبَهَاءِ الْيَاقُوتِ وَاللُّؤْلُؤِ فِي تَيْجَانِ الْمَلُوكِ.
- مَا أَنْوَرَ الْهَدْيَ!
- مَا أَظْلَمَ الْعَمَى!
- مَا أَكْرَمَ التَّقَى!
- مَا أَخْدَعَ الْهَوَى!
- مَا أَسْرَعَ الْبَلَا!
- مَا أَجْهَلَ الصَّبَا! (٢).

- الْجُودُ: أَنْ يَهْضُمَ الرُّوحَ حِظَّ الْجَسَدِ، وَالْإِسْرَافُ: أَنْ يَهْضُمَ الْجَسَدَ حِظَّ الرُّوحِ، وَالْعَدْلُ: أَنْ يُعْطَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حِظَّهُ، وَالشُّحُّ: أَنْ تَكْفَ حِظُّوهُمَا عَنْهُمَا.

- عَدُوٌّ يَخَافُ اللَّهَ فَيَمَّا تَكْرَهُ، خَيْرٌ مِنْ صَدِيقٍ لَا يَخَافُهُ فَيَمَّا تُحِبُّ.

(١) فِي (ط) عَجِبْتُ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ ...

(٢) فِي (ط) مَا أَجْلَدَ الصَّبَا.

- من العجب أن نطلب في صحة كل علم ما ينفعنا^(١)، ونكل العلم إلى الله تعالى من غير بحث عن صحته .
- لا يَرُعك الباطل مما تُرمى به ، ولكن احذر أن يصدع عليك بالحق ، فيشهد عليك عيناك ووجهك .
- من بَطُلَ رشاؤه^(٢) بطل منحه .
- الراغب فقير بقدر رغبته .
- الحق يُعطى ويمنع .
- تجاوز عن ذنوب الناس لتحجّجَ عليهم واجتنب الذنوب لتقل حجّتهم عليك .
- الفراغ الفاضل عن الحمام مفسدة .
- الحمية إحدى العلتين .
- الفرق^(٣) ينسى الحجة .
- حابِ العلية في كلامك وسوّ بينهم وبين السفلة في أحكامك^(٤) .
- موت في عزٍّ خيرٌ من حياة في ذل .
- الأكفاء من كل نمط متباغضون .
- ما ضاع امرؤ عرف قدر نفسه .
- الدعة الهنية تكون بعد انقضاء العمل .
- لن يفارق الخيرُ صاحبه حتى يفارقه .
- خير الناس من تواضع عن رفعة ، وعفا عن قُدرة .
- الحاسد يُظهر ودّه في كلامه ، وبُغضه في أفعاله ، فاسم^(٥) الصديق ومعنى العدو .
- الرياء يفسد العلانية ، والعُجبُ يفسد عمل السريرة .

(١) في (خ) : ما يقنعنا .

(٢) الرشوة معروفة وهي ما يتوصل به إلى إحقاق باطل ، والمقصود هنا المحاباة .

(٣) الفرق : الخوف .

(٤) عليّة القوم : أشرفهم ، وعكسها السفلة وهم أراذل الناس .

(٥) في (خ) الحاسد يظهر ودّاً في كلامه وبغضاً في أحكامه ، وسقطت منها (فاسم الصديق ومعنى العدو » أي هو صديق بالاسم مع أنه عدو .

- إذا كثرت القدرة قلت الشهوة .
 - من عرف قدره كفاك نفسه .
 - كفى بالظفر شفيعاً للمذنب إلى الحلیم .
 - لسان الجاهل دلیل حتفه .
 - لا ظفر مع بغی ، ولا صحة مع نهم ، ولا ثناء مع كبر ، ولا صداقة مع خب^(١) .

- من لم يعرف قدره فاكفه نفسك .
 - أحقُّ ما ردَّ ما خالف شهادة العقل .
 - قطع ظهري وأفسد الدين رجلان : جاهل ناسك ، وعالم فاجر ، هذا يدعو الناس إلى جهله بنسكه ، وهذا يُنفرُ الناس من عمله بفسقه .
 - من قوي هواه ضعف حزمه .
 - من ظهر غيظه قلَّ كيده .
 - كفى بالظلم طارداً للنعمة^(٢) وداعياً للنقمة .
 - من قبل صلتك فقد باعك مروءته .
 - الهدية تفقأ عين الحكيم .
 - عفو الرأي خير من استكراه الفكر .
 - ما استنبط الصوابُ بمثل المشاورة ، ولا حصنت النعم بمثل المواساة^(٣) .
 - من لم يؤمن بالقدر فقد كفر ، ومن حمد الله فقد فخر .
 - ما اكتسبت البغضاء^(٤) بمثل الكبر .
 - من استغنى بالله افتقر الناس إليه .
 - التقصير يُخلخل عن الصواب ، والإفراط يُقحمك في الخطأ .

(١) الخبّ والخبّاب : الخداع .

(٢) في (ط) للمنفعة .

(٣) [ما استنبط الصواب المواساة] سقطت من (ط) .

(٤) في (ط) [ما اكتسب مثل الكبر] .

– ثلاث خصال ما اجتمعن إلا في كريم : حسن المحضر ، واحتمال الزلة ، وقلة الملالة .

– كفى مخبرا عما بقي ما مضى ، وكفى عبرا لذوى الألباب ما جربوا .

– التهاون بالمطلوب أول أسباب حرمانه .

– الشبهة ^(١) ظلمة .

– لن يضيع امرؤ صواب القول حتى يضيع صواب العمل .

– خير الأمور ما سر عاجله ، وحسنت عاقبته .

– لا شرف مع سوء أدب ، ولا برّ مع شحّ ، ولا اجتناب مُحَرَّم مع حرص ، ولا محبة مع زهو .

– بإِجالة ^(٢) الفكر يستخرج الرأى المصيب ، وبحسن التأنّي تُدرك المطالب ، وبالنصفّة يكسر المتواصلون .

– الفاحشة عار الأبد وعقوبة غد .

– الشّماتة تعقب الندامة .

– من سخر ابتلى ، قال الله تعالى : ﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : ٣٨]

– إذا فقد المتفضلون هلك المتجملون .

– رُبَّ صَبابة ^(٣) غرست من لحظة ، وحرب جنيت من لفظة .

– ما شاهد على غائب ، بأدَلّ من طَرَفٍ ^(٤) على قلب .

– شرُّ المال ما لا يُنفق منه ، وأفضل المال ما صِين به العرض .

– بالإفضال تشرف الأقدار .

– الذى يكون سببا لفساد نفسه أذلُّ ممن يُفسده عدوُّه أو دهره .

– لا تُعدنّ ودیعةً مالا .

(١) هكذا في (خ) ، وفي (ط) الشُّبه .

(٢) الإِجالَة : الإدارة ، والجول : العزيمة ويقال العقل .

(٣) الصبابة : الولع والشوق ورقة الهوى . وفي (ط) صيانة .

(٤) الطرف : تحريك الجفن ويُعبّر به عن النظر ، وطرف كل شيء حرفه أو جانبه أو جزء منه .

- الشهوة رِقٌّ.

- الحريص كَلْبٌ^(١).

- يعبر على الإنسان اللِّسَانُ، وعلى المودة العِنان.

- لا شرف أعلى من الإسلام، ولا كرم أعلى من التقوى، ولا شفيع أعنى^(٢) من التَّوبة.

- أولى الناس بأمر من حافظ عليه.

- الخير موضوع لمن أراده، موفور لمن عمل به^(٣).

- الرغبة مفتاح الطلب، ومطية الحسرة.

- الحرص داع إلى الحرمان.

- التَّنْفُلُ بالحسنة ينفي السيئة.

- المكافأة بالسيئة دخولٌ فيها.

- البغى سائق إلى الحين^(٤).

- إصلاح الرعية أنفع من كثرة الجنود.

- حق المذموم التأنيب، وحق المرحوم المعونة.

- من الجهل والجفاء إظهار الفرح عند المحزون.

- المحزون يحقد على الفرح، ويشكر للمكتئب.

- من ظلَّ السَّلامة تدبُّ أفاعى الآفات.

- أعظم الناس قدراً من لم يجعل الدنيا لنفسه قدراً.

- ما أحدث مُحدثٌ بدعةً إلا ترك بها سنة.

- عزائم الأمور خيارها، ومحدثاتها شرارها.

- المَلِكُ يكتسبُ من إنفاقه، والعامَّة تنفقُ من تكسبها.

(١) الكَلْبُ : المتكالب شديد الحرص.

(٢) أعنى : من العناية والاهتمام.

(٣) في (ط) لمن عمل لله.

(٤) الحين : المحنة والهلاك.

— من أفنى عمره فى جمع المال مخافة العُدم^(١)، فقد أسلم نفسه للعُدم.
قال الشاعر :

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

— من لم يقدر على جمع الفضائل، فلتكن فضائله ترك الرذائل.

— إذا لم تكن ملحا^(٢) تُصلح، فلا تكن ذباباً تفسد.

— استصلاح بعض العدو أفضل من إهلاكه.

— من سعادة المرء أن يطول عمره، ويرى فى عدوه ما يسره.

— خير الكتب ما إذا أعاد قارئه النَّظْرَ فيه زاد حسنه، أو وقف على خيره.

— أثقل الأحمال من اتسعت مروءته، وقَلَّتْ مقدرته.

— استحي من الله بقدر قربه من عقلك، وأطعه بقدر حاجتك إليه، وخَفَهُ
بقدر قدرته عليك، واعصه بقدر صبرك على النار.

— اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمِلْ للآخرة بقدر مُقامك فيها.

— المَلِكُ ينفق ليكتسب، والعامةُ تكتسب لتنفق.

— الطاعة بقدر الفاقة.

— يفحش^(٣) زوال النعم إذا زال معها التجمُّل.

— أولى الأمور بك أوجبها عليك.

— الدنيا العافية، والشباب الصحة.

— إذا أقبل الأمر أسرَّ به وإذا أدبر صرَّح.

— إذا عدل السلطان ملك قلوب الرعية، وإذا جار لم يملك منهم إلا الرياء

والتصنع.

— الصدقة من سعة، وابدأ بمن تعول.

— إذا أضرتَّ النوافل بالفرائض، تركت النوافل وقُدِّمَتِ الفرائض.

(١) العُدم والعُدم: الفقر. والعُدم أو الفقدان عكس الوجود.

(٢) المَلِح: الحسن، والملاحة والملح أيضاً العلم.

(٣) تفحش في الأمر: جاوز حدّه ومقداره.

— قدر الرجل على قدر همته، وصدَّقته على قدر مروءته، وشجاعته على قدر أنفته^(١)، وعفته على قدر غيرته.

— من أطاع الواشى^(٢) ضيع الصديق، ومن جعل لنفسه حظاً من حسن الظن رَوَّح قلبه.

— شر مالك: ما لزمك إثم مكتسبة، وحرمت منفعة إنفاقه.

— رب مغبوط بليلة قامت بواكيه في آخرها.

— لا ترجو خير من لا يرجو خيراً، ولا تأمن جانب من لا يأمن جانبك.

— تارك الطلب ضجراً^(٣)، أرجى للعودة من تاركه خوراً^(٤).

— ثمرات الشهوات المخازى.

— الخصومة تمرض القلب.

— أعم الأشياء نفعا فقد الأشرار.

— من استكفى الكفاة^(٥) كفى الأعداء.

— خير مالك ما أغناك، وخير منه ما وقاك.

— صولة الكريم سليمة.

— ذنب أسد خير من رأس كلب.

— بجبهة العير^(٦) يفدى حافر الفرس.

— من استبد برأية خفت وطأته على أعدائه.

— إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك.

— من أمن الزمان خانته، ومن تعزَّز عليه أهانه.

(١) الأنفة: العزة والحمية.

(٢) الواشى: النمأ.

(٣) الضجر: القلق والضيق.

(٤) الخور: الضعف.

(٥) من استكفى أحداً: ترك الأمر إليه. وإلا كان استعانة (يقال: من استكفى بالله كفاه الله ما

أهمه)، والكفاة: الخدم الذين يقومون بالخدمة (لسان العرب، باب: كفى).

(٦) العير: الحمار الأهلى أو الوحشى وتطلق على قافلة الحمير أو كل قافلة.

- كما يجب أن تكون المرأة أضواءً من الناظر فيها ، فكذلك يجب أن يكون المؤدّب أفضل ممن يؤدّب .
- من ترك العمل بما ينبغي عومل بما لا ينبغي .
- ليس في الشرّ أسوة ، ولا في الخطأ قدوة .
- لن تكون لله ناصحاً ، حتى تحب عدوك إذا أطاع الله في عداوتك على عداوته ، وتقلع عمّاً عاداك عليه ، وتبغض وليك إذا عصى الله في موالاتك ، وتنزع عمّاً والاك عليه .
- لا تكن على الإساءة أقوى منك على الإحسان .
- الشّقى من جمع لغيره وضيق على نفسه (١) .
- شر أخلاق الكريم أن يمنع خيره .
- من كانت الآخرة رأس ماله كانت الدنيا ربحه ، ومن كانت الدنيا رأس ماله كانت الآخرة خسارته .
- أفضل العلم وقوف الرجل عند علمه .
- أفضل المال ما قضيت به الحقوق .
- البدع فخاخٌ مخبوءة ، قد علّقت عليها ألفاظ ظاهرة .
- رجاء العامة أمنية على ضلالة ، ورجاء الخاصة يقين على ثقة .
- القليل من الملك كالكثير من غيره .
- عطاء الملوك زينة ، وسؤالهم شرف (٢) .
- وفي الأمثال جاور بحراً أو ملكاً .
- إذا كذب السفير بطل التدبير .
- أخبث الأزمنة زمن لا يتميز فيه الصواب .
- لا تعطوا في الفضول ما خفتم العجز عن الحقوق .
- الآذان أقماعٌ تؤدّي ، والقلوب قوالب تعي (٣) .

(١) في (خ) : [وضنّ على نفسه بخيره] .

(٢) في (خ) عطاء الملك زينه وسؤاله شرف .

(٣) الأقماع جمع قمع وهو شيء يصب فيه الشراب في الإناء ، والقلوب قوالب مهياة للقبول والاستيعاب .

- من أحب أن يُسمَّى داهياً لم يُظهر دهاءه .
- لا دليل أهدى من التوفيق .
- الجلاء البلاء .
- من عَرَضَ نفسه للتهم ، فلا يلومن من أساء به الظن .
- الحفظ قيد العلم .
- المدارس إذكاء للفهم .
- المقايسة إحياء الفطن^(١) .
- استدم النعمة بالشكر ، والقدرة بالعفو ، والطاعة بالتألف ، والنصر بالتواصل لله ، والرحمة للخلق .
- استقلال الكثير تعرض للتحغير .
- ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها : الكتاب يدل على عقل كاتبه ، والرسول يدل على عقل مُرسله ، والهدية تدل على عقل مُهديها .
- لم يحكم على العقول حاكم كالعبر ، ولم يحكمها محكمٌ كالتجربة .
- من عاب سَفَلَةً فقد رفعه ، ومن عاب سَيِّداً فقد وضع نفسه^(٢) .
- أحقُّ الناس مَنْ يُؤمِّن على الدنيا أهلُ الآخرة .
- صحَّ من صحَّت سرائره ، وسَقِم من سَقِمَت ظواهره^(٣) .
- بالكلام يعرف فضل العقل ، كما يعرف بالرسول قدر المرسل .
- ملاك أموركم الدين ، وعصمتكم التقوى ، وزينتكم الأدب ، وحصن أعراضكم الحلم .
- إذا أعطيتَ ما لا ترضى فارض بما أعطيت .

(١) المقايسة : معالجة الأمر الشديد ومكابدته .. والفطن : الفهم والذكاء وجودة استعداد الذهن ، وضده : الغيابة .

(٢) السَفَلَة من الناس : الخسيس وهو من سقاط القوم وأراذلهم . ومعنى وضع نفسه : أي جعلها وضعية ذليلة .

(٣) يقال : طَيَّب السريرة : أي سليم القلب صافي النية . وسَقِمَت ظواهره : طال مرضه .

- كلما ازداد الخير كثرة، كان الخارج منه أشدَّ حسرة، وبقدر السُّمُو في الرُّفعة تكون وجبة الوقعة^(١).

- الإبقاء على العمل أشد من العمل.

- من التَّوَقَّى ترك الإفراط في التَّوَقَّى، وتورث الجريمة والذمام^(٢) سنة في المروءة، كما أن وراثته التُّركة فريضة في الديانة.

- لا تمدحنَّ امرأً بأكثر من قدره، فتكون مهيناً لنفسك، كذاباً على غيرك.

- لا نفرحن بسقطة عدوك^(٣) فإنك لا تدري متى يحدثها الزمان بك.

- من الجفاء الكلام في الأمر الجسيم من غير مشاورة.

- أكثر الناس مخادعة لنفسه في أمر جسده عند الحمية، وفي أمر مروءته عند الشهوة، وفي أمر دينه عند الشُّبهة.

- المصائب بغتات^(٤).

- العاقل المدبر أرجى من الأحمق المقبل.

- أشرف الصنائع ما لم يكن مكافأة لماض، ولا رجاء لباقي.

- أرضِ النُّظير ثم كافئه^(٥)، وآنس المُلهى ثم استمع منه.

- لم تكن غواية ولا هداية إلا وإليهما سائق، وعنهما ناكص^(٦).

- إحسانك إلى الحر يُحرِّضه على المكافأة، وإحسانك إلى الخسيس يبعثه

على معاودة المسألة.

- ليس يُمتَحَنُ الأديب بأن يكون فاعلاً للخير، إنما يمتحن بأن يكون تاركاً

للشر.

- من صنع معك خيراً فأضعفه له، وإلا فلا تعجز أن تكون مثله.

(١) ذكر هذا المثل في محاضرات الأدباء للأصفهاني (١/ ٥٢٨) تحت عنوان: (ذم بلوغ النهاية)، ومعنى وجبة الوقعة: ثبوتها.

(٢) الذُّمام: الحق والجريمة.

(٣) في (خ): [سقطه غيرك].

(٤) بغتات: فجآت، جمع بغتة.

(٥) النُّظير: الشبيه والمثيل، وفي (خ): ثم كلفه.

(٦) نكص عن الأمر: أحجم وتراجع عنه.

- الأشرار يتبعون مساوئ الناس ويغفلون عن محاسنهم، كما يتبع الذباب المواضع النُّعْلة (١) من الجسد، ويدع صحيحه.

- [الظُّرف فطنة مازجتها عبارة مع حذر وتَوَقُّ، فإذا خلت الفطنة من التَّوَقُّي، فصاحبها لا يستمتع به أهل المروءة، وإذا خلت الفطنة من العبارة وقارنتها فصاحة، فصاحبها طيب الظرف، وإذا كانت فطنة معها بعض الاسترسال في الألفاظ ترفع عنها أهل الجلالة من المخلصين في باطن الدنيا، والمترفين في ظاهر الحال] (٢).

وسمعت القاضي أبا العباس الجرجاني (٣) رحمه الله بالبصرة يقول: أول من نطق بهذه الكلمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وذلك أنه أتى بسارق فقال له: أسرقت؟ قل: لا، فقال الرجل: لا، فقال عمر: إِنَّكَ لظريف.

- جهد البلاء (٤) الإقلال والعيال.

- ينبغي للعالم ان يتطامن (٥) للجاهل، بقدر ما رفعه الله عليه.

- العقل أفقر إلى الحكمة والأدب، من الجسم إلى الطعام والشراب.

- أعظم الناس غمًا، من زالت نعمته، وبعثت شهوته، وضاعت مقدرته.

- قلة العيال أحد اليسارين.

- معالجة الموجود خير من انتظار المفقود.

- من عدم الحياء عند الفضيحة، والصبر عند النصيحة، سهلت عليه المعاصي كلها.

- العالم مثل السراج، من مرَّ به اقتبس منه.

- من تقدم بحسن النية نصره التوفيق.

(١) النغل: الفاسد.

(٢) من قوله: [الظرف]..... إلى.. [الحال] عن (خ)، وفي (ط): [عبادة] بدل [عبارة]، و[صاحبها غير طيب] بدل: [وصاحبها طيب الظرف]، وسقط منها: [وإن كانت فطنة معها بعض الاسترسال].

(٣) أبو العباس الجرجاني قاضى البصرة وشيخ الشافعية. سبقت ترجمته.

(٤) في الحديث: «أعوذ بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء»، ومعنى جهد البلاء: الحالة الشاقة ومنها قلة المال وكثرة العيال.

(٥) يتطامن: يتواضع.

- لن تكون لله ناصحاً، حتى تُحِبَّ أن يكونَ له (١) عدوُّك مطيعاً .
 - من آذى الناس بلا سلطان كان مصيره إلى الهوان .
 - مادحُك بما ليس فيك مخاطب لغيرك ، فجوابه وثوابه ساقطان عندك .
 - المكر والخديعة في النار .
 - الأحداث تأتي من على ما منه يؤتى الحذرُ .
 - المأكول للبدن ، والموهوب للمعاد ، والمحفوظ للعدو .
 - من غضب على من لا يقدر على غمِّه ، عَذَّبَ نفسه واشتدَّ غيظه .
 - اطلب ما يعينك واترك ما لا يعينك ، فإن في ترك ما لا يعينك درك ما يعينك .

- من أنكى الأشياء (٢) لعدوِّك ، أن تُريه أنك لا تعاديه .
 - كل آت قريب .
 - الاستغناء عن الشيء خير من الاستغناء به .
 - ومن خير خبر أن تسمع بالمطر .
 - لا فخر فيما يزول ، ولا غنى فيما لا يبقى .
 - شر العيوب ما كان معينا على العيوب .
 - شر الذنوب ما كان علّة للذنوب .
 - أبلغ الرُّسل الكتب .
 - حاول الأمور بالنَّصْفَةِ ، وأنا زعيم لك بالظَّفَر (٣) .
 - من أراد جمالاً لا تهدمه الأيام ، فليصحب المروءة والصيانة ، فهما ذروة الشرف .
 - رُبَّ أمر له ما بعده ، من سبق إليه كان له صفوه (٤) .
 - من شرط المروءة التغابن للضعيف (٥) .

(١) سقطت كلمة [له] من (ط) ، أي يكون لله سبحانه مطيعاً .

(٢) أنكى الأشياء : أشدها نكايه وقهراً .

(٣) زعيم لك بالظفر : كفيل لك بالنصر .

(٤) صفوه : طيبه وخيره .

(٥) التغابن للضعيف : يُظهر له الضعف والتذلل .

- المروءة ترك الريبة .

- يكاد استقضاء^(١) القوي على الضعيف أن يكون ظُلماً .

- يكاد استيفاء الغني من الضعيف أن يكون جوراً .

- القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، أوله حكم، وآخره علم .

- المحادثة على الطعام تزيد في الشهوة، وتذهب الحشمة، وتزيل الانقباض .

- لن تنال ما تحب حتى تصبر على كثير مما تكره، ولن تنجو مما تكره حتى تصبر عن كثير مما تحب .

- ذهاب البصر خير من كثير من النظر .

- لا تعدّ العزم عزمًا إذا ساق غمًا .

- مع الرأي الأول الوهم .

- النظرة بعد النظرة تعقب لما قبلها وتزيد لما بعدها .

- ليس مدح الرجل بما فيه تركية .

- أنعم الناس من كفي أمر دنياه ولم يهمله أمر دينه^(٢) .

- الغريب من فقد إخوانه ونظراءه وإن كان في وطنه .

- الغريب من لا صديق له .

- الغريب الفقير .

- الغريب الأحق .

- الغريب من لا ناصر له .

- شيئان لا يستحي العاقل منهما : المرض ، وذو القرابة الفقير .

- من كانت الدنيا سبب صلاته فإنها سبب قطيعته ، فاحذر أن تجعلها وسيطاً بينك وبين أحد .

- علامة الأشرار أن من خالطهم لا يسلم منهم ، ومن تركهم لا يصرفوا شرهم عنه ، وأما الأخيار فمن خالطهم ربح عليهم ، ومن غالطهم ترك رشده .

(١) استقضى الحاكم فلاناً : صيره قاضياً .

(٢) أي استغنى بدنيته وحدها ولم يفكر في آخرته .

- البر ثلاثة: الصدق في الغضب، والجود في العسر، والعفو عند المقدرة.
- من عتب على الزمان طالت معتبته^(١).
- ستساق إلى كل ما أنت لاق.
- إذا صحب الارتياذ^(٢) الرشاد وجد المراد.
- ما أعتق من الدَّم من ملكه الجهل، ولا ظفر بالعز من احتمال ما في المعصية من الدُّل، ولا خرج من الدناءة من صرف جميع عقله إلى الدنيا.
- أخو الظُّلماء مريب^(٣).
- المسألة آخر المكسبة.
- ما عُدَّ من أهل الحجي^(٤) من كان من أهل الهوى، ولا كان من أهل التُّقى من حاد عن سبيل الهدى.
- من ذم أدنى الإحسان^(٥) لامتناع أقصاه، لم يحمد شيئاً منه.
- من دواعي الهلكة إضاعة المعرفة.
- واعجباً لمن يبنى داره وجسمه يهدم، ولمن يُبرمُ أمور الدنيا^(٦) وأموره في نفسه تختل.

قال عليُّ بن أبي طالب:

- من لم يكن معنا كان علينا، والساكت أخو الراضى.
- الكاتم للعلم كمن لا علم له، أو هو غير واثق فيه بالصواب.
- المرء مخبوء تحت لسانه.
- قيمة كل امرئ ما يحسن.
- العلم بما في المصيبة من الثواب يُنسي المصيبة.

(١) المعتبة والمعتبة: العتاب واللوم.

(٢) الارتياذ: من الإرادة والمشينة.

(٣) الظُّلماء: الظلام، وفي مجمع الأمثال: [أخو الظُّلماء أعشى بالليل] مثل يضرب لمن يخطئ حجته ولا يبصر المخرج مما وقع فيه.

(٤) أهل الحجي: أهل العقل والفطنة.

(٥) أدنى الإحسان: أقله.

(٦) يبرم أمور الدنيا: يحكمها.

- شر من المصيبة سوء الخلق منها .
- الحكمة ربيع القلوب .
- الخصومة تكشف العورة وتورث المعرفة^(١) .
- بلاء المؤمن من عافيته كالنار حريقها من نورها .
- قد يكون اليأس إدراكا إذا كان الطمع هلاكاً .
- من لم يرفع نفسه عن قدر الجاهل ، رفع الجاهل قدره عليه .
- الذلّة مع القلّة .
- تجوع الحرة ولا تأكل بشديدها^(٢) .
- موت عاجل خير من ضنى^(٣) آجل .
- الغضب عند المناظرة^(٤) منساة للحجة .
- الاختصار أثبت للمتكلم وأفهم للسامع .
- الكلب في الحاضرة : ينبح الضيف ، ويدفع الزائر ، ويرد السائل ، والكلب في البادية : يعين صاحب ، وينذر بالضيف ، ويدفع السارق .
- لا تغترّ بقول الجاهل لك : إن في يدك لؤلؤة ، وأنت تعلم أنها بعة .
- مثل الصلاة مع سائر العبادات ، مثل السفينة مع جميع من فيها ، إن سلمت سلم الكل ، وإن أصيبت أصيب الكل .
- الحب والبغض فتنة .
- طلب المطعم حزم ، وطلب المؤيس عجز^(٥) .
- قد ينظر المنطق من يعنى به .
- إذا فسد الزمان كسدت الفضائل وضرت ، ونفقت الرذائل ونفعت ، وصار خوف الموسر أكثر من خوف المعسر .

(١) المعرفة : الأذى .

(٢) من أمثال أكثم بن صيفي ، أي : (لا تأكل ثمن لبنها الذي ترضعه لغير وليدها) .

(٣) الضنى : المرض .

(٤) المناظرة : المحاوراة والمجادلة .

(٥) المطعم : جمع مطامع وهو ما يُطمع فيه ويُرغب . والمؤيس : ما قُطع منه الأمل .

- لقاء أهل الخير عمارة للقلوب .
- لا يصيد الكثير من لا يصيد لنفسه الواحدة .
- بالعمل يحسن المنطق ، وبالقوة يتم العمل .
- الفكرة مرآة .
- من أعظم الناس محنة^(١) من قلَّ ماله وكثر مجده .
- الأدب مع العقل كالشجرة المثمرة ، والعقل بلا أدب كالرجل العقيم .
- الماء أَلينُ من القول ، والقلب أقسى من الحجر ، وقد يُثْلِمُ الماء الحجر^(٢) إذا كثر انحداره عليه .
- أشدُّ الأشياء إخفاءً الفاقة^(٣) .
- أولى الناس بالرحمة عالم يجري عليه حكم جاهل .
- لم يغب من شهد رأيه ، ولم يفن من بقي أثره ، ولم يمت من خلد علمه ، وقد سبق المثل : ليس بهالك من ترك مثل مالك^(٤) .
- كما أنه قبيح إذا ركبنا الخيل أن تجري بنا حيث أرادت دون أن نديرها ، كذلك قبيح أن يجري البدن والنفس بالعقل حيث أرادت من الشهوات .
- أشقُّ الأمور معرفة المرء بنفسه .
- عائب المجتمع عليه محجوج .
- ليس شيء من البرِّ إلا ودونه عَقَبَةٌ من الصَّبْر .
- ضرب الإنسان عاراً باقٍ ووُتْرٌ مطلوب^(٥) .
- قيل للحكيم : هل للغضب مادة تحسمه ؟ قال : نعم ، أن يعلم الإنسان أنه ليس يجب أن يكون مطاعاً أبداً ، ولا يجب أن يُخدم أبداً ، ولا يجب أن يُحتمل

(١) سقطت كلمة [المحنة] من (ط) .

(٢) يثلم الماء الحجر : يحدث فيه خللاً .

(٣) الفاقة : الفقر .

(٤) المثل لأوس بن حارثة بن ثعلبة ، حيث عاش دهنراً وليس له ولد إلا مالك ، وكان لأخيه الخزرج خمسة أولاد ، فلما حضرته الوفاة قال له قومه : كنا نأمرك بالتزويج في شباب منك حتى حضر الموت ، فقال : [أنه لم يهلك هالك ترك مثل مالك] أي ولده ، انظر : (جمهرة الأمثال ٢ / ٢٣٥) .

(٥) وتر مطلوب : أي صاحب الوتر الطالب بالثار ، والموتور من قتل له قتيل ، (تاج العروس ١٤ / ٣٤٤) .

خَطَرُهُ أَبَدًا، ولا يجب أن يُصْبَرَ عليه أَبَدًا، بل قد يُطِيعُ وَيَخْدُمُ، ويتحمَّلُ الخطأ، وَيَصْبِرُ على النوائب، فإذا عقل ذلك^(١) لم يغضب، وإن غضب فقايل.

- السعيد من وَعَظَ بغيره، والشَّقِي من وَعَظَ بنفسه.
- لا تنفع كثرة العلم لمن لا يعمل، كما لا يُغني ضوء الشمس عمن لا يبصر.
- رضى بالذل من كشف ضره بترك التورع، وأزرى بنفسه^(٢) من استشعر الطمع.

- البدع فخوخ^(٣) يسترها زخرفة الكلام، وخدع^(٤) المقال.
- الناس في الدنيا بالإخوان، وفي الآخرة بالأعمال.
- صديق الرجل عقله، وعدوه حمقه.
- من اجتمعت إليه النعمة أديمت له الرغبة.
- يحفظ الأحمق من كل شيء إلا من نفسه.
- لا جود إلا بمال، ولا صداقة إلا بوفاء، ولا فقه إلا بورع.
- العليل الذي يشتهي أرجى من الصحيح الذي لا يشتهي.
- قلوب الرجال وحشية، فمن تألفها أقبلت عليه.
- اجعلوا بينكم وبين الحرام سترة من الحلال.
- لقاء الرجل أخلاءه مسلاة^(٥) لله.
- من لم يصلح على تدبير الله، لم يصلح على تدبير نفسه.
- الأحلام فرح وهم كاذب، والعامل بها كالمعتمد على الظل الزائل.
- الدنيا دول؛ فما كان منها لك أتك، وما كان عليك لم تقو على دفعه.
- العافية خير من الواقعة.

(١) عقل ذلك : وعاه وفهمه.

(٢) أزرى بنفسه : أدخل عليها العيب.

(٣) الفخ : كلمة أعجمية معربة معناها المصيدة التي يُصاد بها، والجمع فخاخ وفخوخ، (لسان العرب، باب : فخخ).

(٤) في (ط) خدع المال.

(٥) في جمهرة خطب العرب ١ / ٤٠ : [لقاء الأحبة مسلاة لله] أي مذهبة للحزن.

- الكريم لا يستحي من إعطاء القليل .

- العفاف زينة الفقير .

- الكرم حسن الفطنة ، واللؤم سوء التَّعَاْفُل (١) .

- اختلاف كلام المرء دليل على ميل الهوى به .

- من حق النعمة أن يرى أثرها .

- من كان شبعه في الطعام لم يزل جائعاً ، ومن كان غناه في المال لم يزل فقيراً ، ومن كان قصده بحوائجه الخلق لم يزل محروماً ، ومن استعان في أمره بغير الله لم يزل مخذولاً .

- من خاف مَنْ فَوْقَهُ خَافَهُ مَنْ تَحْتَهُ ، ومن لم يخف مَنْ فَوْقَهُ لم يخفْهُ مَنْ دُونَهُ .

- ما تُحْسِنه ولا تعمل به (٢) ، لغيرك نُورُهُ وعليك بُورُهُ (٣) .

- وا عجباً لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى على العز في طلب ما يبقى .

- من حذرْك كمن بَشَّرَك . الشَّفِيع جناح الطالب .

- إذا أقبلت الدنيا عليك فأنفق منها فإنها لا تفنى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى .

قال الشاعر (٤) :

فَأَنْفَقْ إِذَا أَيْسَرْتَ غَيْرَ مُقْتَرٍ وَأَنْفَقْ عَلَى مَا خَيَّلْتَ حِينَ تُعْسِرُ (٥)
فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْحِظُّ مُقْبِلٌ وَلَا الْبُخْلُ يَبْقَى الْمَالَ وَالْحِظُّ مُدْبِرٌ (٦)

(١) في مجمع الأمثال ١٧٣/٢ : [الكرم فطنة واللؤم تغافل] والغفل من الرجال : من لا يرجي خيره .

(٢) في (ط) وما تعمل به .

(٣) البور : الهلاك والفساد والكساد ، في (خ) : [ما يحسنه المرء ولا يعمل به لغيره نوره وعليه وزره] .

(٤) القائل هو عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، كان له محل في الأدب وصنعة في الغناء متقنة ، وكان يطلبه الخليفة المعتضد بالله ليصنع من الأشعار غناء ، فيغنيه وينسبه إلى جاريته تواضعا ، ومن جيد شعره هذان البيتان وقد ذكرنا في (كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج ٩ ص ٥٣) .

(٥) (أنفق على ما خيَّلت) هكذا في (خ) وفي كتاب الأغاني ، وفي (ط) (أنفق على ما خلت) ، ومعنى قولهم : (افعل كذا على ما خيَّلت) أي على ما أردت ، أو على أي حال (انظر : مجمع الأمثال رقم ١٢٠٢ ج ٢ ص ٤٨ و لسان العرب باب خيل وباب هلك) .

(٦) في الأغاني (المال بدل الحظ الأولى ، والجَد بدل الحظ الثانية) .

ولغيره :

- لَا تَبْخُلَنَّ بِدُنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ فَلَنْ يَضُرَّ بِهَا التَّبَذِيرُ وَالسَّرْفُ
وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَأَحْرَى أَنْ تَجُودَ بِهَا فَالشُّكْرُ مِنْهَا إِذَا مَا أَدْبَرْتَ خَلْفُ
- الغريب في كل مكان مظلوم .
- من سلك الحذار أمن العثار (١) .
- لم يحَرَ راكبُ القصد (٢) .
- عجباً للئيم يستعجل الفقر الذي منه هرب ، ويفوته الكرم الذي أتاه
يطلبه ، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء .
- من يطل ذيله يكثر ويله (٣) .
- وقال عليُّ بن أبي طالب رضى الله عنه : ما يَظَلُّ فعل الله يُنْتَطَقُ به (٤) .
- غَثُّك خير من سمين غيرك (٥) .
- إن أحببت أن لا يفوتك ما تشتهى فاشته ما يمكنك .
- من قصد أسهل (٦) ، ومن أسرف أوعر (٧) .
- الفصد أخو الحمام (٨) .
- شر السير الحَقَّحَة (٩) .
- بَوْيٌ (١٠) لنفسك في المجالس مجلسا لا يقصر بك ، ولا تقام عنه .
- اقطع الشر من صدر غيرك بقطعه من صدرك ، وازجر المسيء بإثابة
المحسن ، لكي يرغب في الإحسان .

(١) العثار : الشر والمكروه والعثرة . وفي (خ) من سَلَكَ الجَلَد : أي الأرض الصلبة .
(٢) طريق قصد : أي مستقيم .
(٣) يطل ذيله : يكثر ماله وإنفاقه في غير وجهه .
(٤) يُنْتَطَقُ به : من النطاق الذي يُشَدُّ به الوسط ، أي (يتقوى به ويعتمد عليه) .
(٥) الغث : النحيف السقيم ، وعكسها السمين : الصحيح السليم .
(٦) قصد : أي استقام في أمره وتوسَّط في إنفاقه . وأسهل : صار سهلاً لينا .
(٧) أي من تجاوز حد الاعتدال قلَّ ماله وصعب حاله .
(٨) الفصد : قطع بعض العروق لخروج الدم الفاسد . والحمام : الموت .
(٩) الحَقَّحَة : السير الشديد المتعب .
(١٠) بَوْيٌ لنفسك : أي هيئ لها مكاناً مناسباً من البداية بحيث لا يقيمك أحد منه .

- لن يهلك من مالك ما وعظك .
- الخلاف يهدم الرأي .
- خير الناس لغيره خيرهم لنفسه .
- إحسان الله مكفور^(١) عند من أصبح مُصِراً على ذنب مستور .
- يصير التخلُّق خلقاً بالاجتهاد والاعتیاد .
- الحجر الغصب فى البنیان رهنٌ على الخِواب .
- ربما شَرِقَ شارب الماء قبل رِيّه .
- رُبَّ رأى أنفع من مال ، وحزم أوقى من رجال .
- من استوعب^(٢) الحلال تآقت نفسه إلى الحرام .
- من ذمّ الزمان لم يحمّد الإخوان .
- بتقلُّب الأحوال تُعلم جواهر الرجال .
- من عرف الزمان لم يحتج إلى ترجمان .
- من عرف الأيام لم يغفل عن الاستعداد .
- رسولك تُرجمان عقلك .
- الطّاعة غنيمة الأكياس^(٣) عند تفريط العاجز .
- كلما اشتد الظلام حسن ضوء السراج .
- الثناء بأكثر من الاستحقاق مَلَقٌ^(٤) ، والتقصير عن الاستحقاق عمى^(٥) ،
- أو حسد .

- أولى الناس بالرحمة من احتاج إليها فحَرِمَها .
- من لم يدر قدر البلية لم يرحم أهلها .
- كفاك أدباً لنفسك ما كرهته لغيرها .

(١) يقال : عملك مكفور / أي لا تُحمد عليه .

(٢) استوعب : استوفى .

(٣) الكيس : الظريف الفطن .

(٤) الملق والتملق : الزيادة في الود والتذلل وإظهار ما ليس في القلب منه .

(٥) في (خ) [غَي] أي ضلالة .

- مجالسة الأحمق غرر^(١)، والقيام عنه ظفر.
- لا تسأل عما لم يكن، فإن في الذي كان شغل.
- البخل جامعٌ لمساويء العيوب، وهو زمامٌ يُقاد به إلى كل سوء.
- إذا صحَّ القلب وصحَّ العمل كان التوفيق.
- إحراز العواقب بالاجتهاد، والاجتهاد أريح بضاعة.
- التوفيق خير قائد.
- كمال العمل التوفيق.
- من ترقَّق في استتمام الحظ من البُغية أدرك وبلغ.
- مقارنة الناس في أخلاقهم، أمنٌ من غوائلهم^(٢).
- لا تنظر إلى أحد بالموضع الذي ربَّبه فيه زمانه، ولكن أنظر إليه بقيمته في الحقيقة، فإنها مكانه الطبيعي.
- أبعد الناس سافراً من سافر في طلب أخٍ صالح.
- ليست البركة من الكثرة، لكن الكثرة من البركة.
- وقال داود عليه السلام: إن كان ما ترى من الجهل يغيظك^(٣)، إذن يكثر الجهل ويطول غمك.
- قيل لبرجمهر: ما لكم لا تعاتبون الجهلة؟ قال: لأننا لا نريد من العميان أن يبصروا.
- العشق مرض نفسٍ فارغة لا همَّة لها.
- إجمالة الفكرة^(٤)، واستخراج الفطنة، تتبَّع الإساءة بالندم، وتتبَّع الندم بالإقلاع.
- الأمن بالبراءة^(٥) وكثرة الصديق بالتواضع، وأعمُّ الأشياء نفعاً فقد الأشرار.

(١) الغرر: التعريض للهلاك.

(٢) غوائل: جمع غائلة وهي الشر والفساد.

(٣) هكذا في (خ)، وفي (ط) يغيظ.

(٤) إجمالة الفكرة: النظر في القضية والتفكير جيداً قبل الحكم فيها.

(٥) البراءة من العيوب والديون والأمراض وغيرها.

- من بذر عداوة حصد ندامة .
- السُّمْنَةُ للنساء غُلْمَةٌ (١) وللرجال غَفْلَةٌ .
- قال المسيح عليه السلام : ما حِلْمٌ من لم يصبر عند الجهل ؟ ! وما قُوَّةٌ من لم يَرُدَّ الغضب ؟ ! وما عبادةٌ من لم يتواضع للرب سبحانه ؟ !
- عيادة النُّوْكَي (٢) المجيء في غير وقت ، والجلوس فوق القدر .
- إذا وقعت الضرورة ارتفعت المشورة .
- قيل لحكيم : أخرج الهمَّ من قلبك ، قال : ليس بإذنى دَخَلَ .
- من اغتر بحاله قصر (٣) فى احتياله .
- إياكم وطلب الأمور من غير وجهها ، فَيُعْيِيكُمْ طلبها ، ولا تدركوا حظًّا منها .
- هيبة الزَّلَل تورث الحُسَرَ .
- قيل لحكيم : لأى شئ تزوجت امرأةً دميمة (٤) وأنت وسيم ؟ قال : اخترت من الشرِّ أَقْلَه .
- وقيل لحكيم : ما تقول فى الزواج ؟ قال : لذة شهر وهمُّ دهر .
- فتنة عالم إلى إبليس خير من غواية ألف جاهل .
- تمنى المُعَاتِب (٥) ولا تمنى المعاذير .
- الموالاة فى الإسلام بمنزلة الحلف فى الجاهلية .
- سب الجاهل للحكماء ، تشريف لهم عند أهل الفضل لأن الجاهل منسوب إلى فعله ، وكما أن الحكيم يتألم بحديث الجاهل ، كذلك الجاهل يتألم بسماع الحكمة .

(١) الغُلْمَةُ : الانقياد للشهوة وهيجان شهوة النكاح من المرأة والرجل .

(٢) النوكى : الحمقى (جمع أنوك) ، وقد أورد الجاحظ هذا المثل فى البيان والتبيين ، باب : النوكى والمجانين ص ٣٣٨ .

(٣) قصر عن الشيء : عجز عن القيام به .

(٤) فى (خ) ذميمه بالذال . والذميم : القبيح . قال ابن الأعرابي : الذميم بالذال فى قدّه ، والذميم فى أخلاقه (لسان العرب باب دم) .

(٥) فى (خ) تمنى المعاييب . والمعاتب من يعاتب صاحبه إشفافاً عليه ونصيحة له .

- أغنى الناس عن الحقد ، من عظم قدره عن المحاذاة^(١) .
- الكبير الهمة من الرجال من كان عُنْفُ الناصح عنده ، أَلْطَفَ موقعاً من
مَلَقَ الكاشح^(٢) .

- إن كانت الجدود^(٣) هي الحظوظ فما بال الحرص؟ وإن كانت الأمور
ليست بدائمة فما بال السرور؟ وإن كانت الدار غدارة ، فما بال
الطمأنينة؟

- وقال الشَّعبي : ما رأيت الله سبحانه وتعالى أعطى عباده أجلَّ من الحلم .
- وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : خمس من لم تكن فيه ، فلا
تُرْجِه لشيءٍ من أمر الدنيا والآخرة : من لم تعرف الوثيقة في أرومته^(٤) ،
والدَّمَائَة في خلقه ، والكرم في طبعه ، والنبل في نفسه ، والتَّحَافُر عند
ربه .

- وقال أبو عبد الله بن حمدون^(٥) : كنت مع المتوكل لما خرج إلى دمشق
فركب يوماً إلى رُصَافَة^(٦) هشام بن عبد الملك ، فنظر إلى قصورها ثم خرج ،
فرأى ديراً قديماً هناك ، حسن البناء ، بين مزارع وأنهار وأشجار ، فدخله ، فبينا
هو يطوف إذ بصر برقعة قد ألصقت في صدره ، فأمر بقلعها ، فإذا فيها هذه
الآبيات :

(١) في (خ) المجازاة . والمحاذاة : المقابلة ، يقال هذا حذوه إذا امتثل واقتدى به .

(٢) الكاشح : العدو المُبْغِض الذي يضمن العداوة .

(٣) الجدود : جمع جَدّ وهو الحظ والرزق .

(٤) أرومته : أصله أو حسبه ، يُقال فلان شريف الأرومة . والوثيقة من الثقة .

(٥) هو أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو عبد الله ، ابن حمدون ، عالم بالأدب والأخبار ، من
الندماء . كان خصباً بالمتوكل الخليفة العباسي العاشر نادمه مدة خلافته (١٤ سنة) ثم نادى
المستعين الخليفة الثانى عشر مدة خلافته (٣ سنوات) وكانت إقامته ببغداد وله مصنفات توفى سنة
٢٥٥ هـ ، (الأعلام ١ / ٨٤) .

(٦) الرُصَافَة : أطلال مدينة سورية فى بادية تَدْمُرُ حدَّثها هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى
العاشر ومات فيها سنة ١٢٥ هـ . فيها آثار كنيسة القديس سرجيوس وكان قد خربها الفرس ، (معجم
البلدان ٣ / ٤٩ وما بعدها) .

أَيَا مَنْزِلًا بِالْدَّيْرِ أَصْبَحَ خَالِيًا
كَأَنَّكَ لَمْ يَسْكُنْكَ بَيْضٌ أَوْ أُنْسٌ
وَأَبْنَاءُ أَمْلَاكَ غَوَاشِمُ سَادَةٌ
إِذَا لَبَسُوا أَدْرَأَهُمْ فَعَوَّابِسُ
عَلَى أَنَّهُمْ يَوْمَ اللَّقَاءِ ضَرَاغِمُ
لَيَالِي هَشَامٍ بِالرَّصَافَةِ قَاطِنُ
إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالْخِلَافَةُ لَذَّةٌ
وَرَوْضُكَ مَرْتَادٌ وَنُورُكَ مُزْهَرُ
بَكِي فَسَقَاكَ الْغَيْثُ صُوبَ سَحَابِ
تَذَكَّرْتُ قَوْمِي فَيَكَمَا فَبَكِيَّتُهُمْ
فَعَزِيزَتْ نَفْسِي وَهِيَ نَفْسٌ إِذَا جَرَى
لَعَلَّ زَمَانًا جَارِيَوْمًا عَلَيْهِمْ
فَيَفْرَحَ مُحْزُونٌ وَيَنْعَمَ بَائِسٌ
رَوَيْدُكَ إِنَّ الدَّهْرَ يَتَّبِعُهُ غَدٌ

(١) تلعب فيه ريح الشمال والبدور (الريح الغربية).

(٢) الأوانس: مفرداها أنسه وهي الفتاة غير المتزوجة أو طيبة النفس، والحور، النساء جميلات العيون فاشتد بياض وسواد عيونها.

(٣) الغواشم: الشجعان (وفي الحماسة البصرية وغيرها: عباسم)، والأنام: الخلق، وفي (ط): [عند الإله كبير].

(٤) عوابس: أي شداد كالأسود إذا لبسوا الدروع للحرب، وبدور: جمع بدر وهو القمر ليلة اكتماله وذلك دلالة على جمالهم وحسن هيئتهم وقت السلم.

(٥) في المعارك أسود وفي العطاء يجودون كالبحر.

(٦) هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي العاشر.

(٧) الطريب: كثير الطرب. والغض: الطري الناعم. والغريز: العيش الناعم.

(٨) بني مروان: الأمويون. النور: نوار الزهر.

(٩) الصوب: نزول المطر. الرواح والبكور: آخر النهار وأوله.

(١٠) الشجو: الهم والحزن.

(١١) أنة: من الأنين. الزفير: التنفس مع مد النفس (كناية عن الحزن).

(١٢) يتمنى الشاعر أن يجور الزمان على بني أمية جورا تستريح به نفسه.

(١٣) صروف الدائرات: نوائب الدهر وحدثانه.

فلما قرأها المتوكل ارتاع وتطير^(١) وقال : أعوذ بالله من شر أقداره ، ثم دعا صاحب الديار ، فسأله عمن كتبها ؟ فقال : لا علم لي به^(٢) .
وأما الكتب وصفاتها فتجل عن الوصف ، ولقد أحسن ابن الجهم^(٣) في قوله :

سميرٌ إذا جالستَه كان مُسلياً فؤادك مما فيه من ألم الوجد^(٤)
يُفيدك علماً أو يزيدك حكمةً وغيرُ حسودٍ أو مُصرٍّ على الحقدِ
ويحفظ ما استودعته غير غافلٍ ولا خائنٍ عهداً على قدم العهدِ
زمانٌ ربيعٌ في الزمان بأسره يُبيحك روضاً غيرَ ذاوٍ ولا جعدٍ^(٥)
يُنورُ أحياناً بورِدٍ بدائعٍ أخصَّ وأولى بالنفوس من الوردِ
وأنشد بعض العجم :

إذا ما خلا الناسُ في دورهم بخمرٍ سلافٍ وخودٍ كعابٍ^(٦)
وأنسُهمُ في ظلامِ الليالِ لغيرِ الندامى ورهُو السحابِ^(٧)
خلوتُ وصحبي كُتبُ العلوم وبِيتِ عروسي بيتَ الكتابِ^(٨)
ودرسُ العلوم شرابُ العقول فدُوروا عليّ بذاك الشَّرابِ
وما يجمعُ المرءُ في دهره سوى العلمِ يجمعه للترابِ

(١) تطير : تشاءم .

(٢) ورد في الحماسة البصرية ج ١ ص ٢٠٤ باب التأيين والرتاء ، أن قاتل هذه الأبيات هو أحد أولاد روح بن زنباع الجذامي ، والذي كان أحد أعوان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان .

(٣) علي بن الجهم بن بدر أبو الحسن ، شاعر رقيق الشعر أديب من أهل بغداد ، كان معاصراً لأبي تمام ، غضب عليه المتوكل فنفاه إلى خراسان ، أقام فيها مدة ثم انتقل إلى حلب وخرج منها مع جماعة يريد الغزو ، فاعترضه فرسان بني كلب فقاتلهم وجرح ثم مات من جرحه وذلك سنة ٦٤٩ هـ (الأعلام ج ٤ ص ٢٦٩) .

(٤) وصف الكتاب بالمسامر والمسلّي الذي يكشف ويزيل هموم قارئه ، والوجد : الحزن .

(٥) ذاوٍ : ذابل . جعد : ييس وصببت عيدانه .

(٦) السلاف : ما سال من عصير العنب قبل أن يُعصر ، ويقال انه أجود أنواع الخمر ، الخود : المرأة الشابة . الكعاب : التي نهت ثديها (جمعها : كواعب) .

(٧) الندامى : الأصحاب مفردها نديم .. والرهو : السير الناعم . وفي (خ) ، كما في كتاب (نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف . ل : عبد الرحمن بن عمر الجيشي ص ٢١٧) :

وأنسهم حسنات الليال بعز الندامى وزهر الصحاب

(٨) هكذا في (خ) وفي (ط) [وبيت العروس بيت الكتاب] .

ومن مليح ما ينشد في الكتب :

إِذَا مَا خَلُوتُ مِنَ الْمُؤَنَسِينَ
فَلَمْ أَخْلُ مِنْ شَاعِرٍ مُحَسِّنٍ
وَمِنْ حِكْمٍ بَيْنَ أَثْنَائِهَا
وَإِنْ ضَاقَ صَدْرِي بِأَسْرَارِهِ
وَإِنْ صَرَّحَ الشَّعْرُ بِاسْمِ الْحَبِيبِ
وَإِنْ عُدْتُ مِنْ ضَجْرِهِ بِالْهَجَا
وَنَادَمْتُ فِيهِ كَرِيمَ الْمَغِيبِ
فَلَسْتُ أَرَى مُؤَنَسًا مَا حَيِّتُ

وأنشد ابن حزم (٤) لبعض الأدباء :

إِنْ صَحَبْنَا الْمُلُوكَ تَاهُوا عَلَيْنَا
أَوْ صَحَبْنَا التُّجَّارَ عُدْنَا إِلَى الْفَقْرِ
فَلَزِمْنَا الْبُيُوتَ نَتَّخِذُ الْحَبْرَ
لَوْ تَرَكْنَا وَذَاكَ كُنَّا ظَفَرْنَا
غَيْرَ أَنَّ الزَّمَانَ أَغْنَى بَنِيهِ

جَعَلْتُ الْمُؤَنَسَ لِي دَفْتَرِي
وَمِنْ عَالِمٍ صَالِحٍ مُنْذِرٍ (١)
فَوَائِدُ لِلنَّاظِرِ الْمَفْكَرِ
وَأُودِعْتُهُ السِّرَّ لَمْ يُظْهِرِ
وَلَمْ أَحْتَشِمْهُ وَلَمْ أُحْصِرِ (٢)
وَسَبَّ الْخُلَيْفَةَ لَمْ أَحْذِرِ
لِنُدْمَائِهِ طَيْبَ الْمَخْبَرِ (٣)
عَلَيْهِ نَدِيمًا إِلَى الْمَخْشَرِ

وَاسْتَبَدُّوا بِالرَّأْيِ دُونَ الْجَلِيسِ (٥)
وَصَرْنَا إِلَى حَسَابِ الْفُلُوسِ
وَنَمَلًا بِهِ وَجْوهُ الطُّرُوسِ (٦)
مِنْ أَمَانِينَا بَعْلَقَ نَفِيسِ (٧)
حَسَدُونَا عَلَى حَيَاةِ النَّفُوسِ (٨)

(١) هكذا في (خ) وفي (تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ١٢٨) ، وفي (ط) علم .

(٢) الحشمة : الحياء والخجل في طلب حاجة . والحصر : الحبس والمنع . ولم أحصره : لم أمنعه .

(٣) نادمت : صحبت . والندماء : الأصحاب . والمخير : خلاف المنظر

(٤) ابن حزم : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، أبو محمد ، عالم الأندلس في عصره ، وأحد أئمة الإسلام ، انتسب إلى مذهبه في الأندلس خلق كثير ، ولد بقرطبة وكانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزارة وتدبير المملكة فانصرف منها إلى العلم والتأليف ، فكان من صدور الباحثين فقيها وحافظا ، وانتقد كثيرا من العلماء والفقهاء فأبغضوه وحذروا السلاطين من فتنه فأقصاه الملوك وطاردته ، فرحل إلى بادية في بلاد الأندلس ومات فيها سنة ٤٥٦ هـ ، بعد أن ألف بخط يده نحو (٤٠٠) مجلد منها : « المحلى في الفقه » ١١ جزءا والفصل في الملل والأهواء والنحل ، (الأعلام ٤ / ٢٥٤) .

(٥) التيه : الصلف والتكبر . استبد برأيه : انفرد به مستقلاً .

(٦) الطروس : الصحائف والأوراق .

(٧) العلق : النفيس والغالي من كل شيء لتعلق القلب به .

(٨) أغني بنيه : أي أقصد أبناء الزمان وأهله . وحياة النفوس : الماء ، وقيل : الدماء .

وأنشد غيره:

أَنِسْتُ إِلَى التَّفَرُّدِ طُولَ عُمْرِي فَمَالِي فِي الْبَرِيَّةِ مِنْ أَنْيْسٍ (١)
جَعَلْتُ مُحَادَثِي وَنَدِيمَ نَفْسِي وَأَنْسَى دَفْتَرِي بَدَلَ الْعُرُوسِ
قَدْ اسْتَغْنَيْتُ عَنْ فَرَسِي بِرَجْلِي إِذَا سَافَرْتُ أَوْ نَعَلَ كَبُوسٍ (٢)
وَلِي عَرَسٌ جَدِيدٌ كُلَّ يَوْمٍ بَطَرَحِ الْهَمِّ فِي أَمْرِ الْعُرُوسِ
فَبَطْنِي سَفَرْتِي وَالْخُرْجُ جِسْمِي وَهَمِّيَانِي فَمِي أَبَدًا وَكَيْسِي (٣)
وَبَيْتِي حَيْثُ يُدْرِكُنِي مَسَائِي وَأَهْلِي كُلُّ ذِي عَقْلٍ نَفْسِي

ولئن كان الناطقون (٤) قد وصفوا فَجَوْدُوا، وقالوا فأبلغوا، فلقد قَصَرُوا،
وأجل ممدوح من استقصى في مدحه المُنْتَهَى، واستنزر في تفريطه
المُحْتَفَل (٥)، وكيف لا، والكتابُ نِعَمَ الْأَنْيَسِ في ساعة واحدة، ونعم المعرفة
ببلاد الغربة، ونعم القرين والدَّخِيل، ونعم الوزير والنَّزِيل، وعاءٌ مليءٌ علما،
وظرفٌ حُشِي ظَرْفًا (٦)، وإناءٌ مَلِيءٌ مزاجا (٧)، وحبذا بُسْتَانٌ يُحْمَلُ فِي رَدْنٍ (٨)،
وروضة تنقلب في حجر.

هل سمعت بشجرة تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ سَاعَةٍ، بألوان مختلفة وطُعُوم متباينة؟
هل سمعت بشجرة لَا تَذْوِي (٩)، وزهر لَا يَتَوَي (١٠)، وثمر لَا يَفْنَى؟ ومن
لك بجليل يُفِيدُكَ الشَّيْءَ وَخِلَافَهُ، والجنس وضدّه، ينطقُ عن الموتى،
ويترجم عن الأحياء، إن غضبتَ عليه لم يغضب، وإن سَخِطْتَ عليه لم يُجِبْ،

(١) أنس التفرّد: أَلْف الوحدة. البرية: الخلق.

(٢) النعل الكبوس: الذي يشد على القدمين ويحميهما.

(٣) الهميان: كيس تجعل فيه النفقة ويشد على الوسط.

(٤) في (خ) الناظمون.

(٥) استنزر: من النَّزَر اليسير القليل، ومُحتفل الشيء: معظمه.

(٦) الظرف الأولى: الرعاء. والثانية: بمعنى الحذق والبراعة والكياسة.

(٧) هكذا في (ط) وأصل العبارة للجاحظ في وصفه الكتاب، ومما قاله: [... إناء شُحْنُ مَزَاحٍ وَجِدًا].

(٨) الردن: مقدم كم القميص.

(٩) لا تذوي: لا تذبل، يقال: ذوى النبات إذا ذبل وجف ماؤه.

(١٠) لا يتوي: لا يهلك. توي الزهر: هلك.

أَكْتَمُ مِنَ الْأَرْضِ وَأَنْتُمْ^(١) مِنَ الرِّيحِ، وَالْهَي مِنْ الْهَوَى، وَأَخْدَعُ مِنَ الْمُنَى،
وَأَمْتَعُ مِنَ الضَّحَى، وَأَنْطِقُ مِنْ سَحَابٍ وَائِل^(٢)، وَأَعْيَا مِنْ بَاقِل^(٣).

هل سمعت بمعلّمٍ واحدٍ تحلّى بحلل كثيرة، وجمع أوصافاً غزيرة: عربي،
فارسي، هندي، سندي، رومي، يوناني، إن وعظ أسمع، وإن ألهى أمتع، وإن
أبكى أدمع، وإن ضرب أوجع، يفيدك ولا يستفيد منك، ويزيدك ويستزيدك،
إن جدّ فيسرُ، وإن مزح فنزهة، قبر الأسرار وحرز الودائع، قيد العلوم وينبوع
الحكم، ومعدن المكارم، ومؤنس لا ينام، يفيدك علم الأولين ويخبرك عن
كثير من أنباء الآخرين.

هل سمعت في الأولين، أو بلغك عن أحد من السالفين جمّع هذه الأوصاف
مع قلة مؤنّته، وخفة محمله؟ لا يرزؤك^(٤) شيئاً من دنياك، نعم الذخر^(٥)
والعدة، والمستغلّ والحرفة^(٦)، جليس لا يضرُّ بك، ورفيق لا يملك، يطيعك
بالليل طاعته بالنهار، ويطيعك في السفر طاعته في الحضر، إن أدمت النظر
إليه أطل إمتاعك، وشحد طباعك، وبسط لسانك، وجود بنائك، وفخم
ألفاظك، إن ألفته خلّد على الأيام ذكرك، وإن درسته رفع في الخلق قدرك، وإن
حملته نوه عندهم باسمك، يقعد العبيد في مقاعد السادة، ويجلس
السوقة^(٧) في مجالس الملوك، فأكرم به من صاحب، وأعز به من مُرافق،
وقد قال فيه الأول:

(١) يقال: [ننمت الريح التراب] أي خطته وتركت عليه أثراً شبه الكتابة.

(٢) سحبان وائل خطيب يضرب به المثل في البيان فيقال: «أخطب من سحبان وأفصح من
سحبان...» اشتهر في الجاهلية وعاش زمناً في الإسلام، وكان إذا خطب لا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا
يقعد حتى يفرغ، أسلم في زمن النبي ﷺ ولم يجتمع به وأقام في دمشق أيام معاوية مات سنة ٥٤ هـ،
(الأعلام ٧٨/٣).

(٣) باقل الإبدي: جاهلي من بني ربيعة يضرب به المثل في العي من ذلك أنه اشترى ظبياً بأحد
عشر درهما، فمرّ بقوم فقالوا له: بكم اشتريت الظبي؟ فمد يديه ودلع لسانه - يريد أحد عشر - فشرد
الظبي وكان تحت ابطله والمثل المشهور (أعيا من باقل)، (الأعلام ٤٢/٢).

(٤) رزأ الشيء: نقصه وأصاب منه.

(٥) الذخر: ما أعد لوقت آخر في الدنيا أو الآخرة.

(٦) في محاضرات الأدباء للأصفهاني ١/ ١٥٠، قال: [ذكر الجاحظ الكتب، فقال: نعم الذخر
والعدة والجلس والعدة... والمستغل والحرفة].

(٧) السوق: عامة الناس.

لَنَا جُلَسَاءٌ مَا نَمَلَّ حَدِيثَهُمْ أَلْبَاءُ مُؤْمُونُونَ غَيْبًا وَمَشْهُدًا^(١)
يُفِيدُونَنَا مِنْ عِلْمِهِمْ عِلْمَ مَا مَضَى وَرَأْيًا وَتَأْدِيًّا وَعَقْلًا مُسَدَّدًا^(٢)
بِلا فِتْنَةٍ تُخْشَى وَلَا سُوءِ عَشْرَةٍ وَلَا نَتَقَى مِنْهُمْ لِسَانًا وَلَا يَدًا
فَإِنْ قُلْتَ أَمْوَاتٌ فَمَا أَنْتَ كَاذِبٌ وَإِنْ قُلْتَ أَحْيَاءُ فَلَسْتَ مُفَنِّدًا^(٣)
فهذا ما أردنا أن نمليه في هذا لكتاب، فاكتبوا إن شئتم أنفاسه إن كانت
الأنفاس مما يُكتب، والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب، وهو
حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على
سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، دائماً وأبداً إلى يوم
الدين^(٤).

* * *

(نهاية الكتاب)

وقد تم بحمد الله وتوفيقه

(١) ألباء: جمع لبيب وهو العاقل.

(٢) المسدد: الصواب.

(٣) لست مفنداً: أي غير مكذب. (فنده: كذبه وخطأ رأيه).

(٤) هذه العبارة ختم بها الكتاب وزاد الناسخ: [كان الفراغ من إملائه بفسطاط مصر، حرسها الله
لأربع عشرة ليلة خلت، من رجب سنة ستة عشر وخمسمائة، رحم الله مؤلفه و كاتبه والحمد لله رب
العالمين].

مراجع كتاب سراج الملوك

(أ) القرآن الكريم وعلومه:

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، تأليف : محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي ، دار النشر : دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت . - ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م ، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات .
- (٣) إعراب القرآن ، تأليف : أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس ، دار النشر : عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م ، الطبعة : الثالثة ، تحقيق : د. زهير غازي زاهد .
- (٤) الإتقان في علوم القرآن ، تأليف : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، دار النشر : دار الفكر - لبنان - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : سعيد المنذوب
- (٥) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، تأليف : فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت .
- (٦) الجامع لأحكام القرآن ، تأليف : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار النشر : دار الشعب - القاهرة .
- (٧) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، تأليف : عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ، دار النشر : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت .
- (٨) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تأليف : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، دار النشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي .
- (٩) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضع : محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت
- (١٠) تفسير الجلالين ، تأليف : محمد بن أحمد + عبد الرحمن بن أبي بكر المحلي + السيوطي ، دار النشر : دار الحديث - القاهرة ، الطبعة : الأولى
- (١١) تفسير القرآن العظيم ، تأليف : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء ، دار النشر : دار الفكر - بيروت .

(١٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ، اختصار وتعليق : محمد نسيب الرفاعي ، الطبعة الأولى بيروت ١٣٩٢-١٩٧٢ م .

(١٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تأليف : محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر ، دار النشر : دار الفكر - بيروت ١٤٠٥ هـ .

(١٤) دلائل الإعجاز ، تأليف : الإمام عبد القاهر الجرجاني ، دار النشر : دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : د . التنجي .

(١٥) لباب النقول في أسباب النزول ، تأليف : عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل ، دار النشر : دار إحياء العلوم - بيروت .

(ب) الحديث الشريف وعلومه وتراجم الرواة :

(١) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ، تأليف : محمد ناصر الألباني ، دار النشر : المكتب الإسلامي - بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

(٢) أسباب ورود الحديث أو اللمع في أسباب الحديث ، تأليف : جلال الدين السيوطي ، دار النشر : دار المكتبة العلمية - بيروت - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : يحيى إسماعيل أحمد .

(٣) الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، تأليف : عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٧ ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : إبراهيم شمس الدين .

(٤) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ، تأليف : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الرابعة (جزآن في مجلد)

(٥) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ، تأليف : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق حمدي الدمرداش ، الناشر : مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة والرياض (٤ أجزاء في ٤ مجلدات) .

(٦) الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث ، تأليف : أحمد بن عبد الكريم بن سعود الغزي العامري ، دار النشر : دار الراية - الرياض - ١٤١٢ هـ ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : بكر عبد الله أبو زيد .

- (٧) السنن الصغرى، تأليف: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي أبو بكر، دار النشر: مكتبة الدار - المدينة المنورة - ١٤١٠ - ١٩٨٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي.
- (٨) السنن الكبرى، تأليف: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١ - ١٩٩١، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري . سيد كسروي حسن.
- (٩) العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، تأليف: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٣، الطبعة: الأولى، تحقيق: خليل الميس
- (١٠) الفردوس بمأثور الخطاب، تأليف: أبو شجاع شيرويه بن شهر دار بن شيرويه الديلمي الهمذاني الملقب إلكيا، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول.
- (١١) المغني عن حمل الأسفار، تأليف: أبو الفضل العراقي، دار النشر: مكتبة طبرية - الرياض - ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: أشرف عبد المقصود.
- (١٢) المقنع في علوم الحديث، تأليف: سراج الدين عمر بن علي بن أحمد الأنصاري، دار النشر: دار فواز للنشر - السعودية - ١٤١٣ هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الله بن يوسف الجديع.
- (١٣) بذل المجهود في حل أبي داود، تأليف: الشيخ خليل أحمد السَّهَّار نفوري - مع تعليق محمد ذكرى بن يحيى الكاندهلوي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت
- (١٤) تخریج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسیر الکشاف للزمخشري، تأليف: جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، دار النشر: دار ابن خزيمة - الرياض - ١٤١٤ هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد.
- (١٥) تهذيب التهذيب، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠٤ - ١٩٨٤، الطبعة: الأولى.
- (١٦) جامع الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم - ابن الأثير الجزري - تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط - دار الفكر - بيروت ١٤٠٣ هـ - الطبعة الثانية.
- (١٧) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، تأليف: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، دار النشر: دار الفكر - بيروت .

- (١٨) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، تأليف : محمد ناصر الألباني ، الناشر : مكتبة المعارف - الرياض - ١٩٢٢ م .
- (١٩) سنن أبي داود ، تأليف : سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ، دار النشر : دار الفكر - بيروت ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد .
- (٢٠) سنن ابن ماجه ، تأليف : محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني ، دار النشر : دار الفكر - بيروت ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
- (٢١) سنن البيهقي الكبرى ، تأليف : أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي ، دار النشر : مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ١٤١٤ - ١٩٩٤ ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا .
- (٢٢) شرح السنة ، تأليف : حسن بن مسعود البغوي ، الناشر : المكتب الاسلامي - بيروت - ١٩٨٠ م .
- (٢٣) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، تأليف : محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي ، دار النشر : مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٤ - ١٩٩٣ ، الطبعة : الثانية ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط .
- (٢٤) صحيح ابن خزيمة ، تأليف : محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري ، دار النشر : المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٠ - ١٩٨٠ ، تحقيق : د. محمد مصطفى الأعظمي .
- (٢٥) صحيح البخاري - تأليف : محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي - المكتبة الإسلامية - أستانبول ١٩٧٩ م .
- (٢٦) صحيح الجامع الصغير وزياداته (الفتح الكبير) تأليف : محمد ناصر الدين الألباني ، الناشر : المكتب الإسلامي - بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- (٢٧) صحيح مسلم - تأليف الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - نشر وتوزيع : رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالملكة العربية السعودية .
- (٢٨) صحيح مسلم بشرح النووي ، تأليف : أبوزكريا يحيى بن شرف النووي ، نشر وتوزيع : رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالملكة العربية السعودية .

- (٢٩) ضعيف الجامع الصغير وزياداته (الفتح الكبير) تأليف : محمد ناصر الدين الألباني ، الناشر : المكتب الإسلامي - بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- (٣٠) عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي - الحافظ ابن العربي المالكي - دار الكتب العلمية - بيروت .
- (٣١) غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة ، تأليف : خلف بن عبد الملك بن بشكوال أبو القاسم ، دار النشر : عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٧ ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : د. عز الدين علي السيد . محمد كمال الدين عز الدينى .
- (٣٢) فتح الباري بشرح صحيح الامام البخاري ، تأليف : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق : الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز - نشر وتوزيع : رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية .
- (٣٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير ، تأليف : عبد الرؤوف المناوي ، دار النشر : المكتبة التجارية الكبرى - مصر - ١٣٥٦هـ ، الطبعة الأولى .
- (٣٤) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، تأليف : إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- (٣٥) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، تأليف : علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي ، دار النشر : مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٣هـ .
- (٣٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، تأليف : علي بن أبي بكر الهيثمي ، دار النشر : دار الريان للتراث / دار الكتاب العربي - القاهرة . بيروت - ١٤٠٧هـ .
- (٣٧) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تأليف : أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني ، دار النشر : مؤسسة قرطبة - مصر .
- (٣٨) موطأ الإمام مالك ، تأليف : مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبغي ، دار النشر : دار إحياء التراث العربي - مصر - ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
- (٣٩) نصب الراية لأحاديث الهداية ، تأليف : عبد الله بن يوسف أبو محمد الحنفي الزيلعي ، دار النشر : دار الحديث - مصر - ١٣٥٧ ، تحقيق : محمد يوسف البنوري .

(ج) كتب الفقه الإسلامي وأصوله والعقائد والملل :

- (١) الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تأليف : شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحاراني ، دار النشر : دار المعرفة - بيروت ،
- (٢) المحلى ، تأليف : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد ، دار النشر : دار الآفاق الجديدة - بيروت ، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي
- (٣) المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، تأليف : عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد ، دار النشر : دار الفكر - بيروت - ١٤٠٥ ، الطبعة : الأولى
- (٤) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، تأليف : محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي أبو الوليد ، دار النشر : دار الفكر - بيروت
- (٥) تحفة الفقهاء ، تأليف : علاء الدين السمرقندي ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٠ هـ .

(٦) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، تأليف : الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، طبع ونشر : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ١٤٠٣ هـ .

(٧) مصرع التصوف (تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي) ، تأليف : برهان الدين البقاعي ، دار النشر : عباس أحمد الباز - مكة المكرمة - ١٤٠٠ - ١٩٨٠ ، تحقيق : عبد الرحمن الوكيل .

(٨) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج . ، تأليف : شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة ابن شهاب الدين الرملي الشهير بالشافعي الصغير . ، دار النشر : دار الفكر للطباعة - بيروت - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

(د) كتب السيرة والتاريخ والتراجم :

- (١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تأليف : ابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ، تحقيق محمد البنا ومحمد عاشور ، الناشر : دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ م .
- (٢) أعلام النبوة ، تأليف : أبو الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي ، دار النشر : دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : محمد المعتصم بالله البغدادي .

- (٣) أيام العرب في الإسلام، تأليف : محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، الناشر : دار الجليل - بيروت - ١٩٨٨ م.
- (٤) الإصابة في تمييز الصحابة، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار النشر: دار الجليل - بيروت - ١٤١٢ - ١٩٩٢، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد البجاوي.
- (٥) الأعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، تأليف : خير الدين الزركلي، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة العاشرة ١٩٩٢ م.
- (٦) الأغاني، تأليف: أبو الفرج الأصفهاني، دار النشر: دار الفكر للطباعة والنشر - لبنان، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر.
- (٧) الأنساب، تأليف: أبي سعيد عبد الكريم بن محمد ابن منصور التميمي السمعاني، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٩٩٨ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الله عمر البارودي.
- (٨) البداية والنهاية، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، دار النشر: مكتبة المعارف - بيروت.
- (٩) التاريخ الإسلامي، تأليف : محمود شاكر، الناشر : المكتب الإسلامي - بيروت ، الطبعة السابعة ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- (١٠) التاريخ الكبير، تأليف : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار النشر: دار الفكر، تحقيق: السيد هاشم الندوي.
- (١١) التكملة لكتاب الصلة، تأليف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، دار النشر: دار الفكر للطباعة - لبنان - ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، تحقيق: عبد السلام الهراس.
- (١٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تأليف: أبو الحسن علي بن بسام الشتريني، دار النشر: دار الثقافة - بيروت - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، تحقيق: إحسان عباس.
- (١٣) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، تأليف: علي بن برهان الدين الحلبي، دار النشر: دار المعرفة - بيروت ١٤٠٠ هـ.
- (١٤) السيرة النبوية لابن هشام، تأليف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، دار النشر: دار الجليل - بيروت - ١٤١١ هـ.

- (١٥) السيرة النبوية للذهبي، تأليف : محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت- الطبعة الثانية ١٩٨٢ م ، تحقيق : حسام الدين القدسي .
- (١٦) الكامل في التاريخ، تأليف: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥ هـ، الطبعة: ط ٢، تحقيق: عبد الله القاضي .
- (١٧) المعارف، تأليف: ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم ، تحقيق: دكتور ثروت عكاشة، الناشر: منشورات الشريف الرضي ، الطبعة الأولى في ايران ١٤١٥ هـ .
- (١٨) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تأليف: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، دار النشر: دار صادر - بيروت - ١٣٥٨ ، الطبعة: الأولى .
- (١٩) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تأليف: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ، دار النشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي - مصر .
- (٢٠) الوافي بالوفيات، تأليف: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، دار النشر: دار إحياء التراث - بيروت - ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى .
- (٢١) الوزراء والكتاب ، تأليف : أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الاياري وعبد الحفيظ شلبي، الناشر: مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م .
- (٢٢) الوفيات، تأليف: محمد بن رافع السلامي أبو المعالي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٢ ، الطبعة: الأولى، تحقيق: صالح مهدي عباس . د. بشار عواد معروف .
- (٢٣) بغية الطلب في تاريخ حلب، تأليف: كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، دار النشر: دار الفكر، تحقيق: د. سهيل زكار .
- (٢٤) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار النشر: دار الكتاب العربي - لبنان/ بيروت - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري .
- (٢٥) تاريخ الخلفاء، تأليف: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار النشر: مطبعة السعادة - مصر - ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد .

- (٢٦) تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تأليف : محمد فريد بك ، دار النشر : دار النفائس - بيروت .
- (٢٧) تاريخ الطبري ، تأليف : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت .
- (٢٨) تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، تأليف : الحافظ أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يونس الأزدي ، دار النشر : مطبعة المدني - القاهرة - ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، الطبعة : الثانية ، تحقيق : عزت العطار الحسيني .
- (٢٩) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، تأليف : عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ، دار النشر : دار الجيل - بيروت .
- (٣٠) تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل ، تأليف : أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي ، دار النشر : دار الفكر - بيروت - ١٩٩٥ ، تحقيق : محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري .
- (٣١) جمهرة أنساب العرب ، تأليف : ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، تحقيق عبد السلام هارون ، الناشر : دار المعارف - القاهرة - الطبعة السادسة .
- (٣٢) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، تأليف : المحبي ، دار النشر : دار صادر - بيروت .
- (٣٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ، تأليف : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ، دار النشر : مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت - ١٤٠٧ - ١٩٨٦ ، الطبعة : الرابعة عشر ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط .
- (٣٤) سير أعلام النبلاء ، تأليف : محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله ، دار النشر : مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٣ ، الطبعة : التاسعة ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط . محمد نعيم العرقسوسي .
- (٣٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تأليف : عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي ، دار النشر : دار ابن كثير - دمشق - ١٤٠٦ هـ ، الطبعة : ط ١ ، تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط ، محمود الأرنؤوط .
- (٣٦) صفة الصفوة ، تأليف : عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ، دار النشر : دار المعرفة - بيروت - ١٣٩٩ - ١٩٧٩ ، الطبعة : الثانية ، تحقيق : محمود فاخوري - د. محمد رواس قلعه جي .

- (٣٧) طبقات الصوفية، تأليف: أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد السلمي الأزدي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
- (٣٨) طبقات المفسرين للداودي، تأليف: أحمد بن محمد الأدنه وي، دار النشر: مكتبة العلوم والحكم - السعودية - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: سليمان بن صالح.
- (٣٩) طبقات المفسرين، تأليف: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار النشر: مكتبة وهبة - القاهرة - ١٣٩٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد عمر.
- (٤٠) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تأليف: موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي، دار النشر: دار مكتبة الحياة - بيروت، تحقيق: الدكتور نزار رضا.
- (٤١) فتوح البلدان، تأليف: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٣، تحقيق: رضوان محمد رضوان.
- (٤٢) فتوح الشام، تأليف: أبو عبد الله بن عمر الواقدي، دار النشر: دار الجليل - بيروت.
- (٤٣) فتوح مصر وأخبارها، تأليف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم بن أعين القرشي المصري، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد الحجيري.
- (٤٤) فوات الوفيات والذيل عليها، تأليف: محمد بن شاكر الكتبي، دار النشر: دار صادر - بيروت - ، تحقيق: الدكتور إحسان عباس.
- (٤٥) قصص الأنبياء، تأليف: أبو الفدا إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق علي عبد الحميد وآخرون، الناشر: دار الخير - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٩٣ م.
- (٤٦) كتاب الوفيات، تأليف: أبي العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب، دار النشر: دار الإقامة الجديدة - بيروت - ١٩٧٨ م، الطبعة: الثانية، تحقيق: عادل نويهض.
- (٤٧) كتاب دلائل النبوة، تأليف: إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، دار النشر: دار طيبة - الرياض - ١٤٠٩ هـ.
- (٤٨) معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تأليف: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، الطبعة: الأولى.

- (٤٩) معجم الألقاب والأسماء المستعارة في التاريخ العربي والإسلامي، تأليف : الدكتور فؤاد صالح السيد ، الناشر: دار العلم للملايين -بيروت- الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
- (٥٠) معجم الأوائل في تاريخ العرب والإسلام، تأليف : الدكتور فؤاد صالح السيد ، الناشر: دار المناهل -بيروت- الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
- (٥١) معجم المؤلفين (تراجم مصنفى الكتب العربية) ، تأليف : عمر رضا كحالة ، الناشر: مؤسسة الرسالة -بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- (٥٢) مقدمة ابن خلدون ، تأليف : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، دار النشر: دار القلم - بيروت - ١٩٨٤ ، الطبعة : الخامسة.
- (٥٣) نزهة الألباب في الألقاب، تأليف: أحمد بن علي بن محمد المشهور بابن حجر العسقلاني ، دار النشر: مكتبة الرشد - الرياض - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : عبد العزيز محمد بن صالح السديري .
- (٥٤) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تأليف : أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ، دار النشر: دار صادر - بيروت - ١٣٨٨هـ ، تحقيق : د. إحسان عباس .
- (٥٥) وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، تأليف : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، دار النشر: دار الثقافة - لبنان ، تحقيق : إحسان عباس .
- (٥٦) يتمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تأليف : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان - ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : د. مفيد محمد قمحية .

(هـ) كتب الأدب والنحو والأخلاق والسلوك:

- (١) إحياء علوم الدين ، تأليف : محمد بن محمد الغزالي أبو حامد ، دار النشر: دار المعرفة - بيروت .
- (٢) أدب الكاتب ، تأليف : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، السكوفي ، المروزي ، الدينوري ، دار النشر: مكتبة السعادة - مصر - ١٩٦٣ ، الطبعة : الرابعة ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .
- (٣) أمثال الحديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، تأليف : أبو الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي ، دار النشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ١٤٠٩ ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : أحمد عبد الفتاح تمام .

- (٤) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تأليف: جمال الدين ابن هشام الأنصاري، دار النشر: دار الجيل - بيروت - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، الطبعة: الخامسة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
- (٥) الأمالي في لغة العرب، تأليف: أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- (٦) البيان والتبيين للجاحظ - تحقيق: فوزي عطوي، الناشر: دار صعب - بيروت.
- (٧) الحماسة البصرية، تأليف: صدر الدين علي بن الحسن البصري، دار النشر: عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، تحقيق: مختار الدين أحمد.
- (٨) الزهد، تأليف: عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي أبو عبد الله، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.
- (٩) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تأليف شيخ الاسلام ابن تيمية، لا الناشر: دار الكاتب العربي - بيروت.
- (١٠) المجالسة وجواهر العلم، تأليف: أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي، دار النشر: دار ابن حزم - لبنان/ بيروت - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، الطبعة: الأولى.
- (١١) المستطرف في كل فن مستظرف مجلدين، تأليف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، الطبعة: الثانية، تحقيق: مفيد محمد قميحة.
- (١٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي، تأليف: الخطيب البغدادي، دار النشر: دار إحياء السنة النبوية.
- (١٣) جمهرة أشعار العرب، تأليف: أبو زيد القرشي، دار النشر: دار الأرقم - بيروت، تحقيق: عمر فاروق الطباع.
- (١٤) جمهرة الأمثال، تأليف: الشيخ الأديب أبو هلال العسكري، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- (١٥) جمهرة خطب العرب، تأليف: أحمد زكي صفوت، دار النشر: المكتبة العلمية - بيروت.

- (١٦) ديوان المتنبي، تأليف: أبو البقاء العكبري، دار النشر: دار المعرفة - بيروت، تحقيق: مصطفى السقا/ إبراهيم الأبياري/ عبد الحفيظ شلبي.
- (١٧) شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تأليف: عبد الله جمال الدين ابن هشام الأنصاري، دار النشر: الشركة المتحدة للتوزيع - سوريا - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، تحقيق: عبد الغني الدقر.
- (١٨) صبح الأعشى في كتابة الإنشا، تأليف: القلقشندي أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، دار النشر: وزارة الثقافة - دمشق - ١٩٨١، تحقيق: عبد القادر زكار.
- (١٩) كتاب أدب الدنيا والدين، تأليف: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، دار النشر: المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - القاهرة.
- (٢٠) كتاب الأمثال في الحديث النبوي، تأليف: أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان أبي الشيخ الأصبهاني، دار النشر: الدار السلفية - بومباي - الهند - ١٤٠٨ - ١٩٨٧م، الطبعة: الثانية، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد.
- (٢١) كتاب سيبويه، تأليف: أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، دار النشر: دار الجليل - بيروت، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.
- (٢٢) مجمع الأمثال، تأليف: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، دار النشر: دار المعرفة - بيروت، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
- (٢٣) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تأليف: أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الأصفهاني، دار النشر: دار القلم - بيروت - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، تحقيق: عمر الطباع.
- (٢٤) مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تأليف: جمال الدين ابن هشام الأنصاري، دار النشر: دار الفكر - دمشق - ١٩٨٥، الطبعة: السادسة، تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله.
- (٢٥) شرطي التعريف في فضل حملة العلم الشريف، تأليف: الامام جمال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر الجيشي، دار النشر: دار المنهاج - جدة - ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، الطبعة: الأولى.
- (٢٦) نهج البلاغة، تأليف: الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي الصالح، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٢م.

(و) المعاجم :

- (١) أساس البلاغة ، تأليف : أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري ، دار النشر : دار الفكر - ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- (٢) الأفعال ، تأليف : أبو القاسم علي بن جعفر السعدي ، دار النشر : عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، الطبعة : الأولى .
- (٣) القاموس المحيط ، تأليف : محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، دار النشر : مؤسسة الرسالة - بيروت .
- (٤) الكلديات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، تأليف : أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي ، دار النشر : مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م . ، تحقيق : عدنان درويش - محمد المصري .
- (٥) المحكم والمحيط الأعظم ، تأليف : أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت .
- (٦) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، تأليف : أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي ، دار النشر : المكتبة العلمية - بيروت .
- (٧) المعجم الوسيط (٢+١) ، تأليف : إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار ، دار النشر : دار الدعوة ، تحقيق : مجمع اللغة العربية
- (٨) المنجد في اللغة والأعلام - دار المشرق - بيروت - الطبعة الثامنة والعشرون ١٩٨٦ م .
- (٩) الموسوعة الفلسفية ، تأليف مجموعة من العلماء ، ترجمة سمير كرم ، الناشر : دار الطليعة - بيروت - ١٩٧٨ م .
- (١٠) تاج العروس من جواهر القاموس ، تأليف : محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، دار النشر : دار الهداية ، تحقيق : مجموعة من المحققين .
- (١١) جمهرة اللغة ، دار النشر : دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٨٧ م ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : رمزي منير بعلبكي .
- (١٢) كتاب العين تأليف : الخليل بن أحمد الفراهيدي ، دار النشر : دار ومكتبة الهلال ، تحقيق : د مهدي الخزومي / د إبراهيم السامرائي .
- (١٣) لسان العرب ، تأليف : محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري ، دار النشر : دار صادر - بيروت ، الطبعة : الأولى .

(١٤) مختار الصحاح، تأليف: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار النشر: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - ١٤١٥ - ١٩٩٥، الطبعة: طبعة جديدة، تحقيق: محمود خاطر.

(١٥) معجم البلدان، تأليف: ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، دار النشر: دار الفكر - بيروت.

(ز) كتب التعريف بالكتب (الببلوجرافيا):

(١) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تأليف: صديق بن حسن القنوجي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٧٨، تحقيق: عبد الجبار زكار.

(٢) أسماء الكتب، تأليف: عبد اللطيف بن محمد رياض زادة، دار النشر: دار الفكر - دمشق/ سورية - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. محمد التونجي.

(٣) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، تأليف: أدورد فنديك، دار النشر: دار صادر - بيروت.

(٤) الفهرست، تأليف: محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم، دار النشر: دار المعرفة - بيروت - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٥) المعجم المفهرس أو تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنشورة، تأليف: أحمد بن علي العسقلاني أبو الفضل، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد شكور الميادين.

(٦) فهرسة ابن خير الإشيلي، تأليف: أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان - ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، الطبعة: الطبعة الأولى، تحقيق: محمد فؤاد منصور.

(٧) فهرسة ابن عطية، تأليف: الإمام القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية المحاربي الاندلسي، دار النشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت/ لبنان - ١٩٨٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد أبو الأجنان/ محمد الزاهي.

(٨) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تأليف: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

(٩) معجم الكتب، تأليف: يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن عبد الهادي الدمشقي، دار النشر: مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع - مصر - ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، تحقيق: يسرى عبد الغني البشري.

الكشاف العام

- ١- فهرس الأعلام .
- ٢- فهرس البلدان والأماكن .
- ٣- فهرس القبائل والبطون والطوائف .
- ٤- فهرس الآيات القرآنية
- ٥- فهرس الأحاديث النبوية
- ٦- فهرس الأشعار
- ٧- فهرس الكتب الواردة في النص

١- فهرس الأعلام

أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل ٥٣٥ ، ٥٦١

أحمد بن بدر الدين الجمالي ١١٨

أحمد بن الحسين بن علي ٣٦٢

أحمد بن حنبل ٤٧ ، ١٠٦ ، ١٢٤ ، ١٢٨

١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٨

١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٨٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٦

٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣

٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ ، ٣٠٢

٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٤٩

٣٥٢ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٣٩٩

٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٦ ، ٤١٧

٤١٨ ، ٤٢٢ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩

٤٩٦ ، ٤٩٧

أحمد بن أبي الحواري ١٢٢ ، ٢٨٨

أحمد بن خضراوية ٤١٥

أحمد بن أبي داود ٣٦١

أحمد بن سليمان ٨٦

أحمد بن سهل البلخي ٥١٥

أحمد شاکر ١٣٥

أحمد بن طولون ٤١٧

أحمد عامر ١٨٧

أحمد بن عبدالله ٤٥٩

أحمد بن عبد الملك الإشبيلي ٤٥٨

أحمد بن عطاء ٢٦٦

أحمد بن محمد بن أحمد ٨٠

(١)

إبراهيم النخعي ٤٨ ، ٧٤ ، ١١٧ ، ٢٤١ ، ٣٢٤

٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧

٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٦٤

إبراهيم بن أحمد الخواص ٢٨١

إبراهيم بن أدهم بن منصور ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠

٢٣٩ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤٢٤

إبراهيم بن الأشر ٧٢

إبراهيم بن الأغلب ٨٣

إبراهيم بن "الإمام" ١٩٠

إبراهيم بن بشار ٥٨

إبراهيم "الحسن" ٤٠٩

إبراهيم بن خالد ٢٦٥

إبراهيم بن العباس ٢١٩

إبراهيم بن عبدالله ٣٣٢

إبراهيم بن محمد ٥١٤

إبراهيم بن محمد بن علي ١٢٥

إبراهيم بن محمد بن مهران ٤٣٩

إبراهيم بن المهدي ١٩٤ ، ٢٥٥

إبراهيم النخعي ٣٩٧

أبرويز ٣٤٤

الأبشيهي ٨٨ ، ١٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٤٧٦

إبليس ٥٨ ، ١٣٩ ، ٢١٣ ، ٢٤١

ابن الأثير ٢٦٥ ، ٣٥٥ ، ٣٦٤ ، ٤٠٤ ، ٤١٦

٤٢٨ ، ٤٣٦ ، ٤٨٦ ، ٤٩٩ ، ٥٠٥

أحمد بن محمد بن سلامة ٤١٧

أحمد بن محمد بن غالب ٢٦٥

أحمد بن يوسف بن أحمد ٤٧٩

الأحنف بن قيس ١٠٢، ١٧٢، ٢١٩، ٢٢٥،

٢٢٨، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧،

٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢، ٣٣٦، ٣٤١، ٤٦٧

أبو الأحوص ١٥٦

إدريس "الكَلْبِي" ٣٠٤، ٣٠٩

أبو إدريس الخولاني ٤١٦

آدم "الكَلْبِي" ٦٢، ٦٣، ٦٧، ٩٠، ٩٥، ٩٦،

١٥٦، ١٩٦، ٢٢٩، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٦٣،

٢٧٥، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣٢٤،

٥١٣

أردشير ٥٥، ١٧٢، ١٨٧، ١٩٧، ٢١٢، ٢٢٩،

٢٤٢، ٢٤٨، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٨٠، ٣٣٣

أرسطاطاليس ٦٥، ٢٤٢، ٣٣٢، ٣٣٣، ٥١٢

أرسطو ١٦٦، ١٧٣، ٣٣٢

أرم ٢٨٨

أرمانوس ٤٨٦

آزر ٤٤٦

إسحاق "الكَلْبِي" ٢٤١، ٤٤٢، ٤٤٩، ٤٥٠

إسحاق بن إبراهيم الموصلي ٣١١

إبو إسحاق الأسفراييني ٤٣٩، ٤٤٠

إسحاق بن حرة ٣٨٦

أبو إسحاق السبيعي ٣٢٦

أسفنديار بن بشتاسب ٥١١

الإسكندر ٥٨، ٦٥، ٧٤، ١٦٤، ٢٠٧، ٢٥٠،

٣٢٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٤٣٠، ٤٥٣، ٥١١،

٥١٢

أسماء بنت أبي بكر ٣٨٨

أسماء بنت خارجة ٢٦٠

أسماء بنت يزيد ٤٢٨

إسماعيل "الكَلْبِي" ٢٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٨،

٤٤٩، ٤٥٠

إسماعيل بن إبراهيم بن أمه ٣٨٦

إسماعيل بن صبيح ٣٤١

إسماعيل بن عباد "الصاحب" ٩٥

إسماعيل بن القاسم ٥٢، ٥٤، ٦٣، ٦٥، ٧٢،

٧٥، ٤٢٥

أبو الأسود الدؤلي ٣٣٠

الأسود بن عبد يغوث ٣٩٧

الأسود بن يعفر ٥٥

الأشتر النخعي ٣٦٦

ابن الأشعث ٧٢، ٩٥

الأشعث بن قيس ٢٦٦، ٢٨٢

الأصبهاني "الأصفهاني" ٩٧، ١١٨، ٢٨٩،

٥٥٦، ٥٦٦

اصطخر بن طهمورت ٢١٨، ٣٨٤

أصم ١٢٥

الأصمعي ٥٤، ٧٢، ١٢٥، ١٤٢، ١٩٠، ٢٠٢،

٢٠٥، ٢٢٠، ٢٣٧، ٢٤٣، ٢٤٨، ٢٦٩،

٣٢٩

ابن الأعرابي ٥١٣، ٥٦٠

الأوزاعي ١٠٩ ، ١٤٤ ، ١٧٥ ، ٢١٩ ، ٢٨١ ، ٤٢٠	الأعشى ٥٥
أوس بن حارثة ٥٥٤	أفرائيم بن يوسف ٣٥٧
أويس القرنى ٤٠٦	الأفضل ١١٨ ، ٢١٣
إياد بن نزار بن معد ٥٥	أفلاطون ٩٢ ، ١٧٣ ، ٢٣٠
إياس بن معاوية ٢٠٢ ، ٣٩٠	الأفوه الأودى ٣٣٠ -
إيران شهر ٢٧٩ ، ٥١٩	الأقرع بن حابس ٧٣
أيوب "القطيعة" ٢٨٨	أكثم بن صيفى ١٦٣ ، ١٩٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥
أبو أيوب الأنصارى ٣٥٢ ، ٣٥٣	٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٧ ، ٢٧٩ ، ٥٢٧ ، ٥٣٦
أبو أيوب المورياني ٢٨٦	٥٥٣
(ب)	ابن ألب أرسلان ٣٥٨
الباجى "أبو الوليد" ٥٧ ، ٢٠٨ ، ٢٧١ ، ٤٦٠	ألب أرسلان ٤٥٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨
٤٦١ ، ٤٨٠	الألبانى ١٣٥ ، ١٤١ ، ٢٠٤ ، ٤١٧
البخارى ٤٧ ، ٧٤ ، ١١٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٩	إلغاز ٤٥٠
١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٨ ، ١٨٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٦	أبو إمارة ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٩
٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨	أمرى القيس الثانى ٥٥
٣٢٣ ، ٣٥٢ ، ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩	الآمرى "الفاطمى" ٣٧ ، ١١٨
٤٠٤ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤١٧	الأمين "العباسى" ٥٤ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٠٠ ، ١٠٥
٤٢١ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٤	١٦٣ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢٣٣ ، ٢٥١ ، ٣١٨
٤٨٢ ، ٤٨٤	٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤١ ، ٥١٨
البراء بن عازب ٤٨٤	أنس ٩٦ ، ١٢٦ ، ١٨٤ ، ٢٣٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩
بريدة ١٣٣	٢٧٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٦ ، ٣٦٤ ، ٤٠٣
البزاز ١٣٥ ، ٤٥٤	٤٠٤ ، ٤١٣ ، ٤١٧ ، ٤٨٢ ، ٤٩٥
بزدجمهر ١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٠٩	أنوشروان ١٦٩ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠
٢٢٩ ، ٢٨٠ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٩٢ ، ٥٠٠	٢٤٣ ، ٢٥٢ ، ٢٩٤ ، ٣٣١ ، ٣٤٤ ، ٣٩٦
٥٠٧ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٦ ، ٥٢٠	٤٢٥ ، ٥١٣ ، ٥٠٦ ، ٥٣٥
	أوريا ٤٣٦ ، ٥٠٠

البستي ٣١١

بشار بن برد ٥٠١

بشر الحافي ٢٦٤ ، ٤٢٤

بشر بن السري ١٢٤

بشر بن مروان ٢٤٢ ، ٣٨٧

ابن بشكوال ٩٢

البغوي ٤٦ ، ٩٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ٢٣٧ ،

٢٣٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣٠٣ ، ٤١٧ ، ٤١٨

البقاعي ٢١٩

أبو بكر "الصديق" رضى الله عنه ١٠٠ ، ١١٧ ،

١٣٣ ، ١٨٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢١٨ ،

٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٢٤٦ ، ٢٦٦ ، ٣٠٣ ، ٣٢٦ ،

٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨ ،

٣٨٥ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠

أبو بكر بن الأنباري ٢١٨

أبو بكر بن الدقاق ٢٦٨

أبو بكر الطرطوسي ٥٧ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٩٩ ،

٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٥٣ ، ٢٧١ ، ٢٨١ ، ٤٦٠ ،

٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٥٠٣

أبو بكر بن حزم ٢٩٦

بكر بن عبد الرحمن ٤٥٥

بكر بن عبد الله ٥٣

أبو بكر بن أبي مريم ١٣٤

أبو بكر بن المنكدر ٢٦٩

أبو بكرة ٣٢٩ ، ٣٨٨

البلاذري ٢٧٤

بلال بن أبي بردة ١١٨ ، ١٢٠ ، ٤٢٧

بلال بن سعد ٤٢٠

بلال بن عامر ١٢٠ ، ١٢١

بلوام بن حفص ٧٥

بنيامين ٢٨٨

البهلول بن راشد ٢٦٩ ، ٢٧١

بوران ٢٢٠ ، ٣٨٥

بيديا الهندي ٢١١

البيهقي ٤٦ ، ٨٠ ، ٩٧ ، ١٣٢ ، ١٥٦ ، ٢٠٨ ،

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥٤ ، ٢٧٣ ، ٢٩٣ ، ٣٠٢ ،

٣٢٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤٢٢ ،

٤٦٨ ، ٥٣٥ .

(ت)

الترمذي ٤٦ ، ٤٧ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١٢٨ ،

١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٩ ،

١٦٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ،

٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣٢٣ ،

٣٨٠ ، ٣٨٥ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،

٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٨٤ ، ٤٩٥

ابن تغري بردي ٤٧٨

أبو تمام ٢٠٣ ، ٢٨٢ ، ٥٦٣

تميم الداري ٢٣٦

تميم بن المعز الفاطمي ٢٨٦

التهامي ٧٧

توبه بن حمير ٢٨٩

ابن تيمية ١٨٧

(ث)

جعفر بن عثمان المصاحفي ٢٩٦

أبو جعفر القمودى ٤٠٩

جعفر بن محمد ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٧

جعفر بن المعتضد ٢١٥

أبو جعفر المنصور ٥٣، ٨١، ١٠٨، ١٠٩

١١٦، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٤٥، ١٦٦

١٦٨، ١٩٢، ٢٦٤، ٢٨٢، ٢٨٦، ٣٢٥

٣٣٢، ٣٤٥، ٣٦٤، ٤٣١، ٥١٤

جعفر بن يحيى ٣٤٧

جفينة ١٦٣

جندب بن جنادة ١٢٩

الجندي ٤٥٨

الجنيد ٢٦٥، ٢٨١، ٣٠٦

أبو جهل ٤٦٧

جهيل ٤٩٧، ٤٩٨

جورجيس بن يوحنا ٤٥٧

ابن الجوزى ١٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧

(ح)

حاتم طى ٥٦

أبو حاتم طى ٢٧٢

الحارث ٢٤٨

الحارث بن أسد ٢٨٧

الحارث بن عامر ٤٠١

الحارث بن قيس ٤٠٨

أبو حازم ٣٠٣، ٤٠٤

ثابت بن الغصين ٣٢٤

ثروت عكاشة ١٧٣

الثعالبي ٩٨

ثوبان بن إبراهيم ٢٥٨

أبو ثور ٢٦٥

ثور بن زيد ٤٢١

الثورى "سفيان" ١٠٣، ٢٦٦

(ج)

جابر بن عبدالله ٤٦، ٩٠، ٢٣٨، ٢٧٣، ٢٧٨

٢٩٦، ٤٨٢، ٤٩٥

الجاحظ ٦٦، ٧٦، ١١٨، ٥٦٠، ٥٦٥

جارية بن الحجاج ٥٦

جارية بن قدامة ٢٤٠

جالوت ١٣٦، ٢٢٥

جالينوس ٥١٥

جبريل "عليه السلام" ٤٦، ١٠٩، ٣٩٤، ٤٠٣

ابن جرير ٤٠٤

جرير بن عبدالله البجلي ٢٣٨، ٢٥٠، ٢٥٩

جرير بن يزيد ٢٦٩

الجعد بن درهم ١٦٨، ١٧٠، ١٧١

جعفر البرمكى ١٦٣

جعفر بن حنظلة ٤٠٩

جعفر بن سليمان بن عبدالله ١٢٤

جعفر الصادق ٥٣٢، ٥٣٨

أبو جعفر الطحاوى ٤١٧

أبو الحسن الأشعري ٤٣٨ ، ٤٣٩	الحاكم ٤٦ ، ٩٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٥٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٤٠ ، ٢٧١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٩٧ ، ٤٩٦ ، ٤٥٤
الحسن البصري ٤٦ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٩٦ ، ١١٢ ، ١٣١ ، ١٦٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٣٠٧ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٧٢ ، ٣٨٤	الحاكم بأمر الله ٣٧
الحسن بن أبي جعفر ٥٠٧	أبو حامد البلخي ٤١٥
الحسن بن سهل ٢٢٠ ، ٢٦٢ ، ٤٠٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٤٢ ، ٤٧٨ ، ٥١٦	الحباب بن المنذر ١٥٨
الحسن بن علي ٦٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٣٠٨ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٤٨٤	ابن حبان ٤٠٣ ، ٤٠٨ ، ٤١٤ ، ٥٠٧
الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ٣٥٨ ، ٤٥٥	ابن جيب ٤٧٨
الحسن بن علي الأسدي ٣٥٣	جيب بن أوس ٢٨٢
الحسن بن محمد بن الحسين ١١٤	جيب بن أبي جيب ٢٨١
الحسن بن ميمون ٤٦٢	جيب بن عيسى العجمي ٣٠٧
الحسن بن هاني ٥٤ ، ٣٢٨	جيب بن مسلمة ٤٣٦
الحسن بن يزيد ١٢٥	الحجاج بن يوسف ٤٦ ، ٩٥ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٤٦ ، ١٦٦ ، ١٨٢ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٩٤ ، ٣٠٧ ، ٣١٥ ، ٣٢٧ ، ٣٦٦ ، ٣٧٢ ، ٣٩٧ ، ٤٢٣ ، ٤٥٢ ، ٤٨٤ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥١٨
الحسين بن علي ٦٤ ، ٧٢ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١١٤ ، ٣٢١ ، ٣٤٦ ، ٤٦٩ ، ٤٨٤	ابن حجر ٥٣ ، ٥٨ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٨ ، ٣٨٣ ، ٣٩٧ ، ٤١٢ ، ٤٣٦ ، ٤٤١
ابن الحصار ٤١٤	حذيفة ٥٣ ، ١٠٦ ، ١٣٢ ، ٢٥٩
حفص بن عمار ٢٧٠	الحرقة بنت النعمان بن المنذر ٧٠
الحكم بن حزام ٢٦٣	ابن حزم الأندلسي ١٧٣ ، ١٨٥ ، ٥٦٣
الحكم بن عبد المطلب ٢٦١	حسان بن برزى ٣٧٩
الحكم بن عمرو ٨٠	حسان بن ثابت ٤٢٦
الحكم بن عوانة ٢٤٤	حسان بن مفرج الطائي ٧٧
حكيم بن جبلة ٣٧٢	الحسن بن أحمد بن يزيد ٣٨٤
حماد بن زيد ٥٨	
حمد بن محمد بن إبراهيم ٢٧٨	

ابن خلكان ٥٥، ٦٧، ٧٢، ٩٥، ١١٨، ١٢٢،
 ١٦٣، ١٦٦، ٢١٣، ٢٣٠، ٢٤٤، ٢٨٦،
 ٣٥٨، ٤٢٠، ٤٨٥، ٥٢٥
 خليل ٢٦٥
 خليل بن أحمد ٣٢٩
 خناصرة بن عمرو ٣٧٦
 الخواص ٢٨٠
 الخيرزان ٢٢٨

(د)

الدارقطني ٩، ١٣١، ٥٠٧
 داود "عليه السلام" ٤٥، ٦٢، ٧٥، ٩٧، ١٢١
 ١٣٦، ١٣٩، ٢٢٥، ٢٧٧، ٢٩١، ٣٠٨
 ٣٩٤، ٤٣٦، ٤٤٨، ٥٥٩
 ابن أبي داود ٣٦١
 أبو داود ٧٥، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٣،
 ١٣٥، ١٤٨، ٢٢٥، ٢٣٦، ٣٢٣، ٣٢٤،
 ٣٤٩، ٣٩٢، ٣٩٩، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٨،
 ٤١٦، ٤١٧، ٤٢٢، ٤٢٨، ٤٧٥، ٤٨٢،
 ٤٩٥، ٤٩٧
 داود بن علي بن عبد الله ٣٣١
 الداودي ٤٢٩
 أبو الدرداء ٦٦، ١٠١، ٢٠٦، ٢٣٨، ٢٣٩،
 ٣٠٢، ٤٩٥
 الدقاق "أبو علي الأستاذ" ٢٦٥
 ابن أبي الدنيا ٧٥، ٢٨٣، ٢٩٣، ٤٢٨
 أبو دهمان ١١٨

حمران بن أبان ٢٩٤
 حميد بن أبي حميد "الطويل" ٥١
 حنظلة ٢٦١
 ابن الحنفية ٩٨
 أبو حنيفة ٥٣، ٢٤٧، ٣٨٢
 حواء ٩٧، ٢٢٩
 ابن حيان ٤١٤

(خ)

خاتون ٥٠٩
 خالد بن أسيد ٢٦٩
 خالد البرامكي ٥١٠
 خالد القسري ٢٣٥
 خالد بن الوليد ٣٦٥، ٣٦٩، ٣٨٩، ٤٢٦،
 ٤٩٥
 خالد بن صفوان ٢٤٤
 خالد بن عتاب بن ورقاء ٣١٥
 خالد بن يحيى ٢٨٦
 خباب بن الأرت ١٠١
 خبيب ٣٦٩
 خديجة "رضي الله عنها" ٢٣٩، ٢٦٣
 خديجة بنت خالد ٤١٢
 الخضر "عليه السلام" ٨٧، ١٩٦
 الخضر بن علي ٥١٦، ٥١٩
 الخطابي ٢٧٨
 الخطيب البغدادي ٦٧، ٢٢٠، ٢٦٥

الديلمى ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٤١ ، ١٨٧ ، ٣٢٦ ،
٤١٣ ، ٤٢١ ، ٤٢٨ ، ٥٣٥

(ذ)

ابن أبى ذئب ١٢٥

أبو ذر ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ٢٤٧ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ،
٤١٦ ، ٤٣٩

أبو ذر الهروى ٤٦٠ ، ٤٦١

ابن ذكوان ٤٥٩

الذهبي ٤٩ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ١٢٦ ، ٢٦٩ ، ٣٦٤ ،
٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٧٦ ،
٤٨٤ ، ٥١١

ذو القرنين ٦٥

ذو النون ٢٥٨

ذوبان ٥١٩

(ر)

رابعة العدوية ٢٥٨

رافع بن الليث ٣١٩

ابن أم الربيع ١٠٧

الربيع بن زياد ٣٧٤ ، ٣٨٦

الربيع بن يونس ٨١

رجاء بن حيوة ١٠٦ ، ٢٥٥ ، ٣٧٧

ابن ردميل ٤٧٩

رزق الله بن عبد الوهاب التميمي ٨٢

رستم ٧٠ ، ٤٧١ ، ٥١١

الرشيد ٥٠ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ١٠٣

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٣

١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٤٨ ، ١٦٣ ، ١٦٨

١٧٦ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨

٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٥٥

٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٢٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٣

رفيق بك العظم ٣٦٣

أبو رهم ٣٥٥

روح بن زنباع ١١٥ ، ٥٦٣

ابن الرومى ٢٩٠

الرياحى ٣١٥

الريان بن الوليد ٣٥٣

(ز)

الزبيدي ٦٦ ، ٢٢٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٥٥٤

الزبير بن العوام ٢٦٣

الزركلى ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٦ ، ٧٧ ، ١٨٠ ، ٢٥٣

٢٦٩ ، ٤٥٢ ، ٤٦٠

زكريا بن يحيى ١٣١

زليخا ٣٥٦

الزمخشري ١٩٧ ، ١٩٨

الزهرى ٦٨ ، ١٠٣ ، ١٢١

ابن زياد ٧٢

زياد بن أبيه ١٨٢ ، ١٨٩ ، ١٨٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦

٢٠٧ ، ٢٤٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٦ ، ٥٠٦

زياد بن أمية ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٤٢ ، ٣٣٤

زياد بن عبد الله بن طفيل ١٢١

زياد العبدى ١١٠

زياد بن عبد الله الحارثي ٢٣٥

زياد بن مسلمة ٢٦٢

سعد العشرة بن مالك ١٨٠	زيادة الله ٨٣
سعد بن مالك بن سفيان ١٣١	ابن زيد ٢٧٤
سعد بن معاذ ١٥٨	زيد بن أسلم ١٢٤ ، ٢٦٣ ، ٣٩٦
سعد بن أبي وقاص ٧٠ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٢٧ ، ٤٧٢ ، ٤٧١	زيد بن جرير ٢٦٨
سعيد بن إسماعيل ٢٩١ ، ٣٠٠	زيد بن الحسين بن علي ٣٨٦
سعيد بن جبير ٣٦٦	الزير بن المهلهل ٢٢٤
أبو سعيد الخدري ١٣١ ، ١٤١ ، ٢١٠ ، ٢٥٤ ، ٣٠٢ ، ٤٣٥	الزيلي ١٥٦ ، ٥٠٧
سعيد بن زيد ٢٧٤ ، ٤١٧	(س)
سعيد بن سلم بن قتيبة ١١٨	السائب بن الأقرع ٣٦٤ ، ٣٦٥
سعيد بن سليمان بن زيد ١٤٢	سابورة ٥٥ ، ٢٢٩
أبو سعيد الصوفي ٣٥٩ ، ٣٦٠	سابور بن أردشير ١٨٧
سعيد بن عامر ٣٦٧ ، ٣٦٨	سابور الثاني ١٨٢
سعيد بن المسيب ٣٧٤	سابور ذو الأكتاف ١٨٢
سعيد بن مهران بن أبي عروبة ١١٦	الساجي ١٣١
أبو سعيد النقاش ١٣١	سارة ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٨
السفاح ٨١ ، ٩٥ ، ١٧٠ ، ١٩٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٤	سالم بن عبدالله ١٠٥ ، ٣٧٨
٢٥١ ، ٣٣١ ، ٤٤١ ، ٥١٤	سالم "أبو النضر" ١٢٦
سفيان الثوري ١٠٣ ، ١٢٦ ، ١٤٥ ، ٢٧٠	سبأ بن نواس بن سبأ ٧٤
٣٠٨	سبكتكين ٣١١
أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ٤٢٧	سحنون ٨٣ ، ٤١٩
سفيان بن أبي زهير ١١٧	سراقة بن مالك بن جعشم ٣٥٢
سفيان بن عيينة ٩٤ ، ١٠٥ ، ١٢٦ ، ٢١٨	أبو السرايا ٤٧٨
٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٤٠٣	سرجيوس ٥٦١
سقراط ٩٢ ، ١٧٣	السري السقطي ٣٠٦
سكينة بنت الحسين ٣٢١	السري بن منصور الشيباني ٤٧٨
	ابن سعد ٤٥ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٠٣
	سعد بن إبراهيم ١٤٢

سلامان الشعباني ١٣٩

سلم بن نوفل ٢٤٤

سلما ٤٣٦

سلمان ٥٢، ٩٧، ١٣٠، ٣٧٢

سلمان الأشجعي ٣٠٣

سلمة بن دينار المخزومي ٨٩، ١٠٤، ١٨٥

٣٠٣

أبو سلمة بن عبد الرحمن ١٤٢، ١٧٤

السلمي ٤٠٦

سليم ٣٣٤

سليمان الأشجعي ١٨٥

سليمان بن خلف "أبو الوليد الباجي" ٥٧

سليمان الخواص ٤٩٨

أبو سليمان الداراني ٢٨٨، ٤٢٠

سليمان بن داود "عليهما السلام" ٤٥، ٤٦

٩٧، ١١٩، ١٢٧، ١٣٨، ١٦١، ١٨٢، ٢١١

٢١٨، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٤٢، ٢٩٩، ٣٠٨

٣٢٤، ٣٤١، ٣٩١، ٣٩٦، ٤٤٦، ٤٤٨

٤٤٩، ٤٨٥، ٥٠١، ٥١٣

سليمان بن عبد الملك ٤٩، ٥١، ٧٣، ١٠٣

١٠٤، ١٠٦، ١١٦، ١٢٠، ١٤٦، ١٨٥

١٨٧، ٢١٣، ٢٥٣، ٢٥٥، ٤٥٢، ٤٨٤

٥٠٠

سليمان بن مجالد ١٠٩

سليمان بن محمد بن هود ٨٦، ٨٧

سليمان بن مخلد ٢٨٦

سليمان بن مسلم بن الوليد ٧٦

سليمان بن هود "المستعين" ٤٩٠

ابن السماك ٥٠، ١٠٣، ١٢٢، ٤٢٣، ٤٦٠

السهماني ٢٢٠

سمية ٣٧١

سنجر بن ملكشاه ٤٥٥، ٣٧١

سنمار ٥٤

سهل بن إبراهيم ٦٠

سهل بن سعد ٤٦

سهل بن عبدالله التستري ٣٠٩، ٤٠٥

سواد بن غزية ٤٣٦

سيبويه ٣٢٩

ابن سرين ١٣٣

سيف الدولة الحمداني ٢٧٢

سيف بن ذي يزن ٥٦، ٧٣

سيف الملة ٤٧٠

السيوطي ٤٦، ٤٩، ٧٥، ٩٠، ٩٧، ١٠٧

١١٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣

١٣٥، ١٣٦، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٨، ١٦٢

٢٢٥، ٢٣٦، ٢٤٠، ٢٥٤، ٢٨٠، ٢٩٦

٣٠٢، ٣٢٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٨٨، ٤٠٣

٤٠٨، ٤١٠، ٤١١، ٤١٣، ٤١٦، ٤١٧

٤٢١، ٤٤٢، ٤٥٤، ٤٨٢، ٤٩٥، ٤٩٧

٥٣٥

(ش)

شابق ٥٢٢

شابور ١٨٢

الشافعي ١٤ ، ١٦٩ ، ٢٥١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٥ ،

٣٥٢ ، ٣٦٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٩٤

ابن شاکر ٤٦ ، ٧٦ ، ١١٥ ، ٢٢١ ، ٢٦١ ، ٤٥٨

شاه الکرمانی ٤٠٦

شبرمة ٥٣

شبيب بن ربيعة ٤٨٣

شبيب بن شيبه ١٠٨ ، ٢٨٢

الشحام ٢٦٥

شداد بن أوس ١٠٧ ، ١٣٠

شريح بن الحارث "القاضي" ١٣٣ ، ١٤٢ ،

٣٧٢

شريح بن عبيد بن شريح ٢١٢

الشریف "الراضی" ٩٥

الشعبي ٧٢ ، ١٨٩ ، ٢٠٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥١

، ٣٣٩ ، ٤٠٣ ، ٥٦١

شعيب "عليه السلام" ٢٣٦ ، ٢٦٤

شقة بن ضمرة ١١٥

ابن شمر الكندي ٣٩٧

شهاب الملك ٤٥٥

شهر بن حوشب ٣٦٧

ابن أبي شيبه ٩٧

شيث ٣٠٩

الشيرازي ٤٦ ، ١٣١

شيروية ٢٥٢ ، ٣٤٤

(ص)

صالح بن عبد القدوس ٢٩٧

صبحي الصالح ١٩٧

صدقة بن يسار ٣٠٨

صريع الغواني ٢٣٩

ابن صعدة ٣٢١

صعصة بن صوحان ١٧٧ ، ٢٤٨

صعصة بن ناجية ٥١

صلاة بن عمرو بن مالك ٣٣٠

صلاح الدين الأيوبي ٤٦٢

الصليحي ٤٥٨

الصنعاني ٣٠٦

(ض)

الضحاك بن حمزة ١٠٧ ، ١٣٠

ضرار بن القعقاع ٢٦٩

ضمرة بن جندب ٥٢٧

ضمرة بن ضمرة ١١٥

ابن الضياء ٤٦

(ط)

طارق بن زياد ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٥٠٠

طالوت ١٣٦

طاهر بن الحسين ٢٢٥ ، ٣٢٨ ، ٥١٨

ابن طاوس ١٢٢

طاوس بن كيسان ١٢٢ ، ١٣٢ ، ٢٧٤ ، ٣٦٦

الطبراني ٩٧ ، ١٠٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،

١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ٢٢٤ ، ٢٦٨ ،

٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٩٣ ، ٣٦٨ ، ٣٨٨ ،

٤١٠ ، ٤١٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٧ ، ٥٠٧

الطبري ٤٣٩

الطرطوشي ٧٥، ٧٧، ٨٢، ١٩٩، ٢٠٧، ٢٥٣
٢٧١، ٢٨١

طغرل بك ٤٨٦

طلحة بن طاهر ٢١٩

طلحة بن عبد الله بن خلف ٢٦٢

طلحة بن عبيد الله ٢٠٥، ٢٦١

طلحة بن عثمان ٢٦٠

(ظ)

ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي ٣٣٠

(ع)

عائشة ٩٧، ١٣١، ٢٠٥، ٢٢٤، ٢٤٠، ٢٥٩

٢٦١، ٣٠٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٤٩، ٣٧١

٣٨٠، ٤٠٣، ٤١٣، ٤١٥، ٤١٧، ٤٣٧

عائشة بنت عثمان ٣٢٥

عاصم بن سفيان ١٢٩، ١٣٠

عاصم بن عبيد الله ١٠٠

عامر بن الجراح ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٠

٣٨٩، ٤٩٥

عامر بن شراحيل ١٨٩، ٢٠٥

عامر بن الطفيل ٢١٨

عامر بن أبي موسى ١١٨

عايض بن غنم ٤٢٢

عبابة بن رفاعه ٣٩٥

ابن عباد ٩٤

عبادة بن الصامت ٣٢٣

ابن عباس ٧٨، ١٢٧، ١٤٥، ٢١٨، ٢٥٤

٢٦٢، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٨٥

٢٩٦، ٣٠٢، ٣٢٣، ٣٣٩، ٣٤٢، ٣٥٦

٣٦٦، ٣٨٥، ٤١٦، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٥

٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٣

٤٤٤، ٥٠٢، ٥٢٧

أبو العباس الأنطاكي ٢٦٤

أبو العباس الجرجاني ٨٠، ٨٢

أبو العباس الحجازي ١٦٧، ٣٦٦

أبو العباس الطوسي ٣٤٥

العباس بن عبد المطلب ٦٨، ١٠٧، ١٣٠

١٧٢، ١٨٧، ٢٣١، ٣٥٢

العباس بن محمد بن علي ٥١٣

ابن عبد البر ٤١٢، ٤١٩

عبد الحميد بن عبد الرحمن ٣٧٩، ٣٨٢

عبد الحميد "الكاتب" ٢٨٠

ابن عبد ربه ٢٢٧

عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد ٤١٤

عبد الرحمن بن أحمد بن عطية ٢٨٨

عبد الرحمن بن الأشعث ٣٦٦

عبد الرحمن الداخل ٤٥٨

عبد الرحمن القاسم ٣٦٣

عبد الرحمن بن سمرة ١٢٨، ٤٠٠

عبد الرحمن بن صخر ١٢٩

عبد الرحمن بن عمر الجيشي ٥٦٣

عبد الرحمن بن عمرو ١٠٩

عبد الرحمن بن عوف ٢٧٤، ٢٩٤

عبد الرحمن بن غنم ٣٧٧

عبد الرحمن بن أبي ليلى ٥٠١

عبد الله بن عمر ٤٧ ، ٩٠ ، ٣٣١ ، ٣٤٢ ، ٣٦٦
عبد الله بن عمرو ٩٠ ، ٣٥٥ ، ٤٠٤
عبد الله بن عمرو بن النعمان ١٨٥
عبد الله العمرى ١٤٩ ، ٣٦٥
عبد الله بن عوف ٢٤٨
عبد الله بن أبى قحافة ١٠٠
عبد الله بن قيس "أبو موسى الأشعرى" ٢٠٧
عبد الله بن المبارك ٢٧٣
عبد الله بن محمد الرازى ٤٠٥
عبد الله بن محمد بن فضلولية ٦٨
عبد الله بن مروان ١٦٨
عبد الله بن مسعود ٩٠ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٣٥ ،
٣٢٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢
عبد الله بن مسلم بن محارب ٢٥٥ ، ٤٢٩
عبد الله بن مطيع ٣٨٦
عبد الله بن المعتز ٦٦
عبد الله بن المعلم ٦٨
عبد الله بن أبى نوح ٧٥
عبد الله بن هارون ١٠٠
عبد الله بن وهب ٢٣٩ ، ٤٣٧ ، ٤٧٥
ابن عبد المطلب ١٥٧
عبد الملك بن عمير ٧٢ ، ٥٢٧
عبد الملك بن قريب ٥٤ ، ٧٢ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ،
١٩٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٢٠ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ،
٢٤٨ ، ٢٦٩ ، ٣٢٩
عبد الملك بن مروان ٧٢ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ١٠٦ ،
١١٣ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٤٩ ، ١٧٥ ،

عبد الرحمن بن مل النهدي ٢٩١ ، ٣٠٠ ، ٣٦٤
عبد الرزاق بن همام ١٠٥
عبد السلام بن سعيد التنوخى ١٨٣ ، ٤١٩
عبد السلام العمروى ٥٠٧
عبد السلام هارون ١٧٣
عبد العزيز بن زارة ٢١٨
عبد القيس ٧٨
عبد الكافى الديباجى ٤٥٥
ابن عبد الله ٣٠٦
عبد الله الأشج ٧٨
عبد الله بن الحسن ٣٣٢
عبد الله الدامغانى ٤١٩
عبد الله بن الزبير ٧٢ ، ٩٥ ، ١٧٥ ، ٢٢٧ ،
٢٩٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٧
عبد الله بن أبى السرح ٣٤٦ ، ٤٨٤
عبد الله بن السعد ٥٠٧
أبو عبد الله الشيعى ٨٣
عبد الله بن الطفيل ٥٣
عبد الله بن بديل بن ورقاء ٢٠٥
عبد الله بن أبى بكر ٢٦٧ ، ٢٧٠
عبد الله بن جعفر ٢١٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٣٤٠
عبد الله بن حمدان ٥٦١
عبد الله بن حنظلة ٣٨٦
عبد الله بن زهير ٢٧٠
عبد الله بن طاهر ٢١٩
عبد الله بن طاوس ٢٢٢
عبد الله بن عامر بن كريض ٢٧٢

أبو عثمان ٢٩١ ، ٣٠٠

أبو عثمان الحيري ٤٠٦ ، ٤٠٨

عثمان بن حنيف ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٢

عثمان بن عفان ٤٧ ، ٥٨ ، ٦٦ ، ١٢٩ ، ١٦٣ ،

١٨٤ ، ١٨٧ ، ٢٤٢ ، ٢٧٢ ، ٢٩٤ ، ٣٠٨ ،

٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٩ ، ٣٧٢ ، ٣٩٦ ، ٤٢٧ ،

٤٣٦ ، ٤٣٧

عثمان بن عنبسة ٢٩٥

العجلي ٧٥

العجلوني ٢٠٤ ، ٣٠٦ ، ٤١٣ ، ٤٦٨ ، ٥٣٥

ابن عدى ٢٧٦

عدى بن حاتم ٢٦٦

عدى بن زيد ٥٥ ، ٦٧

العراقي ٤٧ ، ٩٨ ، ١٤٢ ، ٢٧٧ ، ٢٩٣

عرفطة ١٦٣

ابن أبى عروبة ١١٦

عروة بن الزبير ٤٠٨

عروة بن محمد ٣٨٣

عروة بن الورد ٢

العزیز ٣٥٦

ابن عساكر ٦٩ ، ٨٠ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ ،

١١٦ ، ٢٢٤ ، ٢٤٠ ، ٢٨٣ ، ٤٤٨ ،

عطاء بن أبى رباح ٣٠٣

عطاء بن السائب ٣٦٤

عفيف طبارة ٤٤٩

عقبة بن عامر ٢٢٣ ، ٤٠٠ ، ٤٧٥

عقبة بن نافع ٤٥٥

٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٢ ، ٢٥٣ ،

٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٩٤ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ،

٣٦٦ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٧ ،

٤٨١ ، ٤٨٥ ، ٥٦٣

عبد الملك بن المنصور ١١١

عبد الواحد بن زيد ٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٨١

عبد الوهاب النجار ٣٠٩ ، ٤٢٢

عبيد بن عمير ١٣٢ ، ٣٠٣

عبيد الله بن زياد ٧٢ ، ٣٤٠ ، ٤٧٧

عبيد الله بن سعد ٣٧٦

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ٦٧ ، ٥٥٦

أبو عبید الله بن عبد الله بن مسعود ١٦٤

عبید الله بن عمر ١٦٣ ، ٢٣٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠

عبید الله العمري ١١٣ ، ١٣٢ ، ١٤٩

عبید الله بن عمير ٤٠٣ ، ٤٢٦

عبید الله بن مروان ١٦٨

أبو عبيدة ٥٦ ، ١٨٣

أبو عبيدة الجراح ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ،

٤٩٥

عبيدة السلماني ١٣٣ ، ٣٢٦

عبيدة بن عمرو ١٣٣ ، ٣٢٦

عتاب بن أسيد ٣٩٠ ، ٤٠٠

العتابي ١١٥ ، ٣٣٥

أبو العتاهية ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٥ ،

٢٢٠ ، ٤٢٥

عتبة بن ربيعة ٨٢

العتبي ٢٦١ ، ٢٩٥

عقيل بن أبي طالب ٢٣١

عكرمة ٢٥٤

علقمة بن علاثة ٢١٨

علوان بن الحسن ٨٣

علي بن إسماعيل بن إسحاق ٤٣٨

أبو علي الثقفي ٢٦٣

علي بن الجهم ٢٠٣، ٥٦٣

أبو علي الدقاق "الأستاذ" ٢٦٥

علي بن أبي طالب ٥١، ٥٢، ٦٤، ٧٢، ٩٧،

٩٨، ١٠١، ١٣١، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٢، ١٥٠،

١٦١، ١٧٧، ١٩٧، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨،

٢١٩، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥١، ٢٥٢،

٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٣،

٢٨٤، ٢٨٥، ٢٩٣، ٣٠٧، ٣١١، ٣٢٦،

٣٣٠، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٦٦، ٣٧١، ٣٧٢،

٣٨٧، ٤٠٠، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤١٠، ٤٢٦،

٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٧، ٤٩١، ٤٩٦، ٤٩٩،

٥٠٧، ٥٠٩، ٥٢٢، ٥٧٧

علي بن عبيد الله ٢٢٠

علي بن عيسى ٢١٥

علي بن عيسى بن ماهان ٥١٨

علي بن الفضيل ٤٢٠

علي بن محمد التهامي ٧٧

علي بن محمد بن الحسين ٣١

علي بن محمد بن علي الصليحي ٤٥٨

أبو علي بن مسكوية ٥٠٥

ابن العماد ١٢٢

عمار ٤٢٩

عمار بن ياسر ٣٧١

ابن عمر ٤٧، ٩٩، ١٢٨، ١٣٣، ١٤١، ٢٠٧،

٢٢٥، ٢٣٦، ٢٤٥، ٢٥١، ٢٦٣، ٢٦٨،

٢٧٣، ٢٨٣، ٣٤٢، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٨٨،

٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠٣، ٤٠٥، ٤١١، ٤٢٥،

٤٢٦

عمر بن أحمد بن شاهين ٤٦٠

عمر بن الخطاب ٩٩، ١٠١، ١٠٣، ١١٣،

١١٦، ١١٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٦٣، ١٧٧،

١٨٤، ١٨٥، ١٨٩، ١٩٢، ٢٠٥، ٢٠٦،

٢٠٧، ٢١٨، ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٧،

٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٧٤، ٢٨٢، ٢٨٩،

٣١٧، ٣٢٦، ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٦٣، ٣٦٤،

٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠،

٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦،

٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٧،

٣٨٩، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٩،

٤٠٠، ٤٠٦، ٤٢٣، ٤٢٧، ٤٣٦، ٤٣٧،

٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٩٥، ٤٩٧، ٥٦١،

عمر بن عبد العزيز ٤٩، ٧٩، ٩٦، ٩٩، ١٠٥،

١٠٦، ١٠٧، ١١٠، ١١١، ١١٤، ١٢٠،

١٢٤، ١٤٤، ١٤٦، ١٦٣، ١٦٤، ١٨٩،

٢٩٤، ٣٠٢، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٦، ٣٤٩،

٣٦٣، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨٢، ٣٨٣،

٣٨٧، ٣٩٠، ٤٠٠، ٤٢٣، ٤٥٢، ٥٠٠،

٥١٧

عمر بن عبید الله ١٢٦

عمر بن عمیر ٣٠٢

عمر بن مالک ٢٧٤

عمر بن المنکدر ٢٦٩

عمر بن هبيرة ٢٣٥ ، ٣٩٠

عمران بن أسد ٣٧٩

عمران بن حصین ١٠١

أبو عمرو المکودی الإشبیلی ٤٥٨

عمرو بن بحر ٦٦

عمرو بن دينار ٤٢٣

عمرو بن ربیعة بن کعب ٣٩٢

عمرو بن العاص ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠

٢٥٩ ، ٢٩٦ ، ٣١٧ ، ٣٤٦ ، ٣٩٢ ، ٤٣٣

٤٣٨ ، ٤٨٤ ، ٤٩١

عمرو بن عبید ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٢٩١ ، ٣٠٠

عمرو بن عثمان ١٣٩

عمرو بن عوف ٣٦٢

عمرو بن کلثوم ٢٢٤

عمرو بن معاذ ٣٤٥

عمرو بن معد یکرب ٤٧١ ، ٤٧٢

عمرو بن مسعدة ١٦٣

عمرو بن هشام ٤٦٧

عمرو بن هند ٥٥

عمیر بن رشیم ٢٣٩

عمیر بن سعید ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٦

عوف بن مالک الأشجعی ١٤٨

ابن عون ٢٤٨

عون بن عبد الله ٩٤ ، ٣٠٨ ، ٤٣٧

عویمر ٢٠٦

عویمر بن مالک بن قیس ٦٦

عیاض بن عبد الله بن أبی سرح ١٤٨

عیسی "علیه السلام" ٤٨ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٢

، ٧٥ ، ٧٧ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ١٧٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦

٢٥٠ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٢٤ ، ٤٩٦

عیسی بن مهنیک ٣٤٥

عیصو بن إسحاق بن إبراهيم ٧٤

ابن عیینة ٩٤ ، ١٠٥ ، ١٢٦ ، ٢١٨

عیینة بن حصین ١٧٣ ، ٢٢٥

(غ)

غزاة ٣١٥

الغزالی ١٨٧

غیلان القدوی ٥٠٠

(ف)

فاطمة "رضی الله عنها" ٦٤ ، ٧٢ ، ٩٧ ، ٩٨

فاطمة بنت عبد الملك ٣٧٦

أبو الفتح ٣٥٨

أبو الفتح البستی ٣٢٩

ابن فتحون ٤٩٠

فخر الدولة ٩٥

فخر الدين التیمی ١٨٧

فخر العرب ٤٥٧

فخر الملك بن نظام الملك ٤٥٥

ابن أبی الفرات ٤٣٧

أبو فراس الحمدانی ٢٦١

الفرزدق ٥١

فرعون ١٠٨ ، ١٢٤ ، ٢١٠ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤

٣٥٥

الفضل بن الربيع ١٠٥ ، ١٠٧ ، ٣٤١

الفضل بن سهل ٢٢٠ ، ٣١٨ ، ٤١٣ ، ٥٠٩

٥١٩

الفضل بن مروان ٥٠٨

الفضل بن يحيى ٧٣

الفضيل بن عياض ٤٥ ، ٥٨ ، ١٠٥ ، ١٠٨

١٢٣ ، ١٥١ ، ٢٤٩ ، ٢٦٧ ، ٣٢٥ ، ٤٠٥

٤١١

(ق)

أبو قابوس ٦٧

القابسي ٢٧٨

ابن القاسم ٣٦٣

أبو القاسم بن بشر ١٣١

أبو القاسم بن الحسين ٤٦٢

أبو القاسم الحضرمي ٤٥٨

القاسم بن محمد ٢٠٤ ، ٢٨١

قاسم بن محمد السبنسي ٤٥٨

قباد بن فيروز ٣٣١

قبيصة بن جابر ٢٠٥

قبيصة بن ذؤيب ٣٧٦

قتادة ١٩٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٨ ، ٣٦٥ ، ٤٤٨

أبو قتادة ١٤٨

ابن قتيبة ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٢

٢٩٤ ، ٣٣١ ، ٤٢٩

القرطبي ٢٠٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٤٠٦

٤٢٥ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩

قس بن ساعدة ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٧٥ ، ١٩١

القضاعي ٩٧ ، ١٤٨ ، ٢٨٣

القطامي ٢٣٩

قطرى بن الفجاءة ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٤٩٩

قطير بن روحيب ٣٥٦

قنبر ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٣٥٠

قيس بن الخطيم ٢٩٥

قيس بن سعد ١٤٢ ، ٢٠٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٥

٣٤٦

قيس بن عاصم المنقري ٢٤٩ ، ٤٠٥

قيس بن عبد الله ٤٠٥

قيصر ٢١٨ ، ٥١٦

(ك)

كافور الأخشيدي ٥٢٥

ابن كثير "الحافظ" ٦٨ ، ٨٠ ، ١١٠ ، ١١٦

١١٧ ، ١٨٧ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٧٣

٢٨٨ ، ٣٢١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦

٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٤ ، ٤١٨

٤٢٢ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٦ ، ٤٥٥ ، ٤٦٤

٥٢٧

كثير بن مرة ١٤١

الكرماني ٥١٤

كسرى أنو شروان ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ١٦٥ ، ٢٠٧

٢٥٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٣١١ ، ٣٣١ ، ٣٤٥

٣٥٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٨٥ ، ٥١٦ ، ٥١٩

كعب الأحبار ١١٧ ، ١٨٧ ، ٤١٥ ، ٤٢٩

كعب بن زهير ٢٤٨

كعب بن مالك ٤٤٤ ، ٤٤٥

كعب بن مامة ٥٦

الكلبي ٢٤٧

كلثوم بن عمرو التغلبي ٦٤ ، ١١٥ ، ٣٣٥

كليب بن الهلhel ٢٢٤

كميل بن زياد النخعي ١٩٧

ابن الكواء ١٨٥

كيجور بن سافنديا ٢٧٩ ، ٥١٩

(ل)

لبي بن سليمان ٨٦

ابن اللتبية ٣٩٩

لذريق ٤٨٥

لقمان ٢٤٧ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩ ، ٥٠٦

لوط ١٢٤ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥

أبو لؤلؤة المجوسي ٩٩ ، ١٦٣

الليث بن سعد ١٢٦ ، ٢٧٢

ليث بن أبي سليم ١٣٥

لقيط بن زرارة الدارمي ٢٤٦

ابن لهيعة ٣٩٩

ليلي الأخيلية ٢٨٩

ليلي بنت الهلhel ٢٢٤

(م)

ابن ماجه ٤٦ ، ٤٧ ، ١٠٦ ، ١٣٣ ، ١٤١

١٤٨ ، ٢٣٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٣٢٣ ، ٣٦٧

٣٨٨ ، ٤٠٣ ، ٤١٠ ، ٤١٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥

٤٤١ ، ٤٧٥

المازري ٤١٦

مالك بن أنس ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٩٢ ، ١١٦

١٢١ ، ١٢٦ ، ١٤٢ ، ١٦٩ ، ٢١٨ ، ٢٣٦

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٧٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٩

٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٣٢ ، ٤٣٧

٤٥١

مالك بن الحارث النخعي ٣٦٦

مالك بن دينار ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٤٩

٣٢٤ ، ٤٢١

مالك بن مسمع ٢١٩

ابن مأكولا ٤٦٢

مامة ٥٦

المأمون ٥٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٩٤

١٩٥ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧

٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤

٢٦٩ ، ٢٧٩ ، ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٨

٣٣٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢

٣٩٣ ، ٣٩٨ ، ٤٣٠ ، ٤٧٨ ، ٥٠٥ ، ٥٠٨

٥٠٩ ، ٥١٦ ، ٥١٨ ، ٥١٩

المأمون بن ذى النون ٩٤

الماوردي ١٧٢

المتقي الهندي ١٣١ ، ١٨٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٧

المتنبي ٢٧٢

المتوكل ٦٦ ، ٢٠٣ ، ٣١١ ، ٣٦١ ، ٣٧٨ ، ٥٦١

٥٦٣ ،

- أم مجالد ١٠٩
 مجاهد ٩٢، ٤٢٥، ٤٤٤، ٤٤٨
 المحاسبى ٢٨٧، ٢٨٨، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤١٠
 محمد بن أبان ٢٢١
 محمد بن إبراهيم ١٢٥
 محمد بن إبراهيم بن حيوة ١١٢
 محمد بن إدريس الشافعى ١٤٠
 أبو محمد الأزدي ٢٦٤
 محمد إسحاق ١٢١
 محمد بن إسماعيل بن القاسم ٧٧
 محمد بن بشير ٢٨٣
 أبو محمد التميمي ٨٢
 أبو محمد الجريري ٢٨٧
 محمد بن حازم ٢٦٢
 محمد بن حبيب ٤٣١
 محمد بن الحسن بن علي ٥١١
 محمد بن الحسن بن محمد ٢٦٦، ٢٦٧
 محمد بن سليمان العجلي الصعلوكي ٦٨
 محمد بن سليمان بن محمد ٨٦
 محمد بن سودة ٢٦٦
 محمد بن سيرين ١٣٣
 محمد بن صبيح "السمك" ٥٠، ٤٢٣
 محمد بن صفوان ١٤٢
 محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة ١٢٥
 محمد بن عبد الله بن الحسن ٣٣٢
 محمد بن عبد الله بن عامر ١١١
 محمد بن عبد الله المنصور ٨٠
 محمد بن عبيد الله الأموي ٢٦١، ٢٩٥
 محمد بن أبي العتاهية ٧٧
 محمد بن كعب القرظي ١٠٦، ١١١، ١٩٥
 محمد العكي ٢٦٩
 محمد بن علي بن أبي طالب ٩٨
 محمد بن عمر الواقدي ٥١٠، ٥١٨
 محمد بن مسلم بن عبد الله الزهري ١٠٣، ١٢٥
 محمد بن مسلمة ٣٩٥
 محمد بن مصعب ١٤٢
 محمد بن المنتشر ١٧٩
 محمد بن المنكر ٢٦٩
 محمد النفس الزكية ٨١
 محمد بن واسع ١١٨
 محمد بن يزيد ٢١٦
 محمد بن يزيد ٤٥٢، ٤٥٣
 محمد بن يوسف ١٢٤
 محمود الوراق ٢٤٣، ٢٩٢، ٣٠١، ٣٠٨
 محمود بن أبي الجنود ١٧٤
 محمود بن حسن ٢٤٣
 محمود بن سبكتكين ٣١١
 مخارق ٢٢٠
 المختار الثقفي ٧٢، ١٧٥، ٤٧٨
 المختار بن أبي عبيد بن مسعود ٤٧٨
 مدين ٤٦٤
 ابن المديني ٣٠٦
 مرارة بن الربيع ٤٤٤

٣٩٧ ، ٤٠٣ ، ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،
٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٨ ، ٤٣٧ ،
٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٥ ، ٤٥٤ ، ٤٧٥ ، ٤٨٤ ،
٤٩٥ ، ٤٩٧

مسلم بن عقبة ٣٨٥ ، ٣٨٦

مسلم عقيل ٧٢ ، ٢٣١

مسلم بن عمرو ٣٤٠

مسلم بن قتيبة ٢٢٦

مسلمة بن عبد الملك ٢٣٥ ، ٥٠٠

مصعب بن الزبير ٧٢ ، ١١٣ ، ١٧٥ ، ٢٢٧ ،

٢٣٠ ، ٢٤٢ ، ٤٧٧ ،

مطرف بن الشحير ٢٧١

المطلب بن عبد الله الخزاعي ٢٦٩

مطيع بن إياس الكنانى ٦٥

معاذ بن جبل ١٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٩٣ ، ٣٧٠ ،

٤٠٤

معاوية ٩٧ ، ١٠٢ ، ١١٧ ، ١٢٩ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ،

١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،

٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٤٧ ،

٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ،

٣٢٥ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٥٥ ، ٣٧٢ ،

٣٨٨ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ،

٤٨٤ ، ٤٩١ ، ٥٠٦

المعتصم ٦٦ ، ١٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٨٢ ، ٣٤٢ ، ٥٠٨ ،

المعتضد ٢٩٠ ، ٥٥٦

معد يكر ب ٥٦

معروف الكرخى ٤٠٧

مردك الفارسى ٣٣١ ، ٣٣٥

أبو مروان الدانى ٤٥٩

مروان بن زنباع ٤٣١

مروان بن عبد الملك ٢٥٣

مروان بن محمد "الحمار" ١٤٢ ، ١٦٨ ، ١٧١ ،

١٩٠ ، ٢٥٢ ، ٢٨٠ ، ٤٧٦ ، ٥١٤

مريم ٤٩٦

مزدك الفارسى ٣٣١ ، ٣٣٥

المزى ١٠٥

ابن المستطوى ٤٥٤

المستظهر بالله ٣٦٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨

المستعين ٥٦١

المستعين بن هود ٨٦ ، ٨٧ ، ٤٧٩

المستور بن شداد ٢٣٦

المستوغر ٣٩٢

مسروق بن الأجدع ١٤٢

مسعر بن كدام ٩٤

ابن مسعود ٩٠ ، ١٠١ ، ١٣٥ ، ١٦١ ، ٢٧٤ ،

٢٧٧ ، ٣٢٣ ، ٤٢١ ، ٤٣٧ ، ٤٤٢ ، ٤٣٥ ،

٤٥٤ ، ٥٠٢

المسعودى ٢١٩

أبو مسلم ٥١٤

أبو مسلم الخراسانى ١٧١

مسلم ٤٦ ، ١٠٧ ، ١١٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ،

١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ٢٢٤ ،

٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ،

٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٣٢٣ ، ٣٥٢ ، ٣٨٠ ، ٣٩٢

المنصور "أبو جعفر" ٥٣ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٦ ،

١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٤٥ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،

٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٣٢٥ ، ٣٣٢ ، ٣٤٥ ، ٣٦٤ ،

المنصور بن أبي عامر ١١١ ، ٢٩٦ ، ٣٤٨ ، ٤٥٨ ،

٤٥٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ،

ابن منظور ٥٥ ، ٦٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ١٧٧ ، ٢٩٠ ،

٣٧٢ ، ٣٩٦ ، ٤٤٠ ، ٤٥١ ، ٥٠٣ ، ٥٥٦ ،

٥٦٠

المنكر بن عبد الله ٢٦٨

المهدي العباسي ٥٢ ، ٨٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٨ ،

٢٦٤ ، ٢٨٢ ، ٢٩٧ ، ٤١١ ، ٤٣١ ،

المهلب بن أبي صفرة ١١٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،

٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٤٧٧ ،

ابن المهلب ٤٥٢

مهيوز الموبذان ١٧٠

موبذمو بذان ١٨٠ ، ١٨٨ ،

مورق العجلي ٢٦٠

موروق العجلي ٩٠

موسى "عليه السلام" ٤٨ ، ٨٢ ، ٢١٠ ، ٢٣٩ ،

٢٧٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣١٠ ، ٣١٦ ،

٤٢٤ ، ٤٤١ ، ٤٦٤ ، ٤٨٤ ،

موسى بن عقبة ١٢٦

موسى بن عمران ٢١٠

أبو موسى "الأشعري" ١٥٨ ، ٢٠٧ ، ٣٥٥ ،

٣٦٣ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ،

٣٩٢ ، ٤٠٠ ، ٤١٧ ، ٤٢٧ ، ٤٣٨ ،

موسى "الهادي" ٢٢٨

معقل بن يسار ١٢٨

معمر بن المثنى ١٨٣

ابن معين ٧٤

المغيرة بن شعبة ١٤٨ ، ١٨٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢٦٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٤٠٧ ، ٤٩٦ ،

مقاتل ٤٢٦

مقاتل بن سليمان ١٣٩

المقتدر ٦٦ ، ٢١٥ ، ٣٨٤ ، ٤٨٩ ،

المقتدر بالله بن هود ٤٨٩

المقتدى ٣٥٨

المقداد بن الأسود ٣٩٧

المقداد بن عمرو ٣٨٨

المقري ٤٨٥

ابن المقفع ٨١ ، ١٥٢ ، ١٦٦ ، ١٨٥ ، ١٩٣ ،

٢١١ ، ٢٨٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ،

٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٤١٢ ،

مكحول ٤٢٥

مكرم بن يوسف ٤٩

ملكشاه ٣٥٨ ، ٤٥٥

ابن ملجم ٥١ ، ٩٧ ، ٤٩٩ ،

المنأوى ٩٠ ، ٩٤

المنتصر العباسي ٣٧٨

المنذر بن سليمان بن محمد ٨٦

المنذر بن ماء السماء ١١٥

المنذر بن المنذر ١١٥ ، ٣٩٩ ،

المنذري ٩٦ ، ١٣٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٩ ،

موسى بن نصير ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٥٠٠

مؤيد بن الحكم ٢٩٦

مؤيد الدولة ٩٥

الميداني ٥٥٦

ميشا بن يوسف ٣٥٧

ميكيل ٤٦٤

ميمون بن مهران ٩٦ ، ٢٣٨ ، ٢٦٢ ، ٣٣٦

٤١٥ ، ٤٢٤ ، ٥٠٠

(ن)

الناطقة الذيباني ٢٥١ ، ٣١٣

نافع بن الأزرق ٢٣٦ ، ٤٧٨

النسائي ٧٤ ، ٩٠ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٥٨

١٦٢ ، ١٩٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠

٣٨٠ ، ٣٨٥ ، ٤١٠ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥ ، ٤٤١

نصر بن سيار ١٧١ ، ٤٧٦

نصر بن منصور ٢٢١

نظام الملك ٣٥٨ ، ٣٥٩

النعمان بن امرئ القيس الأكبر ٥٤ ، ٥٥

النعمان بن بشير ٢٩٢ ، ٣٥٢

النعمان بن المنذر ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٢٦٠

أبو نعيم ٤٥ ، ٤٦ ، ٩٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٧

١٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٦٥ ، ٢٨١ ، ٣٠٧ ، ٣٦٩

٤٠٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٣٧ ، ٤٥٤

النمر بن تولب ٤٧٢

نمروذ ٤٤٦

أبو نواس ٥٤ ، ٢٤٨ ، ٣٢٨

نوح "عليه السلام" ٤٨ ، ١٢٤ ، ٢١٦

النوري ٢٦٥

النووي ١٢٨ ، ١٢٩

(هـ)

هاجر ٤٤٢

الهادي ٥٠ ، ٥٢ ، ٢٢٨

أبو هارون ٣٠٣

أبو هارون الأندلسي ٨٣

هارون الرشيد ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٢

٧٣ ، ٨٣ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧

١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٤٩

١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ١٩٤

٢٠٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٣

٢٥٥ ، ٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٢٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٣

٣٩٠ ، ٤٢٤ ، ٤٣١

هامان ٢١٠ ، ٣٥٥

ابن هبيرة ٢٣٥

هرم بن سنان ٥٦ ، ٢١٧

هرم بن قطبة ٢١٧

هرمز ٥٥ ، ٢٣٩

الهرمزان ١٦٣

أبو هريرة ٤٧ ، ٧٥ ، ٩٠ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٤١

١٤٢ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٩٦ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠

٢٥٨ ، ٢٧٧ ، ٤٠٣ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٣

٤١٥ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٥٤ ، ٤٨٢ ، ٥٠٧

ابن هشام ١٥٨ ، ٤٣٦

أم هشام ٢٩٦

الوليد بن عبد الملك ٥١ ، ٧٤ ، ١٢١ ، ١٢٤ ،

١٤٦ ، ١٨٢ ، ٢١١ ، ٤٣٠ ، ٤٨٤

الوليد بن عتبة ٤٨٣

الوليد بن عقبة بن أبي معيط ٤٢٧

الوليد بن المغيرة ٤٢٦

الوليد بن هشام ١٤٤

الوليد بن الوليد ٤٢٦

الوليد بن يزيد ١٢٤

ابن وهب ٢٣٩ ، ٤٣٧

وهب بن منبه ٥٦ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٩١ ،

١١٧ ، ١٤٤ ، ٢١٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٠ ، ٤٤٧ ،

٤٤٨

(٥)

ياقوت الحموي ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٩ ،

٢١٨ ، ٢٨٤ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ،

٣٧٦ ، ٣٨٤ ، ٤٨٨ ، ٥٦٨

البيروني ٤٥٧

يحيى بن أكثم ١٦٣ ، ٣٨٩

يحيى بن خالد ١٢٣ ، ١٧٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ،

يحيى بن زكريا ٩٢ ، ٢٤٠

يحيى بن زياد ٤١١

يحيى بن زيد ٤٣١

يحيى بن سعيد ١٢٠

يحيى بن معاذ ٢٣٠ ، ٥٠٢

يحيى بن معين ٢٦٩ ، ٣٠٨

يزدجرد ٤٧٢

يزيد بن أنس ٤٧٧

هشام بن العاص ٢٥٩

هشام بن حكيم ٤٢١ ، ٤٢٢

هشام بن عبد الملك ١٠٠ ، ١١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٣٥ ،

٢٤٤ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٤٢٠ ، ٥٠٠ ، ٥١٠ ،

٥٦٢ ، ٥٦١

هشام بن عروة ٢٩٦

هشيم بن بشير ١٨٤

هلال بن أمية ٤٤٤

هلال بن يساف ٣٩٧

همام ٤٢٨

همام بن غالب "الفرزدق" ٥١

ابن هند ٣٨٨

هند بنت النعمان بن المنذر ٥٥

هند بنت أبي هالة ٤١٢

الهندي ٣٩٩ ، ٤٠٦

هنيا ٣٩٦

هود ٩٢

هوشنك شاه ٥٠٥

أبو الهياج الأسدي ٢٧٤

الهيثم بن عدي ٧٤

الهيثمي ٤٣٦

(و)

الواثق ٣١١ ، ٣٦١

ابن ورقة بن نوفل ٢٣٩

أبو الوليد "الباجي" ٥٧ ، ٢٧١ ، ٢٠٨

الوليد بن زيد ٤٣١

يزيد "الرقاشي" ٤٩

يزيد بن عبد الملك ١٠٠، ٢١٣، ٢٣٥، ٤٥٢

يزيد بن عمر بن هبيرة ١٧٠

يزيد بن أبي مسلم ٢١١، ٤٥٢

يزيد بن معاوية ٧٢، ١١٥، ٢٢٦، ٢٩٢،

٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٨، ٤١٠

يزيد بن المهلب ٥٠٠

يعقوب "عليه السلام" ٢٨٨، ٢٩٣، ٣٠٨،

٤١١

يعقوب بن كلث ٥٢٥

ابن أبي يعلى ٢٩٦

أبو يعلى ١٣١، ٢٧٤، ٢٧٨

يلد قور ٣٥١

يوسف "عليه السلام" ٢٨٨، ٢٩٣، ٣٥٣،

٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٢، ٤٢٠، ٤٥١

يوسف بن أسباط ٤٢٤

يوسف بن سليمان بن محمد ٨٦

يوسف بن عمر الثقفي ١١٨، ٤٢٧

يونس "عليه السلام" ٣٢٩، ٤٢٢

٢- فهرس البلدان والأماكن

(أ)

أنطاكية ٥٩ ، ٤٣٦ ، ٤٦٦

أنقرة ٥٦

الأهواز ٢٠٧

إيران ٦٥ ، ٣١٨

(ب)

باب الإسكندرية ٥١٣

باب كيسان ٥٠٠

باب المندب ٥١٦

بابل ٦٥

البتراء ٤٢٣

البحر الأبيض المتوسط ١٩٥ ، ٤٦٦

بحر الروم ١٩٥

بحر فارس ١٩٥

البحرين ٧٨ ، ٣٥٢ ، ٣٧٦ ، ٣٨٦

بخارى ٧٤ ، ٣١١

بدر ٢٦٣ ، ٣٢٣ ، ٣٨٠ ، ٤٣٦ ، ٤٦٧

برقا ٤٥٥

بست ٣١١

بشتر ٤٨٩

البصرة ٤٦ ، ٥١ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٨٠ ، ٨٢

١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٦

١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣١

١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٢

١٧٥ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥

٢٠٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢

الأبلة ٦٩

أثينا ٩٢

أحد ٢٦٣ ، ٣٥٥ ، ٣٧١ ، ٤٠٠

الأحساء ٢١٥

الأحقاف ٩٢

الأردن ٣٦٩ ، ٤٢٣

أذربيجان ١١٠ ، ٣٦٤

أرمينية ١١٨ ، ٢٣٥ ، ٤٣٦

اسبانيا ٢٦٩

اسفرايين ٤٣٩

الإسكندرية ٦٥ ، ١٤٦ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٦٦

٥١٣ ، ٥٠٢

أسوان ٣٥٥

آسيا الصغرى ٣٦٥

أصبهان "أصفهان" ٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٧٢

٣٨٤ ، ٤٨٦ ، ٥١٣

اصطخر ٢١٨ ، ٣٨٤

إفريقية ٤٧ ، ٨٣ ، ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥

٢٧٨ ، ٣٤٦ ، ٤١٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٨٤

٥٠٠

أفغانستان ٤٩٧ ، ٥١٤ ، ٥١٨

الأنبار ١٩٠

الأندلس ٥٧ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ١١١ ، ٢٨٣ ، ٢٩٦

٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢

٤٧٠ ، ٤٧٩ ، ٤٨٥ ، ٥٠٠ ، ٥٦٤

تستر ٣٦٤	٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢
تكريت ٤٦٢	٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧
تهامة ٧٧	٣١٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٤٩
تونس ٢٧٨	٣٤٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٧
(ث)	٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤٢٧ ، ٤٣٨
الثغر الأعلى ٨٦	٤٧٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠١
(ج)	بعلبك ١٠٩ ، ١٧٥
الجامع الأموي ٧٤	بغداد ٥٠ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠٠
جبل طارق ٤٨٥	١١٦ ، ١١٧ ، ١٤٠ ، ٢٠٣ ، ٢١٥ ، ٢٢٠
جبلة ٥٨	٢٢٧ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦
الجحفة ١٢٠	٢٩٧ ، ٣٢٨ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٣٨٤
جرجان ٤٣٩	٣٨٩ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٩
الجزيرة ٩٦	٤٣٨ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠ ، ٥١٠ ، ٥٦٣
الجزيرة الخضراء ٤٨٤	بلاد الروم ٨٦
الجمال ٢٠٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٣٦٦	بلاط الشهداء ١٠٠
٤١٢ ، ٣٧١	بلخ ٥٨ ، ٢٣٠
جيحون "نهر" ٣٥٨	بلنسية ٩٤ ، ٤٥٩
الجيزة ٢٥٥	بوصير ١٦٨
(ح)	بيت المقدس ٣٢٣ ، ٣٥٨ ، ٤٦٥
الحبشة ٢٠٧ ، ٢٦٥ ، ٣٩٤	بيت لهيا ٥٩
الحجاز ٥٧ ، ٧٧ ، ٩٥ ، ١٧٥ ، ٢٠٧ ، ٢٣٥	بيروت ١٠٩ ، ١٧٥
٢٧٨ ، ٣٢١ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٨	بيزنطة ٤٨٨
٤٨٤ ، ٤٦٤	بيسان ١٠٦ ، ١٦٥
الحجر الأسود ٢١٥	بيهق ٣٦٢ ، ٤٥٥
الحجون ٤٩	(ت)
الديببة ١٢٨ ، ١٨٤ ، ٢٣١ ، ٣٨٠	تبوك ٣٩٥
حران ٣٨٢	تدميره ٤٨

دار عمر بن عبد العزيز ٣٧٦

داريا ٢٨٨ ، ٤٢٠

دامغان ٤١٩

دانية ٤٥٩

دجلة ٣١٥ ، ٤٠٧ ، ٤٦٢

دمشق ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٨١ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٠٩

، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٤٩ ، ١٩٤

٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٣٧٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩

٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٣١ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٦

٥٠٠ ، ٥١٦

ديار بكر ٣٥٨

دير الجماجم ٥٠١

دينور ٤٢٩

(ذ)

ذات الصواري ٣٤٦

ذمار ٢٨٤

(ر)

رشيد ٣٥٥

الرصافة ٥٦١

الرقعة ٧٣ ، ٢٠٣ ، ٢٣٨ ، ٣٣٦ ، ٣٦٨ ، ٤٢٧

الرملة ٢٦٤ ، ٣٢٣

بلاد الروم ٥٦ ، ٥٩ ، ٢٣٥ ، ٢٨٨

الروثية ٦٨

الري ٢٦٤ ، ٤٠٦ ، ٥١٨

(ز)

الزاب ١٦٨ ، ١٩٠

الزاهرة ١١١

الحرم المكي ٢١٨

الحرّة ٣٨٠ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦

حروراء ٤٩٩

حضر موت ٢٦٦ ، ٣٩٧

حلب ٥٩ ، ٢٠٣ ، ٢٦١ ، ٣٧٦ ، ٥٦٣

حلوان ٦٥

حمص ١١٧ ، ١٦٣ ، ١٨٧ ، ٢٩٢ ، ٣٦٥

٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٦ ، ٤٩٥

حنين ٣٩٠ ، ٤٠٠

حوران ٢١٨

الحيرة ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ١١٥ ، ٢٦٠

٤٢٦ ، ٥١٤

(خ)

خبير ١٠١ ، ٤٣٦

خراسان ٥٨ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١٧١ ، ٢٠٣

٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤١

٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٣١١ ، ٣١٨

٣١٩ ، ٣٢٨ ، ٣٥٨ ، ٣٩٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨

٤١٥ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٥٦٣

خناصره ٣٧٦

الخندق ٥٢ ، ١٥٨ ، ٣٧٢

الخورنق ٥٤ ، ٥٥

(د)

دابق ٥١

دار الكتاب اللبناني ١٩٧

دار المطلب ٢٦٩

دار عثمان ٣٢٥

الزبدة ١٢٩، ١٦٣

شقة ٤٧٩، ٤٨٠

زمزم ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤

(ص)

(س)

الصعيد ١٤٥، ٣٥٤، ٣٩٤

سجستان ٢٦٢، ٣١١، ٣٧٤، ٣٨٤، ٣٨٦

صفين ١٤٢، ١٥٠، ١٦١، ١٧٧، ١٩٧، ٢٠٥

٤٠٠

٢١٩، ٢٥١، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٨٢، ٣٣٠

السدير ٥٤، ٥٥

٣٥٥، ٣٦٦، ٣٧١، ٤٠٠، ٤٠٦، ٤٩١

سردوس "خليج" ٣٥٥

٤٩٩

سرقسطة ٥٧، ٨٦، ٤٧٩، ٤٨٠

صقلية ٤٥٣، ٤٨٩

سرمن راى ٢١٦، ٣٦١، ٤٦٢، ٥١٣

صنعاء ٥٦، ١٠٥، ٢١٠، ٢٧٥، ٢٨٤، ٣٨٣

السلام ١١٦، ٣٥٩

٤٤٧

سلوقية ٤٧٢

الصين ١٦٧، ٣٣٦

سمرقند ٧٤، ٣١٩، ٣٥٨، ٥١٤

(ض)

سمعان ٧٩

(ط)

سنجار ٤٥٥

الطائف ٩٥، ١٤٥، ١٨٤، ٢٧٤، ٣٥٢

السند ٦٩، ٢٤٤، ٣٧٢

٤٧٧

السوادنة ٤٤

طحا ٤١٧

سوريا ٥٨، ٢٦١، ٣٧٦، ٤٦٦، ٤٩٥

طرسوس "طرطوس" ٥٩

سوسة ٤٠٩

طرسوس "نهر" ٥٩

السويدية ٤٦٦

طرطوشة ٤٥٩، ٤٧٠، ٤٨٨، ٤٨٩

(ش)

طليطلة ٩٤، ٤٨٥

الشام ٥٢، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٤، ٦٦، ٧٩

طنجة ٧٤، ١٩٥، ٤٨٤

١٠٣، ١٠٦، ١١٥، ١٢١، ١٢٩، ١٨٤

طوس ٦٥

١٨٧، ١٩٥، ٢١٩، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٤٧

(ظ)

٢٥٥، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٨٠، ٢٨٨

ظفار ١٨٠، ٥١٦

٣٣٣، ٣٣٤، ٣٤٦، ٣٥١، ٣٥٨، ٣٦٥

(ع)

٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧

العاصي "نهر" ٤٦٦

٣٧٨، ٣٨٨، ٣٨٩، ٤١٦، ٤٢١، ٤٢٣

عدن ١٣١، ١٥١، ٥١٦

الشام الأعلى ٣٥٨

(ق)

قابس ٢٧٨

القادسية ٧٠، ١٦٣، ١٨٤، ٢٦٤، ٣٩٥،

٤٧١، ٤٧٢

القاهرة ٧٧، ١٦٩، ١٧٢، ٤١٧

قبر إبراهيم ٤٦٥

قبر سليمان ٣٦٤

قبر عمر بن عبد العزيز ٧٩

أبى قبيس "جبل" ٣٨٩

القدس ٧٤، ٩١، ٢٥٥، ٢٦٤، ٤٢١

قديد ٢٨١

قرطاجنة ٤٨٤

قرطبة ٩٤، ٢١٥، ٤١٤، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٨٥،

٥٦٤

القسطنطينية ٢١٨، ٣٥٨، ٤٨٨

القصر ٥٥

قصر الخورنق ٥٤

قصر الزهراء ٤٥٨

قصر السدير ٥٤

قصر الشرفات ٥٥

قصر بارق ٥٥

قصر سنداد ٥٥

قصر سيف بن ذى يزن ٧٣

قطر ٢٣٠

قم ٣٨٤

قندهار ٤٩٧

قنسرين ٣٧٦

العراق ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦٥، ٧٢، ٨٨،

٩٣، ٩٥، ١١٥، ١٢٤، ١٢٥، ١٤٦، ١٦٦،

١٧٠، ١٧٥، ١٨٢، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١١،

٢١٥، ٢١٩، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٣٩،

٢٤٨، ٢٦١، ٢٧٨، ٢٨٦، ٣٢٨، ٣٥٢،

٣٥٨، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩٥،

٣٩٧، ٤٥٢، ٤٦٢، ٤٧١، ٤٧٧، ٤٩٥،

٥٠٠، ٥٠٦، ٥١٩

العرافين ٣٥٨، ٤٢٣

عسفان ١٢٠

عكاظ ٧٨، ١٩١

عمواس ٣٦٥، ٣٦٩، ٣٧٠

عمورية ٥٢، ٣٤٢

(غ)

غزة ١٦٩

غور الأردن ٣٦٩

غوطة دمشق ٢٨٨، ٤٢٠

(ف)

فارس ٦٩، ٧٠، ٨١، ١٧٢، ١٨٠، ١٨٧،

١٩٠، ١٩٢، ٢٤٦، ٢٥٢، ٣٨٤، ٣٩٢،

٣٩٨، ٥١٣، ٥١٤

الفرات ٢٧٣، ٣٦٥

فرنسا ١٠٠

الفسطاط ١٢٠، ٢٠٥، ٥٦٧

فلسطين ٧٧، ١٠٦، ١١٥، ١٦٩، ٢٢٥، ٢٦٤،

٢٨٨، ٣٢٣، ٣٧٧

القـــيروان ٨٣ ، ٢٦٩ ، ٤٠٩ ، ٤١٩ ، ٤٥٥ ،

٤٨٤

(ك)

كابل ٥١٨

كربلاء ٧٢ ، ٩٧ ، ٤٧٧

كرمان ٤٠٦

الكعبة ١٢٤ ، ٣٥٢ ، ٣٨٨ ، ٣٩٧

كنيسة القديس سرجيوس ٥٦١

الكوفة ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٢ ،

٩٢ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٢٢ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ،

١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٥ ،

٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،

٢٧٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٠٣ ، ٣٤٥ ، ٣٦٤ ،

٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ ، ٣٩٩ ،

٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٥٨

(ل)

لاردة ٨٦

لبنان ٧٤

(م)

المدائن ٦٧ ، ٣٦٤ ، ٣٧٢

المدرسة النظامية ٣٥٩

المدينة ٤٧ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٨١ ، ٨٩ ، ١٠٣ ،

١٠٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ،

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٦٤ ، ١٨٤ ،

١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٠٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٤٣ ،

٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ،

٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٣٠٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ،

٣٣٢ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ،

٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ،

٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٤٠٨ ، ٤٨٤

مرو ٥٨ ، ٢٦٤ ، ٣٥٨

مسجد الأقصى ٧٤

المسجد الحرام ٨٣ ، ٣٨٩

مصر ٧٧ ، ١١٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٦٨ ،

٢٠٥ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٩ ،

٢٥٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٨٦ ، ٣٤٦ ،

٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ،

٣٨٨ ، ٣٩٤ ، ٤٠٨ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٣٦ ،

٤٣٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٨٤ ، ٥٦٧

المصيصة ٥٩

المغرب ٦٢ ، ٨٣ ، ١١٧ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ٢٥٤ ،

٢٨٦ ، ٤٠٩ ، ٤٨٤ ، ٥٢٥

المقطم "جبل" ١٦٩

مكة ٤٧ ، ٤٩ ، ٦٨ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٤ ،

١٠١ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ،

١٤٠ ، ١٦٩ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،

٢٣١ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ ،

٢٩٥ ، ٣٠٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٤٢ ، ٣٦٥ ،

٣٦٦ ، ٣٨١ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ ،

٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٤٣ ، ٤٨٤

ملاذ كرد ٤٨٦

منبج ٢٦١

المنصورية ٥٩

مؤتة ٢٣٣ ، ٤٠٠

المؤسسة العربية الحديثة ١٧٢

٤٧٢ ، ٤٧١ ، ٤٠٦ ، ٤٥٨ ، ٣٨٨ ، ٣٨٣ ، ٣٧٢

الموصل ٥٢ ، ٢٢٨ ، ٣٤٨ ، ٤٢٢

٥١٦

(ن)

اليونان ٦٥ ، ١٧٣ ، ٥١٢

نجد ٦٤

نجران ٧٨ ، ١٧٥ ، ١٩١ ، ٢٤٨ ، ٤٣٠

الذئف ٤٧١

نهوند ١٨٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦٤ ، ٤٧١

نهر عمر ٣٠٢

القوبة ١٦٨ ، ٣٩٤

نيسابور ٥٨ ، ٢٣٠ ، ٢٦٤ ، ٣٥٨ ، ٥٠٢ ، ٥١١

نينوى ٤٢٢

(هـ)

الهند ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ١٦٦ ، ١٨٤

١٨٨ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥

٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٨٧ ، ٥١١ ، ٥٢٢

هيث ١٩٧ ، ٢٧٣

(و)

وادي القرى ٢٥٣

واسط ٣٧٩ ، ٤٣٧

(ى)

يبرود ٤٥٦

اليرموك ١٨٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ٣٥٥ ، ٣٦٦

٤٧١ ، ٤٩٠ ، ٤٩٥

اليمامة ١٨٤ ، ٣٨١

اليمن ٥٦ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٩٢ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٤

١٣١ ، ١٣٣ ، ١٤٢ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٢١٠

٢٤٨ ، ٢٨٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٩ ، ٣٧٠

٣- القبائل والبطون والطوائف

(ب)

الباطنية ١٨٧

البرامكة ٥٤ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ١٠٥ ، ١٢٣ ، ١٧٦ ،

٢٨٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥

البربر ٤١٩ ، ٤٨٤

البيزنطيين ١٨٢ ، ٣٤٢

(ت)

التبايعه ٢٤٨

تبع ٢٤٨

الترك ٣٥٨

بنو تغلب ٢٢٤ ، ٣٧٨ ، ٤٢٧

بنو تميم ٥١ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٧٩ ، ١٠٢ ، ١٧٢ ،

١٧٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٦١ ،

٤٠٥

(ث)

ثقيف ٢٠٥

ثمود ١٠٨

(ج)

الجاحظية ٦٦

جبيلة ٢٤٦

جهينة ٣٩٥

(ح)

الحجازيون ١١٤

بنو الحساس ٣٩٤

(أ)

الإباضية ٤٩٩

الأتراك ٣٧٨

الإثنا عشرية ٢٤٧

الأحباش ٢٤٨

أرثوذكس ٣٥٣

الأزارقة ٢٣٦ ، ٤٧٧ ، ٤٩٩

آل ساسان ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٣٩٢

بنو إسرائيل ٤٩ ، ٦٢ ، ٧٥ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٣٦ ،

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ ، ٢٨٥ ،

٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ، ٤٤١

الأشراف ٢٤٤ ، ٣١٩

بنو الأصفر ٥٥

بنو الأغلب "الأغلبية" ٨٣ ، ٤٥٥

الإفرنج ٤٧٩

الإمامية ٦٨ ، ٢٤٧ ، ٤٥٨

الأمويين ٥١ ، ٧٢ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٨ ،

١٤٦ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٨٥ ،

١٩٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٥ ، ٢٣٤ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ،

٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٦٤ ، ٣٨٦ ، ٣٤١ ، ٤٧٦ ،

٤٧٧ ، ٤٨٥ ، ٥١٤ ، ٥٦٢

أنباط ٤٢٣

الأنصار ١٤٢ ، ١٥٨ ، ٢٥٨ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ،

٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٦٧ ، ٣٨٦

الأوس ١٥٨

(س)

الساسانيون ٥٥ ، ٣٤٤

السامانيون ٣١١

بنو سعد ٢٤٦

السند ٣٦ ، ٣٤٩

بنو الحكم ١٨

بنو حمدان، ٤٥٥

حمير ٥٦ ، ٧٥ ، ١٨٠ ، ٢٤٥ ، ٥١٦

الحنابلة ٨٢

الحنفية ٤١٧

(ش)

الشافعية ٨٠

الشاميين ٤٥٦

(ص)

صعب ١٨٠

الصفرية ٤٩٩

الصوفية ٢٦٥ ، ٢٨٧ ، ٣٠٦ ، ٣٦٠ ، ٤٠٤ ،

٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٢٠

الصين ٣٦ ، ٣٤٩

(ض)

بنو ضبة ٦٤

(ط)

الطاهرية ٣٢٨

الطوائف ٩٤ ، ٣٤٩

طنى ٢٦٦

(ظ)

(ع)

عاد ٩٢ ، ١٠٨ ، ٢٥٠

عامر بن صعصعة ٢١٨ ، ٢٤٦

عامر بن لؤى ١٢٥

(خ)

الخورج ٤٠٠ ، ٥٥٤

الخوارج ٧٢ ، ٧٤ ، ٩٧ ، ١١٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣٦ ،

٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٤٧٧ ، ٤٩١ ، ٤٩٩

(د)

(ذ)

بنو ذى النون ٤٨٥

(ر)

الرافضة ٦٨

ربيعة ٢١٩ ، ٥٦٦

الروم ٣٦ ، ٥٥ ، ٧٤ ، ١٨٢ ، ٢٠٤ ، ٢٣٥ ،

٢٦١ ، ٢٧٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ،

٣٥٠ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٨١ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ،

٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ،

٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٠٨

الرومان ٤٥٣

بنو رياح ٣١٥

(ز)

الزرادشتية ١٧٢ ، ١٨٢

الزنادقة ١٦٦ ، ٢٢١ ، ٢٦٥ ، ٢٩٧ ، ٤٥٩ ،

٤٨٥

(غ)

الغيلانية ٥٠٠

(ف)

الفاطيون ١١٨ ، ٢١٥

الفراغة ٣٥٣ ، ٣٥٤

الفرس ٣٦ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ١١٥ ، ١٦٣

، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٢ ، ٢٣٤ ، ٢٥٥ ، ٣١٩ ،

٣٢٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ،

٣٨٤ ، ٤٣٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٩ ، ٥٠٥ ، ٥٦١

(ق)

القبط ٣٥٣

قحطانية ١٧٣

القدرية ٤٩٩

القرامطة ٢١٥

قريش ٦٨ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٣٣٦ ،

٣٦٥ ، ٣٨٦ ، ٤١٣ ، ٤٢٦

القندهاريين ٤٩٧

(ك)

كاثوليك ٣٥٣

بنو كلب ٢٠٣ ، ٢٤٤ ، ٥٦٣

كنانة ٢٤٤ ، ٤٨٣

كندة ٢٢٥ ، ٢٦٦

الكنعانيين ٢٢٥

(ل)

لخم ٧٠

اللخميين ٦٧

العباسيون ٥٠ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٠٨ ،

١٣٠ ، ١٤٩ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٩٠ ،

٢١٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ ، ٣٠٨ ،

٣١١ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٦٤ ، ٤٥٥ ، ٥١٤

بنو عبس ٢٣٥ ، ٤٣١

ابد القيس ٧٨ ، ١٧٧ ، ٣٧٢

العبرانيين ٨٢ ، ٢٩٩

العثمانيون ٤٨٨

العجم ٥٥ ، ٨٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦١ ، ١٦٣ ،

١٦٥ ، ٢٣٤ ، ٢٥٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٣٠٧ ،

٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٤٥٦ ، ٤٧١ ، ٥٦٣

عدنان ٦٤

العرب ٢٦ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ،

٧٠ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ١٠٢ ، ١١٤ ، ١٢٥ ،

١٥٣ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ،

١٨٥ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ،

٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ،

٢٥٢ ، ٢٦١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٧ ،

٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ،

٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٥ ، ٣٧٢ ،

٣٧٨ ، ٣٩٠ ، ٤٠٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ،

٤٧٢ ، ٥٠٥ ، ٥١٥

العلويين ٨١

العمالقة ١٣٦ ، ٢٢٥ ، ٣٥٣

عنزه ٥٢

بنو عمرو بن عوف ٣٦٢

(م)

بنو مغيث ٤٨٥

الناذرة ٥٥

المهاجرين ٣٧٧ ، ٣٥٢ ، ١٢٥

الموالى ٢٦٥

الموحدين ١٩٩

(ن)

بنو النجار ٣٦٤ ، ٢٧٤

النصارى ١٨٢ ، ١٧٥ ، ٨٦ ، ٧٠ ، ٥٥ ، ٥١

٢٤٨ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٢٨٣ ، ٤٣٦ ،

٤٥٦

بنو نهشل ٥٥

(هـ)

بنو هاشم ١١٨ ، ٦٨

هرثمة ٩٢

الهند ٣٦ ، ٢٧٩ ، ٣١٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ،

٣٤٩

هوزان ٤٨٣

بنو هود ٨٦ ، ٤٨٥

(ي)

بنو يشكر ١٨٦

اليعاقبة ٤٥٦

اليمانية ١١٥

اليمنيين ٥٦ ، ٤٢٦

اليهود ٧٠ ، ١١٧ ، ٢٤٦ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣ ،

المالكية ٥٧ ، ٦٢ ، ٨٣ ، ٢٠٨ ، ٤١٩ ، ٤٦٠

مجاشع ٥١

مجوس ٥٢ ، ٣٠٩ ، ٣٧٢ ، ٤٩٩

آل محروق ٥٥

بنو مدلج ٣٥٢

بنو مديان ٤٦٢

بنو مروان ١٧٠ ، ٤٥٩ ، ٥٦٢

المزكية ١٨٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦

المسلمين ٣٧ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٩٧ ، ١٠٦

١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ،

١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٨٠ ، ٢٠٤ ،

٢٠٥ ، ٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٨ ،

٢٦٤ ، ٢٧١ ، ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤٩ ،

٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ،

٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ،

٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،

٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩ ،

٤٠٠ ، ٤٠٨ ، ٤٣٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ،

٤٦٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ،

٤٨١ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ،

٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤

المشركين ٣٨٠

بنو المصطلق ٤٢٧

المعتزلة ٦٦ ، ١٠٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٣٧٨ ، ٤٠٤

٤٣٨

المغول ٦٥

٤- الآيات القرآنية

(١)

سورة إبراهيم ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٤١٥ ، ٤٤٣

سورة الأحزاب ٣٥ ، ١٣٦ ، ٢٧٣

سورة الأحقاف ٢٢٣ ، ٣٧٣

سورة الإسراء ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٤١٤ ، ٤١٨ ، ٤٣٣

٤٤٠ ، ٤٣٥

سورة الأعراف ٣٥ ، ١٧٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٦

٢٧٦ ، ٢٨٥ ، ٢٩٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٤٠٣

٤٢٤

سورة آل عمران ٣٧ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٧٨

٢٢٣ ، ٢٥١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٩١

٣٠٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٧ ، ٤٨٣ ، ٥٣٨

سورة الأنبياء ٤٦ ، ١١٩ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨

سورة الأنعام ٢٢٥ ، ٢٧٦ ، ٣٠٦ ، ٣١٢ ، ٣١٦

٣٢٦ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٨ ، ٤٤١ ، ٤٤٥

٥٣٥

سورة الأنفال ١٤٤ ، ٢٢٩ ، ٢٧٤ ، ٤٨٣ ، ٤٩١

(ب)

سورة البقرة ٥٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٩٤

١٩٦ ، ٢٧٧ ، ٢٩١ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩

٤٠٩ ، ٤١٨ ، ٤٣٥ ، ٤٤١ ، ٤٤٧

سورة البلد ٣٩٥

(ت)

سورة التوبة ٤٨٨

(ج)

سورة الجاثية ٨٣ ، ٣١٦

(ح)

سورة الحج ١٢٧

سورة الحجر ٤٦ ، ١١٩ ، ٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٧٦

سورة الحجرات ٢٧

سورة الحديد ٣٤ ، ٤٧ ، ٦١

سورة الحشر ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤

(خ)

(د)

سورة الدخان ٣٥٥

(ذ)

سورة الذاريات ١٠٨ ، ٣٠٠

(ر)

سورة الرحمن ٤٣٣

سورة الرعد ٣٣ ، ٢٧٦ ، ٣٠٦

(ز)

سورة الزخرف ١٠٤ ، ٢٠٧ ، ٣٥٥

سورة الزلزلة ٥١

سورة الزمر ٢٧٦ ، ٣٨٠ ، ٢٨٤ ، ٣٦٣ ، ٤٣٣

٤٣٥

(س)

سورة سبأ ١١٩ ، ٣٠٣

(ق)

سورة القصص ١٧٣ ، ٢٩٩ ، ٤٦٤

سورة القلم ٢٩٩ ، ٣٥٢ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤

٤١٣ ، ٤٢٦

(ك)

سورة الكهف ١٩٦ ، ٢٥٤ ، ٢٧٦ ، ٥٠٢

(ل)

سورة لقمان ٢٨٥ ، ٤١١

(م)

سورة المائدة ٣٠٥ ، ٣٧٩

سورة المجادلة ١٦٢ ، ٤١٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣

سورة محمد ١٠٢ ، ٢٧٣ ، ٤٣٥ ، ٤٨٣

سورة مريم ٤٨ ، ٤٩٦

سورة المطففين ٤٥ ، ٥٣

سورة المعارض ٢٨٨

سورة الملك ٣٣

سورة المؤمنون ٣٠٤

(ن)

سورة النحل ١٦٠ ، ١٧٤ ، ٢٢٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩١

٣١٠ ، ٣٠٠

سورة النساء ٤٥ ، ١٨١ ، ٢٤٣ ، ٥٢٧

سورة النمل ٤٦ ، ١١٩ ، ١٨٩ ، ٢٩٩ ، ٣١٠

٤٤٢ ، ٤١٥

سورة نوح ٣٠٥

سورة النور ٢٢٣ ، ٤٦٥

(ش)

سورة الشرح ٤٤٢

سورة الشعراء ٩٦ ، ١٥٧ ، ٢٢١

سورة الشورى ٣٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٣٠٦ ، ٤٤٢

٥٠٦

(ص)

سورة ص ٤٥ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣٨

١٣٩ ، ٢٣٧ ، ٢٨١ ، ٢٩٩

سورة الصافات ٢٣٢ ، ٢٤١ ، ٤٤٦ ، ٤٥١

(ض)

(ط)

سورة طه ١٩٦ ، ٢١٠ ، ٢٥٧ ، ٤٦٤

(ظ)

(ع)

سورة العنكبوت ٤٥ ، ١٧٨ ، ٤٢٥ ، ٤٣٥

٥٠٣

(غ)

سورة غافر ٣٠٥ ، ٣٠٦

(ف)

سورة فاطر ٢٣٠ ، ٣١٠ ، ٤٣٥ ، ٤٦٤

سورة الفرقان ١٧٥ ، ٢١٧ ، ٣٠٣ ، ٤٩٨ ، ٥٣٥

سورة فصلت ٢٢٤

(هـ)

سورة هود ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٤١٧

(و)

(ى)

سورة يوسف ١٤٠ ، ٢٩٣ ، ٣٥٦

٥- الأحاديث النبوية

- (أ)
- أبشروا فقد ٤٤٢
- ابن آدم إنما ٢٥٩
- اتقوا الشح ٢٧٣
- اتقوا دعوة المظلوم ٤١٦
- احبب حبيبك ٥٠٧
- احثوا في وجوه ٣٨٨
- ارحموا من في الأرض ٢٢٥
- أحسن خلقك للناس ٤٠٤
- ادوا لهم حقوقهم ٣٢٣
- إذا جدت الرجل
- إذا غضب الرجل ٤٠٨
- إذا كان يوم القيامة ١٢٩
- استعينوا على قضاء ٢٩٣
- اشتد غضبي على ٤٢٠
- أشد الناس عذاباً ١٣٥
- أطلع في القبور ٢٥٤
- اعقلها وتوكل ٤٩٥
- أفضل الناس أعقل ٢٠٤
- أفلا أكون عبداً شكوراً ٣٠٣
- اقتلوا الوزع ٤٤٠ ، ٤٤١
- أقيلوا ذوى الهيئات ٢٤١
- ألا أدلكم على ٢٧٧
- ألا أريك الدنيا ٤٧
- ألا إن القوة الرمي ٤٧٥
- ألا كلكم راع ١٢٨
- اللهم أنى أعوذ بك ٧٣ ، ٩٠
- أمسك عليك بعض ٤٤٥
- إن استطعت أن تعمل ٢٨٥
- إن أشد الناس ١٢٢
- إن الحسل لتموت ٤١٨
- إن الحشرات لتموت ١٥٦
- إن الدين النصيحة ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٣٦
- إن العبد ٢٣٦
- إن القاضى يزل ١٣١
- إن الله أنزل الداء ٤٩٥
- إن الله سبحانه هاد ١٣٥
- إن الله لم ١٠٩
- إن الله ليملى ٤١٧
- إن الله يعذب ٤٢٢
- إن المفلس من أمتى ٤٣٧
- إن النبى صلى الله عليه وسلم صلى العشاء
- ٣٤٩
- إن عفريتاً من الجن ١٣٩
- إن قيس بن ساعد ٨٠
- أنا ابن الذبيحين ٢٤١
- أنا ظالم إن ٤٣٦
- إنا لا نستعمل على ٣٩٢
- أنا والجن والإنس ٣٠٢
- انتظار الفرج من الله ٢٨٣

- انص أخاك ظالماً ٤١٧
 انظر إليها فإنه ٤٠٧
 أنكم ستحرصون على ١٢٩
 أنكم سترون بعدى ٣٢٣
 إنما الصبر عند ٢٧٨
 إنما بعثت رحمة ٤١١
 أنهاك عن الشرك ٧٧٢
 إنهما ليعذبان ٤٢٨
 أوصيك بتقوى الله ١٣٥
 أول ما يقضى ٤٣٥
 أيها الناس إن ٩٠
- (خ)
 خير الأمور أوسطها ٢٠٨
 خير المال سكة ٤١٨
- (د)
 (ذ)
 (ر)
 رأى بن مريم ٤١٠
 رب أشعث ٤٥٤
- (ز)
 (س)
 ساقى القوم ١٤٨
 سبعة يظلمهم الله ١٤١
 السنحى قريب ٢٥٩
 السلطان ظل الله ١٤١
 سلمان منا ٥٢
 سوء الخلق ٤١٠
 سيأتيكم ركب ٣٢٣
- (ش)
 الشجاعة والجبان غرائز ٤٦٨
 الشكر والمن ٢٧١
- (ص)
 الصبر ستر ٢٨٠
 الصبر ضياء ٢٨٠
 الصبر من الإيمان ٢٨٠
 الصبر والسماحة ٢٧٨
- (ب)
 بايعنا النبي صلى الله عليه وسلم ٣٢٣
 برئ من الشح ٢٧٤
 بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ٤٠٤
- (ت)
 تجدون من خير الناس ١٢٩
- (ث)
 ثلاثة لا ترد ١٤١
- (ج)
 الجنة لا يدخلها ٤٢٩
- (ح)
 حدثوا عن بنى إسرائيل ٧٥
 الحرب خدعة ٤٨٢

صنفان من أمتى ١٣٢

صنفان من أهل النار ٤١٧

(ض)

(ط)

(ظ)

انظلم ظلمات يوم القيامة ٤١٦

(ع)

العقل حيث كان ٢٠٤

(غ)

(ف)

فساد ذات البين ٤٢٩

فو الذى نفسى بيده ٤٦

ق

قد أودى موسى ٢٧٧

القضاة ثلاثة ١٣٣ ، ١٣٥

قطعت ظهر أخيك ٣٨٨

كان النبى صلى الله عليه وسلم تأفد بيده ١٨٤

كان خلقه القرآن ٤٠٣

كل مولود يولد ٤١٦

(ل)

لا تأكلوا إلا طيباً ٤٩

لا تخافوا الضيعة ٤٤٢

لا تسبخى عنه ٣٢٤

لا تغضب ٢٤٠

لا يأتينى أحدكم ٤٣٩

لا يدخل الجنة قتات ٤٢٨

لتؤذن الحقوق ٤٣٩

لعله يخفف عنها ٤٢٩

لعمل الإمام العادل ١٤٢

القدرية مجوس ٤٩٩

لكن الله يدرى ٤٣٩

لما خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى بدر

٣٨٠

لن تسعوا الناس ٤٠٦

لن يفلح قوم ٣٨٥

لو اطلعت امرأة ٣٦٨

لو أنكم توكلتم ٤٩٧

لو صدق السائل ٣٠٦

لو قد جاء مال ٣٥٢

لو كان المؤمن ٥٣٥

لو كانت الدنيا ٤٦

لولا القصاص ٤٣٧

ليس للمؤمن ١٠٦

ليس من وال ١٣١

ليودن أقوام يوم ١٣٢

(م)

ما اتال الله ٣٧٥ ، ٣٧٦

ما ازداد رجل ٢٥٤

ما بال الرجل ٣٩٩

ما لكم ولا مراتى ١٤٨

(و)

وإن من أحبكم ٤٠٤
والمدينة خير لهم ١١٧
وجبت محبة الله ٢٤٠

(ى)

يا أبا ذر إنك ١٣٥
يا أبا ذر إني ١٣٥
يا جبريل ما هذا ٢٢٣
يا عبادى حرمت ٤١٥ ، ٤١٦
يا عباس يا عم النبي ١٠٧
يا عبد الرحمن لا تسأل ١٢٨
يا عبد الله كن فى الدنيا ٤٧
يا عويمر ازدد عقلاً ٢٠٦
يا محمد إن الله يقول ٤٦
يخلص المؤمنون ٤٣٥
ينادى مناد ٢٢٤
يؤتى بالقاضى العدل ١٣١

ما من أمرئ ١٢٨

ما من أمير ١٣٢

ما رأيت ٢٢٤

ما ظهر الغلول ٤١٩

ما من عبد يسترعيه ١٢٨

ما هذا يا جبريل ٤٠٣

مروا له ٤٠٤

ملعون ذو الوجهين ٤٢٨

من أبطأ به ١٢٤

من أشراط الساعة ١٥٩

من أصبح لهم ١٠٧

من أقتطع حق أمرئ ٤١٩

من اكتوى ٤٩٦

من التمس رضى الناس ٩٧

من شراركم ٤٢٨

من شفع لأخيه ٣٩٩

من ظلم من الأرض ٤١٧

من قدم إلى القضاء ١٣٣

من كانت عنده لأخيه ٤٣٥ ، ٤٣٦

من كانت لأخيه ٤١٦ ، ٤١٧

من لم يشكر القليل ٢٩٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٢

من ولى من أمر ١٢٩

المؤمن ألف مألوف ٤٠٧

(ن)

(هـ)

هل يتوقع أحدكم ٩٠

٦- الأشعار

إذا ذاع شرك ٢٩٧	(أ)
إذا راب ٢٢١	أبا جعفر حانت ٨١
إذا رشوه من ٤٠١	أبدأ بنفسك ٣٣٠
إذا ساد فينا ٣٩٣	أبقيا من ٦٤
إذا ضاق صدر ٢٩٦	أبقى الحوادث ٤٧٢
إذا طال ٢٨٣	أأبكيكما ٨٠
إذا طال عمر ٢٠٣	أتبنى بناء ٩٤
إذا غدا ملك ٣٢٩	أتصبر للبلوى ٢٨٢
إذا فكرت ٧٨	أتضحك مني ٢٧١
إذا قسا ٥٣	أجن بزهرة ٧٨
إذا قضى الله ٢٨٧	أجود بمكنون ٢٩٥
إذا كان شكرى ٢٩٢	أحتال للمال ٢٧٢
إذا كنت فى ٤٠١	احذروا من حوادث ٥٢٥
إذا لعب ٢٨٧	أحسننت ظنك ٤٧
إذا لم يكن ١٩٥	أخلأى لو ٦٤
إذا ما ٨٢	أخلق بذى ١٨٣
إذا ما خلا ٥٦٣	إذا أنت لهديّة ٤٠١
إذا ما ضاق صدرك ٢٩٧	إذا القبس ٥٦٢
إذا ما تقاضى ٨٥	إذا ابتليت ٢٨٧
إذا ما خلدت ٥٦٤	إذا أنا لم ٢٢١
إذا ما كبرت ٥٢	إذا أنت لم ٢٤٨
إذا مرضنا ٢٢٨	إذا ترحلت ٢٧٢
إذا مس بالسراء ٢٩٢	إذا جاوز ٢٩٥
أراك بصيرا ٦٤	إذا أحدثوا ٢٥٠
أرض الخورنق ٥٥	إذا ذاع ٢٩٧

أرض تخيرها ٥٦	إلهى قد أحسنت ٣١٠
أرى الدهر من ١٩٥	إلهى لك ٣٠٨
أأرى الصنيعة ٣٠٩	إليا من يقطع ٢٨٧
أرى الناس ٢٧١	أما ترى ٦٩
أرى النوم ٧٩	أما ترى الشمس ٣٢٩
أرى خلل ١٧١	أما سمعت بما ٢٨٤
أرى علل ٦٤	أأمنتم ريب ٥٢٥
أريد فلا ٥٠١	إن الأمور ١٨٣
أرينى جواداً ٢٧٠	إن البلاء يطاف ٢٩٠
أسعد أنى يا ٦٥	إن الثناء ٢٧٠
أسيرك سرك ٢٩٣	إن الذى شرفت ٢١٣
أصبر وإن ٢٨٤	إن الذى عقد ٢٨٦
أصون عرضى ٢٧٢	إن الله ذو ٢٣٠
أعاین معشراً ٨٢	إن المكارم ٢٠٦
أغركم أنى ٢٤٦	إن الهدية ٤٠١
أقام على ٥٠١	إن أحسنوا ٥٧
أقسم جسمى ٢٧١	إن صبحنا الملوك ٥٦٤
أقول للنفس ٢٤٩	إن كنت ٨٢
أقول وقد ٦٤	إن كنت أعلم ٥٠٣
ألا أيها الموت ٦٤	إن موسى ٤٦٥
ألا حى ٨٥	إن نلت ٢٧١
ألا فاسقنى ٣٢٨	إن هذا البناء ٨١
ألا لا يجهلن ٢٢٤	إن يرى لا ٧٨
ألا هبى ٢٢٤	إن يكن ٤٤٢
ألم تر أن ٢٠٣ ، ٢٩٨	أنا إذا مالت ٢٥٥
ألم تر أن الله ٤٩٧	أنت نعم ٧٣
ألم تعلموا ٧٩	أُنسْتُ إلى التفرد ٥٦٥

أنفس حرة ٢٠٣

أنك في دار ٦٩

إنما أجزع مما ٤٨٥

إنى وهبت ٤٢٠

أوصحبنا ٥٦٤

أوليتنى نعمًا ٣١٠

أو يأتى ٥٠١

أيا الركب ٦٧

أيا منزلا ٥٦٢

أيا من يؤمل ٥٢

أيقنت أنى ٧٩

أين الوجوه ٥٦

أين سكانك ٨٨

أين كسرى ٥٥

أيها الرافع ٨١

أيها الربع ٨٨

أيها العبد ٤٦٥

أيها المرء ٦٠

(ب)

باتوا على ٥٦

بأحلام عاد ٢٥٠

بأقل الإيادى ٥٦٦

بالله ربك ٨٠

بلا فتنة ٥٦٧

بالدح يصلح ١٥٩

البر بى منك ٢٥٥

بكى فقال ٥٦٢

(ت)

تبغى من الدنيا ٩١

تبكى عليهم ٧٥

تبوح بسرك ٢٩٧

تدنى البعيد ٤٠١

تذكرت قومى ٥٦٢

ترحل من الدنيا ٦٦

تروح لك ٧٧

ترى الذى ٧١

تصف الدواء ٣٣٠

تظل تحفر ٤٧٢

تعجل الذنب ٦٩

تَعَزَّ فإن الصبر ٢٩٠

تعصى الإله ١٢٣

تعلم فليس ١١٤

تعودت مس ٢٩٠

تقول هلكنّا ٢٧٠

تهدى الأمور ٣٣٠

(ج)

جرت الرياح ٥٦

جعلت فيها ٢٢٧

جعلت محادثى ٥٦٥

جمع الشجاعة ٤٦٨

(ح)

حتى إذا اضطرمت ٤٨٢

حتى إذا ظن ٨٢

حتى تمنى البراء ٢٢٧

حتى تمنى العفاة ٢٢٧

حتى مررت على ٥٠

الحرب أول ما تكون ٤٨٢

حسب الكذوب ١٧٤

(ز)

زرنا على ٢٥٥

زم الأمور ٨٢

زمان ربيع ٥٦٣

زنيم ليس ٤٢٦

(س)

سألزم نفسي ٢٣٤

سأسكت صبرا ٢٨٦

سأشكر ٣١٠

سأصبر كي ٢٨٨

سره ماله ٥٥

سعت هربا ٤٠١

سكنوا البيوت ٧٩

سلام وتسليم ٨٠

سمير إذا ٥٦٣

سمعن بهيجاً ٢٨٩

سواس كأسنان ٣٣١

(خ)

خلقنا رجالاً ٢٨٢

خلوت وصحبي ٥٦٣

خليلى هبا ٧٩

(د)

دع الدهر يجرى ٢٨٦

(ذ)

ذئب تراه ١٥٩ ، ٣١٣

ذريني أكن ٢٧٠

(ر)

راحت عليه ٨٢

رأى الأمر ٢٨٩

رأيت الحرب ٤٨٢

رب مغروس ٧٦

رب ورقاء ٨٩

رجعنا وقد ٢٤٤

رجعت إساءته ٤٢٠

رضيت وقد ٢٨٨

رويدك إن الدهر ٥٦٢

(ش)

شمطاء ينكر ٤٨٢

(ص)

صابر الصبر ٢٨٧

صاحت بهم ٩٤

صبر فإن الصبر ٢٨٦

الصبر مفتاح ٢٨

صبراً أبا أيوب ٢٨٦

صبرت على ٢٨٧

صبرت ولم أطلع ٢٨٨

صبرتنى ووعظتنى ٢٨٦

صبرك رضا ٢٨٨

صفوح عن ٢٢٩

(ط)

طارت عقاب ٨٠

(ع)

عجل بها ١٥٩ ، ٣١٤

عدوى ٣٣٦

عذابى أن أشكو

عذيرى من ٢٢٠

عرضت نصيحة ٢٣٨

عش ما ٧٣

عصف الدهر ٦٧

عفا الله ٧٧

علمى بأنى ٥٧

على أنهم يوم ٥٦٢

عمرو الدهر ٦٧

عدونا من ٢١٨

(غ)

غر من ظن ٦٤

غير أن الزمان ٥٦٤

غير أنى بالجوى ٨٩

(ف)

فأتى أهله ٤٦٥

فأجابنى داعى ٨٨

فأجبتهم ٥٠٣

فإذا تسعدنى ٨٩

فأرسل بأكمه ٤٠١

فارعوى قلبه ٥٥

فأرى النعيم ٥٦

فاصطبرو انتظر ٤٤٢

فأفصح القبر ٥٦

فالراح كالريح ٣٢٩

فأما الذى فوقى ٢٤٣

فامهد لنفسك ٦٩

فإن السيوف ٤٧٤

فإن تكن الأيام ٢٩٠

فإن ثنائى واعتقادى ٣١١

فإن طال المدى ٤٩

فإن قلت ٥٦٧

فإن كنت لا ٤٧

فإن كنت ترجو ٢٢٨

فإن نزلت ٢٨٩

فانفق إذا ٥٥٦

فتبًا لدار ٧٠

فبطنى سفرتى ٥٦٥

فبكائى ربما ٨٩

فتى كان ١٧٢

فصح بالخير ٢٥٠

فعزيزت نفسى ٥٦٢

ففرجوا للسلام ٤٩

فقل لبنى سعد ٢٤٦

فقلت تجاهلا ١٧١

فقلت له تجنب ٢٣٨

فقلوا لهذا ٢٧٢

فكل جمر ٦٧

فكل شئ ٧١

فكل ضيق ٢٨٤

فكم من جاهل ٢١٨

فكيف بلوغ ٢٩٢

فكيف وكل ليس ٢٩٠

فلا الجود ٥٥٦

فلا تحفرن ٤٧٤

فلا تصحب ٢١٨

فلا تغبش ٢٩٨

فلأ شكرنك ما ٣١٠

فلزمننا البيوت ٥٦٤

فلست أرى ٥٦٤

فلقد نادى ٨٨

فلم أخل ٥٦٤

فلم يبق ٨٠

فلو جعلت ٨٠

فلو أنا بموقفكم ٤٩

فلو كان يستغنى ٣١١

فلو كان يغنى ٢٩٠

فلو كان للشكر ٣١١

فلو يبق ٨٠

فليس يبالي ٢٢٩

فما الناس إلا ٢٤٣

فما لي ٧٨

فما ليت ٢٩٠

فما منهما ٢٩٢

فمن ظن ٧٧

فمن كان ذا ٣١٠

فمن يسأل ٢١٨

فهل كاهن ٨١

فهل ما ترون ٢٧٢

فهناك يقبل ١٣٠

فوقفت حتى ٩٥

فوقفت حتى ضج ٩٥

فى الذاهبين ٧٩

فى كل يوم ١٢٣

فيفرح محزون ٥٦٢

(ق)

قالوا تقيم ٥٠٣

قد طال ٥٦

قد كنت ٥٧

قد يدرك ٢٣٩

قف بالديار ٨٨

قل ما بدا ٢٤٧

قلت للفرقدين ٦٤

(ك)

كأنك لم يسكنك ٥٦٢

كأنكما والموت ٨٠

كأنى لم أكن ٤٩

لا يرجع ٧٩
 لا يصلح الناس ١٧٤
 لتبك عليه ٢٨٩
 لعل زماناً ٥٦٢
 لعمري لقدما ٢٧٢
 لقد كان ٩٤
 لقد نصحت ٢٣٩
 لكان التعزى ٢٩٠
 لكل اجتماع ٦٤
 لكننت أول ٢٩٤
 لم أجره قط ٢٩٦
 لم أكن من ٤٨٢
 لم تتغير ٦٧
 لم تغن عن ٢٣٩
 لم يهبه ٥٥
 لما أمر الرحمن ٣١١
 لما رأيت ٧٩ ، ٢٢٧
 لَمَثَلْتُهُ لك ٣١١
 ألن أبني ٨٢
 لن يبلغ ٢٤٤
 لن ترجع ٥٤
 لن يسبق ٥٠١
 لنا جلساء ٥٦٧
 لو بعثرت ٧٤
 لو تركنا وذاك ٥٦٤
 لو كان حبك ١٢٣
 لئن عجزت ٣١١

كأنى بهذا ٨٩
 كدود كدود ٩١
 كسوتنى حلة ٢٧٠
 كفى حزنا ٦٥
 كلاهما خلق ٢٤٩
 كم أنتم ٦٧
 كم للحوادث ٩١
 كم صفين ٦٤
 كم قد وقفت ٨٨
 كما لا يتم ٢٤٧
 (ل)
 لا الفقر عار ٢٦٢
 لا تبخلن ٥٥٧
 لا تحقرن شبيبا ١٨٩
 لا تزهد الدهر ٢٧٠
 لا تشرب الراح ٣٢٩
 لا تكثر الشكوى ٢٨٩
 لا ترج شيئا ١٥٤
 لا تصلح الناس ٣٣٠
 لا تنه عن خلق ٣٣٠
 لا تيأسن وإن ٢٨٣
 لا شئ مما ٢٣٩
 لا مراة ابني ٥٧
 لا نلت خيرا ٥٠٣
 لا يخرج الغريق ٢٨٩
 لا يدوم البقاء ٦٤

ن

ناداهم صارخ ٥٦
الناس يهدون ٣٧
نخاف أن ٢٥٥
نزلوا بأنقرة ٥٦
نسير إلى ٦٦
نُضِرَ الله ٢٦٢
نعم إذا رعيت ٣٠٧
نم للخطوب ٢٨٤
ننافس من ٧٧

(هـ)

هذا الهوى ٢٩٨
هذى منازل ٧٥
هذى منازل أقوام ٩٤

(و)

وأبناء أملك ٥٦٢
واحبيب حبيبك ٥٠٧
وإذا النفوس ٧٣
وإذا أوهنت ٤٤
وإذا بغى ٢٢٦
وإذا تصبك ٢٨٢
وإذا خشيت ٥٠١
وإذا سمعت ١٧٤
وأذكر أياماً ٣١٠
وأرتك قبرك ٦٣
وأسفى من ٦٧

لى حيلة ١٧٤

ليالى هشام ٥٦٢

ليت شعرى ٨٤

ليس الشفيح ٣٤١

ليس الهوى ٢٩٨

ليس فيما ٧٣

(م)

مازال يظلمنى ٤٢٠

مازلت فى البذل ٢٢٧

مازلت فى العفو ٢٢٧

مازلت تلقح ٣٣٠

ما قرت ٥٧

ما لك إلا شئ ٢٦٢

متى ازددت ٣٠٨

مخافة أن يشكو ٢٨٨

مع عزوف ٨٣

مقيم بالحجون ٤٩

مقيم على ٨٠

ملأت يدى ٢٦٨

من رآنا ٦٧

من كان ٧١

من كان بينك ٧٤

من كان لا ٧٤

من كان يخلق ١٧٤

من يهن يسهل ٢٤٢

الموت حق ٥٧

وأنت زنيم ٤٢٦	واستنزلوا بعد ٥٦
وأنت هوى ٢١٩	وأصرف عن ٥٠١
وآنستهم حسنات ٥٦٣	واعتلج الناس ٢٥٥
وأنتك قد ٢٤٦	واعلما أن ٦٥
وأنه بين ٧١	وأكرم شافع ٤٠١
وأنى أحب الخلد ٢٧٠	وأكرم من يدق ٤٠١
وإنى أمرؤ ٢٧١	والبر سابعها ٢٠٦
وإنى رأيت ٢٧١	والعلم ثالثها ٢٠٦
وإنى لمشتاق ٢٢٠	والعين تعلم ٢٠٦
وبيتى حيث ٥٦٥	والمزن والمدن ٦٧
وبح باسم ٣٢٨	والموت يأتى ٦٩
وبين يدى ٧٨	والناس أكيس ١١٩
وبينا نسوس ٧٠	والناس ألف ٤٧٩
وتارك مالى ٥٧	والنفس تعلم ٢٠٦
وتبين رب ٥٥	وأما الذى دونى ٢٤٣
وتجرى الليالى ٧٧	وأما الذى مثلى ٢٤٣
وتكلمت عن ٦٣	وأمره بالبخل ٢٧١
وتلتها قوارع ٤٤٢	وإن افتقادی ٦٤
وتلفت عيني ٩٥	وإن الذى ٢٨٦
وجهل ردناه ٢٤٤	وإن تولت ٥٥٧
وحسن لى ٢٩٠	وإن صرح ٥٦٤
وخير الأمر ٢٣٩	وإن ضاق ٥٦٤
ودع عنك ٤٠١	وإن ضيع الأقوام ٢٩٥
وذاك أقل ٤٩	وإن عاتبت ٢٩٧
وراعى الشاه ١٢٨	وإن عدت ٥٦٤
ورأيت قومی ٧٩	وإن كبير القوم ١١٤
ورأيته أسدى ٤٢٠	وأنا لفى ٧٧

ولا تنطق بسرك ٢٩٧	وربما نيل ٢٨٤
ولا يتأسن الدهر ٥٠٧	وروضك مرتاد ٥٦٢
ولا خير فى جهل ٢٥١	وسبيل النجاة ٦٠
ولا خير فى حلم ٢٥١	وسرك ما كان ٢٩٧
ولا شك أن الصبر ٢٨٣	وسالمتك الليالى ٤٧
ولا شئ يدوم ٣٨٠	وصار عميد ٨١
ولا قرار على ٣١٣	وصروف الدهر ٦٧
ولا وجبت على ٢٦٨	وطلبت لى ٩٥
ولا يبعث الأحزان ٢٨٩	وعاذلة تخشى ٢٧٠
ولربما انقلب ٦٣	وعظمتك أجدات ٦٣
ولعمرى ٦٥	وعلى النصوح ٢٣٨
ولقد تشكو ٨٩	وعوضت أجراً ٢٨٣
ولقد تقطع ٩١	وغدوت ذا ٤٢٠
ولقد سألت ٥٠	وفى الشئ ٢١٨
ولقد علمت ٥٥	وقال أخاف ٥٠١
ولقد مررت ٩٥	وقال على فى ٢٨٢
ولقد نادى	وقام علمك ٢٥٦
ولقد وقفت على ٩٥	وقينا بفضل ٢٩٠
ولكن أداويه ٢٢١	وكانت من حياتك ٦٥
ولكن قد أتانى ٢٣٨	وكانما الإحسان ٤٢٠
ولكن وجدناها ٢٩٠	وكذاك الدهر ٧٦
ولكنه ساكن ٣١١	وكذا للكرب ٤٦٥
ولم أمثل ٦٦	وكم من ذلة ٧٨
ولو أن ٧٨	وكما تبلى ٨٤
ولو شاء أجنى ٤٩٧	وكتمانك السر ٢٩٧
ولو قدرت على ٢٩٤	وكيف الصبر ٢٨٧
ولو نلتها ٥٢	ولا أرى ٥٣

ياشعنا ٦٣	ولى عرس جديد ٣٦٥
يا شفيق ليس ٨٤	وليس يتم ٢٤٧
يا ملك طاعة ٢١٣	وما أقبح ٦٦
يا من ألح ٢٨٤	وما بك ٢١٩
يخيب الفتى ٥٠٠	وما تنفع الأيام ١٩٥
يدعو وجل ١٥٩ ، ٣١٤	وما ساد فينا ٣٩٢
يسعد فى ٥٧	وما سمى الإنسان ٥٠٨
يسعى عليك ٧٣	وما سقطت ٣٩٢
يسود أقوام ٢٤٤	وما كل ذى ٣٩٢
يظن الناس ٧٨	وما لى أن أكون ٢٣٨
يفيد علما ٥٦٣	ومعصية الشفيق ٢٣٩
يفيدوننا من ٥٦٧	ومن الرزية ٣٠٩
يقاس المرء ٢١٨	ومن حكم ٥٦٤
يقدر السلوقي ٤٧٢	ومن كتبت ٥٠١
يكون له عندى ٩٥	ومن يأمن ٩٥
يمثل ذو اللب ٢٨٩	ومن يربط الكلب ٣٩٧
يهدون ما ٣٧	ونم نومه ٢٨٦
	ووسع صدرى ٢٩٠
	ويحفظ ٥٦٣
	ويحك يا أسماء ٥٧
	ويحلها من كان ٢٨٦
	ويشتموا فترى ٢٤٤
	ويعنى الشكوى إلى الله ٢٨٦
	ويعنى الشكوى إلى الناس ٢٨٠
	يا أيها الرجل ٣٣٠
	ياخذ إنك ٦٩
	ياذا الذى ٢٩٦

(أ)

إتحاف السادة المتقين ٨١، ٢٢٣، ٢٨٥

الأحاديث الضعيفة والموضوعة ١٤١، ١٤٢

٢٠٤

أخبار معروف الكرخي ٤٠٧

الآداب ٣٦٢

الأدب ٢٢٥

أدب الدنيا والدين ١٧٢

الأدب الكبير ٤١٢

الاستيعاب ٤١٢، ٤٣٦

أسد الغابة ٣٥٥

الأسرار ١٩٩

أسماء الخيل ٥١٣

الإصابة ٢٢٥، ٢٦٨، ٤١٢، ٤١٣

الأصمعيات ٧٢

الأعلام ٥٤، ٤٧، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٢، ٦٤

٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٨، ٨٠

٨١، ٨٢، ٨٦، ٨٩، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦

٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦

١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٥، ١١٦، ١١٧

١١٨، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٢

١٣٣، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٩، ١٧١، ١٧٢

١٨٠، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٧، ١٩٤، ٢٠٣

٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١١، ٢١٥، ٢١٦

٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٢٦

٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٣٩

(ب)

البداية والنهاية ٨٠، ١١٠، ١١٦، ١١٧

١٨٧، ٢٤٤، ٢٣٥، ٣٢١، ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٥٣

٣٦١، ٣٦٤، ٣٨٦، ٣٩٤، ٤٢٢، ٤٥٥

بغية الرائد ١٣٠

بغية الطلب فى تاريخ حلب ٤٨٦

البيان والتبيين ٧٦ ، ١١٨ ، ٥٦٠

(ت)

التاج ١٥٢ ، ٢٣٤

تاج العروس ٦٦ ، ٥٥٤

التاريخ ٤٢١

تاريخ الإسلام ٤٧٦

تاريخ الخلفاء ٤٩

تاريخ بغداد ٦٧ ، ٢٢٠ ، ٢٦٥

تاريخ مدينة دمشق ٦٩ ، ٨١ ، ٩٧ ، ١٠٥

١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ٢٢٤ ، ٤٤٨

تاريخ واسط ٤٣٧

تخريج الأحاديث والآثار ١٥٦ ، ٢٠٤ ، ٥٠٧

الترغيب والترهيب ٩٦ ، ١٣٥ ، ٢٢٣ ، ٤١٩

٤٢٩

التفسير ٤٦٠

تفسير الثعالبي ٩٨

تفسير الطبراني ١٥٦

تفسير القرآن ٤١٨ ، ٤٤١ ، ٤٦٠

تفسير القرآن للقرطبي ٤٠٣

تفسير ابن كثير ٢٧٣ ، ٣٥٣

تقريب التهذيب ١٣٤ ، ٢١٢ ، ٣٩٧

التمهيد ٤١٩

تهذيب الكمال ١٠٥

تهذيب التهذيب ٥٣ ، ٥٨ ، ١٠٠ ، ١٠٦

١٤٢ ، ١٣٢

تهذيب تاريخ دمشق ٢٢٤

تهذيب مستر الأوهام ٤٦٢

التوراة ٢٥٤ ، ٤١٥

التيسير فى شرح الجامع ٩٤

(ث)

(ج)

الجامع ٤٣٩

جامع الأصول ٤٠٤ ، ٤١٦ ، ٤٩٩ ، ٥٣٥

الجامع لأحكام القرآن ٢٠٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٤

٣٨٥ ، ٤٠٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥

الجامع الصغير ٤٦ ، ٤٧ ، ٧٥ ، ٩٠ ، ١٠٧

١١٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣

١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٥٩

١٦٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٨

٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٠٢ ، ٣٢٦

٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٨٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٨ ، ٤١٠

٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٤٢ ، ٤٥٤

٤٨٢ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦

جاويدان خرد ٢٧٩

الجد الحثيث ١٨٧

جمهرة الأمثال ٥٥٤

جمهرة أنساب العرب ١٧٣ ، ١٨٥ ، ٢٧٤

جمهرة خطب العرب ١١٤ ، ٥٥٥

(ح)

حلية الأولياء ٤٥، ٤٦، ٩٤، ١٠٥، ١٠٩،
١١٧، ١٢٠، ٢٢٤، ٢٦٥، ٢٨١، ٣٠٧،
٣٦٩، ٤٠٦، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٣٧، ٤٥٤
الحماسة البصرية ٦٧، ٥٦٣

(خ)

(د)

الدعوات ٩٠

الديباج المذهب ٤٥٨

ديوان الشريف الرازي ٩٥

(ذ)

(ر)

(ز)

الزهد ٤٦، ٩٠، ٢٥٩

(س)

سراج الملوك ٣٧

سنن أبو داود ١٢٤، ١٣٣، ١٤٨، ٣٢٣، ٣٢٤

٣٤٩، ٣٩٩، ٤٠٣، ٤٢٨

سنن البيهقي ١٣٢، ٢٧٣، ٤٠٦، ٥٣٥

سنن الترمذي ٤٦، ٤٧، ١٣٥، ١٤٨، ٢٧٧

٢٨٠، ٣٢٣، ٣٨٠، ٣٨٥، ٤٠٤، ٤٢٨

السنن الصغرى ٣٦٢

السنن الكبرى ٣٦٢

سنن ابن ماجه ٤٦، ٤٧، ١٣٣، ١٤٨، ٢٨٠

٣٦٧، ٣٢٣

سنن النسائي ٢٧٧، ٢٨٠، ٣٨٠، ٣٨٥

السنة ٤٦٠

سير أعلام النبلاء ٤٩، ٦٩، ٧٤، ١٠٥، ١٢٦

١٨٧، ٣٦٤، ٣٩٢، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤٠٩

٤١٥، ٤١٨، ٤٢٠، ٤٢٦، ٤٥٥

السيرة النبوية ١٥٨، ٤٣٦

(ش)

شذرات الذهب ١٢٢

شرح الجامع الصغير ٩٠، ٩٤

شرح السنة ٤٦، ٩٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٥

٢٣٧، ٢٣٨، ٢٧٧، ٢٧٨، ٣٠٣، ٤١٨

شرح نهج البلاغة ٥٢

شعب الإيمان ٤٦، ٩٧، ١٥٦، ٢٠٨، ٢٢٤

٢٢٥، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٧١، ٣٠٢، ٣٢٦

٣٦٢، ٤٠٦، ٤١٣، ٤٢٢

الشمال ٢٢٤

(ص)

صحيح البخاري ٤٧، ١١٧، ١٣٩، ١٥٨

٢٥٩، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٣٢٣، ٣٨٥

٤٢٨، ٤٠٤

صحيح مسلم ٤٦، ١١٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٥

١٣٩، ١٥٨، ١٧٣، ٢٥٤، ٢٧٣، ٢٧٧

٢٧٨، ٢٨٠، ٣٢٣، ٣٨٠، ٣٨٥، ٤٠٣

٤٠٤، ٤١٥، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٢، ٤٣٧

٤٥٤، ٤٩٥

صفة الصفوة ١٠٥، ٤٠٦

(ض)

الضعفاء ٥٠٧

(ط)

طبقات ابن سعد ٤٥ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٣٠

طبقات الصوفية ٤٠٦ ، ٤٠٧

طبقات المفسرين ٤٢٩

(ظ)

(ع)

العقد الفريد ٢٢٧

عمدة القارى ١٨٤

عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء ٤٥٧

(غ)

غوامض الأسماء ٩٢

(ف)

فتح البارى ٢٧٨ ، ٤٣٦ ، ٤٤١

فتوح البلدان ٢٧٤

فضائح الباطنية ١٨٧

فوات الوفيات ٢٦١

فيض القدير ٩٠

(ق)

قصص الأنبياء ٢٨٩ ، ٣٠٩ ، ٣٥٦ ، ٤٤٢ ، ٤٤٦

(ك)

الكامل فى التاريخ ٣٦٤ ، ٤٣٦ ، ٤٨٦ ، ٥٠٥

٥١١

كشف الخفاء ٢٠٤ ، ٣٠٦ ، ٤١٣ ، ٤٦٨ ، ٥٣٥

كشف الظنون ٥٠٥ ، ٥٢٢

كليلة ودمنة ١٦٦ ، ٢١١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨

كنز العمال ١٠٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٨٧

٢٠٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨

٢٨٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٢٨

٤٣٥ ، ٤٣٧

(ل)

اللباب فى تهذيب الأسماء ٢٦٥

لسان العرب ٥٥ ، ٦٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ١٧٧ ، ٢٩٠

٣٧٢ ، ٣٩٦ ، ٤٤٠ ، ٤٥١ ، ٥٠٣ ، ٥٠٨

٥٥٦ ، ٥٦٠

(م)

المجالسة وجواهر العلم ٤٩ ، ٧٠ ، ٨١ ، ١١٠

مجمع الأمثال ٥٥٦

مجمع الزوائد ١٣١ ، ٤٣٦

محاضرات الأدباء ٢٨٠ ، ٥٦٤

المحبر ٤٣١

المحلى ٥٦٤

محنة الصوفية ٢٦٥

مختار الصحاح ١١٢ ، ٤٦٧

مختصر تفسير ابن كثير ١٩٥ ، ٢٤١

المدونة الكبرى ٨٣

- المستدرک ٤٦، ٩٦، ١٣٢، ١٣٣، ٢٧١، ٣٩٧، ٤٠٣، ٤٤٢، ٤٥٤، ٤٩٦
- المستطرف فی کل فن مستطرف ٨٨، ١٥٦، ١٧٤، ٢٨٠، ٤٧٦
- المسند ٤٧، ١٠٦، ١٢٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٢، ١٣٥، ١٤٨، ١٨٤، ٢٦٨، ٢٧٣، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٥، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٦٩، ٣٩٩، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٢٢، ٤٢٨، ٤٩٦
- مسند الديلمي ٤١٣، ٤٢١، ٤٢٨
- مسند الشهاب ٩٧
- مسند الفردوس ٩٠، ٩٤، ٩٨، ١٤١، ٣٢٦، ٤٢١
- مسند أبو يعلى ١٣١، ٢٧٤، ٢٧٨
- مشاهير الإسلام ٣٦٣
- مصرع التصوف ٢٨٩
- المطالب العالية ٢٠٦
- مع الأنبياء فی القرآن الكريم ٤٤٩
- المعارف ١٦٣، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٨٢، ١٨٦، ٢٩٤، ٣٣١
- معجم الأدباء ٢٨٤
- معجم الألقاب ٥٥
- معجم الأوسط ١٣١، ١٤٢، ١٤٨، ٢٥٩، ٤١٠، ٤١٨، ٥٣٥
- معجم البلدان ٥٦، ٥٨، ٥٩، ٦٥، ٦٨، ٧٩، ٣٥٢، ٣٥٥، ٣٦٤، ٤٦٦، ٣٧٦، ٤٨٣، ٤٨٨، ٥٦١
- المعجم الكبير ١٤٢، ٢٦٨، ٢٧٤، ٢٧٨
- المعجم الوسيط ١٢٢
- معرفة الثقات ٧٥
- المغنى ٤٧
- مفاتيح الغيب ١٨٧
- المقنع فی علم الحديث ٥٠١
- الملخص ٢٧٨
- الملل والنحل ٥٦٤
- المنتظم ١٠٥
- المنتقى ٥٧
- المنجد فی الأعلام ٦٥، ٨٣
- المنجد فی اللغة والأعلام ١٨٠، ٣٥٣
- الموسوعة الفلسفية ٩٢
- الموطأ ٥٧، ٢٦٣، ٢٧٧، ٤٠٤، ٤١٩، ٤٣٧
- موطأ ابن وهب ٤٣٧
- الموطأ الصغير ٤٣٧
- الموطأ الكبير ٤٣٧
- (ن)
- ناسخ الحديث ٤٦٠
- النجوم الزاهرة ٤٧٨
- نصوص الشافعي ٣٦٢
- نفح الطيب ٤٨٥
- نهج البلاغة ١٩٧، ١٩٨
- (هـ)
- الهواتف ٧٥

(و)

الوافى بالوفيات ٤٦ ، ٧٦ ، ١١٥ ، ٢٢١ ، ٤٥٨

٥٢٥

وفيات الأعيان ٥٠ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٩٥ ، ١١٨ ،

١٢٢ ، ٢١٣ ، ٢٣٠ ، ٢٤٤ ، ٣٥٨ ، ٤٢٠ ،

٤٨٥

(ى)

اليتيمية ٥٦٣

فهرس محتويات الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء	٦
مقدمة المحقق	٢٥-٧
وصف نسخ التحقيق- عمل المحقق فى الكتاب أبو بكر الطرطوشي- تعريف- هذا الكتاب	
صور المخطوطات والمطبوعات	٢٦
خطبة الكتاب	٣٣
الجزء الأول من الكتاب	٢٩٠-٤٣
من الباب الأول إلى الباب الثاني والثلاثين	
الجزء الثاني من الكتاب	٥٦٧-٢٩١
من الباب الثالث والثلاثين إلى الباب الرابع والستين	
مراجع الكتاب	٥٦٩
الكشاف العام - فهرس	٦٤٥-٥٨٥
الأعلام- البلدان والأماكن- القبائل - الآيات القرآنية الأحاديث النبوية- الأشعار- الكتب الواردة فى النص.	



رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

سيرة الملوك

الاسم الكامل

أبي بكر محمد بن محمد الوليد المهدي الطرطوشي المالكي

هذا الكتاب

كتاب في السياسة والإدارة . جمع فيه الطرطوشي - يرحمه الله - أحسن ما انطوت عليه سيرة الأنبياء والحكماء والملوك والخلفاء . والعلماء والأدباء والصالحين والأولياء . من آثار وحكم وآداب ومواعظ وحكايات ونوادر . وأشعار وقصص ... تجد بين طياته مواعظ للملوك والسلاطين . ونصائح للولاة والقضاة . وصفات للوزراء والجلساء وما يصح به الأمير والرئيس والمرؤوس وما يشترط في صحبة السلطان وغير ذلك في ما يدخل في باب الأدب والإدارة . والأخلاق والسياسة ... إنه كتاب من أمتع الكتب وأجودها في بابها . وكما قال مؤلفه - يستغنى بدراسته الحكيم عن مباحثة الحكماء والملوك عن مشاورة الوزراء . فلم يسمع به ملك إلا استنصحه . ولا وزير إلا استصاحبه . ولا رئيس إلا استؤسده حصن لمن تحصن به من أولى الأمر وجمال لمن تحلى به من أهل الأدب .

ISBN 9680-810-01-1



7 89660 810013